www.bustaneketab.com



أساليب البديع في القرآن

السيد جعفر السيد باقر الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

اساليب البديع

في القرآن

موضوع:

علوم قرآن: ۱۲۸ (قرآن: ۲۳۲)

گروه مخاطب:

- تخصصی (پژوهشگران و اساتید حوزه و دانشگاه)

شماره انتشار کتاب (چاپ اول): ۱۵۵۴

مسلسل انتشار (چاپ اول و بازچاپ): ۳۵۵۳

حسینی، جعفر، ۱۳۲۳ -

اسالیب البدیع فی القرآن / السید جعفر السید باقر الحسینی . ـ قم: مؤسسة بوستان کتاب (مرکز الطباعة والنشر التابع لمکتب الإعلام الإسلامي)، ۱٤۲۹ ق . = ۱۳۸۷ ش.

[۹٥٦] . ـ (مؤسسه بوستان کتاب؛ ۱٥٥٤) (علوم قرآن؛ ۱۲۸ . قرآن؛ ۲۳۲)

ISBN 978 - 964 - 548 - 906 - 7 :۱۲۰۰۰۰ ریال

فهرست نویسی براساس اطلاعات فیپا.

ص . ع . به انگلیسی: Al-Sayyid Jafar al-Sayyid al- Husayni. Figures of Speech in the Quran

کتابنامه: ص . [۹۲۱] ـ ۹٤٤؛ به صورت زیرنویس.

نمایه.

۱. قرآن ـ مسائل ادبی ـ بدیع. ۲. زبان عربی ـ بدیع. الف. دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیّهٔ قم. مؤسسه بوستان کتاب. ب. عنوان.

۵۲ الف ۵ ح / BP ۸۲ — ۲۹۷/۱٥۳

[۵۲ الف ۵ ح / ۲۰۳۸ PJA] — ۸۰۸/۰٤۹۲۷

۱۳۸۷

اساليب البديع

في القرآن

السيّد جعفر السيّد باقر الحسيني







اساليب البديع فى القرآن

● المؤلف: السيد جعفر السيد باقر الحسيني
● الناشر: مؤسسة بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)
● المطبعة: مطبعة مؤسسة بوستان كتاب ● الطبعة: الاولى / ١٤٢٩ ق، ١٣٨٧ ش
● الكمية: ١٥٠٠ ● السعر: ١٢٠٠٠ تومان

printed in the Islamic Republic of Iran

✔ العنوان: قم، شارع شهداء (صفائيه)، ص ب ٩١٧، الهاتف: ٧ ـ ٧٧٤٢١٥٥، الفاكس: ٧٧٤٢١٥٤، الهاتف: ٧٧٤٣٤٢٦
✔ المعرض المركزي (١): قم، شارع شهداء (بتعاون أكثر من ١٧٠ ناشر يعرض اثني عشر ألف عنواناً من الكتب)
✔ المعرض الفرعي (٢): طهران، شارع فلسطين الجنوبي، الزقاق الثاني (بشن)، الهاتف: ٦٦٤٦٠٧٣٥
✔ المعرض الفرعي (٣): مشهد المقدّسة، تقاطع خسروي، مجمّع ياس، الهاتف: ٢٢٣٣٦٧٢
✔ المعرض الفرعي (٤): أصفهان، تقاطع كرماني، گلستان كتاب، الهاتف: ٢٢٢٠٣٧٠
✔ المعرض الفرعي (٥): أصفهان، ساحة انقلاب، قرب سينما ساحل، الهاتف: ٢٢٢١٧١٢
✔ التوزيع: بكتا (توزيع الكتب الإسلامية والإنسانية) طهران، شارع حافظ، قرب تقاطع كالج، بداية زقاق بامشاد، الهاتف: ٨٨٩٤٠٣٠٣
✔ وكالات بيع كتب المؤسّسة في البلد وخارجه (المنضمّ إلى ورقة الاستطلاع للآثار في نهاية الكتاب)

البريد الالكتروني: E-mail:bustan@bustaneketab.com
استلام الرسالة (SMS): ١٠٠٠٢١٥٥

الآثار الحديثة في المؤسّسة والتعرّف إليها في «وب سايت»:
http://www.bustaneketab.com

مع جزيل الشكر والتقدير لجميع الزملاء الذين ساهموا في استخراج هذا العمل منهم:
● أعضاء لجنة دراسة الإصدارات ● أمين لجنة الكتاب: جواد آهنگر ● المنقّح: ولى قربانى ● الملخص العربي: سهيله خاتنى ● الملخص الإنجليزي: مريم خاتنى ● فيپا: مصطفى محفوظى ● التصحيح والتنضيد و تنظيم صفحات الكتاب: احمد اخلى ● مراقبة التطبيق: محمد جواد مصطفوى ● المراقبة الفنّية لتنظيم صفحات الكتاب: امير حسين مقدم‌منش ● الإشراف والمراقبة: عبدالهادى اشرفى ● تصميم الغلاف: امير عباس رجبى ● الاعداد: مهدى مظفرى ● طلبات الطبع: على عليزاده وبقية الزملاء ● شؤون الطباعة: مجيد مهدوى وبقية الزملاء في قسم الليتوغرافيا، الطباعة والتجليد.

● رئيس المؤسسة
السيد محمد كاظم الشمس

الفهرس الإجمالي

المقدّمة

البديع: من العلوم التي نشأت بعد الإسلام ـ في زمن متأخّر عن العلوم اللّغوية على الأغلب ـ خدمة للنصّ القرآني، ومن هنا ظهر المعنى الاصطلاحي للفظه، حيث انتقل ليدلّ على هذا العلم المخصوص[1].

واختلف البلاغيون والنقّاد في نشأة «البديع»، فمنهم: من يرى أنّ الموالي هم مخترعو فنونه ومبتدعوه، وقال آخرون: إنّ البديع مقصور على العرب فقط.

ولكنّ التحقيق أنّ البديع موجود في كلّ لغة، ولاتخلو لغة من اللّغات من ألوانه، وأنّ علماء العربيّة كانوا يضعون اللّغة العربيّة موضعاً عالياً لاترقى إليه لغة أُخرى، فنراهم يؤكّدون أنّ ما آتته العربية لم تؤته لغة غيرها[2].

ويبدو أنّ مسلم بن الوليد (ت٢٠٨ هـ.ق) هو الذي أطلق اسم البديع على تلك الفنون لأوّل مرّة[3]، وقد أكثر منه الشعراء بعده، وفي مقدمتهم أبو تمام (ت ٢٣١ هـ.ق)، وابن الرومي (ت٢٨٣ هـ.ق)، والبحتري (ت ٢٨٤ هـ.ق)، وعبد اللّه ابن المعتزّ (ت٢٩٦ هـ.ق).

---

١. اُنظر: علم البديع، د. عبدالرزاق أبوزيد، ص١٤.

٢. المصدر، ص١٥.

٣. الأغاني، ج١٨، ص٢١٥.

والواقع أنّ العرب لم يكونوا يتكلّفون البديع؛ إذْ امتاز شعرهم بإرساله على حسب مااقتضته بلاغتهم الفطريّة بدون تكلّف، وبدون مراعاة لماتستدعيه الصناعة البديعية، فلم يتعمّدوا جناساً، ولم يتكلّفوا طباقاً، ولم يقصدوا التورية، ولم ينقّبوا عن غرض من الأغراض البديعيّة التي نعرفها في وقتنا الحاضر، ولم يفتّشوا عن خفاياها، وماوقع لهم من ذلك فإنّما كان عفواً لاأثر فيه لتعمّل، ولا لتكلّف، خلا البعض من سجع الكهّان[1].

يقول الجاحظ: «وكلُّ شيء للعرب فإنّما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهام، وليست هناك معاناةٌ، ولامكابدةٌ، ولاإجالةُ فكر، ولااستعانة، وإنّما هو أن يصرفَ وهْمَهُ إلى الكلام، وإلى رجزِ يومِ الخصام... أو عند المقارعةِ، أو المناقلةِ، أو عند صِراعٍ، أو في حربٍ... فتأتيهِ المعاني إرسالاً، وتنثال عليهِ الألفاظ إنثيالاً... [وكانوا] مطبوعين لايتكلّفون، وكان الكلام الجيّد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكلّ واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع...»[2].

فالشعر العربي انتهى إلى المحدّثين ـ في أوائل القرن الثّاني الهجري ـ صحيحاً سالماً في مبانيه، قوياً في عباراته، جزلاً في تراكيبه، محكماً في نسجه، واضحاً في معانيه، ولاتزال تستشفّ فيه روح البداوة القديمة في المنهج، والصياغة، والطابع، والخيال، وعدم القصد إلى البديع إلاّ ما جاء عفو الخاطر، وممّا يستدعيه المعنى استدعاءً قويّاً، ويطلبه طلباً ملحّاً، وكانت تلك الحليّ عند الإسلاميّين كما كانت عند أسلافهم الجاهليّين فطرة سمحة، فإذا وقعت في النظم على هذا النحو وأكسبته الروعة، وألبسته ثوب البهاء.[3]

لقد ازدهرت الثقافة واتّسع الاهتمام بالمسائل البلاغيّة بعد نزول القرآن؛ لكونه معجزة الدين الجديد، ودلالة على صدق الرسولﷺ، فحوفظ على سلامة الذوق

١و٣. علم البديع، ص١٩.

٢. البيان والتبيين، ج٣، ص٢٨.

العربيّ الأصيل الذي بدونه لايُتمكّن من فهم القرآن الكريم، وتذوق عناصر الجمال فيه، فأخذ العلماء يتتابعون واحداً إثر واحد يطوّرون تـلك المـلاحظات البـلاغيّة والبديعيّة، ويوضّحون مصطلحاتها، ويفرّعونها فروعاً، ويؤصّلون مناهجها، وفـيما يلي متابعة سريعة لحركة علم البديع وتطوّرها على يد كلّ واحد منهم:

أبو عبيد بن المثنّى (ت٢٠٧ هـ، ق):

ويبدو أن أوّل من تطرّق إلى بعض المسائل البديعيّة هو أبو عبيدة بـن المـثنّى صاحب كتاب مجاز القرآن، فكشف عن بعض المسائل البديعيّة، والتي تعتبر مهمّة في تكوين البلاغة التعليميّة؛ لأنّها تمثّل الطّور الأوّل في نشأتها.

ومن أغراض البديع التي ذكرها الرجوع. فقد قال الباقلاني[١]: «إنّ أباعبيدة كـان يقول عن امرئ القيس في بيته:

وإنّ شِـــفائي عَـــبْرَةٌ مُـهْراقــة ... فَهَلْ عِنْدَ رسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ[٢]»

إنّه رجع فأكذب نفسه، كما قال زهير:

قِفْ بـالدِيارِ التـي لم يَـعْفُها القِـدَمُ ... بــلى وَغَـيَّرها الأرواحُ والدِيَـمُ[٣]

وتنبّه إلى الالتفات، وإنْ لم يضع له الاسم الاصطلاحي، وتكلّم حوله كثيراً، وعدّهُ

---

١. إعجاز القرآن، ص١٦١.

٢. مهراقة: مصبوبة، العبرة: الدمعة، والمعنى: إنّ شفائي ممّا بي وما أُقاسيه دمعة تراق وتصبّ في ديار الأحبّة، ثـمّ استدرك وقال: لايوجد ملجأ ومعتمد؛ إذ لا فائدة من البكاء في ديار الأحبّة الذاهبة آثارها، ولا طائل في البكاء في هذا الموضع؛ لأنّه لا يردّ حبيباً، ولايُشفي قلباً من وجده. والنكتة فيه: إظهار الكآبة والحزن.

٣. البيت مطلع قصيدة يمدح بها هرم بن سنان، لم يعفها: لم يمحُ آثارها، والأرواح: جمع ريح، الديم: اسـم جـنس واحده ديمة، وهي المطر الدائم في سكون بلا رعد ولا برق.

والشاهد في البيت: الرجوع عن الكلام السّابق، وهو أنّ الديار لم يعفها القدم، بأن أثـبت ذلك ثـمّ رجـع وقـال: وغيّرتها الريح والديم. والنكتة فيه: إظهار التحسّر، كأنّه أخبر أوّلاً بما لم يتحقّق، ثمّ رجع إليه عقله وأفاق فنقض كلامه السّابق.

أُنظر: الوساطة، ص٤٤٢؛ الإيضاح، ص٢٦٦؛ سرّ الفصاحة، ص٢٨٣، معاهد التنصيص، ج٢، ص٢٥٧.

من المجاز، يقول: «ومن المجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم تُركت وحُوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[١] أي بكم».

وممّا جاء خبراً عن الغائب ثمّ خوطب الشاهد: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۞ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[٣].

ذلك الكتاب معناه هذا القرآن، وقد يخاطب العربيّ الشاهد، فتظهر له مخاطبة الغائب، قال خفاف بن ندبة:

وإنْ تَكُ خَيلي قَدْ أُصيبَ صَمِيمُها فَعَمْداً على عَيْني تَيَمَّمْتُ مالِكا
أقولُ له والرُمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خُفافاً أَنَّني أنَا ذلِكا[٤]

لقد كان أبو عبيدة يستخدم لفظة «المجاز» بمدلول يتّسع كثيراً عن مدلولها الاصطلاحي المقابل للحقيقة الذي اقترن بها فيما بعد. فالمجازات عنده تنصرف إلى معاني الألفاظ أو العبارات تارةً، وإلى وجوه الصياغة أو طرائق التعبير تارةً أُخرى، أمّا الغاية التي تَتَبّع من أجلها أبوعبيدة مواطن المجاز ـ بهذا المفهوم الواسع ـ في لغة القرآن الكريم، فهي التدليل على أنّ البيان القرآني المعجز لم يحدّ في معجمه أو في أساليبه عن سنن العربيّة في التعبير والبيان، وعلى أساس تلك الغاية اقتصر تناوله لألوان البديع على مجرّد الإشارة إليها والاستشهاد لها بما ورد على نهجها في الشعر العربي، فهو لا يستهدف سوى البرهنة على أنّ كلّاً منها إنّما هو مسلك تعبيري له

---

١. يونس: ٢٢.

٢. القيامة: ٣٣ و ٣٤، أُنظر: مجاز القرآن، ج ١، ص ١١.

٣. البقرة: ٢.

٤. أُنظر: مجاز القرآن، ج ١، ص٢٨. يأطر: يثني ويعطف. معناه: تأمّل خُفافاً أنّني أنا هو. والبيتان في الشعر والشعراء، ج ١، ص٢٥٩؛ الأغاني، ج ٢، ص ٣٢٩؛ جمهرة أشعار العرب، ج ١، ص١١٦؛ الاستيعاب، ج ٢، ص ٣٣.

نظائره في الشعر العربي، أي أنّه كان معنياً بتبرير الظواهر لا بتحليلها والكشف عن دورها التعبيري في تشكيل المعنى أو تكثيف الدلالة[١].

في حين نرى أنّ العرب أدركوا مباينة القرآن في أُسلوبه لفكرتهم، ومخالف جميع الفنون الأدبيّة المعروفة عندهم، ثمّ تيقّنوا أنّه ليس بأنغام الموسيقى التي تمثّلها الشعر، ولم يكن يشبه سجع الكهّان الذي يلفّ الغموض معناه، وإنّما هو آيات مفصّلة تنتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها.

فالقرآن له نظامه الخاصّ به في عرض أفكاره، وفي ترتيب معانيه بألفاظ مؤتلفة وموضوعة على نسق خاصّ، فتُحدث لحناً متعدّد الأنواع، يتناسق مع الجوّ، ويؤدّي وظيفة أساسيّة في البيان، فقد أعفى التعبير من القيود الثقافيّة الموحّدة، والتفصيلات التامّة، فنال بذلك حريّة التعبير الكاملة عن جميع أغراضه الخاصّة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخليّة، والفواصل المتقاربة التي تعني التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي، وضمّ ذلك كلّه إلى الخصائص.

ولم يتعرّض أبو عبيدة للناحية الإيقاعيّة في نظم القرآن، وللتوقيع الرتيب فيه ممّا جعل له واقعاً معيّناً، وأثراً موسيقياً فعالاً في النفوس، ولا ينفي هذا التجاهل من أبي عبيدة إدراك الناس على عهده لهذه الخاصيّة، ومراعاتهم لرصف الكلام في وحدات صوتيّة تتبع نظاماً رتيباً يساير وقعه العامّ في السورة القصيرة، أو مجموعة بعينها من الآيات[٢].

الفرّاء (ت٢٠٧هـ، ق):

ولاشك أنّ الفرّاء كان يحسّ بهذا النسق القرآني الصوتي، وحاول أن يتتبّعه، ونراه في ملاحظاته التي أوردها مدركاً تماماً لوزن القرآن، ومدركاً الغاية التي عمد إليها

---

١. أُنظر: أسلوب الالتفات، ص٦.

٢. أثر القرآن في تطوّر النقد العربي، ص٦١ و ٦٢.

في التزام وزن بعينه، وهو الترابط بين الكلمات، وانسجام النغم، وتوافق الفواصل في آخر الآيات. فاتّخذ لنفسه منهجاً سار عليه في بيان الأساليب القرآنيّة التي كـانت تُشْكِل على بعض المثقفين الذين يدرسون الأُسلوب البياني للقرآن، وذلك المنهج هو: ردّ الأُسلوب أو التعبير القرآني إلى التـعبير المـألوف، وذلك بـمقارنته بكـلام العرب؛ فقد يجيز النظم القرآني حذف أواخر الكلمات موافقة لرؤوس الآيات مـع موافقة ذلك كلام العرب، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[١].

ذكروا أنّها ليلة المزدلفة، وقد قرأ الفرّاء يسري ـ بإثبات الياء ـ، ويسرِ ـ بحذفها ـ، وحذفها أحبُّ إليه؛ لمشاكلتها لرؤوس الآيات، ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها[٢].

وقوله تعالى: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾[٣] أراد بطغيانها إلاّ أن الطغوى أشكل برؤوس الآيـات، فاختير لذلك. ألا ترى أنّه قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[٤]، ومعناه آخر دعائهم. وكذلك: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾[٥]، أي دعاؤهم[٦] فيها هذا.

و ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾[٧و٨]، يريد: ما قلاك، فأُلقيت الكاف، كما يقال: قدأعطيتكوأحسنتُ، ومعناه: أحسنت إليك، فيكتفى بالياء الأُولى من إعادة الأُخرى؛ ولأن رؤوس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه ... وقوله عزّوجلّ: ﴿فَـَٔاوَىٰ... فَأَغْنَىٰ﴾[٩]، يـراد بـه فـأغناك،

---

١. الفجر: ٤.

٢. معاني القرآن، ج٣، ص ٢٦٠؛ أثر القرآن في تطوّر النقد العربي، ص٦٤ و ٦٥.

٣. الشمس: ٣.

٤و٥. يونس: ١٠.

٦. أُنظر: معاني القرآن، ج٣، ص٢٩٨.

٧. المصدر، ص٢٧٣ و ٢٧٤.

٨. الضحى: ٣.

٩. الضحى: ٦.

وفآواك جرى على طرح الكاف لمشاكلة رؤوس الآيات[١].

ومن الاعتبارات المتّصلة بالنظم التي ذكرها الفرّاء تجاوب الكلمات مع وزن الآية، ومراعاة رؤوس الآيات للنسق. وقد ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٢] أراد جنّة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٣]، فثنّى لأجل الفاصلة، رعاية التي قبلها، والتي بعدها على هذا الوزن.

وللفرّاء في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾[٤] فإنّهما رجلان «قدار» وآخر معه، ولم يقل أشقياها «للفاصلَة»[٥].

ولايوافق الفرّاء على التفسير اللغوي الحرفي للجنّتين، بمعنى «بستانين»، بل يرى ـ كما هو واضح ـ هذه التثنية بمعنى الإفراد، وهو ممّا عدل إليه القرآن مراعاة للنظم، كما يراعى ذلك في الشعر لإقامة القافية.

وتارةً يُسمّى هذا التوافق الصوتي استقامة في القراءة، فيقول: وقوله عزّوجلّ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

الإيعاء: مايجمعون في صدورهم من التكذيب والإثم والوعي، لو قيل: والله أعلم بما يعون لكان صواباً، ولكنه لايستقيم في القراءة، أي لايستقيم مع ماقبله من الآيات[٦]: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾[٧].

ولعلَّ الفرّاء يقصد إلى أنّ لفظ «يعون» لايستقيم مع رؤوس الآيات الأُخرى؛ لأنّه

---

١. معاني القرآن، ج٣، ص٢٧٤؛ أثر القرآن في تطوّر النقد العربي، ص٦٥.

٢. الرحمن: ٤٦.

٣. النازعات: ٤١.

٤. الشمس: ١٢.

٥. أُنظر: معاني القرآن، ج٣، ص٢٦٨؛ والاتقان، ج٣، ص٣٤٢.

٦. معاني القرآن، ج٣، ص٢٥٢.

٧. الانشقاق: ٢٠ـ٢٣.

مفتوح الأوّل دون غيره المضموم الأوّل (يؤمنُون، يكذبون، يُوعُون) ولعلّه ـأيضاًـ يشير إلى الوزن الإيقاعي للكلمة، فهو في «يُوعُون» أكثر اتّفاقاً منه في «يعون»، أو لأنّ «يعون» ينقصها حرف ساكن.

وكذلك يجيز إضافة المصدر إلى صاحبه، مثل ما في قوله تـعالى: ﴿إِذَا زُلْـزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[١].

وكذلك يجعل المفعول به فاعلاً، كقوله تعالى: ﴿خُـلِقَ مِـن مَّآءٍ دَافِـقٍ﴾[٢]، كـقول العرب: «هذا سرٌّ كاتمٌ، وهمٌّ ناصبٌ، وليلٌ نائمٌ، وعيشةٌ راضيةٌ»[٣].

وجاءت على هذه الصيغة لأنّها توافق رؤوس الآيات التي هـي مـنهنّ، فكـأنّ المناسبة بين رؤوس الآي عند الفرّاء أمر مطلوب، محافظة على النظام الصوتي في القرآن، ويرتكب من أجلها تلك الأُمور.

وتعرّض الفرّاء لأُسلوب «المشاكلة» في القرآن دون أن يسمّيها و يقول في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَـا ٱعْـتَدَىٰ عَـلَيْكُمْ﴾[٤]. فـالعدوان مـن المشركين في اللّفظ ظلم في المعنى، والعدوان الذي أباحه اللّه وأمر به المسلمين إنّما هو قصاص، فلا يكون القصاص ظلماً، وإن كان لفظه واحداً.

ومن أهم المسائل البلاغيّة البديعيّة التي عالجها الفرّاء: «الالتفات»، فهو يـحذو حذو أبي عبيدة في عدم التسمية له، ولم يخرج في تناوله عن ذلك النهج الذي سار عليه معاصره أبوعبيدة، غير أنّه لم يقدّم لها ـكما فعل أبوعبيدةـ مصطلحاً واحـداً يحتويها ويلم أشتاتها المتناثرة في كتابه.

ثمّ يقول في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا

١. الزلزال: ١.

٢. الطارق: ٦.

٣. معاني القرآن، ج٣، ص٢٥٥.

٤. البقرة: ١٩٤.

جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[١،٢]: يعني الفلك، فقال: جاءتها، وقد قال في أوّل الكلام: «وَجَرَيْنَ بِهِمْ»، ولم يقل: وجرت، وكلٌّ صواب، نقول: النساء قد ذهبت، وذهبن[٣].

ويقول في قوله عزّوجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾[٤]، رويت عن عليّ بن أبي طالب‌ﷺ «بل تُحِبُّونَ» بالتاء، وقرأها كثيرٌ من القرّاء: «بَلْ يُحِبّونَ» بالياء، والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم[٥].

الأصمعي (ت٢١١ هـ، ق):

وأمّا الأصمعي، فإنّه لم يترك في صيغ التعبير القرآني والأدبي كتاباً مثل كتاب أبي عبيدة، غير أن من جاؤوا بعده أشاروا إلى أنه ألّف في «التجنيس» كتاباً، فقد ذكر ابن المعتزّ أنه ألّف باب التجنيس على السبيل التي ألّف الأصمعي كتاب الأجناس عليها[٦].

وذكر الأصمعي المطابقة في الشعر، فقال: أصلها: وضع الرِّجْلِ موضع اليد في مشي ذوات الأربع، وأنشد لنابغة بني جعدة:

وَخَيْلٍ يُطابقْنَ بالدّارِعينَ طِباقَ الكلابِ يَطَأْنَ الهَراسَا[٧]

---

١. يونس: ٢٢.

٢. معاني القرآن، ج ١، ص١٦٦/١٧٧.

٣. المصدر، ج٢، ص ٤٦٠.

٤. القيامة: ٢٠.

٥. معاني القرآن، ج ٣، ص ٢١١. وقال القرطبي: فمن قرأ -بالياء- فرداً على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ﴾ [القيامة: ١٣] وهو بمعنى الناس. ومن قرأ -بالتاء- فعلى أنّه واجههم بالتقريع؛ لأنّ ذلك أبلغ في المقصود. تفسير الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص ٧٠).

٦. البديع، ص٣٨؛ كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص٣٠٨؛ العمدة، ج ١، ص ٥٦٣؛ وكتاب الأجناس للأصمعي من أقدم الرسائل المؤلّفة في الشعر، وهو مفقود اليوم. (تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ج ٢، ص ١٥١).

٧. شبّه النابغة الجعدي: مشي الخيل بوطء الكلاب الهراش، وهو حطام الشوك. فهي لا تضع أرجلها إلّا حيث رفعت منه أيديها طلباً للسلامة. (انظر: العمدة، ج ١، ص٥٧٨).

ثمّ قال: أحسن بيت قيل في ذلك لزهير:

لَـيْثٌ بِـعَثَّرَ يـصطادُ الرِّجـالَ، إذا ما اللَّيثُ كذَّبَ عَنْ أقرانِهِ صَدَقا[١]

وهو أوّل بيت مثّل به ابن المعتز للمطابقة أو الطباق[٢].

وسمّاه قدامةبن جعفر بالتكافؤ، وجعله ضرباً من الجناس، وهو الجناس الكامل[٣]، وقد استعار لقب هذا النوع من ثعلب في كتابه قواعد الشعر[٤].

وتنبّه الأصمعي أيضاً إلى اللّون البديعي المعروف باسم «الإيغال»، وإنْ لم يقترح له اسمه.

ونرى التوزي يقول: «قلت للأصمعي: من أشعر الناس؟، فقال: من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيساً، أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى، قال: قلت: نحو من؟، قال: قـول ذي الرُّمَّـة حيث يقول:

قِفِ العِيسَ في أطلالِ مَيَّة فاسْأَلِ رُسُوماً كأخلاقِ الرِّداءِ المُسَلْسَلِ[٥]

فتمّ كلامه بالرداء قبل «المسلسل»، ثمّ قال «المسلسل»، فزاد شيئاً بالمسلسل،

---

١. عَثَّرَ: اسم موضع، كذَّبَ اللّيث، أي: لم يصدق الحملة، الأقران: جمع قرن، وهو الخصم في القتال. يقول: إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يصدق الحملة عليه فهذا الممدوح ـ ليث بعثر ـ يصدقها. (انظر: العمدة، ج ١، ص ٥٧٧).

٢. البديع، ص ٣٨.

٣. كتاب: الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان)، ص ١٤٦.

٤. أُنظر: قواعد الشعر، ص ٦٤؛ والبلاغة تطوّر وتاريخ، ص ٩٠؛ وعلم البديع، ص ٨١. إنّ أوّل من عرّف «الطـباق» هو الخليل بن أحمد (ت ١٨٧ هـ.ق) حيث قال: «إذا جمعت بينهما على حَـذْوٍ واحد، وألصقتهما» انظر العـمدة، ج ١، ص ٥٧٨.

وتعريف الخليل لايزيد على المعنى اللّغوي، وكذلك تعريف الأصمعي لايزيد على المعنى اللّغوي، لكن تـمثّله بقول زهير يُفهم منه أن المطابقة عنده هي الجمع بين الشيء وضدّه؛ إذ جمع فيه بين الصدق والكذب وهما ضدّان. انظر: البديع، ص ٢٣.

٥. العيس: جمع: أعيس، مؤنثة عيساء، وهي الإبل البيض في بياضها شقرة، المسلسل: الذي رقّ من البلى، انـظر: ديوان ذي الرمة، ج ٣، ص ١٤٥١؛ العمدة، ج ١، ص ٦٥٥؛ الإيضاح، ص ١٥٤؛ أساس البلاغة «سلسل».

ثمّ قال:

أظُنُّ الذي يُجدي عليكَ سُؤَالُـها دُمُوعاً كَتَبْدِيدِ الجُمانِ المُـفصَّلِ[١]

فتمّ كلامه بالجُمان، ثمّ قال «المفصَّل»، فزاد شيئاً.

قلتُ: ونحو مَنْ؟ قال حيث يقول الأعشى:

كَـناطِحٍ صَـخْرَةً يَـوْماً لِـيَفْلِقَها فلم يَضِرْها وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ[٢]

فتمّ كلامه بـ«يضرها»، فلما احتاج إلى القافية قال: «وأوهى قرنه الوَعِلُ»، فزاد معنى.

قلت: وكيف صار الوَعِلُ مُفَضَّلاً على كُلِّ ما ينطحُ؟، قال: لأنّه يَنْحطُّ من قُلّةِ الجبل على قرْنيه فلايضيره[٣].

وأغلب الظنّ أنّ الأصمعي إنّما أشار في صدر كلامه «للتوزي» إلى ما سمّاه ابن المعتزّ[٤] الإفراط في الصفة، وسمّاه قدامة بعده باسم المبالغة[٥].

وكذلك، فإنّ الأصمعي هو أوّل من اقترح «للالتفات» اسمه الاصطلاحي في البلاغة[٦]، وهو يحتذي حذو أبي عبيدة ـ والالتفات هو انصراف المتكلّم من المخاطبة إلى الإخبار، ومن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ـ ويضيف عليه بنوع ثان، وهو أن ينصرف فيه المتكلّم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر، أي: بعد أن يفرغ من المعنى وتظنّ أنّه سيجاوزه يلتفت إليه، فيذكره بغير ما تقدّم ذكره، ممّا حدى بابن

---

١. يجدي عليك: يعطيك وينفعك، تبديد: تفريق، التبذير: بمعنى التفريق هنا، الجمان: ج جمانة، وهي اللؤلؤة، الجمان المفصل: ما عقد بين كلّ لؤلؤتين منه خرزة.

٢. أوهى قرنه: أضعفه، الوعل: تيس الجبل. المقصود بالتشبيه (كناطح): يزيد بن مُسهر الشيباني. انظر: ديوان الأعشى، ص ٦١.

٣. انظر: كتاب الصناعتين، ص ٣٨٠؛ العمدة، ج ١، ص ٦٥٥ و ٦٥٦.

٤. البديع، ص ٦٥.

٥. نقد الشعر، ص ٧٧؛ وانظر: البلاغة: تطوّر وتاريخ، ص ٣١ و ٣٢.

٦. البلاغة: تطوّر وتاريخ، ص ٣٠.

المعتزّ أن يجعل الالتفات على نوعين: الأوّل: ماقاله أبو عبيدة، والثّاني: مااخترعه الأصمعي.

وحكى ابن رشيق في العمدة عن إسحاق الموصلي أنّه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف التفات جرير؟، قلت: وما هو؟، فأنشدني:

أَتَــنْسى إذْ تُـوَدِّعُنا سُـلَيْمى بعودِ بَشَامةٍ، سُقِيَ البَشَـامُ[1]

ثمّ قال: أما تراهُ مقبلاً على شعره؛ إذ التفت إلى البشام فدعا له.

وأنشد له ـ أيضاً ـ ابن المعتزّ:

طَـرِبَ الحَـمَامُ بـذي الأراكِ، فَـهاجَنى لا زِلْتُ فــي غَــلَلٍ، وأَيْكٍ نـاضِرِ[2]

ولم يعدّ ابن المعتزّ التفاتاً إلّا ما كان من هذا النوع، وإلّا فهو اعتراض كلام في كلام[3].

الجاحظ (ت٢٥٥هـ، ق):

إنّ كلمة البديع عند الجاحظ يقصد بها الصور والمحسّنات اللّفظيّة والمعنويّة، وإنْ كان لم يوضحها توضيحاً دقيقاً، أي أنّه يريد إطلاق اللّفظ على الجديد الطريف حتى صار أشبه بالاصطلاح الذي يدلّ على الجديد المستحسن في البيان العربي.

فهو أوّل من استعمل لفظة «البديع» بالمعنى الاصطلاحي واللّغوي، ومـثّل لهـا بقول الأشهب بن رميلة:

هُمُ ساعِدُ الدَّهْرِ الذي يُتَّقَى بِهِ وما خيرُ كـفٍّ لا تَـنُوءُ بِسـاعِدِ

ثمّ علّق عليه بقوله: قوله «هُمُ ساعِدُ الدهر» إنّما هو مثل، وهـذا الذي تسـميه

---

١. البشام: شجر طيب الريح يستاك به. والبيت من شواهد ابن المعتزّ في (البديع)، ص٥٩.

٢. الغلل: ما تغلّل من الماء الجاري بين الشجر، الأيك: ج أيكة، وهي الشجر المـلتفّ الكـثيف، النـاظر: الأخـضر الحسن. والبيت من شواهد ابن المعتزّ في البديع، ص٥٩.

٣. أُنظر: العمدة، ج١، ص٦٣٩ و ٦٤٠؛ البديع، ص٥٩؛ والصناعتين، ص٣٩٢؛ ديوان جرير، ص٢٧٩ و ٣٧٠.

الرواة البديع، وذكر الراعي في قوله:

هُمُ كاهِلُ الدَّهْرِ الذي يُتَّقَى بِهِ ومَنْكِبُهُ، إنْ كان للدّهْرِ مَنْكِبُ

وذكر أنَّ بشّاراً والعتابي ممّن أكثروا من استعمال البديع، وخصّ العرب بالبديع دون غيرهم من الأُمم[١].

وهؤلاءِ الّذينَ ذَكرَهُمْ الجاحظ من الشعراءِ كانوا يَعْتَمِدُونَ على فنون بيانيّة تدخل فيما سُمّي أخيراً «علوم البلاغة» من غير تخصيص بأحدها، وإن غلبت هذه الفنون على ما ورد بعد في علمي البيان والبديع من استعارة، وتشبيه، وطباق، وجناس، وغيرها. فنرى الجاحظ يطلق لفظ «البديع» على الاستعارة في «ساعد الدهر»[٢].

ومع تعرّضه لبعض أنواع البديع، فإنّه لم يحاولْ وضعَ تعريفاتٍ ومصطلحاتٍ لها؛ لأنّ اهتمامه ـ عند الكلام حولها ـ كان في تقديم الأمثلة والنماذج دون وضع القواعد لها، فقد ذكر الجاحظُ ألواناً مختلفةً في كتابهِ البيان والتبيين، جُمعت كلّها فيما بعد في فنون البديع، ويمكن حصرها بما يلي:

تحدّث عن «الازدواج»[٣]، وكان يلهج به في كلامه، كما كان يلهج به كثير من معاصريه، وفتح له باباً خاصّاً به سمّاه «باب من مزدوج الكلام»، وذكر أمثلة له، كقول مالك بن الأخطل وقد بعثه أبوه ليسمع شعر جرير والفرزدق، فسأله أبوه عنهما فقال: جريرٌ يغرِف من بحرٍ، والفرزدق ينحت من صَخْرٍ[٤]، وأشار إلى الكلام المزدوج وغير المزدوج[٥] ولم يوضّح الفرق بينهما، وإن كانت الأمثلة التي ذكرها تشير إلى

---

١. البيان والتبيين، ج ٤، ص ٥٥. تنوء به: تنهض مثقلة، ساعد القوم: رئيسهم.

٢. مقدّمة كتاب: بديع القرآن، ص ١٢ و ١٣.

٣. البيان والتبيين، ج ٢، ص ١١٦.

٤. المصدر، ج ٢، ص ١١٧.

٥. المصدر، ج ٣، ص ٢٩.

معنى الازدواج والتعادل بين الجمل والعبارات إلى جانب الإسجاع، وهما دون القصيد والرجز[١].

وأشار إلى اقتباس الخطباء لآي الذكر الحكيم في كلامهم، وما كان له من الأثر في اكتساب الكلام جمالاً. وكذلك ما كان يتمثّل به الكُتّاب في رسائلهم.

وحكى عن عمران بن حطّان قوله: «خطبتُ عند زيادٍ خطبةً ظننتُ أنّي لم أقصِّر فيها عن غاية ... فمررتُ ببعض المجالس فسمعتُ شيخاً يقول: هذا الفتى أخطبُ العربِ لو كان في خطبته شيءٌ من القرآن»[٢].

و سمّاه البلاغيون من بعده بـ«**حُسن التضمين**».

ووقف الجاحظ أمام أُسلوب التقسيم[٣] وجودته، وروى عن عمر بن الخطّاب حينما أنشدوه شعراً لزهير، فلمّا انتهوا إلى قوله:

وإنَّ الحَـقَّ مَقْطَعَهُ ثَـلاثٌ   يَـمينٌ أو نِـفارٌ أو جِـلاءُ

قال عمر كالمتعجّب من علمه بالحقوق، وتفصيله بينها، وإقامته أقسامها: يمين أو نفار أو جلاء!

وتنبّه لما سمّاه البلاغيون بعده باسم «الاحتراس»[٤]، وقد سمّاه: إصابة المقدار، يقول: «وقال طرفة في المقدار وإصابته:

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُـفْسِدِها   صَوبُ الرَّبيعِ ودَيْمَةٌ تَهْمِي[٥]

طلب الغيث على قدر الحاجة؛ لأنّ الفاضل ضارّ.

---

١. المصدر، ج ١، ص٢٨٨.

٢. المصدر، ج ٢، ص٦.

٣. المصدر، ج ١، ص٢٣٨ و ٢٤٠، وانظر أيضاً: الحيوان، ج ٣، ص٤٦.

٤. البيان والتبيين، ج ١، ص٢٢٨.

٥. البيت لطرفة بن العبد البكري في ديوانه، ص٨٨، وفيه «بلادك» مكان «ديارك»، سمّي بالاحتراس؛ لأنّ قوله: «غير مفسدها» احتراس للديار من الفساد بكثرة ما يسقط فيها من المطر، والبيت من شواهد التتميم في كفاية الطالب، ص١٩٤، ومن شواهد الاحتراس في العمدة، ج ١، ص٦٤٦.

ومنه قول النبيﷺ في دعائه: «اللّهم اسقنا سقياً نافعاً»؛ لأنّ المطر ربّما جاء في غير أوانه، وربّما جاء والمحاصيل ناضجة في البيادر، وربّما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة.

ونوّه بالارصاد[١] أو التسهيم أو التوشيح، ونقل كلام ابن المقفّع: «وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته». وعلّق الجاحظ عليه بقوله: «كأنّه يقول: فَرِّقْ بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خُطبة العيد، وخطبة الصُّلح، وخُطبة التواهُب حتى يكون لكلّ فنٍّ من ذلك صدر يدلُّ على عجزه، فإنّه لاخيرَ في كلام لايدلُّ على معناك، ولايشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرضِ الذيإليه نزَعت»[٢]. وسمّاه ابنالمعتزّ ردّ أعجاز الكلام على ماتقدّمها، وفضّل العسكري أنْ يُسمي هذا النوع[٣] تبييناً.

كما أتى الجاحظ المذهب الكلامي[٤]، ذكره ابن المعتزّ في الباب الخامس من البديع، وقال: إنّ الجاحظ سمّاه: «المذهب الكلامي». ولم نعثر في كتب الجاحظ المعروفة على هذا المصطلح، بل إنّه كان يسخر أحياناً من الذين يتكلّفون أداء الكلام تشبّهاً بالمتكلّمين[٥].

وتعرّض لأُسلوب الحكيم[٦]، وسمّاه «اللغز في الجواب»، وعقد له باباً في كتابه البيان والتبيين أورد فيه كثيراً من الأمثلة.

كما نوّه بحسن الابتداءات[٧]، فقد نقل عن شبيب بن شبة قوله: «الناس موكّلون

---

١. البيان والتبيين، ج١، ص٩٦و١١٦.

٢. المصدر، ص١١٦.

٣. الصناعتين، ص٣٨٢.

٤. البديع، ص٥٣.

٥. انظر: الحيوان، ج٥، ص١٠ وما بعده.

٦. البيان والتبيين، ج٢، ص١٤٧.

٧. المصدر، ج١، ص١١٢.

بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكّل بتفضيل جودة القـطع، وبـمدح صاحبه».

وتحدّث عن «الهزل يراد به الجدّ»[١]، أو يدخل في الجدّ، ومثّل له بقول إبراهيم بن هانئ: «من تمام آلة القصص أن يكون القاصُّ أعمى، ويكـون شـيخاً بـعيدَ مـدى الصوت، ومن تمام آلة الزَّمْر أن تكون الزامرة سوداء، ومن تمام آلة المغنّي أن يكون فارهَ البِرْذَوْنِ [الدابة الكبيرة]، برّاقَ الثيابِ، عظيمَ الكِبْر، سيِّئَ الخُلُق، ومن تمام آلة الخمّار أن يكون ذِمياً...».

كما تعرّض كثيراً للسجع[٢]، ومثّل له بأمثلة من عيون النثر والشعر، فأمّا الأوّل (أي النثر) حديث الرسولﷺ. و هوقوله: «يقول العبدُ مالي مالي، وإنّما لكَ مِـنْ مـالِكَ ما أكلتَ فأفنيت، وأعطيت فأمضَيت، أو لبِسْتَ فأبليت».

ومن الشعر قول النمر بن تولب:

أعـاذلَ إنْ يُصبِح صـدايَ بـقفرةٍ ... بـعيداً نـآني صـاحبي وقـريبي

تَـرَى أنَّ مـا أبـقيتُ لم أكُ رَبّـهُ ... وإنّ الذي أمـضَيتُ كـان نـصيبي

كما وضّح دور السجع في الكلام البليغ، فيروي ما قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: «لِمَ تؤْثرُ السجع على المنثور، وتلزمُ نفسك القوافي وإقامة الوزن؟، فقال عبد الصمد: إنّ كلامي لو كنتُ لا آمُلُ فيه إلاّ سماع الشاهد لقلّ خِلافي عليك، ولكنّي أُريد الغائبَ والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظُ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشَط، وهو أحَقُّ بالتقدير، وبقلّة التفلّت، وما تكلّمت به العرب من جيّد المنثور، أكثرُ ممّا تكلّمت به من جيّد الموزون، فلم يُحفظ مـن المـنثور عُشْـرهُ، ولاضـاع مـن الموزون عُشْرُهُ»[٣].

---

١. المصدر، ج ١، ص ٩٣ و ٩٤.

٢. المصدر، ج ١، ص ٢٨٤.

٣. المصدر، ج ١، ص ٢٨٧.

ويرىٰ الجاحظ في كُرْهِ الأسجاع، لسبب: «أنّ كُهّان العرب الذين كان أكثرُ الجاهلية يتحاكمون إليهم... كانوا يتكهّنُون، ويحكمون بالأسجاع... فوقع النهيُ في ذلك الدهر، لقرب عهدهم بالجاهليّة، ولبقيّتها فيهم، وفي صدور كثير منهم، فلمّا زالت العلّة زال التحريم»[١].

وحرص على أنّ الجدة والطرافة مذهب أصيل عند العرب، فهو لهم بالطبع وللمولدين بالتكلّف، وردّ ضمناً على القائلين بأنّ مسلم بن الوليد كان أوّل من أطلق مصطلح البديع، فهو: «فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أبوتمّام الطائيّ، فإنّه جعل شعره كلّه مذهباً واحداً فيه»[٢].

ومن خلال هذا الاستعراض نجد أنّ مفهوم البديع عند الجاحظ هو قريب جدّاً من مفهوم البلاغة والبيان، فقد عدّ استعارة الأشهب بديعاً، أو هو تلك الوجوه البلاغيّة التي شهدت استخدامات جديدة لاعهد للعرب بها من قبل.

الصراع بين المحافظين والمجدّدين

لَقَد بَرَزَت عدَّة نشاطاتٍ لوضع قواعد البلاغة، وبسط مباحثها الخاصّة منذ أواسط القرن الثالث الهجريّ، نشأت من خلالها عدّة مدارس اتّسمت كلّ منها بطابعها الخاصّ في ذلك المحيط الأدبي.

فمدرسة المحافظين، منهم: النحويون واللّغويون، كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي، كان مقياس المفاضلة للعمل الأدبي عندهم هو ملاءمته للصور البلاغيّة الموروثة، فكان الشعر القديم موضع ثقتهم في إقامة الأحكام والقواعد التي تعصم الذهن واللّسان، حتى صارت الموازنة بين الشعراء قائمة على أساس فكرة الزمن

---

١. المصدر، ج ١، ص ٢٩٠؛ انظر: البديع تأصيل وتجديد، ص ٣٠.

٢. انظر: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، ص ١١٧.

بدلاً من الشعر ذاته[١].

وسار على خطاهم المفسّرون في شرح غريب القرآن الكريم وفهمه، وبيان سرّ إعجازه، وكذلك تناول النقّاد الوجوه البلاغيّة بالنقد عن طريق الاستقراء والتتبّع لكلام العرب، وحصر ما أجازوه وجرت به عادتهم.

وكان هناك من يقيس العمل الأدبي بالمقاييس اليونانيّة الخالصة، وهم المتفلسفة الذين اتّخذوا من الفلسفة اليونانيّة ومعايير اليونان البلاغيّة أساساً في تقويم نماذج الأدب العربي، وتقدير قيمها البيانيّة.

وكردّ فعل لمدرسة المحافظين الذي نشأ على الطرف الآخر في نفوس الشعراء المحدثين إصرار على التجديد، والذي كان مثار خصومة بين الطرفين، فدفعت تلك الخصومة بينهما إلى بروز ملامح جديدة تطوّرت فيما بعد إلى اتّجاهات واضحة.

وكان الكتّاب في ذلك الزمن يتوزّعون على نفس الطريقتين اللّتين توزّع عليهما الشعراء، وانقسم المشتغلون بالأدب ونقده تبعاً لذلك إلى فريقين، أنصار القدماء، وأنصار المجددين، هيّأ ذلك لأن يتطوّر النثر، كما تطوّر الشعر تطوّراً أساسيّاً.

وحاول البعض التوفيق بين أنصار القديم والحديث، وهومذهب المتكلّمين، وكانوا أكثر قبولاً لدى الكتّاب والشعراء؛ لأنّهم فسحوا للجديد عن طريق إساغته، والملاءمة الدقيقة بينه وبين روح البلاغة العربيّة، وخصائصها الذاتيّة، وكان للنقّاد التوفيقيين، ولغلبة ذوق العصر أثرهما في تخفيف حدّة الخلاف وتقصير مدّته.

ومن الجدير بالذكر أنّه قد وُجد في المحافظين أُناس تنكروا للشعر المحدث وحطّوا من قيمته، ولكن لم يوجد بين متذوقي الشعر المحدَث من طوى كشحاً دون

---

١. سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال: لو أدرك يوماً واحداً من الجاهليّة ما قدّمت عليه أحداً. وكان الأصمعي يقول: بشّار خاتمة الشعراء، واللّه لولا أنّ أيّامه تأخّرت لفضلّته على كثير منهم. وعرضت على بن الأعرابي أرجوزة على أنّها لأحد شعراء العرب الأقدمين، فقال: هذا هو الديباج الخسرواني، فقيل له: إنّها لأبي تمّام، فقال على الفور: من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة. (الصراع الأدبي بين القديم والجديد، ص٧٦ و ٧٧).

الشعر القديم، أو صرّح بالغضّ منه؛ ذلك لأنّ المحدَثين من الشعراء ومن دارسي الأدب كانوا هم تلامذة القديم، وهم يرون في نتاج العصر حينئذ امتداداً له.

وفي النهاية عثروا على تعبيرات وصور وردت في القرآن الكريم، وجاء بها الجاهليّون والإسلاميّون عفواً ومن غير قصد، وأحسّوا لها رونقاً وبهاءاً، وأنها تزيد الكلام حُسناً وجمالاً، فأخذوها وأدخلوها في أشعارهم، وتفنّنوا فيها، وجاء الرواة وسموا هذا النوع بـ«البديع».

وهكذا وُجدت مدرسة بديعيّة شيخها بشّار، ومن رجالها: ابن هرمة،والعتابي، ومنصور النمري، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد.

ونجم ـ بعد هؤلاء ـ أبو تمّام بالشعر، وشغف بالبديع حتى غلب عليه، وتفرّغ له وأكثر منه، ولكن هذا الشغف لم يكن هوىً فرديّاً محضاً، وإنّما كان وراء هذا الهوى روح العصر، وأنّ أبا تمّام لم يفعل أكثر من أن يلتقط بموهبته الفنيّة الأصليّة هذه الروح، وأنْ يكون البؤرة التي تتجمّع فيها تجارب السابقين في البديع.

وكانت تهمة أبي‌تمّام الأُولى أنّ كلامه لايشبه كلام الأوائل، ومن هنا أبغضه المحافظون، ولعلّ مفتاح المسألة أبيات قالها أبو تمّام يتحدّث فيها عن الشعر، جاءت في مدحه لأبي‌دلف القاسم بن عيسى العجلي:

إليكَ أرَحْنا عازِبَ الشِعْرِ بَعْدَ ما ... تَمهّلَ في رَوَضِ المعاني العَجائِبِ
غرائِبُ لاقَت في فِنائِكَ أُنْسَها ... مِنَ المجْدِ فهيَ الآنَ غَيْرُ غَرائب
وَلَوْ كانَ يَفْنىٰ الشِّعْرُ أفناهُ ما قَرَتْ ... حِياضُكَ مِنهُ في العُصُورِ الذواهِبِ
ولكنّهُ صَوْبُ العُقُولِ إذا انجَلَت ... سَحائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بسحائِب

فأبو تمّام يريح «عازب الشعر»، وقصائده «غرائب»، وهي «صوب العقول» لاوليدة العواطف، في هذه الأمور الثلاثة يكمن السّر في تجديد أبي‌تمّام[1].

---

١. المصدر، ص ١٢٥.

وما من شكّ في أنّ أبا تمّام أساء في كثير من استعاراته، وفي كثير من أبياته التي أثقلها بألوان البديع، أمّا حين يترك نفسه لسجيّتها، ويستجيب لطبعه، فإنّه يبلغ القمّة في حسن التعبير والتأثير، فهو القائل:

أعوامُ وَصْلٍ كـاد يُـنسي طـيبها	ذكْـــرُ النَّـوىٰ، فكـأنّها أيّـامُ
ثُـمَّ انْـبَرَتْ أيّـامُ هَـجر أرْدَفَتْ	بِـجوىً أسـىً فكـأنّها أعْـوَامُ
ثُمَّ انقضَتْ تلكَ السُّنونُ وأهـلُها	فكـــأنَّها وكـــأنّهُمُ أحـــلامُ

لقد كان أبو تمّام في عصر لم تتبدّل وظيفة الشاعر التي اختطّها شعراء الجاهليّة والعصر الأموي ـ في المجتمع العباسي ـ تبدّلاً كلّيّاً، بل أنّ حياة المجتمع العباسي لم تدع الشاعر إلىٰ أنْ يعيد النظر في وظيفته.

وأزاء هذا لم يستجد مضمون في القصيدة العباسية يـبلغ مـن الغـرابـة بـحيث يستدعي شكلها الجديد، إذ كان الشعراء يحاولون «بوجه عامّ أن يـقولوا الأفكـار القديمة في صياغة جديدة، وبخاصّته عند أبي‌تمّام»[1]. وكانت محاولتهم تلك طبيعيّة تنسجم مع ظرفهم الحضاري.

ومن هنا كان لأبي تمّام أن يقع في تكلّف من يعتسف مذهباً شكلياً لم يـقتضه المضمون اقتضاءً تامّاً فتكون بينهما وحدة، فقد اتّكأ أبو تمّام على نـفسه، ومـضى يصنع شعره، فأبدع في كثير وأسّف في كثير.

ومن هنا ـ أيضاً ـ قدّر للمتنبّي قبل أن ينضج حسّه الفنّي الوقوع ـ في الصـدر الأوّل من شعره ـ فيما وقع فيه أبو تمّام، وقدّر له ـ أيضاً ـ في الصدر الثاني من شعره أنْ يشذب ـ وهو الملمّ بتراث العرب الشعري إلمام تمثّل ـ من إسـراف أبـي‌تمّام، فيوجد من خلال ذلك صوتاً خاصاً به حطّم المذاهب واستقلّ دونها جميعاً[2].

---

١. النقد المنهجي عند العرب، ص٥١.

٢. أُنظر: الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ص٥٠؛ النقد المنهجي، ص١٦١؛ الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، ص٢٧ و ٢٨.

وهكذا كلّما تقدّم بهم الزمن، وجاءت منهم طبقة تـفنّنت فـي هـذه التـعبيرات والصور، وأضافت إليها تحت عنوان البديع أو التجديد، كما سمّوه به.

عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦ هـ، ق)

ونعثر على أوّل تأليف في علوم البلاغة صنّفه ابن المعتزّ باسم «البـديع»، ألّـفه للدلالة على أنّ المحدَثين لم يسبقوا المتقدّمين إلى شيء من أبواب البديع وإنّما هو موجود في القرآن الكريم، وأحاديث الرسولﷺ، وكلام البلغاء من العرب، وكلّ ما في الأمر أنّ المحدثين قد أكثروا منه، أي أكثروا من التجديد في طرق التعبير حتّى اشتهروا بذلك[١].

ويُعرِّف البديع بأنّه: «اسم موضوع لفنون الشعر يذكرها الشعراء ونقّاد المتأدّبين».

هذا، والبديع عند ابن المعتزّ ليس هو ماتعارف عـليه المـتأخّرون مـن وجـوه تحسين الكلام اللّفظيّة والمعنويّة، وإنّما هو مصطلح عامّ ـ أخذه عن الجاحظ ـ يطلق على كثير من مصطلحات البلاغة في علومها الثلاثة.

ومن هنا فقد جاء كتابه محاولة لحصر الظواهر البلاغيّة التي يتحقّق بها للكلام معاني الجدة والطرافة، والتي يوصف الكلام من أجلها بأنّه بديع، ويبلغ بها مستوى خاصّاً من حيث الصياغة الفنيّة.

وممّا يدلّ على أنّ لمصطلح «البديع» هذا العـموم والشـمول عـنده أنّـه يـذكر الاستعارة، والكناية، وحسن التشبيه ضمن ما يذكر من أصناف البـديع ومـحاسن الكلام على أنّها ممّا يتوصّل به الأديب إلى التجديد وإلى التصوير الفنّي المبتكر[٢].

ويرى أنّ هذه الفنون هي المحك الذي يكشف عن أصالة الشاعر، ولكنّه تـرك

---

١. البديع، ص٣.

٢. مقاييس البلاغة، ص٦٦٦.

الباب مفتوحاً لتغيّر الأحوال، والمفاهيم، والبيئات، فيقول: «من أحبّ أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيّر منها شيئاً إلى البديع، أو لم يأتِ غير رأينا، فله اختياره»[١].

ومحاسن الكلام في الشعر ـ التي ذكرها ـ ثلاثة عشر: **حسن الابتداءات، الاعتراض، الهزل يراد به الجدّ، التعريض والكناية، حسن التشبيه، حسن التضمين، الإفراط في الصفة، الالتفات، الرجوع، الخروج من معنى إلى معنى، تأكيد المدح، تجاهل العارف، إعنات الشاعر نفسه في القوافي.**

ومن الملفت للنظر أنّ ابن المعتزّ أورد الفنون الخمسة الأُولى ضمن أبواب البديع لتبدو وكأنّها أساسيّة، بخلاف محاسن الكلام التي تبدو أقلّ درجة في نظره من فنون البديع.

ولكن ـ كما يراه أحد الباحثين ـ ليس هناك فرق كبير، فقد جاء تحت هذه المحاسن بكلٍّ من التشبيه والكناية، وهما ألصق شيء بالاستعارة التي ذكرها في البديع، وكذلك ورد تحت البديع مثل: التجنيس، والمطابقة، وهما ـ في الواقع ـ صنو لغيرهما ممّا ورد تحت المحاسن، مثل: الالتفات، والتضمين، وغيرهما.

إن كان من دلالة لهذا كلّه، فهو أنّ الخطّ الذي أراده ابن المعتزّ بين البديع والمحاسن لم يكن قويّاً، ولامستقيماً بالدرجة الكافية؛ إذ أنّ التقسيم إلى بديع ومحاسن كلام قد يرتكز في ذهن المؤلّف على وجهة نظر شخصيّة، ولكنّها تظلّ وجهة نظر غير مبرّرة[٢].

لقد عرض ابن المعتزّ في كتابه البديع ما استطاع جمعه من نصوص القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، وكلام الصحابة والأعراب، ثمّ من عيون الشعر

---

١. كتاب البديع، ص٥٨.

٢. المصطلح البلاغي وتطوّره حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مجلة الآداب جامعة الأمارات، العدد ٦، ١٩٩٠م: ص٣١٢ و٣١٣.

الجاهلي والإسلامي والعباسي ممّا اشتمل على محسّن من المحسّنات البديعيّة التي كان القدماء يعرفونها، أو يملؤون بها أدبهم، دون أن يصنعوا لها أسماء، فسمّاها ابن المعتزّ، ومثّل لها بما استطاع من الشواهد التي سبقت عصره، وكان هدفه من هذا التأليف واضحاً، فهو يريد أن يبيّن أنّ المحدَثين الذين ذكرهم، والذين نسب إليهم استخدام التحسين البديعي لم يكونوا مبتدعيه[1].

والفنون الخمسة التي بنى عليها الشطر الأكبر من كتابه وجدناها عند ابن المقفّع والجاحظ، وعرفها قبله الشعراء، أمثال مسلم، والعتابي، وبشّار، وأبي نواس، وليس لابن المعتزّ في العثور عليها من فضل إلّا ردّها إلى الشعر القديم.

وذُكر أنّ ابن المعتزّ لم يضف جديداً في الاستعارة عمّا ذكره الجاحظ عنها، ومع ذلك فقد نلمح الفرق في إضافة ابن المعتزّ العديد من أمثلة الاستعارة ونماذجها من القديم والحديث، ولكن دون تعليق عليها.

أمّا التجنيس، فيقول: هو أن تجيء الكلمة تجانس أُخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبّهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألّف الأصمعي كتاب الأجناس عليها، وقال الخليل: «الجنس لكلّ ضرب من الناس والطير والعروض والنحو».

وكان ابن المعتزّ أوّل من طوّر هذا النوع حيث قسّمه إلى قسمين:

أ) تجنيس اتّفقت فيه الكلمتان في اللفظ والمعنى، مثل: «خَلَجَ، خليج» في قول الشاعر:

يومٌ خَلَجْتَ على الخليج نُفُوسَهُم[2].

ب) تجنيس اقتصر فيه على اللفظ فقط، مثل: «لوم» التي كرّرت مرّتين لتعني نفس الشيء في قول مسلم بن الوليد:

---

١. البديع، ص٣.

٢. خَلَجتَ: طعنت، من باب ضرب. وعجز البيت: عَضْباً وأنت لمثلها مستام.

ياصاح إنَّ أخاكَ الصَبَّ مَـهْمُومُ   فارفُقْ به إنَّ لَوْمَ العاشِقِ اللُّومُ[١]

فهو هنا قد جعل الاشتقاق قسيم الجناس، أو هو الجناس الناقص.

والمطابقة: استقى تعريفها اللّغوي من الخليل بن أحمد حيث قال: يقال: «طابقت بين الشيئين» إذا جمعتهما على حذوٍ واحد، وكذلك قال أبو سعيد، فالقائل لصاحبه: «أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسّع فأدخلتنا في ضيق الضمان»، قد طابق بين السّـعة والضيق في هذا الخطاب، وقال اللّه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٢و٣].

فندرك أنّ ابن المعتزّ قـد اسـتخدمها ليـعني التـضادّ (كـلمتان أحـدهما عكس الأُخرى)، وهذا أيضاً واضح في تعريفه لها، وذلك بما مثّل «قصاص» فـي مـقابل «حياة» و «السعة» في مقابل «الضيق».

و ردّ الأعجاز على ما تقدّمها: وقد قسّمه إلى ثلاثة أقسام:

أ) ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه الأوّل، كقول الشاعر:

تلْقَى إذا مـا الأمـرُ كـان عَـرَمْرَما   في جـيشِ رأيٍ لايُـفَلُّ عَـرَمْرَمِ[٤]

ب): ما يوافق آخر كلمة من البيت أوّل كلمة منه، نحو قوله:

سَـرِيعٌ إلى ابـن العَـمّ يَشْـتِمُ عِـرْضَهُ   وليس إلى داعــي النَّـدى بِسَـريعِ[٥]

ج) ما يوافق آخر كلمةٍ من البيت بعض ما فيه، كقول الآخر:

---

١. اللوم: اللؤم.

٢. البقرة: ١٧٩.

٣. البديع: ص٣٦.

٤. البديع، ص٤٨، ورواية العمدة: يُلقى إذا ما الجيش...، والبيت في المـنزع البـديع، ص ٤١٠؛ وكـفاية الطـالب، ص١٤٢؛ شاهدٌ على الترديد. والعرمرم الأُولى: بمعنى الكثير، والثّانية: بمعنى الشديد، عن حاشية العمدة، ج ١، ص٥٧٢.

٥. البيت للأقيشر الشاعر، واسمه المغيرة بن عبدالله، البيت في كتاب البـديع، ص٤٨، والمـنزع البـديع، ص ٤١٠، وكفاية الطالب، ١٤٢، هامش العمدة، ج ١، ص ٥٧٢.

عَـمِيدُ بـني سُـلَيْمٍ أَقْـصَدَتْهُ سِهَام الموت، وَهيَ لَهُ سِهَامُ[1]

وهذا النوع ـ أي ردّ الأعجاز ـ لم يسبق إليه أحد قبل ابن المعتزّ، فالفضل له في هذا المصطلح، وفي تقسيمه وانتقاء أمثلته.

فالقاسم المشترك للنماذج الشعريّة التي أوردها حسب الأقسام الثلاثة ينحصر في كلمة القافية، وعمّا إذا كانت تجيء كأوّل كلمة أو آخر كلمة في الشطر الأوّل من البيت، كما في المثالين الأوّلين[2].

وهذان القسمان في جوهرهما لون من ألوان البديع المسمّى بالتصريع، وهو الذي يُظنّ ويتردّد دائماً أنّه من اختراعات قدامة بن جعفر.

أمّا القسم الثالث: فيتحقّق حين تتكرّر القافية في أيّ موضع آخر من البيت.

والمذهب الكلامي ـ الذي يعتمد على الإقناع المنطقي في التعبير ـ اكتشفه الجاحظ، ولم يجد ابن المعتزّ له نموذجاً في القرآن الكريم، ولم يحدّد ابن المعتزّ المذهب، بل اكتفى بذكر بعض الأمثلة وشواهد تصوريّة، ويبدو أنّه يريد به طريقة المتكلّمين العقليّة في الاحتجاج والجدل والاحتيال للعلل والمعاذير، لذا نسبه ابن المعتزّ إلى التكلّف.

أمّا فيما يتعلّق بمحاسن الكلام، فذكر فيه:

١. **الالتفات**: فالأصمعي هو الذي أعطىٰ للالتفات اسمه الاصطلاحي لأوّل مرّة، يقول في هذا الباب: «هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الالتفات: الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر».

أي أنّ ابن المعتزّ يقصد في القسم الأوّل من التعريف، ومن الأمثلة التي تعرّض

---

١. البديع، ص٤٨، ورواية العمدة فيه: «عزيُ بني سليم ...»، والبيت في المنزع البديع، ص٤١١ منسوب بهامشه لأشجع السلمي، وأقصدته: أصبتُه فقتلته مكانه، هامش.

٢. الصبغ البديعي، ص١٣٤.

للالتفات الانتقال بالكلام من المخاطبة المباشرة إلى غير المباشرة والعكس.

وفي القسم الثاني من التعريف يُفهم الانتقال بالكلام من معنى إلى آخر دون تحديد، وهذا ما جعل العلماء ـ لاحقاً ـ يدمّجون بين هذا المصطلح والثاني، أي الاعتراض، وحيناً آخر يستعملون العكس.

وقد ذكر ابن رشيق بأنّ بعض النقّاد يبدّلون مصطلح ابن المعتزّ «اعتراض» بمصطلح «التفات»، وحتىٰ «استدراك».

٢. **إعنات الشاعر نفسه في القوافي**، وتكلّفه من ذلك ما ليس له وساق له أمثلة كلّها تنطبق على «لزوم ما لايلزم»، وهو ألّا يكتفي الشاعر في قصيدته أو مقطوعته برويّ واحد، بل يضيف إليه التزام الحرف السابق له،وعليه بنى أبو العلاء المعرّي لزوميّاته.

أمّا ابن أبي الإصبع، فيذكر هذا اللّون تحت عنوان «عتاب المرء نفسه»، ويجعله من مخترعات ابن المعتزّ، ويمثّل له ببيتين من أبيات كثيرة ساقها ابن المعتزّ. ثمّ يعترض ابن أبي الإصبع على ابن المعتزّ بأنّ هذين لايصلحان أن يكونا شاهدين على «عتاب المرء نفسه».

وقد غاب عن ابن أبي الإصبع المصريّ أنّ مانقله عن ابن المعتزّ كان تحريفاً من «إعنات المرء نفسه» إلى «عتاب المرء نفسه».

٣. **حسن الابتداءات**: الذي قال بهِ شبيب بن شبّة، وقد نقله عنه الجاحظ، وسمّاه البلاغيّون المتأخّرون **ببراعة الاستهلال والاستفتاح**.

٤. **حسن التضمين**: تنبّه إليه الجاحظ، وأشار إلى اقتباس الخطباء لآي الذكر الحكيم في كلامهم، وأنّهم قد يتمثّلون بالشعر في خطبهم، ويلاحظ أنّ الجاحظ يُسمّيه «الاقتباس».

٥. **الإفراط في الصفة**: وهذا الفنّ أشار إليه الأصمعي في صدر كلامه للتوزي، وسمّاه «ثعلب» الإفراط في الإغراق، ويلاحظ أنّ ابن المعتزّ اكتفى بالتمثيل لذا الفنّ

دون تعريفه وتحديد معناه، ويريد به ـ من خلال أمثلته ـ أنْ تبالغ في الوصف لإظهار اقتدارك على الكلام.

والمبرّد قد ذكره باسم «الكذب»، وسمّاه قدامة بعد ابن المعتزّ بـ«المبالغة»، وفرّع منها **الغلوّ**، وتبعه في ذلك البلاغيّون.

٦. **تجاهل العارف**: وهو ضرب من مزج الشكّ باليقين، كأن يَدَّعي العالِمُ بالحقيقة جَهْلَهُ بها؛ ليزيد الكلام تأكيداً، وهو الذي سمّاه المتأخّرون الإعنات والتشكيك، وذلك ـ فيما نعلم ـ من ابتكار ابن المعتزّ، ومثّل له بقول زهير:

وما أدْري وسوفَ إخَالُ أدري ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ

ويسمّيه السكاكي: سوق المعلوم مساق غيره لنكتة.

٧. **الرجوع**: وهو أن يقول الشاعر شيئاً ويرجع عنه، كقول بشّار:

نُبِّئْتُ فاضِحَ أُمّهِ يَغْتَابُني ... عِنْدَ الأَميرِ وهَلْ عَليهِ أَميرُ

وقد سبقه إلى هذا أبو عبيدة.

٨. **تأكيد المدح بما يشبه الذمّ**: لم يعرّفه ابن المعتزّ، ولكنّه مثّل له بقول النابغة الذبياني المشهور:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم ... بهنّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكتائبِ

٩. **الهزل يراد به الجدّ**: تحدّث عنه الجاحظ، وأورده ابن المعتزّ دون أن يُعرِّفه، فقال ممثلاً هذا النوع بقول أبي العتاهيّة:

أَرْقِيكَ أَرقيكَ باسم اللّه أرقيكا ... مِنْ بُخْلِ نفسٍ لعلَّ اللّهَ يَشْفيكا

ما سِلْمُ نَفْسِكَ إلّا مَنْ يُتارِكُها ... وَما عَدُوُّك إلّا مَنْ يُرَجِّيكا

وعرّفه ابن حجّة الحموي في كتابه خزانة الأدب فقال: «هو أن يقصد المتكلّم مدح إنسان أو ذمّه، فيخرج من ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال»، ومثّله بقول أبي العتاهيّة المذكور.

١٠. **والاعتراض**: لم يكن ابن المعتزّ السابق إلى هذا اللّون، بل قد سبقه الأصمعي

إلى مسمّاه كما أسلفنا، فكان لابن المعتز فضل تسميته بـ«الاعتراض» والذي عرّفه وذكر له الأمثلة، وهو عند المتأخّرين من صور الأطناب.

١١. **حسن الخروج**: تحدّث عنه «ثعلب» في قواعده، وعرّفه ابـن المـعتزّ بـأنّه «الخروج من معنى إلى معنى»، وساق عليه شواهد كثيرة، منها ما سمّاه أبو تمّام في بعض حديثه للبحتري باسم «الاستطراد» وقد تبعه فيه البلاغيّون، وأحياناً يقال له: «حسن التخلّص».

١٢. **التعريض والكناية**: قد وردا كثيراً في كتابات الجاحظ واللغويّين، ويلاحظ هنا أنّ ابن المعتزّ لم يفرّق بين أمثلة الكناية وأمـثلة التـعريض، وهـذا دليـل عـلى ترادفهما عنده.

١٣. **حسن التشبيه**: سبق أنّ الجـاحظ أكـثر مـن ذكـر التشـبيه بـنفس مـعناه الاصطلاحي: وأنّ المبرّد فصّل الحديث فيه. أمّا ابن المعتزّ، فأكتفى بإيراد الشواهد الكثيرة المختلفة في القديم والحديث.

قدامة بن جعفر:

كان قدامة أوّل ناقد فتح في نقد الشعر العربي باب النظر والفلسفة، وكانت جهوده تطبيقاً لنظريات كتاب الخطابة لأرسطو، وتحكيماً لقواعد الفلسفة في الحكم على معاني الشعر العربي[١].

ويبدو تأثّره بالفكر اليوناني واضحاً؛ لمابذله من الجهد العقلي في تطبيق مافهمه من مقاييس البلاغة اليونانيّة عند أرسطو على البلاغة العربيّة.

ونتلمس ذلك التأثير في: التبويب، والتقسيم، والتركيب، والتحليل، مضيفاً ماتمثّله من تلك المقاييس عند الجاحظ، وابن المعتزّ، والأصمعي، وثعلب، وغيرهم مـمن

---

١. علم البديع، ص١٥٥.

سبقوه إلى النظر في وجوه البيان العربي، واستنباط محاسن الكلام فيه[١].

وإذا كان ابن المعتزّ قد قصرّ كتابه على علم البديع، فإنّ كتاب قدامة كان في نقد الشعر بصفة عامّة، وجاء تعرّضه فيه للمحسّنات البديعيّة عنصراً من العناصر التي منها تألّف منهاجه في نقد الشعر، فهو لم يذكر هذه المحسّنات على أنّها بديع، ولاذكر اسم البديع، بل ذكر هذه المحسّنات على أنّها نعوت للشعر و محاسن له[٢].

والذي يتّضح من «نقد الشعر» أنّ قدامة يفهم البديع بمعناه الاصطلاحي الآنف الذكر، أي علم البديع المشتمل على عدّة فنون ذكرها ابن المعتزّ والجاحظ والأصمعي، مثل التشبيه والاستعارة وأُخرى أضافها قدامة.

ونجده يتحدّث عن أوّل الأنواع البديعيّة التي أضافها وجعلها من نعوت الوزن، فيقترح اسم «الترصيع» لتقطيع البيت إلى أجزاء مسجوعة، ولإن أربى قدامة على بن المعتزّ بهذا اللّون، فقد أسلفنا أنّ الجاحظ سبق إلى هذا، وإن سمّاه السجع والازدواج[٣].

وبعد أن يضرب أمثلة للترصيع يبيّن موطن الجمال فيه، وأنّه: «يَحْسُن إذا اتّفق له في البيت موضع يليق به، فإنّه ليس في كلّ موضع يَحْسُن، ولا على كلّ حال يصلح، ولا هو أيضاً إذا تواتر واتّصل في الأبيات كلّها بمحمود».[٤]

كما أنّ الشعراء ليسوا كلّهم قادرين على إجادته، وإنّما يكون مقبولاً مستحسناً إذا

---

١. البلاغة تطوّر وتاريخ، ص٩٢.

٢. البديع، ص١٢٧. لم يذكر قدامة المصطلح مباشرة ماعدا وصفه مرّتين اثنتين لكلمة بديع وهي قوله: إشارة لكونها بديعة... أتىَ على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة. أُنظر: نقد الشعر، ص٨٦ و١٨٤.
ويفسّر بعضهم إغفال قدامة لذكر مصطلح البديع صراحة بسبب منافسته لابن المعتز الذي سبقه إلى هذه التسمية حين وضعها عنواناً لكتابه، وهذا ما جعل قدامة يتحاشى ذكر البديع. أُنظر علم البديع، نشأته وتطوره، ص١٢٨.

٣. الصبغ البديعي، ص١٤٧.

٤. نقد الشعر، ص ٨٣ وما بعدها.

ورد عفواً ولم يتكلّفه الشاعر أو يغرق فيه، ولاسيّما أنّه يتطلّب أحياناً تغيّر بنية بعض الكلمات لضرورة الإتباع أو الوزن.

والفكرة العامّة التي يريد قدامة أن يقنع القارئ بها هي أنّ الشعر صناعة ومهارة يمكن للشاعر أن يتفنّن فيها، وليس الترصيع في حسبان قدامة سوى مظهر لحرفة الصانع وصنعته، أو لتصنّعه في بعض الأحيان.

واهتمّ اهتماماً واضحاً بـ «صحّة التقسيم»، وهي «أنْ يبتدئَ الشاعر فيضع أقساماً فيستوفيها ولايغادر قسماً منها».

وقد ذكرنا أنّ الجاحظ نوّه بالتقسيم وأُسلوب جودته، ومثّل قدامة لها بقول نصيب:

فقالَ فريقُ القوم: لا، وفريقُهُم نَعَمْ، وفريقٌ قال: وَيْحكَ ما أدري[1]

ثمّ يُعلّق على هذا البيت بقوله: «فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب ـ إذا سئل عنه ـ غير هذه الأقسام».

ويلي ذلك عند قدامة «صحّة المقابلات»: و«هو أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحّة، أو يشرط شروطاً ويعدّد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده، وفيما يخالف بضدّ ذلك بحيث تتقابل في وضوح»[2]. فشمل هذا التعريف لونين من ألوان البديع:

أوّلهما: مراعاة النظير.

وثانيهما: نوع من الطباق خصّ باسم المقابلة.

وممّا لاشكّ فيه أنّ قدامة استمدّ هذا المصطلح، كما استمدّ سابقه (ابن المعتزّ) من

---

١. ديوان نصيب، ص٩٤. ورواية البيت فيه: «... نعم، وفريق: ليمين الله لاندري» والشاهد في نقد الشعر، ص١٣٩؛ حلية المحاضرة، ج١، ص١٤٧؛ العمدة، ج١، ص٦٠٠.

٢. نقد الشعر، ص١٤١.

أرسطو في الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة.

و ذكر ابن‌سينا نصّ كلام أرسطو عن تأليف العبارة، حيث يقول: «الكلام الموصول ربّما كان اتّصاله أقساماً، ويسمّى المقسّم، كقولهم: إنّي تعجّبت من فلان الذي قال كذا وكذا، أو من فلان الذي عمل كذا وكذا، فهؤلاء أقسام المتعجَّب منهم.

وربّما كانت الأقسام إلى التقابل، كقولهم: منهم من اشتاق إلى الثروة، ومنهم من اشتاق إلى اللّهو، وكقولهم: أمّا العقلاء، فأخفقوا، وأمّا الحمقى، فأنجحوا. والمتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقاً لظهور بعضها ببعض»[١].

و علّق شوقي ضيف على ذلك بقوله: «وكلام أرسطو في المقابلة أدقّ من كلام قدامة؛ لأنّه لاحظ أنّها تحمّل في طواياها التقسيم على نحو ما هو واضح في البيت الذي أنشده قدامة: [بيت نصيب] وأيضاً فإنّه لاحظ عقب النصّ الذي نقلناه أنّ المتقابلات بعضها أضداد وبعضها كالأضداد، ويقول: إنّ الصيغة المتقابلة تجعل الشيء كالمحسوس المشاهد[٢].

كما اهتمّ بـ «صحة التفسير»، وهو «أن يضع الشاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولايزيد أو ينقص»[٣].

أي أن يذكر الشاعر في بيت معنيين متقابلين في إجمال، و يفسّرهما و يستوفي شرحهما، إمّا في الشطر الثاني المقابل، وإمّا في بيت لاحق، من مثل قول الفرزدق:

لقد جئتَ قوماً لو لجأتَ إليهم　　　طريدَ دَمٍ أو حامِلاً ثِقْلَ مَغْرَمِ

فلمّا كان هذا البيت محتاجاً إلى تفسير قال:

---

١. تلخيص الخطابة، ص٢٢٨؛ البلاغة تطوّر وتاريخ، ص٨٧؛ المصطلح النقدي، ص٤٠٤.

٢. البلاغة تطوّر وتاريخ، ص٨٧؛ الصبغ البديعي، ص١٤٨؛ شروح التلخيص، ٤: ٣٨.

٣. نقد الشعر، ص١٤٢.

لأَلْـفَيْتَ فـيهم مُـطْعِماً ومُـطاعِناً وَراءَكَ شَــزْراً بـالوَشِيجِ المُـقَوَّمِ[١]

أي فَسّر قوله: «حاملاً ثقل مغرم» بقوله: «إنّه يلقى فيهم من يعطيه»، وفسّر قوله: «طريد دم» بقوله: «إنّه يلقى منهم من يُطاعن دونه ويحميه».[٢]

و أربى قدامة بهذا اللّون على ابن المعتزّ، وكان له الفضل فيه تسـميةً وبـحثاً[٣]، ولم يخرج اللاحقون عمّا ذكره قدامة[٤].

وقد تقدم أنّ ابن المعتزّ قد انتصر لمدرسة المحافظين الذين ردّوا على المتفلسفة وأضرابهم، فانبرى لهم قدامة، فألّف كتابه محادّة لابن المعتزّ وغيره ممّن يجرون في إثرهم ضد المتفلسفة وأباح قدامة لنفسه تغيير كثير من مصطلحات ابن المعتزّ، فكأنّه يريد أن يأخذ من يد ابن المعتزّ قصب السبق في الحديث عن وجوه بلاغة الشعر.

فقد أطلق اسم «التكافؤ» على الطباق الذي عرض له ابن المعتزّ، وسمّاه ثعلب مجاورة الأضداد. وقد لامه الآمدي على مخالقته لابن المعتزّ في التسمية.

ويرى قدامة أنّ التكافؤ من نعوت المعاني، ويتحقّق عندما يصف الشاعر شيئاً أو يذمّه أو يتكلّم فيه بمعنى ما، أيّ معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين.

وكأنّ قدامة قد حدس ما سيثيره هذا الاصطلاح من خلاف، فبادر إلىٰ توضيح غرضه منه، فقال: «والذي أُريد بقولي: «متكافئين في هذا الموضع»: أي: متقابلين، إمّا من جهة المضادّة، أو السلب والإيجاب، أو غيرهما من أقسام التقابل»[٥].

فالتكافؤ عند قدامة ـ من خلال الأمثلة التي ضربها ـ: اسم خاصّ يطلق عـلى

---

١. ديوان الفرزدق، ج٢، ص٧٤٩، انظر: العمدة، ج١، ص٦٢١. المغرم: الغرامة، شزراً: طعنه به عن يمينه وشماله، الوشيج: شجر الرماح، المقوّم: المثقّف المستقيم.

٢. نقد الشعر، ص ١٤٢ و ١٤٣.

٣. الصبغ البديعي، ص١٤٩.

٤. كتاب الصناعتين، ص٣٤٥؛ البديع في نقد الشعر، ص٧٢؛ المثل السائر، ج٢، ص٣١٠؛ بـديع القـرآن، ص٧٤؛ معترك الأقران، ج١، ص٣٦١؛ أنوار الربيع، ج٦، ص١٢٣.

٥. نقد الشعر، ص١٤٧ و ١٤٨.

التوازن الخاصّ بالمعاني، وهو بهذا يكاد يشمل كلّ أقسام التقابل، حتّى إنّه ليمكن أن يقال: إنّ كلّ مقابلة هي تكافؤ في رأي قدامة[١].

وهكذا يقدم قدامة دراسة عمليّة للتكافؤ يهدف منها بيان مالهذا المظهر الجمالي من أثر في تقوية جمال الشعر وتحسينه، غير أنّه من الواضح أنّ هذا الباب تداخل عليه مع اصطلاح الطباق[٢].

وتحدّث عن «التتميم»، فقال: «هو أن يذكر الشاعر معنىً فلايدع من الأحوال التي يتمّم بها صحّته وتكمّل معها جودته شيئاً إلّا أتى به إمّا بقصد المبالغة، وإمّا بقصد الاحتياط.

فمن الضرب الأوّل (أي قصد المبالغة) قول نافع بن خليفة الغنوي:

رجالٌ إذا لم يُقْبَلُ الحقُّ منهُم ويُعْطوهُ عاذُوا بالسيوفِ القواطعِ

فإنّما تمّت جودة المعنى بقوله: «ويعطوه»، وإلّا كان المعنى منقوص الصحّة.

وقد سمّى ابن المعتزّ هذا الضرب باسم «الاعتراض».

وأمّا الضرب الثاني من ضربي التتميم (اي قصد الاحتياط) فأنشد فيه قدامة قول طرفة:

فَسَقى دِيَارَكِ ـ غَيْرَ مُفْسِدِها ـ صَوْبُ الرَبيعِ وديمةٌ تَهْمي[٣]

ومرَّ بنا أنّ الجاحظ كان يسمّي مثل هذا البيت «إصابة المقدار»[٤]، وسمّاه المتأخّرون من البلاغيّين ـ ومنهم ابن رشيق فاصلين له عن التتميم باسم ـ

---

١. الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ٢٣٠.

٢. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص٤٤٣.

٣. صوب الربيع: انصباب مطر الربيع، والديمة: المطر الدائم في لين، وتهمي: تسقط وتسيل مياهها، غير مفسدها: أي بالقدر المحتاج إليه لا هو ناقص عن الحاجة، ولا زائد عن المطلوب.

والبيت في ديوان طرفة بن العبد، ص٨٨؛ الإيضاح، ص١٥٦؛ معاهد التنصيص، ج ١، ص٣٦٢؛ الدرر، ج ٤، ص٩؛ همع الهوامع، ج ١، ص ٢٤١، اللسان (همي).

٤. البيان والتبيين، ج ١، ص٢٢٨.

«الاحتراس والاحتياط»[١].

أمّا المطابق والمجانس، فيكاد قدامة أن يجعل هذين النعتين جنساً واحداً، وهو لايريد بالمطابق معناه عند ابن المعتزّ، وإنّما يريد به ضرباً من المجانس أو الجناس، وهو الجناس الكامل، وقداستعار لقب هذا النوع من أُستاذه ثعلب في كتابه قواعد الشعر. أمّا المجانس، فهو أن تكون المعاني مشتركة في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق، وطبقاً لذلك فقد قسّم الجناس إلى قسمين: ما كان بين اسمين متّفقين في اللّفظ مختلفين في المعنى أطلق عليه المطابق، وما كان بين لفظين يجمع بينهما الاشتقاق أطلق عليه المجانس. وقد مرّعن ثعلب أنّه يسمّي أنواع الجناس كلّها طباقاً.

والخطأ الذي وقع فيه قدامة بخلطه بين المطابقة وبين التجنيس جرّ عليه انتقادات كثيرة من طرف نقّاد لاحقين[٢].

وذكر قسماً من أقسام البديع وسمّاه «الإرداف»، وقد سبق أنّ الجاحظ لقّب هذا النوع «بالتعريض والكناية» وتابعه في التسمية ابن المعتزّ، أمّا ثعلب، فسمّاه «لطافة المعنى»، وسمّاه المبرّد بـ«الكناية»[٣].

ويفرّق قدامة بن جعفر بين ثلاثة مصطلحات تفريقاً واضحاً وهي: «المبالغة»، و«الغلوّ»، و«الامتناع» ممّا يجعلنا نستطيع أن نضع «المبالغة» و «الغلوّ» في إطار واحد، ونجعل «الامتناع» نقيضهما.

والمبالغة[٤] عند قدامة هي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده، فلايقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من

---

١. العمدة، ج٢، ص٥٠.

٢. من الذين أخذوا على قدامة هذا الخلط الآمدي في الموازنة، ج١، ص٢٧٤ و ٢٧٥: والعسكري في كتاب الصناعتين، ص٣٠٧؛ وصاحب الطراز، ج٢، ص٣٧٨، والسجلماسي في المنزع البديع، ص١٧٩.

٣. البيان والتبيين، ج١، ص٩٣ و ٩٤؛ البديع، ص٦٤؛ قواعد الشعر، ص٥٣.

٤. سمّاها ابن المعتزّ: الإفراط في الصفة. انظر: البديع، ص٦٥.

تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد إليه، وذلك مثل قول عمير بن الأهتم التغلبي:

وَنُكْـرِمُ جَـارَنَا مَـادَامَ فـينا ... ونُتْبِعُهُ الكَرامةَ حيْثُ مَـالا[١]

فإكرامهم للجار مادام فيهم من الأخـلاق الجـميلة المـوصوفة، وإتـباعهم إيّـاه الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل، أي أنّ المبالغة هي عدم الاقتصار على الأوسط في المعنى، وإنّما هي إضافة لمزيد من البيان والتوكيد، وتمكين الصورة في ذهن المستمع.

وتحدّث عن الغلوّ فجعله وسطاً بـين المـغالاة والإفـراط الشـديد، وقـد سـبقه للحديث عنه ابن المعتزّ تحت عنوان «الإفراط في الصفة».

وذكر «التوشيح» وهو أن يكون أوّل البيت شاهداً بقافيته ومعناها متعلّقاً به حتىٰ أنّ الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أوّل البيت عرف آخره وبانت له قافيته، كقول الراعي:

وإنْ وُزِنَ الحصَىٰ فَوَزَنْتُ قَومي ... وَجَدْتُ حَصَىٰ ضريبتهم رَزِينا[٢]

وهذا الذي ذكره «ردّ الإعجاز علىٰ ما تقدّمها» عند ابـن المـعتزّ. وأطـلق اسـم «الالتفات» على نوع من نوعي الاعتراض عند ابن المعتزّ.

وأثبت بعض المصطلحات السابقة، كالإيغال، وقد استعاره من الأصـمعي الذي تنبّه إليه، وإنْ لم يقترح له اسمه، والتشبيه الذي جعله غرضاً من أغـراض الشـعر، والاستعارة التي تعرّض لها أثناء حديثه عن المعاظلة والتمثيل، ويشمل التمثيل عند قدامة الاستعارة التمثيليّة وبعض صور الكناية.

---

١. ديوان الحماسة، ص١٣٨٥؛ نقد الشعر، ص١٤٦؛ الإيضاح، ص٢٧٦؛ الإشارات، ص٢٢١.

٢. نقد الشعر، ص١٦٧، فإنّ السامع متىٰ فهم أنّ الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصىٰ وعلم أن القافية نونية مـردفة مطلقة بالألف علم أنّ القافية رزينا ولابدّ (انظر: المصباح، ص٢١٦؛ العمدة، ج٢، ص٣٢؛ شرح عقود الجمان، ج٢، ص٩١؛ خزانة الأدب، ج٢٢، ص٢٠٠٤؛ الصناعتين، ٣٩٨؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٨؛ تـحرير التـحبير، ص٢٢٩؛ نفحات الأزهار، ص٢٣٥؛ ديوان الراعي، ص٧٣).

كما أطلق على الإيجاز «الإشارة»، وأضاف بعض المصطلحات الجديدة، كالمعاظلة[١]، والتخلّع[٢]، والتجميع[٣]، وهي إلى العروض أقرب منها إلى علوم البلاغة.

أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ، ق):

وأطلق أبو هلال العسكري كلمة «البديع» علىٰ أنواع، أخرج منها التشبيه، والإيجاز، والإطناب، والسجع، والازدواج، بينما عدَّ الاستعارة والمجاز من البديع، وهي محاولة جديدة أراد بها حصر أغراض البديع وتفريقها عن بقيّة أغراض علمي المعاني والبيان، إلّا أنّه حذف السجع والازدواج، وأدخل الاستعارة والمجاز بدلاً منها.

كما أنّ هناك أنواعاً أُخرى تداخلت تداخلاً مضطرباً، فهو يورد باباً باسم «باب الإشارة»، تقرأه فلاتخرج بجديد عمّا قيل في الإيجاز، أو الكناية، و«باب الإرداف والتوابع»، تقرأه فترى أنّه الكناية، والمماثلة، والتورية، والتعريض، واللّحن واحد لافارق بينهما، ثمّ «العكس» و«ردّ الأعجاز إلى الصدور» و «التذييل» كلّها متقاربة، وكان جديراً به أن يوفّر عليه جهده في التمييز بين الفروق الدقيقة، والبحث عن الأمور التي هي أكثر أهمّيّة ما يفيد في الوقوف على أسرار الإعجاز، وعلى التعرّف

---

١. نقد الشعر، ص١٧٤ و ١٧٥ هو أن يدخل بعضه في ما ليس من جنسه وما هو غير لائق به، مثل قول أوس:

وذاتُ هِدمٍ عارٍ نواشرُها   تُصمت بالماء تولّباً جدّعا

فسمىٰ الصبيّ تولّباً وهو ولد الحمار.

٢. نقد الشعر، ص١٧٨ وهو أن يكون قبيح الوزن قد أفرط قائله في تزحيفه، كقول الشاعر:

والمرء لو عاش في تكذيب   طولُ الحياة له تعذيبُ

فهذا معنىٰ جيّد ولفظ حسن إلّا أن وزنه قد شانه وقبّحَ حسنه، وأفسد جيده.

٣. نقد الشعر، ص١٨١ وهو أن تكون قافية المصراع الأوّل من البيت الأوّل علىٰ رويّ متهيّئ لأن تكون قافية آخر البيت، فتأتي بخلافه مثل ما قال عمرو بن شأس:

تذكّرتُ ليلىٰ لات حين ادكارها   وقد جنىٰ الأصلاب ضلا بتضلال

وعدّه العسكري من عيوب الازدواج.

على جمال الأسلوب الفني[١].

لقد قسّم أبو هلال البديع إلى خمسة وثلاثين فصلاً، خصّ كلّاً منها بلون من ألوان البديع، وهي:

١ و ٢. الاستعارة والمجاز. ٣. المطابقة. ٤. التجنيس. ٥. الكناية والتعريض. ٦. ردّ الأعجاز على الصدور. ٧. الاعتراض. ٨. الالتفات. ٩. الرجوع. ١٠. تجاهل العارف، ومزج الشكّ باليقين. ١١. المذهب الكلامي. ١٢. المقابلة. ١٣. صحّة التقسيم. ١٤. صحّة التفسير. ١٥. الإشاره. ١٦. الإرداف والتوابع. ١٧. الغلوّ. ١٨. التوشيح. ١٩. التتميم والتكميل. ٢٠. المجاورة. ٢١. العكس. ٢٢. الايغال. ٢٣. الترصيع. ٢٤. التشطير. ٢٥. التطريز. ٢٦. المضاعفة. ٢٧. الاستشهاد. ٢٨. التلطف. ٢٩. التذييل. ٣٠. الاستطراد. ٣١. جمع المؤتلف والمختلف. ٣٢. السلب والإيجاب. ٣٣. الاستثناء. ٣٤. التعطّف. ٣٥. المماثلة.

فهو يلتقي بابن المعتزّ في الفنون العشرة الأولى، وكذلك يلتقي بقدامة في الفنون الإثني عشر التي تضاف إلى فنون ابن المعتزّ السابقة، فيبقى ثلاثة عشر مصطلحاً أو فنّاً يزعم أنّه أضاف إلى المصطلحات التي وضعها ابن المعتزّ وقدامة ستّة جديدة لم يُسبق إليها، وهي: التشطير، المجاورة، التطريز، المضاعفة، الاستشهاد، التلطّف. أمّا السبعة الأخيرة، فلم يذكر مصدرها[٢].

وقد تنبّه أحد الباحثين[٣] إلى أنّ هذه المصطلحات السبعة ـ الأخيرة غير المعزوّة إلى أصحابها، وهي: المماثلة، التذييل، الاستطراد، جمع المؤتلف والمختلف، السلب والإيجاب، الاستثناء، والتعطّف ـ ما هي إلّا نتاج السابقين أيضاً، فالتذييل ما هو إلّا الإطناب، وكذلك فإنّ الاستطراد هنا هو الخروج لدى ابن المعتزّ، وأمّا السلب

---

١. أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص٣٢٥.

٢. كتاب الصناعتين، ص٢٦٨ و ٤٣٠.

٣. المصطلح البلاغي وتطوّره، (مجلة كلية الآداب، الامارات: عدد ٦، ص٣٢٧).

والإيجاب، فهما نوع من المطابقة التي أفاض فيها كلّ السابقين عليه، أمّا الاستثناء، فهو بعينه تأكيد المدح الذي جاء به ابن المعتزّ، وأخيراً فإنّ التعطّف هو شقٌّ واحد من الجناس الذي أتىٰ به ابن المعتزّ، والذي أسماه قدامة فيما بعد بـ«المطابقة»، وإذا كان هذا هو الموقف، فإنّ أبا هلال قد كرّر اللّون الواحد تحت مسَمّيين: الجناس والتعطّف، وهو الأمر المربك ـ حقّاً ـ لقارئ الصناعتين.

ومعنى ذلك: أنّه لم يبتكر هنا إلّا جمع المؤتلف والمختلف، والذي لم يدرجه أبو هلال ضمن ماوضعه بداية، وهي الألوان الستّة التي سبق ذكرها مضافاً إليها هنا جمع المؤتلف والمختلف.

وقفة مع مصطلحات أبي هلال العسكري

ولنقف على المصطلحات المبتكرة لأبي هلال العسكري بشيء من التحليل هي:

١. التشطير: «وهو أنْ يتوازن المصراعان والجزءان، وتتعادل أقسامهما مع قيام كلّ واحد منهما بنفسه، واستغنائه عن صاحبه»[١].

ويذكر شوقي ضيف[٢]: أنّ العسكري أخذ التشطير عن ثعلب القائل: «أبلغ الشعر ما اعتدل شطراه وتكافأت حاشيتاه»[٣]؛ لاستناده إلى عبارة «شطر» في معرض تعريفه للبيت المعدل، وهو رأي فيه[٤] مغالاة.

ومثّل أبو هلال له بمثالين: الأوّل من النثر، والثاني من المنظوم، أمّا الأوّل: فقول بعضهم: «من عتب على الزمان طالت معتبتُه، ومن رَضِيَ عن الزمان طابت معيشتُه».

وأمّا الثاني، فـ«الجود خير من البخل، والمنع خير من المطل».

---

١. كتاب الصناعتين، ص٤١١.

٢. البلاغة تطور وتاريخ: ص١٤٤؛ الصبغ البديعي، ص١٧٣؛ قضية الإعجاز القرآني، ص٣٨٢.

٣. قواعد الشعر، ص٦٣.

٤. البلاغة لغة واصطلاحاً (عن مجلة الفكر العربي: العدد٤٦، ص١٥٨).

ومن المنظوم، فقول ذي الرمّة:

اَسْـتَحْدَثَ الركبُ عـن أَشْياعِهِم خَـبَرَاً أَمْ راجـع القـلب مـن أطـرابـه طَـرَبُ[١]

وعدّ القزويني التشطير من السجع، وتبعه شرّاح التلخيص[٢].

٢. المجاورة: وهي تردّد لفظتين في البيت، ووقوع كلّ واحـدة مـنهما بـجنب الأخرى أو قريباً منها، من غير أن تكون إحداهما لغواً، كقول علقمة:

ومطعِمُ الغُنْمِ يَوْمِ الغُنْمِ مُطْعِمُه أَنّىٰ تـوجّه والمـحرومُ مـحرومُ

فقوله: «الغنم يوم الغنم» مجاورة، و«المحروم محروم» مثله[٣].

وهذا قريب ممّا سمّاه قدامة بـ«المطابق»[٤] وقد سُمّي هذا اللّون فيما بعد بـاسم «الترديد»[٥].

٣. الاستشهاد والاحتجاج: بدأه ببيان دوره في التعبير قائلاً: «وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن مايُتعاطى مـن أجـناس صَـنْعة الشـعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى»[٦]. ثمّ عرّفه بقوله: «وهو أن تأتي بمعنى ثـم تؤكّده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأوّل، والحجّة على صحّته».

ومثاله من النثر ماكتبه الصاحب بن عبّاد في فصل له:

«فلاتَقِس آخرَ أمرك بأوّله... فالإناء فيملأه القطر فيفعَم، والصغير يقترن بالصغير فيعظم، والداء يلمّ ثمّ يصطلم، والجرح يتباين ثمّ ينفتق، والسيف يمس ثمّ يـقطع، والسهم يرد ثمّ ينفذ».

---

١. كتاب الصناعتين، ص٤١١؛ ديوان ذي الرمّة، ج١، ص١٣، استفهم الشاعر، فلذلك نـصب هـمزة «أستحدث» وقطعها. يقول: أهذا الحزن من خبر جاءكم، أم هاجكم شوق فحزنتم؟. انظر: حاشية العمدة، ج١، ص٥٩٨.

٢. الإيضاح، ص٢٩٧؛ التلخيص، ص٤٠٢؛ المطول، ص٤٥٥؛ عروس الأفراح، ج٤، ص٤٥٤.

٣. كتاب الصناعتين، ص٤١٣.

٤. البلاغة تطوّر وتاريخ، ص١٤٤ و ١٤٥.

٥. أُنظر: العمدة، ج١، ص٣٠٠. والمجاورة عند ابـن الأثـير النـوع الثـالث مـن الكـناية (انـظر: الجـامع الكـبير، ص١٦٤).

٦. كتاب الصناعتين: ص٤١٦.

ومثاله في الشعر قول الشاعر:

إنّما يَعْشَقُ المنايا من الأقـ وام من كان عاشقاً للمعالي

وكذلك الرِّماح أوّل ما يكـ سر منهنّ في الحروب العوالي

٤. **التذييل**: هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل علىٰ معناها للتوكيد[١].

والتذييل الذي أجرى العسكري الاستشهاد مجراه معدود عند الأُدباء وعلماء البلاغة في الدرجة القصوى من البلاغة، وله في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأنّ المعنى يزداد به انشراحاً، والمقصد اتّضاحاً. قال بعض البلغاء: «للبلاغة ثلاثة مواضع: الإشارة، والمساواة، والتذييل: وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكّد عند من فهمه...، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأنّ تلك المواطن تجمع البطيء الفَهْم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيّد الخاطر، فإذا تكرّرت الألفاظ على المعنى الواحد تؤكّد عند الذهن اللّقن، وصحّ للكليل البليد»[٢].

ومثاله من القرآن قول اللّه عزّ وجلّ:

---

١. وذكر ابن حجّة الحموي تعريفاً للتذييل وهو: «ان يُذيّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقّق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيداً، وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق» (خزانة الأدب، ج ٢، ص ٢٤٠) فالتذييل عنده عبارة تكميليّة تفيد تقرير وتوكيد معنىٰ ما قبله وتزيده وضوحاً وهو من هذا الباب يدخل في علم المعاني.

٢. كتاب الصناعتين، ص٣٧٣. ولقد قسّم السّكّاكي التذييل إلى قسمين:

أحدهما: مايجري مجرىٰ المثل، وهو ما استقلّ بإفادة المراد دون توقّف على ما قبله، وهذا هو الاستشهاد أو الاحتجاج عند العسكري.

والآخر: هو مالايجري مجرى المثل، فلا يستقلّ بإفادة المراد،بل يتوقّف على ما قبله، وهذا النوع «مالايجري مجرى المثل» هو وحده «التذييل» عند أبي هلال، وإنّما لم يخرج مخرج المثل؛ لأنّ المثل صفته الاستقلال؛ لأنّه كلام تامّ نقل عن أصل استعماله لكلّ مايشبه حال الاستعمال الأوّل كما هو معروف في الاستعارة التمثيليّة، وهذا المحسّن البديعي يكون في الشعر، كما يكون في النثر، وجعله البلاغيّون بعد أبي هلال ضرباً من ضروب الإطناب في علم المعاني.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[١].

ومعناه: وهل يجازىٰ بمثل هذا الجزاء إلّا الكفور.

والفرق بين التذييل وبين الاستشهاد والاحتجاج ـ كما يبدو ـ أن الاستشهاد والاحتجاج إنّما يكون بشيء مستقلّ عمّا سيق له الكلام، وأنّ التذييل الذي يعنيه العسكري ـ كما يبدو أيضاً من أمثلته ـ هو المتّصل معناه بمعنى ماسيق له الكلام.

٥. **المضاعفة**: وهي أنْ يتضمّن الكلام معنيين: معنىً مصرّحاً به، ومعنى كالمشار إليه. وساق له الأمثلة، منها ما هو من القرآن، ومنها ما هومن النثر والشعر.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٢].

فالمعنى المصرَّح به في هذا الكلام هو أنّه لا يُسمع من صَمَّ عن الكَلِم، ولا يهدي من عَمِيَ عن الآيات.

والمعنى المشار إليه هو تفضيل السمع على البصر؛ لأنّه سبحانه قَرنَ الصمم بفقدان العقل، والعمى بفقدان النظر فقط[٣].

وقد جعلهما أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ، ق) ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ، ق) لونين تحت اسم «التعليق والإدماج»[٤].

وواضح أنّ معظم الأمثلة التي ساقها أبو هلال العسكري تدخل في الكناية، ويمكن أن تدخل أيضاً في الإشارة، وفي الإرداف والتوابع التي سبق أن تحدّث عنها، وكان أبو هلال في غنى عن ذكر هذه الأنواع؛ لأنّها تدخل في الأنواع التي سمّاها[٥].

---

١. سبأ: ١٧.

٢. يونس: ٤٢ـ٤٣.

٣. كتاب الصناعتين، ص٤٢٣.

٤. البديع في البديع، ص٩٤؛ بديع القرآن، ص١٧١ و١٧٢.

٥. البلاغة تطوّر وتاريخ، ص١٤٥.

٦. التلطّف: عرّفه بقوله: «وهو أنْ تتلطّف للمعنى الحسن حتى تهجّنه، والمعنى الهجين حتى تحسّنه»، ومثَّل لذلك بقول ابن الرُّومي في مدح البخل وعذر البخيل:

لا تَــلُمِ المــرءَ عــلى بُــخْلهِ ... وَلـــمْهُ يــا صاحِ على بَـذْلِهِ

لا عَجبَ بالبخل من ذي حِجىً ... يُكــرم مــا يكــرم مــن أجـلهِ[1]

وهذا هو ضرب من حسن التعليل، وكان حريّاً أن يقرنه إلى المذهب الكلامي[2].

٧. التطريز: وهو المصطلح الوحيد الذي لم يسبقه إليه أحد، وقد حدّه بقوله: «هو أَنْ يقع في أَبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون فيها كالطِّراز في الثوب»[3].

ويرى أنّ هذا النوع قليل في الشعر، وأحسن ماجاء منه قول أحمد بن أبي طاهر:

إذا أبــو قــاسمٍ جــادَتْ لَـنا يَــدُهُ ... لم يُحْمَد الأَجْـوَدانِ: البَحْرُ والمطرُ

وإنْ أَضـــاءَت لَـــنا أنــوارُ غُــرّتهِ ... تَـضاءَلَ الأنـوران: الشمسُ والقـمرُ

وإن مــضى رأيــهُ أو حَــدَّ عــزْمتهُ ... تــأخّر المــاضيان: السـيفُ والقـدرُ

من لم يكن حـذراً مـن حـدِّ صَـوْلته ... لم يَدْرِ ما المزعجان:الخوفُ والحذَرُ

ثــمّ يـقول: فـالتطريز فـي قـوله: «الأجـودان»، و«الأنـوران»، و«المـاضيان»، و«المزعجان»[4].

وهذا النوع هو الإطناب بالتوشيع وهو أن يأتي المتكلّم بمثنّى يُفَسِّرُهُ بـمعطوف ومعطوف عليه؛ وذلك من أجل التثنية أصلها العطف، فيأتي بعد المثنّى بما يدلّ على معناه ويرشِد إليه على وجه العطف، كما في المثال الذي أورده العسكري.

وضرب أمثلَة أخرى قد تُطابِق تعريفه منه قول زياد الأعجم:

---

١. كتاب الصناعتين، ص٤٢٧ و ٤٢٨.

٢. البلاغة تطور وتاريخ، ص١٤٥ وقال الحلّي والحموي والمدني: إن بعضهم سمّى التغاير تلطّفاً (شرح الكافية، ص١٠٢؛ أنوار الربيع، ج٢، ص٣٧١).

٣و ٤. كتاب الصناعتين، ص٤٢٥.

ومـتى يـؤامِـر نَـفْسَهُ مستلحياً — في أنْ يجود لذي الرَّجاء يَقُلْ جُـدِ
أو أنْ يـعودَ له بـنفحةِ نـائلٍ — بـعد الكرامـة والحـياء يـقُلْ عُـدِ
أو فـي الزيـادَةِ بـعد جـزل عـطيّة — للـمستزيد مـن العُـفاةِ يَـقُلْ زِدِ

فالتطريز في قوله: «الرجاء، والحياء، والعُفاة».

والتطريز غير ذلك عند ابن أبي الإصبع المصري، وهو «أنْ يـبتدئ المـتكلّم أو الشاعر بذكر جمل من الذوات غير منفصلة، ثم يُخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكرّرة بحسب العدد الذي قدّره في تلك الجملة الأُولى».

وتبع المصري في هذا كلّ مـن ابـن مـالك، والنـويري، والعـلوي، والسـبكي، والحموي، والسيوطي، غير أنّ ابن قيّم الجوزيّة وافق تـعريفه تـعريف أبـي هـلال العسكري.

و تقدّم أنّ أبا هلال قد فصل السجع والازدواج عن فنون البديع، وأفرد لهما باباً خاصّاً مخالفاً لمن سبقه.

ويرى أنّ السجع فنّ من فنون الصناعة التي تجمل بها الكتابة، ويـزيد رونـقها، ويراه في القرآن سِرّاً من أسرار إعجازه، وهو عنده على وجوه:

منها: أن يكون الجزءان متوازيين متعادلين لايزيد أحدهما على الآخر، مع اتّفاق على حرف بعينه، ويمثّل له بقول أعرابي: «نزلت بوادٍ غير ممطور،وفناء غير معمور، ورجل غير مسرور، فأقم بندم، أو ارتحل بعدم».

ومنها: أن تكون ألفاظ الجزءين المزدوجين مسجوعة، فيكون الكلام سجعاً في سجع، وهو مثل قول البصير: «حتى عاد تعريضُك تصريحاً، وتمريضك تصحيحا»[1].

وهذان الوجهان من أعلى مراتب الازدواج والسـجع عـند أبـي هـلال، والذي دونهما عنده أن تكون الأجزاء متعادلة، وتكون الفـواصـل عـلى أحـرف مـتقاربة

---

١. المصدر، ص٢٦٣.

المخارج إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد، كقول بعض الكتّاب:

«إذا كنت لاتُؤْتىٰ من نَقْص كَرَم، وكنت لاأُوتىٰ من ضَعْف سَبَب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدولاً عن اغتفار زلل، أو فتوراً عن لمّ شَعَث، أو قـصوراً عـن إصلاح خَلَل»[1].

فالسجع عند أبي هلال من حلي القول، ولكن علّقه على شروط ليتمّ له طـابع الحسن، منها: عدم الخروج إلى التكلّف والتعقيد، وماجاء من القرآن ـعنده ـ تسجيع وازدواج بالغ الروعة؛ لأنّه لاكلفة فيه ولاتعقيد، بل تجري السجعات مع المـعاني سهلة طيّعة، ويضع ماجاء في القرآن منه مقياساً لأعلىٰ مراتبه[2].

والازدواج عنده شقيق السجع، ولايحسن ـ عنده ـ منثور الكلام ولايحلو حتى يكون مزدوجاً، فيقول: «لاتكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج».

وضرب أمثلته من القرآن، كقوله تـعالى: ﴿ٱلْحَـمْدُ لِـلَّهِ ٱلَّـذِى خَـلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّـلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[3]، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿أَن لَّوْنَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[4].

وكذلك ما زاوج بينه بالفواصل، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[6و7].

وذكر من عيوب الازدواج ـ متأثّراً بقدامة ـ: التجميع وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني.

---

١. أُنظر: المصدر، ص٢٦٣.

٢. أُنظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص٣٢١.

٣. الأنعام: ١.

٤. الأعراف: ١٠٠.

٥. الضحى: ٩و١٠.

٦. أُنظر كتاب الصناعتين: ص٢٦٠.

٧. النجم: ٤٣.

ومن عيوبه أيضاً التطويل وهو أن تجيء بالجزء الأول طويلاً، فتحتاج إلى إطالة الثاني ضرورة[١].

وجدير بالذكر عدم تعرّضه للفاصلة، وهي المختصّة بالقرآن في دراسات الإعجاز، والمقابلة للسجع في الكلام العادي، وكأنّه بذلك لم يقبل التفرقة بين الفنّين، ولم يأخذ بكلام الأشعري، أو الرمّاني، أو غيرهما في ذلك، فهو لم يصرّح أمام أيّة آية من الآيات التي استشهد بها أنّ ما بها سجعاً، وإنّما سمّاه فواصل.

ولا يكفي أنْ يقال: إنّ الدافع إلى دراسة السجع في الكلام هو شيوع السجع بين كتّاب العصر وعلمائه.فكان طبيعيّاً أن يعمد النقد إلى دراسة ذلك الفنّ لبيان أوجه جماله ومعايبه، وتتبع أقسامه وأوزانه؛ إذْ كان القرآن ـ بما فيه من هذه الصفة، وما يحمل في نظمه من جرس موسيقي له آثاره النفسيّة ـ أول دافع لعلماء العرب للبحث في أمر ذلك النظام العجيب[٢].

أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣ هـ، ق):

أوّل مانلحظ في تناول الباقلاني للبديع أنّه يتحدّث عنه وهو بصدد الحديث في إعجاز القرآن؛ إذ كان الإعجاز عنده بالنظم، أي الروح التي تسري في جملة القرآن، تلك الروح التي يمكن أنْ نُسمّيها الأُسلوب، أو العلاقات، أو وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب.

وقبل أنْ يتحدّث عن كيفيّة الوقوف على إعجاز القرآن يعقد فصلاً يتحدّث فيه عن وجوه البديع، ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها، أو لا يمكن؟.

فمفهوم البديع عنده يشمل جميع الخصائص اللّغوية والصور الفنّيّة التي أطلق المتأخّرون عليها كلمة «البلاغة»، وهو في ذلك يجري على ماجرى عليه العلماء

---

١. كتاب الصناعتين، ص٢٦٤.

٢. أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص٣٢٤.

إلى عهده من إطلاق الكلمة (أي البديع) على فنون المعاني والبيان والبديع.

وقد نقل الباقلاني كثيراً عن أبي هلال العسكري، وهو نفسه يذكر أنه نقل، إلاّ أنه لايشير إلى المصدر الذي نقل عنه، ولايصرّح باسم أبي هلال، ويكاد النقل يكـون حرفياً في هذا الباب، فهو يعدّ لنا من البديع خمسة وثلاثين باباً، كما أحصاها أبو هلال، فتجد أنّ معظم التعاريف واحدة عندهما، وكذلك أمر الشواهد والأمثلة تكاد تكون متطابقة.

فمن الأبواب التي اشتركا في ذكرها: **الاستعارة، المـطابقة، التـجنيس، المـقابلة، صحة التقسيم، الكناية والتعريض، صحة التفسير، الموازنة، الإشاره، الغـلوّ، المـبالغة، العكس، التذييل، الترصيع، الإيـغال، التـوشيح، ردّ الأعـجاز عـلى الصـدور، التـتميم والتكميل، الالتفات، الاعتراض، الاستطراد، السـلب والإيـجاب، الاسـتثناء، التـعطف، الإرداف، المماثلة.**

ومقارنة بين الباقلاني وبين قدامة بن جعفر في نقد الشعر، أو بينه وبين أبي هلال في الصناعتين، تكشف عن وحدة المنهج والخطة، وعن وحـدة الأمـثلة فـي كـثير ممّا يسوق.

فالباقلاني لايزيد على أنْ يذكر الظاهرة الفنّيّة ومثلها، بينما يتناول قدامة البلاغة ومظاهرها لذاتها ولإثبات خصائصها، ومن ثمّ فإنّه يهتمّ بذكر أسـرارهـا، وأسـرار تأثيرها في جمال الأسلوب والارتفاع به[١].

وأبو هلال يحذو حذو قدامة في تحليل جلّ الأمثلة الأصحّ، والوقوف على مدى حسنها أو قبحها، وإنْ كان يباينه في أنّ تحليله كان أدنى إلى الذوق العربي، ومجانبة العمق الفلسفي الذي نزع إليه قدامة[٢].

والباقلاني حين يتناول الظواهر الفنّيّة يريد أن يثبت من طريقها إعجاز القرآن،

---

١. أُنظر: إعجاز القرآن، ص٢٩٧.

٢. الصبغ البديعي، ص١٦١.

فهي عنده مَعْبَر إلى غرضه من تأليف كتابه إعجاز القرآن، ولذلك يكتفي بالسّرد[١].

ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ،ق):

يستهل ابن رشيق فنون البديع بالمجاز[٢]، ويؤكّد أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، ويعتبر «التشبيه»، و«الاستعارة»، و«الكناية» داخلة تحته؛ لذا عدّ المجاز دليل الفصاحة، ورأس البلاغة.

ومعروف أنّ البلاغيّين بعده جعلوا المجاز علماً على الاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل والعقلي، وأخرجوا التشبيه؛ لأنّ ركنيه وهما المشبّه والمشبّه به حقيقيان.

ويعقد فصلاً للاستعارة[٣]، ويتابع ابن المعتزّ في جعلها أوّل أبواب البديع، ويعتبرها من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها، مقارناً صوراً من الاستعارة التصريحية إلى أُخرى من الاستعارة المكنيّة.

ويفرد فصلاً للتمثيل[٤] متابعاً في دلالته لقدامة بن جعفر، ويقول:إنّ بعضهم يسمّيه المماثلة، وهو إمّا يقصد أبا هلال، أو خاله أبا أحمد، ويضيف إليه فصلاً عن المثل السائر، ومعروف أن البلاغيين يدخلونه في التمثيل، أو الاستعارة التمثيليّة.

وتوسّع ابن رشيق في دراسة الكناية عبر عنوانين: هما: الإشارة، والتتبيع. وقسم الإشارة إلى أنواع تدرج فيها من خفاء الدلالة إلى الأكثر خفاءً.

وأنواع الإشارة عنده هي: الإشارة، والإيحاء، والتعريض، والتلويح، والرمز، واللمحة، واللغز، واللحن، والتعمية، والتورية.

---

١. الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص٢٩٧.

٢. أُنظر: العمدة، ج ١، ص ٤٥٥.

٣. المصدر، ص ٤٦٠.

٤. المصدر، ص٤٧٣.

تعرّض في أثناء دراسة التتبع إلىٰ عدد كبير من الشواهد الشعريّة التي اكتفى منها بالكشف عن دلالة بعض الشواهد المختبئة خلف الكلمات، فحرمنا بهذه الطريقة من أنْ نستبين مدى تأثّره بالبيان القرآني، خصوصاً وأنّه لم يأت بشواهد مـن القـرآن ماخلا واحداً عن التعريض، تعامل معه كما تعامل مع سائر الشواهد الشعريّة.

ويلاحظ أنّ ابن رشيق قد أفاض في باب الإشارة، وأدخل فيها تلك الأنواع، وهو في ذلك أدقّ من صاحب الصناعتين الذي أفرد عنها كثيراً من أقسام الكناية، بـينما كان ينبغي أن يسلكها فيها. وحديث ابن رشيق عن الإشارة مظهر من مظاهر تنظيمه لمباحث السابقين، وضمّ الأشباه إلى أشباهها، وجعلها تحت لون واحد.

ويعقد باباً للتجنيس[1] ويذكر أقسامه، وهي كثيرة، منها:

١. المماثلة، وعرّفها بقوله: «وهي أن يتكرّر اللّـفظ بـاختلاف المـعنى»، وهـي المطابقة عند قدامة بن جعفر،[2] والتعطّف عند أبي هلال[3]، وأدخـلها القـزويني فـي الموازنة[4]. وعند قدامة وأبي هلال العسكري المماثلة: هي التمثيل والاستعارة، وقد عرّفها أبو هلال بتعريف قدامة للتمثيل مع مغايرة يسيرة في العبارة، ثم ساق أمثلة تنطبق على التشبيه التمثيلي، وعلى الاستعارة التمثيليّة[5].

وضرب ابن رشيق مثالاً للمماثلة من قول زياد الأعجم:

فـانْعَ المُـغيرَةَ للـمُغيرةِ إذْ بَـدَتْ   شَـعْوَاءُ مُشْـعَلَةً كَـنَبْحِ النّـابحِ[6]

---

١. المصدر، ج١، ص٥٤٥.

٢. نقد الشعر، ص١٦٢، يقول في المطابقة: مايشترك في لفظة واحدة بعينها، ويكون لها معنيان. أُنظر: العمدة، ج١، ص٥٤٨.

٣. كتاب الصناعتين، ص٤٢٠، يقول في التعطّف: أن تذكر اللّفظ ثمّ تكرّره والمعنى مختلف.

٤. الإيضاح، ص٢٩٩، يقول في الموازنة: فإنْ كان مافي إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر مافيها مثل مـايقابله من الأُخرى في الوزن خصّ باسم المماثلة.

٥. نقد الشعر، ص١٥٩؛ كتاب الصناعتين، ص٣٥٣.

٦. العمدة، ج١، ص٥٤٦؛ المنزع البديع، ص٤٨٣؛ كفاية الطالب، ص١٣٢. الغارة الشعواء: المتفرّقة المنتشرة.

فالجناس المماثل هنا بين «المغيرة» اسم رجل، و«المغيرة» الفرس.

وقال يحيى بن حمزة العلوي: «سُمّيَ هذا النوع جناساً لما فيه من المماثلة اللفظيّة»[١].

وضرب لهذا القسم مثالاً من القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[٣].

فالآية الأُولى ذكرها النويري وابن الأثير مثالاً لجناس المغايرة.

والآية الثانية ذكرها الرماني في جناس المناسبة، ويقصد بها بذلك جناس الاشتقاق[٤].

ومثّل ابن رشيق لهذا القسم أيضاً من كلام النبيّ ﷺ: «سُلَيْمٌ سالمها اللّه، وغِفارٌ غَفَرَ اللّه لها، وعُصَيَّةُ عَصَتِ اللّه ورسولَه».

وذكرها ابن معصوم في الجناس المطلق[٥].

٢. التجنيس المحقّق: وهو ما اتّفقت فيه الحروف دون الوزن ـ رَجَعَ إلىٰ الاشتقاق، أو لم يرجع ـ نحو قول أحد بني عبسٍ:

وَذَاكُمُ أَنَّ ذُلَّ الجارِ حَالَفَكُم ... وأنّ أَنْفَكُم لايعْرفُ الأَنَفا

فاتّفقت الأَنْفُ والأَنَفَ في جميع حروفها دون البناء، ورجعا إلىٰ أصلٍ واحدٍ، وذكر أن عليّ بن العزيز الجرجاني يُسمّيه التجنيس المطلق[٦].

٣. تجنيس المضارعة: وذكر أنّه على ضروب كثيرة، منها:[٧].

---

١. الطراز، ج٢، ص٣٥٥.

٢. النمل: ٤٤.

٣. التوبة: ١٢٧.

٤. نهاية الأرب، ج٧، ص٩٦؛ جوهر الكنز، ص٢٠٥.

٥. النكت في إعجاز القرآن، ص٩١.

٦. أنوار الربيع، ج١، ص١١٨.

٧. العمدة، ج١، ص ٥٥٠ و ٥٥١، أُنظر: الوساطة، ص٤٢.

(أ) أنْ تزيد الحروف وتنقص، ويُسمّيه الجرجاني التجنيس الناقص، نحو قـول البحتري:

فيا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وعَزْمٍ طـواهُـما جَدِيدُ البِلى بينَ الصَّفا والصَّفَائِحِ[١]

فـ «الصفا» و«الصفائح» سواء لولا الهمزة والحاء.

(ب) أنْ تتقدّم الحروف وتتأخّر، كقول الطائي:

بيضُ الصَّـفائِحِ لاسُـودُ الصَّحَائف فـى مُـــــتُونِهنَّ جِـــلاءُ الشَّكِّ والرِّيبِ[٢]

ويُسمّيه البلاغيون بعده «بتجنيس القلب».

(ج) وقد تجيء المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف.

ويختتم بحثه ببيان الصلة بين التجنيس والطباق، فيقول: إذا دخل التجنيس نفي عُدّ طباقاً، وكذلك الطباق يصير بالنفي تجنيساً، وأفرد باباً للتفرقة بين هذين النوعين اللّذين اختلطا حتى صعب التفريق بينهما، وتحدّث عن سبب الاختلاط، ووضح أنّه ناشئ من استعمال الأضداد، كقولهم: «جَلَل» بمعنى: «صـغير»، و«جـلل»، بـمعنى عظيم، فإنّ باطنه مطابقة، وإن كان ظاهره تجنيسًا، وكذلك «طباق السلب»، كـقول البحتري:

يُقَيِّضُ لي من حـيثُ لاأعـلمُ الهَـوى وَيَسْري إليَّ الشَّوْقُ من حيثُ أعْـلَمُ[٣]

فهذا مجانس في ظاهره، مطابق في باطنه؛ لأن قوله: «لا أعلم»، كقوله: «أجهل».

وفرّع من «التجنيس» ماسمّاه «الترديد»[٤]، وهو نفس ماسمّاه أبـو هـلال بـاسم «المجاورة»[٥]، وهو أنْ يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ثمّ يوردها بـعينها مُـتعلّقةً

---

١. الصفا: جمع الصفاة، وهي الحجر الصلد الضخم. والصفائح: الأحجار العريضة. العمدة، ج ١، ص ٥٥٤.

٢. الصفائح: جمع صفيحة، وهي الحديدة العريضة أو السيف العريض. والصحائف: جمع صحيفة، وهي الكتب أو الدفاتر، جلاء الشكّ: كشف الأمر. العمدة، ج ١، ص ٥٥٤.

٣. المصدر، ص ٥٨٦.

٤. المصدر، ص ٥٦٦ و ٥٦٧.

٥. كتاب الصناعتين، ص ٤٠١.

بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسيم له، وذلك نحو قول زهير:

مَنْ يَلْقَ يَوْمَاً علـى عِـلاتِهِ هَـرِمَاً   يَلْقَ السَّماحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُـلُقَاً[1]

فعلّق «يلق» بـ«هرم»، ثم علّقها بـ«السماحة».

ثمّ تحدّث عن «التصدير»[2] وقد أشار إلى ابن المعتزّ الذي سمّاه بـ«ردّ العجز على الصدر»، وعرّفه ابن رشيق بقوله: هو أن يُرَدَّ أعجاز الكلام على صدوره، فيدلّ بعضه على بعض، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك، وما تقتضيها الصيغة، وفرق بين «التصدير» و«الترديد»، وذكر أن التصدير قريب من الترديد، والفرق بينهما أنّ التصدير مخصوص بالقوافي تُرَدُّ على الصدور، فلاتجد تصديراً إلاّ كذلك حيث وقع من كتب المؤلّفين وإنْ لم يذكروا فيه فرقاً، وأمّا الترديد، فيقع في أضعاف البيت[3].

وتحدّث عن الطباق والمقابلة[4] والتقسيم[5]، وأدخل في الأخير الترصيع، وقد مرّ بنا أنّ الجاحظ نوّه بالتقسيم وجودته، وأفرد له كلّ من قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري باباً مستقلاًّ.

ثمّ ذكر من أنواع التقسيم «التقطيع»، وسمّاه قوم ـ منهم عبد الكريم النهشلي[6] ـ «التفصيل»، وأشار إلى أحد عيوب التقسيم، وسمّاه: «التعقيب».

وسمّى ابن رشيق «التوشيح» كما سمّاهما قدامة وأبي هلال العسكري باسم

---

١. المقصود بـ«هرم»: هرم بن سنان ممدوح زهير، أحد من سعوا بالصلح بين عبس وذبيان، وتحمّل ديات القتلى، والمعنى في البيت: إنْ تلقه على قلّة مالٍ أو عُدمٍ سمحاً كريماً، فكيف به وهو على تلك الحال. اُنظر: ديوان زهير، ص ٧٢.

٢. العمدة، ج ١، ص ٥٦٦.

٣. المصدر، ص ٥٧٢.

٤. المصدر، ص ٥٧٦ و ٥٩٠.

٥. المصدر، ص ٥٩٩.

٦. كاتب ناقد عالم باللّغة وهو من شيوخ ابن رشيق، المصدر، ص ٦٠٧ و ٦٠٨.

«التسهيم»[١] متابعاً في ذلك عليّ بن هارون المنجّم[٢]، وأمّا ابن وكيع، فسمّاه، «المطمِعَ».

ثمّ تحدّث عن «التفسير»[٣]ـ: وهو أن يستوفي الشاعر شرح ماابتدأ به مجملاًـ، ثمّ أشار إلى صحيحه وسقيمه، وساق أمثلة كثيرة، ولم يخرج عمّا قاله قدامة فيه، ويناقش الحاتمي في تسميته الخروج استطراداً[٤].

ويذكر «التفريع»، وهو من الاستطراد كالتدريج من التقسيم؛ وذلك أنْ يقصد الشاعر وصفاً ما ثم يُفرّع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً، ثم بيّن أنّ من الاستطراد نوعاً يسمّىٰ الإدماج، ومثّل له بأمثلة، بينها مثال يدلّ على أنّ المأمون هو الذي سمّاه بهذا الاسم[٥].

وتحدّث عن «الالتفات» مُورداً كلام قدامة وابن المعتزّ[٦].

وتابع أبا هلال العسكري في تسمية توكيد المدح بما يشبه الذمّ باسم الاستثناء، وأشار إلى تسمية ابن المعتزّ[٧].

وتابع ابن رشيق قدامة في التتميم ماقاله ابن المعتزّ، مضيفاً أنّ البعض يطلق الاحتراس والاحتياط على ضرب منه، ونقل ماقاله ابن المعتزّ من إسناد تسمية «المذهب الكلامي» إلى الجاحظ[٨].

وفتح باباً سمّاه «نفي الشيء بإيجابه»، وقال عنه: وهذا الباب من المبالغة

---

١. المصدر، ج ١، ص٦١٦؛ نقد الشعر، ص ١٩١.

٢. راوية للشعر، وله مؤلّفات، توفّي ببغداد نحو ٣٥٢ هـ.ق (الأعلام، ج ٥، ص ١٨٣).

٣. العمدة، ج ١، ص ٦٢١.

٤. المصدر، ص٦٢٨.

٥. المصدر، ص ٦٣١ و ٦٣٢.

٦. المصدر، ص٦٣٦.

٧. المصدر، ص٦٤٢؛ أُنظر: البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٤٩.

٨. المصدر، ص٦٩٢.

كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١]. قالوا: معناه: ليس يقع منهم سؤال، فيكون إلحافاً، أي هم لايسألون ألبتّة، ويبدو أن هذا اللّون من ابتكار ابن‌رشيق.

وفتح باباً آخر سمّاه «الاطّراد»، وأراد به أنْ تطرد أسماء آباء الممدوح من غير كلفة، والكلفة واضحة في كلّ ماأنشده من أبيات هذا النوع[٢].

والمبالغة عنده ضروب كثيرة[٣]، ويرى أنّ «التتميم» إذا طلبت حقيقته كان ضرباً من المبالغه، وكذلك مايسمّيه الناس حشواً[٤]. ثم انتقل إلى الإيغال[٥] وتحدّث عن الغلوّ[٦]، وذكر أنّ له أسماء أُخر مثل: الإغراق، والإفراط، وذكر أن من الإيغال نوعاً يسمّى الاستظهار، ثمّ فرّق بين الإيغال والتتميم قائلاً: «وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرق، إلاّ أنّ هذا في القافية لايعدوها، وذلك في حشو البيت»[٧].

ثمّ انتقل إلى ما سمّاه ابن المعتزّ تجاهل العارف، ولقّبه التشكيك[٨].

ويذكر أنواعاً لاشأن لها بالبديع كالاستدعاء[٩] وهو من عيوب الشعر، ويعدّ التكرار من البديع متابعاً في ذلك أبي أحمد العسكري والباقلاني، ولكن وجدنا أنّ أبا هلال العسكري جعله فرعاً من فروع الإطناب لتوكيد الكلام[١٠].

وتحدّث عن «التضمين»[١١] مستمدّاً من ابن المعتزّ، وتعرّض هنا للإجازة وهي

---

١. البقرة: ٢٧٣.

٢. العمدة، ج١، ص٦٩٨؛ أُنظر: البلاغة تطور وتاريخ، ص١٥٠.

٣. المصدر الأول، ص٦٤٩.

٤. المصدر، ص٦٥١.

٥. المصدر، ص٦٥٤.

٦. المصدر، ص٦٦١.

٧. المصدر، ص٦٦٠.

٨. المصدر، ص٦٧٠.

٩. المصدر، ص٦٧٥ و ٦٨١.

١٠. المصدر، ج٢، ص٦٨٣.

١١. المصدر، ص٧٠٢.

بناء الشاعر بيتاً أو قسيماً يزيده على ماقبله، وربّما أجاز بيتاً أو قسيماً بأبيات كثيرة، ثمّ ذكر أنّ من هذا الباب نوعاً يسمّى «التمليط»، وهو أنْ يتساجل الشاعران فينشئ أحدهما شطراً أو بيتاً ويكمّل الثاني الشطر أو البيت.

وعدّ من البديع ماسمّاه باسم «الاتّساع»[١]، وهو أن يكون في البيت من الامتداد في معناه مايجعله يؤوّل تأويلات مختلفة. فكلّما تأمّل فيه ناقد أو شارح استنبط منه معنىً جديداً، وهي ملاحظة طريفة[٢].

وتحدّث عمّا سماه «الاشتراك والتـغاير»، وهما ضربان مـن ضـروب السـرقات الشعريّة المستحسنة، وكان حريّاً به أن يؤخّر الحديث عنهما إلى البـاب الخـاصّ بالسرقات[٣].

وعلى هذا النحو درس ابن رشيق فنون البديع، وواضح أنّها كانت تضمّ في عصره الصور البيانيّة. وهكذا أخذت كلمة «البديع» تخضع للبحث، والتفريع والنموّ، واتّسع مدلولها ممّا يؤذن لها بتحوّل جديد[٤].

ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦ هـ، ق):

لقد عاصر ابن رشيق إثنان من روّاد النقّاد والبلاغيّين هما: ابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ، ق)، ولم يؤثّر أحد هؤلاء الثلاثة في صاحبه أيّ لون من التأثير، سـوى أنّـهما (أي الخـفاجي والجـرجـاني) لم يكـونا إلاّ امـتداداً لقدامة بن جعفر (ت٣٣٧ هـ، ق)، ولمن سبقوهما.

نبدأ بابن سنان الخفاجي وبكتابه سرّ الفصاحة، ولنرى مدى تأثيره على السـير

---

١. المصدر، ص٧١٦.

٢. البلاغة تطور وتاريخ، ص١٥٠.

٣. المصدر، ص ١٥٠.

٤. أُنظر: مقدّمة كتاب بديع القرآن، ص٢٢ و ٢٤.

التطوّريّ لعلم البديع، فهو في كتابه يتحدّث عن الفصاحة، ويفرّق بينها وبين البلاغة، ويجعلها خاصّة بالألفاظ، بينما يجعل البلاغة عامّة تشمل الألفاظ والمعاني، وبذلك كان كلّ كلام بليغ فصيحاً، وليس كلّ فصيح بليغاً، ثمّ أطال في وصف فصاحة الكلمة المفردة، واشترط لها ثمانية أشياء، ثمّ أخذ يذكر صفات الفصاحة في الألفاظ المؤلفة، في أثناء ذلك عرض لأنواع البديع.

وهذا المنهج وهو تقسيم الأوصاف إلى ما يتّصل بالكلمة والكلام ـ إنّما كان امتداداً لمنهج قدامة بن جعفر في نقد الشعر.

ثمّ يبرز هذه المسألة وهي أنّ من أنواع البلاغة مامرجعه اللفظ، ومنها ما مردّه المعنىٰ، ومنها مايتّصل بهما معاً، وذلك أساس ماانتهت إليه هذه الأنواع في عصر السكّاكي (ت٦٢٦هـ.ق)، فأطلق عليها السّكّاكي اسم المحسّنات اللّفظية والمعنويّة، فتكلّم ابن سنان الخفاجي عن الألوان البديعيّة التي تنشأ من وضع الألفاظ في مواضعها، وهي حسن الاستعارة، وكذلك حسن الكناية، وبحثهما مستفيضاً، ولكن عدّهما البلاغيون بعده من علوم البيان.

ثمّ تحدّث عن الكلام الذي يدلّ بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض حتى يمكن استخراج قوافيه إن كان شعراً، ويكون بعض البيت شاهداً لبعض، وهذه من النعوت المحمودة عنده، ويذكر أنّ بعض الناس يسمّي هذا الفن من الشعر «التوشيح»، وبعضهم يسمّيه: «التسهيم».

وقد اشترط في وضع الألفاظ مواضعها أنْ لايقع فيها حشو، وأصل الحشو عنده أن يكون المقصود بها إصلاح الوزن، أو تناسب القوافي وحرف الرويّ إن كان الكلام منظوماً، وقصد السجع، ثم عرض لتحديده وتقسيمه إلى حسن وقبيح، وأدخل في الحسن ماسمّاه سابقوه باسم: (الاعتراض، والتتميم، والإيغال).

ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألاّ يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضاً، وهذا هو المعاظلة.

ويمضي ابن سنان إلى أصل ثان من أُصول التأليف، وهو المناسبة بين الألفاظ، إمّا من طريق الصيغة، وإمّا من طريق المعنى، وأدخل فـي الطـريق الأول مـاسمّاه المتأخّرون بمراعاة النظير قائلاً: إنّ منها السجع والازدواج، وحمل هنا على الرمّاني وغيره من المتكلّمين الذين فرقوا بين فواصـل القـرآن والسـجع حـيث قـالوا: إنّ الفواصل بلاغة، والسجع عيب[1].

أمّا ابن سنان: فلايرى فرقاً بينهما، فيحمد السجع عنده مادام يأتي طوعاً سهلاً تابعاً للمعاني، ويذكر أنّ القرآن لم يرد فيه إلّا ماهو من القسم المحمود لعلوّه فـي الفصاحة.

ومن التناسب بين الألفاظ عنده الترصيع على نحو مامرّ بنا عند قدامة، ويذكر منه حمل اللّفظ في الترتيب، كقول الشريف الرضي:

قَلبي وطَرفي مِنكَ هَذا في حِمَى قَـيْظ وهَـذا فـي أرض رَبـيع

وسمّى البلاغيون المتأخّرون هذا الضرب باسم «اللّف والنشر».

وجعل الجناس من التناسب بين الألفاظ، فجعله شاملاً للمشتقّ وغـيره عـلى خلاف ما ذهب إليه العسكري، وذكر أنّ بعض البغداديّين يسمي تساوي اللّفظتين في الصفة مع اختلاف المعنى «المماثل» كما أشار إلى تسمية مالا تتماثل فـيه جـميع حروف الكلمتين باسم «المضارعة»، مثل: «تلاق وتلاف». وأشار ـ أيضاً ـ إلى أنّ أبا العلاء استحدث فيه نوعاً سمّاه «مجانس التركيب»؛ لأنّه يتركّب مـن كـلمتين فـي

---

١. يريدون بذلك أنّ الفواصل بلاغة؛ لأنّ اللفظ تابع فيها للمعنى، والإسجاع عيب؛ لأنّ المعنى تابع فيه للفظ.
وقد ناقش ابن سنان الخفاجي تلك النظرية، واوضح نظرته حول ذلك حيث يقول: إنّ الفواصـل عـلىٰ ضـربين ضرب يكون سجعاً وهو ماتماثلت حروفه في المقاطع، وضرب لايكون سـجعاً وهـو مـاتقاربت حـروفه فـي المقاطع ولم تتماثل، ولايخلو كلّ واحد من هذين القسمين أعني السجع المتماثل والمتقارب من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني، وبالضدّ من ذلك حتى يكون متكلّفاً يتبعه المعنى، فإن كـان مـن القسـم الأوّل فـهو المحمود الدالّ على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض. والقرآن لم يرد فيه إلّا ماهو من القسم المحمود، لعلوّه في الفصاحة، وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة (سر الفصاحة، ص ١٦٥).

صيغتين متقابلتين، وذمّ صنيعه، ويرى أنّ أقلّ طبقات المجانس هو مجانس التصحيف.

ثمّ ينتقل إلى تناسب الألفاظ من طريق المعنى، ويرى أنّها تتناسب على وجهين:

أحدهما: أن يكون معنى اللّفظين متقارباً.

والثاني: أن يكون أحد المعنيين مضادّاً للآخر، أو قريباً من المضادّ، وإذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة.

يقول ابن سنان: وقد سمّى أصحاب صناعة الشعر «المتضاد» من معاني الألفاظ بـ«المطابق» وإنّ قدامة سماه بـ«المتكافئ»، وإنّ الآمدي أنكر عليه ذلك، ويذكر ـأيضاًـ أنهم سمّوا ما كان قريباً من «التضاد» بـ«المخالف»، ونقل عن البعض أنّهم قسّموا التضادّ إلىٰ أقسام:

الأوّل: ماكان فيه لفظتين معناهما ضدّين، كالسواد والبياض، فسمّوه «المطابق».

الثاني: أنّه إذا تعدّد التضادّ سُمّيَ باسم «المقابلة».

الثالث: ما كان فيه سلباً وإيجاباً سمي بـ«السلب والإيجاب»، ولم يجعلوه من المطابق، ولكن الخفاجي يختار تسمية الجميع بالمطابق.

وتعرّض «للتبديل» في أثناء حديثه عن الطباق، وهو أن يقدّم في الكلام جزءُ ألفاظه منظومة نظاماً، ويتلى بآخر يجعل فيه ما كان مقدماً في الأول مؤخراً في الثاني، وما كان مؤخراً مقدماً، وذكر له أمثلة، منها قول بعضهم: «أُشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك».

ثم يذكر أنّهم قسّموا دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام:

أحدها: المساواة وهي أن يكون المعنى مساوياً للّفظ.

والثاني: التذييل وهو أن يكون اللّفظ زائداً على المعنى، وفاضلاً عنه.

والثالث: الإشارة وهي أنْ يكون المعنى زائداً على اللّفظ.

فيجعل من الإطناب التذييل، كما يجعل الإشارة واللّمحة الدالّة من الإيجاز.

والمختار عنده أن يكون اللّفظ القليل يدلّ على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة لاغموض فيها.

ويذكر من نعوت البلاغة والفصاحة«الأرداف والتتبيع»، وهو ضرب من الكناية، وجعل من نعوت البلاغة والفصاحة ـ أيضاً ـ «التمثيل»، وهو عنده كما عند قدامة وابن رشيق يتطابق مع ماسمّاه أبو أحمد العسكري باسم «المماثلة».

ولمّا كانت البلاغة عنده عبارة عن حسن الألفاظ والمعاني، وكان قد انتهى من عرض الألفاظ على الانفراد والاشتراك، تحدّث بعد ذلك عن الكلام فـي المـعاني المفردة، وهي:

١. **صحّة التقسيم**، يقول إنّه ينبغي أن يتجنّب فيها الاستحالة والتناقض، وهو هنا يستمدّ من قدامة مباشرة، ويناقشه في بعض أمثلته.

٢. **صحة التشبيه**، تحدّث عنه حديثاً مفصلاً استمدّه من الرمّاني.

٣. **صحّة الأوصاف في الأغراض**، ويشترط أن يتطابق الكلام شعراً ونثراً مع من يوجه إليهم مع مراعاة الأحوال والمقامات.

٤. **صحّة النسق والنظم**، وهو أن يستمرّ في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه، وهذا ماعرف أخيراً باسم «**حسن التخلّص**».

٥. **صحّة التفسير**، وهو أن يذكر مؤلّف الكلام معنى يحتاج إلى تفسيره، فيأتي به على الصحّة من غير زيادة ولانقص.

٦. **كمال المعنى**، وهو أن تُستوفىٰ الأحوال التي تتمّ بها صحّته وتكمل.

٧. **المبالغة والغلو**، قد سلك فيها مسلك قدامة من جعل المبالغة والغلوّ لفـظين مترادفين على معنى واحد، ولم يفرّق بينهما كما صنع أبو هلال وابن رشيق، وذكر اختلاف النقّاد وأصحاب البلاغة في المبالغة والغلو بين مستحسن وغير مستحسن، ثمّ مال إلى الرأي الأول، وقد جعل من المبالغة الاسـتثناء فـي مـثل قـول النـابغة الذبياني:

ولاعَيْبَ فِيهم غيرَ أنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ[١]

وهذا ماسمّاه البلاغيون: تأكيد المدح بمايشبه الذمّ[٢].

٨. **التحرّز ممّا يوجب الطعن**، وهو ماعرف بالاحتراس.

٩. **الاستدلال بالتمثيل**، وهو نفس ماسمّاه أبو هلال باسم الاستشهاد والاحتجاج، وهو أنْ يزيد في الكلام معنى يدلّ على صحّته، ثم ساق أمثلة من بينها مثال للنابغة قوله:

ولكنّني كنتُ امرءاً لي جانب من الأرضِ فيه مستراد ومذهَبُ

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما لقيتهم أُحَكَّمُ في أموالهم وأُقرَّبُ

كفِعْلِكَ في قومٍ أراكَ اصطنعتهم فلم تَرَهُمْ في شُكْرِ ذلك أذنبوا

ساقه صاحب التلخيص شاهداً للمذهب الكلامي.

١٠. **الاستدلال بالتعليل**، ويقصد بالاستدلال الاستشهاد، وفيه ذكر الخفاجي اجتهادات طريفة للشعراء، مثل قول الشاعر أبي الحسن التهامي:

لَوْ لَمْ تكُنْ ريقَتُهُ خَمْرَةً لمّا تَثَنَّى عِطْفُهُ وَهْوَ صَاحِ

وقول البحتري:

وَلَوْ لَمْ تكُنْ سَاخِطاً لَمْ أكُنْ أذُمُّ الزَّمَانَ وأَشْكُو الخُطُوبَا[٣]

ولكنّه يخلط ويضيف إلى هذا الهزل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

---

١. البيت من قصيدة يمدح فيها عمرو بن الحرث. فلول: ثلم. قراع: مضاربة، الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجماعة من الجيش.

أُنظر: البيت في الإيضاح، ص٢٨١؛ المطول، ص٤٣٩؛ المعاهد، ج٢، ص٣١؛ الصناعتين، ص٤٢٤؛ الطراز، ج٣، ص١٣٦؛ تحرير التحبير، ص١٣٣.

٢. أي يستثنى من صفة ذمّ منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخول صفة المدح في صفة الذمّ.

أي أنّ فلول سيوفهم ليس من الضعف والتخاذل، وإنّما من كثرة القراع، فالشطر الأوّل قد يشكل هجاء، لكنّه بعد أن اردفه بالشطر الثاني غدا الهجاء مغالاة بالمدح .

٣. سر الفصاحة، ص٢٦٩.

لَفَسَدَتَا﴾[1]. وذلك أن الشاعر حين يعرض أسـلوب العـلّة، ويـوصل مـفهومهما إلى المخاطب يعتمد على التخييل والإيهام، ونوع من لفت الانتباه والإثارة، فهو معرّض للوقوع في السخف أو في العبث، أمّا تعليل القرآن فهو جاد لاطرافة فيه ولاعـبث مستظرف، وإنّما فيه الجودة والإتقان في الصنعة والجدة في الغاية، يـعلّل بـطريقة بليغة ومعجزة فيها الفنّ والمنطق، وفيها التشريع، وفيها الجدّيّة[2].

عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ، ق):

وأمّا عبد القاهر الجرجاني فيرى أنّ علوم البلاغة علم واحد تتشعّب مـباحثه، وسَمّىٰ علم المعاني بكتابه الدلائل باسم «النظم»، وهو اصطلاح كان يشيع في بيئة الأشاعرة الذين كانوا يعلّلون إعجاز القرآن بنظمه.

وفي أسرار البلاغة وضع عبد القاهر نظرية علم البيان بقواعده ومباحثه، واعتُبر بذلك مؤسّساً لهذين العلمين: علم المعاني، وعلم البيان، إلّا أنّه لم يتوسّع في البديع توسّعه في مباحث المعاني والبيان، فقد أطلق اسم البديع على التشبيه، والاستعارة، والتمثيل، وعلى سائر أقسام البديع فذكر منها التجنيس والحشو المفيد (أي الاعتراض) وغيره، والطباق، والمجاز اللّغوي والعقلي، وحسـن التـعليل، ويـريد بـها الجـديد والحسن والطريف، ويحاول دائماً أن يقول: إنّ الحسن فيها يأتي من جهة المعنى.

وهكذا لم تزل كلمة البديع تطلق إطلاقاً عامّاً على هذه الأنواع المشتركة بـين علوم البلاغة في صورتها الأخيرة، فمعظم ماتعرّض له من أقسام البديع ـ جـناس وطباق، وحسن تعليل، وغيرها ـ لم يكن مقصوداً لذاته، وإنّما جاء الحديث عنه في معرض استدلاله على نظريّته القائلة بأنّ الألفاظ ليست لها مزيّة[3] في الكلام مـن

١. المصدر، ص ٢٧٠. و الآية في الأنبياء: ٢٢.

٢. أُنظر: البديع تأصيل وتجديد، ص ١٨٣ و ١٨٤.

٣. المزية يريد بها: الإبداع، وسمّاه البعض الآخر بـ«الفضيلة».

حيث هي ألفاظ، وإنّما المزيّة تأتي دائماً من قبل الأساليب أو التراكيب وصور نظمها وتأليفها؛ ذلك لأنّ الألفاظ لاتفيد حتى تؤلف نوعاً خاصّاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فكان غرضه هو إثبات الجمال للنظم والأُسلوب دون اللّفظ وحده، أو المعنى وحده وهذا الأخير هو ما كشف عنه في دلائل الإعجاز.

ومن المقطوع به أنّ دلائل الإعجاز أُلِفَ بعد أسرار البلاغة؛ لأنّ الإمام عبد القاهر كثيراً ما يعدّ في أسرار البلاغة باستيفاء موضوعات إذا بحثنا عنها وجدناها في دلائل الإعجاز والسبب الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب يؤخذ من عنوانه، فقد قصد الكشف عن دقائق إعجاز القرآن، وبيان الوجوه التي كان بها معجزاً. وعرض لمباحث عرفت من قبله في البديع، كالإيجاز، والكناية، والتعريض، والتمثيل، والاستعارة، وتعرّض لأكثرها في أسرار البلاغة، ومباحث محلّها علم المعاني الآن، كالفصل والوصل، والقصر، والتقديم والتأخير، والحذف، ولذلك اعتبر عبد القاهر الواضع الأوّل لأساس علم المعاني بعد أبي هلال العسكري، ولكنّه لم يسمّ ماذكره من البديع هنا بديعاً، كما لم يسمّ ماعرف في علم المعاني بالمعاني، بل أطلق على الجميع «بياناً».

وممّا لاشكّ فيه أنّ هذا هو عين ماعرف عن البديع، وماتفيده الكلمة من المعنى «الطريف والجديد الحسن»، وإنّا إذ نراه هنا يسمّيه «بياناً» نراه في مواطن أُخرى يسمّيه علم الفصاحة والبيان، والفصاحة، والبيان، والبلاغة، والبراعة ـ التي هي معنى الإبداع والبديع ـ وماشاكلها ـ عند عبد القاهر ـ ألفاظ متواردة على معنى واحد كما صرّح بذلك، ومن هنا نرى أنّ الأنواع التي سمّاها في أسرار البلاغة «بديعاً» سمّاها في دلائل الإعجاز «بياناً»، فتكون اللّفظتان عنده متقاربتي المعنى، ويكون البديع محافظاً بمعناه الذي عُرِفَ به في أسرار البلاغة.

و وَهَمَ الكثيرون في أنّ عبد القاهر لم يهتمّ بالبديع، كما فعل في ألوان البيان،

وصور نظمه، وأنّها لا تدخل في الإعجاز البلاغي للقرآن، إلّا أنّ عبد القاهر قد أشار إلى أنّ الاستعارة داخلة في الإعجاز، وهي من البديع كما يقول، وأشار إلى أنّ المزاوجة من صور النظم، وأنّه يبلغ الغاية في دقّته وتماسكه في صورها، ومثلها الجمع والتقسيم وبعض صور التشبيه إلى آخر ما ذكر. ولعلّ هذا هو السبب في أنّ البديع لم ينسب إليه، وإنّما ظلّ كما كان قديماً منسوباً إلى ابن المعتزّ الذي جمع أشتاته، وعرّف أقسامه.

أمّا لماذا أغفل عبد القاهر ألوان البديع؟ فذلك راجع إلى أنّ هذه الألوان قد اهتمّ بها النقّاد والبلاغيون ـ قبل القرن الخامس الذي عاش فيه عبد القاهر ـ وأكملوا بحثها، وحصروا أنواعها، فكان عمله ـ لو فعل ـ تكراراً لمجهود غيره، فأولى أن يتناول النظم الذي هو في حاجة إلى وضع القواعد، وتأصيل الأصول، وأنْ يتناول البيان، فإنّه وإن كثر القول فيه إلّا أنّ تحديد الفروق الدقيقة بين ألوانه لم يكن قد اتضحت؛ ولهذا كانت محاولة التفريق بين «التشبيه والتمثيل»، ومحاولة التفريق بين «الاستعارة والتشبيه»، والتفريق بين «التشبيه والتمثيل»، أكبر الدروس وأجلّها في كتابيه[1].

فعبد القاهر قد اهتمّ بامور كانت في حاجة إلى جهد، وانصرف عن أُمور انتهى القول فيها، وهذا خُلُق العالِم الجاد، أمّا إنْ نفهم أنّه انصرف عنها لقلّة شأنها في البلاغة القرآنية، فذلك بُعد عن الحقّ، ولو تأمّلنا ما كتبه في التجنيس والسجع لوجدناه دفاعاً عن بلاغة هذه الفنون، ومحاولة جادّة لتجلية جانبها المشرق، الذي اطفأته تكلّفات الأدباء والشعراء في زمانه.

ومن هنا يستبين السرّ في إيثار عبد القاهر بعض ألوان البديع بالحديث على بعضها الآخر، فلم يتعرّض لكلّ ما عرف قبله من تلك الألوان التي طرقها سابقوه، بل

---

١. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص٥٧٥.

اختار من بينها ألواناً استدعاها غرضه من هذين الكتابين استدعاءً قوياً، وراح يضفي عليها من سحر بيانه ثوباً قشيباً باينت به ما لبسته على يد غيره ممن تقدّموه، أو خلّفوه[١].

فمن موضوعات البديع التي تحدّث عنها «السجع والجناس» ليدلّ على أنّهما لايحسنان إلّا في نسق مستو منتظم، وأنّ الجمال البلاغي لا يُردّ إليهما في ذاتهما، كما لا يُرَدُّ إلى مجرّد السهولة الظاهرة في الألفاظ، والسلاسة، والسلامة ممّا يثقل على اللّسان[٢]. وأردف ذلك بأمثلة وقال بعدها: «قد تبيّن من هذه الجملة أنّ المعنى المقتضي اختصاص هذا النحو بالقبول هو أنّ المتكلّم لم يَقُدْ المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما، وعَثَرَ به عليهما، حتى إنّه لو رام تركهما على خلافهما ممّا لا تجنيس فيه ولا سجع لدَخَلَ من عقوق المعنى، وإدخال الوحشة عليه في شبيهٍ بما يُنسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره، والسجع النافر»[٣].

ويلح الجرجاني على قيمة «وفاء الجناس للمعنى»، كما فعل مع السجع، بقوله: «واعلم، انّ النكتة التي ذكرتها في التجنيس، وجعلتها العلّة في استيجابه الفضيلة ـ وهي حسن الإفادة، مع أنّ الصورة صورة التكرير والإعادة ـ وإن كانت لا تظهر الظهور التامّ الذي لا يمكن دفعه إلّا في المستوفي المتفق الصورة، كقوله:

ما ماتَ من كَرَمِ الزَّمانِ فإنّهُ ... يَحْيا لدى يَحْيىٰ بن عبدِ اللّـهِ[٤]

أو «المرفو» الجاري هذا المجرى، كقوله: «أَوْ دَعاني أَمُت بما أَوْدَعَاني»[٥]، فقد

---

١. الصبغ البديعي، ص٢٢١.

٢. البلاغة تطور وتاريخ، ص١٨٨.

٣. أسرار البلاغة، ص١٣.

٤. والبيت لأبي تمام، انظر: ديوانه، ص٣٤١، وهو من شواهد التلخيص والإيضاح في الجناس المستوفي.

٥. وهذه قافية بيت قاله أبو الفتح البستي (ت٤٣٦هـ.ق) وتمامه:

عارِضَاهُ فيما جنى عارِضَاهُ ... أَوْ دعاني أَمُت بما أو دعاني

تتصوّر في غير ذلك من أقسامه أيضاً. فممّا يظهر ذلك فيه ماكان نحو قول أبي تمام:

يُعدُّونَ من أيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِم تصولُ بأسيافٍ قَوَاضٍ قَوَاضب[1]

وقول البحتري:

لئن صَدَفَتْ عَنّا فَرُبَّتَ أَنْفُسٍ صَوَاد إلى تلك الوُجُوهِ الصَّوادِفِ[2]

وذلك أنّك تتوهّم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من «عواصم»، والباء من «قواضب»، أنّها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانية، وتعود إليك مؤكّدة، حتى إذا تمكّن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنّك الأوّل، وزلّت عن الذي سبق من التخيّل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنّه رأس المال»[3].

أمّا الحشو ـ ويريد به الاعتراض ـ، فقد قسّمه إلى «مفيد»، وإلى «غير مفيد»، وبيّن أن غير المفيد: إنّما كان مذموماً لأنه خلا من الفائدة، ولم يُحل منه بعائدة، وأن المفيد: إنما كان حسناً محموداً لإفادته إيّاك على مجيئه مجيء مالا يعول في الإفادة

← انظر: اسرار البلاغة، ص٧؛ العمدة، ج١، ص٥٥٩؛ زهر الآداب، ج٢، ص٧٥.

فقوله: «أودعاني» إنما هي «أو» التي للعطف، نَسقَ بها «دعاني» وهو أمر الإثنين من «دع» على قوله: «عارضاه» الذي في أوّل البيت ـ عارضاهُ فيما جنى عارضاهُ ـ وقوله: «او دعاني» الذي في القافية فعلُ ماضٍ من إثنين، نقول في الواحد «أوْدَعَ يُودِعُ» من الوديعة.

١. ديوان أبي‌تمام، ج١، ص٢٠٦، وقال في شرح الديوان: «عواص عواصم» يسمّيه أهل النقد تجنيس المقاربة وكذلك قوله: «قواض قواضب»، والقواضي التي تقضي على الأعداء بما تريد. ويمكن أن يقصد: «يمدون أيدياً تعصي العاذلين في الجود، وتعصم المستغيث الخائف بأسياف هذه صفتها».

والبيت من شواهد الجناس الناقص حيث زيدت الميم في عواصم على سابقتها والباء في قواضب على سابقتها كذلك.

انظر: المعاهد، ج٢، ص٧٦؛ الصناعتين، ص٣٤٣؛ اسرار البلاغة، ص١٢؛ الوساطة، ص١٤٣؛ الطراز، ج٢، ص٣٦٢؛ المثل السائر، ج١، ص٣٥٠؛ تحرير التحبير، ص١٠٨؛ الايضاح، ص٢٩١.

٢. صدفت: أعرضت وانصرفت. ربّت: ربّ، ولحقتها التاء لتأنيث اللّفظ، وهي في الأصل للقليل، والمقام يقتضي التكثير. صواد: جمع صادية أي عطشانة، والصوادف: جمع صادفة أي مائلة منصرفة. انظر: الإيضاح، ص٢٩١.

٣. انظر: اسرار البلاغة، ص١٧ و ١٨ و: البديع تأصيل وتجديد، ص٧٠ و ٧١.

عليه، ولا طائل للسامع لديه، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترتقبها، والنافعةِ أتتك ولم تحتسبها، وربّما رزق الطفيلي ظرفاً يحظي به حتى يحلّ محلّ الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم، والأحباب الذين وُثِقَ بالأنس منهم وبهم[١].

وللمبالغة عند عبد القاهر حديث آخر، وقد تأثّر فيه على وجه الخصوص بالجرجاني (عليّ بن عبدالعزيز ت٣٣٧هـ.ق)، والرمّاني (ت٣٨٤هـ.ق)، والعسكري (ت٣٩٥هـ.ق)، ولكنّه طعّمهُ بروحه، وزوّده برحيقه.

وهو لم يفرد المبالغة حديثاً خالصاً، إنّما تعرّض لها في أثناء تحليله للنصوص، فربط بينها وبين الغرض من التشبيه، والاستعارة، والحذف، والتعليل، والطباق، وفرّق بينها وبين الإغراق، وأقامها على الإيهام والتجوّز، وجعل للبراعة فيها فضل السبق، وميزة التفرّد، وعزّة النبوغ.

والبراعة عنده تعني: «أن يبلغ الواصف فيما يصف غاية الكمال، وأن يكون على فرط الاستقصاء حتى لا يحصل عليه مزيد»، والمبالغة عنده، «درجة تأتي بعد درجة الاقتصاد في الصفة، والقول إذا بلغ هذه الدرجة إذا شاء سحر، وقلب الصّور».

وكذلك نظر إلى «التعليل» نظر فنّان، فالتعليل عنده: «محاولة الإقناع» التي يقوم بها الفنّان لتحظى صورته بالقبول لدى المخاطب، لذا يعتمد التعليل على التخييل والإيهام، ويتّخذ من التشبيه مادّة لتشكيل صورته.

والتعليل عنده نوعان:

١. نوع يعلّل وجود الصفة الثابتة بعلّة مُتخيّلَة، كقول الشاعر:

الرّيحُ تَحْسدُني عَلَيْكَ ... ولم أَخِلْها في العِدَا

لَمّا هَمَمْتُ بِقُبْلَةٍ ... رَدَّتْ عَلى الوجْهِ الرّدَا

٢. ونوع آخر يعلّل وجود صفة متخيّلة بعلّة ثابتة، كقول ابن المعتزّ:

---

١. انظر: اسرار البلاغة، ص١٩ و ٢٠.

قالوا اشْـتَكَتْ عَـيْنُهُ فـقُلْتُ لَـهُم مِـنْ كِـثْرَةِ القَـتْلِ نـالَها الوَصَبُ
حُـمْرَتُها مِـنْ دِمَـاءِ مَـنْ قَـتَلَتْ وَالدَّمُ في النَّصْلِ شـاهِدٌ عَـجَبُ

ويفرّق الجرجاني بين النوع الأوّل والثاني بقوله: «إنّ لك هناك فعلاً هو ثـابت واجب في الريح، وهو ردّ الرداء على الوجه ثمّ أحببت أن تتطرّف، فادّعيت لذلك علّة من عند نفسك، وأمّا ها هنا، فنظرت إلى صفة موجودة، فتأوّلت فيها أنّها صارت إلى العين من غيرها، وليست هي من شأنها أن تكون في العين، فليس هنا معك إلّا معنى واحد، وأمّا هناك، فعندك معنيان: أحدهما: موجود مـعلوم، والآخـر مُـدَّعى موهوم».

مدرسة عبد القاهر الجرجاني وتأثيرها على منهج الزمخشري

يعدّ عبد القاهر واضع أُسس البلاغة العربيّة ـ من معانٍ وبيان وبـديع ـ، وأكـبر العاملين على تطويرها، فهو في الحقيقة واضع أسّس ومنهج و أبعاد دراسات أثمرت فيما بعد في الدراسات البلاغيّة التقليديّة، غير أنّ الأساس هو ما أطلق عليه اسـم علم معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات، والذي سمّاه بالنظم.

وخلاصة رأيه أنّ الكلام ليس بلفظه ولا بمعناه، وإنّما هو بدلالته «والعبرة بحسن الدلالة وتمامها»[1]، ويكون ذلك بأن «يأتي المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، ويختار له اللّفظ الذي هو أخصّ به وأكشف عنه، وأتمّ له».

فالألفاظ يضمّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها علم شريف، وهو علم النحو الذي هو ترتيب خاصّ للكلمات داخل جمل وتراكيب يتبعه إعراب.

«وإنّ طالبَ دليل الإعجاز من نَظْمِ القرآن إذا هو لم يـطلبه فـي مـعاني النـحو وأحكامه، ووجوهه، وفروقه، ولم يعلم أنّها معدنُه ومعانه، وموضعه ومكـانُه، وأنّـه

---

١. دلائل الاعجاز، ص ٩٠ و ٩٥.

لا مستنبط له سواها، وأنْ لا وجهَ لطلبه فيما عداها، غارٌّ نفسه بالكذب من الطمع، ومُسلم لها إلى الخُدع، وأنّهُ إن أبى أن يكون فيها، كان قد أبى أن يكون القرآنُ معجزاً بنظمه»[١].

فبالنظم وفيه تثبت معجزة القرآن الكريم، وتلك هي نظريّة عبد القاهر في الإعجاز[٢].

ويرى بعض الباحثين أنّ أكثر الناس اقتراباً من روح فكرة عبد القاهر عن النظم هو الجاحظ فيما قاله عن الصورة وإن اختلف معه في مصطلح النظم[٣].

وإذا كان كتاب الجاحظ المفقود الذي ألّفه بعنوان «نظم القرآن» يشتمل على كثير من الملاحظات البلاغية؛ فإنّ فكرة النظم عنده لا تتّصل كثيراً بما ذهب إليه عبد القاهر بعد ذلك بقرنين من الزمان.

ولم يضع الجاحظ ملاحظاته في صورة قوانين محدّدة، أو يلحّ على فكرة الإقناع المنطقي التي غلبت على الباحثين من بعده، وإنّما عمد إلى الإكثار من الشواهد والأمثلة بحيث يكون عرض النصوص الأدبيّة عنده وحده هادياً للبلغاء، دون تعريف أو تحديد، أو إلحاح على فكرة التوضيح. كما أنّه لم يقصد بالنظم إمكانات صور التعبير وفقاً لصور المعاني في النفس، كما فهم عبد القاهر بل كان الجاحظ يقصد الصياغة وملاءمة الألفاظ لتصوير المعنى.

ويقول عبد القاهر: «إنّهم جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا: اللّفظ وهم يريدون الصورة»، وأنّ هذا قريب كلّ القرب ممّا أراده عبد القاهر في نظرية النظم ونظريّة عبد القاهر نوع من التجديد الشكلي، فهي تقوم على محاولة الكشف عن عناصر الجمال الشكلي في العمل الأدبي، دون اعتبار لمضمونه الجمالي؛ أنّ قضيّة

---

١. المصدر، ص ٤٦٠. المعان: المنزل، ويقال: هم بمعان أي بحيث تراهم من (ع ي ن).

٢. انظر: عالِم اللّغة عبد القاهر الجرجاني (زهرات)، ص١٧٣ و ١٧٤.

٣. النقد الأدبي الحديث، ص٣٩٢.

تحليل الإعجاز البلاغي تحليلاً فنّياً شاملاً تحتاج إلى منهج آخر قد يفيد أو لا يفيد من نظريّة النظم التي وضعها عبد القاهر، على أن يكون موضع تأمّل الباحث في كلّ حال: أنّ الإعجاز البياني للقرآن لا يجوز أن نقف فيه عند الجانب الشكلي من صيغ التعبير، وإمكاناتها المختلفة، منفصلة عن نظرات أخرى أكثر عمقاً تتّصل بالمعنى من حيث تعدّد اتّجاهاته الإيحائية المنبثقة من السياق، ودرجاته في الحكمة والسموّ، لا من حيث إنّه نتاج آلي لترابط نحوي خاصّ يرمي إلى فكرة التوثيق ـ فحسب ـ بغض النظر عن مضمونه الجمالي، كما فهم عبد القاهر.

ولعلّ الزمخشري الذي عاش في القرن السادس كان خير من توسّع في تطبيق هذه النظرية في تفسيره، فأعطاها شيئاً من حيويّة التذوّق اللّغوي، كما أضاف إلى معالمها كثيراً من التفاصيل التي تدلّ على تعمّقه في هذا الفنّ. ويجد القارئ في كتابه المشهور الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الآثار التطبيقيّة لنظريّة عبد القاهر واضحة جليّة في استقصاء دقيق، وهو ينبّه من جانبه مرّة أخرى إلى مكانة العلوم البلاغيّة في تفسير الإعجاز القرآني.

ومع أنّ الزمخشري يبدو جاحظي المذهب والأسلوب في هذا الكتاب، فإنّ تفسيره الكشاف يسير على نهج عبد القاهر، ويترسّم خطاه في نظرية النظم، بل ويضيف إليها أبعاداً جديدة يمكن أن يتتبعها القارئ في مصادرها.

وها نحن نورد أهمّ القضايا التي بحثها في تفسيره، التي تتعلّق بعلم البديع ـ الذي عهدناه في عصرنا الحالي:

١. الطباق

وهو عند الزمخشري بمعنى التضادّ ـ وهذا أقرب المعنى إلى المعنى البلاغي الذي هو الجمع بين المتضادّين، أي معنيين متقابلين في الجملة ـ كما في

الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقد ذكر «الطباق» واراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها[2]. فالكلام المطابق هو «الذي تتنزّل فيه الأحوال على وفق المعاني، وذلك عند تفسيره الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾[3]. وقال: «ليسكن»، فذكر بعد ما أنّث في قوله: «واحدة منها زوجها»، ذهاباً إلى معنى النفس، ليبيّن أنّ المراد بها آدم؛ ولأنّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشّاها، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى[4].

٢. المشاكلة

ويسمّى «المشاكلة» باسمها حين يتعرّض لآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[5]، يقول: يجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالو: أما يستحي ربّ محمّد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت، فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديع، وطراز عجيب، وهو مراعاة المشاكلة[6].

وفي آية: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[7] يقول: تسمية البدل جنّتين لأجل المشاكلة، وفيه

---

١. انظر: الكشاف، ج٢، ص٣٨٧. والآية في هود: ٢٤.

٢. أي مطابقتها لمقتضى الحال.

٣. الأعراف: ١٨٩.

٤. انظر: الكشاف، ج٢، ص١٨٦.

٥. البقرة: ٢٦.

٦. الكشاف، ج١، ص١١٣.

٧. سبأ: ١٦.

ضرب من التهكّم[١].

لقد قصد بعض القدماء بـ«المشاكلة» ـ التناسب في النظم، التلاؤم في الألفاظ مع السياق، فهي «المشاكـلة الفـنّيّة» بـمعناها العـام، كـالتي أشـار إليـها ابـن المـقفع (ت١٤٣ هـ.ق) حين قال «...وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كـما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته...[٢]».

وجعلها ابن طباطبا (ت٣٢٢ هـ.ق) عنصراً من عناصر الخلق الفنّي القائم عـلى المراجعة والتدبير[٣]، وإلى المضمون نفسه تعرّض ابن الأثير[٤]، وابن سنان الخفاجي[٥].

والأمر يختلف بعض الاختلاف في «المشاكلة» البلاغية، كما هي عند الفـرّاء[٦] (ت٢٠٧ هـ.ق) المبرّد[٧] اذ المشـاكـلة عـندهما هـي: «التـعبير عـن مـعنى بـلفظ غير موضوع له متجاوب مع المعنى الأوّل». أمّا ابـن المـعتزّ (٢٩٦ هـ.ق)، فـأطلق مصطلح «ردّ الأعجاز على ما تقدّمها» بدلاً من «المشاكلة» بـينما وسّـع الرمّـاني (ت ٣٨٤ هـ.ق) الدائرة نفسها، مع اعتباره المشاكلة جزءاً من الجناس[٨]. أمّا العسكري (ت ٣٩٥ هـ.ق) فساير ابن المعتزّ، ويأتي ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦ هـ.ق) فيطلق على المشاكلة مصطلح التصدير، كما أوضح عبد القاهر الجرجاني «ت ٤٧١ هـ.ق) بأنّ المشاكلة «ليست الإبقاء على إيقاع معيّن فحسب،بل وإضافة معنى آخر يأتي بمجيء الكلمة نفسها في موقع آخر»[٩].

---

١. الكشاف، ج٣، ص٥٧٦.

٢. البيان والتبيين، ج١، ص١١٥ (ط هارون).

٣. عيار الشعر، ص١٦٥.

٤. المثل السائر ـ النوع الرابع والعشرون ـ في التناسب بين المعاني، ص٢٧٩. (ط محي الدين).

٥. سر الفصاحة، ص١٥٠ و ١٥٢.

٦. معاني القرآن، ج١، ص١١٦.

٧. ما اتّفق لفظه واختلف معناه، ص١٢، ١٣ (السلفية بمصر ١٣٥٠ هـ.ق).

٨. النكت في اعجاز القرآن، ص٩١.

٩. الدلائل، ص٥٣٤.

ونلحظ عدم اهتمام الزمخشري بالمصطلح بقدر اهتمامه بمضمونه، ونجاح تطبيقه.

وجاء بعد الزمخشري أسامة بن منقذ[1] (ت٥٨٤هـ.ق)، فسمّى المشاكلة بـ«الترديد»، و «التصدير»، وعرّف السكّاكي[2] (ت٦٢٦هـ.ق) المشاكلة بأنّها عبارة عن: «أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته».

٣. اللّف والنشر

تعرّض له كثيراً، منها ذكر المعدد على جهة الإجمال، ثمّ ذَكَرَ ما لكلّ منهما على جهة التفصيل ثقة بأنّ السامع سيردّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾[3] والمعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنّة إلّا من كان نصارى، والآية من شواهد الإيضاح، وما ذكره الخطيب فيها منقول من كلام الزمخشري.

ويقول تعليقاً على آية الصيام: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ﴾، علّة الأمر بمراعاة العِدّة و ﴿لِتُكَبِّرُواْ﴾ علّة ما علم من كيفيّة القضاء، والخروج عن عهدة الفطر. و ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علّة الترخيص والتيسير[5].

ويشير إلى ذكر المتعدّد على جهة التفصيل والترتيب، فيقول في قوله تعالى:

---

١. البديع، ص ٥١.

٢. المفتاح، ص ١٧٩.

٣. البقرة: ١١١.

٤. البقرة: ١٨٥.

٥. الكشاف، ج١، ص٢٢٨.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١].

وهو اللّطيف يلطف عن أن تدركه الأبصار، والخبير بكـلّ لطـيف، فـهو يـدرك الأبصار، ولا تلطف عن إدراكه[٢].

وقد تكون الصفات الراجعة إلى المذكور متقابلة، فيجتمع اللّف والطباق، يـقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾[٣]: شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللّف والطباق[٤].

٤. الاستطراد

هو أن يأخذ المتكلّم في معنى، وقبل أن يتمّه يأخذ في معنى آخر.

ويعرض الاستطراد في آية: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥].

بقوله ضرب اللّه البحرين: العذب والمالح، مثلين للمؤمن والكافر، ثـمّ وصـف البحرين وما يتّصل بهما من نعمة على سبيل الاستطراد[٦].

ويقول في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٧]: فإن قلت: ما وجه اتّصاله

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. الكشاف، ج ٢، ص ٥٤.

٣. هود: ٢٤.

٤. الكشاف، ج ٢، ص ٣٨٧.

٥. فاطر: ١٢.

٦. الكشاف، ج ٣، ص ٦٠٤.

٧. البقرة: ١٨٩.

بما قبله (يعني ليس البرّ)؟ قلت: ...ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد؛ لما ذكر أنّها مواقيت للحجّ؛ لأنّه كان من أفعالهم الحجّ[١].

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢]: وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بُدُوّ السوءات وخصف الورق عليها إظهاراً للمنّة فيما خلق من اللّباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنّ التستّر باب عظيم من أبواب التقوى[٣].

وسمّاه ثعلب[٤] بحسن الخروج، وكذلك عند تلميذه ابن المعتزّ[٥]، وفرّق القرطاجني بينه وبين الاستطراد بقوله: «وأهل البديع يسمّون ما كان الخروج فيه بتدرّج تخلّصاً، وما لم يكن بتدرّج ولاهجوم ولكن بانعطاف طارئ على جهة من الالتفات استطراداً»[٦].

و البلاغيون الآخرون يعرّفون الاستطراد بمثل هذا أو قريباً منه، ويفرّقون بينه وبين التخلّص[٧].

٥. المبالغة

المبالغة عند الزمخشري: «بلوغ الغاية في المعنى» ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

١. الكشاف، ج١، ص٢٣٤.

٢. الأعراف: ٢٦.

٣. الكشاف، ج٢، ص٧٦؛ معترك الاقران، ج١، ص٥٩.

٤. قواعد الشعر، ص٥٠.

٥. البديع، ص٦٠.

٦. منهاج البلغاء، ص٣١٦.

٧. الطراز، ج٣، ص١٢؛ معترك الأقران، ج١، ص٦١؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٧٧؛ الإيضاح، ص٦٤؛ شروح التلخيص، ج٤، ص٣١٥؛ البرهان، ج٣، ص٣٠؛ نفحات الأزهار، ص١٥٠.

لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[١] يقول: ﴿وَعَتَوْ﴾ تجاوزوا الحدّ في الظلم...، وقد وصف العُتوّ بالكبير، فبالغ في إفراطه، وأقصى العتوّ[٢].

والمبالغة عنده تُنبئ عن قوّة وقوع الحدث، فيقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[٣]: من قرأ «يدافع»، فمعناه: يبالغ في الدفع عنهم، كما يبالغ من يُغالب فيه؛ لأنّ فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[٥]. يقول: «عارضوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[٦]. بقولهم بكل سحّار فجاؤا بكلمة الإحاطة، وصفة المبالغة، ليطامنوا من نفس فرعون، ويسكنوا بعض قلقه»[٧].

٦. المقابلة

هي أن يأتي المتكلّم بعدّة معانٍ، ثمّ يُردّ فيها بما يخالفها أو يوافقها، أو يزاوج بين المخالفة والموافقة، والمخالفة هنا بمعنى التضادّ ـ وليس التغيّر ـ ولما كان الطباق هو التضاد بين معنيين، فيكون الطباق أخصّ من المقابلة. ومن المقابلة ما ليس مخالفاً ولا موافقاً ـ كما شرطوا ـ إلّا في الوزن والازدواج ـ فقط ـ، فيسمى حينئذ «موازنة»[٨] وبمثل هذا التصوّر فهم الزمخشري المقابلة.

---

١. الفرقان: ٢١.

٢. الكشاف، ج٣، ص٢٧٣.

٣. الحج: ٣٨.

٤. الكشاف، ج٣، ص١٥٩.

٥. الشعراء: ٣٦و٣٧.

٦. الشعراء: ٣٤.

٧. الكشاف، ج٣، ص٣١١.

٨. انظر: العمدة، ج١، ص٥٩٧.

فقد تكون بين لفظين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[١].

يقول الزمخشري: ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذْ كلّ واحد منهما غاية في بابه؛ لأنّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلّل، والاشمئزاز أن يمتلئ غمّاً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه[٢].

وقد تكون المقابلة بمعنى الموافقة في نظم الجمل، يقول في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا...﴾[٣]. فإن قلت: لم قرن اللّيل بالمفعول له، والنهار بالحال؟، وهلّا كانا حالين، أو مفعولين لهما، فيراعى حقّ المقابلة؟

قلت: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأنّ كلّ واحد منهما يؤدّي مؤدى الآخر؛ ولأنّه لو قيل لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، واللّيل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه لم تتميّز الحقيقة من المجاز[٤].

فالمقابلة هي المناسبة بالطباق أو بغيره، فهي أعمّ منه وهو فرع منها.

٧. التورية، والكلام الموجّه، والاستخدام، والإيهام

التورية: أن يذكر المتكلّم لفظاً مفرداً له معنيان: قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفيّ مراد.

ومن التورية نوع آخر يطلق عليه الاستخدام، وهو أن يراد بلفظ أحد معنييه، ثمّ

---

١. الزمر: ٤٥.

٢. الكشاف، ج ٤، ص ١٣٢.

٣. غافر: ٦١.

٤. الكشاف، ج ٤، ص ١٧٥ و ١٧٦.

يراد بالضمير العائد إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أي إنّه في التورية يراد أحد المعنيين في اللفظ، وفي الاستخدام يراد المعنيان كلاهما، وعادةً ما يكون المعنى البعيد هو المقصود، وهو المورّى، وفي التورية يكون المعنى القريب للإيهام[١].

كما يدخل في التورية الكناية وتوابعها من حيث اشتراكها في إخفاء أحد المعنيين، ثمّ تختلف الطرق بها.

ومن النصوص المبكرة في فنّ التورية ما ورد في معاني القرآن للفرّاء (ت٢٠٧هـ، ق) في قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾[٢]، لأنّ «راعنا» تعني راقبنا وانتظرنا وتأنّنا حتىٰ نفهم القرآن الكريم ونحفظه، وتعني كذلك كلمة سبّ باليهوديّة.

وسمّى الزمخشري هذا بالقول ذي الوجهين. وجعل قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾[٣]، من الكلام الموجّه.

وذكر الزمخشري التورية في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[٤]، قال: فإن قلت: ما أذن اللّه به يجب أن يكون حسناً، فمن أيّ وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو الّا بهتان وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب؟ وهو قوله ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾[٥]، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾[٦]؟

قلت: هو في صورة البهتان، وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ تورية عمّا جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف عليه السلام.

والسكّاكي (ت٦٢٦هـ، ق) سمّى التورية «التوجيه»، وعرّفها بإيراد الكلام محتملاً

---

١. البديع، تأصيل وتجديد، ص١٩٧.

٢. البقرة: ١٠٤.

٣. يوسف: ٧٩.

٤. يوسف: ٧٦.

٥. يوسف: ٧٠.

٦. يوسف: ٧٤.

لوجهين مختلفين... يقول: وللمتشابهات من القرآن مدخل في هذا النوع باعتبار.

ثمّ جاء القزويني (ت٧٣٩هـ.ق)، وأُطلق عليها اسم «الإيهام»، وهو اصطلاح مقتبس من رشيد الدين الوطواط (ت٥٧٣ هـ.ق)؛ حيث إنّ التورية عنده هي الإيهام، فيقول: تعني في اللّغة «التخييل»، ولذلك يسمّون هذه الصنعة بالتخييل أيضاً[١].

وقد اهتمّ ابن حجّة الحموي بالتورية، وخلّص إلى القول بأنّ «التورية» يقال لها: الإيهام، والتوجيه، والتخييل، والتورية أولى في التسمية؛ لقربها من مطابقة المسمّى ... وسُمّي «إيهاماً»؛ لأنّ المستمع يتوهّم ـ لأوّل مرّة ـ أنّ المتكلّم يريد المعنى القريب وليس كذلك ... والتورية من أغلىٰ فنون الأدب، وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب»[٢].

٨. الجناس

كان الزمخشري يلحّ على أنّ صورة الجناس المطبوع، وقد وردت كثيراً في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[٣]، ونحو: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٤]، و﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[٥]، و ﴿هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٦].

وفي قوله تعالى ﴿مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[٧]، يقول: وقوله ﴿مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾ من جنس الكلام الذي سمّاه المحدّثون «البديع»، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلّق باللّفظ

---

١. حدائق السحر، ص١٣٥.

٢. خزانة الأدب، ج٢، ص٣٩و٤٠.

٣. يوسف: ٨٤.

٤. التوبة: ٣٨.

٥. الأنعام: ٢٦.

٦. الكهف: ١٠٤.

٧. النمل: ٢٢.

بشرط أن يجيء مطبوعاً، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحّة المعنى وسداده، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحّة، فَحَسُنَ وَبَدُعَ، لفظاً ومعنىً، ألا ترى أنّه لو وضع مكان «بنبأ» بخبر لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء؛ لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

وقال في تفسير الآية الكريمة ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾[1]: إنّ علماء البيان استفصحوا هذه الآية، ورقّصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما ﴿ٱبْلَعِى﴾ و ﴿أَقْلِعِى﴾، وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء المحاسن التي هي اللّب، وما عداها قشور[2].

٩. السجع والفواصل والازدواج

يطيل الزمخشري الوقوف أمام أسرار الفواصل في القرآن، ليثبت أنّها لم تأت حلية ولا زركشة؛ يقول مثلاً في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[3]:
فإن قلت:فلم فصّلت هذه الآية بـ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، والتي قبلها بـ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾؟

قلت: لأنّ أمر الديانة، والوقوف على أنّ المؤمنين على الحقّ، وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظرُ المعرفة. وأمّا النفاق وما فيه من البغي المؤدّي إلى الفتنة، والفساد في الأرض فأمر دنيويّ مبنيّ على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليّتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاور، والتناحر، والتحارب، والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد؛ ولأنّه قد ذكر السّفه

---

١. هود: ٤٤.

٢. الكشاف، ج٢، ص٣٩٨.

٣. البقرة: ١١ـ١٣.

وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له[١].

ويلحظ الزمخشري بأنّ القرآن قد يعدل عن لفظ إلى لفظ مراعاةً لحقّ الفاصلة؛ إذا أنّ الفواصل في سُور كثيرة يتحدّ نغمها الصوتي، فيكون لها من التأثير ما يبلغ مداه في نفس قارئه في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[٢]: وتبتّل إليه، أي انقطع إليه، فإن قلت: كيف قيل «تبتيلاً» مكان «تَبَتّلاً»؟

قلت: لأنّ معنى «تبتّل: بتّل نفسك، فجيء به على معناه مراعاةً لحقّ الفواصل»، ويقول في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾[٣]. وزيادة لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقفُ، والدلالة على أنّ الكلام قد انقطع، وأنّ ما بعده مستأنف»[٤].

ويربط الزمخشري علم القراءات بالبلاغة في باب «الازدواج»، وذلك في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٥]. «وقرأ الأعمش (ت١٤٨هـ،ق): ولا يغوثاً ويعوقاً بالصرف، وهذه قراءة مشكلة، لأنّهما إن كانا عربيّين أو أعجميّين، ففيهما سببا منع الصرف، إمّا التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعُجمة. ولعلّه (أي الأعمش) قصد الازدواج، فصرفهُما لمصادفته إخوانهما متصرّفات «ودّاً وسُواعاً ونسراً» كما قرئ «وضحاها»[٦] لوقوعه مع الممالات الازدواج[٧].

---

١. الكشاف، ج١، ص٦٤ و ٦٥.
٢. المزمّل: ٨.
٣. الأحزاب: ٦٧.
٤. الكشاف، ج٤، ص٦٣٩.
٥. نوح: ٢٣.
٦. أُنظر: البديع تأصيل وتجديد، ص٣٤ و ٣٥.
٧. ويقصد آيتي ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ النازعات: ٢٨و٢٩؛ انظر الكشاف، ج٤، ص٦١٩.

فالقراءة قد تخالف أصول النحو لتراعي توافق النغم الصوتي، وهذا التوافق لاشكّ في أنّه أمر يتعلق باللفظ وحسنه، وذلك جزء هامّ في البلاغة القرآنيّة.

١٠. التفصيل والإجمال

يذكر ذلك في مواطن كثيرة، ويشير إلى قيمته البلاغيّة، وأنّه قد يفيد التعظيم، وقد يفيد التقوية والتقرير.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ...﴾[١]. نزلت ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ تفصيلاً لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، كأنّه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة، وهي المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى اللّه بدينهم[٢].

ومن الثانية قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾[٣]: قوله ﴿ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ ما جدواه والكلام بدونه مستتبّ؟

قلت: قد أبهم الكلام أوّلاً، فقيل: أشرح لي ويسّر لي، فعلم أنّ ثمّ مشروحاً وميسّراً، ثمّ بيّن ورفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: أشرح صدري ويسّر أمري. على الإيضاح الساذج؛ لأنّه تكرير للمعنىٰ الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل[٤].

---

١. آل عمران: ١٩٥.

٢. الكشاف، ج١، ص٤٥٦.

٣. طه: ٢٥ـ٢٨.

٤. الكشاف، ج٣، ص٦٠ و ٦١.

وقد يسمّي التقسيم تفصيلاً، كما في آية البقرة ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ في قراءة من حذف فاء «فيغفر»، وجزمها على أنها بدل من فأفاد بإن «يحاسبكم»، معنى هذا البدل التفصيل لجملة الحساب؛ لأنّ التفصيل أوضح من المفصّل.

١١. الإدماج

هو تضمين معنى الكلام معنى آخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]: فالقائلون هم اليهود، بدليل قراءة من قرأ: «تجعلونه» بالتاء، وكذلك «تبدونها وتخفون». وإنّما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول اللهﷺ، فألزموا ما لابد لهم من الإقرار به، من إنزال التوراة على موسىﷺ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم، وان نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم، وإبداء بعض وإخفاء بعض، فقيل: «جاء به موسى»، وهو نور وهدى للناس حتى غيّروه، ونقصوه، وجعلوه قراطيس مقطّعة، وورقات متفرّقة، ليتمكّنوا ممّا راموا من الإبداء والإخفاء[2].

١٢. تأكيد المدح بما يشبه الذمّ

قال في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[3]: وما عابوا منهم، وما أنكروا إلّا الايمان، كقوله:

---

١. الأنعام: ٩١.

٢. الكشاف، ج ٢، ص ٤٤.

٣. البروج: ٨.

ولا عَيْبَ فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بهنَّ فلولٌ من قـراعِ الكـتائبِ[١]

وكذلك قوله تعالى ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا﴾[٢]: أي إن كان تسليم بـعضهم على بعض، أو تسليم الملائكة عليهم لغواً، فلا يسمعون لغواً إلّا ذلك. ثمّ ذكر البيت السابق[٣].

ويقول في قوله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤]: يعني إنّ علمهم الغيب في أستحالته كاستحالة أن يكون اللّه منهم.

١٣. الالتفات

والالتفات عنده معدود في البيان وإن عدّهُ لاحقوه في البديع متأثّرين بنظم ابن المعتزّ له في قديم فنونه.

وأوّل ما يستوقفه: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في فاتحة الذكر الحكيم. فقد مضىٰ صدرها في لفظ الغيبة، ثمّ تُرك إلى الخطاب في الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَـعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٥]، يقول: هذا يسمّى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخـطاب، ومن الخطاب إلىٰ الغـيبة، ومن الغـيبة إلى التكلّم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَـحَابًا فَسُقْنَـٰهُ...﴾[٧] ... وذلك على عادة افتتانهم في الكلام، وتصرّفهم فيه؛ ولأنّ الكلام إذا نقل من أُسلوب إلى أُسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء

---

١. الكشاف، ج ٢، ص ٤٤.

٢. مريم: ٦٢.

٣. الكشاف، ج ٣، ص ٢٧.

٤. النمل: ٦٥.

٥. الفاتحة: ٥.

٦. يونس: ٢٢.

٧. فاطر: ٩.

إليه من إجرائه على أُسلوب واحد[١].

وقد تأثّر السكّاكي بالزمخشري، ونقل معظم التفاتاته، وما اشار إليه من القيم البلاغيّة.

١٤. التقسيم

وهو يشير إليه في مواضع مختلفة، من ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّـهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢]. يقول: قسّمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجىٰ لأمر اللّه، ومقتصد وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وسابق السابقين[٣].

أسامة بن منقذ: (ت٥٨٤ هـ، ق):

لقد نالت الدراسات البلاغيّة تقدّماً وازدهاراً على يدي الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ، ق)، والزمخشري (ت٥٣٨ هـ، ق)، وجاء العلماء من بعدهما، ولم يحاولوا أن يضيفوا إلى عملهما شيئاً يذكر، بل عمدوا إلى تلخيص بلاغة هذين العلمين حتى انتهت بهم الحال إلى تلخيص القسم الثالث من كتاب المفتاح للسكّاكي (ت٦٢٦ هـ، ق).

وهذا ابن منقذ في كتابه البديع في نقد الشعر يدرج تحته ما وصلت إليه يده من فنون بلاغيّة، حتى أوصلها إلى مائتين وخمسة وتسعين باباً، ولم يعرف البديع، واكتفى بأن قال: «هذا كتابٌ جمعت فيه ما تَفرّق في كُتُبِ العلماء المتقدّمين، المصنَّفة في نقد الشِّعر، وذكر محاسنه وعيوبه، فلهم فضيلةُ الابتداع، ولي فضيلة

---

١. الكشاف، ج١، ص١٣ و ١٤.

٢. فاطر: ٣٢.

٣. الكشاف، ج٣، ص٦١٢.

الاتّباع، والذي وقفت عليه: كتاب البديع لابـن المـعتزّ، وكـتاب الحـالي و[كـتاب المحاضرة] للحاتمي، وكتاب الصناعتين للعسكري، وكتاب اللمع للـعجميّ وكـتاب العُمدة لابن رشيق، فجمعت من ذلك أحسن أبوابه، وذكرت منه أحسـن مـثالاته؛ ليكون كتابي مغنياً عن هذه الكتب، لتضمّنه أحسن ما فيها»[١].

وممّا تجدر الإشارة هنا إلى أنّ تقسيم البـلاغة إلى عـلومها الثـلاثة: المـعاني، والبيان، والبديع، لم يـكن معـروفاً فـي ذلك الحـين، بل كانـت مسـائلها تخـتلط بعضها ببعض[٢]، ولـم تحدّد مسـائل كلّ علم هذا التحديد الـذي انتهى إلينا،إلّا بعد عصر أُسامة، حين عرفت البلاد كتاب المفتاح الذي ألّفه السكّاكي.

وكان دارسو البلاغة في عصر أُسامة يرمون إلى هدفين: أولهما: دراسة بـلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته. وثانيهما: القدرة على تذوّق القول الجميل، والقدرة على إنشائه. وكتاب أسامة في جملته حافل يتلمس الأسباب التي تزيّن الأُسلوب، وتكسبه الجمال والروعة، وقد ذكر فيه جملة مـن أبـواب البـلاغة ليست مـرتّبة كالترتيب الذي انتهت إليه علوم البلاغة في عصرنا الحاضر، ومعظم ماأورده أسامة يندرج في مانسمّيه اليوم علم البديع، وإن كان قد أطلق عليهما جميعاً البـديع في نقد الشعر، وهي:

التجنيس بأنواعه.

طبقات التطبيق (وهي عنده أن تكون الكلمة ضدّ الأخرى).

الاستعارة، العكس.

الترديد (ويسمّى التصدير، وهو ما سمّاه ابن المعتزّ بـردّ أعـجاز الكـلام عـلى ما تقدّم، وسمّاه أبو هلال ردّ اعجاز الصدور).

---

١. البديع في نقد الشعر، ص٢١ ـ ٢٢.

٢. انظر: مقدّمة البديع في نقد الشعر، ص٣.

التتميم (وسمّاه ابن المعتزّ اعتراض كلام في كلام).

الاحتراس (وسماه ابن سنان الخفاجي (التحرّز ما يوجب الطعن).

التنكيب (وقد انفرد أسامة بهذا اللون).

التعليق والإدماج (وسمّاه المتأخّرون مراعاة النظير).

التورية، التقسيم، التجزئة، التطريز.

التفسير، (وهو من مستخرجات قدامة بن جعفر وسمّاه بدر الدين بن مالك التبيين).

الاستطراد (وهو منقول عن البحتري).

الاستخدام، الإغراق، التوهيم.

الاتّفاق والاطّراد (ويتّضح أنّ الاتّفاق والاطّراد عند أسامة بمعنى واحد، وإن كان البلاغيون المتأخّرون قد فرّقوا بينهما).

التوشيح (وسمّاه ابن رشيق «التسهيم»، كما أنّ ابن وكيع سمّاه «المطمع».

التشعيب.

التجاهل (سمّاه ابن المعتزّ تجاهل العارف).

الكناية والإشارة، المبالغة والتفريط، الازدواج، الترصيع، الرجوع والاستثناء، النفي.

التذييل (والتذييل هو ضرب من الاطناب).

التسهيم (وسمّاه قدامة التوشيح).

التشطير والمقابلة، الاعتراض، الانسجام، الإغراب، الظرافة والسهولة، صحة الأقسام.

الانصراف (وسمّاه قدامة وابن هلال باسم الالتفات).

التضمين.

المبادئ والمطالع (وقد فرّع المتأخّرون من هذه التسمية (براعة الاستهلال)، الآواخر والمقاطع.

التخليص والخروج (وهو ما سمّاه سابقوه حسن التلخيص والخروج من معنى إلى معنى).

وعلّق الدكتور محمد زغلول سلام على الكتاب فقال: «وكتاب أسامة في حدّ ذاته يبدو ذا قيمة محدودة في تاريخ النقد؛ لقلّة ما جاء فيه من الآراء المبتكرة، فهو فضلاً عمّا ذكرناه لا يتعدّى كونه سرداً لأبواب البديع التي عرفت حتى عصره»[1].

فخرالدين الرازي (ت٦٠٦هـ، ق):

واستطاع فخر الدين الرازي الذي كان ماهراً وذا باع طـويل فـي عـلوم شـتّى، وكواحد من المبرزين في دنيا البلاغة العربيّة وعلى وجه التحديد في كتابه نـهاية الإيجاز في دراية الإعجاز أن يوجـز ما توصّل إليه البلاغيون السابقون عـليه، وأن يجمع ما توفّر للبلاغة في عصره من مقوّمات، فقد تراكمت عند هذا الرجل ثـروة بلاغيّة لايستهان بها، فالكتاب إذن تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر في صـورة تنضبط فيها القواعد البلاغيّة، وتنحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقاً، كما نجده يلمّ بأطراف من آراء الزمخشري، وسرد طائفة من الألوان البديعيّة، وأفاد مـن تـأليف آخر مثل: حدائق السحر في دقـائق الشـعر لرشـيدالديـن الوطـواط (ت٥٧٣هـ، ق)، والخطابي الذي سبق الرازي إلى القول بإعجاز القرآن قبل ثلاثة قرون، والرمّـاني صاحب كتاب تقسيم البـلاغة الذي استلهم مباحثه البـلاغيّة مـن بـعض المـؤلّفين اليونانيّين. واستفاد ـ أيضاً ـ الرازي من مؤلفي عـرب آخـرين، مـنهم: البـاقلاني، والجاحظ، وابن جنّي، والثعالبي، وغيرهم.

لقد اهتمّ الرازي في دراسة محاسن الألفاظ، والتي قسّمها إلى خمسة أقسام:

١. من حيث صورة كتابتها (أي كتابة الألفاظ).

---

١. اثر القرآن في تطور النقد الأدبي، ص ٧٠.

٢. من حيث جوهر الحروف، ونوعها، ومخارجها.

٣. من حيث ائتلاف حروف الكلمة.

٤. من حيث كثرة حروف الكلمة أو قلّتها.

٥. من حيث انسجام الكلمة مع الكلمة المجاورة لها، وصورة هذا الانسجام في الجناس، والاشتقاق وردّ العجز على الصدر والقلب، والسجع، والتضمين والترصيع.

كما اهتمّ بدراسة النظم، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع المسائل الخمسة الآتية:

١. معنى النظم ومحسّناته.

٢. التقديم والتأخير.

٣. الفصل والوصل.

٤. الحذف والإضمار، والإيجاز:

٥. إن وإنّما، والقصر.

ثمّ يأخذ في بيان أقسام النظم، وهو يجري على وجوه شتّى، عدّ منها ثلاثة وعشرين وجهاً، نراه يستمدّها هي وأمثلتها من حدائق السحر، وهي المطابقة، والمقابلة، والمزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء.

ويذكر بعد ذلك الاعتراض، والالتفات، والاقتباس، والتلميح، وإرسال المثلين، أي الجمع بينهما في بيت شعر مثلاً، واللفّ والنشر، والتعديد (وهو سياق الأسماء المفردة في النثر والنظم على سياق واحد)، ثمّ الإيهام، (وهو التورية أو ضرب منها)، ومراعاة النظير، والموجّه (هو أن يمدح الشاعر ممدوحه بصفة حميدة، ثمّ يقرن بها صفة من جنسها تفيد معنى ثانياً)، ويلي ذلك الكلام المحتمل للضدّين من المدح والثناء، وتأكيد المدح بما يشبه الذمّ، وتجاهل العارف، ثمّ السؤال والجواب في بيت واحد، والإغراق في الصفة (وهو المبالغة)، والجمع، والتفريق، والتقسيم منفردة ومجتمعة، ثمّ التعجّب، وأخيراً حسن التعليل.

ضياء الدين أبو الفتح ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ، ق):

ويؤلّف ابن الأثير كتاب البديع في المثل السائر ونراه ينوّه بالآمدي في الموازنة، وبابن سنان الخفاجي في سرّ الفصاحة، ونحى منحىً مخالفاً لمدرسة عبد القاهر، وكأنّه هو الذي وسّع كلمة «البيان» لتصبح مرادفة لكلمة «البلاغة»، متابعاً في ذلك الجاحظ ومن لفّ لفّه، والعجيب أنّه كثيراً مايقتبس من عبد القاهر، ويدّعي أنّه من ابتكاره دون أن يشير إليه ممّا نلمح منه الهدف الذي يرمي إليه وهو حرصه على السبق، وولوعه بأن يغطّي على السابقين، وهو إغماط لحقّ سابقيه وغضّ من شأنهم.

والذي يعنينا من كتابه هو ما عرض له من ألوان البديع، على أنّ ابن الأثير لم يعرض لكلمة «البديع» إلّا في موطن واحد حيث أطلق على الطباق اسم «البديع». ومن ألون البديع التي تعرّض لها:

حسن المطلع، حسن التخلّص، التصريع، التجنيس، الترصيع، لزوم مالا يلزم، الموازنة، التجريد، الالتفات، التفيسر بعد الإبهام، عكس الظاهر، الاستدراج، الاعتراض، المغالطات المعنويّة، المبادي والافتتاحات، التخلّص والاقتضاب، التناسب بين المعاني، الاقتصاد والتفريط والإفراط، الاشتقاق، التضمين، الإرصاد، التوشيح.

و خلط ابن الأثير بين السجع والفواصل والازدواج[١]، وهو يمثّل الطريقة الأدبيّة في المعالجة البلاغيّة تلك الطريقة التي تعتمد على التحليل الأدبي والإكثار من الشواهد، والتي لا تلتفت كثيراً إلى تحديد المصطلحات، والفصل بينها. بالرغم من خلطه بين السجع والفواصل والازدواج، لكنّه في النوع الخامس من القسم الثاني من الصناعة اللفظيّة (الذي سمّاه بـ«الموازنة)» عاد وتعرّض للفواصل بعد أن عرّف

١. المثل السائر، ج١، ص١٩٣؛ الجامع الكبير، ص٢٥١؛ البديع تأصيل وتجديد، ص٣٧.

«الموازنة» بأن: «تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، أن يكون صدر البيت الشعري وعَجزُه متساويي الألفاظ وزناً... وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة، دون المماثلة إلّا أنّ في السجع اعتدالاً، وزيادة على الاعتدال، فكلاهما تماثُل أجزاء الفواصل؛ لورودها على حرف واحد، وأمّا الموازنة، ففيها الاعتدال الموجود في السجع، ولا تماثل في فواصلها. فيقال: إذاً كلّ سجع موازنة، وليس كلّ موازنة سجعاً، وعلى هذا، فالسجع أخصّ من الموازنة. فممّا جاء منها، قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[١]، ثمّ ضرب الأمثلة...، وقال: وأمثال هذا في القرآن كثير، بل معظم آياته جارية على هذا المنهج حتى إنّه لا تخلو منه سورة من السور، وهو لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة[٢].

واسترسل ابن الأثير في حديثه عن المبالغة، وهو يعنونها بـ«الاقتصاد والتفريط والإفراط»، ويُعرّف التفريط: «بأن يكون المعنى المضمر في العبارة، ودون ما تقتضيه منزلته المعبّرة عنه»، والإفراط: « أن يكون المعنى فوق منزلته».

كما اعتبر ابن الأثير التورية من «المغالطات المعنويّة»، يقول عنها: «وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية». ويفرّق بين الجناس والتورية (المغالطة): أنّ التجنيس يذكر فيه اللّفظ مرّتين، فهو يستوي في الصورة، والمغالطة ليست كذلك، بل يذكر فيها اللّفظ مرّة واحدة، ويدلّ به على مثله بمذكور.

السكّاكي (ت٦٢٦ هـ، ق):

لقد بلغت علوم البلاغة غايتها في زمن السكّاكي المعاصر لابن الأثير ضبطاً

---

١. الصافّات: ١١٧ و١١٨.

٢. انظر: المثل السائر: ج ١، ص٢٧٨؛ البديع تأصيل وتجديد، ص٣٧؛ الصيغ البديعي، ص٢٦٤ و ٢٦٥؛ البلاغة والتطبيق، ص٤٢٤.

وتقسيماً وتحديداً، أو تميّزت أحكامه، وخاصّة بعد أن وضع السكّاكي حدّاً لعلمي المعاني والبيان، وعرض ألوان البديع التي يُصار إليها لتحسين الكلام، وقسّمها إلى عدّة فنون، وهو بهذا نصّ على ما يجب إدراجه تحت «البديع».

وكان البديع قبل السكّاكي في أسمى درجاته، فهو الأسلوب المتميّز المبتدع الذي يؤدي إلى البلاغة، وبالتالي تكون تلك الفنون البلاغيّة كلّها فنوناً لتحقيق درجة الإبداع، فليس هناك فنون بديعيّة ـ كما عرّفها السكّاكي ـ، وإنّما هناك فنون تحاول أن تحقّق البديع، وإن تحقّق البلاغة في أبدع صورها، فجاء السكّاكي خصّص فنوناً بعينها، وسمّاها «البديع» مع أنّ المقصود من الفنون البديعيّة الفنون التي تحاول من خلالها تحقيق الإبداع، والابتكار، التميّز، والفنّ الجميل، فبدلاً من أن يكون «البديع» درجة من التميز يصل إليها الفنان عن طريق أي فن بلاغي، صار البديع عبارة عن استخدام الجناس، والطباق، والسجع، والازدواج.

ثمّ قسّم السكّاكي هذه الفنون إلى قسمين: لفظي ومعنوي، وبهذا تمّت الرواية فصولاً، ومشكلة مصطلح البديع ليست القضية؛ لأنّ التقسيم قد استقرّ، والتصنيف قد استحكم، والأذواق قد سقمت، فصار الجمود تجديداً، فبهذه الصيغة النهائية عكف العلماء من بعده يتدارسونها مراراً.

لقد أراد السكّاكي أنْ ينفذ من خلال الدراسات البلاغيّة التي كتبت قبله. ويقدّم عملاً دقيقاً لما نشره أصحابها من آراء، ومن خلال أفكاره المبتكرة مستعيناً فيها بقدرته ما يستطيع هو أنْ يضيفه إليها من أفكاره، مستعيناً فيها قدرته المنطقيّة في التعليل والتحديد والتعريف والتقسيم، فابتدأ بتقسيم البديع إلى محسّنات لفظيّة، وأخرى معنوية، وتحثّ عن نعوت الجودة التي تتّصل باللّفظ، ثمّ بالمعنى، ثمّ بالوزن والقافية، وما يندرج تحت ائتلاف اللّفظ مع المعنى واللّفظ مع الوزن، والمعنى مع الوزن في أُسلوب جاف، وتقنين عقيم مستقى من الفكر اليوناني.

وكذلك جمع موضوعات من الدلائل للجرجاني، وصنّفها في «علم المعاني»،

وأخرى من «الأسرار»، وصنّفها في «علم البيان»، ولم يقصد الجرجاني إلى ما ذهب إليه السكّاكي، فلفظ «علم» يعني الإحاطة الشاملة التي توصّل إليها الجرجاني في نظريّة النظم.

وقد أخذ السكّاكي تقسيمه للبلاغة إلى «علمي المعاني والبيان» من قول الزمخشري في «الكشاف»: «...ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ـ حقائق القرآن ـ إلّا رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان».

وصرّح أنّ سبب تأليفه لكتابه هو التمكّن من فهم مراد اللّه في كلامه، ويرى أنّ البلاغة تبتدئ من الأسفل، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق بما يشبه أصوات الحيوانات، ثمّ تاخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز، وهو الطرف الأعلى ـ وهو بذلك يتابع رأي الرازي ـ، وكذلك يرى انّ وجه الاعجاز القرآني هو بلاغته، وفصاحته، ولا يمكن إدراكه إلّا بالذوق، وطريق تربية الذوق عنده طول الممارسة لعلمي المعاني والبيان، وما يتبع ذلك من المحسنات اللّفظية والمعنوية، ولمن رزقه اللّه طبعاً سليماً، وهو فضل إلهي يهبه بحكمته من يشاء.

ويعرّف السكّاكي البلاغة بقوله: «هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفية خواصّ التركيب حقّها، وإيراد انواع التشبيه، والمجاز، والكناية، على وجهها» ومعنى ذلك: أنّه يجعل البلاغة تشمل علمي المعاني والبيان فحسب، وأمّا الفصاحة، فهي عنده قسمان: راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد، وراجع إلى اللّفظ، وهو أن تكون الكلمة عربيّة أصيلة. ثمّ أخذ يكشف عن وجوه البلاغة، والفصاحة المعنوية، واللّفظية في الآية الكريمة: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. وقد سبق أن وقف عندها عبد القاهر، وكشف عمّا فيها من روعة

---

١. هود: ٤٤.

النظم، وبعد أن ينتهي من بيان روعة الآية الكريمة، يقول: وإذ قد تقرّر أنّ البلاغة بمرجعيها، وأنّ الفصاحة بنوعيها ممّا يكسو الكلام حُلّة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة، كثيراً ما يُسار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا إلّا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللّفظ.

فمن القسم الأوّل: المطابقة، المقابلة، المشاكلة، مراعاةالنظير، المزاوجة، اللّف والنشر، الجمع، التفريق، التقسيم، الجمع مع التفريق، الجمع مع التقسيم، الجمع مع التفريق والتقسيم، و الإيهام، التوجيه، سوق المعلوم مساق غيره، الاعتراض، الاستتباع، الالتفات، تقليل اللّفظ، ومنه الإيجاز، والإطناب.

والقسم الثاني: وهو المحسّنات البديعيّة اللّفظيّة:

١. التجنيس، وفيه: التامّ، والناقص، والمذيّل والمضارع (أو المطرف) واللاحق (وفيه المشوش، والمتشابة والمفروق).

٢. ردّ العجز على الصدر.

٣. القلب، وفيه أقسام: مقلوب الكلّ، مقلوب البعض، المقلوب المجنّح.

٤. الإسجاع، وفي القرآن تسمّى «الفواصل».

٥. الترصيع.

وممّا يلاحظ بهذا الصدد أنّه لم يُسَمِّ ما تناول من فنون البديع بديعاً، ولم يعتمد مصطلحه. كما لم يدخلها في البلاغة، وإنّما سمّاها محسّنات، ورآها وجوهاً مخصوصة كثيراً ما يصار إليها عند تحسين الكلام.

وهكذا أصبحت البلاغة تُدرّس وفق قواعد وأُصول كانت في أصل ومعايير أعدّت مسبقاً كي تتيح أداء أفضل الكلام.

وفي الحقيقة نجد أنّ هذه القواعد والأُصول كانت في أصل نشأتها لغة أدبيّة انبثقت بفعل تجارب أدبيّة أتاحتها مراحل تاريخيّة معيّنة لها خصائص فنّيّة تطوّرت

في فترة من الزمن، فأصبحت بعد عهد السكّاكي مجرّد وصايا لإجادة التعبير الأدبي، وصار «البديع» أن تستخدم الجناس والطباق والازدواج... بدل أن يكون درجة من التميّز يصل إليها الفنّان عن طريق أي فنّ بَلاغي.

فنون البديع عند القزويني (ت٧٣٩ هـ، ق):

لقد التزم الخطيب القزويني بقسمة السكّاكي لفنون البديع إلى محسّنات معنويّة ومحسّنات لفظيّة، مضيفاً إلى ما أورد السكّاكي فنوناً جديدة؛ ذلك لأنّه ذكر من المحسّنات المعنويّة إثنين وثلاثين نوعاً، ومن المحسّنات اللّفظيّة تسعة أنواع، وفصّله عن البلاغة فصلاً تامّاً، إذْ أعدّ للبلاغة علمين هما: علم المعاني وعلم البيان[١].

ومن هنا فقد حدّ البديع بقوله: «علم يُعرف به وُجُوهُ تحسين الكلام بعد رِعاية تطبيقه على مُقْتَضى الحال وَوُضُوح الدلالة»[٢].

والمراد بمطابقة مقتضى الحال هو علم المعاني، وبوضوح الدلالة إيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها. وهو علم البيان.

وظهر من هذا التعريف أنّ تلك الوجوه إنّما تُحسّن الكلام بعد رعاية ما يقتضيه على المعاني والبيان.

وعلى ضوء هذا التعريف أقصىٰ عن البديع ما عدّه بعضهم من فنونه «نحو ما يرجع في التحسين إلى الخطّ دون اللّفظ مع أنّه لا يخلو من التكلّف، ككون الكلمتين متماثلتين في الخطّ، وكون الحروف منقوطة أو غير منقوطة، ونحو ما لا أثر له في التحسين، كما يسمّى الترديد، أو لعدم جدواه، نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخّرين بما هو داخل فيما ذكرناه، كما سمّاه الإيضاح فإنّه في الحقيقة راجع إلى

١. الايضاح، ص ٢١ و ٢٢.
٢. المصدر، ص ٢٥٥؛ البلاغة والتطبيق، ص ٤٢٤.

الإطناب أو خلط فيه، كما سمّاه حسن البيان[١].

وختم القزويني كتابه بفصلين في السرقات وما يتّصل بها، والقول في الابـتداء والتخلّص والانتهاء، وقد حيّرَ شرّاح التلخيص بهذه الخاتمة فذهب بعضهم إلى أنّها خاتمة الكتاب كلّه فهي بذلك خارجة عن الفنون الثلاثة كالمقدّمة، وذهب آخرون إلى أنّها خاتمة للفنّ الثالث معتمدين على قول القزويني في الإيضاح: هذا ما تيسّر ـبإذن اللّه تعالى ـ جمعه وتحريره من أُصول الفنّ الثالث، وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنّفين، منها: ما يتعيّن إهماله لعدم دخوله في فنّ البلاغة [وهو ما ذكرناه قبل قليل].

ومنها: ما لا بأس بذكره؛ لاشتماله على فائدة وهو شيئان:

أحدهما: القول في السرقات الشعريّة وما يتّصل بها.

والثاني: القول في الابتداء والتخَلُّص والانتهاء. فعقدنا فيهما فصلين ختمنا بهما الكتاب[٢].

وعلّل المغربيّ جعلها خاتمة لا باباً في البديع بقوله: «وإنّما جمع هذه الأشياء في الخاتمة ولم يجعلها باباً من البديع أو يجعل كلّ واحد منها باباً على حدة لوجهين:

أحدهما: أنّ كلّا منها ليس أمراً يعمّ كلّ كلام ويغلب مكان جريانه في كلّ موطن، أمّا في السرقات، فظاهر لخروج النثر، وكذا فيما يتّصل بها؛ لاختصاصها بالأخذ عن الغير، وأمّا في الابتداء والانتهاء والتخلّص، فلخروج ما ليس في تلك المحال وهذا الوجه بعينه يمكن أن يجعل هو السرّ في جمعها لاشتراكها فيه.

والوجه الثاني: أنّ الحسن فيها دون الحسن في غيرها مع سهولة التـناول فـلم تجعل باباً لقلّة الاهتمام بشأنها ويسرها باعتبار غيرها وان كـان النـاس يـهتمّون بأُمورها، أمّا في السرقات فلمّا علم من أنّ الابتداع أرفع وأصعب من الاتّباع وإن

---

١. الإيضاح، ص ٣٠١.

٢. شروح التلخيص، ج ٤، ص ٤٧٥.

كان فيه تغيير ما، وكذا فيما يتّصل بها، وأمّا في الابتداء وما والاه فلمّا علم من أنّ رعاية تمام الحسن في جميع أجزاء الكلام أعلى وأصعب ويمكن جعل هذا أيضاً هو السرّ في جمعها[١].

ولكن لا يوافق بعض الدارسين ما ذهب إليه القزويني في جعل السرقات خاتمة لعلم البديع أو للبلاغة كلّها لأنّها فنّ واسع له أثره وقيمته في الدراسات النقدية وقد أولاها علماء البلاغة والنقد اهتماماً عظيماً قبل القزويني وأفردوا لها كتباً خاصة وعقدوا فصولاً كبيرة في كتبهم، وانّه لمن المفيد أن يفرد لهذا الموضوع باب واسع في الدراسات البلاغية والنقدية، ومثل هذا يقال في حسن الابتداء والتخلّص والانتهاء فهي فنون قائمة بذواتها[٢].

خلاصة الاستعراض

يتّضح من خلال هذا الاستعراض التأريخي أنّ ابن المعتزّ لم يكن يسعى إلى تحديد فنون البديع بما يجعله موضوعاً راسخ المعالم، منغلق الملاحم، متميّز الأركان، وكان يتجنّب تعريف البديع وتحديد أبوابه، وترك الباب مفتوحاً لتغيّر الأحوال والمفاهيم والبيئة، وكان هدفه تعريف الناس أنّ ما وجده في القرآن واللّغة وأحاديث رسول اللّهﷺ وكلام الصحابة والأعراب وأشعارهم من الكلام الذي سمّاه المحدَثون «البديع» ليعلم أنّ بشّاراً أو مسلماً أو أبا نواس، ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ، ولكنّه كثر في اَشعارهم فعُرف في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم واعرب عنه ودلّ عليه[٣].

كما نسب إلى أبواب البديع ثلاثة فنون من أبواب علم البيان وهي: التشبيه،

---

١. دراسات بلاغية ونقدية، ص١١١و١١٢.

٢. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص١١٢و ١١٤؛ البلاغة والتطبيق، ص٤١٢و ٤١٤.

٣. البلاغة تطور وتاريخ، ص٣٥٨.

والاستعارة، والكناية، وبذلك سنّ للذين صنّفوا في هذا الباب من بعده سنّة التوسّع في معنى البديع ليقوم في معناه مقام البلاغة حتى بعد أن استقلّت فيها علوم البيان والبديع والمعاني[١].

وعلى هذه السنّة جرى المصنّفون في إعجاز القرآن، والمؤلّفون في علم البلاغة، والمتحدّثون في موضوعات الأدب منذ أواخرالقرن الثالث للهجرة، فأخذوا يضيفون إلى ما اكتشف ابن المعتزّ من فنون البديع ومحاسن الكلام والشعر مارأوه سبقاً توصلوا إليه وكشفوا عنه إذ لم يلبث أنْ نفّذ قدامة بن جعفر إلى زيادة ثلاثة عشر محسّناً، ثمّ تلاه أبو هلال العسكري فعدّ من المحسّنات خمسة وثلاثين، وكذلك صنع ابن رشيق القيرواني من العمدة[٢].

فالمباحث البلاغية الواردة في نقد الشعر لقدامة بن جعفر تنتمي إلى علوم البلاغة الثلاثة، فمن علم المعاني ذكر الفنون التالية: التتميم، الايغال، المساواة، الإشارة.

وذكر من علم البيان: التشبيه، والاستعارة، والتمثيل، والإرداف.

وتحدّث عن فنون بديعيّة مثل التصريع، السجع، الترصيع، الجناس، المطابق، التكافؤ، التوشيح، الغلو، المقابلة، الالتفات، صحّة التقسيم، المبالغة، صحّة التفسير.

وقد ظلّ مصطلح البديع على هذا النحو من إغفال تعريفه وإقامة حدوده وتركه شاملاً متّسعاً حتى لدى الذين أخذوا لفظه وأقاموا عنواناً لمصنّفاتهم.

ولقد سعى عبد القاهر الجرجاني إلى ترسيخ معايير تطبيقية لتميّز فنون البديع الأصيلة عن التزويق اللّفظي والصناعة الشكليّة، مقرّراً بذلك أهمّيّة هذه الفنون ومحدّداً سبيل تحقيقها، وتجنّب الإفراط فيها بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنّه يتكلّم ليفهم، ويقول: ليبيّن، ويخيّل إليه أنّه اذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ماعناه في عماه وأن يوقع السامع من طلبه خبط عشواء،

---

١. البلاغة والتطبيق، ص٤١٤.

٢. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص٤٦.

وربّما طمس بكثرة ما يتكلّفه على المعنى وأفسده، كمن ثقل العروس بأصناف الحليّ حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها.

وخلاصة ما طرحه عبد القاهر، فإنّه قد ذكر أربعة معايير لبيان دور فنون البديع ووضع اليد على عاقبة التفريط فيها:

أوّلها: ملائمة في البديع للمعنى وانسجامه معه والتحاقه به.

وثانيها: صدوره عن الطبع وانبثاقه عن السليقة والإمساك به إذا ما جاء عن تصنّع وتكلّف.

وثالثها: توظيفه من أجل الإفهام والإبانة.

ورابعها: تجنبه للإكثار والتراكم بلا طائل وبلا هدف.

فمجال البديع مرهون بسلامة المعنى وصحّته.

إنّ هذه المعايير ـ بلا ريب ـ تصحّ في ميدان التطبيق مؤشرات لتمييز البديع الأصيل عن المزيّف حتى يصنع معها دوره الأصيل في إشراقة أُسلوبه ووضوحه وبيانه وتأثيره.

❊ ❊ ❊

البديع لغةً و اصطلاحاً

البديع في اللغة

هو الجديد والطريف والمخترع، والانشاء والابتداء، وكل ما من شأنه أن يدل علىٰ الجِدة والابتكار الذي لم يسبق إليه.

وفي اللسان: بَدَعَ الشيء يُبْدِعُهُ بَدَعاً وابتدعَهُ أنشأه وبدأه، والبديع والبَدع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]. أي: ماكنت أول من أرسل.

والبديعُ: المُبْدِع[2]، وابْدَعْتُ الشيء: اخترعته لاعلىٰ مثال، والبديع من أسماء الله تعالى؛ لإبداعه الأشياء وإحداثهِ إيّاها، وهو البديع الأول قبل كل شيء. ويجوز أن يكون بمعنىٰ مُبْدَع[3]، أو يكون من بدع الخلق، أي: بدأه[4].

ويكون لها معان أُخر كما في الحديث الشريف بمعنى: الطيب والجديد، كقولهﷺ، في وصف تهامة: «إن تُهامةَ كبديعِ العسلِ حُلْوٌ أوّله وحُلْوٌ آخره»[5].

---

١. الأحقاف: ٩.

٢. أي فعيل بمعنى فاعِل، أي من ينشئ الشي على غير مثال سابق.

٣. أي فعيل بمعنى مفعول، أي المُحْدَث العجيب.

٤. لسان العرب: (بدع).

٥. النهاية في غريب الحديث، ص١٠٦ و١٠٧؛ والبديع: الزق الجديد، شبّه به تهامة لطيب هوائها، والذي لا يتغير كما أن العسل لا يتغير. (البديع في ضوء اساليب القرآن، ص٥).

البديـع في الاصطلاح

اقترن استعمال كلمة (البديع) كمصطلح في التراث العربي بظهور مذهب شعري جديد على أيدي عدد من شعراء العصر العباسي، ممن اشتهروا بالتأنق في صياغة أشعارهم، واستعمال الظواهر البلاغية استعمالات جديدة على نحو لم يكن موجوداً من ذي قبل، وهم الذين أُطلق عليهم اسم المحدثين، أو أصحاب البديع[١].

واحتل مكانه مرموقة عند الأُدباء والنقاد البلاغيين لما رأوا فيه من جمال يضفيه على العبارة النثرية أو البيت الشعري كما وجدوا منه ألواناً تزخر بها الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فتسنم ذروة البلاغة حتى اعتبره بعضهم من وجوه الاعجاز في القرآن الكريم، لما له من أثر في جلال المعاني وجمال الألفاظ إلا أن الشعراء والكتاب في عصر التجديد قد فتنوا به وأفرطوا فيه ومنحوه كلّ اهتمامهم، سواءً أكان المعنى مفتقراً إليه أم مستغنياً عنه، فوقعوا في عيوب كثيرة من التكلّف والتعسف، كانوا في غِنىً عنها، فصار البديع معهم مسلكاً وعراً يؤدي إلى الإغراب والتعمية بدلاً من أن يكون وسيلة لتحلية الألفاظ وتحسينها، أو لكشف المعاني وابرازها[٢].

لذا جاء البديع في الاصطلاح بإنه هو عِلْمٌ يُعْرَفُ بـه وجُـوهُ تـحسين الكـلامِ المطابقِ لمُقْتضى الحال المعلومَة كيفيّةِ طُرُقِهِ في الدلالة وُضُوحاً وخفاءً[٣].

ويتضح من هذا المعنى أنّ: (العلم بوجوه تحسين الكلام) لا يسمى بديعاً إلا بشرطين:

أن يكون ذلك الكلام مطابقاً لمقتضى الحال.

---

١. انظر: علم البديع نشأته وتطوّره من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ، د. عبد الرزاق أبو زيد، ص٤٢.

٢. موسوعة علوم اللغة العربية، ج٦، ص٤٩٨، د. أميل يعقوب وهو بحث قدمته الدكتورة كوكب دياب لموسوعته، وهو من مقدمة تحقيقها لكتاب «خزانة الأدب» لابن حجة الحموي.

٣. نظم الدر والعقيان، ص٥١؛ الايضاح، ص٢٢.

وأن تكون كيفيات طرق دلالته معلومة الوضوح والخفاء.

فالشرط الأول هو علم المعاني، والشرط الثاني هو علم البيان، فلو افتقد أحد هذين الشرطين من الكلام لم يكن العلم بوجوه تحسين ذلك الكلام بديعاً، ولكان البديع كتعليق الدر على أعناق الخنازير[١].

وهذا يعني ان نسبة علم البديع الى علمي المعاني والبيان كنسبة المركب إلى مفرداته، وليس كنسبة التابع الى المتبوع، والعرض إلى الجوهر، فكما ان المركب لا يستقيم بوجوده إلا بوجود مفرداته، كذلك البديع لا يستقيم إلا بوجود المعاني والبيان، ثم أن أهم هذه الفنون الثلاثة هو علم المعاني وأخصّها علم البديع، لأنه متركب من الفنّين الآخرين وزيادة، وعلم البيان متوسِطُ بينهما، فهو مشتمل على المعاني مندرج تحت البديع، فكلُّ بديع مستلزم للمعاني والبيان؛ لأنّهما جزآه، وكل بيان مستلزم للمعاني، لأنها جزؤه، وليست المعاني مستلزمة للبيان ولا للبديع إذ توجد بدونهما وذلك في كلام طابق مقتضى الحال، ولم تُعلم كيفيّة طُرُق دلالته ولا وجوه تحسينه، ولا البيان مُسْتَلْزِمٌ للبديع اذ يوجد بدونه في كلام طابقَ مُقتضى الحال وعُلِمت كيفيّةُ طُرُق دلالته ولم تُعلم وجوه تحسينه، وهذا يعني أنّ المعاني والبيان بالنسبة إلى البديع كالحيوان والنطق بالنسبة إلى الانسان، إذ لا بديع بدونهما كما لا انسان بدون حياة ونطق، والمعاني بالنسبة إلى البيان كالحيوان بالنسبة إلى النطق، فتوجد المعاني بلا بيان كما يوجد الحيوان بلا نطق، ولا يوجد البيان بلا معانٍ كما لا يوجد النطق بدون الإنسان[٢] الذي هو البديع، فالبديع إذا ليس مجرد حلية، وانما هو مرتبط بالمعنى، وفصل البيان عن البديع نوع من الافتعال.

ويتضح مما سبق أن البلاغة لا تحصل إلا لمن استكمل العلوم الثلاثة: المعاني وهو علم يُحترز به من الخطأ في خواص التركيب المعنوي، والبيان وهو علم يبحث

---

١. المصدر الأوّل، ص٥٢.

٢. المصدر.

في طرق دلالة المعاني ويحترز به عن تعقيدها، والبديع وهو علم يبحث في وجوه تحسينها[١].

وهذا يعني أن علم البديع كعلمي المعاني والبيان يـعرف بـه التـحسين الذاتـي (المعنى) بالقدر الذي يعرف به التحسين العرضيّ (اللفظ). بالاضافة إلى ذلك فـإن علم البديع يهدف إلى اظهار رونق الكلام حتى يلج الأُذن بغير إذن، ويتعلق بالقلب من غير كدّ، بل هو علم يهدف إلى اكتشاف عناصر الجمال الأدبي في الكلام الأدبي الرفيع، شعراً ونثراً، وسبر أعماق الإبـداع وتـحديد مـعالمه وتـربية القـدرة عـلى الإحساس به، إلّا أن الباقلاني يرى أن لا سبيل الى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه وإن كانت نظرته إلى البديع شاملة، وذلك لأن هذا الفن ليس فيه مما يخرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن اسـتدراكـه بـالتعلم والتدرب[٢]. ومهما يكن فالبديع يبقى وجهاً من وجوه الاعجاز، أو على أقل تقدير فهو باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة[٣].

---

١. نظم الدر، ص٥٤.

٢. اعجاز القرآن، ص١٥٩ و١٦٢.

٣. موسوعة علوم اللغة العربية، ج٦، ص٥٠٠ و٥٠١.

فنون البديع

الجناس لغةً واصطلاحاً

الجناس لغة

الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلّها ألفاظ مشتقّة من الجنس، وهو في اللّغة: الضرب من كلّ شيء، على هذا تُجمِع معظم معاجم اللّغة معتمدة التعريف: الذي أتى به الخليل (ت١٧٥هـ.ق) بقوله: «الجنس لكلّ ضرب من الناس والطير والعروض والنحو»[١].

والجنس أعمّ من النوع ومستغرقه وإنْ كان الجنس يمكن أن يكون نوعاً لجنس آخر أكبر وأعمّ[٢].

فالجناس مصدر جانس، والتجنيس تفعيل من الجنس، والمجانسة مفاعلة منه[٣] وهو لغةً: المشاكلة والمشابهة، يقال: فلان يجانس البهائم ولا يجانس الناس، إذا لم يكن له تمييز ولا عقل[٤].

الجناس اصطلاحاً

ويطلق في الاصطلاح البلاغي على المحسّن البديعيّ اللّفظي الذي به تتّفق

---

١. أُنظر: البديع لابن المعتز، ص٢٥.

٢. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص١١١ و ١١٢.

٣. أنوار الربيع، لابن معصوم، ج١، ص٩٧.

٤. المصطلح النقدي، ص١١٢.

الكلمتان في اللّفظ وتختلفان في المعنى[١].

وذكر ابن المعتزّ أنّ الأصمعي (ت٢١١هـ.ق) قال في كتابه الذي ألّفه باسم «الأجناس» أنّ الجناس هو أن تجيء الكلمة تجانس الأخرى في بيت شعر أو كلام، أي تشبهها في تأليف حروفها[٢].

ويفهم من قوله هذا أنّ المجانسة عنده «صنف بلاغي يرجع إلى جرس الكلمة وتأليف حروفها وانسجام هذا التأليف في النطق»[٣].

فابن المعتزّ من أوائل الذين فطنوا إلى الجناس حيث عدّه في كتابه البديع ثاني أبواب البديع الخمسة ـ كما أوضحناه سابقاً ـ ولكنّه ليس بأوّل من استعمل اللّفظة، فهو يعترف في كتابه بالسبق فيه للخليل والأصمعي[٤].

ويُدخل قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ.ق) المجانس في باب ائتلاف اللّفظ والمعنى ويقرنه بالمطابق ويعرّفهما بقوله: أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة أو ألفاظ متجانسة مشتقّة، مثل قول زهير:

كأنَّ عَيْني وَقَدْ سالَ السَّليلُ بِهِمْ وَعـبْرَةٌ مـا هُـمْ لَـوْ أنّـهُمْ أمَـمُ[٥]

والمجانس عنده مثل المطابق من صفات الشعر، ثمّ يضيف في كلمة اختصّ بها المجانس: «أن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق»[٦].

ومن الواضح أنّ قدامة يقصد بالمجانس نوعاً ملحقاً بالجناس ألا وهو جناس الاشتقاق الذي يفيد اجتماع اللّفظين في اشتقاق واحد مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ

١. المصدر، ص١١٥.

٢. البديع، ص٢٥.

٣. بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، ص١١٦.

٤. المصطلح النقدي، ص١١٦.

٥. سال السليل بهم: ساروا فيه سيراً سريعاً، لما انحدروا فيه، والسليل، وادٍ بعينه، والأمم: القرب، أي: لو أنّهم بقوا وما رحلوا ما حدث لعيني ما حدث، ولا توقفتُ عند وادي السليل أرقبهم.

٦. نقد الشعر: ص١٨٦، المصطلح النقدي، ادريس الناقوري: ص١١٦.

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ...﴾[١].

وما يعدّه قدامة طباقاً يسمّيه غيره تجنيساً[٢].

وتَصرُّف قدامة في هذا الاصطلاح يخالف ما تعارف عليه كثير من العلماء على أن قدامة يتّفق مع ابن المعتزّ على حدّه، وتعريف قدامة له هو نفسه حدّ الرمّاني -كما سيأتي- لولا قول قدامة: على جهة الاشتقاق[٣].

وإن كانت كلمة «تجنيس» هنا وحدها لا تكفي؛ لأنّ هناك من يسمّي طباق قدامة تجنيساً تامّاً، أو تجنيس المماثلة أو التجنيس المستوفى[٤].

والخطأ الذي وقع فيه قدامة بخلطه بين الطباق والتجنيس جرّ عليه انتقادات كثيرة من طرف نقّاد لاحقين[٥].

وقدّم القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٦٦هـ.ق) عدّة مصطلحات حين تعرّض للجناس في الوساطة.

فالمستوفي وهو الجناس التام يكون بين الاسم والفعل، وضرب مثلاً كقول لذلك قول أبي تمام:

---

١. الروم: ٣٠.

٢. المصطلح النقدي، ص١١٧.

٣. تحرير التحبير، ج١، ص١٠٣.

٤. المصطلح النقدي، ص١١٧: ينفرد قدامة في اصطلاح الجناس المحقّق ويعرّفه بقوله: ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع؛ ويذكر أنّ عليّ بن عبد العزيز الجرجاني يسمّيه «المستوفي» ويمثّل له بقول أحد بني عبس:

وذلك أنّ ذلك الجار حالفكم ... وأن أنفكم لا يعرف الأنفا

ويقول: فاتفق الأنف مع الأنف في جميع حروفه دون البناء، ورجعا إلى أصل واحد، هذا عند قدامة أفضل تجنيس وقع، ومثله في الاشتقاق قول جرير -والجرجاني يسمّيه التجنيس المطلق- قال: وهو أشهر أوصافه:

وما زال مَعْقُولاً عِقَالٌ عن الندى ... وما زال مَحْبُوساً عن الخيرِ حَابِسُ

٥. من الذين أخذوا على قدامة: الآمدي في الموازنة، ج١، ص٢٧٤، والعسكري في الصناعتين، ص٣١٦ والعلوي في الطراز، ج٢، ص٣٧٨ وغيرهم. انظر: المصطلح النقدي، ص٢٩٦.

ما ماتَ مِنْ كَـرَمِ الزَّمـانِ فـإنَّهُ   يَحْيا لَدَى يَحْيى بَنْ عَبْدِ اللّـهِ[١]

والمطلق: أطلقهُ على الجناس الناقص للاختلاف في عدد الحروف، كقول النابغة:

وأقْطَعُ الخَرْقَ بـالخَرْقاءِ قـد جـعِلَتْ   بُعْدَ الكَـلالِ تشكَّـى الأَيْـنَ والسَّـأمَا[٢]

والناقص: وهو ما نقصت الحروف الأصلية في إحدى الكلمتين عن الأخـرى: كقول الأخنس بن شهاب:

وحامي لواءِ قد قَتَلْنا وحـاملٍ   لواءً مَنَعْنا والسيوفُ شَوارِعُ[٣]

أما قول أبي تمّام:

خَـلَّقْتُ بـالأُفقِ الغـربِيِّ لي سَكَـناً   قد كانَ عيشِي بـهِ حُـلْوَاً بِـحُلْوَانَ

فهو عند القاضي الجرجاني مـن الأوّل «المـطلق»، وليس بـناقص؛ لأنّ الألف والنون في «حُلوان» زائدتان[٤].

ومنها: التجنيس المضاف: كقول البحتري:

أيا قَـمَرَ التَّـمامِ أعَـنْتَ ظُـلْماً   عَـلَيَّ تـطاوُلَ اللّـيل التِّـمامِ[٥]

ومن التصحيف قول الشاعر:

ولم يَكُنْ المُـغْتَرُّ بـاللّه إذْ سَـرى   لِـيُعْجِزَ والمـعتزُّ بـاللّه طـالِبُهُ[٦]

---

١. الوساطة، ص٤٢؛ وفي ديوانه، ص٢٤٢: من مات من حـدث الزمـان فـإنه. انـظر: نـهاية الأرب، ج٧، ص ٩٠؛ الطراز، ج٧، ص٢٥٧؛ الإيضاح، ص ٢٨٩؛ التبيان، ص١٦٨.

٢. الخرق: الواسع من الأرض الذي تنخرق فيه الريح، والخرقاء: الناقة التي بها هوج من نشاطها، الأين، الاعـياء، السام: الفتور والملل، يشير إلى بُعْد سفره وطوله، وأنّه استعمل هذه الناقة التي كانت نشيطة في أول أمرها وما أن طال السفر حتى أعيت، فلو كانت مما يشتكي لاشتكت من طوله. شـرح ديـوان النـابغة للـبطليوسي، ص٦٧؛ الوساطة، ص٤١.

٣. الوساطة، ص٤٣.

٤. المصدر، ص٤٣.

٥. المصدر، ص٤٤؛ الديوان، ص٢٤٦. أتم القمر: اكتمل، وهو بدر تمام ـ بفتح التاء وكسرها، ويرى ابن دريد أنـه بكسرها ـ، وليل التمام: أطول ليالي الشتاء.

٦. انظر: الوساطة، ص٤٦، والبيت للبحتري، انظر: ديوانه، ج١، ص١٨.

ويقسِّم الرماني (ت ٣٨٤هـ.ق) الجناس إلى قسمين: جناس مزاوجة، وجناس مناسبة.

فالمزاوجة تقع في الجزاء كقوله تعالى ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ...﴾[1]. يقول الرمّاني: أي جازوه بما يستحقّ على طريق العدل، إلّا أنّه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان.

وأمّا المناسبة، فتدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد مثل قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[2]. فجونس بين الانصراف عن الذكر وصرف القلب عن الخير. وواضح أنه لم يقصد بالتجانس إلى كلّ صور الجناس، وإنّما قصد إلى هاتين الصورتين الخاصتين.

واستعرض أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ.ق) ما وصل إليه معظم جهود السابقين عليه، وبدأ بنقل تعريف ابن المعتزّ، وعرض لقسميه اللّذين عرض لهما، ولكنه توقّف عند تجنيس الاشتقاق ورفض منه ما كان تصريفاً كاسم الفاعل واسم المفعول وأمثالهما. يقول: وَشَرَط بعض الأدباء من هذا الشرط في التجنيس، وخالفه في الأمثلة، فقال: وممّن جنّس تجنيسين في بيت زهير في قوله:

بِعزمةِ مأمُورٍ مُطيعٍ وآمرٍ مُطاعٍ فلا يُلفىٰ لحزْمِهِمُ مِثْلُ[3]

وليس المأمورُ والآمرُ والمطيع والمطاع من التجنيس؛ لأنّ الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أنّ بعضها فاعل، وبعضها مفعول به؛ وأصلها إنّما هو الأمر والطاعة، وكتاب الأجناس الذي جعلوه لهذا الباب مثالاً إنّما يصف على هذا السبيل ويكون المطيع مع المستطيع، والآمر مع الأمير تجنيساً[4].

---

١. البقرة: ١٤.

٢. التوبة: ١٢٧.

٣. ديوان زهير بن أبي سلمىٰ، ص١٠٨، يصف قوماً بالحزم.

٤. كتاب الصناعتين، ص٣٢١ و ٣٢٢.

ثمّ مضى في سوق أمثلة أخرى للتدليل على خطأ هذا البعض، ثمّ قال: ليس في هذه الألفاظ تجنيس وإنّما اختلفت هذه الكلم للتعريف.

ولا ريب في أنّ هذا مظهر جليّ من مظاهر تشذيب أبي هلال وتهذيبه لطرق من تقدّموه[١].

وذكر أقساماً أخرى للتجنيس ـ وهو الجناس الناقص ـ لم يذكرها ابن المعتزّ ولم يتعرّض لها فنراه يقول: «ومن التجنيس نوع آخر يخالف ما تقدّم بزيادة حرف أو نقصانه كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٣].

وضرب آخر، وهو أن تأتي بكلمتين متجانستي الحروف، إلّا أنّ في حروفهما تقديماً وتأخيراً، كقول أبي تمّام:

بيضُ الصفَائِحِ لاسُودُ الصَّحائِفِ في مُـــتُونِهُنَّ جَـلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ[٤]

فما كان على غرار الآية الأولى قد عرف بالمضارع، وما كان على نحو الآيـة الثانية قد عرف باللاحق، وما كان على حذو بيت أبي تمّام قد عرف فيما بعد بجناس القلب.

ويضيف ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ،ق) مزيداً من المصطلحات في الجناس كالمماثلة والمحقق والمضارع وغيرها كما أوضحناها سابقاً[٥].

أمّا عند عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ،ق) فتخف زحمة المصطلحات ويرتفع لواء الفن، فالجرجاني لم يقسّم ولم يبحث عن شاهد لمصطلح، وإنّما كان مدفوعاً

---

١. الصبغ البديعي، ص١٦٥.
٢. الأنعام: ٢٦.
٣. غافر: ٧٥.
٤. كتاب الصناعتين، ص٣٣١؛ ديوان أبي‌تمام، ج١، ص٩٦؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٨٠.
٥. انظر: ص٦٦ وما بعدها من هذا الكتاب.

بدراسته للجناس من خلال نظريته في مكمن المزيّة والإعجاز وكان من الطبيعي أن يحاول استيفاء مناقشة هذه المسألة من جميع وجوهها؛ لأنّه يحاول أمراً صعباً؛ إذ أدرج معظم البلاغيين التجنيس في عداد الجرس واللّفظ، ولو كان كذلك من وجهة نظر الجرجاني، لما وجد نفسه بحاجة إلى دراسته؛ لأنّه سيخرج حتماً من أقسام البديع المعدودة.

ولقد شجّع الجرجاني على هذا التوجه أنّ الرمّاني قد أدرج التجنيس في أبواب البلاغة وناقش شواهده من ناحية المعنى لاالجرس والألفاظ[١] فرفض أن يكون الحسن والقبح في التجنيس «لا يتعدّى اللّفظ والجرس، إلى ما يناجي فيه العقل والنفس» ويعني المعنى، وقال: ولها إذا حقّق النظر مرجع إلى ذلك ومتصرّف فيما هنالك. أي مرجع إلى الجرس ومتصرّف إلى المعنى وكأنّه بهذا يقرّر أنّ قيمة اللّفظ والجرس تفضي إلى ما يناجي فيه العقل والنفس، وهو تصوّر المعنى. ويرى أنّك «لا تستحسن تجانس اللّفظتين إلّا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً»[٢].

وذمّ، بناء على هذه القاعدة، الاستكثار منه والولوع به «وذلك أن المعاني لا تدين في كلّ موضع لما يجذبها التجنيس إليه؛ إذْ الألفاظ خدم المعاني، والمتصرّفة بحكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقّة طاعتها»[٣].

يتأكّد موقفه هذا من خلال دراسته التجنيس في بعض الأبيات حيث يرى أن «مذهب» و«مُذهب» في بيت أبي تمّام[٤] لم تزدنا على أنّ أسمعتنا حروفَ مكرّرة نروم

---

١. المصدر، ص٥.

٢. اسرار البلاغة، ص٦.

٣. المصدر، ص٨.

٤. الديوان، ج١، ص١٢٩

ذَهَبَتْ بمذهبِهِ السماحَةُ والتوَتْ فيه الظنون أَمَذهَبٌ أم مُذْهَبُ؟

لها فائدة فلا نجدها إلّا مجهولة منكرة[١]، أمّا في بيت البستي[٢]، فيختلف الأمر؛ لأنّه «أعاد عليك اللّفظة كأنّه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنّه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التـجنيس وخـصوصاً المسـتوفي مـنه المتّفق في الصورة من حليّ الشعر ومذكوراً في أقسام البديع»[٣].

ووقف البغدادي (٥١٧هـ.ق) أمام الغاية من التجنيس حيث قال إنّه: «يزيد من رونق الشعر، ويحلّي عاطل معانيه، وهو عنوان الفصاحة، وشاهد الاتّساع في اللّغة، ودليل على توقّد الذكاء وجودة الذهن ومساقة الخاطر»[٤].

فقصّر بهذا الكلام دور التجنيس على التزيين الذي يصيب المعاني دون أن يسهم فـي تحديدها، جاعلاً المسألة دليل ذكاء وسرعة خاطر، وكأنّ الأمر مماحكة لفظيّة مما أبعده عن مذهب الجرجاني في التجنيس، ولم يصله بالبيان القرآني لا من بعيد أو قريب[٥].

وكان الزمخشري (ت٥٣٨هـ.ق) يلحّ على أن صورة الجناس المطبوع قد وردت كثيراً في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[٦]، ونحو ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٧] و ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَـنْـَٔوْنَ عَـنْهُ...﴾[٨]؛ ﴿وَهُـمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٩]. وفي قوله تعالى: ﴿مِن سَبَإٍ بِـنَبَإٍ يَـقِينٍ...﴾[١٠] يـقول: وقوله: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ من جنس الكلام الذي سمّاه المحدثون «البديع» وهو مـن

---

١. أسرار البلاغة، ص٨.

٢. ناظراهُ فيما جنى ناظراه أو دَعاني أمُتْ بما أوْدَعاني

٣. أسرار البلاغة، ص٨؛ انظر: إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي، ص ٣٢٦ و ٣٢٧.

٤. قانون البلاغة، ص ٩٠.

٥. اعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي، ص٣٣٦ و ٣٣٧.

٦. يوسف: ٨٤.

٧. التوبة: ٣٨.

٨. الأنعام: ٣٦.

٩. الكهف: ١٠٤.

١٠. النمل: ٢٢.

محاسن الكلام، الذي يتعلّق باللّفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً، أو يضعه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحّة المعنى وسَداده، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحّة فَحَسُنَ، وَبَدُعَ، لفظاً ومعنىً، ألا ترى أنّه لو وضع مكان «بِنَبأٍ» بخبرٍ لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال[1].

وقسّم أسامة بن منقذ (ت٥٨٣هـ، ق) الجناس إلى ثمانية أقسام:

١. **التجنيس المغاير**، وهو أن تكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً: كقوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2].

٢. **التجنيس المماثل**، وهو أن تكون الكلمتان اسمين أو فعلين. ويذكر شاهداً للاسمين قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[3] وللفعلين بقول أحد الأُدباء «أَحْسِنْ لَنا في النَّظَر كما أَحْسَنّا في الانتظار».

٣. **تجنيس التصريف**، وهو أن تنفرد كلّ كلمة من الكلمتين عن الأُخرى بحرف كقوله تعالى ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[4].

٤. **تجنيس التصحيف**، وهو أن تكون النقط فرقاً بين كلمتين، كقول البحتري:

وَلَمْ يَكُنِ المُغْتَرُّ بـاللّهِ إذْ سَرَىٰ　　لِيُعجِزَ والمُعْتَزُّ بـاللّه طـالِبُه

٥. **تجنيس الترجيع**، وهو أن ترجع الكلمة بذاتها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾[5].

٦. **تجنيس العكس**، وهو أن تكون الكلمة عكس الأُخرى، كما في قوله تعالى حكاية عن هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[6].

---

١. الكشاف، ج٣، ص١٤٤؛ انظر: البديع تأصيل وتجديد، ص٧٢.
٢. النمل: ٤٤.
٣. الرحمن: ٥٤.
٤. الكهف: ١٠٤.
٥. العاديات: ١١.
٦. طه: ٩٤.

٧. **تجنيس التركيب**، ويُعرّفه بأن تكون الكلمة مركّبة من كلمتين.

٨. **تجنيس التحريف**، وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين كقول البحتري:

سَقَمٌ دُونَ أَعْيُنٍ ذاتِ سُقْمٍ وَعَذابٌ دُون الثنايا العِذابِ

وكذلك قسّم ابن الأثير (ت٦٣٧هـ.ق) التجنيس إلى سبعة أقسام واحد منها يدلّ على حقيقة التجنيس؛ لأنّ لفظه واحد لا يختلف وستّة أقسام مُشبِهَةٌ[١]، ولم يهتمّ ابن الأثير بالمصطلحات بقدر ما اهتمّ بالشواهد الأدبيّة العديدة، تلك التي استقاها من كتب السابقين، ثمّ أضاف إليها ما جادت به قريحته من رسائل دون أن يعلّق عليها بما يؤكّد استفادته من البيان القرآني أو الدراسات الإعجازيّة، ولعلّ السبب في ذلك هو الهَمُّ الإحصائي الذي ساد القرن السابع وحلّ محلّ الإبداع والتحليل.

ولاحظ ابن الأثير الحلبي أنّ فائدة التجنيس البيانية لم تتّضح كالتشبيه والاستعارة عند القدماء، ولكنّه يتلمس طريقاً إلى إدراك فائدته، قال: «غير أنّهم عبّروا عن ذلك بشيء يشبه أن يكون فائدة للتجنيس، فإنّهم قالوا إنّ تشابه ألفاظ التجنيس يُحدث بالسمع ميلاً إليه، فإنّ النفس تتشوّف إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ، فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة»[٢].

وقول ابن الأثير الحلبي هذا تقرير لقيمة الجرس في التجنيس من خلال ما تحدثه الألفاظ المتجانسة في التعبير من إثارة وخيال لاستجلاء المعنى، فإنّ ترجيع الألفاظ المتشابهة تدقّ السمع وتوقظ الأذهان، وتَتَشوَّفُ لوقعها النفوس، ولإفادة التجنيس الترجيع في تكرار لفظتين اشترط التنوخي أن يكون في أثناء الكلام من غير أن يكون بينهما بُعد بحيث لا ينصرف الذهن عن الأوّل وأفضل أن

---

١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، ص٢٤١.

٢. جوهر الكنز.

يكونا مجتمعين في بيت من الشعر ونحوه من الكلام[١].

ولانصراف اللفظ المتشابه في التجنيس إلى اختلاف المعنى، واعتماده على رهافة حسّ الشاعر في استدعاء معنى لكلّ لفظ، ربط بعض الباحثين المعاصرين التجنيس بنظريتي: تداعي الألفاظ، وتداعي المعاني، قال: «فهناك ألفاظ متّفقة كلّ الاتّفاق أو بعضه في الجرس، وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابكة في المعنى بحيث تذكر الكلمة أُختها في الجرس وأُختها في المعنى، كما يولد المعنى الأوّل معنى ثانياً وثالثاً، وهذه الحالة النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة إذا كان ملمّاً بلغته محسّاً بذوقها عالماً بتصاريفها واشتقاقها»[٢].

أي إنّ الشاعر في التجنيس يستغلّ القوّة التعبيريّة في جرس الألفاظ على توليد المعنى تهيئه اللغة في اشتقاقاتها. فزهير بن أبي سلمى مثلاً يعرّف الوادي المسمّى بالسليل، فإذا ارتحل عنه أحبابه وسلكوا هذا المكان بكى وجرى دمعه، أو سال، فإذا كان «السليل» طريق الفراق واقترن ذلك بسيل دموعه، عبّر عن هذا المعنى تعبيراً طبيعياً فيجمع بين «السليل» و «سال» في لين وسهولة يسوقانه أو يقودانه إلى التجنيس فيقول:

كَأَنَّ عيني وقد سالَ السليلُ بهِم وعَبرَةٌ ما هُمُ لو أنّهُم أمَمُ[٣]

ولم يقدّم ابن أبي الإصبع ولا الزملكاني ولا الحموي سوى الزيادة في التقسيم، دون أن يبيّنوا الدور الدلالي الذي يلعبه التجنيس أو يشيروا إشارة تفيدنا أنّه قد صدر عن البيان القرآني في أمر خارج عن دائرة التفريع، حتى أصبحت المنافسة في البحث عن أقسام جديدة للصورة البديعية الواحدة أو اكتشاف صور جديدة لا شأن لها في عالم البيان.

---

١. جرس الألفاظ، ص٢٧٣؛ الأقصى القريب في علم البيان، ص١١١.

٢. جرس الألفاظ، ص٢٧٣؛ بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، ص١١٧و ١١٩.

٣. ديوان زهير بن ابي سلمى، ص ٩٠ عبرة ماهم: ما زائدة، وأراد هم عبرة لي، أي سبب بكائي. الأمم: القصد، والقرب، أي لو كانوا قريبين لكنت أزورهم.

الجناس وأنواعه

وهو نوع من الوشي اللاحق باللّفظ في العبارة، وأصله أن يتشابه لفظان في النطق، ويختلفا في المعنى، فإذا جاء عفواً، وجاد به الطبع من غير تكلّف، عُدَّ من المحسّنات الجميلة، وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني: ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقّه بالحسن وأولاه: ما وقع من غير قصد من المتكلّم إلى اجتلابه وتأهُّب لطلبه، أو ما هو لحسن مُلائمته ـ وإنْ كان مطلوباً ـ بهذه المنزلة وفي هذه الصورة[1].

الأوّل: الجناس التام، وهو ما اتّفق فيه اللّفظان بنوع الحروف وشكلها، وعددها، وترتيبها، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾[2].

فاختيار الساعة الأولى معنىً ليوم القيامة، يدلّ على دقّة مجيئها، ودقّة حسابها وانضباط وقتها، كلّ هذا لا يدوم طويلاً؛ لأنّ النغمة نفسها ستكرّر، ولكن بمعنى آخر، بمعنى الساعة الزمنيّة، كأنّهم لم يعيشوا في الدنيا غير ساعة من زمن، ولم يبقوا في القبر غير ساعة من زمن، إنّما جاء إحساسهم بقصر الوقت، تعبيراً عن هول المفاجأة، لذا لم تكن لفظة أخرى بقادرة على إعطاء هذا الأحساس أكثر من كلمة

---

١. اسرار البلاغة: ص ١٠.

٢. الروم: ٥٥.

«الساعة». وإنّما وجب هنا التجانس التامّ بين المعنى والنغم، وفاءاً للمعنى ودقّة في الاداء، وتصويراً للمفاجأة، ومدى وقعها على هؤلاء المجرمين[١].

ومن هذا النبع استقى الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام حكمته الرائعة:

«صَوْلَةُ الباطلِ ساعةٌ، وَجَوْلَةُ الحَقِّ إلى قيام الساعةِ»[٢].

فهنا يريد بالساعة الأُولى الساعة الزمنيّة، وهي استعارة تصريحية لقصر الوقت، ولكن وقعها جاء شديداً حين أردفها بالصولة التي ظلّ صريرها في الأُذن على امتداد جولة الحقّ.

وبهذا الأُسلوب أراد اللّه، ومن بعده الإمام عليه السلام[٣] أن يُصوّرا ذهنياً بهذه الإثارة النغمية استجلاء تباين المعنى، وما يحويه كلا الحدثين من دلالة وما يستوحيه من تعبير.

وقال اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ۝ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[٤].

كلمة «الأبصار» الأُولى: جمع بصر، و«الأبصار» الثانية: يراد بها ما هو جمع بصيرة، وهي استعارة تصريحية للعقول بجامع الإدراك والتمييز، وكلمة الأبصار الأُولى أتت بعد مشاهد عدّة لتجمع السحب، وما ينتج عنها من صواعق، وأمطار، تستحق الرؤية والتأمل في عجائبها، والتعجّب من قدرة الخلّاق العظيم، وتقلّب اللّيل يناسبه الإبصار بالفكر.

فبدأ ـ أولاً ـ بالإبصار لعامّة المبصرين، ثمّ ثنّى بالإبصار لخاصة المفكّرين، ومن هنا وردت الكلمتان المتّفقتان في الإيقاع الصوتي التامّ، المختلفتان في المعنى،

---

١. البديع تأصيل وتجديد، ص٨٧.

٢. خزانة الأدب، ج١، ص٤١٨ ـ ٤١٩.

٣. ولكن باختلاف معنىٰ الارادة عند الله جلّ جلاله غير الارادة عند الامام عليه السلام.

٤. النور: ٤٣ و ٤٤.

المرتبطتان في الإطار العامّ بالسياق، وذلك لغرض إتمام المعنى، وإضفاء الجمال الموسيقي النابع من ترديد نغمة الإبصار مرّتين[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢].

أي من كان في الدنيا أعمى القلب، فإنّه في الآخرة أعمى العين[٣]، فهو يتعامى عن دلائل الهدى، ولا يهتدي إلى رشده، فكان حريّاً به أن يُحشر أعمى يتخبّط في ضلاله، ولا يهتدي إلى ما ينجيه، ولا يظفر بما يجديه. والتعامي بداية الضلال، والعمى هو النهاية الحتمية؛ لأنّ العمى الأوّل موجب للثاني، وهو ما توحيه «الفاء»، فالمعنى اللاحق وليد المعنى السابق وينطوي على معنى الاستنتاج، فجاء الجناس التام، ليحيط بالمعنى من كلّ جوانبه بوثاق نفسي وبلاغي واحد.

ومن أمثلة الجناس التامّ قول الرسول ﷺ حين نازعت الصحابة جريراً بن عبدالله في أخذ زمام ناقة الرسول ﷺ أيّهم يقبضه: «خَلُّو بين جَرِيرٍ والَجرِيرَ»[٤].

الإيقاع قد يبعث حالة لا حدود لها لمعنى الكلمة، ويغمرها بالذهول الذي يحيلها بعد ذلك إلى جسد حيّ، فالامتداد الذي تدلّ عليه اللّفظة الثانية وما توحي به يوافق روح المعنى المراد أداؤه، فالصفة المشبهة في صيغة المبالغة (فعيل) أدلّ على ما تعانيه تلك الناقة ممّن تهالك على أن يقبض زمامها، والجيم المتّصلة بالراء، وتكرّر الراء، كلّ ذلك يوحي الكثرة، والتعدّدية في عمليّة الجرّ، والإلحاح فيه.

ومنه قول الإمام عليّ ﷺ يصف الدنيا: «البصيرُ منها شاخِصٌ، والأعمى إليها شاخِصٌ»[٥].

---

١. انظر: البديع تأصيل وتجديد، ص٨٦ و ٨٧.

٢. الإسراء: ٧٢.

٣. مجمع البيان، ج٢، ص٤٣٠.

٤. الحديث الشريف في المثل السائر، ج١، ص٢٤٦؛ النهاية، ج١، ص٢٥٩؛ الطراز، ج٢، ص٣٥٧؛ التبيان للطيّبي، ص٤٨٠.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣ ـ ٥.

«الشاخص» الأوّل: الراحل، والثاني: من شخص بصره، إذا فتح عينه نحو الشيء مقابلاً له. فكلّ من اللّفظين أضاف معنى جديداً، والإيقاع واحد. وهو الجمال في هذا الجناس، وكذلك زاد الكلام زينة، لفظاً ومعنىً حين جمع بين الجناس والطباق والموازنة بين الفقرتين، فكانت صيانة العبارة ظلّاً واكب المعنى وغمره، وأبانه بوضوح، ممّا يكشف عن عبقريّة الإمام، ودقّة تعبيره.

وقول أبي تمّام:

فأَصْبَحَتْ غُرَرُ الإسلامِ مُشْرقَةً   بالنّصرِ تَضْحَكُ عن أيّامِكَ الغُرَرِ[1]

الغرر الأُولى: مستعارة من غُرّة الوجة، والغرر الثانية: مأخوذة من غُرّة الشيء؛ خياره، فاللّفظ ـ إذاً ـ واحد، والمعنى مختلف.

وقول مسلم بن الوليد:

تَبَسّمَ عن مِثْل الأُقَاحي تَبَسّمت   لهُ مُزْنَةٌ صيفيةٌ فَتَبسَّما

«تبسّم» الأولى، حقيقة في تبسّم صاحبته، و«تبسّم» الأخرى، للمزنة، وهي السحابة الممتلئة ماءً، وتبسّمها هطول مائها على سبيل الاستعارة المكنيّة، ويكون الجناس تامّاً بين «تبسم» الثانية المجازية، و«تبسم» الأولى الحقيقيّة[2].

فكما يقع الجناس بين المعاني المجازية لغرض يقصد إليه، وهدف يسعى إلى تصويره، كذلك يقع في المعاني الحقيقية، ويكون له جماله.

وكقول الشاعر:

إذا العينُ راحَتْ وهي عَيْنٌ على الهوى

فليسَ بسِرٍّ ما تَسِرُّ الأضالِعُ

فالجناس التام كائن بين «العين» الأُولى بمعنى: الباصرة، و«العين» الثانية بمعنى: الجاسوس.

---

١. شرح ابن أبي‌الحديد، ج٨، ص٢٧٧؛ المثل السائر، ج١، ص٢٤٧؛ الطراز، ج٢، ص٣٥٧.

٢. البديع تأصيل وتجديد، ص٨١.

وكقول أبي تمام:

السَّيفُ أصْدَقُ أَنباءً من الكُتُبِ ... في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللّعبِ[1]

«الحدّ» الأُول، حدّ السيف، و«الحدّ» الثاني، الفصل والقطع، والكلمتان حقيقتان في استعمالهما، والجناس هنا تام حقيقي الطرفين.

وكقول صفي الدين الحلّي:

أسْبَلْنَ مِنْ فَوقِ النّهودِ ذَوائبا ... فجعَلْنَ حَبّاتِ القُلوبِ ذَوائِبا[2]

قال عبد القاهر الجرجاني: «ووجهُ حسن هذا القسم ـ أعني التامّ ـ حُسْنُ الإفادة، مع أنّ الصُّورة صورةُ التّكرير والإعادة»[3] أي: أنّ نغم اللّفظة تتباين وأنت تردّدها، فيفضي ذلك التباين إلى انصراف الذهن لمعنى غير المعنى الأوّل، وهذا هو ما يوفّره الترجيع النغمي من قوّة الإثارة في اختلاب الأذهان، وخداع الأفكار من خلال عذوبة لفظه، وتلائمه مع المعاني، ومعانقته لها.

ملحق الجناس التامّ

قسّم البلاغيون الجناس التامّ إلى مماثل، ومستوفى، ومركّب:

١. **المماثل**، سُمّيَ الجناس الحاصل بين اللّفظين اللّذين هما من نوع واحد مماثلاً؛ أخذاً من المماثلة، التي هي الاتّحاد في النوع جرياً على اصطلاح المتكلّمين في المماثلة، وهو: إمّا أن يكون اللّفظان اسمين، أو يكونا فعلين، أو يكونا حرفين:

أ) والجناس الذي في الاسمين، إمّا في الجمعين، كقول الشاعر:

حَدَقُ الآجالِ آجالُ ... والهَوى للمَرْءِ قَتّالُ[4]

---

١. ديوان أبي تمام، ج١، ص٤٠؛ العمدة، ج١، ص٥٦٥؛ الايضاح، ص٣٢٤؛ المثل السائر، ج١، ص٢٤٧؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٩١.

٢. أسبلن: أرخين. النهود: مفرده نهد وهو الثدي. الذوائب: خصل الشعر. انظر: خزانة الأدب، ج١، ص٧٥.

٣. انظر: أسرار البلاغة، ص١٧، وذكره القزويني في الإيضاح، ص٢٩٠.

٤. والبيت لأبي سعيد المخزومي وهو من شواهد الإيضاح، ص٢٨٩؛ عروس الافراح، ج٤، ص٤١٦؛ البيان والتبيين، ج٣، ص٢٥.

لأنّ الآجال الأوّل: جمع إجل ـ بكسر الهمزة ـ وهو القطيع من بقر الوحش، والثاني: جمع أجَل ـ بفتحها ـ وهو أمد العمر.

أو في مفرد وجمع، كقول الشاعر:

وذا ذِمامٍ وَفَتْ بالعَهْدِ ذِمَّتهُ ولا ذِمامَ لَهُ في مذهبِ العَربِ

لأنّ الذمام في الشطر الأوّل مفرد بمعنى العهد، وفي الثاني جمع ذمّة، وهي البئر القليلة الماء.

أو في مفردين كقول عبد الله بن طاهر:

وإنّي للثّغرِ المخُوفِ لكَالئ وللثغرِ يجري ظَلمُهُ لَرشُوفُ[1]

جانس بين الثغر الأوّل وهو الموضع الذي يُتّقى فيه من العدوّ، والثاني وهو الأسنان.

وكقول ابن النبيه:

مَنْ كانَ قَوسُ نِبالِهِ من حاجِبٍ ما لِلْقُلوبِ إذا رَنا من حاجِبِ

هُنَّ المَمَالِكُ والخدودُ مطالبُ يُحْرَسْنَ من سُودِ الجفونِ بضارِبِ

جانس في صدر البيت الأوّل وعجزه بين لفظتي «حاجب» بمعنى: حاجب العين مكنيّاً به عن العين وجمالها، و «حاجب» بمعنى: الحاجب الذي يمنع الدخول، وقصد به سحر عين الحبيب، يخترق شغاف القلب دونما أيّ خطر أو منع.[2]

ب) والجناس بين الفعلين، نحو أن يقال: «من قالَ لديهم قال لهم».

فـ «قال» الأوّل من القيلولة، والثاني من القول.

وكقول صلاح الدين الصفدي:

سَلا هَواها المحُبُّ لَمَّا ضَنَّتْ بِطَيْفِ الكَرَى وظَنَّتْ

وحينَ زَارَتْهُ صَدَّعَتها لَمَّا تَعَنَّتْ لَهُ تَعَنَّتْ[3]

---

١. العمدة، ج١، ص٥٥٠؛ نهاية الأرب، ج٩، ص٩٠؛ نظم الدر، ج٤، ص١٩٦.

٢. بلوغ الأرب في علم الأدب، ص ٧١.

٣. بلوغ الأرب، ص٧٢.

جانس في عجز البيت الأوّل بين لفظتي: «ضَنَّتْ» بمعنى: بخلت، و«ظَنَّت» من الظَّن الذي هو ضدُّ اليقين، وعاد فجانس ـ أيضاً ـ في عجز البيت الثاني بين لفظتي: «تعنّت» الأُولى من الفعل «عَنّ» أي اعترض، والمقصود أنّـها بـدَت أو أبـدت، أي أظهرت، والثانية، من العَنَتِ، وتعنّتهُ وأعنته: بمعنى أوقعه فيما يَشُقُّ عليه تحمّله.[1]

وقول بعض الأُدباء إلى الرشيد: «أحسِن لنا في النظر كما أحسنّا في الانـتظار» فقد جانس بين «أحسن» من الإحسان، و«أحسنّا» بمعنى أجدنا.

ومثّل له السُبكي بقوله: «تربّت يمين المسلم وتربت يمين الكافر، أي اسـتغنت الأولى وافتقرت الثانية»[2].

ج): والجناس في الحرفين كقول ابن جابر:

حَكى غـزالَ القـفرِ لمّـا رَنـا ... هَــذْأً ولمّـا يـعرفِ القَـفْرا

وقـالَ لي مَـعْطِفُـهُ إنَّــهُ ... غُصْنٌ ولكـن أثـمَرَ البـدرا[3]

والشاهد في «لمَّا» و «لمَّا» فإنَّ الأُولى حرفُ وجوبٍ لوجوب على الصـحيح والثانية حرف نفي جازم.

وكقول القائل: قد يجود الكريم، وقد يعثر الجواد.

فإنّ «قد» الأولى للتكثير، والثانية للتقليل.

وكقولك: ما منهم من قائم.

٢. المستوفي، هو الجناس التامّ الذي اختلف فيه نوعا المتجانسين فهو:

أ) إمّا اسم وفعل، كقول الشاعر المغربي:

لو زارَنـا طَـيْفُ ذاتِ الخـالِ أَحيانا ... وَنـحنُ فـي حُـفَرِ الأَجـداثِ أحـيانا

تَـقُولُ: أنتَ امـرؤٌ جـافٍ مُـغالِطةً ... فـقلت: لا هـوّمَت أجـفانُ أجـفانا

---

١. المصدر، ص ٧٢.

٢. شروح التلخيص، ج٤، ص٤١٦.

٣. نظم الدر، ج٤، ص١٩٧.

لَـمْ يَـبْقَ غَـيْرَكِ إنسانٌ يُلاذُ بِـهِ فـلا بَـرِحْتِ لِـعَيْنِ الدَّهْـرِ إنسـانا[١]

في البيت الأوّل شاهد على الجناس المستوفي؛ لأنّ «أحيانا» الأولى اسم بمعنى بعض الأوقات، و«أحيانا» الثانية فعل ماضٍ بمعنى: بعث الحياة.

وفي البيتين الثاني والثالث شاهدان على الجناس المُماثل بين «أجفان وأجفانا» وبين «إنسان وإنسانا» فكلا اللّفظين اسم، أمّا معناهما، فمختلف[٢].

ب) واما فعل واسم، كقول ابن فضالة المجاشعي القيرواني:

إنْ تَـرْمِكَ الغُـرْبَةُ فـي مَـعْشَرٍ تَـضَافَرُوا فـيكَ عـلى بُـغْضِهم

فدارِهِـم مـا دُمْتَ فـي دارِهِـم وأرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرضِـهِم[٣]

فجانس بين «دارهم» الفعل و«دارهم» الاسم، وكـذلك بـين «أرضـهم» الفـعل و«أرضهم» الاسم ـ والاسمان مضافان إلى ضمير الجمع الغائب.

ج) وإمّا اسم وحرف كقول ابن جابر:

صــلاةُ إلهِ العــالمين عــلى الذي أقــلُّ العــطايا مــنه وادٍ مـن النَّـعمْ

يَجُوُد عـلى الراجـي وإن كـان مُـذْنباً ومــا قــوله للسـائِلينَ سـوى نَـعَمْ[٤]

فإنّ «النَّعم» الأُولى اسم لذي الحافر والظّلف و«نعم» الثانية حرف تصديق.

هـ) وإمّا فعل وحرف، كقول ابن جابر أيضاً:

أنَّ مِــن شَـوقهِ فـثار الغـرامُ وَدرى النَّــاسُ أنَّــهُ مُسـتَهام

لاتسلْ مـاجَرى مـن الدمـعِ لمّـا قـيلَ هـذا النـقا وتِـلْكَ الخـيام[٥]

والشاهد في البيت الأوّل في التجنيس بين«أنّ» و «أنَّهُ» فإنّ الأُولى فعلُ ماضٍ من الأنين، والثانية حرف توكيد مصدري.

---

١. انظر: الطراز، ج ٢، ص٣٥٨؛ المثل السائر، ج ١، ص٢٤٦.

٢. الأجفان (الأُولى): وهي جفون العين، وأجفان (الثانية) من الجفاء. وإنسـان «الأُولى»: واحـد البشـر والنـاس. وإنسان «الثانية» بؤبؤ العين.

٣. انظر: انوار الربيع، ج ١، ص١٥٥؛ البديع في نقد الشعر، ص٥٩.

٤. نظم الدر، ج ٤، ص١٩٩؛ نفح الطيب، ج ١٠، ص٢١٣.

٥. المصدر، ج ٤، ص١٩٩؛ نفح الطيب، ج ١٠، ص٢١٣.

ونحو: «علا زيدٌ على جميعِ أهلِهِ».

أي ارتفع عليهم، فعلا الأُولى فعل، والثانية حرف.

و) وإمّا جملة وجملة، كقول الشاعر:

وسائلٌ: هل أتـى نـصّ بـحقِّ عـليّ؟ أجبته: «هـل أتـى» نـصٌّ بـحقِّ عـليّ

٣. جناس التركيب أو المركّب، وهو ما كان أحد ركنيه كلمة واحـدة، والآخـر مركّب من كلمتين.

وهو على ثلاثة أقسام:

الأوّل: متشابه، وفيه يتشابه الركنان، أي الكلمة المفردة، والكلمة المركّبة لفـظاً وخطّاً، نحو قول الشاعر:

يـــا سَـيّداً حـــازَ رِقّــي بـــــما حـــباني وأَوْلىٰ

احْسَـــنْتَ بِــرّاً فَــقُلْ لي احْسَنْتَ في الشُّكْرِ أو لا[1]

فالجناس بين «أولى» وهي كلمة مفردة بمعنى أعطى، و«أو لا» وهي كلمة مركبة من «أو» العاطفة و«لا» النافية.

وقول أبي‌القاسم السِجزِي:

بــأبي غُــلامٌ لَسْتُ غَـيْرَ غُـلامِهِ مُــذْ جـادَ لي بسلامِهِ وكـلامِهِ

ذو حــاجِبٍ مــا إنْ رأيتُ كنُونِهِ أَبــداً وصُـدْغٍ مـا رأيتُ كـلامِهِ[2]

جانس الشاعر بين «كلامه» من الكلام والنطق، و«كلامه» المركّب مـن كـاف التشبيه واللام التي هي من حروف الهجاء، أي مثل لامه، على تشبيه الصُّدْغ برسم حرف اللام، وقول الشاعر:

يــا مَــنْ تُـدِلُّ بِـوَجْنَةٍ وأَنــامِلٍ مــن عَــنْدَمِ

كُـفِّي جُـعِلْتُ لَكِ الفِـدا ألحاظَ عينكِ عَنْ دَمِـي[3]

---

١. خزانة الأدب، ج١، ص٣٨٦.

٢. بلوغ الأرب، ص٨٢ و ٨٣.

٣. تحرير التحبير، ص١٠٩؛ خزانة الأدب، ج١، ص٣٨٨.

جانس الشاعر في عجز البيت الأوّل بين «عندم» وهو نبات يصبغ به يقال له: دم الأخوين، ولفظتي «عن» و«دمي» في عجز البيت الثاني.

وإذا كان مركّباً من كلمتين تامّتين متّفقتين في الصورة سمّاه السيوطي بالملفوف كقول البُستي:

إذا مَلِكٌ لَـمْ يَكُـنْ ذا هِبَـة فَـدَعْـهُ فَـدَوْلَتُـهُ ذاهِـبَة[1]

حيث جانس الشاعر بين «ذاهبة» المركّب من ذا بمعنى صاحب، وهبة مصدر وَهَبَ، و«ذاهبة» اسم فاعل من ذهب غير باقية وكتابتهما متّفقة في الصورة.

وكقول الشاعر:

عَـضَّنا الدَّهْـرُ بـنابه لَـيْتَ مـا حَـلَّ بنا بـهِ[2]

جانس جناساً ملفوفاً بين «بنابه» و«بنابه» وهما متفقان خطّاً ولفظاً.

وقول الشاعر:

في مـصر مـن القـضاةِ قـاضٍ وَلَـهُ فــي أكْــل مـواريثِ اليـتامى وَلَـهْ

إنْ رَمْتَ عَـــدالةً فَـقَلْ مـجتهداً مَـــن عَــدَّ لَــهُ دَرَاهِـمَ عَـدَلَهْ[3]

جانس الشاعر بين: «وله، المركب من واو العطف، والجار والمجرور، و«وَلَهْ» من وله يله جناساً ملفوفاً من حيث اتّفاقهما في الصورة والخطّ واختلافهما في المعنى.

وقول الصفدي:

يــا مَــنْ إذا مــا أتــاهُ أهْــلُ المــوَدَّةِ أوْلَــمْ

أنــا مُــحِبُّكَ حَــقّاً إنْ كُنْتُ في القَوْمِ أوْ لَمْ[4]

---

١. من شواهد السكاكي للجناس التام، وتبعه القزويني في ذلك، وعدّه الحلبي من المركب، ومثله فعل المدني قائلاً: «الجناس المقرون ويُسمّى المتشابه، وهو ما اتفق ركناه لفظاً وخطاً» ومثّل له بهذا البيت والبيت في الطراز، ج٢، ص ٣٦٠و٣٦١؛ والإيضاح، ص ٢٩٠؛ ديوان البستي، ص٢٢٨؛ يتيمة الدهر، ج٤، ص٢٠٢؛ الاشارات، ص ٢٣٠؛ نهاية الأرب، ص ٩٢.

٢. خزانة الأدب، ج١، ص ٣٨٥؛ نفحات الازهار، ص١٤؛ نهاية الأرب، ص ٩٢.

٣. خزانة الأدب، ج١، ص٣٨٦؛ نفحات الازهار، ص١٥.

٤. خزانة الأدب، ج١، ص٣٨٧؛ نفحات الازهار، ص١٥.

جانس الصفدي بين اللفظة الأُولى «أوْلَم» من الوليمة واللفظة الثانية: أو لَمْ، المركب من حرفين بمعنى أو لم تكن.

الثاني: المفروق: وفيه يتشابه ركناه، أي الكلمة المفردة والكلمة المركّبة في اللّفظ لا في الخط نحو قول المطوّعي:

لا تَعْرِضَنَّ على الرُّواةِ قَصيدَةً ... ما لم تبالِغْ قَبْلُ في تَهْذِيبِها
فمتى عَرَضْتَ الشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ ... عَدُّوهُ منكَ وسَاوِسَ تَهْذِي بِها[1]

«تهذيبها» و«تهذي بها» افترق اللّفظان فيه في صورة الكتابة.

وقول الشاعر:

فَقُلْ لنفسِكَ أيُّ الضَرْبِ يُوجِعُها ... ضَرْبُ النواقيسِ أم ضَرْبُ النّوى قيسي[2]

فالجناس بين «النواقيس» وهي كلمة مفردة و «النوى قيسي» وهي كلمة مركّبة من الاسم الذي هو «النوى» والفعل الذي هو «قيسي» والركنان متشابهان في اللّفظ لا في الخط.

وقول الشاعر:

كُلُّكُم قَدْ أخَذَ الجَا ... مَ ولا جامَ لَنا
ما الذي ضَرَّ مُدِيرَ الجا ... مِ لو جامَلَنا[3]

جانس بين «جام لنا» المركب من لفظين، و«جاملنا» وهي لفظة واحدة، جناس تركيب لفظاً لا خطاً.

وقول الآخر:

يقول لي العَذولِ وقَدْ رآني ... نَحيلُ الجسمِ مكتئباً عليلا
أَتَسْلُو يا مُعَنّى قلت أسلو ... عن الدنيا ولكن عن عليّ لا

---

١. الوساوس: جمع وسوسة، وهي التخليط في الكلام. تهذى بها: تخرف بها. والبيت من شواهد الإيضاح، ص ٢٩٠؛ الاشارات، ص ٢٣٠.

٢. النواقيس: جمع ناقوس وهو الجرس. النوى: الفراق، قيسي: فعل أمر من قاس بمعنى: قارَن.

٣. البيت لأبي الفتح البستي، انظر: الإيضاح، ص ٢٩٠؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص ٢٢١؛ تحرير التحبير، ص ١١٠؛ الاشارات، ص ٢٣٠؛ الاكسير في علم التفسير، ص ٣٢٤ والجام: الكأس. مدير الجام: الساقي.

جانس بين «عليلا» أي المصاب بعلّة، و«عن علي لا» اللفظة المركبة جناساً مفروقاً.

وكقول أبي الفتح البستي:

وإنْ أَقـرَّ عـلى رقٍّ أَنـامِلَهُ ... أقرَّ بالرِّقِّ كتّاب الأنـامِ له[١]

فجانس بين «أنامِلَهُ» و«الأنام له» جناساً ملفوفاً ومفروقاً من حيث اختلافهما في الخط.

الثالث: المرفّو[٢]: وفيه يكون أحد الركنين كلمة، والآخر مركبّاً من كلمة ومن جزء كلمة.

نحو قول الحريري:

والمَكْرُ، مَـهْما اسطعتَ لا تَـأْتِهِ ... لِـتَقْتَني السُّـؤدَدَ والمكـرُمَه[٣]

فالجناس بين «المكْرُمَة» الاولى المركّبة من كلمة ومن جزء كلمة، و«المكرمة» الثانية وهي كلمة واحدة.

وكقول الحريري:

ولا تَـلْهُ عَـنْ تـذكارِ ذَنْـبكَ وابكِـهِ ... بِدَمْعٍ يُضاهي المُـزْنَ حـالَ مَصَابِهِ

ومـثّلْ لِـعَيْنَيْكَ الحِـمامَ وَوَقْـعَهُ ... وَرَوْعَـةَ مَـلْقاهُ وَمَـطعَمَ صَـابِهِ[٤]

فالجناس بين «مَ صابِهِ» المركبة من كلمة ومن جزء من كلمة، و«مصابه» وهي كلمة واحدة

---

١. خزانة الأدب، ج ١، ص٣٨٨؛ و البيت في ديوان البستي، ص١٥٨؛ العمدة، ج ١، ص٥١٣.

٢. المرفّو: مأخوذاً من رفّ الثوب وهو جَمْع ما انقطع منه بالخياطة.

٣. خزانة الأدب، ج ١، ص ٣٩٠؛ و البيت في مقامات الحريري، ص٤٠٧.

٤. لا تله: أي لا تغفل. ابكه: أي ابك على نفسك باقترافك الذنوب. المزن: هو السحاب الممطر. المصاب: مصدر كالصوب، وهو نزول المطر. مثّل: صوّر وشخّص. الحمام: الموت، وقعه: هجومه. روعة ملقاه: فزع لقائه. الصّاب: شجر مرّ، أو هو الحنظل، أي مرارة طعم الموت. و البيتان هما للحريري في الاشارات، ص ٢٣٠؛ الإيضاح، ص٢٨٩؛ خزانة الأدب، ج ١، ص ٣٩٠.

وكقول أبي العلاء المعري:

خَفْ يا كريماً على عِرْضٍ تُعَرّضهُ ... لعائِبٍ فَلَئِيم لا يُقاسُ بِكا

إنَّ الزّجاجَةَ لمّا حُطِّمَتْ سُبِكَت ... وَكَمْ تَكَسَّرَ مِنْ دُرٍّ فما سُبِكا

جانس الشاعر بين لفظة سبكا المؤلّفة من «سين» يقاس مع «بكا» من ناحية، ولفظة «سُبكا» بمعنى: صُهر على النار وأُعيد تركيبه من ناحية ثانية.

ومن «المرفوّ» ما رفئ بحرف من حروف المعاني، وهذا الحرف تارة يكون مقدماً، كقول الشاعر:

ذُو راحةٍ وَكَفَتْ نَدَى وكَفَتْ رَدَى ... تَقضي بِهَلْكِ عُدَاتِهِ وَعِدَاتِهِ[١]

كالغيثِ في اروائِهِ ورِوائِهِ ... واللّيثِ في وثباتِهِ وثباتِهِ[٢]

وتارة يكون حرف المعنى مؤخراً، أنشد جماعة من البلغاء في هذا الموطن قول الشاعر:

جَعَلْتُ هدِيتي لَكُمُ سِواكا ... ولم أَقصُدْ به أحداً سِواكا

بَعَثْتُ إليكَ عُوداً مِنْ أَراكا ... رجاءَ أن أَعُودَ وأَنْ أراكا

ومن الجناس المركّب أن يقع ركنا الجناس مركبين، وكلّ ركن مركب من جزئين مستقلّين، لكن يكون أحد الجزءين في هذا الركن أزيد منه في الآخر، وهذا النوع عزيز الوقوع ويسمّى «الجناس الملفّق» كقول المطوعي:

أَخُو كَرَمٍ يُقْضى الوَرَى مِنْ بِسَاطِهِ ... إلى روض مجدٍ بالسّماحِ مَجُودِ

وَكَمْ لجباهِ الراغبِينَ إليه مِنْ ... مَجالِ سُجُودٍ في مَجالِسِ جُودِ[٣]

وقد جانس بين «مجالِ سُجُودِ» أي: موطن الخشوع، ولصق الجباه بالأرض،

---

١. «وكفت» الأُولى: أي سالت. الندى: الخير. «وكفت» الثانية: الواو حرف عطف و«كَفَتْ» أي منعت، الرَّدي: الهلاك. «عُداته» بالضم أي أعدائه العداة أي الأعداء. «عنداته» بالكسر: جمع «عندّة» بمعنى الوعد.

٢. اروائه: الارواء من الري. (روائه): الرِّواء: (بالكسر) الحبل الذي يروى به. والجمع أروية. والرّوا. (بالفتح) الماء العذب الكثير. (وثباته): جمع (وثبة) وهي القفزة. (وثباته): الواو حرف عطف، و(ثبات) أي دوام واستقرار.

٣. أنوار الربيع، ج ١، ص١٢٧.

و«مجالسِ جُودهِ» أي: أماكن الجود والكرم والعطاء.

ومنه قول القاضي عبد الباقي بن أبي حصين وقد وليَّ القضاء بالمعرّة وأقام في قضائه مدّة خمس سنين:

وُليتُ الحكمَ خمساً وَهْيَ خُمسٌ لَعُمري والصِّبا في العُنْفُوَانِ

فلم تُضَعِ الأعادي قَدْرَ شأني ولا قالوا فلانٌ قَدْ رَشانى[1]

نلاحظ في الشطر الأوّل قوله «قَدْرَ شأني» معناه مقداري وقيمتي وهي مكوّنة من كلمتين: «قَدْر وشاني»، كما نلاحظ في الشطر الثاني قوله: «قد رشاني» ومعناه قد دفع لي الرشوة. وهي مكّونة من حرف التحقيق (قد) والفعل الماضي (رشا) والمفعول به.

وقول صفي الدين الحلّي:

فقد ضَمِنْتُ وُجودَ الدمْع من عَدَمِ لهُم ولم أَسْتَطِعْ مع ذ اك مَنْعَ دَمي[2]

فقد جانس الحلّي بين اللفظتين المركّبتين «مِنْ عَدَم» أي فقدي لهم، و«مَنْعَ دمي» أي كَفُّهُ وحَبْسُهُ، وإخالُهُ يقصد الدمعَ المهراق دماً لهيامه وشدّة شوقه مجازاً لاحقيقةً.

وقول الصلاح الصفدي:

وساقٍ غدا يَسْعى بكَأْسٍ وطَرْفُهُ يُجَرّدُ أسيافاً لغيرِ كِفاحِ

إذا جرحَ العُشّاقُ قالوا أقمت في مَدارجِ راحٍ أم مَدارِ جِراحِ

وما أعذب قول ابن عنين هنا:

خَبّروها بأنّهُ ما تَصَدّى لسلوٍّ عنها ولو ماتَ صَدّا

وَسلُوها في زَوْرَةٍ من خيالٍ إن تكن لم تَجِدْ مِنَ الهَجْرِ بُدّاً[3]

فقد جانس في البيت الأوّل بين اللفظة المركّبة «ما تَصدّى» ما النافية، وفعل تَصدّى من «صَدِيَ» يتصدّى، وتَصَدَّى: أي تَعرَّض له.

---

١. وقد سُومحَ في الجناس الملفّق اختلاف الحركات لندرته. فالسين في الأول مضمومة وفي الثاني مكسورة.

٢. ديوانه، ص ٦٨٥؛ شرح الكافية البديعية، ص٦٢؛ نفحات الازهار، ص١٩؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٠٧.

٣. معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٤١؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٠٧؛ ديوان صفي الدين الحلي، ص٤٩.

وبين «مات صَدّاً» من الفعل صَدَّ يَصُدُّ ويَصِدُ عنه صداً وصُدوداً: فارقه وخـلأهُ وأعرض عنه، ومال وازْوَرَّ.

الثاني: الجناس غير التامّ، وهو ما اختلف لفظاه في أحد الأُمور المتقدمة: (نوع الحروف، أو شكلها، أو عددها، أو ترتيبها، أو هيئتها).

وهو على أقسام:

١. قسم تقع الزياده في أوّل الكلمة، والزيادة قد تكون بحرف واحد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[1].

فزيدت الميم على لفظة الساق مساوقة للكلمة الثانية، والباقي مجانس لمجموع المقابل، وقد ابتدئت الآية بالجملة الفعلية الدالّة على سرعة حدوث تلك اللّحظة في قالب الاستعارة التمثيليّة التي تجسّد ذلك الحدث، وتجعله ماثلاً أمامك بإيقاع متّحد يوحي بأنّهما ينبعان بنفس القوّة ليزيدا في تشخيص ذلك اليوم وإحيائه.

ومن أقوال الأمام عليّ عليه السلام: «وأيمُ اللّه لتَحْتَلِبُنَّها دَماً، ولتُتْبِعُنّها نَدَماً»[2].

وقوله عليه السلام: «كيفَ أصْبَحَتْ بُيُوتُهُم قُبُوراً، وما جَمَعُوا بُوراً»[3].

وقوله عليه السلام: «أرْضَكُم قَرِيبةٌ مِنَ الماءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّماءِ»[4].

وقول المطوعي:

وَكَـمْ سَـبَقَتْ مـنْهُ إليَّ عَـوارِف ... ثَـنائيَ عـلى تِـلْكَ العـوارِفِ وارِفُ

وكَـمْ غُــرَرٍ مــن بِـرّهِ ولَـطائِفَ ... لَشُكري على تِلكَ اللطائِفِ طائِفُ[5]

جانس الشاعر في البيت الأوّل بين «العوارف» جمع عرف وهو الخير والرفق

---

١. القيامة: ٢٩و ٣٠.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٤/٥٦.

٣. المصدر، الخطبة ٦/١٣٢.

٤. يريد بها أهل البصرة. نهج البلاغة، الخطبة ١٤.

٥. انظر: أسرار البلاغة، ص ١٩؛ أنوار الربيع، ج ١، ص١٧٦. الغرر: ثلاث ليال من أوّل الشهر، مفردها غـرّة وهـي مستعارة من بياض في الجبهة. والبِرّ: الخير والفضل.

والاحسان، ولفظة «وارف» اسم فاعل من ورف الظلّ يرف بمعنى: اتّسع.

وكذلك جانس في البيت الثاني بين لفظة «اللطائف» جمع اللطيفة، ولفظة: «طائف» اسم فاعل من فعل طاف بمعنى: دار حول الشيء.

ومنهم من يسمّي هذا النوع «المكرّر» ومنهم من يسمّيه «المردود».

وقد تكون الزيادة بأكثر من حرف واحد، كقوله تعالى فيمن يبني بنيانه على غير التقوى.

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1].

ترسم الكلمة الأولى ـ من هذا الجناس ـ وهي «هار» صورتها، وتشخص مدى عمق هاويتها من عمق مخرج الهاء حين النطق بها، ونشاهد أنّ تلك الصورة التي عبّرت عن معنى من المعاني قد احتوت الكلمة الثانية عليها، كأنّها وعاء لها، أو قالبٌ يستوعب ذلك الانهيار.

كما جسّم ذلك النغم والإيقاع حركة تلك الصورة، وكأنّها متوقّعة في أيّة لحظة، لتحدث حالة نفسية، وهي حالة ما يحسّه الإنسان عندما يهبط سريعاً من ارتفاع شاهق؛ ليعرض لك جانب السرعة، وأبدل الفاء من «ثمّ» لاختصار المراحل وللتأثير على الحسّ، ولإيقاظ الخيال، ولتحسّ من خلال ذلك بجمال الكلام.

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ، وَاحْتَبَلَكُمُ المِقْدارُ»[2].

٢. وقسم يقع التغيير في أوّل الكلمة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[5].

---

١. التوبة: ١٠٩.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٣٦، ويريد بهم أهل النهروان.

٣. العاديات: ١ ـ ٣.

٤. العلق: ١ و ٢.

٥. الفلق: ١ و ٢.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١].

وقول الرسولﷺ: «المؤمنونَ هَيّنُونَ لَيّنونَ»[٢].

وقولهﷺ: «الحَمْدُ للّهِ الذي حَسَّنَ خَلْقِي وَزانَ مِنّي ماشانَ»[٣].

وقولهﷺ: «عَلَيْكُم بالأَبكارِ، فإنّهُنَّ أَشَدّ حُبّاً، وأَقلّ خِبّاً»[٤].

ونهج البلاغة مليء بهذا الجناس، ومنه قولهعليه السلام:

«إنّا قَدْ أَصْبَحْنا في دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فيهِ المُحْسِنُ مُسيئاً»[٥].

وقولهعليه السلام: «مَنْ أَطالَ الأَمَلَ أساءَ العَمَلَ»[٦].

وقولهعليه السلام: «هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ غالٍ، وَمُبْغِضٌ قالٍ»[٧].

وقولهعليه السلام: «أَشْرَفُ الغِنَى تَرْكُ المُنَى»[٨].

وقولهعليه السلام: «قَدْ وَعَظُوا حتّى مَلّوا، وَقُهِروا حتّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حتّى قَلُّوا»[٩].

٣. قسم تقع الزيادة أو التغيير في وسط الكلمة، كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١٠و١١].

---

١. البقرة: ١٨٥.

٢. الإيضاح، ص٢٩٢ـ٢٩٣؛ الحديث الشريف في النهاية، ج٥، ص٢٨٩، وفيه «المسلمون» مكان «المؤمنون».

٣. انظر: مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص٤٠٢، ح٦٨/٦، ١٥٥؛ جنان الجناس، ص٢٥و٤٩.

٤. جنان الجناس، ص٦٨، الخبُّ: الخداع.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ٣٢ ـ ١، العنود: الجائر، الكنود: الكفور.

٦. نهج البلاغه، قصار الحكم ٣٦.

٧. المصدر، ١١٧.

٨. المصدر، ٢١١.

٩. المصدر، الخطبة ٣٢ ـ ١٠ يريد بها الراغبين في اللّه، انظر: الخطبة ٢٢ ـ٦ و ١٧٤ ـ ١ و ١٣ ـ ١ و ٦٦ـ٦، و ٣٧ـ٢، وقصار الحكم ٢٤٣.

ملّوا: أي إنّهم أكثروا من وعظ الناس حتى سئموا ذلك إذ لم يكن لهم في النفوس تأثير.

١٠. العاديات: ٦ـ٨.

١١. وخصّ البعض هذه الآية من شواهد الجناس اللاحق، كون «شهيد وشديد» مخارج حروفها «الهاء والدال» المختلفة متباعدين.

أي: لشهيد على كنوده وكفره لنعمة ربّه؛ لأنّه يفخر بـالقسوة عـلى مـن دونـه، وبكثرة ما في يده من المال مع الحذق في توفيره، وبقوّة الحيلة على من فوقه، وقلّما يفتخر بالمرحمة، وكثرة البذل، والحذق في اختيار المواضع، وفي ذلك كلّه شهادة على نفسه بالكنود؛ لأنّ ما يفتخر به ليس من حقّ شكر النعمة، بل من آيات كفرها، ولقد اتّخذ الجناس غير التامّ من المبالغة كياناً له في مدى تهالكه بحبّ الدنيا، وشغفه بها، وتناهيه في الحرص عليها، والإتيان بصيغة الجملة الاسمية، وأُسلوب القصر، والتوكيد، والتقفية بالصفة المشبهة، لأبلغُ فـي الدلالة عـلى أن تـلك الصـفة ثـابتة الرسوخ نادرة التغيّر لا يؤمّل فيها الخير، ان فقد صاحبها الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[١و٢].

أي إنّ الكفّار من قريش ينهون الناس عن اتّباع الرسولﷺ، ويتباعدون عنه فراراً منه، فالنهي أمر بالابتعاد بالقول، والنأي ابتعاد بالفعل والجسد، والنهي أمر يصدر إلى الآخرين من الكفّار، والنأي فعل يصدر من الكفّار أنفسهم، والنهي قول بلا قـدرة، والنأي قدرة احتوت فعلاً، وإيقاع النهي قريب جدّاً من النأي؛ لأنّهما يحدثان فـي وقت واحد، وهم مصدر النهي والنأي، وهوﷺ مصبّ النهي والنأي، لذا جاء الإيقاع المتقارب لجملتين متتاليتين هما «ينهون عنه» و«ينأون عنه»، واتّحاد الإيقاع يوحي بأنّ الفعلين كانا يصدران بنفس القوّة والعنف والغلّ، وبنفس الدرجة من الهـمجية، ولذا جاء الجناس ناقصاً؛ لأنّهما فعلان من جنس واحد، وهو الحقد الأسود، وماكان يصلح إلّا أن يأتي ناقصاً، للوفاء بالمعنى والوفاء بالإيقاع بلا تكليف.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٣].

---

١. الأنعام: ٢٦.

٢. خصّ البعض هذه الآية من شواهد الجناس المضارع الذي تقاربت فيه مخارج الحروف المختلفة بـين كـلمتي الجناس.

٣. غافر: ٧٥.

الفرح: السرور بالمعصية، وكثرة المال، وانفاقه في المحرّمات، والمرح: البـطر، والخيلاء، والإصرار على الشرك؛ وهاتان صفتان وصف اللّه بهما مشركي قـريش، وما أعدّ لهم من سوء العذاب، فكان بين الفرح والمرح إيقاع متجانس قوامه حرف «الحاء» لإبراز غاية ضياعهم، ولهوهم، وعبثهم في الحياة الدنيا، ومـا يـحمله ذلك الحرف المنكر من تأكيد للمعنى، وانسجام للأداء اتّخذ فيه الإيقاعان، فاوحى بأنّهما صدرا من ملّة واحدة هي ملّة الكفر، وبنفس القوّة واللامبالاة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[١].

نغمة الجناس المتوّج بالسجع يثبت فكرة التوازن بين السائل واليتيم، فعدم قهر اليتيم، وعدم نهر السائل، جُمعا بأداة العطف «الواو» التي تعني الاتّصال والتـوحّد، إضافة إلى التفصيل المدلول عليه من معنى الشرط، الذي يربط الطرفين.

وتكرار «لا» النافية لأجل الدلالة على الردع الشديد، ونبرة الراء المتكرّرة تهدر في الصميم.

امثلة قرآنية أخرى:

منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[٥].

---

١. الضحى: ٩.

٢. ق: ٢٣ و ٢٤.

٣. النجم: ٤٨.

٤. المجادلة: ١٤ و ١٥.

٥. القلم: ١ ـ ٣.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ * [إلى قوله تعالى] فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾[7].

وقول النبيّ ﷺ: «لولا رجال رُكَّع، وصبيان رُضَّع، وبهائم رُتَّع...».

وقوله ﷺ: «اللّهمَّ أخْرِجْني مِنْ دارِ الفَرارِ إلى دارِ القرارِ».

وقوله ﷺ لأسماء بنت أبي‌بكر: «انْفَحِي، وَانْضَحِي، وَلاتُوعِي فَيُوعِيَ اللّهُ عَلَيْكِ»[8].

أي أنفقي مالك في سبيل اللّه، وابذليه في طاعة اللّه ولا تمسكي، فيمسك اللّه عليك.

وقوله ﷺ: «لاتَزالَ أُمّتي بخيرٍ مالَم تَرَ الفيءَ مغنماً، والصدقةَ مَغْرَما»[9].

---

١. القيامة: ٢ و ٣ و ١٨ و ١٩.

٢. المرسلات: ٢٠ و ٢١.

٣. الكهف: ١٤.

٤. مريم: ٨٥ و ٨٦.

٥. الانشقاق: ١٧ ـ ١٩.

٦. البلد: ١٤ ـ ١٦.

٧. آل عمران: ٢٦.

٨. مسند أحمد بن حنبل، ج٦، ص٣٤٥؛ المجازات النبوية، ص ٣٨٤.

٩. المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج٣، ص١٣؛ الإصابة، ج٤، ص٨٠ الرقم ٤٧١٦؛ أسرار البلاغة، ص١٢.

وقوله ﷺ: «نَعوذُ باللّهِ من الأيمَةِ، والغَيْمَةِ، والكَزْمِ، والقَرْمِ»[١].

ومن أقوال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «إنّ كلامَ الحكماءِ إذا كانَ صَواباً كانَ دَوَاءً، وإذا كانَ خَطَأً كانَ داءاً»[٢].

وقوله عليه السلام: «الحمدللّه الذي لا يَفِرُهُ المَنْعُ والجُمُودُ، ولا يُكْدِيهِ الإعطاءُ والجُوُد»[٣].

وقوله عليه السلام: «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أسيرٍ تَحْتَ هَوى أَميرٍ»[٤].

وقوله عليه السلام: «فَظلَّ سادِراً، وباتَ ساهِراً»[٥].

وقوله عليه السلام: «كلّ شيءٍ يَعزُّ حينَ ينزر، والعلمُ يَعزُّ حينَ يغزر»[٦].

وقوله عليه السلام: «فاعْتَبِرُوا بما كانَ مِنْ فِعْلِ اللّهِ بإبليسَ إذْ أحْبَطَ عَمَلَهُ الطَويلَ، وَجَهْدَهُ الجَهِيدُ»[٧].

وقوله عليه السلام: «وَهُوَ دينُ اللّه الذي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الذي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ»[٨].

وقوله عليه السلام: «ألا فاعْمَلُوا في الرغبةِ كما تَعْمَلُونَ في الرهبةِ»[٩].

وقول عليه السلام: «لَمْ يَكُنْ لإحدٍ فيَّ مهمزٌ، ولا لقائلٍ فيَّ مغمزٌ»[١٠].

وقوله عليه السلام: «عِبادٌ مَخْلُوقوُنَ اقتداراً، وَمَرْبُوبُونَ اقتِساراً»[١١].

---

١. العمدة، ج ١، ص ٥٥٥؛ المنزع البديع، ص ٤٨٥، القرم: شهوة اللحم، الأيمة: الخلو من الزوج لأنّ الأيم العزب رجلاً كان أو امرأة، والعيمة: شهوة اللبن، الغيمة: العطش، والكزم: قصر البنان خِلقَةً أو من بخل (على سبيل المجاز) ويقال الكَزم: شدّة الأكل.

٢. نهج البلاغة، الخطبة، ٩١.

٣. المصدر، قصار الحكم ١٣٣.

٤. المصدر، قصار الحكم ٢١١.

٥. المصدر، الخطبة ٨٣.

٦. كتاب الصناعتين، ص ٣٣١.

٧. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ ـ ١٠.

٨. المصدر، الخطبة: ١٤٦ ـ ١.

٩. المصدر، الخطبة ٢٨ ـ ٤.

١٠. المصدر، الخطبة ٣٧ ـ ٣.

١١. المصدر، الخطبة ٨٣ ـ ١٦.

وقوله ﷺ وهو يريد بني عبد شمس: «هُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وأَنْكَرُ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وأَنْصَحُ وأَصْبَحُ»[١].

وقوله ﷺ: «الدنيا دارُ مَمَرّ لادارَ مَقَرّ»[٢].

وقول صفي الدين الحلّي:

بِيضٌ دَعاهنّ الغبيُّ كَواعِبا ... ولوِ استبانَ الرّشد قال كواكِبا

وقول الشاعر:

أمرَ الشبابُ قضيبَ معطفها ... فَهفا فنالت من دمي أملا

أسرَ الهوى مُهَجَ الأنامِ لها ... إذ هزَّ من أعطافِها أسَلا

وقول البحتري:

وَقُعُودي عن التَقَلُّبِ والأَرْ ... ضُ لِمِثْلي رَحِيبةُ الأَكنافِ

ليسَ عن ثَروةٍ بَلَغْتُ مَدَاها ... غَيْرَ أَنّي امرُؤٌ كَفاني كَفافي[٣]

٤. وقسم تقع الزيادة أو التغيير منه في آخر الكلمة على نحو ما يأتي:

أ) زيادة حرف واحد في الآخر، كقوله تعالى:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٦].

---

١. المصدر، قصار الحكم ١٢٠.

٢. جنان الجناس، ص٦٤.

٣. مطالع البدور، ج١، ص٨؛ خزانة الأدب، ج١، ص ٧٢ و ٤١٥ وفي ديوان البحتري، ج٣، ص١٣٨٢: «وجلوسي عن التصرف»، الأكناف «جمع الكنف»: الناحية والجانب.

٤. النحل: ٦٩.

٥. النساء: ٨٣.

٦. يس: ١٢.

وقول الرسولﷺ: «الفَجْرُ فجرانِ: الأولُ مستطيلُ، والثاني مُسْتَطِيرٌ»[١].

وقولهﷺ: «الخيلُ معقودٌ بنواصِيها الخيرُ»[٢].

وقول الإمام عليّ‹ع›: «ومدارِ رَحَاها تَبْدُو في مدارجَ خَفّيةٍ»[٣].

وقوله‹ع›: «ولا يَغْلِبَنّكُم فيها الأمَلُ،ولا يَطُولَنَّ عليكم فيها الأمدُ»[٤].

وقوله‹ع›: «الخيرُ مِنهُ مأمولٌ، والشّرُ مِنْهُ مأمُونٌ».[٥]

وقوله‹ع›: «وليسَ للعاقِلِ أَنْ يَكُونَ شاخِصاً إلّا في ثَلاثٍ: مَرَمّةٍ لمعاشٍ، أو خُطْوَةٍ في مَعادٍ. أو لَذّةٍ في غَيْرِ مُحَرّمٍ»[٦].

وقول الشريف الرضي:

لا يُذْكَـرُ الرّمْـلُ إلّا حَـنَّ مُـغتَرِبٌ   لَـهُ بـذي الرَّمـلِ أوطـارٌ وأوطـانُ[٧]

وكقول أبي تمّام:

يَمُدُّون مِنْ أيـدٍ عَـوَاصٍ عَـواصـم   تَـصُولُ بـأَسيافٍ قَـواض قَـواضِبِ[٨]

---

١. أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ٥، ص٢٦٨؛ ابن‌منقذ في البديع في نقد الشعر، ص٤٢ وكذا في جنان الجناس في علم البديع، ص٣٢. ويسمى الفجر الأوّل عند الفقهاء بالفجر الكاذب؛ وهو نور يظهر قبل الفجر، ثمّ يذهب، كما يسمّىٰ الفجر الثاني بالفجر الصادق؛ لأنّه نور يظهر في موعد الفجر ثمّ يبقىٰ وينتشر حتّى تطلع الشمس.

٢. الجامع الصغير، ج ٢، ص ٢٠؛ التبيان للطيّبي، ص٤٨٣؛ المثل السائر، ج ١، ص ٢٥٤؛ الطراز، ج ٢، ص٣٦٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص ٩٤.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٥١ ـ ٥.

٤. المصدر، الخطبة ٥٢ ـ ٤.

٥. المصدر، الخطبة ١٩٣ ـ ٢١.

٦. المصدر، قصار الحكم ٣٩٠ ـ ٢.

٧. انوار الربيع، ج ١، ص١٤٤؛ البديع لاسامة بن رشد، ص٤٣، الرمل: موضع لا يمكن تعيينه. جانس الشاعر بين لفظتي «أوطار» و«أوطان» إذ إنّ حرف الراء وحرف النون من الحروف الذولقية المتساوية في المخرج لذا سمّاه البعض بجناس المضارع (انظر: ص١٤٤).

٨. ديوانه، ج ١، ص٤٣؛ أسرار البلاغة، ص١٨، وهو من أبيات التلخيص والإيضاح في الجناس الناقص المطرف ←

وقول عائشة الباعونية:

أقولُ والدَّمْعُ جارٍ جارِحُ مُقَلي والجارُ جارَ بعذلٍ فيه مُتَّهِمي[١]

وقول البحتري:

لَئِنْ صَدَفَتْ عَنّا فَرُبَّةَ أَنْفُسٍ صَوَادٍ إلىٰ تِلْكَ الخُدودِ الصَّوادِفِ[٢]

ومن الشواهد الشعرية التي يقع فيها التغيير في آخر الكلمة قول الحطيئة:

مطاعِينُ في الهيجا مطاعيمُ في الدجى بني لهم آباؤهم وبني الجَدِّ[٣]

وقول البحتري يهجو سعداً الحاجب:

ولما حَضَرْنا لإذْنِ الوَزيـ رِ وَقَدْ رُفِعَ السِّتْرُ أو جانِبُهْ

ظللْنَا نُرجِّمُ فيك الظنون أحاجِمُهُ أَنْتَ أَم حاجبُه[٤]

وربّما سمّي هذا القسم الأخير، «مطرفاً» لتطرّف الزيادة فيه، أي لكونها في الطرف، وسمّاه البعض الآخر باسم «المذيل»؛ لكون الزيادة الموجودة في الآخر بمنزلة الذيل له، وقد تكون الزياده في آخر المطرف، «المذيل» بحرفين، ويسمّيه

← وسمّاه المصري تجنيس التداخل كما قالوا: تجنيس التذييل ومنهم من سمّاه الترجيع، والشاهد في «عواص وعواصم» و«قواض وقواضب» فإنّهما متساويان، إلّا في زيادة الميم والباء، ولا عبرة بالتنوين الذي يزول بالوقف، والإضافة. عواص: جمع عاصية، بمعنى أبيّة. عواصم: جمع عاصمة: أي مانعة حافظة، تصول: تسطو وتقهر. وقواض: جمع قاض أي فاصل في القطع منجزٌ في الفعل. قواضب: جمع قاضبة بمعنى قاطع، انظر: هامش الإيضاح، ص ٢٩١ و ٢٩٣. ومعنى البيت: يمدّون من أيد تقضي العادات في الجود وتعصم المستغيث الخائف. ووجه حسنه أنكَ تتوهّم قبل ورود آخر كلمة أنّها هي التي مضت وأتى بها للتأكيد وفي ذلك تحصيل فائدة جديدة بعد اليأس منها (شروح التلخيص، ج ٤، ص ٤٢٤).

١. وقد جانَست عائشة الباعونية بين لفظتي: «جارٍ» بمعنى: سائل، و«جارح» من جَرَح على المجاز.

٢. صدفت: أعرضت وانصرفت. رُبَّة: ربّ، لحقتها التاء التأنيث اللفظ. صواد: جمع صادية أي عطشانة. الصوادف: جمع صادفة أي مائلة منصرفة. ديوان البحتري، ج ٣، ص ١٣٨٧؛ الطراز، ج ٢، ص ٣٦٢؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ٩١؛ أسرار البلاغة، ص ١٨؛ الايضاح، ص ٢٩١.

٣. انظر: نهاية الأرب، ج ٧، ص ٩٤.

٤. ديوان البحتري، ج ١، ص ٢٧٢؛ انظر: نهاية الأرب، ج ٧، ص ٩٤؛ والزهرة، ص ١١١، الحاجم: الحجّام.

بعضهم باسم المرفل.

ب) الزيادة بأكثر من حرف، كقول الخنساء.

إنَّ البكـــاءَ هـــو الشّــفا ءُ من الجَوَى بين الجوانحِ[1]

ولا شكّ أنّ الجوانح يزيد على الجوى بحرفين هما النون والحاء، وإذا أسقط النون والحاء صار الباقي مساوياً للجوى، لذا عدّ من التجنيس الناقص.

وكقول البحتري:

فـيالك مِـنْ حَـزْمٍ وعَـزْمٍ طَـواهُـما جدِيدُ الرَّدَى بين الصَّفا والصَّفائِحِ[2]

في هذا البيت جناسان غير تامّين: الأوّل: في كلمتي «حزمٍ» و«عزمٍ»، والثاني: في كلمتي «الصفا» و«الصفائح».

وكقول حسّان بن ثابت:

وكُنَّا مَـتى يَـغْزُ النـبيُّ قـبيلَةً نَصِلْ حافَتَيْهِ بالقَنا والقـنابلِ[3]

والشاهد هو زيادة حرفين في «القنابل» على كلمة: القنا.

ملحق الجناس غير التامّ

وقسّم البلاغيون الجناس غير التامّ تقسيماً آخر إلى جناس مـحرّف، ونـاقص، ومضارع، ولاحق، وقلب.

فالجناس المحرّف: سمّي بذلك لانحراف هيئة أحد اللّفظين عن هيئة الآخر، ثمّ

---

١. الجوى: شدّة الوجد من الحزن أو العشق. الجوانح: الضلوع فوق الترائب واحدها جانحة، انظر: معاهد التنصيص، ج ٢، ص٧٧؛ الإيضاح، ص٢٩١؛ البديع في نقد الشعر، ص٥١.

٢. ديوان البحتري، ج ١، ص٤٤٧، ـ في الهامش ـ الصفا: جمع صفاة، وهي الحجر الصلد الضخم، والصفائح: الأحجار العريضة انظر: العمدة، ج ١، ص٥٥٤؛ أنوار الربيع، ج ١، ص١٣٩.

٣. ديوانه، ص١٨٣، والقنا: جمع قناة وهي الرمح. والقنابل: جمع قنبلة وهي الطائفة من الناس والشاهد هو زيادة حرفين في «القنابل» على كلمة «القنا». ويسمّيه أسامة بن منقذ جناس الترجيع ويسمّيه آخرون بـ«الجناس المذيل».

الاختلاف في الهيئة على أقسام:

منها: أن يقع في متّحد، كالحركة الواحدة مع غيرها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[١].

«المنذِرين» و «المنذَرين»، وقع الاختلاف بينهما في حركة الذال؛ لأنّها في الأوّل كسرة، وفي الثاني فتحة، والمراد بالأوّل الفاعلون وهم: الرسل، وبالثاني: المفعولون وهم الذين وقع عليهم الإنذار:

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْـلِمُونَ وَلَا تُظْـلَمُونَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٦].

وكقول النبيّ ﷺ: «اللّهم كما حسَّنتَ خَلْقي فَحَسِّن خُلُقي»[٧].

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فإنّ التقوى في اليومِ الحِرزُ والجُنَّةُ، وفي غدٍ الطريق إلى الجَنَّةِ»[٨].

فالجُنّة الأولى بضمّ الجيم، والثانية بفتحها.

---

١. الصافات: ٧٢ و ٧٣.

٢. التوبة: ١١١.

٣. البقرة: ٢٧٩.

٤. الفرقان: ٣.

٥. غافر: ٦٤.

٦. النساء: ١٣٦.

٧. نهاية الأرب، ج٧، ص٩١.

٨. نهج البلاغة، الخطبة: ١٩١. الحرز و الدرع: الجنّة: الفردوس.

وقول الحريري:

لِلّــهِ مَــنْ ٱلْــبَسَنــي فَــرْوةً أَضْحَتْ مِنَ الرِّعْـدَةِ لي جُـنَّهْ
ٱلْــبَسَنيها واقِــياً مُــهْجَتــي وُقِّــيَ شَــرَّ الإنْــسِ والجِـنَّــهْ
سَـيَكْتَسِي اليَـوْمَ ثَـنائي وَفـي غَدٍ سَيُـكْسَىٰ سُنْدُسَ الجَنَّـهْ[1]

الجُنَّةُ ـ بالضمّ ـ: كلّ ماوقي، والجِنّة: طائفة من الجنّ. والجَنَّة: دار الخلد.

وقول أبو تمام:

هُنَّ الحَمَامُ فـإنْ كَسَـرْتَ عـيافة مــن حــائِهِنَّ فـإِنَّهنَّ حِـمامُ[2]

ونحو قولهم: «جُبّةُ البُرْدِ، جُنَّةُ البَرْدِ»[3].

فالجبّة والجنّة جناسهما من اللّاحق ـ وليسا هما ممّا نحن بصدده ـ والبُرْد والبَرْدِ وقع الاختلاف بيهما في حركة الباء؛ لأنّها في الأولى ضمّة وفي الثانية فتحة.

وقد وقع في قول الحريري:

«فلمّا استأذَنَه في المَرَاح إلى المُرَاح على كاهل المِراح».

وقول من قال: «لا تُنَالُ الغُرَر إلّا بركُوبِ الغَرَر».

والآخر: أن يقع في متعدّد، كأن يكون الاختلاف في حـرف مـن المـتجانسين بسكونه، وحركة مقابله، وفي حرف آخر بحركته، بغير حركة مقابله.

كقولهم: «البِدْعَةُ شَرَكُ الشِّرْكِ»[4].

---

١. مقامات الحريري، المقامة الكرجية.

٢. قاله بمدح المأمون من قصيدة مطلعها:

دِمَن أَلَمَّ بهـا فَقالَ: سـلامُ كم حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِه الإلمامُ

وجاء في شرحه: «يحذّره الفكر في شجي صوتها، فيحمله ذاك على البكاء، فقال: إنّ بكاءها ضَحِكٌ، أي ما يعتقد في صوتها من أنّه بكاء هو طرب وفرح، وبكاؤك إذا تكلّفته هو غرام وهلاك، فانتبه واحذر، ثمّ بيّن ذلك وفسر، بقوله: «هنّ الحَمَام» أي اسمه الذي هو الحمام ليس فيه ما يكره، فإن أخذت تزجر أدّاك الزجر إلى الحَمَام الذي هو اسم الموت، فكذلك صوتها».

٣. الجبّة: ثوب مخطّط واسع يلبس فوق الثياب، والبُرْد: الثوب، البَرْد: برد الشتاء، جنّة:وقاية.

٤. الإيضاح، ص ٢٩٠؛ نهاية الايجاز، ص١٢٧؛ حدائق السحر، ص٩٤، البـدعة هـنا: مـا يستحدث فـي الديـن ولا أصل له فيه.

فالأوّل وهو الشَرَك: أي الشبكة ـ بفتح الشين والراء ـ، والثاني وهو الشِرْك ـ أي الكفر ـ بكسر الشين وسكون الراء ـ فخالفت حركته في الأُخرى، وسكنت فيه الراء، فخالفت فتحها في مقابله.

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «لا تَرَى الجاهِلَ إلّا مفرِطاً، أو مُفَرِّطاً»[١].

الأوّل بسكون الفاء، والثاني ـ بفتحها ـ ولا عبرة بالتشديد في هذا الباب كما صرّح به العلامة التفتازاني وغيره، وربّما يكون الاختلاف بالحركة والسكون معاً بأن يكون أحدهما متحرّكاً، والآخر ساكناً.

ويقع الاختلاف في حركة المتحرّكين منهما أيضاً، كقول الإمام عليّ عليه السلام: «فما أَقَلَّ مَنْ قَبلها وَحَمَلَها حقَّ حَمْلِها»[٢].

وقول الشاعر:

الجَدُّ في الجِدِّ،والحِرمْانُ في الكَسَلِ ... فانْصَبْ تُصِبْ، عن قريبٍ غايةِ الأملِ

في البيت جناسان غير تامّين:

الأول: في كلمتي: «الجَدُّ» و«الجِدِّ». الأولى بمعنى الحظّ والسعادة، والثانية بمعنى الاجتهاد والكدّ.

والجناس الثاني في كلمتي: «فانصَب، وتُصِب». الأولى بمعنى التعب، والثانية بمعنى الوصول والنيل.

وآخر: يقع في تغيّر بعض الحروف مع الشكل. كقوله تعالى: ﴿فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾[٣].

فقد اتّفقت حروف فَعَلتَ وفَعلَتَك شكلهما أو صورتهما، فأصبح جناساً غير تامّ محرّف.

---

١. نهج البلاغة، باب الحكم ٧٠.

٢. المصدر، الخطبة ١٩١.

٣. الشعراء: ١٩.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾[١].

أمّا الجناس الناقص بأقسامه: وهي المردوف، والمـذيّل (المـطرف)، والمـرفّل، والمكتنف فقد سبق أن أشرنا إليه في باب الجناس غير التامّ (القسم الرابع) منه.

ولجميل بثينة الباع الطويل في هذا القسم حيث يقول:

خَـــليلَيَّ إنْ قـالَتْ بُـثَيْنَةُ قـالَـةً   أتـــانا بـــلا وَعْـــدٍ فـقولا لَـــهَا لَـــها

أتـى وهـو مشـغولٌ لعظمِ الذي بـهِ   ومن باتَ طول الليلِ يرعى السُّها سَهَا

بُـثَيْنَةُ تُـزْري بـالغزالة فـي الضُّحـى   إذا بَـرَزَتْ لم تَـبْقَ يـوماً بِـها بَـهَا

لهـا مُـقْلَـةٌ كـحْلاءُ خِـلْـقَةً   كـأنَّ أَبـاها الظَـبـي أو أُمّـها مَـها[٢]

وجناس القلب إذا اتّحدا في النوع، والعدد، والهـيئة، ثـمّ اخـتلفا فـي تـرتيب الحروف، وهو ضربان.

أ) قلب الكلّ: هو وقوع الحرف الأخير من الكلمة الأُولى أولاً من الكلمة الثانية والذي قبله ثانياً، وهكذا على الترتيب.

كقول العباس بن الأحنف:

حُسـامُكَ فـيهِ للأحـبابِ فَتْحٌ   ورُمْحُكَ فـيه للأعـداءِ حَـتْفُ

«فتح، حتف» جناس مقلوب كلّي؛ لانعكاس ترتيبها كلّها.

وقول ابن العفيف:

أَسْكَـرَني بـاللّحظِ والُـمقْلَةِ الكَحْـ   ـــلاءِ والوَجْـنَةِ والكَـأْسِ

سـاقٍ يُـرِيني قَـلْبُهُ قَسْـوةً   وَكُـلُّ سـاقٍ قَـلْبُهُ قـاسِ[٣]

ب) قلب البعض وهو وقوع التبديل في بعض حروف اللفظين.

---

١. المؤمنون: ٤٤.

٢. انظر: حياة الحيوان، مادة «مها» ففي البيت الأوّل جناس تامّ وآخرها مُطرّف وباقي الأبيات تـحريفها تـمتزج بالأذواق حلاوته المعتدلة. المعجم المفصّل، ص٤٧٦.

٣. ديوانه، ص١٨٦؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٥٨؛ نفحات الأزهار، ص٢٤.

كقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا﴾[٣].

وقول النبيّ ﷺ: «اللّهُم اسْتر عَوْراتِنا وآمِنْ رَوعاتِنا»[٤].

ففي اللّفظين المتجانسين (عورات) و (روعات) تبدّل مكان حرف العين فقط؛ إذ نقل الحرف الأوّل إلى موضع الحرف الثالث في اللفظ الثاني، أمّا سائر الحروف، فقد بقيت في مواضعها.

وقول رسول اللّه ﷺ: «يُقالُ لصاحب القرآن: اقرَأ وارْقَ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدنيا».

وقول عليّ عليه السلام: «أمّا بعدُ، فإنّما مثل الدُّنيا مَثَلُ الحَيّةِ لَيّنٌ مَسُّها، قاتلٌ سَمُّها».

ومن النظم قول الشاعر:

بيضُ الصفائح لاسود الصحائف في ... مُتونهنّ جلاء الشكّ والريب

وقول عبد اللّه بن رواحة يمدح النبيّ ﷺ:

تحمِلُهُ الناقةُ الأدماءُ معتجراً ... بالبُردِ كالبدرِ جلّى نُورُهُ الظُلّما[٥]

وقول بعضهم: «رحم اللّه امرءاً أمسك ما بين فكّيه، وأطلق ما بين كفيه».

ج) قلب المجنح وإذا وقع أحد المتجانسين جناس القلب في أوّل البيت، والآخر في آخره سمّي مقلوباً مجنحاً، كقول الشاعر:

---

١. طه: ٩٤.

٢. ق: ٢٧ ـ ٢٩.

٣. الحجّ: ٣٦.

٤. الحديث الشريف في المثل السائر، ج١، ص٢٦٣. وحسن التوسّل وهو في مسند أحمد، ج٢، ص١٩٢؛ ثواب القرآن، ص١٨؛ التبيان للطيّبي، ص٤٩٠.

٥. حسن التوسل، ص١٩٧؛ المستدرك على ديوان عبد اللّه بن رواحة، ص ١١.

رَضَّتْ فُؤادِي غَادَةٌ ما كُنْتُ أحْسبُها تَضُرْ
رَدَّتْ رَسُولي خائِباً فَمَدامِعِي أبَداً تَدُرْ

ومحلّ التمثيل في البيت الأوّل «رضّت» و«تضر»، وفي البيت الثاني «ردّت» و«تدر».

وقول الشاعر[١]:

لاحَ أَنوارُ الهُدى مِن كَفِّهِ في كُلِّ حالِ

فقد جانس بين «لا ح» و«حال» جناساً مجنّحاً لوقوعهما في طرفي البيت.

يقول الشاعر[٢]:

رَقّت شمائِلُ قاتِلي فلِذلكَ رُوحِي لاتَقرُّ
رَدَّ الحَبيبُ مَقَالَهُ فكَأَنَّهُ في السَّمْعِ دُرُّ

جانس الشاعر جناساً مجنّحاً في البيت الأوّل بكلمة «تقرّ» بمقلوب كلمة «رقّت». وفي البيت الثاني جانس جناساً مجنّحاً بقوله: «ردّ» بمقلوب قافيته «دُرّ».

د) قلب المستوى[٣]: وهو كلّ كلام إذا قلّب كان إيّاه.

قال عماد الدين الكاتب للقاضي الفاضل: «سِرْ فلا كبا بِكَ الفَرسُ».

فاجابَهُ: «دامَ عُلاَ العِماد».

وقال القاضي الأُرّجانيُّ:

مَوَدَّتُهُ تَدومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وَهَلْ كُلُّ مَوَدَّتِهِ تَدُومُ[٤]

---

١. الطراز، ج٣، ص٩٥؛ المصباح، ص٩٢؛ شروح التلخيص، ج٤، ص٨٤؛ التبيان للطيّبي، ص٤٩٠.

٢. البيتان في بلوغ الأرب، ص١٦٧؛ جنان الجناس، ص٣٣؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٣٩؛ أنوار الربيع، ج١، ص٢٠٥ دون عَزوٍ، وفيه يصف الشاعر محبوبه بأنّه لفرط رقّة خصاله ولطيف عاداته يكاد يكون قاتلاً حبيبه محيّراً له، فروحه قلقة، والنفس غير مطمئنّة، وممّا زاد في ملاحته حسن جوابه؛ إذ أنّ حديثه خلب السمع بلفظه العذب.

٣. نهاية الإيجاز، ص٣٢٥.

٤. ديوان الأرّجاني، ج٣، ص١٢٣٤؛ الإيضاح، ص ٢٩٩؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٢٩٥؛ التبيان للطيّبي، ص٤٩١.

فان البيت لايتغيّر بالعكس والقلب أو فإنّ البيت على حدّ سواء طرداً أو عكساً.

وفي التنزيل: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[١] ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾[٢].

وممّا ينسب إلى القاضي «الفاضل»:

«أبداً لا تدوم إلّا مودّة الأدبا».

ومنه: «أرانا الإله هِلالاً أنارا».

ومنه «كبر رجاء أجر ربك».

وتارة يكون كلّ كلمتين من بيت أو أكثر يقرءان مقلوباً في نفسهما، كقولك «أرضٌ خضراء»، «فيها أهيف»، «ساكب كأس».

وقول الشاعر:

لَـبِقٌ أقْـبَلَ فِـيْه هَـيْف　　　كُلَّمَا أمْلُكَ إنْ غَنَّا هِبَه[٣]

وقد جانس في كلّ من الصدر والعجز؛ إذ يقرأ الصدر معكوساً كما يقرأ مستقيماً.

وتارة تقرأ كلّ كلمة مقلوبة بـمفردها، وهـذا أعـلى هـذا النـوع مـنزلة، كـقول سيف الدين المشد:

لَـــيْلٌ أضـــاءَ هِـــلالُهُ　　　أنّـــى يُـضي بكَـوْكَبِ

وإذا وليَ أحد المتجانسين الآخر سمّي مزدوجاً[٤]، ومكرّراً، ومردّداً وهـو يـقوم على ترديد كلمتين متجانستين: إحـداهـما: مـضمومة إلى الأخـرى لغـاية التَّـتمة

---

١. المدثر: ٣.

٢. الأنبياء: ٣٣.

٣. بلوغ الأرب في علم الأدب، ص١٦٦؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٣٩.

٤. سمّاه ابن الأثير المجنّب وقال: أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأُخرى والجنيبة لهـا، وهـو بلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس.

وسمّاه النويري «المردّد والمكرّر» والعلوي سمّاه «المكرّر والمردود» وكذلك سمّاه «الاستواء».

ويسمى أيضاً بالجناس المزدوج ويفرق بينهما بأن المزدوج يلزَمهُ أن يكونَ أحَدُ الركنين ناقصاً عن الآخر بحرف، والمردد لا يلزمه ذلك.

والتكملة لمعناها.

كقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[١].

«فسبأ» و«نبأ» متواليان، وتجنيسهما لاحق، وذلك لإختلافهما بحرفين متباعدين في المخرج، فالباء في «بنبا» لا دخل لها في التجنيس.

وقول النبيّ ﷺ: «المُؤمنونَ هَيّنونَ ليّنونَ»[٢].

وقول عليّ عليه السلام: «اللّٰهُمَّ سُقْياً مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَّةً، تامّةً عامّةً، طيّبةً. مُباركَةً، هنيئةً مريئةً مَرِيعَةً»[٣].

وقولهم: «من جدَّ وجد، ومن لجَّ ولج».

وكقول البلاطُنسي:

حُبُّ عـليّ بُـعْدَ المـنازلِ نـازِلُ	قَـلْبٌ إلى تِـلْكَ الشـمائِلِ مـائِلُ
صَبٌّ قَـرِيحُ الجَـفْنِ مـنّي مَـدْمَعى	صَبٌّ عـلى حُكْـمِ الوسـائِلِ سائِلُ
يَغْزُو جُـيوشَ الصَّبْرِ مـنّي إن رَنـا	لحـظٌ بأصـنافِ التـغازُلِ غـازِلُ
أَوْرَى عُـيوناً فـي فـؤادي كـم لهـا	مـن غَـيْرِ شَكٍّ فـي المـقاتِلِ قـاتِلُ

جانس الشاعر في صدر البيت بين «المنازل» جمع منزل بمعنى الدار و«نازل» اسم فاعل من نزل بمعنى: ثَبَتَ واستَقَّر. وجانس في عجز البيتِ بين «الشـمائل» جمع الشَّمال بمعنى الطبع، «مائل» بمعنى: عَدَل إلى الشيء وأقبل عليه.

وجانس في البيت الثاني بين «الوسائل» بمعنى القربة، و«سائل» من السـؤال، وهو الطلب والاستعطاف، وجانس كذلك في البيت الثالث بين لفظتي «التغازل» من الغَزَلِ، و«غازل» اسم الفاعل من غزل بالمِغْزَلِ الصوف ونحوه.

وكقول الصلاح الصفدي:

---

١. النمل: ٢٢.

٢. الإيضاح، ص ٢٩٢ـ٢٩٣.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١١٥ـ٦.

بِنَفْسِي مَنْ إذا ذَكَرَ اكْتِئابي وأنّـي لا أرَىٰ الأَوزارَ زَارا
نَبِئْتُ وللدُّجى حِرْصٌ عليهِ وَلي فإذا رأى الأسحارَ حَارا

جانس بين «الأوزار» بمعنى: الآثام، و«زار» بمعنى: الإثم؛ لأنّه جمع «وزر»، و«زار» من الزيارة بمعنى: قَدِمَ زائراً.

وجانس ـ أيضاً ـ في عجز البيت الثاني بين «الأسحار»: جمع السَّحَر، بمعنى آخر الليل وقبيل الصبح، و«حار» من الفعل: «حار يحارُ حَيْراً» بمعنى: لم يَدْرِ وجه الصواب.

وكقول أبي الفتح البُستي:

أبا العبّاس لا تحسب بأنّي لسنّي من حُلى الأشعار عارِي
فلي طبعٌ كسلسالٍ معينٍ زُلالٍ من ذُرى الأحجار جارِي
إذا ما أكبَتِ الأدوارُ زَنْداً فلي زَنْدٌ على الأدوار وارِي[1]

الثالث: الجناس المطلق،[2] هو توافق ركنيه في الحروف وترتيبها بدون أن يجمعها اشتقاق، كقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا ... [إلى قوله] فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[6].

---

١. الابيات في ديوانه، ص٩٧ـ٩٨؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٣٨؛ نظم الدر، ص٢١٠.
٢. ويسمى أيضاً المشابهة، والمقاربة، والمغايرة، وإيهام الاشتقاق، وجناس الإطلاق والمحقّق؛ لكونها توهّم بأنّها ناتجة عن أصل واحد، ولكن مشابهتهما لفظية، لا من حيث المعنى، ولهذا سمّاه بعضهم تجنيس اللفظ.
٣. المائدة: ٣١.
٤. البقرة: ٢٨٥.
٥. يونس: ١٠٧.
٦. فصلت: ٥١.

وقول النبيّ ﷺ: «سليمٌ سالَمها اللّهُ، وغفار غَفَرَ اللّهُ لَها، وَعَصيّة عَصَتْ اللّه ورسوله»[١].

ف«سُلَيْمٌ» لم يُسَّم من المسالمة، ولا «غفّارُ» من المغفرة، ولا «عصية» تصغير عصى من العصيان؛ فإنّها أسماء قبائل مرتجلة.

وقول الإمام عليّ ؑ: «وأهلها على ساقٍ وسياقٍ»[٢]، فإنّ الساق هو أحد الأطراف السفلى للإنسان، وسياق مصدر يسوق.

وقول الشاب الظريف:

أراكَ فيمتلي قلبي سُرُوراً ... وأخشى أنْ تَشُطَّ بكَ الدِيارُ

فَجُرْ، وَاهجُرْ، وصُدَّ، ولاتَصِلْني ... رَضيتُ بأنْ تجورَ وأنتَ جارُ[٣]

وقول الصَّفَدي:

لَوكانَ يَجْمَعُ للمَشُوقِ المُبْتَلى ... في الحُبِّ بين جَمالِهِ وجَميلِهِ

لانْفَكَّ أَسْرُ الصَبِّ مِنْ نارِ الجَوَى ... وشفاه من أَغْلالِهِ وغَليلِهِ

لكِنْ أرادَ بأنْ يرى أهْلَ الهوى ... في الحُبِّ بأَسَ نِزالِهِ ونزيلِهِ

مَنْ ذا يُناظِرُهُ على سفكِ الدِّما ... إنْ جاءَهُ بِدلالِهِ وَدَليلِهِ[٤]

---

١. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ج٤، ص٢٥٢ «عصى» و، ص٥٢٩ «غفر». انظر: أنوار الربيع، ج١، ص١١٨، كتاب الصناعتين، ص٣٢٣.

٢. نهج البلاغه، الخطبة ١٩١ـ١٦.

٣. تشط: تبعد، فجر: من الجور وهو الظلم، وصدّ: أي قابلني بالصدود وعدم النظر إليّ لا تصلني: لا تمنحني الوصال.

٤. جانس الشاعر جناساً مطلقاً في عجز البيت الأوّل بين لفظتي «جماله» بمعنى: حسنه، و«جميله» بمعنى: إحسانه، وفي عجز البيت الثاني جانس بين لفظتي «أغلاله» مفردها الغِلّ بمعنى: طوق من حديد وقصد به هنا عذابه، و«غليله» بمعنى، عطشه وعنى به هنا شوقه. ثمّ عاد فجانس في عجز البيت الثالث بين لفظتي «نزاله» بمعنى: مقاتلته مجازاً وقصد بها تصارع الشوق بداخله، و«نزيله» بمعنى: ضيفه وعنى به حُبّه، ثمّ جانس في عجز البيت الرابع بين لفظتي «دلاله» بمعنى: الغنج، و«دليله» بمعنى: مرشده (هامش بلوغ الأرب في علم الأدب ص٢٠١).

قول البحتري:

فإذا ما رِياحُ جُودِكَ هَبَّتْ   صارَ قولُ العُذَّالِ فيها هَبَاءَ[١]

ومثله قول البهاء زهير:

يا مَنْ لعبت به شمولٌ   ما ألطفَ هذهِ الشمائِل[٢]

وقول آخر:

بجانبِ الكَرْخِ من بغدادَ عَنَّ لنا   ظَبيٌ يَنْفِرُهُ عَنْ وَصْلِنا نَفَرُ

ظَفيرَتاهُ على قَتْلي تَظَافَرَتا   يا مَنْ رأى شاعِراً أوْدَى به الشَّعَرُ

ومنه ما كتب به إلى المأمون في حقّ عامل له وهو: «فلان ما تركَ فضّةً إلّا فَضّها، ولا ذَهباً إلا أذْهَبَهُ، ولا مالاً إلّا مال عليه، ولا فَرَساً إلّا افترسَهُ، ولا داراً إلا أدارها ملكاً، ولا غَلّةً إلا غَلَّها، ولا ضيعة إلّا ضيّعها، ولا عَقاراً إلّا عَقَرَهُ، ولا حالاً إلّا أحَاله، ولا جليلاً إلا أجلاه، ولا دقيقاً إلّا دقّهُ».

فإنّ جَمَعَهُما اشتقاق فهو ليس من الجناس المطلق وإنّما يُجعل قسماً مستقلّاً من أنواع البديع المخصوص بالجناس، فيسمّى جناس الاشتقاق[٣]، وهو ما تجانس ركناه في الأصل واختلف بالهيأة؛ إذ كلّ منهما على صورة من صور الاشتقاق، مع المحافظة على ترتيب الحروف الأصليّة في الركنين. ويفرّق بينه وبين المطلق بإنّ معنى المشتقّ يرجع إلى أصل واحد، والمطلق كلّ ركن منه يباين الآخر.

فالجناس التامّ الذي هو جزء من المشترك اللّفظي ما عدا جناس التركيب. والمشترك اللّفظي عند أهل اللّغة: هو اللّفظ الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر على حدّ سواء، مثل لفظ «الحوب» الذي يطلق على أكثر من ثلاثين معنى، منها: الإثم، والحاجة، والمسكنة ....، وتختصّ البلاغة بمصطلح الأجناس أو الجناس، وهو بمفهومه البلاغي صار فرعاً من المشترك اللّفظي، بعد أن كان هو والمشترك اللّفظي

---

١. ديوان البحتري، ج١، ص١٩؛ الإيضاح، ص٢٩٤؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٠٢.

٢. ديوانه، ص٢٧٧؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٠١.

٣. وسمّاهُ السيوطي «المقتضب». أو الاقتضاب (انظر: جنان الجناس، ص٧٥).

شيئاً واحداً. فالجناس التامّ يكون أخصّ من المشترك اللّفظي.

أمّا الجناس غير التامّ (أو الناقص)، فهو أعمّ من «الاشتقاق الأصغر، أوالصغير أو العامّ»؛ لأنّه يشغل من الجناس مساحة الاختلاف بين اللّفظين في العدد، والهيئة، والترتيب، ما عدا الاختلاف في نوع الحروف.

وقد ربط البلاغيون بين الجناس والاشتقاق الأصغر، كما في جناس الاشتقاق، لان اللّفظين يجمعهمان اشتقاق واحد، وربطوا بين الجناس وما يشبه الاشتقاق، وليس منه، كما في الجناس المطلق.

جناس الاشتقاق وأنواعه

١. منها أن يكون الركنان اسمين، كقوله تعالى:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[١].

الروح: الرحمة، والريحان، الرزق.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[٢].

وقول الرسولﷺ: «ذَوُ الوَجْهَينِ لا يَكُونُ عِنْدَ اللّه وَجيهاً»[٣].

وقولهﷺ: «الظّلمُ ظُلماتٌ يَوْمَ القيامة»[٤].

وقول الحارث اليشكري من معلّقته:

ء أذَنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الثَّواءُ

ء أذَنَتْنا بِبَيْنِها ثُمَّ وَلَّتْ لَيْتَ شِعري متى يكونُ اللِّقاءُ[٥]

---

١. الواقعة: ٨٨ـ٨٩.

٢. الرحمن: ٥٤.

٣. أخرجه البخاري «أدب ـ ٥٢»، وأبو داود «أدب ـ ٣٤»، والترمذي «بر ـ ٧٨».

٤. أخرجه البخاري «مظالم ـ ٨»، و الترمذي «بر ـ ٨٣ـ ٣٥».

٥. جانس الشاعر جناساً مشتقاً في عجز البيت الأول بين لفظتي «ثاوٍ» من فعل ثوى بمعنى: أقام، و«الثواء» بمعنى: الإقامة.

وقول طرفة بن العبد من معلّقته:

لَــعَمْرُكَ مــا الأيّــام إلّا مُــعــارة فما اسْطَعْتَ مــن مَـعْروفِها فَـتَزَوَّدِ
عَن المَـرْءِ لا تَسَـلْ وابْـصِرْ قَـرينَهُ فَكُـــلُّ قَـــرينٍ بــالمُقارِنِ مُــقْتَدِ[١]

وقول الشاعر:

عَـممْتَ الخَـلْقَ بـالنَّعماءِ حَـتّى غَـدَا الثَّـقلانِ مِـنْها مُـثْقَلَيْنِ[٢]

وقول البحتري:

نسِـيمُ الرَّوْضِ فـي رِيـحِ شَـمالٍ وَصَوْبُ المُزْنِ فـي راحِ شَـمولٍ[٣]

ومن السحر الحلال ما أنشده ابن حجّة الحموي لبعض معاصريه:

عاتبتُ طـيفَ الذي أهـوى وقـلتُ لَـهُ كيفَ اهتديتَ وجُـنْحُ اللـيلِ مَسْـدولُ
فـقالَ آنستُ نـاراً مــن جـوانِـحِكُم يــضيءُ مــنها لدي السارين قِـنْديلُ
فـقلتُ نـارُ الجـوى مـعنىً وليس لهـا نــورٌ يــضيءُ وهــذا القــولُ مــقبولُ
فــقال نِسْــبَتُنا فــي الحــالِ واحــدةٌ أنــا الخــيالُ ونــارُ الشــوقِ تــخييلُ[٤]

٢. أن يكون أحد ركنيه اسماً والآخر فعلاً، كقوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾[٧].

---

١. جانس الشاعر جناساً مشتقاً بين القرين والمقارن.

٢. عمّت: شملت. النعماء: النُّعمى والنَّعْمة، اليد والصنيعة. الثقلان: الإنس والجن.

٣. ديوان البحتري، ج٣، ص١٧٣٣؛ كتاب الصناعتين، ص ٣٢٨؛ خاص الخاص، ص ٩٧؛ جنى الجناس، ص٢٩. الشمول: الخمر. الصوب: الانصباب والنزول. المزن: السحاب.

٤. خزانة الأدب، ج١، ص٣٩٨، مسدول: مرخي، الجوى: شدّة الشوق.

٥. الشعراء: ١٦٨.

٦. الأنعام: ٧٩.

٧. النمل: ٤٤.

وقوله تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾[٣].

٣. ومنها أن يكون الركنان فعلين.

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾[٥].

كقول الإمام عليّ‏ؑ: «يا صَفْراءُ اصفري، و يا بيضاءُ ابيضي،غرّي غيري».[٦]

وقول الإمام عليّ‏ؑ في وصف أحداث مقتل عثمان:

«اسْتأثَرَ فأساءَ الأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فأستأتُم الجَزَعَ، و للّـهِ حُكْمٌ واقِعٌ فـي المستأثِر والجازِع»[٧و٨].

وقد يرى البعض[٩] أنّ اختلاف الكلمتين جاء للتصريف وهذا غير صحيح فالأمر موكول بالإضافة التي يأتي بها المعنى الثاني، وإذا تعذّرت فلا جناس ثَمَّ؛ لأنّ من شرائط الجناس أن يتشابه اللفظان في النطق أو الإيقاع ويختلفان في المعنىٰ.

وفيما يأتي أمثلة جناس الاشتقاق في القرآن:

---

١. النور: ٣٧.

٢. الروم: ٤٣.

٣. البقرة: ٢٧٦.

٤. التوبة: ١٢٧.

٥. المؤمنون: ٦٠.

٦. أنظر: حسن التوسل، ص١٩٤؛ المقاصد الحسنة (للسنماوي)، ص٤٧٥، ورواه أحمد في مسنده في مناقب عليّ.

٧. الخطبة ٣٠.

٨. أساء الأثرة: أساء الاستبداد. وأسأتم الجزع: أي لم ترفقوا في جزعكم، ولم تقفوا عند الحدّ الأولى بكم.

٩. كما يرى العسكري في كتاب الصناعتين، ص ٣٢١.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[٢].

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾[٣].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[٤].

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾[٥].

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[٦].

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[٧].

﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾[٨].

﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٩].

﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾[١٠].

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾[١١].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[١٢].

---

١. النساء: ١٠٧.

٢. النساء: ١٤٠.

٣. النساء: ٢٣.

٤. الغاشية: ٢١.

٥. الجن: ٩.

٦. النمل: ٣٩.

٧. الواقعة: ١.

٨. البقرة: ٢٨٣.

٩. الزمر: ٣٨.

١٠. الروم: ٢٥.

١١. البقرة: ٢٨٢.

١٢. الانسان: ٨.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾[١].

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾[٢].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[٣].

﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[٤].

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾[٥].

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾[٦].

﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾[٧].

﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٨].

﴿يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾[٩].

﴿يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[١٠].

﴿تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾[١١].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[١٢].

﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾[١٣].

---

١. المعارج: ٣.

٢. البلد: ٣.

٣. الاعلى: ٨.

٤. الشعراء: ٢٢٧.

٥. البروج: ٣.

٦. البقرة: ٢٨٢.

٧. البقرة: ١٥٦.

٨. المطففين: ٢٦.

٩. ق: ٤١.

١٠. الشعراء: ١٩٧.

١١. النازعات: ٦.

١٢. الانفال: ٧.

١٣. الصافات: ٩٧.

﴿أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[١].

﴿فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[٢].

﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ﴾[٣].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٤].

﴿أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾[٥].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٦].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٧].

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٨].

وقد يأتي جناس الاشتقاق فيه تناسب في الأطراف، كقوله تعالى:

﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾[٩].

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١٠].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾[١١].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٢].

---

١. يونس: ٢٦.

٢. الحجر: ٨٥.

٣. النساء: ١١.

٤. النحل: ٩٨.

٥. الروم: ١٠.

٦. الفلق: ٥.

٧. النساء: ٨٦.

٨. فاطر: ١٨.

٩. الاعراف: ٨٧.

١٠. البقرة: ١٤٣.

١١. المؤمنون: ٦٣.

١٢. البقرة: ٢٣١.

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٢].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٣].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[٤].

هذه جملة من الآيات التي ورد فيها جناس الاشتقاق، والأمر موكول بالإضافة إلى اللفظة التي يأتي بها المعنى إلى اللّفظة الثانية، وإذا تعذرت فلا جناس وأما إذا كانت الكلمة الثانية لا تفيد إلّا التوكيد، فيخرج هذا من إطار الاختلاف في المعنى، لأنّ المعنى الأوّل لم يضف إليه شيء بقدر ما تأكّد حدوثه، وتعمّق أثره.

كقوله تعالى:

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٥].

﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٦].

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٧].

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[٨].

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[٩].

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾[١٠].

---

١. آل عمران: ٣١.

٢. الحجرات: ٩.

٣. النساء: ١٢٥.

٤. الحاقة: ١٨.

٥. النساء: ١٦٤.

٦. النساء: ٦٥.

٧. الفتح: ١٦ و التوبة: ٣٩.

٨. الفرقان: ٢١.

٩. الاسراء: ٤.

١٠. النساء: ١٢٨.

﴿ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُّبِينًا﴾[١].
﴿أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾[٢].
﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[٣].
﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾[٤].
﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[٥].
﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[٦].
﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[٧].
﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[٨].

فـ «كلّم تكليماً»، و«سلّم تسليماً»، و«عذّب عذباً»، إلى آخرها ليست جناساً، وإنّما هي توكيد مطلق، ولا تخصيص فيه يخرجه من إطار العموم، ويحدّد معالمه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾[٩].

فمضاعفة جاءت صفة لتنفي القلّة التي يعبّر عنها بجمع القلّة ـ وهو وزن إفعال ـ، وإن كان في كلمة «مضاعفة» مبالغة تفيد التوبيخ، ولكن في إطار المعنى العامّ للآية.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[١٠].

---

١. الاحزاب: ٣٦.
٢. المؤمنون: ٢٩.
٣. الفجر: ٢٥.
٤. التوبة: ١٢٠.
٥. التوبة: ١١٤.
٦. يونس: ٩٣.
٧. النساء: ١١٩.
٨. الزلزلة: ١.
٩. آل عمران: ١٣٠.
١٠. الاحزاب: ٣٨.

فـ ﴿مَّقْدُورًا﴾ صفة لازمة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1].

فـ ﴿مَّحْجُورًا﴾ صفة لتأكيد معنى الحجر.

---

١. الفرقان: ٢٢.

مصطلحات أخرى للجناس

واطلق البلاغيون بعض الاصطلاحات على بعض أنواع الجناس، منها:

١. **تجنيس التصريف**: وهو أنْ تنفردَ كلُّ كلمةٍ من الكلمتين عن الأُخرى بحرف كقوله تعالى: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾[١].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾[٢].

وكقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[٣].

أي أنّ هناك تساوياً في حروف الركنين في الأعداد والزِّنة والحركات وتخالف في التركيب.

وقد صرّح بهذا الاصطلاح وعرّفه كلّ من العسكري وابن منقذ. أمّا الجرجاني، فقد أدخله في التجنيس الناقص، وجعله ابن رشيق ضرباً من ضروب المضارعة، وسمّاه أيضاً ابن منقذ تجنيس الترجيع، وكان الأولى به أن يسمّيه بتجنيس التصريف.

ولا يخلو تجنيس التصريف أن تتقارب فيه الحروف باعتبار المخارج، أو

---

١. فاطر: ٤٢.

٢. العاديات: ١١.

٣. القصص: ٤٥.

لاتتقارب، فإن تقاربت سمّي مضارعاً[١]، وإن لم تتقارب سمّي لاحقاً[٢].

فمن أمثلة المضارع قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾[٣].

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فَأَحْصاكُم عَدَداً، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً فـي قـرارِ خِـبْرةٍ، ودارِ عِبْرَةٍ»[٤].

وقوله عليه السلام يصف المتّقين: «فَمِنْ علامَةِ أحدِهِم إنّك تَرَىٰ لَهُ قُوّةً في دينٍ، وحَزْماً في لينٍ، وإيماناً في يَقينٍ، وحِرْصاً في عِلْمٍ، وعِلْماً في حِلْمٍ»[٥].

وقوله عليه السلام: «أمّا الإمْرَةُ البَرَّةُ فيعمَلُ فيها التقيُّ، وأمّا الإمْـرَةُ الفـاجِرَةُ فـيتمتَّعُ فـيها الشقيُّ»[٦].

أمّا امثلة اللاحق، فكقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٧].

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فعاوِدُوا الكَرَّ، واسْتحيُوا مِنَ الفَرِّ؛ فإنّهُ عارٌ في الأعقابِ، ونارٌ يومَ الحِسابِ»[٨].

وقول البحتري:

أَلِـمَا فـاتَ مـن تَـلاقٍ تَـلافِ ... أَمْ لِشَاكٍ مِن الصَّبابةِ شـافي[٩]

---

١. تعريف الجناس المضارع: هو الذي اختلف فيه المتجانسان في أنواع الحروف المتقاربة المخرج على أن لا يقع الاختلاف في أكثر من حرف.

٢. وهو الذي اختلف فيه المتجانسان في أنواع الحروف المتباعدة المخرج بشرط أن لا يقع الاختلاف في أكثر من حرف.

٣. الأنعام: ٢٦.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣ـ٦ فان الخاء والعين كليهما من حروف الحلق، الأُولى من وسطه الثانية من ادنـاه إلى الفم.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣ـ١٦.

٦. المصدر، الخطبة ٤٠ـ٤.

٧. الهمزة: ١.

٨. نهج البلاغة، الخطبة ٦٦.

٩. ديوان البحتري، ج٣، ص١٣٨؛ كتاب الصناعتين، ص٣٣٤؛ الطراز، ج٢، ص٣٦٧.

٢. جناس الإشارة:[١] وهو أن لايظهر التجنيس باللفظ، بل بالإشارة وبعبارة أخرى: إيراد اللفظ على وجهٍ يُسْتَنبط منه غير معناه.

كقول الشاعر:

فقالت تُرى ماذا الذي أنتَ قانعٌ   بهِ من هوانا قلتُ مقلوبُ قانعِ

أراد أن يقول: قلت: اقنع بالعناق وهو مقلوب «قانع».

وقول الآخر:

وتحتَ البراقعِ مَقلوبُها   تَدِبُّ على ورد خدٍّ ندى[٢]

فكنى عن العقارب بمقلوب البراقع، ولاشكّ أنّ بين اللفظ المصرّح به والمكنّى عنه تجانساً، وسمّاه السيوطي «تجنيس الكناية»[٣].

٣. الجناس المشوش:[٤] وهو ماوقع جناساً وتجاذبه طرفان من الصناعة، فلم نطلق أحدهما دون الآخر من باب أنّه أولى من الآخر، فإنّ أرباب هذا الفنّ اصطلحوا على تسمية ذلك بالجناس المشوش، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[٥].

فإنّ «ضُحاهَا» و «دَحَاها» مختلفان في الحرف الأوّل وفي حركته، فإن قدّرنا اتّفاقهما في الحركة ولم ننظر إلّا إلى اختلافهما في الحروف وجدناهما مختلفين حرفين متباعدين وهما الضاد والدّال وذلك تجنيس لاحق، فالتجنيس بينهما من هذه الجهة من التجنيس اللاحق، وإن قدّرنا اتّفاقهما في الحرف ولم ننظر إلّا إلى اختلافهما في الحركة كان ذلك تجنيسياً محرّفاً، فالتجنيس بينهما من هذه الجهة يقرب من التجنيس المحرّف ولم يخلص إلى واحد من النوعين، ويتحيّر الناظر فيه

---

١. انظر: أنوار الربيع، ج ١، ص ٢١٩؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٨٧؛ الطراز، ج ٢، ص ٣٧٢؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٢٤١. نهاية الايجاز، ص ١٣٠.

٢. معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٢٣٧؛ نظم الدر، ج ٤، ص ٢٣٧.

٣. عقود الجمان، ج ٢، ص ١٦٩ و ١٧٣.

٤. انظر: نهاية الايجاز، ص ١٣١؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٨٧؛ أنوار الربيع، ج ١، ص ٢٢٠؛ حسن التوسل، ص ١٩٣.

٥. النازعات: ٢٩ و ٣٠.

ولا يدري بأيّهما يلحقه، كقولك: «فلان لَبيق البراعة، مليح البلاغة»، لأنّه لو اتّـحد «عيناً» الكلمتين لكان مضارعاً، ولو اتّحد «لاماهما» لكان جناس تصحيف.

فلمّا لم يكن كذلك بقي «مُذبذَباً».

٤. **جناس الإضافة**: هو أن يتّفق اللفظان في المعنى، ثمّ يضاف إلى كـلّ مـنهما شيء يختلف عمّا يضاف إلى الآخر، كقول البحتري:

أَبَا قَمَرِ التَّمَامِ أَعَنْتَ ظُلْماً عَلَيَّ تَطَاوُلَ اللَّيلِ التَّـمامِ[١]

فكلّ من لفظي التمام بمعنى واحد إلّا أنّ التمام الأوّل مـقترن بـالقمر، والثـاني بالليل.

وقال ابن رشيق في العمدة أنّ «الرمّاني يسمّى هذا النوع مزاوجاً»[٢].

قال القاضي الجرجاني: وقد يكون من هـذا الجـنس مـا تـجانس بـه المـفردُ بالمضاف، وقد تكون الإضافة اسماً ظاهراً ومكنياً، وقد تكون نسـباً، ومـن أمـلح ما سمعت فيه قول أبي الفتح بن العميد:

فإنْ كانَ مَسْخُوطاً فَقُلْ شِعْرُ كاتبٍ وإنْ كانَ مَرْضيّاً فَقُلْ: شِـعرُ كـاتِبِ

وقال ابن رشيق[٣] «هو عندي داخل في باب الترديد إذ كان قوله عندالسُّخطِ شعرُ كاتبٍ إنّما معناه، التقصير به، وبسط العذر له؛ إذ ليس الشعر من صناعتة، كما حكى ابن النحاس أنّهم يقولون: «نحوُ فلان كُتّابيٌّ» إذا لم يكن مُجَوِّداً، وقوله عند الرّضي: «شعر كاتب» إنّما معناه التعظيم له، وبلوغه النهاية في الظرف والمـلاحة، لمـعرفة الكتّاب باختيار الألفاظ، وطرق البلاغات، فقد ضادَّ وطابق في المعنى، وإن كـان اللفظ تجنيساً مردّداً.

---

١. ديوانه، ج٣، ص٢٠٢٦؛ الوساطه، ص٤٤. قمر التمام: ليلة التمام، وليل التمام: أطول ليالي الشتاء.

٢. انظر: العمدة، ج١، ص٥٦٢ وفي النكت للرماني، ص٩١؛ تجانس البلاغة: هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة والتجانس على وجهين: مزاوجة ومناسبة، فالمزاوجة تقع في الجزء: كقوله تـعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾.

٣. العمدة، ج١، ص٥٧٠.

٥. جناس البعض: هو إيجادُ بعض الكلمة في الأخرى بحيث تكون المادّة مرتبّة لا مهوَّشَةً مع عدم الاعتناء بالحركات، كقول عمر القطامي:

بأَحْسَنَ مِنْ جُمَانَةَ يَـوْمَ رَدُّوا ... جِـمالَ الحـيِّ فـاحتملُوا نـهارا

جانس القطامي بين لفظة «جُمانة»[١] من معانيه: هنوات تُتّخذن عـلى أشكـال اللؤلؤ من فِضّةٍ وتسمّى بها المرأة هنا، ولفظة «جمال»: جمع جمل وهـو الحـيوان المعروف.

وقول عبد اللّه بن همّام السلولي:

تَرَوَّى مِـنَ البـحرين ثـم تَـرَوَّحَتْ ... بِـهِ العَـيْنُ يَـهْدِيهِ لِظَمْيَاءَ نـاقِلُهْ

جانس السلّولي هنا بين لفظتي «تروّى» و«تروّحت» من راحَ يَراح بمعنى: قرّت العين واطمأنت.

٦.الجناس المجازي: وَيَتمثَّـلُ في استعمال الكلمات التي يجانس بـينها تـارة على سبيل الحقيقة، وأخرى على سبيل المجاز.

كقول أبي تمّام:

عــلى مِـثْلِها مــن أرْبُــعٍ ومَـلاعِبِ ... أُذِيلَتْ مَـصُوناتُ الدُّمُـوعِ السَّـواكِبِ[٢]

أقـولُ لِـقُرْحَانٍ مـن البَـيْنِ لَـم يُـضِف ... رَسِيس الهَوى تَحْتَ الحَشَا والتَّـرائِبِ[٣]

أَعِـنِّي أُفَـرِّقْ شَــمْلَ دَمْــعي فـإنّني ... أُرى الشَّمْلَ مِـنْهم لَـيْسَ بـالمُتَقارِبِ[٤]

ومــا صــارَ فـي ذا اليوم عَـذْلُكَ كـلُّهُ ... عـدُوّيَ حـتى صـارَ جَـهْلُكَ صـاحِبي[٥]

---

١. الحمانة: اللؤلؤة وسميت بها المرأة هاهنا.

٢. الأربع: جمع الربع: حيث يقيم القوم. أُذيلت: أُهينت.
يقول: إنّه سفح دموعه على ربع صاحبته وملاعبها.

٣. القرحان: هنا من لم يصبه مرض. لم يضف: لم يحمل. الرسيس: هنا الدفين. الترائب: جمع التريبة، وهي أعـلى الصدر. (ثديا الجارية).

٤. اعنّي: اسعفني.

٥. يقول: إنّني لم أظهر العداوة للومك إياي إلّا بعد أن المحت بعد ذلك وأنت تجهل حقيقة ما أعانيه.

ومــا بِكَ إركـابي مِـن الرُّشْـدِ مَـرْكَـباً ألا إنّـــما حــاوَلْتَ رُشْـدَ الرَّكـائِبِ
فكِـلْني الى شَـوقي وسِـرْ يَسـرِ الهَـوَى إلى حُـــرُقاتِي بـــالدُّمُوعِ السَّـوارِبِ
أمـيدانَ لَـهْوِي مَـنْ أتـاحَ لَكَ البِـلَىٰ فـأصْبَحتَ مـيدانَ الصَّـبا والجَـنائِبِ[1]
أصـابَتْكَ أبْكـارُ الخُـطوبِ فَشَـتَّتَتْ هـــوايَ بـأبْكـار الظِّـباءِ الكَـواعِبِ

ففي قوله: أعنّي أُفرِّقْ شمل دمعي، نجده يستعمل الشمل أولاً استعمالاً مجازياً، وذلك بإضافته الشمل الى الدمع، وفي الشطر الثاني يستعمله بمعناه الحقيقي.

وكذلك في قوله ميدان لهوي، وميدان الصبا وفي قوله أبكار الخطوب، وأبكـار الظباء.

٧. **الجناس المحض**: ومعنى الجناس المحض الخالص، وكأنّه من أصل واحد في مسموع حروفه، كقول أبي حيّة البجلي:

يَـعُدُّها للـعِدَى فـتيان عـاديةٍ وكلُّ كَهْلٍ رحيبِ البالِ صِـهْميم[2]

وقد جانس بين «العدى» و «عادية» تجنسياً محضاً.

ومنه قول يزيد بن جدعاء:

وَهُمْ صَبَّحوا أُخْـرى ضِـراراً وَرَهْـطَهُ وهُـمْ تـركوا المـأْمُوم وهــو أَمـيمُ

وقد جانس يزيد جناس محض بين «المأموم» مـن أمّ رأسـه بـمعنى: يـهذي، و«الأميم» وهو حجر يشدخ به الرأس[3].

٨. **التجنيس الحقيقي**: وهو الذي تتّفق الفاظهُ في تركيبها ووزنها وهـو يـدور حول محور واحد.

وقد سبق إليه صاحب التلخيص، وسمّاه القاضي الجرجاني «المستوفي»، وابـن رشيق وأسامة بن منقذ «المماثل» وابن الأثير سمّاه الحقيقي.

---

١. البلىٰ: الفناء. الصبا: الريح الشمالية. الجنائب: جمع الجنيبة وهي الفرس تقاد ولا تركب.

٢. فلان صهميمٌ عَسِرٌ لاينثني عمايريد.

٣. الأمّة والآمّة الشّجه وصاحبها مأموم وأميم والظاهر ان المأموم هنا هو المقتدي بالإمام في الصلاة أو غيرها.

ويدخل في التجنيس الحقيقي، تجنيس الاشتقاق الذي سمّاه القاضي الجرجاني «المطلق»، وسمّاه ابن رشيق «المحقق»؛ لأنّ القيمة اللفظية فيه هي ذات القيمة في التجنيس الحقيقي؛ لاتّفاق الحروف في اللفظين، ولا يختلف إلّا الوزن، فالتجنيس حادث فيهما بترجيع جرس الحروف المتماثلة. وفي حدود هذين النوعين تحدث ابن المعتز عن التجنيس وإن لم يسمّها.

إلى جانب التجنيس الحقيقي أورد أولئك البلاغيون جملة أنواع أُخرى من التجنيس، يجمعها تشابه جزئي في تركيب حروف الالفاظ بزيادة حروف أو نقصانهما، أو بتقديم، وتأخير، وإفادة هذا النوع من التجنيس أفاده التجنيس الحقيقي.

٩. الجناس اللفظي: وهو ما تماثل ركناه وتجانسا في الخط والحركات، وخالف أحدهما الآخر في حرف فيه مناسبة لفظية، كما يكتب بالضاد والظاء، ويلحق به ما يكتب بالتاء والهاء، أو بالنون والتنوين.

كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١].

وكقول ابن حجّة الحموي:

قَدْفاضَ دَمْعِي وفاظَ القلبُ إذ سَمِعا لَفْظِيَّ عَذْلٍ مَلا الأَسْماعَ بالأَلَمِ[٢]

فالشاعر جانس بين لفظة «فاض» بمعنى سال منهمراً، وبين «فاظ» بمعنى: خرجت رُوحُهُ وقد أطلقهما هنا على القلب مجازاً.

وقول الحريري:

«من قارع هذه الصفاة وقريع هذه الصِّفات».

فقد جانس بين لفظتي «الصفاة» بمعنى: الحجر الصلب الضخم أو الصخرة الملساء وبين «الصفات» جمع صفة.

---

١. القيامة: ٢٢_٢٣.

٢. البديعيات الخمس: ص٢.

وقول ابن العفيف:

أَحْسَنُ خَلْقِ اللّهِ وَجْهاً وَفماً إنْ لم يكنْ أَحقَّ بالحُسْنِ فَمَنْ

فقد جانس بين لفظتي «فما» من الفم وبين «فَمَن» اللفظة المركّبة من الفاء ومن اسم الاستفهام للعاقل.

وقول الحلّي:

لَسَيْري في الفلا والليلُ داجٍ وكَرّي في الوَغَا والنَقْعُ داجِنْ
وحَمْلي مُرْهَفَ الحدّينِ ظامٍ لحامِلِهِ وُجُودَ النَصْرِ ضامِنْ
وهَزّي ذابلاً للخَيْلِ مارٍ يُلينُ بِهَزّهِ صَدْراً ومارِنْ
ورَكضي أدْهَمَ الجِلبابِ صافٍ خَفيفَ الجَرْيِ يوْمَ السَّلْم صافِنْ
وخطوي تحتَ رايةِ لي غابٍ بسطوتِهِ لأنْفِ الدَّهْرِ غابِنْ
شديدِ البأْسِ ذي أَمْرٍ مُطاعٍ مُضارِبِ كُلِّ قَرْم أو مُطاعِنْ
أَحَبُّ إليَّ من تَغْريدِ شادٍ وكأسِ مدامَةٍ من كفِّ شادِنْ
وحثّي بالكؤوس إلى بَواطٍ طواهِرُهنّ عابٌ والبواطِن
ولثم مُضَعَّفِ الأجفانِ ساجٍ بمُطْلَقِ حُسْنِهِ لِلْقلْبِ ساجِنْ
وفِكَرِي في حياةٍ أو وفاةٍ لأرضِيَ كُلَّ فاتِنةٍ وفاتِنْ
فأُمسِي والشوامِتْ بي هَوازٍ كما شَمِتَتْ بِبَكْر في هوازِنْ

حيث جانس في البيت الأوّل بين «داج» بمعنى مظلم، و«داجن» بمعنى الملازم للمكان على معنى أنّه يَصبر على العطش. وجانس في البيت الثاني بين لفظتي «ظام» العطشان إلى الدماء بغية النصر، و«ضامن» من ضمّنت المال، أي التزمته.

وجانس في البيت الثالث بين لفظي: «مارٍ» أي: السريع الجري وبين «مارن» بمعنى الأنْفِ: كناية عن الشَمَم والإباءِ ويعني به صدور الفرسان وأنوفهم مجازاً وقد استكانت وذلت مخافة بأسه ونفاذ طعنه.

كما جانس في البيت الرابع بين لفظة: «صاف» من الصفاء، ولفظة «صافن» من

الخيل القائم على ثلاث دليلاً على أصالته.

وفي البيت الخامس جانس بين لفظة «غاب» بمعنى: الغابة، و«غابن» بمعنى: غبنه غبناً أي غلبه.

وجانس في البيت السادس بين لفظتي «مطاع» مفعول: أطاعه، و«مطاعن» من طعنت فيه بالقول: عبت وقدحت.

وجانس في البيت السابع بين لفظتي: «شاد» من الانشاد والغناء، و«شادن» بمعنى ولد الغزال وقد شبهه به عن طريق المجاز.

وجانس في البيت الثامن بين «بواط» وهو الإناء الزجاجي الكبير، ولفظة «بواطن» جمع باطن: وهو ما يحتجب عن الأبصار.

وجانس في البيت التاسع بين لفظتي «ساج» أي فاترة النظر، و«ساجن» بمعنى الحابس.

وجانس في البيت العاشر بين لفظتي «وفاة» بمعنى الموت و«فاتن» من فتن بمعنى: سحره وأخذ بمجامع لُبّه.

وجانس في البيت الحادي عشر بين لفظتي «هوازٍ» من هزأ يهزأ و«هوازن»، وهو حيّ من اليمن سُمّيت به قبيلة قيس.

١٠. **الجناس المكتنف**: سمّاه بذلك السيوطي وهو يتحدّث عن أنواع الجناس الناقص وذلك؛ لأنّ حرف الزيادة فيه مكتنف، أي متوسّط بين ما اكتنفه، كقولهم: «جَدي جَهدي» يفتح الجيم فيهما، والهاء زائدة في وسط اللفظ الثاني.

وقول الرسولﷺ: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة الشاذة».

وقولهﷺ: «ما أنزل اللّهُ داءاً إلّا أنْزلَ له دواءً».

١١. **الجناس المزدوج**: هو اتّحاد الركنين في الحروف مع زيادة حرف فأكثر في أوّل أحَدهما، ويشترط أن يلي أحد المتجانِسَيْنِ الآخر.

كقول البَلاطُنُسِيَ:

لَكَ فـي القُـلُوبِ مـصارعُ وَمـصَارِفُ   لِسُـلُوِّ قَـلْبي بـالمصارِفِ صَـارِفُ

وَيَمِيلُ بـي شَـوْقِي ويُـعْطِفُني الهَـوَىٰ   هَلْ لي إلىٰ مَـيْلِ المـعاطِفِ عـاطِفُ

جانس الشاعر بين «صارف» المقطع الأخير من لفظة المصارف ـ جمع مصرف أي حيلة ومنحى ومَعْدِل ـ ولفظة «صارف» اسم الفاعل من صرف بمعنى مُتَصَرِّف في الأُمور، وكذلك جانس في البيت الثاني بين «المعاطف» جمع معطف وهو العنق، و«عاطف» من الفعل عَطَفَ بمعنى: مال وحنى ويسمّى هذا الجـناس: المكـرّر أو المردّد[١].

١٢. جناس الاكتِفاء: هو أن يأتي الشـاعر بـبيت مـن الشـعر وقـافيته مـتعلّقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن عمّا يقتضي تمام المعنى.

وهو نوع ظريف يقسّم إلى قسمين، قسم يكون بجميع الكـلمة، وقسـم يكـون ببعضها، والاكتفاء بالبعض أصعب مسلكاً لكنّه أحلى موقعاً.

قال ابن مطروح:

لا أنْـتهِي لا أنْـثَنِي لا أرْعَـوِى   ما دُمْتُ في قَيْدِ الحـياةِ ولا إذا

فمن الواضح أنّ باقي الكلام: «ولا إذا متُّ» لما تقدّم من قوله الحياة.

ومتى ذكر تمامه في البيت الثاني، كان عيباً من عيوب الشعر، مع ما يفوته من حلاوة الاكتفاء ولطفه وحسن موقعه في الأذهان.

وقال ابن سناء الملك:

وَلَقَدْ حَبَسْتُ عِـنان عَـيني جـاهداً   حَـتّىٰ إذا أعْـيَيْتُ أطـلَقْتُ العِـنا

أي أطلقت العِنان، والدليل ورودها في الصدر.

---

١. انظر: حسن التوسل، ص١٩١؛ نهاية الأرب، ج٧، ص٩٢. وسبق وأن تعرّضنا له في الجناس غير التامّ، ص ١٢٩ وفي جناس قلب المستوي، ص١٤٦.

١٣. الجناس المصحّف: هو أن يكون اللفظان متماثلين خطّاً مختلفين نقطاً وشكلاً، فلولا النقط والشكل لتصحّف أحدهما بالآخر ويسمّى بجناس الخَطّ. وقال الوطواط: «ويسمّىٰ ـ أيضاً ـ بجناس المضارعة والمشاكلة»، كقولك: لا تُضيَع يَوْمَكَ في نَومِكَ.

وقول بعض البلغاء: من يُحرمُ يُرحَمُ ومن يُجرِمُ يُرْجَم.

وهو يأتي على صور:

منها أن يكون ذلك أوّل الكلمة:

كقولهﷺ: «اللّهُمَّ اخْرِجْني مِنْ دارِ الفرارِ إلى دارِ القرارِ»[1].

وكقولهﷺ: «عليكم بالأبكارِ فإنَّهُنَّ أشَدُّ حُبّاً وأقَلُّ خِبّاً»[2].

وكقول الإمام عليّ عليه السلام: «قَصِّرْ ثَوْبَكَ فإنّهُ أتْقَى وأبْقى وأنْقى»[3].

وقول أبي دُؤَادٍ الإِيادِيِّ:

وَرَدْتُ بِعَيْهَامَةٍ جَسْرَةٍ فَعَنَّتْ سِمالٌ وهَبَّت شِمالُ

فالتصحيف في «سمال» و«شمال».

ومنه قول الحريري:

ولا يزكو بالخَيْف مَنْ يرغب في الحَيْف.

ومنها: أن يكون التصحيف متأخّراً، كقول النبيّﷺ: «انْفَلَقَتْ بَيْضَةُ العَرَبِ فَخَرجَ مِنْ فُرْجِ الفَرَجِ فَرْخُ الفَرَحِ».

ومنها: أن تكون الكلمة مصحّفة بأجمعها، كقول الصفدي: «مَنْ حَبَسَ جَيْشَ الشهواتِ لم يَجُزْ بَحْرَ الهَلَكاتِ، وَمَنْ يَجُذُّ بِحَدِّ العِزِ أطماعَهُ، وَيَغرُّ بِعِزِّ الصَلَفِ والقناعةِ، فَقَدْ قَصَّ جَنَاحَ ذُلِّهِ، وَفَضَّ خِتامَ فَضْلِهِ»[4].

---

١. جنان الجناس، ص٦٨.

٢. المصدر، ص٦٨؛ نهاية الأرب، ج٧، ص٩٣؛ نظم الدر، ج٤، ص٢٣٢.

٣. المصدر الأوّل، ص٦٨.

٤. المصدر، ص ٦٩.

ومنها: أن تأتي كلمات تشتابه أوضاعها، ويختلف تصحيفها، كما في قول الإمام عليّ عليه السلام ممّا كتب به إلى معاوية:

«غَرَّكَ عِزُّك، فَصَارَ قُصارُ ذَلِكَ ذُلَّكَ، فاخْشَ فاحِشَ فِعْلِكَ فَعَلَّكَ بِهذا تَهْدأ».

ومنها: أن يكون التصحيف متوسّطاً في الكلمة: كقوله تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١].

وكقول العبادي في وصف الجنة: هي وصف الكشف لا محلّ الكسف.

وفي مقامات الحريري: «فملتُ لمجاورته إلى مُحاوَرَتِهِ».

وقال أبو فراس:

مـن بـحرِ شِعْرِك أغْـتَرِف ... وبِـفضْلِ عِـلْمِكَ أعْـترِف[٢]

١٤. **الجناس السجعي**: وهو تكرار حرف واحد أو حرفين من غـير تـعمّد إلى تشابه الأُصول، ويصنّف إلى ما يراد به إبراز معنى عن طـريق التكـرار مـثل قـول المتنبي:

وامــواه تــصل بــها حــصاها ... صليل الحلي في أيدي الغوانـي

فالصادات مع الألفات واللامات هنا تنقل صلصلة المياه إلى السمع.

ونحو قول عنترة:

جادَتْ عـليها كـلُّ بكـرٍ حـرّةٍ ... فترَكـنَ كُـلَّ قـرارة كـالدرهمِ

فالسامع لا يملك إلّا أن يربط بين جرس الراءات وصورة المطر المـنهمل مـن المزنة البكر الحرة.

والصنف الثاني من الجناس الحرفي ما أريد به زيادة جرس البـيت مـن غـير ما تعمّد إلى تقوية معنى خاصّ له علاقة بصوت الحرف المكرّر، وهذا الصنف كثير

---

١. الكهف: ١٠٤.

٢. نهاية الأرب، ج٧، ص٩٤.

في الشعر العربي، ومن أمثلته قول زهير:

إذا لَـقِحَت حــربٌ عَـوانٌ مَـضَرّة ضَروسٌ تَهِرّ النـاسَ أنـيابها عُـصْلُ

قـــضاعية أو اخـــتها مـــضرية يحرق في حافاتها الحـطب الجـزل

تجدهم على ما خيلت هـم أزاءهـا وإن أفسد المال الجـماعات والأزل

وهذا من نادر الجناس الحرفي ورصينه، والبيت الأوّل قد تَشُمّ منه علاقة معنوية قويّة بين تكرار حرف الراء والمدّ والتشديد، وما يلابس الحرب من جلبة وضجيج، والحرف الذي جعله الشاعر أساس التجنيس في البـيت الأوّل هـو الراء، ورفـده بالضاد في «مَضَرَّة» و«ضروس» وبالسين في «ضروس»، و«الناس» وبالتنوين في قوله: «حرب، عوان، مضرة، ضروس».

وفي البيت الثاني خفف الشاعر من التكرار شيئاً، فاكتفى بالضاد في «قضاعية ومضرية» وكأنّ العين من قوله «قضاعية» صدى للعين من قوله «عُصل».

وفي الشطر الثاني عمد الشاعر إلى الحاء والفاء فكرّرهما في قوله: «يحرق في حافاتها» وجعل القاف من يحرق صدى للقاف من «قـضاعية»، وقـد ردّ الشـاعر صدى جرس الجيم من «الجزل» في جيمات البيت الثالث «تجدهم، والجماعات» وجاء بالزاي في موضعين أوّلهما عند قوله «الجزل» وثانيهما عـند قـوله «الأزل» وليس بخاف التجانس القوى بين «الجزل والأزل» وإنّما أظهر قوة هذا الجـناس، وقوعهما في القافية، والقافية مجال النغم النافذ إلى الأسماع[١].

١٥. **جناس رَدِّ العَجُز على الصدر**: وهو في النثر أن يُجعَلَ أحَدُ اللفظين المكرّرين أو المتجانسين أو المُلْحقين بهما في أوّل الفقرةِ والآخرُ في آخرها، نحو: سائِلُ اللئيمِ يَرْجِعُ ودَمْعُهُ سائِلٌ.

وفي النظم أن يكون أحدُهُما في آخر البيت والآخر في صَدْر المصراع الأوّل أو

---

١. انظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب، ج٢، ص٥٨.

في آخره أو في صَدْرِ المصراع الثاني، كقول الشاعر:

ذوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرْسِلَتْ فمن أجْلها منّا النفوسُ ذَوائبُ

وكقول أبي تمّام:

ومن كانَ بالبيضِ الكواعبِ مُغْرَما فما زِلْتُ بالبيضِ القواضبِ مُغْرَما

وكقول ذي الرُّمّة:

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إلّا مُعَرَّجَ ساعةٍ قليلاً فإنّي نافِعٌ لي قَلِيلُها

وقال الأرَّجاني:

أمَّلْتُهُمْ ثُمَّ تأمَّلْتُهُم فلاحَ لي أنْ ليسَ فيهم فلاحُ

١٦. **الجناس المعكوس:** هو أنْ يقدّم المتكلّم المتأخّر من الكلام ويُؤخِّر المتقدَّم منه.

وقد سمّاه قدامة بن جعفر «التبديل» وهو اسم مناسب لمسمّاه؛ لأنّ مؤلّف الكلام يأتي بما كان مقدَّماً في جزء كلامه الأوّل مؤخّراً في الثاني، وبما كان مؤخّراً في الأوّل مقدَّماً في الثاني.

وقسّمه ابن الأثير إلى ضربين[1]:

الأوّل: عكس الألفاظ:

كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[2].

وقول النبيّ ﷺ: «جارُ الدَّارِ أحَقُّ بدارِ الجارِ».

وكتب الإمام عليّ عليه السلام إلى عبد الله بن عباس كتاباً فقال: «أمّا بعدُ، فإنَّ المَرْءَ قَدْ يَسُرَّهُ دَرْكُ ما لم يَكُن ليَفُوتَهُ، وَيَسوُءُهُ فَوْتُ ما لم يكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فليَكُنْ سُرُورُك بِما نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، و ليكن أسَفُكَ علىٰ ما فاتَكَ منها و ما نِلْتَ مِنْ دُنياكَ فلاتُكْثِرْ بِهِ

١. المثل السائر، ج١، ص٢٥٤ وما بعدها.

٢. الروم: ١٩.

فَرَحاً، وما فاتك منها فلا تَأْسَ عليهِ جَزَعاً، وليكن هَمُّكَ فيما بعد الموتِ»[١].

وقول ابن الزقاق الأندلسي:

غَـــيَّرَتْنا يَـــدُ الزَّمـــا ... نِ فَـقَدْ شِـبْتُ والْـتَحى
فـاسْتَحَالَ الضُّحَى دُجـاً ... واسْـتَحالَ الدُّجَـا ضُـحَى

وقول الأضبط بن قُرَيْع من شعراء الجاهليّة:

قَدْ يَـجْمَعُ المـالَ غَـيْرُ آكِـلِهِ ... وَيَأكُلُ المالَ غَيْرُ مَنْ جَـمَعَهْ
وَيَــقْطَعُ الثَّـوْبَ غَـيْرُ لابِسِـهِ ... وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ قَطَعَهْ

وقول الشريف الرضي من أبيات يذّم فيها الزمان:

أسَفَّ بِـمَنْ يَـطِيرُ إلى المَـعَالي ... وطـارَ بِـمَنْ يُسِـفُّ إلى الدَّنـايا

وكقول بعضهم: عاداتُ الساداتِ ساداتُ العاداتِ، وكقول الآخر: شِيَمُ الأحـرارِ أحرارُ الشيم.

الثاني: عكس الحروف، كقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾[٢].

وكقول بعضهم:

كُرْسِي تَـفَاءَلَتُ فِـيهِ لَـمّا ... رَأيْتُ مَـقْلُوبَهُ يَسُـــرُّك

وقول آخر:

كَـيْفَ السُّـرُورُ بـإقْبالٍ وآخِـرُهُ ... إذا تَـــأمَّلْتَهُ مَـــقْلُوبُ إقــبالِ

وقوله مقلوب «إقبال» أي «لابقاء».

وقول آخر:

جـاذَبْتُها والرِّيـحُ تَـجْذِبُ عَـقْرَباً ... مِنْ فَوْقِ خَدِ مِثْلَ قَلْبِ العَـقْرَبِ
وَطَـفِقْتُ أَلْـثِمُ ثَـغْرَهَا فَـتَمنَّعَتْ ... وَتَـحَجَّبَتْ عَـنِّي بِـقَلْبِ العَـقْرَبِ

فـ«قلب العقرب» الأوّل هو عبارة عن الكوكب الأحمر، وقلب «العقرب» الثاني

---

١. نهج البلاغة، الكتاب: ٢٢.

٢. يس: ٤٠.

هو عبارة عن «البُرْقُع».

وأدخل أسامة بن منقذ في هذا الباب كلمات عكست حروفها بدون ترتيب وسمّاه «تجنيس العكس».

كقول بعض الأدباء في سجعه: الساخرُ خاسرٌ، والعامل مالكٌ، والمحمود ممدوحٌ[١]

١٧. **جناسُ عكس الإشارَة**: وهو أن تذكر الكلمة المقصودة في البيت وتشير إليها بأن تعكس من غير إثبات معكوسها في سِلْكِ البيت.

كقول صفي الدين الحلّي:

نابَتْ عَنْ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ عندما ... حُبِسَتْ وَسَاطِعُ نُورِها لم يُحْبَس

فـي طَرْفِها عَمَشٌ إذا حَقَّقْتَهُ ... لَمْ يَبْدُ مِنْها الاِسْمُ إنْ لَمْ يُعْكس

جانس الشاعر في البيت الثاني بين «عَمَشٌ»، من عَمَشَتِ العين بمعنى سال دَمْعُها في أكثر الأوقات مع ضعف البصر، وعكسها وهو «شمع».

وقول الصَّفديّ:

قَدْ شَعَّبَ جَمْرُ صُدُودِهِ بِحشاشَتِي ... يا لَيْتَ قابَلَ لَفْظَ شَبَّ بِعَكْسِهِ

وقد جانس الصفدي بين «شَبَّ» و«بَشَّ» مقلوب شبَّ.

وقول الغَوّاص النيسابوري:

من عَذِيري من عَذُولي في قَمَرٍ ... قامَرَ القَلْبُ هَواهُ فَقَمَر

قَمَرٌ لم يَبْقَ لي في حُبِّه ... وَهَواهُ غير مَقْلُوب قَمَر

وقد بدا جناس عكس الإشارة هنا في لفظة «قَمَر» بمقلوبها «رَمَق» بمعنى بقية الحياة وهو المقصود[٢].

١٨. **جناس عكس الجمل**: هو في غير النظم: الإتيان بلفظ من ألفاظ الكلام مقدّماً ثمّ الإتيان به مؤخّراً، ويقع ذلك على وجوه كثيرة ولكن المراد منه هاهنا ما استعمل

---

١. البديع في البديع، ص٥٥.

٢. المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص٤٨٦.

منه وكثر استعماله، فالمقدّم في هذا الباب هو قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[1].

وفي النظم أن يأتي الناظم بصدر البيت معكوساً في عجزه من حيث الألفاظ (لا الحروف)، فيصير الأوّل ثانياً والثاني أوّلاً مع عدم تغيير المعنى، كقول القائل:

زعموا أنّي خؤون في الهوى — في الهوى أني خؤون زعموا

وقول الآخر:

يـا بَـدَني بـالفِراقِ ذُبْ كـمداً — ذُبْ كَـمَداً بـالفِراقِ يـا بـدني

فـارَقَنِي مـن هَـوِيتُ وا حَـزَنِي — وا حَـزَنِي مـن هَـوِيتُ فـارَقَنِي

وقول صفي الدين الحلّي:

نَـدِيمَتِي جـارِيَةٌ ساقِيَهْ — ونُـزْهَتِي سَـاقِيَةٌ جـارِيَهْ

جـارِيَةٌ أعْـيُنها جَـنَّةٌ — وجَـنَّةٌ أعـيُنها جَـارِيَهْ

ويقرب منه قول ابن الفارض:

لَـوْلا زَفِـيري أغْـرَقَتْنِي أدْمُـعِي — وَلَولا دُمُوعي أحْـرَقَتْني زَفْـرَتي

واستشهدوا على نوع الطباق بقول الشاعر:

رَمى الحِـدْثان نِسْوة آلِ حَـرْبٍ — بـمقدارٍ سَـمَـدْنَ لَـهُ سُـمُـودا[2]

فَـرَدَّ شُـعورَهُنَّ السـودَ بـيضاً — وَرَدَّ وُجـوههن البـيضَ سُـودا

قال ابن حجّة الحموي: والعكس هنا أحقّ من المطابقة وأولى؛ لما فيه من عكس مطابقة عجزه لصدره، وتبديل الطباق في العجز والصدر.[3]

١٩. جناس ما لا يستحيل بالانعكاس[4]: يقصد العلماء بهذا اللون من الجناس أن

---

١. آل عمران: ٢٧.

٢. الحِدْثان: المصائب والحوادث، والليل والنهار. سمد: بُهت وتحير.

٣. خزانة الأدب، ج٢، ص٤٤٢؛ تحرير التحبير، ص٣٢٠؛ العمدة، ج٢، ص١٠؛ الايضاح، ص٢٦٥.

٤. هذه التسمية من ابن حجة الحموي في كتابه (خزانة الأدب، ج٣، ص١٧٩) وذكر أن جماعة سمّوه «المقلوب» أو «المستوي» ودعاه السكّاكي «مقلوب أكمل».

يقرأ الكلام ـ شعراً كان أو نثراً ـ من الأوّل إلى الآخر، ويكون كقراءتهِ من الآخر إلى الأوّل بطريقة مقلوبة.

وبعبارة أخرى أن يكون عكسه كطردِه.

وهذا الجناس على ثلاثة أضرب:

الضرب الأوّل: قلب الكلمة المتعلّقة حُروفها في الأُخرى: كقول الحريري:

أُسْ أرْمَــــلاً إذا عَــرَا وارْعَ إذا المَــرْءُ أسَـــا

أسْـــنِدْ أخَـــا نَـباهَةٍ أبِـــنْ إخـــاءً دَنسَـــا

أسْـــلُ جَــنَابَ غـــاشِمٍ مُشــاغِب إنْ جَـلَسَا[1]

و كقوله ـ أيضاً ـ: «ساكِبُ كأس».

الضرب الثاني: عكس كلّ كلمة على حِدة بحيث يكون معناه مع القلب مستقيماً، كالأوّل، كقول الحريري أيضاً:

عُجْ ثُمَّ قُرْبَ دَعْدٍ آمِـناً إنَّما دَعْدٌ كَبَرْقٍ مُـنْتَجَعْ

وكقوله أيضاً: «كَبِّرْ رَجَاء أجْرِ رَبِّكَ».

الضرب الثالث: قلب كلّ مصراع من البيت على حدة مع صحّة تركيبه ومـعناه، كقول الشاعر:

بَــرْقٌ سَنَا كـأُنْسِ قـربٍ بِرَشْفِ طَلٍّ ولُطْفِ شربِ

وقد جانس الشاعر بين الصدر والعجز؛ إذ يُقرأ الصدر ردّاً أو عكساً، كـما يـقرأ طرداً، والصدر غير مستقيم الوزن كما ترى والعجز كذلك، وكقولهم: أنتَ سـنانا إنْ أنِسْتَنا.

٢٠. الجناس المبدّل: هو أن يأتي الشاعر بكلمة ثمّ يتبعها بأخـتها عـلى وفـق

---

١. مقامات الحريري (م ١٦) المقامة المغربيّة. أُسْ: أعْطِ. الأرمل: الذي نفد زاده وافتقر. عرا: أتى طالباً للرفد. إرْعَ: اِحفَظ. أسا: من الإساءة. أسْنِد: أعِن وارفَع. أبِنْ: أبعِد وَاقطَع. دنس: من التدنيس وهو تلويث العرض. جناب: فناء. غاشم: ظالم. مشاغب: مهيج للشرّ.

حروفها فيطمع في أنّه يجيءُ بمثلها فيبدّل حرفاً من آخرها بحرف آخر.

كقول الزبرقان بن بدر:

فُـرْسَانٌ صـدق فـي الصباح إذا كَـثُرَ الصـياحُ ولجَّ فـي النـفرِ

٢١. **الجناس المُطْمِع**: هو أن يأتي الشاعر بكلمة ثمّ يتبعها بأختها على وفق حروفها طمعاً في المماثلة بينهما، فلا يتيّسر له ذلك، فيبدّل من آخرها حرفٌ يخالف الحرف الأصلي في المقطع كقول الشاعر: .

لي في الدُّجىٰ السَّاجي حنينُ السَّاجِع وتـطلُّعُ الرَّاجـي ورُودَ الراجِـعِ

وقد يكون ذلك بين أكثر من كلمتين كقول الآخر:

تـحكّمَ فـي مُـهْجتي نـاظرٌ لهُ فـاتِنٌ فـاتِكٌ فـاتِرُ

فقد جاء التبديل في الحرف الأخير من كلّ من «فاتن» و«فاتك» و«فاتر»[1].

---

١. الشامل، معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، ص ٨٧٠.

بلاغة الجناس

يقول الجرجاني في بلاغة الجناس: «واعلم، أنّ النكتة التي ذكرتُها في التجنيس وجعلتها العلّة في استيجابه الفضيلة ـ وهي حسن الإفادة، مع أنّ الصورة صورة التكرير والإعادة ـ وإن كانت لا تظهر الظهورَ التامَّ الذي لا يمكن دفعه إلّا في المستوفي المتّفق الصورة منه...[1] أو المرفوّ الجاري هذا المجرى[2] فقد تتصوّر في غير ذلك من أقسامه أيضاً...»[3].

والمستوفي عنده «المتفق في الصورة»، وهو معدود في حُلِيِّ الشعر، ومذكور في أقسام البديع.

ويعلّل الجرجاني هذا التساؤل قائلاً: «إنّ ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمرٌ لم يتمّ إلّا بنُصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلّا مستحسَن، ولما وُجِد معيبٌ مستهجن»[4].

فيؤكّد الجرجاني على قيمة وفاء الجناس للمعنى، وعلى هذا فهو يرى أنّ الحسن والقبح في الجناس كائن في اللفظ والجرس، وفيهما يناجي العقل والنفس،

---

١. كقوله: ما مات من كرم الزمان فإنّه يحيا لدى يحيى بن عبد اللّه

٢. كقوله: أودعاني أمت بما أودعاني.

٣. انظر: أسرار البلاغة، ص١٧.

٤. المصدر، ص٨.

ويعني المعنى.

قال: «ولها إذا حُقّق النظر مَرجِعٌ إلى ذلك، ومنصرفٌ فيما هنالك»[١]، أي مرجع إلى الجرس، ومنصرف إلى المعنى، وكأنّه بهذا يقرّر أنّ قيمة اللفظ والجرس كامنة فيما يناجي فيه العقل والنفس وهو تصوّر المعنى.

ولقد أجاب الشيخ عبد القاهر الجرجاني على سؤال طالما تبادر إلى أذهان النقّاد والأدباء وهو: ما سرّ جمال الجناس وما عسى أن تكون أهمّيّته في النصّ الأدبي؟ بقوله: وعلى الجملة، فإنّك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حِوَلا، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقّه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلّم إلى اجتلابه، وتأهُّب لطلبه، أو ما هو لحسن مُلاءمته ـ وإنْ كان مطلوباً ـ بهذه المنزلة وفي هذه الصورة[٢].

ففي هذا الإجمال يحرّر عبد القاهر أربعة معايير لبلاغة الجناس وشروط حسنه:

أوّلها: أن يكون المعنى مقتضياً إيّاه وموجباً لإيراده. وفي ضوء هذا المعيار يرفض كلّ جناس جيء به لزخرفة الصوت ولصناعة لفظيّة؛ ذلك لأنّه في هذه الحالة لا يتداعى مع المعاني ولا يساهم في أدائها بقصد التعبير والتأثير.

ثانياً: أن يستوي في بناء النصّ الفنّي ركنٌ لا يُسْتغنى عنه ولا يستبدل بسواه. ومعنى هذا المعيار أن الجناس إذا كان مُقَحَّماً في التعبير دخيلاً في ألفاظه بدا غريباً متكلّفاً، وهو في هذا الوضع لا يثير في النفس إحساساً ولا يجد في الذوق استجابة.

ثالثها: أن لا يخرج في حديثه من إطار السليقة والفطرة، وعلى هذا الأساس، فإنّ الجناس الذي يتكلّف له صاحبه ويأتي به على غير سجيّته وفطرته لا يحمل بين

---

١. المصدر، ص ٥ ـ ٦.

٢. المصدر، ص ١٠.

طياته أيّة شحنة شعوريّة ولا يؤدّي أيّة فكرة.

رابعها: أن يتساوق مع سائر ألفاظ النصّ متلائماً معها في موسيقى أجراس الحروف ومتجاوباً في تعاطف مع أصداء أبنيتها.

ولعلّ هذا المعيار يؤكّد بجلاء أهمّيّة الجناس في خلق الموسيقى الداخليّة في النص الأدبي وبناء ما بين ألفاظه من وشائج النغمة[1].

لقد تنبّه حازم القرطاجني لدخول الجناس في عموم التعليل النفسي، إذ يقول: «إنّ للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادّات وما جرى مجراها تحريكاً وإبلاغاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأنّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد...»[2].

أمّا الجانب الصوتي، فيكاد يكون هو الركيزة التي يعتمد عليها فنّ الجناس وما الجانب الصوتي إلّا الإيقاع أو النغم، أو الترديد الموسيقي، فالكلمتان المتجانستان هما في الواقع إيقاعان موسيقيان تردّدا في ساحة البيت الشعري أو الآية القرآنية أو الجملة النثرية، فالتجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصاً تطرب له الأذن، وتهتز له أوتار القلوب. فلعلّ المعيار الذي يؤكّد بجلاء أهمّيّة الجناس في خلق الموسيقى الداخليّة في النصّ الأدبي وبناء ما بين ألفاظه من وشائج النَّغمةِ هو أن يتساوق الجناس مع سائر ألفاظ النصّ متلائماً معها في موسيقى أجراس الحروف ومتجاوباً في تعاطف مع أصداء أبنيتها.

والجناس من محاسن اللفظ، ويقع في كلام البلغاء مطبوعاً من غير تكلّف، فيحسن ويبدع لفظاً ومعنىً، وهو من صميم البلاغة بشرط أن يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحّة المعنى وسداده.

---

١. انظر: البلاغة والتطبيق، ص٤٥٥.

٢. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٤٤ و ٤٥.

والجناس ـ كما بيّنّا سابقاً ـ لم يخرج من نظريّة «داعي المعاني» و«تداعي الألفاظ» في علم النفس، وله أصله في الدراسات النفسيّة. فالألفاظ متّفقة كلّ الاتّفاق أو بعضه في الجرس، وهناك ألفاظ متقاربة، أو متشابكة في المعنى بحيث تذكّر الكلمة بأُختها في الجرس، وأُختها في المعنى، وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع الجناس للشاعر دون معاناة إذا كان مُلِمّاً بلغته، حسّاساً لها،ومتذوقاً طعمها، عالماً بتصاريفها واشتقاقها.

فالدارس يعرف لغة أنّ «الخريق» هو الصحراء الواسعة، ويعرف أنّ الناقة التي تخرق الأرض أي تقطعها تسمّى «خرقاء»، وهذه المعرفة للشاعر تدفعه إلى الجناس في لين وسهولة فيقول:

واقْطَعُ الخَرْيقَ بالخَرْقاءِ لا هية ... إذا الكواكب كانت في الدنا سرجا

و«جرير» الذي يعرّف أُسرة خصمه «الفرزدق» ويعرّف من بين أجداده «عقال» و«حابس» فيعبث بصاحبه حين يراه مكتوفاً لا تجري يداه بندىً ويُجرى لسانه بجناس طيّع ليّن ويقول:

فما زال معقُولاً عِقالُ عن الندى ... وما زالَ محبوساً عن المجد حابِسُ

و«الفرزدق» يعرّف «خُفاف» ويريد أن يهجوه فيذكر اسمه بالخفّة، وهو يعلم أنّ أثقل السحب أرجاها للخير، وأنّ السحابة إذا خفّت جفّت، فيدعو على غريمه بأن يخفّ اللّه السحابة العارضة في رَبعِه، وأن يبدله بالساقيات السافيات الحواصب فيقول:

«خفاف» أخفّ اللّه عنه سحابه ... وأوسعه من كلّ ساف وحاصب

وكذلك فَعَل أوس بن حجر حين جعل لفظ «التحية» و«الحى» متجانسين ليثير في النفس مواطن الشوق والذكريات الحميدة بقوله:

قد قلت للركب لولا أنّهم عجلوا ... عوجوا عليّ فحيّوا الحيّ أو سيروا

ومن ألطف ماجاء من التجنيس وأحسنه في كلام العرب قول القطامي:

كنية الحيّ من ذي القيض فاحتملوا مستحقبين فؤاداً ماله فاد

وإنّما جانس لفظي «الفؤاد» و«فاد» ليس من أجل إفادة المعنى هنا وإنّما من أجل تقوية جرس الفؤاد المأخوذ في ركائب الراحلين[١].

وهذا الأمر النفسي الهامّ ليس مختصّاً بالنظم، بل يشركه النثر أيضاً، والأعرابي يعرّف كلمة «وجه» وكلمة «وجيه» أو ماشابههما في اللفظ أو في المعنى فإذا ذكرت له إحداهما خطرت بباله الأخرى خطوراً طبيعياً أساسه الربط أو التداعي أو الجرس، ولذلك يقول واصفاً عباداً بليل: «ما تراهم إلّا في وجه وجيه».



١. انظر: جرس الألفاظ، ص٢٧٨.

السجع

هو توافق فاصلتي الفِقْرتين، أو فواصل الفِقْرات في الحرف الأخير وقد تكـون الفقرة الواحدة متكوّنة من كلمات مختلفة، ولكنّها متفقة في الحرف الأخير، فينشأ إيقاع متردّد في تلك الكلمات، داخل تلك الفقرة، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1].

فكلمتا: «الأَبرار» و«الفُجّار» مسجوعتان، وكذلك كلمتا: «نعيم» و«جحيم»، إلّا أنّ الأخيرتين فاصلتان موزونتان، تؤذنان بانتهاء المعنى، وانتهاء النغمة.

فالسجع ـ إذن ـ وصف لظاهرة صوتيّة (إيقاعية). والفاصلة: وصف للحدّ الذي يفصّل بين جملة انتهى معناها، وأُخرى ابتدأ معناها، وطاقات الإيـقاع المـوسيقى لا تتجلّى إلّا في التركيب، فتظهر في «الفاصلة»[2]، وتظهر في الكلمتين المسجوعتين داخل السياق.

ولا ضير ولا غضاضة من أن نصف القرآن بأنّه من النوع الإيقاعي الذي تنتظم فيه الأصوات والتعابير بشكل خاصّ، بحيث تبعث الإثارة، والإمتاع، والإحساس

---

١. الانفطار: ١٣ و ١٤.

٢. الفواصل أعمّ من السجع؛ لأنّ الفواصل منها ما يكون متماثل الحروف في المقاطع، فيكون سجعاً سواء كان متماثلاً في رسم الحروف أو في الإيقاع الصوتي بين الحرفين المتقاربين في المخارج، مثل «الرحيم» و«الدين» وغيرهما. وقد تأتي الفواصل غير مسجوعة.

بالجمال عند المستمع، فتذيب العقل وتصهره، وتتجاوز إلى العالم الذي تكون فيه الحقائق أنغاماً ورؤياً عارية. فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، لسان موسيقي تستمتع الأسماع بنغمات كلماته، وتخضع مقاطعه في تواليها لنظام خاص يراعيه الناظم مراعاة دقيقة، ويعمد إليها عمداً، ولا يحيد عنها في شعره، وتتردّد في كلماته مقاطع يعيها، فتستريح إلى تردّدها الآذان،وتلك هي التي تسمّى بالقوافي، وكلّ هذا يكسب الكلام جمالاًوكمالاً. والجمال في أُسلوب القرآن سببه هو أنّه جاء متناسق المقاطع، حتى ليصلح أنْ يضمن في شعر الشاعر دون مشقّة أو عنت.

واختلفت أنظار العلماء إلى السجع، ومثار الخلاف ما رويَ عن النبيّ ﷺ لمّا سمع: أأدِي لمنَ لا شَرِبَ، وَلا أكَلَ، ولا نَطَقَ، ولا اسْتَهَلَّ، وَمثل ذلِك يُطلّ؟ قالﷺ: «أسَجْعَاً كَسَجْعِ الكُهّان؟» أي: أتَتَّبِع سَجَعاً كَسَجَعِ الكُهّان.

وقد أوضح الجاحظ علّة النهي في زمن النبيّﷺ بقوله: وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أنّ كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة، وأنّ مع كلّ واحد منهم رئيساً من الجنّ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع... قالوا: فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية،ولبقيتها فيهم،وفي صدوركثير منهم، فلمّا زالت العلّة زال التحريم[١].

وهذا ما أكدّه ابن الأثير بقوله: «إنّ النهي لم يكن عن السجع نفسه، وإنّما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع»[٢].

وجاء عنه كذلك في المثل السائر قوله: «وإنّما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن فقالﷺ: «أسَجْعاً كَسَجْعِ الكُهّان؟» أي أحكماً كحكم الكهّان»[٣].

---

١. البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٨٩ و ٢٩٠.

٢. المثل السائر، ج ١، ص ١٩٦؛ الطراز، ج ٣، ص ٢٠.

٣. أي إنّ ذلك الرجل أراد أن يبطل حقاً فاستخدم الكلام على هيئة السجع لما كانت هذه الهيئة ممّا يؤثّر في النفوس، ولو أنّه استخدم مثل هذا الأُسلوب في إثبات حقّ أو نشر فضيلة لما كان عليه نكير.

أي إنّهﷺ: علّل الاستنكار بما عرف في سجع الكهان من التكلّف، وأنّ النبيّﷺ كان ربّما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ، واتّباع الكلمة أخواتها: كقوله: «أُعِيذُهُ مِنَ الهامَّةِ والسَّامّةِ وَكُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ». وإنّما أراد مُلِمّة؛ لأنّ الأصل فيها من ألَمّ فهو مُلِمّ[١].

ويجب أنْ نتذكّر الفرق الهائل بين السجع الكائن في القرآن، والسجع الذي كان متداولاً في الجاهليّة؛ فإنّهما قد يتّفقان في ظاهر الصورة، ولكن استعمال السجع القرآني كانت له قداسته التي أحلّته في النفوس محلّ الإعجاز الذي يتطاول إليه التقليد. هذا من نحو، ومن نحو آخر كانت له خصائصه العميقة التي تميّزه عن سجع الجاهلية، وكان يهدر رافعاً عقيرته بهذا النضال في سبيل الفكرة، ومعبّراً عن ثورة الروح، وعن تطلّعها إلى الإيمان، وكان غرضه التسامي فوق كل اعتبار أسلوبي آخر، وكان في حدود تعبير الأستاذ بروكلمان وملاحظته العميقة: «جديداً لا في طابعه الإيقاعي السهل المناسب، بل فيما حواه من كفاح الروح...»، وهنا يكمن مصدر جدته، التي كانت من قوة الفكرة، وعنف الكفاح، وصفاء الروح التي وراءها، بحيث تُنسي المصغي إليه هذه الصورة الخارجية، وتجعل اتّصاله مقصوراً على المعنى الذي ينفجر فيها، كما تبدي صفاء الماء وروقه الآنية الكائنة تحته.

لقد استمد معظم الأُدباء من إيقاعات القرآن وموسيقاه، للتعبير عن حالتهم الشعوريّة لما اكتشفوه من العلاقة بين الحالة الشعوريّة والانفعالات النفسيّة التي يحياها الشاعر أو الناظم، وبين النغم والأصوات. فالربط بين القافية والدلالة النفسية جذب أنظار كثير من المحدّثين، فألحّوا عليه حتى بات عندهم شبه نظريّة أو قاعدة يرجعون إليها في أحكامهم على الشعراء، وغيرهم، في اتّجاهاتهم الوجدانيّة.

وقديماً أدرك أفلاطون أنّ صحّة الإيقاع أو فساده ينتجان عن حسن الأُسلوب،

---

١. وكذلك قولهﷺ: «ارجعْنَ مأزُوراتٍ غيْرَ مأجُوراتٍ» وإنّما أراد مَوْزُورات من الوِزْر، فقال: «مأزورات» لمكان مأجورات، طلباً للتوازن والسّجع، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع. انظر: المثل السائر، ج١، ص١٩٦.

أو قبحه، وأنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين الإيقاع والطبيعة الصالحة، فوجوده في الأثر الفنّي دلالة على السجيّة الأدبيّة الشريفة، والخلق الحميد، «وفقدان الجزالة والإيقاع واللحن، حليف الأُسلوب الفاسد، والخلق الرديء، أمّا وجـودها، فـحليف الخـلق الحميد، أي الشجاعة، والرزانة، وإعلان له»[١]. وهذا يعني بوضوح أنّ القـدماء مـن الفلاسفة والحكماء أدركوا أهمّيّة الإيقاع في الدلالة النفسيّة، وتنبّهوا إلى كونه صورة صادقة للدخيلة التي يخفيها الإنسان.

فلمّا نزل القرآن في العصر الجاهلي، وكانت البلاغة قد بلغت مبلغها فيما يمثّل أدبهم من صياغة موسيقيّة، سواء أكان ذلك في شعرهم، أم في نثرهم. وقد عـرفوا مدى تأثير النغمة الكاملة في السمع معرفة تامّة، وكيف كانت القلوب خفّاقة إليها، حتى بلغت عندهم من كمال الألحان مبلغاً عظيماً، والقرآن الكريم قـد أخـذ هـذا الجانب الإرثي بنظر الاعتبار حيث امتلأت النفوس بعباراته بصنوف مـختلفة مـن الإيقاع المدهش الذي استطاع به أن يـخاطب النـفوس عـلى اخـتلاف مشـاربها واتّجاهاتها، فأثارت فيها أسمى العواطف، حـتى كـأنّ الإيـقاعات تـعدّ اهـتزازات صوتيّة وموجات موسيقيّة، بحيث كانوا لا يميّزون بينه وبين السحر، وكأنّهم شعروا أنّ فيه شيئاً خارقاً، وليس هذا الشيء إلّا ما كان يحمله من إيقاعات منتظمة يحدث انتظامها التامّ فيهم نفس الانفعال الذي يحدثه السحر.

لقد كان للسجع منزلة سنيّة عند العرب في الجاهليّة، وكان يغمر كلامهم لما فيه من سلامة الطبع، وقوّة السليقة، ووضوح الفطرة، ولهذا السبب كان الكهّان يقصدونه، مصرّين عليه عامدين له للتمويه على أحكامهم ومناجاة آلهتهم وتقييداً لحكـمهم، وذلك للتأثير في النفوس؛ لما يحدثه من النغمة المؤثّرة، والموسيقى القـويّة التـي تطرب الآذان لها، وتهشّ النفوس، فيغفل العقل عن تمييز الصحيح من الزائف، ويلهو

---

١. جمهورية آفلاطون، ص٩٣.

الفكر عن تمحيص الحقّ من الباطل. وكذلك ما وجده المتنبّئون في زمن الرسول من قمة سموّ القرآن في التعبير، وما يؤثّر به على الأسماع، وما يفيضه سحراً، ويقطر عذوبة حتى أرادوا أن يجاروه، ليستخفّوا قومهم بإطلاق الاسجاع المتكلّفة، على نقيض ما نجده في القرآن الكريم الذي قدّم نموذجاً جديداً يختلف كلّ الاختلاف عن أساليب الكهنة وأراجيف المتنبّئين قبل الإسلام، وقد تمثّل ذلك بأجلى بيان في أُسلوب الرسولﷺ، والإمام عليّ بن أبي طالبعليه السلام، وهي نماذج عالية من الأدب العربي.

وظلّ أُسلوب الأدب العربي منطلقاً إلى غايته يزاوج بين الأداء والامتاع، ويجمع بين الإيجاز والمضمون، حتى بدأ هناك انحراف واضحٌ عن الأُسلوب القرآني الأصيل في روحه العامّة. فقد طرأ تحول في أُسلوب النثر وانتقل من ميدان الأداء نحو السجع الذي يعني حشداً من الزينة، والحليّ، ومجموعاً من ألوان البديع، والترصيع، وصنوفاً من العبث بالألفاظ، واللعب بالكلام، والتقطيع والتوصيل بين أجزائه وأطرافه.

إنّ سجعاً كهذا كان بمثابة انتكاسة إلى الوراء؛ لأنّه كان سجعاً كسجع الكهّان، لاكسجع القرآن، وأنّ ابن المقفع كان خير من يمثّل هذا الاتّجاه روحاً ونصّاً، وسار على خطاه عبد الحميد باشاعة الزخرف في أُسلوب الكتابة مع قدر غير قليل من التصنّع. كما أسرف في استعمال الازدواج إسرافاً كبيراً، وأصبح عنده غاية تقصد لذّاتها. ثمّ جاء ابن العميد، فانحرف عن السجع الأصيل، فأغرى البديع من جناس وطباق، فأصبح النثر على يده تطريزاً، وترصيعاً، وزخرفاً. وجاء تلميذه الصاحب بن عبّاد، فسار على منهج صاحبه، وازداد ولوعاً بالسجع إلى حدّ الإفراط فيه، وكان ذلك مقدّمة لبديع الزمان في المقامات، وهو فنّ مصطنع قائم على التأنّق اللفظي، حيث الإغراق في السجع، والإسراف في البديع من جناس وطباق، والإفراط في المقابلة والموازنة، فأضحى السجع ليس عملاً طبيعياً، بل عملاً إرادياً محضاً متكلّفاً،

واضح التكلّف، مصنوعاً بيّن الصنعة، وأنّ ذلك أدّى إلى انتقاص في المعاني، وتآكل في أطرافها شيئاً فشيئاً على مدار الثقافة الإسلامية ومراحلها.

وجاء العهد العثماني، حيث جمود الأذهان، ونضوب القـرائـح بسـبب ضـعف الثقافة، وقصور مدى الاطّلاع، فأرادوا أنْ يغطّوا هذا القصور بستار مـن الزخـرف اللفظي، والزينة الشكلية، فأفرط بعضهم في استخدام أنواع البديع في نثره ونظمه، ولم يولوا المعاني والخيال حقّهما من الاهتمام، وعمق النظر، فجاءت أكثر معانيهم وأخيلتهم تافهة سقيمة، حتى صار أدبهم خالياً من روعة المعاني والصور، مقفراً من بدائع الصناعات، حافلاً بضروب من المبالغة والتهويل.

وعلى الرغم من ذلك كلّه ظهر بين حين وآخر كتّاب، وشعراء، وأُدباء، كانت لهم مع التزامهم البديع، فـطرة سـليمة، وروح خـفيفة، تسـتر آثـار التكـلّف، وتـصلح ما أفسدته الصنعة البديعيّة، وتحرّر بعضهم من هذه القيود، كصفي الدين الحلّيّ، الذي كان من هواة البديع المولعين به، والمبالغين فيه، ولكنه بريء من التكلّف الممقوت، وسلمت عباراته من الثقل، واتّسمت بالسهولة، والرقّة وتناسق الألفاظ.

وظلّ كذلك حتى أظلّنا عصر النهضة الحديثة، وهي من أزهى العهود وأقـومها وأوفاها نشاطاً وقوّة متسامية في الصعود إلى أهدافها العليا، فـظهرت الدعـوة إلى تحرير النثر من تحت سنابك تلك الزخارف الممقوتة، وتفاهة المعنى، وسقم الخيال، واستجاب لها بعض الأُدباء، فآثروا أُسـلوب التـرسّل، خـاصّة فـي المـوضوعات الاجتماعية، أمّا الموضوعات الأدبية فقد ظلّ كتابها يميلون إلى التأنّق في العبارة، ويلتمسون السجع والبديع، دون إهمال للمعاني، أو تكلّف للألفاظ. فـالتزموا قـوّة الفكرة واعتمدوا على الحجّة الناصعة، والدليل المقنع، ونال الأدب حظّاً محموداً من العناية، واتّجهت حركة النهضة والتقدّم إلى الآداب، كما اتّجهت إلى العلوم.

شروط السجع الحسن

قال ابن الأثير: السجع يحتاج إلى أربع شرائط:

اختيار مفردات الألفاظ، وحسن التأليف بينهما، وكون اللفظ تابعاً للمعنى لا العكس، وكون كلّ فقرة من الفِقَر دالّة على معنى يخالف ماتدلّ عليه الأخرى، وإلّا كان تطويلاً كقول الصابي:

«الحمدُ للّه الذي لا تدركه الأعين بألحاظها، ولا تَحُدُّهُ الألسن بألفاظها، ولاتخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها، والصلاة على من لم يرَ للكفر أثراً إلّا طَمَسَه ومَحاه، ولا رسماً إلّا أزاله وعَفّاه».

إذ لا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، ولا بين مَحْوِ الأثر وإعفاء الرسم.

وقول الصاحب بن عباد في قوم مهزومين:

«طارُوا واقينَ بِظُهُورِهِمْ صُدُورَهُم، وبِأَصْلابِهِمْ نُحُورَهُمْ».

لا يعد سجعاً حسناً لعدم اختلاف قرينتيه في المعنى؛ لأنّ أصلابهم بمعنى ظهورهم، ونحورهم، بمعنى صدورهم[1].

أنواع السجع:

١. القصير، وهو ما كان مؤلّفاً من ألفاظ قليلة[2]، وكلّما أمعنت في القلّة كان أفضل،

---

١. انظر: المثل السائر، ج ١، ص ٢٠٣؛ أنوار الربيع، ج ٦، ص ٢٥٢؛ التبيان، ص ٥٠٥.

٢. انظر: الطراز، ج ٣، ص ٢٥؛ التبيان، ص ٥٠٤؛ الايضاح، ص ٢٩٧.

وأقلّ القصير ماكان من لفظتين وينتهي الأقصر إلى تسع كلمات وما زاد على ذلك تطويل.

وقصر الفقرات تدلّ على قوّة التمكّن وأحكام الصنعة[١] كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[٥].

وأمثال ذلك في الكتاب العزيز كثير وخاصة في السور المكيّة.

وقول الرسول الأعظمﷺ: «الاستحياءُ مِنَ اللّهِ أنْ تَحْفَظَ الرأسَ وما وَعَى، والبَطْنَ وما حَوَى، وتَذْكُرَ المَوْتَ والبِلَى، وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الحياةِ الدُّنْيا».

وقولهﷺ:[٦] «ألا وإنّ من علاماتِ العقلِ التجافي عن دارِ الغُرور والإنـابة إلى دار الخلودِ والتزوّد لسكنى القبور، والتأهّب ليوم النشور»[٧].

وقولهﷺ: «اللّهُمَّ آتِ نفسي تـقواهـا، وزَكِّـها أنتَ خـيرُ مـن زكّـاها، وأنت ولـيُّها ومولاها»[٨].

وقولهﷺ: «اللّهمّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً،ومُمْسِكاً تَلَفاً»[٩].

---

١. حسن التوسل، ص ٢١٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٠٧.

٢. المدّثر: ١ ـ ٥.

٣. المرسلات: ١ ـ ٥.

٤. الواقعة: ٢٨ ـ ٣٠.

٥. العاديات: ١ ـ ٥.

٦. الحديث في المثل السائر، ج١، ١٩٦؛ التبيان، ص ٥٠٤.

٧. الطراز، ج٣، ص ٣٠.

٨. الاذكار للنووي، ص ٣٣٥.

٩. النهاية، ج٢، ص٦٦؛ حسن التوسل، ص٢٠٩؛ التبيان للطيّبي، ص٥٠٣؛ انوار الربيع، ج٦، ص ٢٥٠، والسجع فيه متوازٍ لاتّفاق الفاصلتين «خلفاً وتلفاً».

وقوله ﷺ: «رَحِمَ اللّهُ عَبْداً قال خَيْراً فَغَنِمَ، أو سَكَتَ فَسَلِمَ»[١].

ومن خطبة للإمام عليّ ﷺ وتسمى «الغرّاء» يقول فيها:

«عبادَ اللّهِ، أينَ الذينَ عُمّرُوا فَنَعِمُوا، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا! أُمْهِلُوا طَوِيلاً، وَمُنِحُوا جميلاً، وَحُذِّرُوا أَلِيماً، وَوُعِدُوا جَسِيما! احْذَرُوا الذُّنُوبَ المُوَرِّطَةَ، والعُيُوبَ المسخِطَةَ.

أُولي الأبصارِ والأسماعِ، والعافيةِ والمتاعِ، هل مِنْ مناصٍ أو خلاصٍ، أو معاذٍ أو ملاذٍ، أو فِرارٍ أو محارٍ! أم لا؟ ﴿فأنّى تُؤفكونَ﴾! أم أينَ تُصْرَفُونَ! أم بماذا تَـغْتَرُّونَ! وإنّما حظُّ أحَدِكُم من الأَرضِ، ذاتِ الطولِ والعرضِ، قيدُ قَدِّهِ، مُتَعَفِّراً على خدِّهِ! الآن عِبادَ اللّهِ والخِناقُ مُهْمَلٌ، والرُّوحُ مُرْسَلٌ، في فَيْنَةِ الإرشادِ، وراحةِ الأجسادِ، وباحةِ الاحتشادِ، ومَهَلِ البقيّةِ، وأُنُفِ المشيّةِ، وإنظارِ التوبةِ، وانفِسَاحِ الحَوْبَةِ، قَبْلَ الضَّـنْكِ والمضيقِ، والروعِ والزهوقِ، وقَبْلَ قُدُومِ الغائبِ المُنْتَظَرِ وإخْذَةِ العَزِيزِ المُقْتَدِرِ»[٢].

وقوله ﷺ في إحدى خطبه: «فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أهْبَتَها، وأعِدُّوا لَهَا عُدَّتَها، فَـقَدْ شَبَّ لظَاهَا، وعلا سَناها، واسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ، فإنَّهُ أدعَى إلى النَّصْرِ»[٣].

ومن حكمه وأمثاله المسجوعة: «صِحَّةُ الجَسَدِ مِنْ قِلَّةِ الحَسَدِ»[٤].

و «في تَقَلُّبِ الأحْوالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجال»[٥].

و «من كَسَاهُ الحياءُ ثَوْبَهُ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ»[٦].

---

١. البلاغة الواضحة، ص ٢٧٢ و ٢٧٣.

ويسمّى هذا السجع ـ عند البعض ـ كما في هذا الحديث، بالسجع الصامت، وهو ما اتّفق أواخر الكلمات في الحروف الصامتة ويمكن أن يحلّ هذا النوع من السجع محل القافية في الشعر الانجليزي والفرنسي الحديثين.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.

٣. ن. م، الخطبة ٢٦.

٤. المصدر، الحكمة ٢٥٦.

٥. الحكمة، ٢١٧.

٦. المصدر، الحكمة ٢٢٣.

و «ما أَنْقَصَ النَّوْمَ لِعَزائِمِ اليومِ»[١].

و «ضَعْ فَخْرَك، واحْطُطْ كِبْرَكَ، واذْكُر قَبْرَكَ»[٢].

و «التوحِيدُ ألّا تَتَوَهَّمَهُ والعَدْلُ ألّا تَتَّهِمَهُ»[٣].

و «يَغْلِبُ المِقْدارُ على التقدير، حتى تكونَ الآفَةُ في التدبير»[٤].

و «ما لابنِ آدَم والفَخْرِ: أوَّلُهُ نُطْفَةٌ وآخِرُهُ جيفَةٌ، ولا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَهُ»[٥].

وقال أعرابي لابنه وسمعه يَكْذِب: يا بنيّ، عجبتُ من الكذّاب المُشِيد بكذبه، وإنّما يدلُّ على عَيْبِه، ويتعرّضُ للعتاب من ربّه، فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادّة، إن قال حقّاً لم يُصَدَّق، وإنْ أراد خيراً لم يوفّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدالّ على فضيحته بمقالِه، فما صحّ من صدقه نُسِبَ إلى غيره، وما صحّ من كذب غَيْرِهِ نُسِبَ إليه[٦].

ومنه ما يكون مؤلّفاً من ثلاثة ألفاظ أو أربعة أو خمسة، وينتهي إلى تسع كلمات أو إلى عشر[٧].

فممّا طالت قرينته الثانية قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[٨].

فهاتان قرينتان ثانيتها أكثر عدداً من الأولى.

١. المصدر، الحكمة ٤٤٠.

٢. المصدر، الحكمة ٣٩٧.

٣. المصدر، الحكمة ٤٧٠.

٤. المصدر، الحكمة ٤٥٩.

٥. المصدر، الحكمة ٤٥٤.

٦. زهر الآداب، ج٢، ص٤٧٦.

٧. حسن التوسل، ص ٢١٣؛ عقود الجمان، ج٢، ص١٥٧.

٨. النجم: ١ ـ ٢.

وكقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[١].

وكقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[٢].

وكقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[٣].

فقوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ قرينة ثالثة، وهي أطول من سابقتها.

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[٤].

قرينة رابعة جاءت أطول من سابقتها.

على أنّه لا يحسن أن يؤتى بالقرينة الثانية أو الثالثة أقصر من سابقتها؛ لأنّ السجع قد استوفى أمده في الأُولى، فإذا جاءت الثانية أو الثالثة أقصر، بقي الإنسان عند سماعه بمثابة من يريد الانتهاء إلى غاية، فيعثر دونها.

ويحسن أن يؤتى بالقرينة الثانية والثالثة طويلة لئلّا تبعد القافية عن سمع السامع فيقلّ الالتذاذ بسماعها، فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضرّ تساوي القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة عليها، وإن زادت الثانية على الأولى يسيراً والثالثة على الثانية فلابأس؛ ولكن ينبغي أن لا يكون أكثر من المثل ولابدّ من الزيادة في أواخر القرآئن مثاله في القرينتين:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[٥].

---

١. القمر: ١ـ٣.

٢. الأعلى: ١ـ٧.

٣. الحاقة: ٣٠ـ٣١.

٤. الحاقة: ٣٢.

٥. مريم: ٨٨ـ٩٠.

ومثاله في الثلاثة:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[1].

٢. الطويل، وتتفاوت درجاته في الطول، فمنه ما يتألّف من إحدى عشرة لفظة، ومنه ما يصل إلى عشرين لفظة.

ومثال ماتبلغ ألفاظه إحدى عشرة لفظة قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً * ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[2].

ومثال ماتبلغ ألفاظه ثلاث عشرة كلمة قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ * عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3].

ومثاله من عشرين لفظة قوله تعالى:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[4].

أثر الفاصلة في القرآن الكريم في خروج نظم الآية عن مقتضى الظاهر

سبق وتقدّم أنّ الفرّاء والزمخشري يذهبان إلى أنَّ بعض النظم القراني قد يخرج من مقتضى الظاهر في التركيب اللغوي؛ مراعاة للفاصلة، وتبعهم في ذلك السيوطي

١. الفرقان: ١١ـ١٣.

٢. هود: ٩ و ١٠.

٣. التوبة: ١٢٨ و ١٢٩.

٤. الأنفال: ٤٣ و ٤٤.

حين نقل في كتابه الاتقان عن كتاب إحكام الرأي في أحكام الآي لشمس الدين ابن الصائغ (ت٧٧٦هـ.ق): خروج نظم الآية من المألوف بسبب الفاصلة، وقد رصد ابن الصائغ أربعين خروجاً من مقتضى الظاهر[١]، ونحن بدورنا لا نريد أن نحصي جميع ما قالوه، ونردّ عليه بقدر ما نريد أن نضع بعض الأمثلة، لتكون هناك فكرة واضحة على أنّ المعنى هو الذي فرض الخروج من مقتضى الظاهر، وكانت الفاصلة نتيجة من نتائج الوفاء بالمعنى.

نحو قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[٢].

فإنّك تجد أنّ الصفة البلاغية فيها أنّ «المقابر» أوثرت على القبور، ففي لفظ «المقابر» دلالة على السعة، والعموم، والشمول، لا يمكن أنْ يقوم بها لفظ «القبور» -جمع قبر- فبقدر ما بين القبر والمقبرة من تفاوت يتجلّى البيان القرآني في إيثار المقابر على القبور، حيث يتحدّث عن غاية ما يتكاثر فيه المتكاثرون على مَرّ العصور والأجيال.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣].

فالتقديم ليس لمجرد الفاصلة، بل لرعاية الاختصاص أي التقديم كان لأهمّيّة مايُوقن به المرء في الدرجة الأولى، ويأتي ترنيم الواو والنون في الدرجة الثانية.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[٤].

لم يُعدل عن الكريم إلى الأكرم لمجرّد رعاية الفاصلة، ولم يكن يقصد بها المفاضلة بين أكرم وكريم، على ما تأوّله المفسّرون، فالغاية من صيغة «افعل» هي أبعد مايكون من التصوير. فهي مصوغة للدلالة علىٰ قوّة الاتصاف بالكرم، كما يتضمن صفات الكمال و التنزيه عن النقائص.

---

١. انظر: الاتقان، ج٣، ص٣٣٩.

٢. التكاثر: ١ و ٢.

٣. البقرة: ٤.

٤. العلق: ٣ و ٤.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ... ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾[1].

لم يكن المراد من التثنية في الآية وعدول القرآن إليها مراعاة للنظم ـكما ذهب إليه الفرّاء ـ بل سياق الآية قبلها وسياق الآية بعدها على التثنية، وواضح أنّ المراد بالآية، ولمن خاف مقام ربّه، من الانس والجانّ جنّتان.

وفي قوله تعالى:﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۞ وَإِنَّ لَنَا لَلْأَخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾[2].

ليس القصد إلى رعاية الفاصلة هو وحده الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى، وإنّما اقتضاه المعنى أوّلاً، في سياق البشرى والوعيد؛ إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشدّ وأخزى. كما قدّمت الآخرة علـى الأولى فـي سـياق الوعـيد لفرعون في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[3].

وفي قوله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السحرة في سورة طه ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[4]، مع أنّ غيرها من الآيات قدّم فيها موسى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[5].

فسورة طه هي السورة الوحيدة التي حدّثتنا عما أحسّ موسىؑ بعض الخوف من هول المفاجاة من أن يعرض للناس ويختلج في خواطرهم شكّ وشـبهة فـي معجزته، وكان حرياً به أن لايبدر منه ذلك، فهارون أولى بالخوف من موسىؑ؛ لأنّه لم يشاهد ماشاهده موسى، ولم يشرف بمناجاة الحقّ، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[6]. فكـان حـرياً أن يكـون رابـط الجأش والجنان.

---

١. الرحمن: ٤٦ و ٤٨.

٢. الليل: ١٢ و ١٣.

٣. النازعات: ٢٤ و ٢٥.

٤. طه: ٧٠.

٥. الشعراء: ٤٨ و ٤٩.

٦. طه: ١٧ و ١٨.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1].

قد ذكر النيسابوري: أنّ حذف المفعول (وهو ضمير الخطاب ـ أعني الكاف المحذوفة ـ في قلا) هو لرعاية الفاصلة مع أنّه من المقبول أن يقوم البيان القرآني على اعتبار لفظي محض، وإنّما الحذف لاقتضاء معنوي بلاغي، يقوّيه الأداء اللفظي، دون أن يكون لحاظ الشكل هو الأصل، ولو كان البيان القرآني يتعلّق بمثل هذا، لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحى:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]. والقول بأنّ الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف ولما تقتضيه الحسّاسيّة المعنويّة المرهفة الدقّة في اللطف والايناس، وهي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفىٰ في مقام الإيناس لكلمة: «ما قلاك»، لما في القلى من الطرد والإبعاد، وشدّة البغض، أمّا التوديع، فلا شَيء فيه من ذلك، بل لعلّ الحسن اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة[3].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ * قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[4].

قد يظنّ ظانّ عند النظرة الأولى في الآيات السابقة أنّ القرآن يحافظ على النغم «الايقاعي»، والنظام السجعي فقط، حيث يقول: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، وإلّا لقال مثلاً: «إما تُلقي وإمّا أن نُلقي».

---

١. الضحى: ١ ـ ٣.

٢. الضحى: ٩ ـ ١١.

٣. انظر: تفسير البيان للقرآن الكريم، ص ٣٥.

٤. طه: ٦٣ ـ ٦٦.

والحقّ أنّ الآية بوضعها الذي جاءت عليه قد بلغت في السمو القولي غايته، فهي بوضعها القائم تشير إلى ما كان يختلج في نفوس هؤلاء السحرة من نشوة النصر، واعتقاد جازم بهزيمة موسى وأخيه، ومن هنا كان إلقاء موسى عصاه وعدم القائها سواء، بالنسبة إليهم، وكذلك إلقاء حبالهم وعصيّهم وعدم إلقائها. فإذا زدنا بعد ذلك محافظة القرآن على النسق في الفاصلة حتى يَطّرِد النظم، كان غاية في دقّة النظم، وتمكّن الفاصلة.

ومن هنا كان التعبير القرآني قمة السموّ في التعبير بخلاف ما لو قيل: «إمّا أن تلقى وإمّا أَن نلقي»، فهو فضلاً عن عدم اطّراد النظم، ومخالفة الفاصلة لما قبلها ولما بعدها، فإنّ فيه ما يشير إلى عوامل الشكّ، والقلق الذي ينتاب السحرة من نتيجة الإلقاء[1].

وثمّة فواصل تحسبها النظرة السطحية زائدة عن المعنى، وأنّها أضيفت لأجل مراعاة النسق الموسيقي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾[2].

يقول المصري: فإن قيل: فما معنى ﴿مُدْبِرِينَ﴾؟ وقد أغنى عنها قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ﴾ قُلت: لايغني عنها قوله: ﴿وَلَّوْا﴾ فإنّ التولّي قد يكون بجانب دون جانب، وبدليل قوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[3]، أراد تتميم المعنى بذكر تولّيهم في حال الخطاب، لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإنّ الأصمّ يفهم بالإشارة مايفهمه السميع بالعبارة، ثمّ اعلم أنّ التولّي قد يكون بجانب من المتولّي، فيجوز أن يلحظ بالجانب الذي لم يتولّ به[4].

فالقرآن يوغّل في المعنى وفي رسم المشاهد حتى يكون التصوير واضحاً للعيان

---

١. البديع في ضوء اساليب القرآن، ص١٥٢.

٢. النمل: ٨٠.

٣. الإسراء: ٨٣.

٤. تحرير التحبير، ٢٣٤.

ومؤثّراً بشكل أقوى[١].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[٢]، للاشعار بغاية شـدّة الحرارة، وبإيهام أنّ تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أنّ ملابستها على العكس، إضافة إلى مانجد أنّ الجلود عُطف على «ما» وتأخيره عنه جـاءت مراعاة الفواصل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾[٣]، فإنّ الفاصلة أضافت إلى غباء الحُمُر ضعفها فهي تهرب من الليث، وهذا يصوّر مقدار إنكار الكفّار وتهرّبهم من الرسالة السماويّة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[٤]، فالفاصلة توحي باستدامـة هـذه النار، والفاعلية تضاف إلى الماهية، وقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[٥]، فهاتان الكلمتان تكمّلان الصورة أمام البصر ولاتدعان للنقص مكاناً إضافة إلى جمال المحافظة على الرنّة الموسيقية.

والبلاغة من حيث هي فنّ القول، لا تفصل بين جوهر المعنىٰ وأُسلوب أدائـه، ولا تعتدّ بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كـما لا تـعتدّ بألفـاظ جميلة تضيع المعنى، أو تجور عليه، ليسلم لها زخرف بديعي.

وهذا هو الحدّ الفاصل بين فنية البلاغة، كما تجلّيها الفواصل القرآنية بـدلالتها المعنوية المرهفة، ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر.

أقسام السجع

وينقسم السجع باعتبار توافق الفواصل وتخالفها إلى ثلاثة أقسام هي:

---

١. جماليات المفردة القرآنية، ص٣٢٢.

٢. الحج: ٢٠.

٣. المدثر: ٥٠.

٤. الليل: ١٤.

٥. الحاقة: ٢٢.

القسم الأول: السجع المطرَّف[١]، وهو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن، واتفقتا في القافية، نحو قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٢].

الوقار: فاصلة من الفقرة الأُولى، والأطوار: فاصلة من الفقرة الثانية، وقد اختلفا في الوزن، فإنّ ثاني «وقاراً» متحرّك، وثاني «اطواراً» ساكن[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[٦].

وقال النبيّ ﷺ في كتاب كتبه لبعض الوفود:

«لا يباح ماؤُهُ، ولايُعْقَر أرْعاؤُهُ»[٧].

وقال ﷺ: «اللّهُم إنّي أعوذُ بكَ مِنْ خَليلٍ ماكرٍ عيناهُ ترياني وقلبهُ يَرْعاني، إنْ رأى حَسَنةً دفنها، وإن رأى سيّئةً أذاعها»[٨].

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «اتّخَذُوا الشَّيطانَ لأَمْرِهِم مِلاكاً، واتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْراكاً»[٩].

الكلام مسجوع، لأنّه مركّب من فقرتين اتّحدتا في الحرف الأخير، وهو الكاف،

---

١. انظر: البرهان، ج ١، ص٧٦؛ الاتقان، ج ٢، ص ١٠٤، و سمّاه ابن القيم في الفوائد، ص٢٢٦و٢٢٧ بـ«المتطرّف». وسمّاه صاحب مفتاح السعادة، ج ٢، ص٥١٧، باسم «المعطوف».

٢. نوح: ١٣ و ١٤.

٣. وبعبارةأخرى: اختلفا في الوزن العروضي؛ لأنّ الأوّل على وزن «فعولن» والثاني على وزن «مستفعل» وإنّما سمّي هذا النوع باسم المطرف! لأنّ الذي وقع به التوافق إنّما هو الطرف، وهو الحرف الأخير.

٤. النبأ: ٦ و ٧.

٥. النبأ: ٢٧ و ٢٨.

٦. المدثر: ٦ و ٧.

٧. المجازات النبوية، ص١٦٤. أي لايُقطع ما فيه من شجر أو كلأٌ إلّا بإذن صاحبه، فشبه ﷺ مايُقطع من الشجر بما يُعقر من الإبل.

٨. مختار الأحاديث النبوية، ص ٣٠.

٩. نهج البلاغة، الخطبة: ٧ـ١.

أي اتّفقتا في القافية ولكن اختلفت فاصلتاه في الوزن[١].

وحسن السجع في هذه الأمثلة لكونها خالية من التكلّف، قوية الأُسلوب.

وقال‌عليه‌السلام ـ لما أظفره اللّه بأصحاب الجمل ـ: «وَلَقد شَهِدَنا في عَسكَرِنا هذا أَقوامٌ في أَصلابِ الرجالِ، وأَرحامِ النساءِ، سَيَرعَفُ بِهِمُ الزَّمانُ، وَيقوى بِهِمُ الإيمانُ»[٢].

بين الزمان والإيمان سجع مطرف.

وقال‌عليه‌السلام لمّا هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية وقد خان بأموال تخص بيت‌المال: «قَبَّحَ اللّهُ مَصقَلَةَ ... ولو أقامَ لأخَذنا مَيسُورَهُ، وَانتَظَرْنا بمالِهِ وُفُورَهُ»[٣].

وقولهم: «من حَسنُتْ حالُهُ استُحسِنَ مُحَالُهُ»[٤].

القسم الثاني: السجع المُرصَّع، وهو أن يكون المتقدّم من الفقرتين مؤلّفاً من كلمات مختلفة، والمتأخّر منهما مؤلّفاً من كلمات مختلفة أيضاً، لكنّها تماثلها في ثلاثة أشياء وهي: «الوزن، والقافية، وتقابل القرائن».

وقد سمّي بهذا الاسم؛ لأنّ ما يُصنع بالقرينتين من تقابل ألفاظهما يشبه ترصيع العقدْ الذي هو جعل إحدى اللؤلؤتين مقابلة للأُخرى

قيل: ولم يجئ من هذا القسم من السجع في القرآن العظيم لما فيه من التكلّف وزعم بعضهم أنّ منه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[٥].

وليس كذلك لورود لفظة «إن» ولفظة «لفي» في كلّ من التركيبين وهو مخالف

---

١. إيراد الفعل الماضي (اتّخذوا، واتّخذهم) دليل على الوقوع وتمكّن الشيطان منهم، وهناك تشبيهان بليغان: الأوّل: شبه اتّخاذهم الشيطان كالمالك لأمرهم بجامع التسخير. الثاني: شبههم بالإشراك وهي المصائد التي تنصب لصيد الحيوانات بجامع الإيقاع.

٢. نهج‌البلاغة، الخطبة ١٢.

٣. المصدر، الخطبة ٤٤.

٤. انظر: الطراز، ج٣، ص١٩؛ التبيان للطيّبي، ص٥٠٢؛ أنوار الربيع، ج٦، ص ٢٥٠.

٥. الانفطار: ١٣ و ١٤.

لشرط الترصيع؛ لأنّ شرطه اختلاف الكلمات في التركيبين جميعاً. واحتجّ آخرون بشاهد يستوفي شروط السجع المُرصَّع، فوطّدوا القاعدة، وهو قوله عزوجل:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[1].

ومن الأحاديث الشريفة قولهﷺ في الخيل: «ظُهُوُرها حِرْزٌ، وَبُطُوُنها كَنْزٌ»[2].

ففي الحديث سجع مرصّع؛ لتوافق ألفاظ كلّ من الفقرتين «ظهورها وبطونها»، وزناً وتقفية، وكذا الفاصلتان وهما «حرز وكنز» متوافقتان وزناً وقافية أيضاً.

وقال عليّ؈: «وَتَفِيضُ اللِّئام فَيْضاً، وَتَغِيضُ الكِرَام غَيْضَاً»[3].

الفاصلتان «فيضاً وغيضاً» متوافقتان وزناً وقافية، وكذلك الفقرتان «اللئام والكرام» في الوزن والقافية، وكذا «تفيض وتغيض».

وقال؈: «أَحْمَدُهُ اسْتِتْماماً لِنِعْمَتِهِ. وَاسْتِسْلاماً لِعِزَّتِهِ»[4].

وقال؈ في كتاب اللّه: «بَيْتٌ لا تُهْدَمُ أركانُهُ، وعِزٌّ لا تُهْزَمُ أعوانُهُ»[5] وقول ذي الرمة:

كَحْلاءُ في بَرجٍ صفراءُ في نَعجٍ ... كأنّها فِضّةٌ قد مَسّها ذَهَبُ

وقول أبي فراس الحمداني:

وَأفعالُهُ بالراغبينَ كريمةٌ ... وأموالُهُ للطالبينَ نِهابُ

القسم الثالث: السجع المتوازى[6]، وهو الذي لاتكون ألفاظ إحدى الفقرتين

---

١. الفاصلة في القرآن، ص١٥ والآية في الغاشية: ٢٥ و ٢٦.

٢. المجازات النبوية، ص١٤؛ حلية الفرسان ٣٤؛ فضل الخيل، ص١٥ «ظهورها» و«بطونها» مسجوعتان بالرغم من وجودهما في السياق، بينما نجد كلمة «حرز» و«كنز» وهما فاصلتان مسجوعتان موزونتان.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨ـ١٦.

٤. المصدر، الخطبة: ٢ ـ ١.

٥. المصدر، الخطبة ١٣٣.

٦. وهو مايقابل المرصّع: سمّي متوازياً لتوازي الفاصلتين ـأي الفقرتين في الكلمتين الأخيرتين ـوزناً وتقفية، أما القرينة ـوهي الكلمة التي تردف الأخيرة ـفلا يشترط فيها الاتّفاق مع القرينة الأخرى في الوزن والتقفية.

ولامعظمها مماثلة لألفاظ الفقرة الأخرى ولامعظمها، فالطابع السائد في ألفاظ الفقرتين هو الاختلاف لا الاتّفاق، وهذا الاختلاف إمّا أن يكون في الوزن والقافية معاً، وإمّا أن يكون في القافية دون الوزن، وإمّا أن يكون في الوزن دون القافية. كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾[١].

والسجع في هذه الآية يكون متوازياً، لاختلاف «سرر» و «أكواب»، في الوزن، والقافية، أمّا الفاصلتان، وهما «مرفوعة» و«موضوعة»، فمتوافقتان وزناً وقافية.

وقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٢].

الفواصل وهي «مخضودٍ، ومنضُودٍ، وممدودٍ» متوافقة وزناً وقافية. وأمّا الفقرات «سدر، وطلح، وظلّ» فتختلف في القافية دون الوزن، فالسجع يكون متوازياً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٣].

وقول النبيّ ﷺ: «اللّهُم إنّي أدرأُ بِكَ في نُحُورِهِم، وأَعُوُذ بِكَ مِنْ شُرُورِهِم»[٤].

السجع في هذا الحديث يكون متوازياً لاختلاف الوزن والقافية بين «أدرأ» و«أعوذ» وكذا بين «في» و«من». أمّا الفاصلتان وهما «نحورهم» و«شرورهم»، فمتوافقتان وزناً وقافية.

وقال ﷺ: «رَحِمَ اللّهُ عَبْداً قالَ خَيْراً فَغَنِم. أو سَكَتَ فَسَلِم»[٥].

وفي الحديث كلام مسجوع، لأنّه مركّب من فاصلتين هما «غنم» و «سلم»، المتوافقتين وزناً وقافية، وعُدَّ متوازياً؛ لاختلاف القرينتين وزناً وقافية.

---

١. الغاشية: ١٣ و ١٤.

٢. الواقعة: ٢٨ و ٣٠.

٣. الأعراف: ٢٠١ و ٢٠٢.

٤. شروح التلخيص، ج٤، ص٤٤٨.

٥. البلاغة الواضحة، ص٢٧٣.

نلاحظ بين الفاصلتين من زاوية المحسّنات المعنويّة طباقاً، كما نلاحظ بين الجملتين مقابلةً، وهذا يعني إنّ العبارة تمتاز بمزايا معنويّةٍ ولفظيّةٍ: فمن المزايا المعنويّة خصائص الطباق، والمقابلة. ومن المزايا اللفظيّة خصائص السجع والجناس.

وقال الإمام عليّ‌‌عليه‌السلام: «كَثْرَةُ الوفاقِ نفاقٌ، وكثرةُ الخِلافِ شِقاقٌ».

وقال‌عليه‌السلام أيضاً: «يَنْحَدِرُ عَنّي السّيْلُ. وَلا يَـرْقى إليَّ الطيرُ، فَسَدَلْتُ دُونها ثوباً، وَطَوَيْتُ عَنْها كَشْحاً» وَطَفَقْتُ أرتاِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذّاءَ. أو أَصْبِرَ على طَخْيَةٍ عَمْياءَ، يَهْرَمُ فيها الكبيرُ، وَيَشيبُ فيها الصِغيرُ ـ إلى قوله‌عليه‌السلام ـ فَصَبَرْتُ وفي الَعْينِ قَذىً وفي الحَلْقِ شَجاً...»[1].

هذا مقطع من الخطبة المعروفة بالشقشقيّة المليئة بالصور البديعيّة، فهو يجاهر بأنّه أَجدرُ المسلمين كافّة بالخلافة: «ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليَّ الطيرُ» فطابق بين، «ينحدر» و«يرقى»، وبين «عنّي» وإليّ، وبين «السيل» و«الطير» وجمع بين طباقين أوّلاً ثمّ جاء بما يقابلهما بعد ذلك.

وكذلك في قوله: «فسَدلتُ دونها ثوباً، وطَويتُ عنها كَشحاً».

وفي قوله: «أصولَ بيدٍ جذّاءَ. أو أصبرَ على طَخيةٍ عمياءَ»، وفي قوله «وفي العين قذىً، وفي الحلق شجاً»، سجع متوازن، ففي الفقرتين الآنفتين نجد اختلافاً بين «يد» و«طخية» اختلاف في الوزن والقافية. أمّا الفاصلتان «قذى» و«شجا» فمتوافقتان وزناً وقافيةً.

وفي عبارة «يهرم فيها الكبيرُ، ويَشيب فيها الصغير» طباق، وسجع مرصّع.

فهناك محسّنات معنويّة أُخرى، كالطباق، والمقابلة، ومحسّنات لفظيّة ـأيضاًـ، كالسجع، والموازنة، والترصيع، ولا يخفى ما للموازنة الموسيقيّة، والمحسّنات

---

١. نهج البلاغة، الخطبة: ٣.

المعنويّة التي جاءت من طباق ومقابلة من الأثر القويّ في تأكيد المعنى، أو في جمال التعبير، فإنّ الانتقال العجيب من المقابلة إلى الموازنة ومن الموازنة إلى السجع ثمّ من السجع إلى ترادف الجمل، من غير تكلّف قد قابلته حالة نفسيّة هي قوّة العاطفة الجائشة التي تعبّر عن نفسها تعبيراً صادقاً أصيلاً، وتصوّر مشاعرها تصويراً دقيقاً، فهي إحساسات، وتجارب ذاتيّة جلاها في ثوب من الخيال الرائع، والإيقاع الهادر، والألفاظ الموحية؛ ليبرز جمالها، ويزيد حسنها، هدفه في كلّ ذلك إثارة العواطف، والتأثير في النفوس ممّا يدلّ على خصب المخيّلة، وعمق نفاذ البصيرة، وهذه الصور الحركيّة، واللمسيّة: والبصريّة بعمقها ودقّتها قد أضافت على هذه المقطوعة من الخطبة ألواناً شعرية جذّابة، وأشاعت فيها الحركة، والقوّة، والحياة.

بلاغة السجع، وأهمّيّة الإيقاع وموسيقى الألفاظ

لقد عنى العرب بمراعاة الكثير من مبادئ علم الجمال في أحكامهم النقديّة، وحَكَّموا الحسّ والذوق في تمييز اللفظ الحسن من اللفظ القبيح نظماً ونثراً، وكان لرقّة حسّهم وحسن ذوقهم أنْ شغفوا بموسيقى الألفاظ نظماً ونثراً وتوخّوا ذلك في رنين القافية، وحاكوا هذا الرنين في سجعهم باعتباره ضرباً من نظم الكلمات وبراعة في ترتيبها وتنسيقها، وأقوى طرق الإيحاء على الإطلاق، وأهمّ العوامل التي توحي بالعاطفة والشعور. ورأوا أنّه لا شيء أوقع في القلوب وأشدّ استلاباً للعقول من الصوت الحسن، فهو طريق السموّ بالأرواح وسبيل التعبير عمّا يعجزون التعبير عنه، فهو يسري في الجسم، ويجري في العروق فيصفو له الدم، ويرتاح له القلب، وتهشّ له النفس، وتهتز له الجوارح، وتخفّ له الحركات، كما أنّ له قيمة كبرى في الإيحاء والتصوير.

ومن هنا كانت عنايتهم الفائقة بالبديع اللفظي، لإرتباطه الوثيق بموسيقى

الألفاظ، لأنّه تفنن في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم وإيقاع، وحتى يسترعي الآذان بألفاظه كما يسترعي القلوب من أجل ما يبعثه من أثر في النفس جعل النقّاد القدماء يقيمون أحكامهم ـ في أحيان كثيرة ـ على مدى ما يبعثه الشعر من أثر نتيجة الوقع الصوتي الذي تمتاز به ألفاظه.

وهذا الاهتمام الزائد كان أحد الدوافع الأساسيّة التي دفعت العرب إلى دراسة الإيقاع والعناية به واتّخاذه هدفاً يضعونه نصب أعينهم ويصبون إليه، وتهفو نفوسهم نحوه، ويتّخذونه أساساً في أحكامهم على الشاعر بالتفوّق أو الامتياز، وجعلوا للسلاسة والانسجام المحلّ الأوّل في كتب النقد، فسمّوا ذلك «حلاوة النغمة» وسمّوه فصاحة سواء كانت في المفرد بأن يكون اللفظ سمحاً سهل المخرج، أو في المركب بأن تكون الألفاظ منسجمة ومؤتلفة معاً وأن لاتكون متنافرة. وتعلّق الشعراء والكتاب بموسيقى الألفاظ وارتقت بها لغتهم منذ نشأتها، نظماً ونثراً، وما التنوين والإعراب سوى بعض آلات الموسيقى اللفظيّة، وأمّا التسجيع، والتوازن، والازدواج، وأنواع البديع اللفظي، وقوانين الإعلال والإدغام، وعدم جواز الابتداء بالساكن، ما هذه ـ كلّها ـ سوى مظاهر أخرى لاهتمامهم المفرط بجمال الرنّة وحسن الإيقاع، فنجد ـ مثلاً ـ شعراء الرقّة يميلون إلى استعمال «الكسر» لما فيه من لين وانكسار يلائم العواطف الرقيقة المنكسرة، وشعراء الفخامة يميلون إلى «الضم» ليناسب تحدّياتهم وقوّة شخصياتهم وإكثارهم من ترديد بعض الحروف كقافية في قصائد الرثاء كحرف العين والسين. واهتموا بالسكت والوقف لإظهار جمال اللفظ أو إيضاح المعنى، واعتنوا كثيراً بظاهرة الجناس، فردّدوا الأصوات المتماثلة أو المتقاربة في مواضع مختلفة من البيت الواحد، ليوفّروا للنصّ الشعري أكبر قدر ممكن من الموسيقى الدالّة والموحية والمعبّرة.

فهناك علاقة بين جرس الكلمات، وأعني به النغم الكائنة في المفردات، والأحداث المصورة أو المعبّرة عنه حيث إنّ شخصيّة الكلمة إنّما تتجدّد على ضوء

مجموعة الحروف المكوّنة لها، فالجرس حينما ينتظم في «وحدات صوتية» يأخذ شكلاً إيقاعياً موزوناً أو مقفىً أو مسجوعاً أو متجانساً أو متوازناً أو داخلياً هذه المستويات تأخذ مساحة كبيرة من النصّ الأدبي شعراً كان أم نثراً.

أمّا على الصعيد القرآني، فالجمال يأتي ـ أيضاً ـ من عنصر: «انتقاء اللفظ والعبارة» ومن ا ختيار «الصورة والإيقاع»، فعنصر البناء واللفظ متمثّلة في انتخاب العبارة المحكمة وفي إخضاع الفكرة لتخطيط هندسي، فاللفظ هنا يُعدّ أشدّ أهمّيّة من الإيقاع والصورة؛ لأنّه أشدّ عمقاً ودقّة في توصيل الحقائق وفي إشباع الحسّ الجمالي عند الإنسان.

فالانسجام اللفظي الذي يتمّ بالاختيار الملائم للألفاظ يتمّ بترابط الأصوات مع المعاني، هو جزء من الطريقة التي يحقّق بها الخيال بلوغ الأمثل. فالألفاظ تدلّ على معان حسّيّة عامّة تتناسب مع قوّة التصوير وفيها دقّة في الدلالة وجمال في الاختيار، وحلاوة في الوقع والجرس.

والعبارة هي الوحدة الفنّيّة التي يتألّف منها النظم القرآني أو اللبنة التي يتألّف من أمثالها صرح هذه المعجزة البيانيّة الإلهيّة التي هي القرآن و أنّ البنية اللفظيّة هي التي تلعب الدور الكبير في إضفاء عنصر الجمال على النصّ وذات قيمة عظمى بالنسبة إلى توصيل الأفكار.

أمّا الصورة، فتساهم في تعميق الدلالة من خلال تقديم نماذج حسّيّة أو معنويّة، والصورة في القرآن ما هي إلّا قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، والصورة هي الأداة المفضّلة في أُسلوبة فهو يعبّر بالصورة المحسوسة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسيّة وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور وعن النماذج الإنسانية والطبيعية والبشرية، ولنضرب صفحاً عن هذين العنصرين الهامّين من عناصر الجمال: «اختيار اللفظ والعبارة» و«انتقاء الصورة»؛ لأنّهما احتلا مساحة واسعة في علومي المعاني والبيان، ونتجة إلى العنصر الإيقاعي، فنجد أنّ هذا العنصر قد توفّر

عليه القرآن الكريم بشكل لافت، ففي صعيد «الإيقاع الخارجـي» نـجد أنّ البـعد الأوّل منه وهو الإيقاع المنتظم في نهاية الآيات يطبع سور القـرآن جـميعاً حـيث لا تخلو سورة من عنصر «القرار المقفّى» إلّا نادراً مع ملاحظة أنّ البعض من السور تتوّحد قراراتها، والغالبية «تتنوّع» في ذلك.

وفيما يتّصل بالبعد الثاني من عناصر الإيقاع، وهو «التـجانس» بـين أصـوات العبارات المتنوّعة، فهذا ما لا تكاد تخلو منه السـور حـتى أنّك لو قـرأت سـورة «الملك» مثلاً لوجدت أنّ الحروف «س، ص، ز» بصفتها تنتسب إلى أصل صوتي واحد، تلاحق عبارات السورة حتى نهايتها بخاصّة الحرفان «س،ص».

وأمّا النوع الثالث من «الإيقاع» وهو ما يطلق عليه مصطلح «الإيقاع الداخلي» أي التوافق بين الدلالة والإيقاع، أو التجانس بين معنى العبارة وحروفها ... فيمكن ملاحظته في السورة المشار إليها أيضاً وفي غيرها حيث يساهم مثل هذا الإيقاع في إضفاء سمات جماليّة بالغة الدهشة.

ففي مجمل ما تقدّم من تلك الأبعاد وبما نلمسه من القيمة المحسوسة في شكل التعبير الأدبي ومقاييسه الجماليّة للنصّ القرآني بما يتضمّنه مـن سـمات إيـقاعيّة مضافاً إلى مستويات الإيقاع الأخرى، ومن حيث تجانس الأصوات مع دلالاتـها وما تفيده تلك الألفاظ في الدلالة على معناها يفصح ذلك عن جانب من الإعجاز القرآني الكريم.

❊ ❊ ❊

الترصيع

الترصيع من مشتقات فعل «رَصَعَ» في اللّغة: الرصع، والرصيع، والترصيع.

فالرصع: هو شدّة الطعن، يقال رصعه بالرمح.

وترصيع يأتي بمعان كثيرة منها: التركيب، والتفصيل، والتحلية، والتزيين ثمّ التنظيم والضمّ.

والترصيع: «هو أخذ السير وعقده عقداً مثلّثة مثل عقد التميمة التي توضع في العنق، يقول الخليل بن أحمد: «إذا أخذت سيراً فعقدت فيه عقداً مثلّثة فذلك الترصيع».

وقيل: الترصيع مصدر رصّعت الجوهر، أي نظّمته، وألصقت بعضه ببعض، وتاج مرصّع: مزيّن بخرز وجوهر ينظّم فيه.

قال الفرزدق:

وجئن بأولاد النصاريِ إليكم ... حبالىٰ وفي أعناقهن المراصع[1]

وقال ابن شيث القرشيّ: «هو مأخوذ من رصيعة اللِّجام، وهي العقدة التي تكون علىٰ صدغ الفرس من الجانبين، ولايجوز أن تكون إحدىٰ العقدتين معقودة والأُخرىٰ محلولة، ولا أنْ تكون إحداهما حالية والأُخرى عاطِلة»[2].

---

١. المصطلح النقدي، ص١٩٧، والبيت من إحدىٰ نقائض الفرزدق مع جرير (تهذيب اللّغة، ج٢، ص٢٣).

٢. معالم الكتابة، ص٩٨؛ معجم النقد العربي، ج١، ص٣٢٣.

وعرّفه ابن سنان في كتابه سر الفصاحة فقال: «هو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم أو الفصل في الكلام المنثور مسجوعة، وكأنّ ذلك شبّه بترصيع الجوهر في الحلي».

وجاء في المثل السائر: «هو مأخوذ من ترصيع العقد وذلك بأن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلي، مثل مافي الجانب الآخر، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنثورة من الأسجاع وهو أن تكون كلّ لفظة من ألفاظ الفصل الأوّل مساوية لكلّ لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية»[1].

والترصيع في علم العروض هو تقطيع أجزاء البيت تقطيعاً مسجوعاً أو شبيهاً بالمسجوع. ويكون في الشعر والنثر، وعمادهُ السجع الذي في إحدىٰ القرينتين أو أكثر مع ما يقابله من الأُخرىٰ في الوزن والروي.

وعليه فالترصيع: هو مقابلة اللفظ من صدر البيت الشعري، أو الجملة المسجّعة، مع لفظ يناسبها وزناً ورويّاً في عجز البيت، أو في الجملة المسجعة التي تلي الأُولىٰ.

ومثال الترصيع في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[2].

ومثاله من الكلام النبويّ: «اللّهُمَّ أقبِلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي».

وفي نهج البلاغة قول الإمام عليّ عليه السلام: «وَكُنْتُ أخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلاهُمْ فَوْتاً، فَطِرْتُ بِعِنانِها واسْتَبْدَدْتُ بِرِهانِها، كالجَبَلِ لاتُحَرِّكُهُ القَواصِفُ، ولاتُزِيلُهُ العَواصِفُ: لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فيَّ مَهْمَزٌ ولا لِقائلٍ فيَّ مَغْمَزٌ، الذَّليلُ عِنْدِي عَزيزٌ حَتّىٰ آخُذَ الحقَّ لَهُ، والقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتّىٰ آخُذَ الحقَّ مِنْهُ»[3].

---

١. المثل السائر، ج ١، ص ٢٥٨.

٢. صور البديع، ج ٢، ص ١٩ و ٢١ والآية في الغاشية: ٢٥ و ٢٦.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٣٧.

وقول ابن الرومي:

حَوْراء فـي وطَـفٍ قَـنْواء فـي ذَلَـف لَـفّاء فـي هَـيفٍ عَـجْزاء فـي قَـبَبٍ[١]

والشاعر الذي يلجأ إلى الترصيع إنما يعمد في الحقيقة إلى تنظيم أبياته وتفصيلها وتزيينها عن طريق اختيار السجعات والملائمة بـينها حـتى يـأتي شـعره مـحلًّى ومرّصعاً.

والمبرز في هذا النوع هو الذي يخلّي بيته من الحشو، والذي هو عـبارة عـن تكرار الألفاظ التي ليست من الترصيع بحيث لايأتي في صدر بيته بلفظة إلّا ولهـا أخت تقابلها في العجز حتىٰ في العروض والضرب، كقول ابن النبيه:

فَحريقُ جَمْرَةِ سَيْفهِ للمُعْتَدي وَرَحيقُ خَمْرَةِ سَيْبهِ للمُعْتَفي[٢]

فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه فإنّ المقابلة فيه حاصلة بين «حريق» و«رحيق»، وبين «جمرة» و«خمرة» وبين «سـيفه» و«سـيبه»، وبـين «المـعتدي» و«المعتفي».

والترصيع هو أوّل الأنواع البديعيّة التي أضافها قدامة وجعله من نـعوت الوزن ـأي من محاسنه وصفاته ـ حيث قال: «وهو أن يتوخّىٰ فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت علىٰ سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف»[٣].

ثمّ قال: «فالترصيع أن تكون الألفاظ متساوية البناء، متّفقة الانتهاء، سليمة من عيب الاشتباه وشين التعسّف والاستكراه، يتوخّىٰ في كلّ جزئين منها متواليين أن يكون لهما جزءان متقابلان يوافقانهما في الوزن أو يتفقان في مقاطع السجع من غير

---

١. الوطف: كثرة شعر الحاجبين. والقنا: ارتفاع الأنف. والذلف: صغر الأنـف واسـتواء الرقـبة. واللـفاء: الضـخمة الفخذين، والقبب دقه الخصر.

٢. خزانة الأدب، ج ٤، ص ٢٧٤. السيب: الكرم والعطاء. المعتفي: طالب المعروف. و البيت في ديـوان ابـن النـبيه، ص ٢٠١.

٣. نقد الشعر، ص ٣٨.

استكراه ولا تعسّف»[١].

وعند قدامة أنّ الترصيع ليس بمحمودٍ دائماً كما أنّ الشعراء ليسوا كلّهم قادرين على إجادته وإنّما يكون مقبولاً مستحسناً إذا ورد عفواً ولم يتكلّفه الشاعر أو يغرق فيه ولاسيّما أنّه يتطلّب أحياناً تغيير بنية بعض الكلمات لضرورة الإتباع أو الوزن، كما نفهم من إشارة قدامة في تعليقه على كلمة الرسولﷺ للحسن والحسين عليهما السلام «أعيذهما من السامّة والهامّة، وكلّ عين لامّة» وفي كلمته الأخرىﷺ: «خيرُ المال سكّةٌ مأبورةٌ ومهرة مأمورةٌ». وهو يعدّ هاتين الكلمتين من الترصيع الحسن، ونستطيع أن ندخل مفهوم الترصيع في الفكرة العامة التي يريد قدامة أن يقنع القارئ بها وهي أن الشعر صناعة ومهارة يمكن للشاعر أن يتفنّن فيها، وليس الترصيع في حسبان قدامة سوىٰ مظهر لحرفة الصانع وصنعته أو لتصنعه في بعض الأحيان[٢].

ويرى بعض الباحثين أنّ قدامة استمدّ هذا اللون من التعبير من أرسطو في كتابه الخطابة، وحديثه المفصّل عن الجمل ذات الأجزاء المتقابلة، ولعلّه رفض الإكثار من هذا الترصيع ووفرة تتابعه لقول أرسطو إذا كان الكلام مقطّعاً ليس فيه اتّصالات وانفصالات لا يلتذّ به[٣].

ولقد أربىٰ قدامة على ابن المعتزّ بهذا اللون، فقد أسلفنا أنّ الجاحظ سبق إلى هذا وسمّاه بالسجع والازدواج بينما سمّاه قدامة الترصيع.

وقال العسكري: «هو أن يكون حشو البيت مسجوعاً»[٤]

وقال ابن رشيق: «وإذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعاً أو شبيهاً بالمسجوع، فذلك

---

١. جواهر الألفاظ، ص٣.

٢. المصطلح النقدي، ص١٩٩؛ قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، ص٢٣٠ و ٢٣٢. الهامّة: الحياة السامّة. واللامّة: التي تصيب بسوء.

٣. البلاغة تطور وتاريخ، ص٥٣.

٤. كتاب الصناعتين، ص٣٧٥.

هو الترصيع عند قدامة»[١].

ثم قال: «وللقدماء من هذا النوع إلّا أنهم لايكثرون منه كراهة التكلف».

وسمّاه الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن «الترصيع مع التجنيس» ومثّل له بقول ابن المعتز:

أَلَمْ تَجْزَع على الرَّبعِ المحيلِ وَأَطْلالٍ وآثارِ مُحولِ[٢]

وأضاف الباقلاني فقال: «وممّا يقارب الترصيع ضرب يُسمّىٰ المضارعة».

وعرّفه ابن سنان في كتابه سرّ الفصاحة، فقال: «هو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم أو الفصل في الكلام المنثور مسجوعة، وكأنّ ذلك شبّه بترصيع الجوهر في الحُليّ».

ولايتعدّى فحوى كلام التبريزي والبغدادي وابن الأثير والحلبي وابن حجّة الحموي واسامة بن منقذ وابن الزملكانيّ والسيوطيّ وابن مالك وابن معصوم المدنيّ من التعريف السابق من دون أن يضيف عليه أحدهم شيئاً[٣].

وقال الرازي: «هو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان، متّفقة الأعجاز»[٤].

ونقل السكّاكي وابن قيّم الجوزيّة والحلبيّ والنويريّ هذا التعريف وأدخل القزوينيّ هذا اللون في السجع حيث قال: «وقيل: السجع غير مختصّ بالنثر ومثاله من الشعر قول أبي تمّام:

تجلّى بهِ رُشْدِي وأَثْرَتْ بهِ يَدِي وَفَاضَ بهِ ثَمْدِي وَأَوْرَىٰ بهِ زَنْدِي[٥]

---

١. العمدة، ج١، ص٦٠٩.

٢. إعجاز القرآن، ص٩٦.

٣. انظر: الوافي، ص٢٧٦؛ قانون البلاغة، ص١٠٧؛ جوهر الكنز، ص٢٥٤؛ خزانة الأدب، ج٤، ص٢٧٣ و ص٤٠٩؛ البديع، ص١١٦؛ التبيان للطيّبي، ص١٦٩؛ معترك الاقران، ج١، ص٤١٥؛ المصباح، ص٧٨؛ أنوار الربيع، ج٦، ص١٦٣.

٤. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص١٤٤.

٥. الإيضاح، ص٢٩٨؛ ديوان أبي تمام، ج٢، ص٦٦. تجلىٰ: ظهر وتكشف. رشدي: هداي. أَثْرَتْ: كثر مالها. فاض: ←

وذكر الحلّي هذا المثال في «التسجيع» وقال: «هو أن يأتي المتكلّم في أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع غير متّزنة بزنة عروضيّة ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون رويّ الأسجاع على رويّ البيت»[١].

وأنشد الطيبي لليوسفي:

سَقَىٰ البارِقُ العلويُّ عَذباً من الحَيا — مَحلَّتنا بينَ العُذيبِ وَبارِقِ

مَحَلّةَ إيناسٍ، ومَغْنَىٰ أوانسٍ — ومَركَزَ راياتٍ، وَمَرعىٰ أيانِقِ

فيا يَومَها كَمْ مِنْ مُنافٍ مُنافقٍ — وَياليلَها كَمْ مِنْ مُوافٍ مُوافِقِ[٢]

❊ ❊ ❊

← كثر وسال. الثمد ـ بالفتح هنا ويأتي بالتحريك ـ: الماء القليل يتجمّع شتاءً وينصبّ صيفاً، ويطلق على الماء القليل. وأورىٰ زندي: أخرج ناره. والزند: مايقدح به النار. والمقصود هنا بالتركيب كلّه معنى نجحت علىٰ سبيل الكناية.

١. شرح الكافية البديعية، ص١٩٤.

٢. التبيان، ص٥٠٢. و البيت الثالث في أنوار الربيع، ج١، ص١٣٦ و ج٦، ص١٦٣.

التطريز

سبق وأن أشرنا إلىٰ أنّ هذا اللون البديعيّ هو من مبتكرات العسكريّ (ت ٣٩٥هـ.ق) وقد عرّفه في الصناعتين، فقال: وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون التطريز فيها كالطراز في الثوب.

كقول أبي تمام[١]:

أعْوَامَ وَصْلٍ كانَ يُنْسىٰ طيبتها ... ذِكْرَ النَّوَىٰ فَكَأَنَّها أيّامُ

ثُمَّ انْبَرَتْ أيّامُ هَجْرٍ أرْدَفَتْ ... بِجَوىً أسىً فكأنّها أعْوَامُ

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلكَ السِّنُون وأَهْلُها ... فَكأنَّهم وَكَأنّها أَحْلامُ[٢]

أمّا المثال الذي أورده لقول أحمد بن أبي طاهر:

إذا أبو قاسمٍ جادَتْ لَنا يَدُهُ ... لم يُحْمَد الأجودان: البَحْرُ والمطرُ

فهو من الإطناب بالتوشيع، وليس من التطريز[٣].

وأطلق ابن معصوم مصطلح التطريز علىٰ معنيين:

---

١. ديوانه: ٢٧٩.

٢. كتاب الصناعتين، ص ٤٢٥؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٩٤؛ أنوار الربيع، ج ٥، ص ٣٤٢.

٣. كذلك أورد ابن قيم الجوزية تعريف أبي هلال العسكريّ، ومثّل له بقول الشاعر:

أُمسي وأُصْبحُ من هجرانكم دنفا ... يرثي لي المُشفقان: الأهلُ والولدُ

(الفوائد، ص ٣٢٢) فهذا أيضاً من الإطناب بالتوشيع.

أحدهما: أن يؤتىٰ في الكلام بألفاظ متقابلة كأنّها طراز، ومثّل له بقول أبي‌تمّام ـالمتقدّم ذكره ـ وقال: هكذا عرّفه الطيبي في التبيان[١].

والثاني: أن يبتدئ المتكلّم بذوات غير منفصلة، ثمّ يخبر عنها بصفة من الصفات ويكرّرها بعدد الذوات التي قدّرها في الجمل الأُولى، فتكون الذوات في كلّ جملة متعدّدة تقديراً، والجمل متعدّدة لفظاً، وعدد الجمل التي وُصِفَت بها الذوات (لاعدد الذوات) عدد تكرار واتّحاد لاتعداد تغاير.

وعلّق عليه ابن معصوم قائلاً: «هكذا قرّره الشيخ صفيّ‌الدين الحلّي في شرح بديعيّته»[٢].

وقيل: إنّ التطريز اخترعه ابن أبي الإصبع المصري وعرّفه بقوله: هو أن يشتمل الصدر على ثلاثة أسماء مخبر عنها متعلّق بها، وأن يشتمل العجز على الخبر مقيّداً بمثله مرّتين.

وتابعه على هذا التعريف ونقله عنه كلّ مـن ابـن مـالك، والحـلبي، والعـلوي، والسبكي، والحموي، والسيوطي.

وعرّفه النويري بقوله:

هو أن يبتدئ الشاعر بذكر جُمَل مشتملة على ذوات غير منفصلة ثم يُخْبِر عنها بصفة من الصفات ويكرّرها بحسب تَعدادِ جُمَل تلك الذوات تَعداد تَكرار واتّحاد، لاتعداد تغاير، كقول ابن الرومي:

أُمـوركم بـني خـاقانَ عـندي ... عُجابٌ في عُجابٍ في عُـجابِ
قُـرونٌ فـي رؤوسٍ فـي وجـوهٍ ... صِلابٌ في صِلابٍ في صِلابِ[٣]

---

١. التبيان للطيّبي ص٣٩٤كذلك وافق تعريفه تعريف أبي هلال العسكري.

٢. أنوار الربيع، ج٥، ص٣٤٢.

٣. ديوانه، ج١، ص٣٥٣؛ نهاية‌الأرب، ج٧، ص١٤٨؛ حسن التوسل، ص٢٧٤؛ الطراز، ج٣، ص٩٦؛ عقود الجمان، ج٢، ص١٧٦؛ المصباح، ص٢٠١.

وقوله:

كَأَنَّ الكأسَ في يَدِها وَفيها ... عَقِيقٌ في عَقيقٍ في عَقِيقِ[1]

ومثله قول ابن المعتز:

فثوبي والمُدامُ ولونُ خدّي ... شقيقٌ في شقيقٍ في شقيقِ[2]

ومن عجيب ماجاء في التطريز من أبيات قالها شاعر:

فثوبُكِ مِثْلُ شَعْرِكِ مِثْلُ بَخْتِي ... سَوادٌ في سَوادٍ في سَوادِ[3]

وأضاف ابن قيّم الجوزيّة بقوله: «هذا النوع استخرجه المتأخّرون وليس في شعر القدماء شيء منه، ولا في كلامهم[4]. وقد استقرأته من الكتاب العزيز وأشعار المولّدين، فوجدته علىٰ ثلاثة أقسام:

الأوّل: ماله علمان علم من أوّله، وعلم من آخره.

الثاني: ماله علم من أوّله.

الثالث: ما له علم من آخره.

فأمّا الذي له علمان، فكقوله تعالىٰ:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[6].

---

١. كتاب الصناعتين، ص٣٤٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٨؛ المصباح، ص ٢٠١؛ تحرير التحبير، ج ٢، ص ٣١٥؛ الطراز، ج٣، ص٩٢، أراد بالثلاثة: يدها، والكاس، والخمر، وكلّها مكرّرة، فكرّر لفظة العقيق إشارة إلى ماذكرناه.

٢. حسن التوسل، ص٢٧٤؛ تحرير التحبير، ج٢، ص٣١٥.

٣. الطراز، ج٣، ص٩٢.

٤. الفوائد، ص٣٢٣ و ٣٢٤.

٥. الروم: ٢١.

٦. الروم: ٢٢.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[1].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

ومنه قوله تعالىٰ في سورة النمل:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[3].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[5].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[6].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[7].

وأمّا الذي طرازه من أوّله، فمنه في القرآن كثير، فمن ذلك قوله تعالىٰ في سورة الحشر:

---

١. الروم: ٢٣.

٢. الروم: ٢٤.

٣. النمل: ٦٠.

٤. النمل: ٦١.

٥. النمل: ٦٢.

٦. النمل: ٦٣.

٧. النمل: ٦٤.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١].

وقد ورد هذا النوع في أشعار المتقدّمين والمتأخّرين، فمن ذلك قول البحتري:

تعلو الوفودَ ثلاثةٌ في أرضِهِ ... أفضالهُ وجداهُ والأنعامُ

وثلاثةٌ تغشاكَ مهما زرتَهُ ... أرفادُهُ والمنّ ُوالإكرامُ

وثلاثةٌ قد جانَبَتْ أخلاقَهُ ... قولُ البِذا والزورُ والآثامُ

وثلاثة في الغرِّ من أفعالِهِ ... تدبيرهُ والنقضُ والإبرامُ[٢]

وأمّا الذي علمه من آخره، ففي القرآن منه كثير، فمن ذلك قوله تعالىٰ:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٣]، إلى آخر السورة.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[٤].

ومن ذلك في المرسلات قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[٥].

---

١. الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

٢. الفوائد، ص ٣٢٤.

٣. الرحمن: ١٤ ـ ١٨.

٤. القمر: ١٨ و ١٩.

٥. المرسلات: ١٥.

التشطير

التشطير لغةً: مصدر شطَّرت الشيء: إذا جعلته أشطاراً، والشطر من كلّ شيء: نصفه وجزؤه.

واصطلاحاً أن يقسّم الشاعر بيته شطرين، ثمّ يصرع كلّ شطر من الشطرين، ولكنّه يأتي بكلّ شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر[1]، نحو قول أبي‌تمّام:

تَـدْبيرُ مُـعْتَصِمٍ، بـاللّهِ مُـنْتَقِمٍ   للّهِ مُرتْغبٍ في اللّهِ مُـرْتَقِبِ[2]

إذ خالف الشاعر بين السجعتين المودعتين في كلّ شطر.

وكقول مسلم بن الوليد:

مُوفٍ علىٰ مُهَجٍ فـي يـومِ ذي رَهَـجٍ   كـأنّهُ أجَـلٌ يَسـعىٰ إلىٰ أمـلِ[3]

وهو يرد في النثر ولايختصّ بالنظم؛ خلافاً لما ذكروه.

قال الإمام عليّ عليه السلام: «وأَعْظَمُ ماهُنالِكَ بَليّةً نُزُولُ الحَمِيم، وَتَصْليةُ الجَحيمِ، وَفَوْراتُ السَّعيرِ، وَسَوْرَاتُ الزَفيرِ، لا فَتْرَةٌ مُرِيحةٌ، ولا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ، ولا قُوَّةٌ حاجِزَةٌ، ولا مَـوْتَةٌ ناجِزَةٌ»[4].

---

١. نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٧؛ حسن التوسل، ص٢٧٣.

٢. معتصم باللّه: أي عائذ باللّه ومتحصّن به. مرتغب في اللّه: أي راغب في سبيل اللّه. مرتقب: أي أنّه مراقب من قبل اللّه. والبيت في ديوان أبي‌تمام، ج١، ص٥٨؛ و الايضاح، ص٢٩٨.

٣. حسن التوسل، ص٢٧٣؛ ديوان مسلم بن الوليد، ص٩.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣ـ٥٤.

وسبق ـ أن ذكرنا في مقدمة الكتاب ـ أنّ أوّل من سمّى هذا الفنّ هو أبوهلال العسكري وأورد له شواهد من شعر القدماء، كقول أوْس بن حجر:

فتحدركم عَبْسٌ إلينا وعامرٌ وترفعنا بكرٌ إليكم وتغلبُ

وقول ذي الرمّة:

اسْتَحْدَثَ الركبُ من أشياعِهِم خَبراً أمْ راجعَ القلبَ من أطرابه طَرَبُ

وقول الآخر:

فَأمّا الذي يحصيهم فمُكثّر وأمّا الذي يُطربهم فُمقلِّلُ

وأورد من شعر المحدثين قول البحتري:

شَوْقٌ إليك تَفيِضُ مِنْهُ الأَدْمُعُ وَجوىً إليكَ تَضِيقُ مِنْهُ الأَضْلُعُ

وقول أبي تمّام:

بِمُصَعَّدٍ من حُسْنِهِ وَمُصَوَّبٍ ومُجَمَّعٍ من نَعْتِهِ ومُفَرَّقِ

وقد جمع ابن منقذ التشطير والمقابلة في باب واحد قائلاً: إنّ المقابلة والتشطير هو أن يقابل مصراع البيت الأوّل كلمات المصراع الثانى[1]، كقول المتنبّي:

أَزُورُهم وظلامُ اللّيلِ يَشْفَعُ لي وَأنثَني وضياءُ الصُّبْحِ يُغْري بي[2]

وكقول الشاعر:

فيُسراك صاعقةٌ تُتَّقىٰ ويُمناكَ بارقَةٌ تهْطلُ

فما يسَعُ الجودُ ماقد وسعت ولاتحملُ الأرضُ ما تحمِلُ

وقال المصري: «هو أن يقسّم الشاعر بيته شطرين ثمّ يصرع كلّ شطر من الشطرين، لكنّه يأتي بكلّ شطر مخالفاً لقافية الآخر؛ ليتميّز من أخيه، فيوافق فيه الاسمُ المسمّىٰ».

وعدّ القزويني التشطير من السجع، وتبعه شرّاح التلخيص[3]، واختار الحلّي

---

١. البديع في نقد البديع، ص١٨٨.

٢. ديوانه، ج٢، ص٢١٠؛ الايضاح، ص٢٦٠.

٣. الإيضاح، ص٢٩٨؛ المطول، ص٤٥٥؛ عروس الأفراح، ج٤، ص٤٥٤.

والحلبي والنويري والحموي[١] تعريف المصري، وعرّفه المدني تعريفاً يقرب من ذلك، ويشتمل على رأي القزويني ورأي السابقين، فقال: «هو أن يقسّم الشاعر كلّاً من صدر بيته وعجزه شطرين ثمّ يسجّع كلّ شطر منهما، لكنّه يأتي بالصدر مخالفاً للعجز في التسجيع»[٢].

وللتشطير معنىً آخر غير ماتقدّم وهو «أن يأخذ الشاعر شطر بيت ويكمله، ويأخذ الشطر الثاني ويضع له صدراً». وقد كثر التشطير في العهود المتأخّرة، ومن ذلك قول المتنبي:

تذكّرت مابين العُذيب وبارق ... مجرّ عوالينا ومجرىٰ السوابق

شطّرهُ المصري فقال:

إذا الوهمُ أبدىٰ لي لماها وثغرَها ... تذكّرتُ مابينَ العذيبِ وبارقِ

ويذكّرني من قدّها ومدامعي ... مجرّ عوالينا ومجرىٰ السوابق

وهذا ماسمّاه المصري «الإيداع»[٣].

ومن الأمثلة لهذا اللون قول الشاعر:

«نظرةٌ فابتسامة فسلام» ... كلُّ هذا تبذُّلٌ وخَناءُ

أمن الصَّون صبوةٌ فانقيادٌ ... «فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ»

حيث قَسَّم بيت أحمد شوقي إلى قسمين مستخدماً كلّ قسم في بيت و هو:

نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاءُ

❊ ❊ ❊

---

١. شرح الكفاية البديعية، ص١٨٩؛ حسن التوسّل، ص٢٧٣؛ خزانة الأدب، ج١، ص٣٨١ و ج٢، ص٤٨٢؛ نفحات الأزهار، ص٢٧٠.

٢. أنوار الربيع، ج٦، ص٣١٠.

٣. تحرير التحبير، ص٣٨٠ و ٣٨٢ نقلاً عن المعجم النقدي، ج١، ص٣٤١.

التصحيف

وأوّل من أفرد له باباً وجعله فنّاً من فنون البديع هو أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ.ق) وسمّاه بـ «التطريف»، وعرّفه بقوله: «هو أن تكون الكلمة مجانسة لما قبلها أو لما بعدها، أو مطابقة لها، أو متعلِّقةً بها بسبب من الأسباب»[١].

ويبدو أن أُسامة بن منقذ قد أخذ هذا الفن عن القاضي الجرجاني[٢] (ت٣٦٦هـ.ق)، وتابع أُسامة فيه ابن رشيق (ت٤٥٦هـ.ق) الذي جعله ضرباً من ضروب التجنيس[٣].

وادّعى السيوطي في شرح عقود الجمان أنّ هذا النوع البديعي من اختراعاته، فقال: «هو أن يأتي المقصود بكلام لتصحيفه معنىً معتبر، فيقصد إلى ذلك؛ لتذهب نفس السامع إلى كلّ من معنييه، كما حكي عن بعض الأذكياء أنّه أمر أن يكتب الكتاب إلى بعض أصحابه أن يشتري له من البضائع الرائجة، وأمر أن لاينقط الكتاب، ليصلح للرائجة والرابحة[٤].

وأمّا ابن حجّة الحموي، فقد ذكره في باب «المصحّف والمحرّف» وقال: «هو

١. البديع، ص١٩٠.

٢. الوساطة، ص٤٦.

٣. العمدة، ج١، ص٥٥٦.

٤. شرح عقود الجمان، ص١٤٢.

ماتماثل ركناه خطّاً واختلفا لفظاً»[١].

ومنهم من يسمّيه بـ «جناس الخطّ»[٢].

أي أنّ التصحيف هو التشابه في الخطّ بين كلمتين فأكثر بحيث لو أزيلت أو غيّرت نقط كلمة منها، كانت عين الثانية.

ومن أمثلة هذا اللون البديعي قوله تعالىٰ:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٤].

وقول النبيّ ﷺ: «عليكُمْ بالأَبْكارِ فإنّهُنَّ أشَدُّ حُبّاً وأَقَلُّ خَبّاً»[٥].

وقوله ﷺ: «يَسّرُوا ولا تُعَسّروا، وبشّرُوا ولاتُنفّرُوا»[٦].

وقوله ﷺ: «اللّهُمّ أَخْرِجْني مِنْ دارِ الفرارِ إلىٰ دارِ القرارِ»[٧].

وقال رجل لرسول اللّه ﷺ:

إنّي امرؤ حِمْيَري حين تَنَسْبنُى لا مِنْ رَبيعةَ آبائي ولا مُضَر

فقال ﷺ: «ذاكَ واللّهِ؛ ألأَمُ لجَدّكَ، وأضْرَعُ لَخِدّكَ، وأَقَلُّ لَحِدّكَ، وأبعدُ لكَ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ»[٨].

وقوله ﷺ: «المرءُ يسعى بجِدّه والسيفُ يقطعُ بحدِّه»[٩].

---

١. خزانة الأدب، ج١، ص٨٥.

٢. حسن التوسل، ص١٩٢.

٣. الكهف: ١٠٤.

٤. الشعراء: ٧٩ و ٨٠.

٥. حسن التوسل، ص١٩٢؛ الطراز، ج٢، ص٣٦٦؛ التبيان للطيّبي، ص٤٨٦. الخبّ: الخداع.

٦. عمدة القارئ، ج٢، ص٤٥.

٧. جنان الجناس، ص٣٠.

٨. المصدر، ص٦٥؛ خزانة الأدب، ج١، ص٤٤٢.

٩. مواد البيان لعليّ بن خلف الكاتب (ت ٤٣٧هـ.ق) القسم الخامس / تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، ج٢، ص٨٣. والقول للإمام عليّ عليه السلام؛ المتشابه، ص١٣؛ جنى الجناس، ص١٨١.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «وَكانَ قَدْ عَبَدَ اللّهَ سِتّةَ آلافِ سَنَةٍ»[١].

وقال عليه السلام: «فاجْعَلُوا عليهِ حَدَّكُم وَلَهُ جَدَّكُم»[٢].

ومن أمثلة جناس التصحيف قول الإمام عليّ عليه السلام: «يُونِقُ مَنْظَرُها، وَيُوبِقُ مَخْبَرُها»[٣].

وقوله عليه السلام: «لاتُقْلِعُ المنيةُ اختِراماً، ولا يَرْعَوِي الباقونَ اجتراماً»[٤].

وقوله عليه السلام: «ولا ناكبينَ ولا ناكِثينَ»[٥].

وقوله عليه السلام: «الحاسِدُ يَفْرَحُ بالشُرُورِ، وَيغْتَمُّ بالسُرُورِ»[٦].

وقوله عليه السلام: «فإنّها كانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عليها نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْها نَفُوسُ آخَرِين»[٧].

وقوله عليه السلام: «قَصِّر من ثيابِكَ فإنّهُ أَبْقىٰ وَأَتْقىٰ وَأَنْقىٰ»[٨].

وقوله عليه السلام في وصف اللّه سبحانه وتعالى: «لَطِيفُ لا يُوصفُ بالخَفَاءِ، كَبيرٌ لا يُوصفُ بالجَفَاءِ»[٩].

وقال الإمام الحسن عليه السلام وقد سئل عن البخل: «هو أنْ يرى الرَجَلُ ما أَنْفَقَهُ سَرَفاً، وَما أمْسَكَهُ شَرَفاً».

ومن الأمثلة الشعريّة قول أبي تمّام:

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ ـ ١٠ يريد به إبليس.

٢. المصدر، الخطبة ١٩٢ ـ ٢٠. حدّكم: غضبكم وحدّتكم، جدّكم: أي قطعكم، يريد قطع الوصلة بينكم وبين الشيطان.

٣. المصدر، الخطبة ٨٣ ـ ٧.

٤. المصدر، الخطبة ١٧٩.

٥. محاضرات الأدباء، ج١، ص٥٩٤.

٦. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.

٧. المصدر، الخطبة ١٠٦ ـ ٩.

٨. المصدر، الخطبة ١٦٢ ـ ٢.

٩. الطراز، ج٢، ص٣٦٦؛ نهاية الأرب، ج٧، ص٩٣؛ التبيان، ص٤٨٦.

السَّيف أصـدق إنـباءً مـن الكُـتُبِ   في حدّهِ الحدُّ بين الجِـدّ واللّـعبِ[١]

وقول الشاعر:

فـإنْ حَـلُّوا فـليس لهـم مَـقَرٌّ   وإن رَحَلُوا فليس لهـم مَـفَرٌّ[٢]

وقول المطرزي:

وَزَنْـدُ نـدىً فـواضِـلُهُ وريٌّ   وَرَنْــدُ رُبــاً فـضائِلُهُ نَـضيرُ

وَدُرٌّ جــلالِهِ أبــداً ثــمـينٌ   وَدَرٌّ نــوالِــهِ أَبَــداً غَـزِيرُ[٣]

وكقولهم: «إذا قلَّت الأنصار كلَّت الأبصارُ» و: «مَا وراء الخلق الدميم إلّا الخلق الذميم».

* * *

١. إنباءً: منصوبة على التمييز. الحدّ الأوّل: للسيف، والثاني: الفاصل بين الشيئين، والبيت مطلع قصيدة لابي تـمّام في ديوانه، ص٢٢ يمدح بها المعتصم الخليفة العباسي.

٢. العمدة، ج١، ص٥٥٦؛ المنزع البديع، ص٤٨٩ برواية: «وإن كرّوا، فليس».

٣. حسن التوسل، ص٢٠٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٠٤؛ الإيضاح، ص٢٩٨، الأوّل فقط، بغية الوعاة، ج٢، ص٢١١.

لزوم ما لا يلزم

هذا النوع كمايسمّىٰ لزوم مالا يلزم يسمّىٰ الالتزام، وسمّاه قوم الإعنات من العنت وهو المشقّة. وآخرون التضييق، وبعضهم التشديد[1].

غير أنّ ابن الأثير الحلبي قال: «إن تجاهل العارف يقال للإعنات»[2] ولكن بينهما بونٌ شاسعٌ.

والإعنات من مخترعات ابن المعتزّ الذي عرّفه بقوله: «هو إعناتِ الشاعرِ نفسَه في القوافي وتكلّفه من ذلك ماليس له»، كقول بعض الشعراء:

يـقولونَ فـي البسـتانِ للـعينِ لَـذَّةٌ ... وفـي الخَـمْرِ والمـاءِ الذي غـيرُ آسـنِ

فـإنْ شـئتَ أنْ تَـلْقىٰ المـحاسِنَ كُـلَّها ... ففي وَجْهِ من تَهْوَىٰ جميعُ المـحاسنِ[3]

وواضح أنّه التزم السين قبل النون.

والمصطلح المعروف والمشهور هو «لزوم مالايلزم» وهو أكثر شهرة من مصطلح الإعنات، والمصطلحان صحيحان؛ لأنّ الإعنات هو إلزام الشاعر نفسه بما لاينبغي.

وعلّل ابن الأثير تسمية هذا اللون بـلزوم مالايلزم بقوله:

---

١. أنوار الربيع، ج٦، ص٩٣؛ قانون البلاغة، ص١٣٣؛ الوافي، ص٢٩٥؛ رسائل البلغاء، ص٤٥٨؛ خزانة الأدب، ج٤، ص٣٢١؛ شرح الكافية البديعية، ص٢٠٣؛ شرح عقود الجمان، ص١٥٥.

٢. جوهر الكنز، ص٢٠٨.

٣. البديع، ص ٧٤ و ٧٥؛ دقائق السحر، ص١١٩؛ نهاية الأدب، ج٧، ص١١٣؛ حسن التوسل، ص٢٢١.

«وذلك لأنّ مؤلّفه يلتزم ما لايلزمه، فإنّ اللازم في هذا الموضع وماجرىٰ مجراه إنّما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها، وهذا فيه زيادة علىٰ ذلك، وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً، وهو في الشعر أن تتساوىٰ الحروف التي قبل رويّ الأبيات الشعريّة»[١].

وأشار إليه العلوي في الطراز وسمّاه «لزوم مالايلزم» ثمّ أضاف:

«ويقال له الإعناتُ، ويَرِدُ في المنظوم والمنثور من الكلام، ومعناه في لسان علماء البيان أن يلتزم الناظم قبل حرف الرويِّ حرفاً مخصوصاً، أو حركةً مخصوصةً من الحركات قبل حرف الرويّ أيضاً، وهكذا القول في الرّدْفِ، فإنّه يجعله علىٰ حدّ حرف متماثلٍ، وهكذا إذا ورد في النثر يكون علىٰ هذه الطريقة، فحاصلُ الأمر في لزوم مالايلزم هو أن يلتزم حرفاً مخصوصاً قبلَ حرف الرويّ من المنظوم، أو حركة مخصوصة»[٢].

وعرّفه المصري بقوله: «هو أن يلتزم الناثر في نثره أو الشاعر في شعره قبل رويّ البيت من الشعر حرفاً فصاعداً علىٰ قدر قوّته، وبحسب طاقته مشروطاً بعدم الكلفة»[٣].

وسمّاه ابن حجّة الحموي بـ «الالتزام»[٤] وعرّفه مثل تعريف المصري وتبعه الحلبي والسيوطي وابن معصوم[٥].

ويرىٰ الخفّاجي أنّه «يغتفر للشاعر إذا نظم علىٰ هذا الأسلوب لأجل ما ألزم نفسه مايلزمه ذلك من عيوب القافية؛ لأنّه إنّما فعل ذلك طوعاً واختياراً من غير

---

١. المثل السائر، ج ١، ص ٢٦١ و ٢٦٢.

٢. الطراز، ج ٢، ص ٣٩٧ و ٣٩٨.

٣. تحرير التحبير، ص ٥١٧؛ بديع القرآن، ص ٢٢٧.

٤. خزانة الأدب، ج ٤، ص ٣٢١.

٥. شرح الكافية البديعية، ص ٢٠٣؛ معترك الاقران، ج ١، ص ٥١؛ شرح عقود الجمان، ص ١٥٥؛ أنوار الربيع، ج ٦، ص ٩٣.

إلجاءٍ ولا إكراهٍ، ونحن نُريد الكلام الحسن علىٰ أسهل الطرق وأقرب السُّبُل، وليس بنا حاجة إلىٰ المتكلّف المطّرح وإن ادّعىٰ علينا قائله أنّ مشقّةً نالته، وتعباً مرّ به في نظمه».

وذكر العلوي معقّباً علىٰ ذلك «بل لازمٌ للناثر والناظم أن يأتي به علىٰ حاله، خلا أنه يجوز معاقبة الواو للياء، ومعاقبة الياء للواو، ولايجوز معاقبة الألف لهما، فعلىٰ هذا يجوز عمودٌ، وشديدٌ، ولايجوز ميعاد في تقابل الأسجاع، ولهذا جاء قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١].

فحرفُ الردف ليس من باب لزوم مالايلزم، بل هو لازم بكلّ حال[٢].

ولقد ورد هذا اللون البديع في الشعر الجاهلي، كقول عروة بن أُذينة:

إنَّ التـي زَعَـمَتْ فُـؤادَكَ مَـلَّها ... خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقْتَ هَـوىً لَـها

بَـيْضاءُ بـاكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَها ... بِـلَبـاقَةٍ فَـأدَقَّها وأَجَـلّها

حَـجَبَتْ تَحيَّتَها فـقلتُ لصاحبي ... مـاكـانَ أكـثَرَها لنـا وأقـلَّها

وإذا وَجَـدْتَ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَـفَعَ الضَّـميرُ إلىٰ الفـؤادِ فَسَلَّها

وقول طرفة بن العبد البكري:

ألَمْ تَـرَ أنَّ المـالَ يَكسِبُ أهْـلَهُ ... فُضُوحاً إذا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَواسِبُهُ

أرىٰ كُلَّ مـالٍ لا مَحالةَ ذاهِباً ... وأفْضَلُهُ ماوُرِّثَ الحَمْدَ كـاسِبُهُ

وقول امرئ القيس وقد نظر إلى قبر امرأة من بنات الروم بـأنقرة وهـو يـجود بنفسه، فقال:

أجـارَتنا إنَّ المـزارَ قـريبُ ... وإنّي مُـقيمٌ مـا أقـامَ عسيبُ

---

١. في الآية تأكيد بـ«إنَّ» و «اللام» لزيادة في التقرير والبيان، وكذلك فيه الجناس غير التامّ بين «شهيد» و «شديد» و الآية في العاديات: ٦ ـ ٨.

٢. الطراز، ج ٢، ص ٣٩٨.

أجـارتنا إنّـا غـريبانِ هَـاهُنا   وكُلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ[١]

وكان هذا الفنّ يأتي سهلاً منقاداً في البيتين والثلاثة، وقد يأتي في العشرين، كما في قصيدة كثير عزّة يقول فيها:

خَـلِيلَّي هـذا رَبْـعُ عَـزَّةَ فـاعْقِلا   قَلُوصَيْكُما ثُمَّ احْلُلا حَـيْثُ حَـلّتِ

وما كنْتُ أدري قَبْلَ عزّةَ ما البُكا   ولا مُوجِعاتِ القلبِ حتىٰ تـولّتِ[٢]

وقال الخفّاجي: «وقد التزم بعض الشعراء في القوافي إعـادة مـالايلزمه؛ طـلباً للزيادة في التناسب، والإغراق في التماثل، كقول الحطيئة:

ألا من لقلبٍ عـارم النـظراتِ   يقطعُ طـولَ اللـيلِ بـالزفراتِ

إذا ما الثريا آخرَ الليلِ اعتقت   كواكـبها كـالجزعِ مـنحدراتِ

فالتزم الراء في جميعها قبل حرف الرويّ وهي غير لازمة[٣].

فاللزوم في القوافي قد يورث التكلّف في النـظم، فـيفسد انسـيابه ومـوسيقاه، ولاشكّ أنّ ماجاء من هذا الضرب من النظم من سهولة خاطر وسلامة طبع،جاء غير محتاج إلى التأنّق الذي يأتي بالسعي والطلب، علىٰ أنّه يظلّ دائماً هذا النـوع مـن اللزوم مرهوناً بقدرة الشاعر على تطويع ألفاظه؛ ليجعلها موحية بقصده.

ولأبي العلاء المعرّي (ت ٤٤٩ هـ.ق) الباع الطويل في هذا النوع، فقد عمل ديواناً كاملاً عرّف بلزوم مالايلزم، أو باللزوميات، يضمّ قصائد مبنية علىٰ ترتيب حروف المعجم في حالات الضمّ، والفتح، والكسر، والسكون، لكلّ حرف. وقد التـزم فـي النظم حرفاً قبل الرويّ لاتفرض قواعد الشعر التزامه، ولايختلُّ النظم بتركه، وقصائد الديوان تحوي نحواً من أحد عشر الف بيت مـن الشـعر، ومـن آراء أبـي العـلاء،

---

١. ديوانه، ص ٢٥.

٢. انظر المثل السائر، ج ٢، ص٢٦٦ و ٢٦٧.

٣. سرّ الفصاحة، ص ١٧١ و ١٧٣. عارم النظرات: مشتدّها. واعتقت: مالت للغروب. والجزع: خرز فيه سواد وبياض.

وفلسفته في الحياة، وفي المآل، ما أكسبه لقب شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء.

ومن قوله في شمول حقيقة الموت هذا المقطع ذو الرؤية الفلسفيّة:

غَـيرُ مُـجْدٍ فـي مِـلّتي واعـتقادي ... نـــوحُ بـــاكٍ ولا تَـــرنُّمُ شـــادِ
وشـــبيهُ صـــوتِ النَّـعِيِّ إذا قـيس ... بـــصوتِ البشـــيرِ فـي كُـلِّ نـادِ
صـــاحِ هــذي قــبورُنا تـملأُ الرحبَ ... فـــأَيْنَ القــبورُ مِــنْ عَــهْدِ عـادِ؟
خَـفّفِ الوطءَ مـا أظـنُّ أديـمَ الأرضِ ... إلّا مـــن هِـــذِه الأجســـــــــادِ
سِــرْ إنْ اسْـتطَعْتَ فـي الهـواءِ رُويْـداً ... لا اخـــتيالاً عـــلىٰ رُفـــاتِ العـبادِ
رُبَّ لَــحدٍ قَـدْ صـارَ لَـحْداً مِـراراً ... ضـــاحكٍ مـــن تـزاحُـمِ الأضـدادِ
وَدَفـــيـــنٍ عـلـىٰ بـقـايا دفـينٍ ... فـــي طـــويلِ الأزمـــانِ والآبـــادِ
إنّ حُـزْناً فـي ساعةِ المـوتِ أضـعافُ ... سُـــرور فـــي ســـاعَةِ المـــيلادِ
واللّـــبيـــب اللّـــبيـبُ مـن ليسَ ... يَـــغْترُّ بكـــونٍ مَـــصيرُهُ لِـــلْفَسَادِ

ومن قوله أيضاً:

لَـمْ يَـقْدِرِ اللّـهُ تَـهذيباً لِـعالَمِنا ... فــلا تَــرُومَنَّ للأقــوامِ تَـهذيبا
ولا تُـصَدِّقْ بِـما البُـرْهانُ يُـبْطِلُهُ ... فَـتستفيد مـن التَـصديق تكـذيبا

فقد التزم في جميع أبيات هذه القصيد الياء والذال قبل حرف الرويّ الذي هـو حرف الباء.

وهناك أمثلة من التزام الحرف والحـركة وردت فـي الآيـات القـرآنـيّة، وفـي الأحـاديث النبويّه، وفيما أُثِرَ عن الإمام عليّ‌ؑ وقد جاءت كلّها على هذا النـمط البديع من غير قصد وعمد، وجاءت ـ أيـضاً ـ تـابعة للـمعاني، ومـناسبة للـمقام، ومسوقة للمناسبة، فمن الأمثلة القرآنيّة:

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[1].

---

١. الضحى: ٩ و ١٠.

فقد جيء بالهاء قبل الفاصلتين، ويتحقّق السجع بدونهما، بأن يقال: فلاتسخر، أو فلا تزجر ـ في الفقرة الثانية ـ. وكذلك يتحقّق بكلمة «تصغر» مثلاً من دون «تقهر» في نهاية الفقرة الأُولىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَـٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[4].

ومن الأمثلة النبويّة قولهﷺ: «فإنْ كانَ كريماً أكْرَمَكَ، وإنْ كان لَئيماً أَسْلَمَك»[5].

وقالﷺ: «الَظفرُ بالْحَزمِ والْجَزمِ»[6].

ومن الأمثلة العلويّة قول الإمام عليّ: «أَحْمَدُهُ اسْتِتْماماً لِنِعْمَتِهِ ... فإنّهُ أَرْجَحُ ما وُزِنَ وَأَفْضَلُ ماخُزِنَ»[7]

ومن أمثلة التزام حرفين وحركتين قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[8].

---

١. العلق: ١ و ٢.

٢. الطور: ١ ـ ٦.

٣. التكوير: ١٥ و ١٦.

٤. الطور: ١٧ و ١٨.

٥. الطراز، ج ٢، ص ٤٠١، بلزوم الميم المفتوحة، وقد كان السجع يتحقّق بدونها، بأن يقال بدل «أسلمك» «خذلك».

٦. عوالي اللآلي، ج ١، ص ٢٩٢.

٧. نهج البلاغة، الخطبة ٢ ـ ٢، بلزوم الزاي المكسورة، وقد كان السجع يتحقق بدونها بأن يقال بدل «خزن» «ركن».

٨. الطور: ٢٩ و ٣٠.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[4].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[5].

وقول الرسول الأكرمﷺ: «إنَّ أفضَلَ الناسِ عبدٌ أَخذَ مِنَ الدنيا الكفافَ، وصاحبَ فيها العفافَ»[6].

وقولهﷺ: «وَلْيُحْسِنْ عملَهُ، وَلْيُقَصِّرْ أَمَلَهُ».

وقولهﷺ: «حَسُنَتْ خليقَتُهُ، وصَلُحَت سَريرَتُهُ».

وقولهﷺ: «اللّهُمْ بِك أُحاولُ، وَبِكَ أُصاوِلُ»[7].

وقولهﷺ: «شَرٌّ مافي المرءِ شحٌّ هالعٌ، أو جُبْنٌ خَالِعٌ».

---

١. الانفال: ٣٩و ٤٠.

٢. مريم: ٤٥و ٤٦.

٣. ق: ٢٧ و ٢٨.

٤. الإسراء: ١٦.

٥. الواقعة: ٢٧ ـ ٢٩.

٦. الطراز، ج٢، ص ٤٠٠.

٧. حسن التوسل، ص ٢٢٠؛ دقائق السحر، ص ١١٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص ١١٣.

وقوله ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مُجَنّدَةٌ، فما تَعارَفَ منها ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ»[١].

وقوله ﷺ في صفة الدنيا: «واهجروا لذيذَ عاجِلها لكَريهِ آجِلِها»[٢].

وقوله ﷺ: «لامنعَ ولا إسرافَ، ولا بُخْلَ ولا إتلافَ»[٣].

وقوله ﷺ: «الدُّنيا ساعةٌ فاجْعَلْها طاعةً»[٤].

وقول الإمام عليّ عليه السلام في صفة التقوىٰ: «وهي عِتْقٌ مِنْ كلّ مَلْكَةٍ، ونجاةٌ من كلّ هُلْكَةٍ»[٥].

وقوله عليه السلام: «وَاعْلَمُوا، أنّكُم في زمانٍ القائِلُ فيه بالحقِّ قَليلٌ، واللسانُ عَنِ الصّدْقِ كَلِيلٌ، واللازمُ للَحقّ ذَليلٌ»[٦].

وقوله عليه السلام: «لاتُدْرِكُهُ الشَّواهدُ، ولا تَحْويهِ المَشاهِدُ»[٧].

ومن أمثلة التزام مازاد على حرفين وحركتين، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٨].

وقوله ﷺ: «فلا يُغني عنكم إلّا عملٌ صالحٌ قدّمتموه، أوحسنَ ثوابٍ حُزتُمُوه».

وقول الإمام عليّ عليه السلام: في صفة الموت: «فكانَ قد أتاكُم بَغْتَةً، فأسكت نَجيّكم، وَفرّقَ نَديّكم، وعَفّىٰ آثاركم، وعطّل ديارَكم، وبعث وُرّاثكم يقتسمون تُراثكم».

---

١. حسن التوسل، ص ٢٢٠؛ صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٤٧.

٢. الطراز، ج ٢، ص ٤٠٠.

٣. عوالئ اللآلئ، ج ١، ص ٢٩٦.

٤. المصدر، ج ١، ص ٢٨٥.

٥. الطراز، ج ٢، ص ٤٠٠.

٦. المصدر، ج ٢، ص ٤٠٠؛ نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٣ ـ ٣.

٧. الطراز، ج ٢، ص ٤٠١.

٨. ويصح السجع بدون «يقصرون» مثلاً «يمسكون» و الآية في الأعراف: ٢٠١ و ٢٠٢.

وقوله ﷺ في أهل الفتن: «أهْلُها قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُم، قَليلٌ سَلَبُهُم»[١].

وقد يكون في الحرف وحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾[٣].

وقد التزم ابن الرومي الفتح قبل حروف الرويّ، كقوله:

لِما تُؤذِنُ الدنيا به من صُروفِها ... يكونُ بُكاءُ الطِّفلِ ساعَةَ يُولَدُ

وإلّا فما يُبكيهِ منها وإنّها ... لأَوْسَعُ ممّا كانَ فيهِ وَأَرْغَدُ

إذا أبصَر الدُّنيا استَهَلَّ كَأَنَّهُ ... بما سيُلاقي مِنْ أَذاها يُهَدَّدُ[٤]

فالتزام حركة الفتح قبل حرف الرويّ من باب لزوم مالايلزم.

وعُدّ من الالتزام ـ أيضاً ـ تصغير الفقر من منظوم الكلام ومنثوره قول بعضهم:

عَزَّ عَلىٰ لَيْلىٰ بِذِي سُدَيْرِ ... سُوءُ مَبِيتي لَيْلَةَ القمير

مُقَضِّياً نَفْسِيَ في طُمَيْرِ ... تَنْتَهِزُ الرِّعْدَةُ في ظُهَيْري

يَهْفُو إليَّ الزَّورَ مِنْ صُديري ... ظَمْآنَ في رِيحٍ وفي مُطَيْرِ

وأزرَقَ لَيْسَ بالغُرَيْرِ ... مِنْ لَدُنْ مَا ظُهْرٍ إلىٰ سُحَيْرِ

حَتّىٰ بَدَتْ لِي جَبْهَةُ القُمَيْرِ ... لأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شُهَيْرِ[٥]

❋ ❋ ❋

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٢ ـ ٤.

٢. ويصح السجع بدون مستمرّ بأن يقول: «مقدرٌ، مقرٌّ، ظهر..»إلخ و الآية في القمر: ١ و ٢.

٣. الانشقاق: ١٧ و ١٨.

٤. حسن التوسل، ص ٢٢١؛ ديوان ابن الرومي، ج ٢، ص ٨٥٦؛ الطراز، ج ٢، ص ٤٠٢؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١١٤.

٥. المثل السائر، ج ١، ص ٢٧٠.

العكس أو التبديل

العكس في اللغة: ردّ آخر الشيء على أوّله

وفي الاصطلاح: هو أن تقدّم في الكلام جزءاً ثمَّ تعكس بأن تقدّم ما أخّـرت، وتؤخّر ماقدّمت، وهو من جملة فنون البلاغة، وفيه دلالة على الاقتدار في الكلام، والإغراق فيه.

سمّاه بذلك كلّ من أبي هلال العسكري وأسامة بن منقذ وابن حـجّة الحـموي وابن شيث القرشي[1].

بينما سمّاه ابن سنان في كتابه سرّالفصاحة التبديل. كذلك سمّاه قدامة بن جعفر، ومثّلَ لَهُ بقول الشاعر:

اصْـبِرْ عَـلىٰ خُـلْق مَـنْ تـعاشِرُهُ   واصْحَب صَبُوراً علىٰ أَذَى خُلُقك

واعتبره البغدادي من باب «نعوت الألفاظ» وقال فيه: «هو أن يقدِّم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظماً تامّاً، فيجعل ما كان متقدّماً في الأوّل متأخِّراً في الثاني»، وسمّاهُ «العكس والتبديل».

وكذلك سمّاه المصري والحلبي والطيبي[2].

---

١. كتاب الصناعتين، ص ٣٧١؛ البديع في نقد الشعر، ص ٥٤؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ٤٣٩.

٢. تحرير التحبير، ص ٣٣٠؛ حسن التوسل، ص ٢٦٨؛ التبيان، ص ٤٩٤.

وسمّاه ابن الأثير «المعكوس» في معرض حديثه عن التجنيس[١]، ويأتي على وجوه:

١. أن يقع بين متعلقي فعلين في جُملتين، كقوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[٢].

والعكس هنا مميّز بعلوّ طباقه، وبشرف القدرة الإلهيّة التي لاتصدر إلّا عن عظمة الخالق جلّت قدرته، وعن بلاغة القرآن وإيجازه، وفصاحته.

و قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[٣].

فإنّ كلّاً من الآيتين اللتين وقع بهما التبديل أو العكس، فيه التقرير والتأكيد لإثبات القدرة علىٰ كمال التصرّف في الأضداد. فإنّ كثيراً منّا قد يقدر علىٰ الفعل دون عكسه.

و قول رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «جارُ الدّارِ أحَقُّ بدارِ الجارِ».

و قول الإمام عليّ عليه السلام: «مالي أَراكُم أَشْبَاحاً بِلا أَرْوَاحٍ، وَأَرْواحاً بِلا أَشْباحٍ»[٤].

وقوله عليه السلام أيضاً: «فبالإيمانِ يُسْتَدَلُّ على الصالحاتِ، وبالصالحاتِ يُسْتَدَلُّ على الإيمانِ»[٥].

ومنه بيت الحماسة:

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً ... وَرَدَّ وجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودا[٦]

فيه عكس مطابقة عجزه لصدره، وتبديل الطباق في العجز والصدر.

---

١. المثل السائر، ج١، ص٢٥٤.

٢. يونس: ٣١؛ الروم: ١٩.

٣. الحج: ٦١.

٤. نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٨ ـ ٧.

٥. المصدر، الخطبة ١٥٦ ـ ٣.

٦. نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٤؛ أنوار الربيع، ج٣، ص٣٣٨؛ خزانة الأدب، ج١، ص٣٥٦؛ كشف المشكل، ج٢، ص٤٤٧؛ حسن التوسل، ص٢٦٨؛ التبيان، ص٤٩٤ والبيت لعبداللّه بن الزبير الأسدي في ديوان شعره، ص١٤٤.

وقول أبي هلال العسكري:

لَـبِسَ المـاءُ والهَـواءُ صَـفـاءً ... واكْـتَسىٰ الرَّوْضُ بَـهْجَةً وبَـهاءَ
وَتَـخالُ السَّـماءَ بـالليلِ أَرْضاً ... وَتَـرىٰ الأَرْضَ بـالنَّهارِ سَـماءً[1]

وقول بعض النساء لولدها:

رزقكَ اللّهُ حَظّاً يَخْدُمُكَ بِهِ ذوو العُقُولِ، ولا رَزَقَكَ عَقْلاً تَخْدُمُ به ذوي الحُظُوظِ

٢. أن يقع بين لفظين كائنين في طرفي الجملتين، كقوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾[4].

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فإنْ أصابَ خافَ أَنْ يكُونَ قَدْ أَخْـطَأَ، وإِنْ أَخْـطأَ رَجَـا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ»[5].

فإن أصاب وأخطأ، فعلان وقع أحدهما في جانب الشرط، والآخر في جـانب الجزاء، وتعاكسا.

وقول الحسن البصري: «اللّهم أَغْنِني بالافتقارِ إليكَ، ولا تُفْقِرْني بالاستغناءِ عَنْكَ».

وقول الشاعر:

قَـد يَـجْمَعُ المـالَ غَـيْرُ آكـلِهِ ... وَيأكُلُ المـالَ غَـيْرُ مَـنْ جَـمَعَهْ
وَيَـقْطَعُ الثَّـوبَ غَـيْرُ لابِسـهِ ... وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ قَطَعَهْ[6]

ولو روعي فيه المطابقة كان أحسنُ، كقول أبي الطيب:

---

١. التبيان للطيّبي، ص٤٩٤؛ نهاية الأرب، ج١١، ص٢٦٧؛ أنوار الربيع، ج٣، ص٣٣٩.

٢. البقرة: ١٨٧.

٣. الممتحنة: ١٠.

٤. الأنعام: ٥٢.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٧ ـ ٧.

٦. الطراز، ج٢، ص٣٦٩؛ المثل السائر، ج١، ص٢٦٠؛ التبيان، ص٤٩٤؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٤١.

ولا مَجْدَ في الدنيا لمن قَلَّ مالُهُ ولا مالَ في الدنيا لمن قَلَّ مجدُهُ[١]

٣. أن يقع بين أحد طرفي الجملة، وما أضيف إليه ذلك الطرف، كقول المتنبّي:

إذا أمطرت منهم ومنكَ سحابة فوابلُهم طلٌّ وطلُّك وابل[٢]

وكقول الشاعر:

طَوَيْتُ بإحْرازِ الفنونِ وَنَيْلها رداءَ شبابٍ والجُنونُ فنونُ

فحينَ تعاطيتُ الفنونَ وَحَظَّها تَبيَّنَ لي أَنّ الفنون جنونُ[٣]

وقولهم: هو بمنزلة العين من الإنسان والإنسان من العين.

٤. عكس البعض، ومثاله قول الشاعر:

وقالوا: أيُّ شيءٍ منه أحلىٰ فَقُلْتُ: المُقْلتانِ المقلتانِ[٤]

فأخّر ما قدّمه في أحدهما، وقدّم ما أخّره، كماترىٰ

وقول الشاعر:

إنّ بينَ الضُّلوعِ مِنّي ناراً تتلظّىٰ فكيف لي أَنْ أُطِيقا

بحياتي عليكَ يامَن سقاني أرحيقاً سَقيتني أَمْ حريقا[٥]

٥. عكس قلب الكلمة، و مثاله قول الشاعر:

حسامُكَ مِنْهُ للأحبابِ فتحٌ ورُمحُكَ فيهِ للأعداءِ حَتْفُ

فـ «فتح» مقلوب «حتف».

٦. أن يكون العكس بترديد مصراع البيت معكوساً، كقول الشاعر:

إنّ للوَجدِ في فؤادي تراكمُ ليتَ عيني قبل الممات تراكمُ

---

١. ديوانه، ج٢، ص٢٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٤؛ حسن التوسل، ص٢٦٩؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٤١؛ نظم الدر، ص٣٠١؛ الايضاح، ص٢٦٦.

٢. أنوار الربيع، ج٣، ص٣٥٠.

٣. جواهر البلاغة، ص٤٠٩.

٤. البديع في البديع ص ٥٩، الطراز ٣: ٩٥، المصباح ٢٠١.

٥. البديع في نقد الشعر ص٥٨.

في هواكم ياسادتي مِتُّ وَجْداً   مِتُّ وَجْداً ياسادتي في هواكُمْ[١]

٧. أن يكون العكس في أوّل كلمة وآخر كلمة من البيت، ويسمّىٰ «المجّنح»، كقول الشاعر:

لاحَ أَنْوارُ الهُدىٰ   في كَفِّهِ في كُلِّ حالِ[٢]

فـ«لاح» في أوّل البيت مقلوب «حال» في آخره.

٨. مالايستحيل بالانعكاس، ويسمّىٰ «المستوي»، ويقصد بهذا اللون أن يُقرأ الكلام ـ شعراً كان أو نثراً ـ من الأول إلى الآخر، ويكون كقراءته من الآخر إلى الأوّل بطريقة مقلوبة.

بعبارة أخرى: أن يكون عكسه كطرده، وهو قليل نادر صعب المسلك، وَعِرُ المرتقىٰ، لايكاد يأتي به إلّا من أفلق في البلاغة، وتقدّم في الفصاحة، وقد يأتي في النثر والنظم، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[٤].

ومن كلام الناس: كن كما أمكنك. ومن النوادر أنّ العماد الكاتب كان يساير القاضي الفاضل، فقال العماد: «سر فلا كبا بك الفرس»، فأجابه القاضي بديهةً بقوله: «دام علا العماد».

وللقاضي الأرجاني:

أُحبُّ المَرْءَ ظاهِرُهُ جميلُ   لصاحبِهِ وباطِنُه سليمُ

مودّتُه تدومُ لكلِّ هولٍ   وهل كلّ مودته تدومُ

---

١. جواهر البلاغة، ص٤٠٩.

٢. الطراز، ج ٣، ص ٩٥، وسمّاه الطيبي ص ٤٩٠: قلب المجنح، انظر: البيت في أساليب البديع في القرآن، ص ١٥٠.

٣. يس: ٤٠.

٤. المدّثّر: ٣.

وقول بعضهم: مودتي لعليّ تدوم.

وقول الحريري في المقامات: سَكّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسِ.

وقوله: كبّر رجاءَ أَجْرِ رَبّكَ.

وقوله: أرانا الإله هلالاً أنارا.

ويمكن الحسن في هذا أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني، فعند ذاك يروقُ ويحسن، وما جاء على العكس من هذا نزل قدرُه، ولم يكن معجباً كلّ الإعجاب.

ويختلف المعكوس عن ردّ العجز على الصدر؛ فإنّه ـ أي ردّ العجز ـ إيراد اللفظين أحدهما في أوّل الكلام، والثاني في آخره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[1]. فلذا كان من المحسّنات اللفظية. والحسن في المعكوس باعتبار أنّه يجعل المعنىٰ الواحدة تارةً مستحقّاً لتقديم لفظه، وتارةً مستحقّاً لتأخيره، بخلاف ردّ العجز على الصدر، فإنّ الحسن فيه باعتبار جعل اللفظ صدراً، وعجزاً من غير تصرّف في معناه بالتقديم والتأخير.

ولليازجي ـ في إحدى مقاماته ـ نظم ظاهره مديح، وعكسه هجاء، يقول:

باهي المراحِمِ لابسٌ	كَرَماً قديرٌ مُسنِدُ
بابٌ لكلِّ مؤمِّلٍ	غُنْمٌ لَعَمرُكَ مُرفِدُ[2]

فقلبهما:

دَنسٌ مريدٌ قامرٌ	كَسْبَ المحارم لا يهاب
دَفِرٌ مُكِرٌ مُعْلَمٌ	نَغِلٌ مُؤمِّلُ كلِّ باب

وقال بعض الشعراء:

---

١. الأحزاب: ٣٧.

٢. مجمع البحرين: المقامة العشرون (البصرية)، ص١٢٣. باهي المراحم: حسن المراحم. والمريد: العاتي المتجبّر، والقامر: الذي يلعب بالقمار، الدفر: النتن، المكر: من الكرير، وهو صوت المخنوق، والمعلم: من وسم بعلامة الحرب، والنغل: الفاسد النسب.

حَلُموا فما ساءَت لَهُم شِيَمٌ   سَمَحُوا فما شَحَّت لَهُم مِنَنُ

وعكسه (بعكس كلمة كلمة):

مِنَنٌ لهم شَحَّت فما سَمَحُوا   شِيَمٌ لهم ساءَت فما حَلُمُوا

ومن أحسن ما ورد من المعكوس بعد كتاب اللّه، كتاب الإمام عليّ عليه السلام إلىٰ عبداللّه بن العباس، يقول فيه:...

«أمّا بعد، فإنّ الإنسان يَسُرُّهَ دَرْكُ مَالَمْ يَكُنْ ليَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لم يَكُنْ ليُدْرِكَهُ، فَلاتكن بما نِلْتَ مِنْ دُنْياكَ فَرِحاً، ولا بما فاتَكَ مِنْها تَرِحاً. ولا تكن مِمّن يَرْجُو الآخرةَ بِغيرِ عَمَلٍ، ويُؤَخِّرُ التوبةَ بطولِ أملٍ».

قال ابن عباس: ما انتفعت بكلام بعد كلام اللّه بمثل هذا الكلام.

❊ ❊ ❊

الطباق

أوّل من عرّف **الطباق** هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٨٧هـ.ق) حيث ذكر في كتابه العين في مادّة «طبق»: «طابقتُ بين الشيئين: جعلتهُما على حَذْوٍ واحد وألزقْتُهما، فيُسمّى هذا المطابق» و«المطابقة في الشيء كمشي المُقيّد، قال عَديٌّ:

وطابقت في الحجْلَينِ مَشْي المقيّد»[1].

وقال «وطابقت المرأة زوجها إذا واتته على كلّ الامور»[2]. وهذا التعريف لا يزيد على المعنى اللغوي.

ويظهر أنّ أوّل من أفاض في الحديث عن المطابقة بمعناها الاصطلاحي هو الأصمعي (ت٢١٦هـ.ق)، وربّما كان أوّل من اقترح اسمها[3]. يقول ابن رشيق: «ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلُها [اللغوى]: وضع الرِّجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع...» وأنشد لنابغة بني جَعْدة:

وَخَيْلٍ يُطابِقْنَ بالدَّارِعينَ ‏ ‏ ‏ ‏ طِباقَ الكِلابِ يَطأْنَ الهراسَا

ويبدو من إنشاد الأصمعي لأبيات الشعر أنّه يريد بها الجمع بين الكلمة وضدّها

---

١. العين، ج٥، ص١٠٩.

٢. المصدر، ج٥، ص١٠٨.

٣. البلاغة تطور وتاريخ، ص٣٠.

في الجملة»[١].

وأمّا ثعلب (ت ٢٩١هـ،ق) فيعرّفه بقوله: «هو تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين»، ويعتبره ضرباً من الجناس. نحو قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾[٣و٤]. ويسمّى الطباق «مجاورة الأضداد»، ويعرّفه بأنّه: «ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده»، كقوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٥].

وأمّا ابن المعتزّ (ت٢٩٦هـ،ق) فيعرّفه بتعريف الخليل، وكذلك نقل عن الأصمعي عبارة أحدهم: «أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسّع، فأدخلتنا في ضيق الضمان». قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب.

ويشير كراتشكوفسكي إلى استعمال «المقابلة» بمعنى المطابقة حتى أنّ هذا المصطلح استعمل عند ابن المعتزّ بمعنى المرادف. وظهرت مصطلحات أخرى فيما بعد بمعنى مصطلح ابن المعتزّ، مثل «المقاسمة»، و «التكافؤ»، و «التضاد» وغيرها[٦].

وأورد قدامة بن جعفر (ت ٣٧١هـ،ق) المطابق في باب ائتلاف اللفظ والمعنى، وذكر أنّ الناس جعلوه من صفات الشعر، ثمّ قرنه مع المجانس وعرّفهما بقوله: «أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقّة»[٧]، ثمّ عرّف بعد ذلك المطابق على حدة قائلاً: «فأمّا المطابق، فهو ما يشترك

---

١. العمدة، ج١، ص٥٧٦.
٢. إبراهيم: ١٧.
٣. قواعد الشعر: ٦٤.
٤. الحج: ٢.
٥. قواعد الشعر، ص٥٣ والآية في طه: ٧٤.
٦. البديع، ص٢٦٤؛ مجلّة الفكر العربي، عدد٤٦.
٧. نقد الشعر، ص١٦٢.

في لفظة واحدة بعينها»[١]. واستدلّ عليه ببيت الأفوه الأودي:

وأقطع الهَـوْجَل مسـتأنِساً بهوجَل عيرانـةٍ عَـنْتريسِ

مبيّناً أنّ لفظة «هوجل» في البيت اشتركت في معنيين: أوّلهما: الأرض، وثانيهما: الناقة[٢].

فالمطابق عند قدامة اتّحاد اللفظ واختلاف المعنى، أو اشتراك المعنيين في لفظ واحد بعينه،

وسبق أن ذكرنا أنّ الخطأ الذي وقع فيه قدامة بخلطه بين المطابقة والتجنيس جرّ عليه انتقاداً كثيراً من طرف نقّاد لاحقين[٣].

وخرج قدامة عليها بفكرة التكافؤ وهو بعينه «المطابقة أو الطباق» عند ابن المعتزّ، غير أنّه يخصّه بمتضادّين فقط، وكأنّه يجعل توالي المتضادّين مقابلة، أمّا مجيئها ثنائية، فتكافؤ.

ويرى الآمدي (ت ٣٧١هـ.ق) أنّ حقيقة الطباق هو مقابلة شيء بشيء على قدره، فسمّوا المتضادّين ـ إذا تقابلا ـ متطابقين.

ويربط الآمدي بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للطباق، فيقول: والطبق للشيء إنّما قيل له طبق لمساواته إيّاه في المقدار إذا جعل عليه، أو غطّى به، وإن اختلف الجنسان، قال اللّه عزّوجلّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[٤] أي حالاً بعد حال. ولم يرد تساويهما في تمثيل المعنى، وإنّما أراد عزّوجلّ وهو أعلم تساويهما فيكم، وتغييرهما إيّاكم بمرورهما عليكم»[٥].

---

١. المصدر، ص١٦٢.

٢. المصدر؛ انظر: انوار الربيع، ج٢، ص٣٢.

٣. المصطلح النقدي في (نقد الشعر)، ص ٢٩٥ و ٢٩٦.

٤. الانشقاق: ١٩.

٥. الموازنة، ج١، ص٢٧١.

ثمّ لام الآمدي قدامة؛ لمخالفته ابن المعتز في تسـمية الطـباق بـاسم التكـافؤ وتسميته الجناس الكامل، حيث تُستخدم كلمة واحدة بمعنيين باسم المطابق.

وصرّح أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ.ق) بأنّ البـلاغيّين قـد أجـمعوا عـلى أنّ المطابقة في الكـلام هـي الجـمع بـين الشـيء وضـدّه فـي جـزء مـن أجـزاء الرسالة، أو الخطبة، أو البيت من أبيات القصيدة. وتعرّض لخروج قدامة عـلى هـذا الإجماع[١].

ولم يضف ابن رشيق شيئاً (ت ٤٥٦هـ.ق) سوى أنّه عقد باباً لبيان الفرق بـين الجناس والمطابقة[٢].

والطباق عند الزمخشري (ت ٥٣٨هـ.ق) يكون بمعنى التضادّ، والكلام المطابق هو الذي تتنزّل فيه الأحوال على وفق المعاني، كما صرّح بذلك عند شرحه لقوله تعالي ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّـٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾[٣].

وفرّق السكاكي (ت ٦٢٦هـ.ق) بين المطابقة والمقابلة، فقال: المطابقة هـي أن تجمع بين متضادّين، والمقابلة هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضدّيهما[٤].

وأمّا شرف الدين الطيبي (ت ٧٤٣هـ.ق)، فيعرّف المطابقة بقوله: هي الجمع بين لفظين دالّين على معنيين متضادّين حقيقة أو تقديراً. فمن الأوّل قول المتنبّي:

كأنَّ الحُزنَ مَشْغُوفٌ بـقَلبي ... فَساعَةَ هَجْرِها يَجِدُ الوِصَالا

ومن الثاني قول [المُقنّع الكندى]:

١. كتاب الصناعتين، ص٣٠٧.

٢. العمدة، ج١، ص٥٨٦.

٣. قال الزمخشري: قال [تعالى]: «ليسكن» فذكّر بعد ما أنّث في قوله: «واحـدة»، مـنها زوجـها ذهـاباً إلى مـعنى النفس ليبيّن أنّ المراد بها آدم؛ ولأنّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشّاها، فكان التـذكير أحسـن طـباقاً للمعنى الكشاف، ج٢، ص١٨٦ و الآية في الاعراف: ١٨٩.

٤. مفتاح العلوم، ص٤٢٤.

لَهُم جُـلُّ مـالي إنْ تـتابَع لي غـنىً وإنْ قـلَّ مـالي لَـمْ أُكـلِّفهُمُ رِفْـدا

قوله: «تتابع لي غنىً» معناه: كثُرَ مالي، فهو يطابق قوله: «قلّ مالي»، وقوله «لهم جُلُّ مالي» معناه: إيثاره لهم، فهو يطابق قوله: «لم أكلّفهم»، فإنّه في معنى عدم إيثارهم له.

امّا ابن حجّة الحموي (ت٨٣٧هـ.ق)، فقد هذّب واختصر كثيراً من الكتب القديمة إلّا أنّه خلط بين مباحث البيان والبديع، على الرغم من أنّه قد بيّن مواطن التفرقة بينهما. وأدخل في الطباق بعض الأنواع كالتدبيج والمقابلة، ونوّع المطابقة إلى نوعين: نوع يأتي بألفاظ الحقيقية، وآخر بألفاظ المجاز. فالأوّل سمّاه طباقاً، والآخر سمّاه تكافؤاً. كما وشح الطباق بنوع من أنواع البديع كي تشاركه في البهجة والرونق، كالتكميل والتشبيه والمجاز والتورية، وغيرها[1].

هذه خلاصة ما قيل عن الطباق.

فهو إذن عبارة عن الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، أي متضادّين[2]، حقيقيّاً كان أم مجازياً، للإيضاح أو للجمال الفنّي.

ويتبادر إلى الذهن أنّ التضاد في التعريف البلاغي للطباق ينشأ من أنّ هناك تنافراً بين الألفاظ يهبط بقيمتها التعبيريّة، ولكن هذا الوهم المتبادر سرعان ما يضمحلّ عند استعراضنا للأمثلة، فهناك انتقال مفاجأة؛ لأنّ اللفظة تفاجئ القارئ أو المخاطب بالضدّ من المعنى بعد أن استراح إلى المعنى الأوّل.

وقسّم البلاغيون الطباق إلى قسمين:

الأوّل: يأتي بألفاظ الحقيقة وهو المسمّى عند أكثرهم بـ«الطباق».

الثاني: يأتي بألفاظ المجاز وهو المسمّى بالتكافؤ.

---

١. خزانة الأدب، ج٢، ص٧١.

٢. ويشترط في المعنيين أن يكون بينهما تنافٍ ولو من بعض الوجوه.

صور الطباق

قد يكون اللفظان المتضادان من نوع واحد، كأن يكـون اسـمين، أو فـعلين، أو حرفين، وإمّا أن يكون بلفظين من نوعين مختلفين:

فالأوّل: وهو الذي يأتي فيه اللفظان المتضادّان اسمين، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[١].

فقد طابق بين «كافر» و«مؤمن» وهما اسمان.

وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[٢].

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾[٣].

وكقول الرسول الأكرمﷺ: «اللّهم أعط منفقاً خلَفاً، وأعط مُمسكاً تلفاً»[٤].

وكقول الرسولﷺ: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومـن دنـياه لآخـرته، ومـن الشَبيبةِ قَبْلَ الكِبَرِ، ومن الحياة قَبْلَ المماتِ، فوالذي نفس محمّد بيده؛ ما بَعدَ الموت مستعتب، ولابعد الدنيا دار إلّا الجنّة أو النار».

وكقول الامام عليّ عليه السلام: «انّ كثرة النـظر إلى البـاطل تـذهب بـمعرفة الحـقّ مـن القلب».

وقول القاضى الأرجاني.

ولقد نزلتُ من الملوكِ بما جد ـ فقرُ الرجالِ إليه مفتاحُ الغِنَى.

والثاني: وهو الذي يكون فيه اللفظان المتضادّان فعلين، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ

---

١. التغابن: ٢.

٢. الحديد: ٣.

٣. فاطر ١٩ـ٢١.

٤. صحيح البخاري، الباب ٢٧ من الزكاة.

مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَـن تَشَآءُ وَتَـنزِعُ ٱلْمُـلْكَ مِمَّـن تَشَآءُ وَتُـعِزُّ مَـن تَشَآءُ وَتُـذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[١].

قوبل في هذه الآية بين تؤتي وتنزع، وتعزّ وتذلّ حيث إنّ الغرض منها هو تصوير القدرة بأوسع معانيها، وبيان السلطان في أشمل مظاهره وأكملها، ولا يتمّ ذلك إلّا بالجمع بين الضدّين، والحكم بأنّه يقدر على الأمرين: الإيتاء أو ما في معناه، والنزع أو ما في معناه، وكذلك الإعزاز والإذلال.

ولمّا كان مقياس الذاتيّة والعرضيّة عند المتأخّرين من علماء البلاغة هو عدم استقامة الأغراض بفقدان الأوّل. واستقامتها بفقدان الثاني كان من الجدير أن نعرض الطباق على هذا المقياس؛ ليكون فيه حكماً، فإنّك إذا طبقت هذا المقياس على تلك الآية الكريمة اقتنعت بأن ذكر المقابل لامحيص عنه في صياغة مثل هذا الغرض؛ إذ قد يقدر الشخص على الإيتاء، ويعجز عن النزع، ويتمكّن من الإعزاز دون الإذلال، ومع هذا لا تسلبه صفة القدرة على نحو الإجمال، بل المسلوب هي القدرة التامّة والسلطان الشامل، فتلك هي التي تستحوذ على الأمرين، وتتعلّق بالضدّين، وذلك القدر كاف في إثبات التحسين الذاتي لأساليب الطباق، وعلى غراره تجري أساليب المقابلة، وعليه فالطباق والمقابلة من الأمور الفطريّة المركوزة في الطباع التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام؛ إذ الضدّ أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضدّه[٢].

كقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَـٰكُمْ﴾[٣].

وقوله ﷺ: «خيرُ المال عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائمةٍ»[٤].

فقد طابق بين: «ساهرة» و«نائمة»

---

١. آل عمران: ٢٦.

٢. الصبع البديعي، ص ٤٧١.

٣. الحديد ٢٣.

٤. انظر الفائق والنهاية واللسان والتاج (سهر)، أراد بالحديث ان افضل الأموال هو هذه الأنهار الجارية فانّها تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم لا يشعر بحالها.

وقوله ﷺ: «إنكم لَتكثُرونَ عِنْدَ الفَزع، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَمَع»[١].

فقد طابق بين: «تكثرون» و«تَقلّون» وبين «الفزع» و«الطمع».

وقول أبي صخر الهذلي:

أَمَا والذي أَبكى وأَضحكَ والذي ... أماتَ وأحيا والذي أمرُهُ الأَمْر[٢]

لقد تَركَتْني أحْسُدُ الوحشَ أنْ أرى ... خليلين منها لا يروعُهُما الذعرُ[٣]

فقد طابق بين: «أبكى» و«أضحك» كما أنّه قد طابق بين: «أمات» و«أحيا».

وقول بشّار بن برد:

إذا أيقظَتْكَ حُروبُ العدا ... فَنَبّه لها عُمْراً ثُمَّ نَمْ[٤]

فقد طابق بين: «نبّه» و«نم» كما أنّه قد طابق بين «أيقظتك» و«نم» وإن كان الفعلان الآخران مختلفين، فأولهما: ماض، وثانيهما: أمر.

والثالث: وهو الذي استوى اللفظان المتضادّان فيه حرفين، كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٥].

فقد طابق هنا بين «اللام» على معنى الانتفاع وبين «على» التي للاستعلاء على معنى التضرّر، أي لا ينتفع بطاعتها ولا يضرّر بمعصيتها غيرها[٦].

---

١. انظر: الإيضاح، ص٢٥٥؛ الفائق، ج٣، ص١١٥؛ الاشارات، ص٢٠٧؛ غريب الحديث والأثر، ج٣، ص١٩٩. الفزع هنا: الإغاثة والنصرة، والمراد بالطمع هنا أسبابه من غنائم الحرب.

٢. الإيضاح، ص ٢٥٥؛ اشعار الهذليين، ج٢، ص٩٥٧؛ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص ٧٣٠. والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ النجم: ٤٣ـ٤٥.

٣. راعه: أفزعه. والذعر: الخوف، يقول في البيتين: أقسم بمن بيده الحزن والسرور والإماتة والإحياء، لقد جعلتني الحبيبة في حال إذا تأمّلت معها الوحوش وهي تأتلف في مراعيها تمنّيت أن أكون مثلها في تآلفها؛ لأنّي أرى كلّ أليفين منها آمنين لا يفزعهما من الوشاة والرقباء.

٤. ديوانه، ص٢١٧؛ الإيضاح، ص٢٥٥.

٥. البقرة: ٢٨٦.

٦. يرى السبكي ان في هذا الكلام توسّع؛ فان التقابل بين معنيي متعلقي الحرفين لا بين الحرفين. (انظر: عروس الافراح ضمن شروح التلخيص، ج٤، ص٢٨٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾[١].

فقد طابق بين ﴿لَهُنَّ﴾ و﴿عَلَيْهِنَّ﴾، والمراد لهنّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهنّ من الحقوق.

وقول مجنون ليلى:

على أنّني راضٍ بأنْ أحملَ الهوى وأخلُصَ منه لا عَليَّ ولا لِيَا[٢]

فقد طابق هنا بين قوله: «عليَّ» وقوله: «ليا»، والمعنى أنّه تحمل الهوى وقاسى منه العذاب، وقد كان هذا موجباً لمدحه لا لذمّه، ولكنّه مع كلّ هذا راض بأن يخلص منه، وليس عليه ذمّ، ولا له مدح.

والرابع: وهو الطباق بلفظين من نوعين مختلفين، فمثاله قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ...﴾[٣].

أي ضالّاً فهديناه، فقد طابق هنا بين ﴿مَيْتًا﴾ و ﴿أَحْيَيْنَـٰهُ﴾ وهو من نوعين مختلفين؛ لأنّ «مَيْتاً» اسم، أمّا «أحييناه»، ففعل ماض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٤].

فالجمع بين ﴿يُضْلِلِ﴾ و﴿هَادٍ﴾ مطابقة؛ لأن الضلال ضدّ الهداية، واللفظ الأوّل فعل، والثاني اسم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٥].

وقول طفيل بن عوف الغنوي:

---

١. البقرة: ٢٥٨.

٢. الإيضاح، ص ٢٥٦؛ روضة الأدب، ص ١٨٨؛ بغية الإيضاح، ج ٥، ص ٤؛ و في ديوانه (ص٢٩٧) روي البيت هكذا:

فليتكم لم تعرفوني وليتكم تخليت عنكم لا عليَّ ولاليا

٣. الأنعام: ١٢٢.

٤. الرعد: ٣٣.

٥. آل عمران: ٤٩.

بِسَــاهِمِ الوَجْـهِ لم تُـقْطَعْ أَبـاجِلُهُ يُصانُ وهُوَ لِـيَوم الرَّوْعِ مَـبْذَول[١]

وقول أبي تمام:

قد كـان يُـدْعىٰ لابِسَ الصبرِ حـازِمٌ فأصْبَحَ يُدْعى حازِماً حـينَ يَـجْزَعُ[٢]

ولم نذكر بقيةَ الأقسام الستّة العقليّة إمّا لأنّه لم يظفر بتركيب فـيه، وإمّـا لأنّـه لاطباق بين الاسم والحرف، والفعل والحرف؛ لأنّ الحرف ليس له معنى في نفسه، فلا طباق له مع مخالفه[٣].

وقد يكـون طـباق بـالقسم، كـقوله تـعالى: ﴿فَـلَآ أُقْسِمُ بِمَـا تُـبْصِرُونَ * وَمَـا لَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

وهو قسم بالأشياء كلّها على نحو الشـمول والإحـاطة؛ لأنّـها لا تـخرج عـن قسمين: مبصَر وغير مبصَر.

أو بين مفرد وجمع، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَـيْنِ ٱلصُّـلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[٥].

حيث طابق بين عَظم الظهر وعظم الصدر، وأفرد الأوّل وجمع الآخر.

وقد يكون الطباق بالكناية، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَـزَآءَۢ بِمَاكَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٦].

الضحك كناية عن الفرح، والبكاء كناية عن الغمّ، والأوّل في الدنيا، والثاني في الآخرة. وإخراجه في صورة الأمر للدلالة على تحتّم وقوع المخبر به.

---

١. العمدة، ج ١، ص٥٧٧؛ الصناعتين، ص ٣١٢؛ الإيضاح، ص ٤٧٨. وهو من شواهد الحلية على الطباق، ج ١، ص٤٢؛ ومن شواهد الطباق في البديع لابن المعتز، ص٣٩. ساهم الوجه: عابسه. الأباجل: جمع أبجل، وهو عرق في ذراع الفرس يفصد للتداوي. الروع: الفزع والحرب.

٢. ديوانه، ج ٢، ص٢٧٨؛ الايضاح، ص٣٠٩؛ و (لابس الصبر): المتصبّر، و فيهما استعارة مكنية و تخييلية.

٣. شرح التلخيص للبابرتي، ص ٦١٥.

٤. الحاقّة: ٣٨ و ٣٩.

٥. الطارق: ٦ و ٧.

٦. التوبة: ٨٢.

وقد يكون طباق وتشبيه، كقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[١].

شبّه سبحانه أهل الكهف في حال نومهم بالايقاظ في بعض صفاتهم، وأداة التشبيه «حسب»[٢].

وقد يكون طباق بين إطناب وإيجاز، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

فبين لفظ «خفتم» و«أمنتم» طباق. وفي إيراد «إن» الشرطية المنبئة عن عدم تحقّق وقوع الخوف، وإيراد «إذا» المنبئة بتحقّق وقوع الأمن وكثرته، مع الإيجاز في جواب الأولى، والإطناب في جواب الثانية، من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار.

وقد يكون الطباق مسجوعاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٤].

وقد يكون الطباق مبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٥].

فبين الجمود والحركة السريعة طباق، فجعل ما يبدو لعين الناظر كالجبل في جموده ورسوخه، ولكنّه سريع يمرّ مروراً حثيثاً، كما يمرّ السحاب.

وقد يكون الطباق احترازاً كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾[٦].

---

١. الكهف: ١٨.

٢. وقد يكون الجمع بين الايقاظ والرقود مطابقة لفظين من نوع واحد وهما اسمان؛ لأنّ اليقظة ضدّ الرقود وهما من نوع الاسم.

٣. البقرة: ٢٣٩.

٤. المعارج: ١٩ ـ ٢١.

٥. النمل: ٨٨.

٦. سبأ: ٤٦.

طباق بديع أتى به احترازاً من القيام جماعة؛ لأنّ في قيام من زاد على الإثنين تشويشاً للخواطر، وحيلولة دون التأمّل والاستغراق في التفكير.

وقد يكون الطباق لفّاً ونشراً، كقوله تـعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١].

شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللّف والطباق في الطباق.

أنواع الطباق

الطباق نوعان: **الأوّل: طباق الإيجاب**، وهو ما لم يختلف فيه الضـدّان إيـجاباً وسلباً، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾[٢].

الطباق هنا بين كلمتي «ميّتاً وأحييناه»، وهو طباق الإيجاب؛ لأنّ الضدّين فـيه لم يختلفا إيجاباً وسلباً.

وقد اجتمع في هذه الفقرة من الآية جميع عناصر وأجزاء البلاغة من معانٍ وبيان وبديع فجاء حرف الاستفهام إنكارياً للتأثير فـي حـال المـخاطب، ولدعـوته إلى الصواب بألطف أُسلوب؛ ليشركه في بيان المـراد، ويـدعوه إلى التـأمّل والإجـابة، فيسدّعليه طريق الإنكار ابتداءاً، ثمّ رشّحها بنوع آخر من أنواع البيان، وهو التشبيه التمثيلي، فبيّن أنّ المؤمن بمنزلة من كان ميّتاً فأحياه وأعطاه نوراً يـهتدي بـه، وأنّ الكافر بمنزلة المنغمس في الظلمات، وهذا مثل ضـربه اللّـه تـعالى؛ ليـصوّر مـن خلقه اللّه تعالى على فطرة الإسلام، وهداه بنور الوحي الإلهي إلى طريق الحقّ، ومن أريد به البقاء على الضلالة بحيث لا يفارقها.

---

١. هود: ٢٤.

٢. الانعام: ١٢٢.

فالكفر انقطاع عن الحياة المعنويّة، وتعطيل للقوّة الفاعلة المؤثّرة في الوجـود، وطمس لأجهزة الاستقبال والاستجابة الفـطرية... فـهو مـوت، والإيـمان اتّـصال واستمداد واستجابة ... فهو حياة. وهذا تجسيم في صورة مـوحية مـؤثّرة زيّـنت بالطباق. إضافةً إلى التعميم، والتفخيم، والإيجاز، وموقع الحرف والكلمة والعـبارة. وبتلاحم تلك المواد والعناصر يتمّ البناء الإعجازي في جمال وروعة.

والمطابقة إن ترشّحت بنوع آخر من أنواع البديع شاركته بهجةً ورونقاً، وبـقدر ما يكون الطباق أداة للنقض يكون أحياناً أداة للتفسير والتفصيل. انظر إلى قوله تعالى:

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فقد طابق بين «الليل والنّهار» و«الحيّ والميّت». وفـي العـطف، بـقوله تـعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده، وهذه مبالغة التكـميل المشـحونة بقدرة الربّ سبحانه وتعالى. فاجتمعت المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك، لوجازته وبلاغته، ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته.

وقال اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[2].

طباق بين «أضحك وأبكى»، و طباق آخر بين «أمات وأحيا» وقد جمع فيهما بين الطباق البليغ والسجع الفصيح؛ لمجيء المناسبة التامّة في فواصل الآي.

وقال اللّه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[3].

همود الأرض واهتزازها ضدّان؛ لأنّ الهمود سكون خاصّ أصله من همدت النار

---

١. آل عمران: ٢٧.

٢. النجم: ٤٣ و ٤٤.

٣. الحج: ٥.

إذا صارت رماداً، والاهتزاز حركة خاصّة، وهي تـحرّك إنـباتها وكـما أنّ الهـمود والاهتزاز مجازان، فكذا الإسناد المتعلّق بهما.

والربو والإنبات ضدّان، فالأوّل زيادة الأرض وانتفاخها لما يدخلها من المـاء، والثاني: انتاج وعطاء، وكلاهما حقيقيان، فصدر الآية تكافؤ، وما قابله في عجزها طباق.

وفيها مع التكافؤ والطباق إرداف، ولما في الإرداف من الملائمة للمعنى المـراد أتى لفظها مؤتلفاً، فجاء نظم الآية مع ما تـضمّنه مـن التكـافؤ والطـباق والإرداف والائتلاف منعوتاً بالتهذيب؛ لما فيه من حسن الترتيب.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُـضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[١].

فقوله يهدي ويضلّ من باب الطباق اللفظي، وقوله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ مع قوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ من الطباق المعنوي؛ لأنّ المعنى يوسّعه بالإيمان ويفسحه بالنور حتى يطابق قوله ضيقاً حرجاً. فهناك حركة ذهنيّة نتيجة الانقلاب في الصور والمعاني، وفيها قوّة دلالة في النفس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٢].

لمّا كانت جناية القتل ترمز إلى الفناء والموت الحتمي ووقف مسيرة الحياة كان القصاص عامل ردع لمن تسول له نفسه أن يقف عائقاً أمام تلك المسـيرة، فـصار القصاص سبباً للحياة، وهو طباق مليح وخفي، وقد أسهب السيوطي فـي الإتـقان بإظهار بلاغة هذه الآية بعشرين وجهاً، فليراجع.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٣].

---

١. الأنعام: ١٢٥.

٢. البقرة: ١٧٩.

٣. المؤمنون: ٢ و ٣.

فقد جمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك، إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة، وترك اللغو، وهو طباق إيجابي معنوي.

إنّ توارد تلك الصور الكونيّة المتعاقبة صورة الحياة والموت، والليل والنهار، والظلمات والنور. والضحك والبكاء وغيرها تثير في النفس معاني التغيير والتجديد والزوال والاضمحلال، إنّها إثارة ذهنيّة وهزّة روحية تلقي المعاني في الروع، وتقرّ في النفس هيمنة البارئ المهيمن على خلقه، وعلى أن يفعل ما يشاء للإشادة بعظمته وبيان قدرته، لتئوب النفوس إلى أمر اللّه، وتسلم له، وترجع عن غيّها، وتذعن لربّها. وهذه المعاني كلّها محتاجة إلى القرار في أعماق النفس البشريّة، والقرآن لا يتأتّى له إلّا بالإقناع والإبلاغ الثاقب الذي لا يجد الذهن حياله فراراً أو محيصاً.

ومن أروع كلام البشر وأجوده قول الرسولﷺ في بعض خطبه: «فَلْيَأخُذِ العَبْدُ من نَفسِهِ لِنَفسِهِ، وَمِنْ دُنْياهُ لآخِرتِهِ، ومن الشَّبيبة قَبْلَ الكِبَرِ، وَمِنَ الحياةِ قبلَ المَمَاتِ، فَوَالذي نَفسُ مُحمّدٍ بيدهِ، ما بَعْدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ، وما بَعْدَ الدنيا دارٌ إلّا الجنّةُ أو النارُ».

هذا هو المعجز الذي لا تكلّف فيه، ولا مطمع في الإتيان بمثله[1].

وما روته عائشة عن النبيّﷺ أنّه قال لها: «عليكِ بالرفق يا عائشة، فإنّه ما كان في شيء إلّا زانه، ولا نُزع من شيء إلّا شانَه»[2].

وقولهﷺ: «اللّهُمَّ اغننا بالافتقارِ إليكَ ولا تفقرنا بالاستغناء عنك».

فالطباق هو أسلوب يفيد المعنى من نقيضه إظهاراً للخطأ الذي يتوهّم صواباً، وللصواب المكتوم الذي يغفل عنه ويحلّ نقيضه محلّه.

وقال عليّ؈ مخاطباً عثمان: «إنَّ الحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وإنَّ الباطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ،

---

١. العمدة، ج١، ص٥٨٠؛ الحديث في البيان والتبيين، ج١، ص٣٠٣؛ كفاية الطالب، ص١٤٠.

٢. الطراز ٢: ٣٨٠.

وَأَنْتَ رَجُلٌ إنْ صَدَّقْتُكَ سَخَطْتَ وإنْ كَذَّبْتُكَ رَضِيتَ»[١].

قابلَ الحقّ بالباطل، والثقيل المريء بالخفيف الوبيء، والصدق بالكذب، والسّخط بالرضا. فهذه أربع مقابلات قد اشتمل عليها هذا الكلام القصير الذي أناف على كلّ غاية في بلاغته، ورقّة لفظه وسلاسته، ولهﷺ من الطباق والجمع بين الأمور المتضاة خاصّة في علوم التوحيد وأحوال القيامة شيء كثير.

ومن حكمه الرائعة: «إلى اللّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلّالاً»[٢].

ويقول زهير بن أبي سلمى في مقطع من قصيدته التي ضمّنها خلاصة تجاربه وتأمّلاته: ...

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ	ثمانينَ حَوْلاً، لا أَباً لَكَ، يَسْأَمِ
وأعلمُ ما في اليوم والأمسِ قَبلهُ	ولكنّني عن علم ما في غدٍ عَمِ
رأيتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ من تُصِبْ	تُمِتْهُ ومَنْ تُخْطئْ يُعَمَّر فَيهْرَمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ	يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عليهِ، وَيَنْدَمِ
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوًّا صَدِيقهُ	وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ
وَمَهْما تَكُنْ عندَ امرئٍ من خَليقَةٍ	وإن خالَها تخفىٰ على الناسِ تُعلمِ
وكائِن تُرى من صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ	زيادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التكَلُّمِ
لسانُ الفتى نِصْفٌ ونصفٌ فُؤادُهُ	فلم يَبْقَ إلّا صُورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ
فلا تَكْتُمُنَّ اللّهَ ما في نفوسِكُم	لَيخْفى وَمَهما يُكْتَمُ اللّهُ يَعْلَمِ
يُؤخَّر فَيُوضَع في كتابٍ فيُدَّخَر	ليومِ الحسابِ أو يُعَجَّلُ فَيُنقَمِ
وما الحَرْبُ إلّا ما علِمْتُم وذُقْتُمُ	وما هُوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

وهذه الأبيات حافلة بالطباق، منها قوله:

١. نهج البلاغة، قصار الحكم: ص٣٧٦.

٢. المصدر، الخطبة ١٧ ـ ١١.

«وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ـ لكنّني عن علم ما في غد عم»: وقد تطابقت لفظتا اليوم والأمس من جهة، ولفظتا اليوم والغد والأمس والغد من جهة ثانية.

وقوله: «من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر»: يظهر الطباق هنا بين فعلي تصب وتخطئ، وفعلي تمته ويُعمّر.

وفي قوله: «يكن حمده ذمّاً عليه»: وقع الطباق بين الحمد والذّم.

وفي: «ومن يغترب يحسب عدوّاً صديقه»: الطباق قائم بين العدوّ والصديق.

وفي: «وإن خالها تخفى على الناس تُعلم»: وقد تطابق فعلا تخفى وتعلم.

ووقع الطباق: «زيادته أو نقصه في التكلّم»: بين الزيادة والنقص.

وقع في: «وكائن ترى من صامت... في التكلّم» بين الصمت والكلام.

وفي: «ومهما يكتم اللّه يعلم»: بين العلم والكتمان.

وفي: «يؤخّر... أو يعجّل»: بين يؤخّر ويعجّل.

وفي «فيدّخر أو يعجّل فينقم»: بين يدخّر وينقم.

وفي: «ما علمتم وما هو عنها بالحديث المرجّم»: بين العلم والرَّجم.

ولقد اقتُضِيَ الطباق على الشاعر بطبيعة التجربة؛ إذ أنّه ينقض أمراً ويحلُّ محلّه أمراً آخر أصلح منه. والطباق ينطوي كذلك على معنى التفصيل كقوله: «من تُصِبُ تمته ومن تخطئ يعمّر»، فقد ألم بالطباق هنا ليحيط بالمعنى من كلّ جوانبه، ويؤدّي له الاحتمالات المتعدّدة. أمّا معنى النقض، فنقع عليه في قوله: «يكن حمده ذما عليه»، فقد نقض معنى الحمد، وأحلَّ محلّه معنى الذمّ. أو بالأحرى أنّه نفاه وأثبت عكسه. ومثل ذلك العدوّ والصديق، ويخفى ويعلم. والصمت والتكلّم، والعلم والكتمان. وهكذا، فإنّ الطباق كان حيناً أداة للنقض، وأحياناً أداة للتفسير والتفصيل.

لقد كان الطباق أسلوباً لإفادة المعنى من نقيضه إظهاراً للخطأ الذي يتوهّم صواباً، وللصواب المكتوم الذي يُغْفل عنه ويحلّ نقيضه محلّه. فأراد أن يجسّد ذلك لتؤدّي فيه الأفكار بشكل واضح بيّن كما يفهمها، فاستخدم أسلوب الكناية ليعبّر عن

المشهد والحادثة. فقوله: «رأيت المنايا خبط عشواء من تُصب تُمِتْهُ» الكناية هنا تنطوي على معنى التشبيه ذي الطرفين المتخالفين، إذ بدأ طرفه الأوّل معنوياً وهو الموت، وطرفه الثاني مادّياً، وهو الناقة، إلّا أنّه مال إلى الكناية؛ لانطواء المعنى فيه على مشهد؛ أو لانطواء المشهد فيه على معنى. وقد مثّل بالناقة العشواء للضرب على غير هدى، وبدأ للناس دون إخفافها، أي دون إخفاف الموت، وكأنّهم حشرات تسحقها سحقاً. وكذلك استخدم عنصراً هامّاً في التجسيد وهو التقرير عبّر هذه القصيدة لغلبة الأفكار المباشرة عليها، كقوله: «سئمت تكاليف الحياة ومن يعش...»، و«وأعلم ما في اليوم...»، و«من يجعل المعروف...»[1].

ويقول البحتري في قصيدته:

أُخفي هَوىً لكِ في الضُّلُوعِ وأُظْهِرُ	وأُلامُ في كَمَدٍ عليكِ وأُعْذَرُ
وأَراكِ خُنْتِ على النَّوى، مَنْ لم يَخُنْ	عَهْدَ الهوى، وَهَجَرْتِ من لا يَهْجُرُ
وطلبتُ مِنْكِ مَوَدَّةً لم أُعطها	إنّ المُعنَّى طالِبٌ لا يَظْفَرُ
هل دَيْنُ عَلْوةَ يُستطاعُ فيُقْتَضى	أو ظُلمُ علوةَ يستفيقُ فَيُقْصِرُ
بيضاءُ، يُعطيكَ القضيبُ قَوامَها	ويُريكَ عَيْنَيْها الغَزالُ الأَحْوَرُ
تَمْشِي فَتَحْكُمُ في القُلُوبِ بِدَلّها	وَتَميسُ في ظِلّ الشبابِ وَتَخْطِرُ
إنّي وإنْ جانَبْتُ بَعْضَ بَطالَتي	وَتَوَهّمَ الواشُونَ أَنّي مُقْصِرُ
لَيَشُوقُني سِحْرُ العُيونِ المُجْتَلى	وَيَرُوقُني وَرْدُ الخُدودِ الأَحْمرُ
اللّهُ مَكّنَ للخَليفةِ جَعْفَرٍ	مُلْكاً، يُحِسنُهُ الخَليفةُ جَعْفَرُ
نُعْمى مِنَ اللّهِ اصْطفاهُ بِفَضْلِها	واللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَيَقْدُرُ[2]

وفي هذه القصيدة مجموعة من الألفاظ التي يتباين ويتخالف كلّ إثنين منها في

١. انظر: في النقد والأدب، ج١، ص٢٠٤ وما بعدها.

٢. ديوان البحتري، ج٢، ص١٠٧٠ و ١٠٧١.

المعنى، كأُخفي وأُظهر، وأُلام وأعذر، وخنتِ من لم يخن، وهجرت من لا يـهجر. وهذا ما نسمّيه بالطباق.

و إنّها تشتمل على ألفاظ متشابهة في حروفها، ومختلفة في معانيها، مثل: النوى والهوى ويشوقني ويروقني، وهذه الألفاظ أحدثت نوعاً من النغم البديع الذي يسرّ السمع ويسكر الروح. وهذا ما نسمّيه بالجناس.

وفي بعض الأبيات عبارات متوازية ومتساوية الأبـعاد، ومـتشابهة المـعاني أو متعارضة مثل: «وأراك خنت على النـوى ... مـن لم يـخن عـهد الهـوى»، ومـثل «وهجرت... من لايهجر»، ومثل «وطلبت منك مودّة ... لم أعطها»، و«أنّ المـعنى طالب... لا يظفر»، و«هل دين علوة ... فيقصر»، و«ليشوقنى ... ويروقنى ...».

فعندما يقول الشاعر: «أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر»، فإنّ الفكر يـذهب مباشرة إلى تصوير هذا الحبّ الكبير الذي يكنّه لحبيبته فـي قـلبه إلى درجـة أنّ الكتمان قد ناء به، فلم يعد قادراً على إخفائه. ولذلك تراه مضطرّاً إلى إظهار لواعجه فالإخفاء والإظهار متضادّان في المعنى، ولكنّهما في الأخير يتعاونان لإيضاح هذا الحبّ الكبير.

ومثل ذلك قوله: «وألام في كمد عـليك وأعـذر»، فـاللوم والعـذر يـتعارضان، ولكنّهما يأتلفان في البيت؛ لأنّهما يساعدان على تبيان عظمة حبّ الشاعر. وفـي هذه المتعارضات نوع من المقابلة بين الشيء وضدّه. ومعلوم أنّ الأشياء لا تتوضّح ولا تتميّز إلّا أمام أضدادها.

ثمّ في قوله: «أراك خنت من لم يخن» يوازن بينه وبينها، فإذا هي تخونه في حين أنّه يحافظ دائماً على ودادها ويخلص في حبّها. وهذه الموازنة هي التي تعبّر أفضل تعبير عن حالة الشاعر ونفسيّته وشخصيّته[1].

---

١. انظر: البلاغة والتحليل الأدبي، ص ١٨٠ وما بعدها.

وقال أبو فراس:

أَيَضْحَكُ مأسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةٌ وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدُبُ سالِ[١]

فالطباق واقع في: «يضحك وتبكي»، و«مأسور وطليقة»، و«يسكت ويندب»، و«محزون وسال».

وقال المتنبّي:

ثِقالٌ إذا لاقوا خفافٌ إذا دُعُوا كثيرٌ إذا شدُّوا قليلٌ إذا عُدُّوا[٢]

وقال الشاعر:

يجزُونَ من ظُلم أهل الظُلم مغفرةً ومن إساءة أهل السُّوءِ إحساناً

كَأَنَّ ربَّكَ لمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ سواهُمُ من جميعِ الناسِ إنْسانَا[٣]

الثاني: طباق السلب، وهو ما اختلف فيه اللفظان الضدّان إيجاباً وسَلْباً، فيثبت الأوّل وينفي الثاني أو بالعكس، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

الطباق في الآية بين قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، والاستفهام للتنبيه والنفي؛ التنبيه على أنّ كون الأوّلين وهم (العلماء) في أعلى معارج الخير، وكون الآخرين وهم (الجهلة) في أدنى مراقي الشرّ، و نفي تأكيده نفي التساوي، وفيها مجاز مركّب مرسل، فهي خبريّة لفظاً إنشائية معنىً؛ لتحريك حميّة الجاهل.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٥].

أي يستترون ويستحيون من الناس ولا يستترون ويستحيون من اللّه سبحانه، وهو أحقّ بأن يستحى منه، ويخاف من عقابه. ففي ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ و ﴿لَا يَسْتَخْفُونَ﴾

---

١. ديوانه، ص ٣٨.

٢. ديوانه، ج ٢، ص ٦٥ (شرح البرقوقي).

٣. انظر ديوان الحماسة، ج ١، ص ٢٤؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ٢٧٥. الشهر هو قُرَيْطُ بن أنيف.

٤. الزمر: ٩.

٥. النساء: ١٠٨.

طباق سلب إضافة إلى المشاكلة بينهما. قال الزمخشري: وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلّة الحياء والخشية من ربّهم مع علمهم، إن كانوا مؤمنين أنّهم في حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلّا الكشف الصريح والافتضاح.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[1].

وفيه طباق السلب، فهو خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، وأمّا حكّام المسلمين، فيتناولهم النهي بطريق الدلالة دون العبارة.

وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾[2].

في ﴿تَعْلَمُ﴾ و ﴿لَآ أَعْلَمُ﴾ طباق السلب، وفي الآية مشاكلة، إلّا أنّها ليست في إطلاق النفس، بل في لفظ «في» فإنّ مفادها بالنظر إلى ما في نفس عيسى عليه السلام الارتسام والانتقاش، ولا يمكن ذلك بالنظر إلى اللّه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[3]

فطابق بين ﴿ءَامَنَّا﴾ و﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، و﴿يُخَـٰدِعُونَ﴾ و ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾. والمقام يقتضي تكذيب المنافقين في دعواهم الإيمان، وأنّها لم تصدر عن يقين وعقيدة، وإنّما صدرت عن كذب وخداع، فكان في المطابقة أبلغ ردّ على ما ادّعوه، وأقوى نفي لما انتحلوه.

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْ زَهَدَ في الدنيا عَلّمهُ اللّهُ بلا تَعلُّم، وَهَداهُ بلا هداية، وَجَعَلَهُ بَصِيراً، وَكَشَفَ عَنْهُ العَمَىٰ»[4].

فإنّ من يزهد في الدنيا ويحمي نفسه من الأهواء، تشمله حالة الإيمان التامّة، فترتقي ذاته البشريّة إلى الذات الإلهيّة، وقد جاءت العبارة في الحديث على أسلوب

---

١. المائدة: ٤٤.

٢. المائدة: ١١٦.

٣. البقرة: ٨ و ٩.

٤. الجامع الصغير، ج ٢، ص٦٠٦.

تصاعدي يتدرّج فيه المؤمن ارتقاءاً على قدر طاعته لربّه، ومن أخلص استخلصه وفتح له أبواب المعرفة، وهي بداءة الحياة الأبديّة، فزهر مصباح الهدى في قـلبه، ومن اهتدى فطن وتبيّنت له الحكمة، فإنّما البصير من سمع فتفكّر، ونظر فأبـصر، أبصر طريقه، وسلك سبيله، وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده، ويعرف غوره.

فتلاحق صور الطباق «علمه بـلا تـعلم»، و «هـداه بـلا هـدايـة»، و «البـصير والأعمى» ممّا يعكس سرعة تلاحق تلك الصور حتى لتجد أنّ الفكرة اللاحقة تطأ الفكرة السابقة وتتسامى عليها.

وهكذا تتسارع النتائج وترتبط الواحدة بـالأُخرى ارتـباط السـبب بـالمسبّب والنتيجة بمقدّماتها.

وقال الإمام عليّ عليه السلام في خطبته لأهل الكوفة: «ألا وإنّي قَـدْ دَعَـوْتُكم إلَـى قِـتالِ هؤلاءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنَهاراً، وَسِرّاً وإعْلاناً، وَقُلْتُ لَكَمْ: أُغْزُوهُم قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُم ... ، ـواللّـهِ يُميتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ: من اجتماعِ هؤلاءِ القومِ على باطِلِهم وَتَفَرُّقِكُم عن حَقِّكُمْ! فقُبحاً لَكُم وَتَـرَحَاً حـين صِـرْتُم غـرضاً يُـرمىٰ يُـغارُ عـليكم ولا تُـغيرون، وَتُـغْزَوْنَ ولا تَغْزُونَ ... فإذا أَمَرْتُكُمْ بالسَّيرِ إلَيْهِم في أَيامِ الحَرِّ قُلْتُم هِـذهِ حَـمَارَّةُ القَـيْظِ أمْـهِلْنا يُسَبَّخُ عنّا الحرُّ وإذا أمرُتكُمْ بالسَّيرِ إلَيْهِم في الشِّتاءِ قُلْتُم، هـذهِ صَبارّةُ القُـرِّ، أَمْـهِلْنا يَنْسَلْخ عَنّا البَرْدُ ...»[١].

إنّ أوّل ما يسترعي الانتباه ـ هنا ـ هو استهلاله كلامه بـ «ألا» التـي هـي أداة الاستفتاح والتنبيه؛ منبّهاً أسماع القوم وعقولهم ما جرى بينه وبينهم... ثـمّ أتـبعها بالتوكيد الجازم والصارم، وبأدوات متعدّدة متلاحقة وهي: «واو القسم»، و «إنّ» و «قد» في قوله: «وإنّي قد دعوتكم».

ويثابر عليه السلام على «التأكيد» بأسلوب غير مباشر في عبارتي «ليلاً ونهاراً»، «وسرّاً وإعلاناً»، بما فيهما معاً من طباقٍ يجسّد وحدة الموقف، وكنايةٍ تكشف عن دعوته

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧ ـ ٤ و ٩ و ١٠.

المستمرّة، وتحذيره الدائب، ثمّ إنّ في هذه الموازاة بين «ليل وسرّ» و «نهار وإعلان»، وتقديم «الليل» على «النهار» و «السرّ» على «الإعلان» تأكيداً على الإلحاح المستمرّ على الدعوة مقابل إلحاح القوم المستمرّ على التوكّل والتخاذل.

وفي قوله: «اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم» مقابلة صريحة وبيّنة لانقلاب نفوس المسلمين عن الصواب ومجافاتهم عن الحقّ.

جسّد الإمام عليّ عليه السلام هوانَ قومه وذهاب رجوليّتهم في هذه العبارات: «يغار عليكم ولا تغيرون... وتغزون ولا تغزون».

ويجسّد ـ كذلك ـ فيها تضادّ الحال بين قومه وأعدائهم، وانقلاب أمرهم في تلك المقابلة. وتقديم فعل العدوّ على فعل جماعته يجسّد ضعف هؤلاء، وقوّة أولئك. ولذلك جاء «طباق السلب» البعيد الدلالة، وتكرار «لا» النافية له دلالة شديدة على هذا[١].

فإنّ حسن التقسيم والتوازي والتقابل والطباق والتكرار يعتمد كلّه على الإيقاع تعبيراً عن الحاجة إلى الفكرة وتأكيداً لها، ولا يقتصر ذلك على غايته المعنوية، بل إنّ له غاية إيقاعيّة من توافق صيغ الألفاظ والجمل[٢].

والطباق في شعر أبي تمّام يمثّل القوام الأوّل للقصيدة يستمدّ منه الغلوّ، ويدرك نهاية مطاف المعنى، اقتبسه من سنّة البديع الطاغية، في زمانه؛ إذ يقول:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفائِحِ لاسُودُ الصحائِفِ في ... مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

أينَ الروايةُ أم أين النجومُ وما ... صاغُوهُ من زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ؟

تَخَرُّصاً وأحاديثاً مُلَفَّقَةً ... ليست بِنَبْعٍ إذا عُدّتْ، ولا غَرَبِ

---

١. الانفعالية والابلاغية في البيان العربي، عصام السيوري، ص ١٣١ وما بعدها.

٢. انظر: النقد والأدب، ج ٣، ص ١٠٠ وما بعدها؛ فنّ الخطابة، ص ١٣٤ وما بعدها.

فَتْحُ الفُتُوحِ المُعَلّىٰ أن يُحيطَ بهِ ... نَظْمٌ من الشعر، أو نثرٌ من الخُطَبِ
فَتْحٌ، تُفَتَّحُ أبوابُ السماء لَه ... وَتَبْرُزُ الأرضُ في أثْوابِها القُشُبِ
يا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرفتْ ... منك المُنى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَني الإسلامِ في صعدٍ ... والمُشرِكين ودارَ الشِّركِ في صَبَبِ
من عَهْد اِسْكَنْدَرِ، أو قَبْلَ ذلك قد ... شَابَتْ نواصِي الليالي، وهي لم تشبِ
بِسُنّةِ السَّيْفِ والخطّي من دَمِهِ ... لا سُنَّةَ الدينِ والإسلامِ مُخْتَضِبِ
غادَرْتَ فيها بَهِيمَ الليلِ، وَهْوَ ضُحىً ... يَشُلُّهُ وَسْطَها صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
ضَوْءٌ من النارِ، والظَّلماء عاكِفَةٌ ... وَظُلْمَةٌ من دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ
فالشَّمْسُ طالِعَةٌ مِنْ ذا، وَقَدْ أَفَلَتْ ... والشَّمْسُ واجِبَةٌ مِنْ ذا، وَلَمْ تَجِبِ
ما رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُوراً يُطِيفُ به ... غَيْلانُ، أبْهى رُبىً من رَبْعِها الخَرِبِ
ولا الخُدُودُ، وقد أُدْمِينَ من خَجَلٍ ... أشْهىٰ إلى ناظِري مِنْ خَدِّها التَّرِبِ
سَماجَةً غَنِيَتْ مِنها العيونُ بها ... عن كُلِّ حُسْنٍ بدا، أو مَنْظَرٍ عَجَبِ

فالتأليف بين الشعر والنثر في القصور والعجز، والسماء والأرض، والليل والضحى، والضوء والظلماء مكنّ الشاعر من بلوغ غاية المعنى وأقصى حدود الغلوّ فيه كما أنّ المعارضة والمناقضة بين السيف، والكتب، والصفائح، والصحائف، والفأل، والنحس، أوفت به إلى الغاية ذاتها.

أمّا البحتري، فلم يكن كأستاذه أبي‌تمّام ممّن يدمنون في الطباق، وإنّما كان يزاوله مزاولة الفطرة والبداهة، ينساق إليه بطبيعة التجربة وسياق المعاني، فتراه يقول:

صُنْتُ نَفْسي عَمّا يُدَنِّسُ نَفْسي ... وَتَرَفَّعتُ عن جَدا كلِّ جِبْسِ
وتماسَكْتُ، حينَ زَعْزَعَني الدَّهـ ... ـرُ الْتِماساً مِنْهُ لِتَعْسِي وَنَكْسي
بُلَغٌ مِنْ صُبَابةِ العَيْشِ، عِنْدي ... طَفَّفَتْها الأَيّامُ تَطْفيفَ بَخْسِ
وبَعيدٌ ما بين واردِ رَفْهٍ ... عَللٍ شُرْبُه، وَوَارِدِ خِمْسِ

وقـــديماً عَـــهِدْتَني إذ هَـناتٍ آبـياتٍ، عـلى الدنـياتِ، شُـمْسِ
ولقـد رابَـني نُـبُوُّ ابـنِ عَـمّي بَـعْدَ لـيـنٍ مِـنْ جـانِبَيْهِ وَأُنْس
واذا مـا جـفيتُ، كـنت حـريّاً أن أُرى غير مُصبحٍ حيثُ أُمسي

فهو في هذه القصيدة يعاني تجربة التنازع والخصام بين واقع يتردّى فيه، ومثال يصبو إليه، ويأنف من الذلّ والفقر والوحشة، ويتوق إلى صيانة الكرامة والألفة. فقد تمثّل ذلك كلّه في شعره عبر الألفاظ، وهي صنو للازدواجيّة القائمة في نفسه[١].

والمتنبّي يؤسّس هجاءه لكافور على الطباق، وربّما تـوحّدت نـزعة المـقابلة واتّفقت مع الطباق، وهو الأسلوب البلاغي الذي يجسّدها، وترد أساليب الطباق إلى ما يوافق طبيعة التجربة الجدليّة القائمة على التأكيد والنقض. فهو يقول:

عـيدٌ بـأيّةِ حالٍ عُـدْتَ يـا عـيدُ بـما مَضى أم لأمـرٍ فـيك تـجديدُ
أمّـــا الأَحِـــبّةُ فـالبيداءُ دونَـــهُم فــليتَ دونَكَ بـيداً دُونَــها بـيدُ
يــا سـاقِيَيَّ أَخَـمْرٌ فـي كُـؤوسِكُما أَم فـي كُـؤوسِكُما هَـمٌّ وتَسْـهيدُ
إذا أَرَدْتُ كـميتَ اللـونِ صـافيةً وَجَـدْتُها وَحَـبيبُ النـفس مـفقودُ
مـاذا لقـيتُ مـنَ الدُّنـيا وأَعْـجَبُهُ أَنّـي بـما أنـا شـاكٍ مِـنْهُ مَـحْسودُ
أمْسَـيْتُ أروح مُـثْرٍ، خـازناً ويـداً أنـا الغـنيُّ وأَمـوالي المـواعـيدُ
إنّـي نـزلتُ بكـذّابـينَ ضَـيفُهُمُ عن القرى وعن التَّرحـال مَـحْدودُ
صـار الخـصيُّ إمـامَ الآبـقينَ بـها فـالحُرُّ مُسْـتَعْبَدٌ والعَـبدُ مَـعْبُودُ
ما كُنْتُ أحْسَبُني أحْـيا إلى زمـنٍ يُسيءُ بي فـيه عـبدٌ وَهَـوَ مَـحْمودُ
من علم الأسود المـخصيّ مَكْرُمَةً أقـومُهُ البـيضُ أم آبـاؤهُ الصّـيدُ
أوْلىٰ اللـــئام كُـــوَيْفِيرٌ، بـمعذِرَةٍ في كلِّ لُـؤْمٍ وبـعضُ العـذْرِ تَـفْنيدُ
وذاكَ أَنَّ الفُـحُولَ البـيضَ عـاجِزَةٌ عن الجميل فكيفَ الخِصْيَةُ السُّودُ

فالطباق كائن في قصيدته بين ما مضى وتجديد في البيت الأوّل، وبين خمر وهم

---

١. انظر: النقد والأدب، ج٣، ص١٤٦.

في البيت الثاني، وبين وجدتها ومفقود في البيت الثالث، وبين شاك ومحسود في البيت الرابع، وبين الغنى والمواعيد في البيت الخامس، وبين القرى والترحال في البيت السادس، وبين الحرّ والمستعبد، وكذلك بين العبد والمعبود في البيت السابع، وبين يسيء ومحمود في البيت الثامن، وبين الأسود والأبيض في البيت التاسع، وبين الفحول البيض والخصيّة السوداء في البيت الأخير.

أمّا المقابلة، فهي وسيلة يفيد بها المعنى من المقارنة بين معنيين، كقوله: «بما مضى أم لأمر فيك تجديد» حيث عارض بين الماضي والحاضر.

و«أمّا الأحبّة فالبيداء دونهم، فليت دونك بيداً دونها بيد»، وتقوم المعارضة بين الأحبّة والأعداء وقد رمز إليهم بالعيد الذي حلّ عليه فيهم.

وفي قوله: «أخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيد»: من المعارضة بين الخمر والهمّ.

وفي قوله: «وجدتها وحبيب النفس مفقود»: من المقابلة بين يسر العثور على اللذّة، وعسر العثور على الحبيب، أي الهناء.

وفي قوله: «وأعجبه أنّي بما أنا شاك منه محسود»: من المقابلة بين الشكوى والحسد.

وفي قوله: «أنا الغنيُّ وأموالي المواعيدُ»: بين الغنى وأموال المواعيد.

و في قوله: «عن القرى وعن الترحال»: بين القرى والترحال.

ومن الطباق المتداول في كتب البلاغة قول السموءَل:

وَنُنْكِرُ إن شِئْنا على الناسِ قَوْلَهُم ... ولا يُنْكِرُون القَوَلَ حينَ نَقُولُ[1]

أي إنّهم لشدّة بأسِهِم يخشاهم الناسُ فلا ينكرونَ عليهم ما يقولون.

وقال آخر:

خُلقُوا وما خُلِقُوا لمكْرُمَةٍ ... فكأَنَّهُم خُلِقُوا وما خُلِقُوا

١. منهاج البلغاء، ص ٥٠؛ انوار الربيع، ج ٢، ص ٤١.

رُزقُوا وما رُزقُوا سماح يدٍ فكأنّهُم رُزقُوا وما رُزقُوا[١]

وقال أبو الطيّب:

ولقد عُرفْتَ وما عُرِفْتَ حقيقةً ولقد جُهِلْتَ وما جُهلْتَ خُمولا[٢]

أي عُرِفَ ظاهُرك ولم تُعرَفْ حَقيقَتُك، وجهلت للعجز عن فهم كنهك، لالخمول ذكرك.

وقول البحتري:

يُقَيّضُ لي من حيثُ لا أعلم النوى ويَسري إليّ الشوقُ من حيثُ أعْلَمُ[٣]

وممّا جمع بين طباقي السلب والإيجاب قولُ الفرزدق وهو من إنشادات ابن المعتزّ:

لعن الإلهُ بني كُليبٍ إنّهُم لا يَغْدِرُون، ولا يَفُونَ لجارِ
يستيقظونَ إلى نهيق حمارهم وتنام أعينُهُم عَنِ الأوتارِ[٤]

يقول ابن معصوم: في البيت الأول تكميل حسن؛ إذ لو اقتصر على قوله: «لايغدرون» لاحتمل الكلام المدح؛ إذ ترك العذر قد يكون عن عفّة، فقال: «ولايفون» ليفيد أنّه للعجز، كما أنّ ترك الوفاء للؤم، وحصل مع ذلك إيغال حسن؛ لأنّه لو وقف على قوله: «ولايفون» لتمّ المعنى، لكنّه لمّا احتاج إلى القافية أفاد بها معنىً زائداً حيث قال: «لجار»؛ لأنّ ترك الوفاء للجار أشدّ قبحاً من تركه لغيره.

❊ ❊ ❊

---

١. الايضاح، ص٢٥٧؛ ديوان أبي تمام، ج٣، ص١١٦؛ التبيان، ص ١٧١.

٢. الإيضاح، ص٢٥٧؛ أنوار الربيع، ج٢، ص٤٢؛ ديوان المتنبي، ج١، ص١٩٣.

٣. أنوار الربيع، ج٢، ص٤١؛ الطراز، ج٢، ص٣٨٣. يقيض: يهيّأ ويقدر. النوى: الفراق والبعد.

٤. انظر: الإيضاح، ص٢٥٦؛ أنوار الربيع، ج٢، ص٣٥ و ٣٦؛ حسن التوسل، ص٢٠٢. وفي ديوان الفرزدق، ج٢ ص ٤٥٠. قبح الاله بني كليب ... إلى نهاق حمارهم.

التدبيج

ومن الطباق ما سمّاه بعضهم «تدبيجاً» وبعضهم جعله وجهاً مستقلّاً برأسه، وهو فنّ دقيق المسلك، حلو المأخذ، رشيق الدلالة.

والتدبيج لغةً: أصله الديباج ـ فارسي معرب ـ وهو الحرير؛ لما فيه النقش والتزيين. والتدبيج: مصدر دبّجَ المطر الأرض، إذا سقاها، فأنبتت أزهاراً مختلفة، أي زيّنها بالرياض والديباج.

والتدبيج اصطلاحاً: هو استخدام المتكلّم الألوان (الأحمر والأصفر، والأخضر، والأبيض والأسود...) توريةً أو كناية عن معنى يقصده.

فتدبيج الكناية هو أن يقع الطباق بين ألفاظ دالّة على الألوان، ويكون المراد من تلك الألفاظ لازم معناها مع جواز إرادة معناها، كقول الشاعر:

غدا غُدْوَةَ والحَمْدُ نَسْجُ رِدَائِهِ فَلَمْ يَنْصَرِف إلّا وأكفانُهُ الأجْرُ

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما دجىٰ لها الليلُ إلّا وهيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ[1]

حيث كنى الشاعر باللون الأحمر عن القتل، وباللون الأخضر عن دخول الجنّة، وجمع بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق.

---

١. البيتان لابي تمام في مرثيته لمحمد بن عبد الحميد الطوسي حين استشهد، انظر: الديوان، ص ٣٢٠؛ تحرير التحبير، ص ٢٣٥؛ الطراز، ج٣، ص٧٨؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص١٧٨؛ حاشية الدسوقي، ج٤، ص٢٩٢؛ المصباح، ص٢١٣؛ المثل السائر، ج١، ص١٣٤.

فقد استخدم اللونين «أحمر ـ أخضر» استخداماً تقابلياً دون أن يكون بينهما تقابل، لكنّ التعامل التأويلي مع الدالّين يكشف عن تقابل كنائي يربط بينهما، فثياب الموت حمراء، كناية عن القتل أثناء الجهاد. موت سندس خضر، كناية عن الحياة في الجنّة: حياة[١]

وكقول عمرو بن كلثوم[٢]:

بأنّا نوردُ الرايات بيضاً ونُصدرُهُنَّ حُمْراً، قد روِيْنا[٣]

أراد بذلك أنّهم يردون الحرب وراياتهم بيض، وما أن تنتهي الحرب حتى تتلطّخ تلك الرايات بدماء أعدائهم.

وقول ابن حيوس:

إنْ تُرِدْ عِلْمَ حالِهِم عَنْ يَقينٍ فَالْقَهُم يَوْمَ نائلٍ أو نزالِ

تَلْقَ بِيضَ الوُجُوهِ سُودَ مُثار النَّقْـ ـعِ خُضْرَ الأَكْنافِ حُمْرَ النِّصالِ[٤]

و«بِيض الوجوه» يعود إلى يوم نائلهم، وهو كناية عن كرمهم، و«سود مثار النقع»، «خضر الأكناف»، و«حمر النصال»، كناية عن شجاعتهم.

والشاهد: التقابل بين بيض وسود، وخضر وحمر.

وممّا ورد في القرآن الكريم من تدبيج الكناية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[٥].

---

١. البلاغة العربية، ص٣٥٩.

٢. شرح المعلقات، ص٢٤٤، والبيت في كفاية الطالب، ص١٣؛ العمدة، ج١، ص٥٨٤.

٣. قال صاحب معاهد التنصيص، ج٣، ص١٨٠ مانصّه: ولو اتّفق له أن يقول:

من الأسل الظّماء يردنَ بيضاً ونُصدرهنّ حمراً قد روينا

لكان أبدع بيت للعرب في الطباق؛ لأنّه يكون قد طابق بين الإيراد والإصدار، والبياض والحمرة، والظمأ والري.

٤. وفيات الأعيان، ج٢، ص١٤؛ ديوان ابن حيوس، ج٢، ص٤٦٠ «في مكارم أو قتال» بدل «يوم نائل أو نزال».

٥. فاطر: ٢٧.

وقد أراد اللّه تعالى بذلك الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق؛ لأنّ الجادة البيضاء هي الطريق التي كثر سلوكها، وهي أوضح الطرق، ولهذا قيل: ركب بهم المحجّة البيضاء. ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء، كأنّها في خفائها والتباس معالمها تضادّ البيضاء في الظهور والوضوح.

والتدبيج المشتمل على التورية وهو أن يقع الطباق بين ألفاظ الألوان مع وجود التورية فيها وهي وقصد المعنى البعيد ممّا له معنيان، كقول الحريري: «فَمُذِ اغْبَرَّ العَيْشُ الأَخْضَرُ ازْوَرَّ المحبوبُ الأصفرُ، اسودَّ يومي الأبْيَضُ، وابْيَضَّ فَودي الأَسوَدُ، حتّىٰ رَثىٰ لي العدوُّ الأزرقُ. فحبّذا الموتُ الأحمرُ»[١].

فالمعنى القريب للمحبوب الأصفر إنسان تَضَمَّخَ بخلوقٍ فصار أصفر، أو أنّ المراد من المحبوب الأصفر هو المحبوب الذي اصفرّ لون وجهه من جرّاء المرض، أو من أثر المرض، والبعيد هو الذهب ـ وهو المراد هنا ـ فيكون تورية. وجمع الألوان لقصد التورية لا يقتضي أن يكون في كلّ لون تورية، كما توهّمه بعضهم[٢].

وقول الشاعر:

فـي قَصْدِهِم رافق الألْفَيْنِ أبيضَ ذا بَشْرٍ وأسوَدَ مهما شابَ يَبْتَسِمُ

فالأبيض والأسود لهما معنيان قريبان؛ وذلك كونها صفتين للألفين، ولهما معنيان بعيداً وهما الليل والنهار، فورّىٰ بالقريبين عن البعيدين.

---

١. مقامات الحريري، ج ١٠، ص ١٤٥؛ المقامة البغدادية، تحرير التحبير، ص ٥٣٢؛ نظم الدر، ص ٢٧٤. اخضرار العيش كناية عن طيبه ونعومته وكماله. واغبرار العيش كناية عن ضيقه ونقصانه، واسوداد اليوم كناية عن ضيق الحال وكثرة الهموم، ووصفه بالبياض كناية عن سعة الحال والفرح والسرور. وابيضاض فؤاده كناية عن ضعف بنيته ووهنه من كثرة الحزن والهمّ. والعدوّ الأزرق كناية عن الشديد العداوة، والموت الأحمر كناية عن القتل.

٢. وقيل: إنّ هذا المثال ناقص؛ لأنّ التورية ما وقعت إلّا في واحد من المتقابلات، والباقي منه كناية ومنه حقيقة. انظر: نظم الدر والعقيان، ص ٢٧٤.

الملحق بالطباق

١. **الطباق الخفي**، وهو أن يكون أحدهما مضادّاً للآخر، بيد أنّ بينهما مناسبة مّا. نحو قوله تعالى:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١].

إذ أنّ ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادّة للسكون، والوجه في العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل هو كون الحركة ضربين: حركة لمصلحة، وحركة لمفسدة، ولذا ألحق بالطباق.

وقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢]، إنّ الرحمة مسبّبة عن اللين الذي هو ضدّ الشدّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[٣]. فالمصيبة مخالفة للحسنة من غير مضادّة، إلّا أنّ المصيبة لا تقارب الحسنة، وإنّما تقارب السيّئة؛ لأنّ كلّ مصيبة سيّئةٌ، وليست كلّ سيئة مصيبة، فالتقاربُ بينهما من جهة العموم والخصوص.

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[٤]، فإدخال النار ليس ضدّ الإغراق في المعنى، ولكنّه يستلزم مايقابله وهو الإحراق؛ فإنّ من دخل النار احترق، والاحتراق ضدّ الغرق.

وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٥]،

---

١. القصص: ٧٣.

٢. الفتح: ٢٩.

٣. التوبة: ٥٠.

٤. نوح: ٢٥.

٥. الفتح: ٢٩.

فالمطابقة هنا هي في الجمع بين «أشدّاء ورحماء» فلفظة: «رحماء» ليس ضدّاً في المعنى لـ«أشدّاء» ولكنّ الرحمة تستلزم اللين المقابل للشدّة؛ لأنّ من رحم لان قلبه ورقّ.

وقول قريط بن أنيف:

يَجْزُونَ مِـنْ ظُـلْمِ أَهْـلِ الظُـلْمِ مَـغْفِرَةً   ومِـن إسـاءَةِ أهْـلِ السُّـوءِ إحسـانا

حيث قابل الظلم بالمغفرة، وليس الظلم ضدّاً لهـا، وإنّـما ضـدّه العـدل إلّا أنّـه لمّاكانت المغفرة قريبة من العدل من جهة أنّ العدل إعـطاء كـلّ ذي حـقّ حـقّه، والمغفرة هي الصفح والتجاوز، وهي أعظم أنواع العدل وأعلاها، حسنت المطابقة.

وأمّا التقابل بين الإساءة والإحسان، فهو حقيقي، ثمّ إنّ في قيدي: أهل الظـلم، وأهل السوء تتميماً على غاية من الحسن والجمال[1].

أمّا قول أبي الطيب المتنبّي:

لِمَنْ تطلبُ الدنـيا إذا لم تُـرد بـها   سـرور مُحـبٍّ أو إسـاءة مُـجـرم؟

فهو ليس من المطابقة؛ لأنّ المجرم ليس بضدّ في المعنى للمحبّ، وليس للمحبّ ضدّ إلّا المبغض. إلّا أن يقال: إنّ بين الإجرام والبغض تلازماً ادّعائياً، وكأنّ الشاعر يدّعي أنّ المجرم لايكون إلّا مبغضاًللمحبّ؛ لمنافاة حاله حاله.

٢. إيهام التضادّ وهو ما يكون التقابل فيه بين المعنيين البعيدين دون المـعنيين القريبين، نحو قول دعبل الخزاعي:

لا تَعْجَبي يا سَلْمُ مِـنْ رَجُـلٍ   ضَحِكَ المَشِيبُ برأسِهِ فَبَكىٰ[2]

فإنّه لا تضادّ بين الشيب الذي هو ضحك المشيب والبكاء، بل هما متناسبان، إلّا

---

١. التتميم: هو أن يذكر الشاعر معنىً ولا يدع شيئاً يتمّم به صحّته وجودته إلّا أتى به، إمّا بقصد المبالغة، واما بقصد الاحتياط. نقد الشعر، ص١٥٧.

٢. الإيضاح، ص ٢٥٨؛ الطراز، ج ٢، ص ٣٨٢؛ الشعر والشعراء، ج ٢، ص ١١؛ أنوار الربيع، ج ٢، ص ٣٨.

أنّه لمّا كان الضحك الحقيقي معناه السرور أوهم باستعارته للمشيب أنّه ضحك حقيقة، فقابله بضدّ الضحك الحقيقي وهو البكاء.

وقول أبي تمّام في الشيب:

لَهُ منظر في العين أبيض ناصِعٌ ولكنَّهُ في القَلْبِ أسودُ أسْفَعُ

الأبيض الناصع: الشديد البياض. والأسود الأسفع: الأسود المائل إلى الحمرة، وقد استعار «الأسود الأسفع» لما يحدثه منظره في نفسه من الهمّ والحزن، فمعناه الحقيقي هو الذي يقابل ماقبله لا المجازي، وقوله أيضاً:

وَتَنَظَّري خَبَبَ الركابِ يَنُصُّها مُحيي القريضِ إلى مُميتِ

فمحيي القريض (هو ناشره وباعث نهضته) كناية عن نفسه، ومميت المال (يعني باذله ومضيعه) كناية عن الممدوح. والشاهد في البيت هو أنّ كلّاً من «المحيي» و«المميت» لفظان غير متضادّين ولكنّ معنييهما الحقيقيّين متضادّان؛ حيث قابل الظلم بالمغفرة، وليس الظلم ضدّاً لها، وإنّما ضدّه العَدْل، إلّا أنّه لمّا كانت المغفرة قريبة من العدل من جهة أنّ العدل إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، والمغفرة هي الصفح والتجاوز وهي أعظم أنواع العَدْل وأعلاها، حسنت المطابقة.

وقول شاعر آخر:

وأخذت أطرار الكلام فلم تدع شتماً يضرّ ولا مديحاً ينفعُ

فضدّ المديح هو الهجاء وليس الشتم وإن كان قريباً من معناه، ولهذا فاستعماله ضدّاً للمديح و هو من قبيل إيهام التضادّ.

وقول ابن رشيق القيرواني:

وقد أطفأوا شمسَ النهارِ وأوقدوا نجوم العوالي في سماء عجاج

فـ«إطفاء الشمس» عبارة عن «إثارة العجاج» التي غطّت على الشمس و«إيقاد النجوم» عبارة عن «تشريع أسِنّة الرماح».

وقول المغربي:

مـن كـل مشـتمل بـمنصل عـزمه
ذي هـمّة يـطأ السـماك هـمامِ
نشوان مـن خـمر الكـرى صـاحي النـدى
ريّـان مـن مـاء المـحامد ظـام[1]

والفرق بين التدبيج المشتمل على الكناية وإيهام التضادّ هو أنّ الكناية التي في التدبيج يصحّ أن يراد بها معناها الأصلي، فينافي مـاقبله. بـخلاف إيـهام التـضادّ، فلا يصحّ إرادة معناها الأصلي وإن اشتركا في عدم وجود التضادّ الحقيقي.

أمثلة قرآنيّة أخرى على الطباق الإيجابي:

١. الطباق بين الهدى والضلالة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ...﴾[2] وبين الرشد والغيّ. في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ...﴾[3].

٢. الطباق بين الفساد والصلاح، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ...﴾[5].

٣. الطباق بين الحسنة والسيّئة: في قوله تـعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾[6].

---

١. انوار الربيع، ج ٢، ص ٣٩.
٢. البقرة: ١٦.
٣. البقرة: ٢٥٦.
٤. البقرة: ٢٢٠.
٥. المائدة: ٣٩.
٦. الرعد: ٦.

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِالْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

٤. الطباق بين الحقّ والباطل، في قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَـٰدَلُواْ بِالْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[٣].

٥. الطباق بين الطيّب والخبيث، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾[٤].

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[٥].

٦. الطباق الحلال والحرام، وقوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ﴾[٦].

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٧].

٧. الطباق بين الايمان والكفر، كقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[٨].

وبين المؤمن والكافر، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٩].

٨. الطباق بين الضرّ والنفع، كقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[١٠].

و ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ

---

١. الاعراف: ١٦٨.
٢. الاعراف: ١١٨.
٣. غافر: ٥.
٤. المائدة: ١٠٠.
٥. الأعراف: ٥٨.
٦. آل عمران: ٥٠.
٧. البقرة: ٢٧٥.
٨. البقرة: ١٠٨.
٩. التغابن: ٢.
١٠. الحج: ١٣.

ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[١].

٩. والطباق بين السرّاء والضرّاء، كقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[٢].

و قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣].

١٠. والطباق بين الحزن والفرح، كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۞ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾[٤].

و ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾[٥].

١١. والطباق بين الأخيار والأشرار، كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[٦].

و ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾[٧].

١٢. والطباق بين العزّة والذلّة، ﴿تُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[٨].

و قوله: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[٩].

---

١. الشعراء: ٧٢ ـ ٧٤.

٢. البقرة: ٢٧١.

٣. آل عمران: ١٣٤.

٤. هود: ٧٤ و ٧٥.

٥. التوبة: ٨١.

٦. القلم: ٣٥ و ٣٦.

٧. الجن: ١١.

٨. آل عمران: ٢٦.

٩. النمل: ٣٤.

١٣. والطباق بين الشقاء والسعادة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[1].

و قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَـآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

١٤. والطباق بين الطاعة والعصيان، كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3].

و قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَـإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

١٥. والطباق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[5].

و قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[6].

١٦. والطباق بين السخط والرضا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[7].

و قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[8].

١٧. والطباق بين الطواعية والكراهية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَـوْعًا أَوْ كَـرْهًا

---

١. هود: ١٠٥.

٢. هود: ١٠٨.

٣. التغابن: ١٢.

٤. ابراهيم: ٣٦.

٥. آل عمران: ١٠٤.

٦. النحل: ٩٠.

٧. آل عمران: ١٦٢.

٨. محمد: ٢٨.

لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾[١].

و قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢].

١٨. والطباق بين القصد والجائر، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾[٣].

١٩. والطباق بين النجاة والهلاك، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٤].

٢٠. والطباق بين الأعمى والبصير، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[٥].

و قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦].

٢١. والطباق بين الظنّ واليقين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[٧].

و قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[٨].

٢٢. والطباق بين الصدق والكذب، كقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[٩].

---

١. التوبة: ٥٣.

٢. فصلت: ١١.

٣. النحل: ٩.

٤. الانبياء: ٩.

٥. الأنعام: ٥٠.

٦. النمل: ٨١.

٧. النساء: ١٥٧.

٨. الجاثية: ٣٢.

٩. النمل: ٢٧.

و قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ...﴾[١].

٢٣. والطباق بين الصدّيق والعدوّ، كقوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ...﴾[٣].

٢٤. والطباق بين الضيق والسعة، كقوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[٤].

و قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ...﴾[٥].

٢٥. والطباق بين العسر واليسر، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦].

و قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٧].

٢٦. والطباق بين القرب والبعد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٨].

و قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾[٩].

---

١. الاحزاب: ٢٤.
٢. الزخرف: ٦٧.
٣. المائدة: ٨٢.
٤. التوبة: ٢٥.
٥. التوبة: ١١٨.
٦. البقرة: ٢٨٠.
٧. التوبة: ٢٨.
٨. المعارج: ٦ و ٧.
٩. الجن: ٢٥.

٢٧. والطباق بين الظاهر والباطن، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[١].

و قوله: ﴿وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[٢].

٢٨. والطباق بين القبض والبسط، نحو قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣].

و قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ...﴾[٤].

٢٩. والطباق بين الغني والفقير، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٥].

و قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[٦].

٣٠. والطباق بين التسريح والإمساك، نحو ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾[٧].

و ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾[٨].

٣١. والطباق بين الرغبة والرهبة، نحو ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾[٩].

و ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[١٠].

---

١. لقمان: ٢٠.

٢. الأنعام: ١٢٠.

٣. البقرة: ٢٤٥.

٤. الرعد: ٢٦.

٥. فاطر: ١٥.

٦. الضحى: ٨.

٧. البقرة: ٢٢٩.

٨. الطلاق: ٢.

٩. الأنبياء: ٩٠.

١٠. الاعراف: ١٥٤.

٣٢. والطباق بين الحياة والموت، نحو ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾[١].

و ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٢].

٣٣. والطباق بين البدء والإعادة، نحو ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٣].

و ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[٤].

٣٤. والطباق بين اليقظة والمنام، نحو ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[٥].

و ﴿يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[٦].

٣٥. والطباق بين الليل والنهار، نحو ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[٧].

و ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[٨].

٣٦. والطباق بين الإدبار والإقبال، نحو ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾[٩].

و ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾[١٠].

٣٧. والطباق بين الجدّ والهزل، نحو ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ﴾[١١].

و ﴿فَالْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[١٢].

---

١. ق: ٤٣.

٢. لقمان: ٢٨.

٣. النمل: ٦٤.

٤. الروم: ١١.

٥. الكهف: ١٨.

٦. الصافات: ١٠٢.

٧. النمل: ٨٦.

٨. النور: ٤٤.

٩. المدثر: ٣٣و ٣٤.

١٠. الانفال: ٥٠.

١١. الأنبياء: ٥٥.

١٢. وهذا من باب التبكيت للمجرمين وتذكيرهم لما كان منهم في الدنيا من سخريّة، وضحك، واستهزاء مستمرّ بالمؤمنين الدالّ عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾. المطفّفين: ٢٩و ٣٤.

٣٨. والطباق بين الإحسان والإساءة، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[١].

٣٩. والطباق بين الظلمات والنور، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[٢].

و ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣].

٤٠. والطباق بين الجنّة والنار، نحو قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[٤].

٤١. والطباق بين العشيّ والإبكار، نحو قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾[٥].

٤٢. والطباق بين الحبّ والكراهية نحو قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[٦].

٤٣. والطباق بين الزيادة والنقصان نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[٧].

---

١. الأحقاف: ١٦.

٢. البقرة: ١٧.

٣. الطلاق: ١١.

٤. الشعراء: ٩٠ـ٩١.

٥. غافر: ٥٥.

٦. الحجرات: ٧.

٧. الرعد: ٨.

أمثلة حول طباق الجمل المركّبة:

١. قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[1].

٢. قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[2].

٣. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

٤. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[4].

٥. قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[5].

٦. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[6].

٧. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[7].

٨. قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[8].

٩. قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ

---

١. الرعد: ٣٩.

٢. البقرة: ٢١٦.

٣. الانعام: ١٧.

٤. الحج: ١١.

٥. المعارج: ١٩ و ٢٠.

٦. الطباق بين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وبين ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ والجملة المحذوفة التي يدلّ السياق عليها وهي في نعيم الجنّة خالدين فيها. وبين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وفيه مقابلة الطباق بين الأُوَل مع الثلاث الأُخر، و الآية في البيّنة: ٦ و ٧.

٧. الزلزلة: ٧ـ٨.

٨. الاسراء: ١٥.

يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[١].

١٠. قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[٢].

١١. قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣].

١٢. قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[٤].

١٣. قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[٥].

١٤. قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[٦].

١٥. قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٧].

١٦. قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٨].

١٧. قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾[٩].

---

١. الانعام: ١٢٥.

٢. الزمر: ٣٦ و ٣٧.

٣. فاطر: ٨.

٤. ابراهيم: ٢٧.

٥. النساء: ٨٥.

٦. الانعام: ١٦٠.

٧. الاسراء: ٧.

٨. القصص: ٨٤.

٩. الشورى: ٤٨.

١٨. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ﴾[١].

١٩. قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢].

٢٠. قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[٣].

٢١. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[٤].

٢٢. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٥].

٢٣. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾[٦].

٢٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[٧].

٢٥. قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[٨].

٢٦. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾[٩].

٢٧. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١٠].

---

١. محمّد: ٣.

٢. الشورى: ٢٤.

٣. الانفال: ٤٢.

٤. الاسراء: ٨٠.

٥. يس: ٩.

٦. التوبة: ٤٠.

٧. الروم: ٣٣.

٨. الحديد: ٢٣.

٩. عبس: ٣٨ـ٤٢.

١٠. الملك: ٢٢.

أمثلة قرآنيّة أخرى للطباق السلبي:

١. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[١].

٢. قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

٣. قوله تعالى في شأن أهل النار: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[٣].

٤. قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٤].

٥. قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٥].

٦. قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٦].

---

١. يونس: ٤٠.

٢. المائدة: ٨.

٣. المائدة: ٣٧.

٤. المائدة: ٦٧.

٥. الروم: ٦ و ٧.

٦. فيه فنون من البديع إضافة إلى الطباق (و الآية في الأنعام: ١٠٣):

أ) فنّ الاحتراس: فإنّه سبحانه لمّا اثبت لنفسه إدراك الأبصار اقتضت البلاغة فنّ الاحتراس تفادياً من أن يظنّ ظانّ أنّه إذا لم يكن مدركاً لم يكن موجوداً، فوجب أن تقول «وهو يدرك الأبصار» لتثبت لذاته الوجود.

ب) فنّ اللّف والنشر، فقوله: «اللطيف» راجع إلى قوله: «لا تدركه الأبصار»، وقوله: «الخبير» راجع إلى قوله: «وهو يدرك الأبصار».

ج) ردّ العجز على الصدر وهو قوله: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» لمجيء الأبصار في أوّل الكلام وآخره.

٧. قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[1].

٨. قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ...﴾[2].

٩. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾[3].

١٠. قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[4].

١١. قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾[5].

١٢. قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[6].

١٣. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[7].

١٤. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[8].

١٥. قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَافْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾[9].

❊ ❊ ❊

---

١. التوبة: ٥٦.

٢. آل عمران: ١١٩.

٣. البقرة: ٢٤٩.

٤. النساء: ١٦٤.

٥. الاحزاب: ١٣.

٦. الحج: ٢.

٧. ابراهيم: ٢٢.

٨. الانعام: ١٤.

٩. الرعد: ١٨.

المقابلة

المقابلة لغةً: المواجهة، وقابل الشيء بالشيء: عارضه به ليرىٰ وجه التماثل، أو التخالف بينهما. وقال الليث: إذا ضمّمت شيئاً إلى شيء قلت: قابلته به[1].

وللمقابلة معانٍ عدّة تختلف بحسب الاستعمال الاصطلاحي لها، فهي تدلّ في الاصطلاح الفلسفي علىٰ الموجودات التي تتقابل بالصور المتضادّة. وهي غالباً ماتكون بين أربعة أضداد: ضدّان في صدر الكلام المنظوم أو المنثور، وضدّان في عجزه. وتقابل القضايا في المنطق الصوري هو اشتراكها في الموضوع والمحمول واختلافها إمّا كمّاً وإمّا كيفاً وإما كّماً وكيفاً معاً[2].

والمقابلة في الاصطلاح البلاغي هي أن يأتي المتكلّم بلفظين أو بمعنيين متوافقين فأكثر، ثمّ يأتي بضدّيهما بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب.

ويبدو أنّ أوّل من ذكر المقابلة بمعناها الاصطلاحي هو قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ.ق) حيث كانت المقابلة الصحيحة عنده تعني «أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض في المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف علىٰ الصحة، أو يشترط شروطاً، ويعدّد أحوالاً في أحد

---

١. انظر: لسان العرب، كلمة «المُقابلة» وبقية المعاجم اللغوية.

٢. انظر: المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص٤٠٢؛ المعجم الفلسفي، ج٢، ص٢٨٧؛ المنطق الصوري (للنشّار)، ص٣٢٦؛ تلخيص الخطابة (لابن رشد)، ص٦٢٠؛ كتاب السياسة المعنية (للفارابي)، ص٥٧.

المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده، وفيما يخالفه بأضداد ذلك، كما قال بعضهم:

فَـوَاعَـجَبا كَـيْفَ اتَّـفَقْنَا فَـنَاصِحٌ وَفِيٌّ وَمَطْوِيٌّ عَلىٰ الغِشّ غَادِرُ[1]

وسبق أن ذكرنا كيف أَنّ قدامة استمدّ تعريفه من تعريف ارسطو، وكيف أنّ بعض النقّاد قَبْلَ قدامة قد التفتوا إلىٰ هذا الفنّ البلاغي، فقد ذكره ثعلب ـ مثلاً ـ وسمّاه بـ«مجاورة الأضداد»[2]، وابن المعتزّ أدخله في المطابقة[3]، ولكنّهم لم يذكروا المقابلة في مدلولها الاصطلاحي.

ويتأكّد أنّ المقابلة سواء في استعمالها الاصطلاحي الفلسفي أو في استعمالها الاصطلاحي البلاغي قائمة أساساً علىٰ مقابلة الأضداد[4].

ومثّل لها ابن وهب ـ دون أن يعرّفها ـ بقول الشاعر:

أميلُ مع الذمـامِ علىٰ ابـنِ أُمّـي وأحـملُ للصديقِ علىٰ الشقيقِ

أفـرّقُ بـيـنَ مَـعْرُوفي وَمَـنّي وأجْـمَعُ بـينَ مـالي والحـقوقِ

فالشاعر أحسن القسمة في المقابلة، فمال مع ما ينبغي أن يمال معه، وحمل علىٰ مايحسن الحمل عليه، وفرّق ماينبغي أن يفرّقه، وجمع ماينبغي أن يجمعه.

وأشار إلىٰ المقابلة القبيحة عنده بقول الشاعر:

أمـوتُ إذا مـاصَدَّ عَـنّي بـوجهِهِ وَيَفْرحُ قلبي حينَ يَرْجِعُ للوَصْلِ

فلو جعل ضدّ الموت فرح القلب، وضدّ الصدّ بالوجه الوصل، ولو قال:

أَمُـوتُ إذا مـاصَدَّ عَـنّي بـوجهِهِ وَأحْـيا إذا مَـلّ الصدُودَ وأَقْبَلا

---

١. نقد الشعر، ص١٥٢ ومابعدها. فقد أتىٰ بإزاء كلّ ماوصفه من نفسه بما يضادّه علىٰ الحقيقة ممّن عاتبه، حيث قال بإزاء «ناصح»: «مطوي على الغِشّ»، وبإزاء «وفي»: «غادر».

٢. قواعد الشعر ٦٢.

٣. البديع، ص٣٦ ومابعدها.

٤. المصطلح النقدي، ص٤٠٢.

فلوجعل ضدّ الموت الحياة، وضدّ الصدّ بالوجه الإقبال لكان مصيباً[١]

وعرّف أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ.ق) هذا اللون البديعي بقوله: «المقابلة: إيراد الكلام، ثمّ مقابلته بمثله في اللفظ والمعنىٰ علىٰ جهة الموافقة أو المخالفة».

وقسّمها إلى نوعين:

الأوّل: المقابلة بالمعنىٰ، وهي مقابلة الفعل بالفعل، مثاله قوله تعالىٰ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[٢].

فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة بظلمهم.

وجعل منه مقابلة المعاني بعضها من بعض ومثّل له بقول الطرمّاح:

أسرناهُم وأنْعَمْنَا عَلَيْهِم … وأسقَيْنا دِماءَهُمُ التُرابا

فما صَبَرُوا لِبَأْسٍ عِنْدَ حربٍ … ولا أدّوا لُحْسنِ يدٍ ثَوابا

فجعل بإزاء الحرب إن لم يصبروا، وبإزاء النعمة ان لم يثيبوا، فقابل على وجه المخالفة.

والنوع الثاني: المقابلة بالألفاظ، كقول عمرو بن كلثوم:

ورثناهُنَّ عن آباءِ صدقٍ … ونُورِثُها إذا مِتْنا بَنِينا[٣]

ثمّ ذكر فساد المقابلة وهو أن تذكر معنىٰ تقتضي الحال ذكره بموافقة أو مخالفة، فيؤتى بما لايوافق ولا يخالف، مثل أن يقال: «فلانٌ شديدُ البأس، نقيُّ الثغر»؛ لأنّ نقاء الثغر لايخالف شدّة البأس ولايوافقه[٤].

وعرّف الباقلاني المقابلة (ت ٤٠٣هـ.ق) بقوله: «هي أن يوفّق بين معان ونظائرها والمضادّ بضدّه» ومثّل لها بقوله النابغة الجَعْدِي:

---

١. البرهان في وجوه البيان، ص١٧٦.

٢. النمل: ٥٢.

٣. كتاب الصناعتين، ص٣٣٧.

٤. المصدر، ص ٣٤٠، والمقابلة هنا بين «يسرّ صديقه» و«يسوءُ الأعاديا».

فتىً تَمَّ فيهِ ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلىٰ أنَّ فيهِ ما يَسُوءُ الأعادِيا[١]

وعرّفها ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ.ق) بقوله: «المقابلة بين التقسيم والطباق، وهي تتصرّف في أنواعٍ كثيرة، وأصلها: ترتيب الكلام علىٰ مايجبُ، فيعطىٰ أوّل الكلام مايليقُ به أوّلاً، وآخِرَهُ مايليقُ به آخِراً ويؤتىٰ في الموافِقِ بما يُوافِقُهُ، وفي المُخالِف بما يُخالِفُهُ» وأكثر ماتجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوَزَ الطباقُ ضِدَّيْنِ كان مُقابَلَةً، وذكر من جيد المقابلة قول بكرِ بن النطاح الحنفي:

أُذْكِي وأُوقِدُ للعداوةِ والقِرَىٰ نارَيْنِ: نارَ وغىً، ونارَ زِنادِ[٢]

ثمّ ذكر أنّ من المقابلة ماليس مخالفاً ولاموافقاً كما شرطوا إلّا في الوزن والازدواج فقط فيسمّىٰ حينئذٍ موازنة، نحو قول النابغة:

أخلاقُ مجدٍ تَجَلَّتْ مالَها خَطَرٌ في البَأْسِ والجودِ بينَ الحِلْمِ والخَفَرِ[٣]

وذكر المصري (ت ٦٥٤هـ.ق) أنّ «المقابلة عبارة عن توّخي المتكلّم الكلام علىٰ ماينبغي، فإذا أتىٰ بأشياء في صدر كلامه أتىٰ بأضدادها في عجزه علىٰ الترتيب بحيث يقابل الأوّل بالأوّل والثاني بالثاني في المخالف والموافق، ومتىٰ أخَلَّ بالترتيب كانت المقابلة فاسدة، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد، وتكون غالباً بجمع بين أربعة أضداد: ضدّين في صدر الكلام، وضدّين في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد، خمسة في الصدر وخمسة في العجز».

وفرّق بين الطباق والمقابلة من وجهين:

أحدهما: أنّ الطباق لايكون إلّا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها،

---

١. إعجاز القرآن، ص٨٧ و ٨٨؛ شرح الحماسة، ج٣، ص٨٣؛ أمالي المرتضىٰ، ج١، ص١٩٤.

٢. العمدة، ج١، ص٥٩٣، و البيت في كتاب كفاية الطالب، ص١٤٥ شاهدٌ على المقابلة، وأذكىٰ النار: أوقدها، والحرب: أشعل نارها، والزناد: العود الذي تقتدح به النار.

٣. المصدر، ج١، ص٥٩٧، و البيت في ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٠ مع الشعر المنحول، وقد نقله المحقّق (محمد أبوالفضل إبراهيم) عن العقد الثمين، ص١٦٨. وهو في كفاية الطالب، ص١٤٦ شاهد على المقابلة.

ولكن الأضداد أعلىٰ رتبة وأعظم موقعاً.

والثاني: أنّ الطباق لايكون إلّا بين ضدّين فقط، والمقابلة لاتكـون إلّا بـما زاد على الأربعة إلى العشرة[١]

وقسّم أبو الطيب بن الشريف الرندي الأندلسى[٢] المـقابلة إلى لفـظية ومـعنوية، فاللفظية علىٰ ثلاثة أنحاء:

الأوّل: أن يكون في البيت قسمان أو أكثر في كلّ قسم لفظان متواليان، كلّ لفظ منهما يماثل نظيره في الترتيب والمادّة اللفظيّة من اسم أو فعل أو حرف، وفي الصفة ومناسبة الإعراب وموازنة التقطيع، كقول أبي الطيّب المتنبّي:

لهم أوجهُ غُرٌّ وأيدٍ كَريمَةٌ وَمَـعرفَةٌ عِـدٌّ وألسـنةٌ لدٌّ

وقوله:

هىَ الغـرضُ الأقـصىٰ ورؤيـتُكَ المُـنىٰ وَمَــنْزِلُكَ الدُنْــيا وأنْتَ الخــلائق

الثاني: أن يتقابل المصراعان من البيت فتكون كلّ كلمة من إحـداهـما تـماثل نظيرها من الآخر فيما ذكر أو في بعضه، كقوله أيضاً:

لساني بنطقي صامتٌ عند عـاذلٍ وقلبي بصَمتي ضاحِكٌ مِنْهُ هازِلُ

الثالث: أن تكون المقابلة بين بيتين كقوله أيضاً:

وصـاحِبُ الجُـودِ لايُـفارِقُهُ لَو كانَ للجُودِ مَـنطِقٌ عَـذَلَهْ

و راكِبُ الهَــوْلِ مــايُفَتِّرُهُ لَو كانَ للهَوْلِ مَحْرَمٌ خَـذَلَهْ

أمّا المقابلة المعنوية، فعلىٰ ثلاثة أنحاء أيضاً:

---

١. تحرير التحبير، ج ١، ص١٨.

٢. الرُّندي شاعر أديب من أعلام القرن السابع الهجري، وصاحب القصيدة المشهورة:

لكـلّ شـيءٍ إذا مـاتم نُقصـانُ فلا يَغرُّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سَـرَّهُ زَمَـنٌ ساءَتْهُ أزمانُ

وهي قصيدة طويلة يذكر فيها ما آل إليه حال الأندلس بعد تقوض أركانها بسرعة مذهلة، انظر: نفح الطيب، ج٦، ص ٢٣٤.

الأوّل: مركّب من مماثلة ومطابقة، وذلك بأن يؤتىٰ في البيت بلفظين متواليين ثمّ بآخرين مماثلين لهما في الترتيب وسائر الشروط، وربّما نقص بعض، كقول عمرو بن معدي كرب:

ويبقىٰ بَعْدَ حِلْمِ القوم حِلْمِي وَيَبْقىٰ بَعْدَ زادِ القومِ زادِي

ونقل لابن زيدون بيتاً فيه مقابلة ثلاثة بثلاثة:

بالأمسِ كنّا ومايُخشىٰ تَفَرُّقُنا واليومَ نَحْنُ ومايُرْجىٰ تَلاقِينا

ولأبي الطيّب مقابلة أربعة بأربعة:

أزُورُهُمْ وَسَوادُ اللّيلِ يَشْفَعُ لي وَأنثني وَبَياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بي[1]

والثاني: في معنىٰ التشبيه، كقول امرئ القيس «كأنّ قلوب الطير..»

وقول المتنبّي:

نَصِيبُك في حياتِك مِنْ حَبيبٍ نَصِيبك في مَنَامِك مِنْ خَيالِ

والثالث: في معنى التفسير، كقول بكر بن النطاح:

أذْكَىٰ وأوْقَدَ للعَداوةِ والقِرىٰ ناراً تُروِّعُهُ ونارَ رَمادِ

وأضاف نوعاً سمّاه مقابلة منعكسة ومثّلَ لها بقول ابن المعتزّ:

ثَغْرٌ وريقٌ ونَشْرُ مِسْكٌ وخُمْرٌ ودُرُّ

قال: كأنّه طوىٰ الشطر على الشطر، فانطبق كلّ لفظ على مقابله[2].

وزاد السكّاكي في تعريف المقابلة قيداً آخر، فقال:هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضدّيهما، ثمّ إذا شرطت هنا، شرطت هناك ضدّه[3].

---

١. فقد قابل بين «أزورهم» و«أنثني»، وبين «سواد» و«بياض»، وبين «الليل» و«الصبح»، وبين «يشفع» و«يغري».

ومنهم من عدّه مقابلة خمسة بخمسة باضافة مقابلة «لي» و«بي».

٢. الوافي في نظم القوافي (لأبي الطيب الرندي ـ نسخة مصوّرة عن فاس بمعهد المخطوطات)، ص٩٧ و ٩٨ عن كتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص٤٥٠.

٣. المفتاح، ص١٧٩ وهذا هو عين تعريف الرازي للمقابلة (انظر: نهاية الإيجاز، ص٢٨٦).

ولم يعتبره الأكثرون؛ لأنّهم عدّوا من المقابلة قول أبي دلامة

مـا أحْسَـنَ الدِّيـنَ والدُّنْيَا إذا اجْـتَمَعا   وأَقْـبَحَ الكُـفْرَ والإفْـلاسَ بـالرَّجُلِ[١]

فقابل بين الحسن والقبح، والدين والكفر، والدنيا والإفلاس. ومـع ذلك فـالقيد المذكور معدوم فيه؛ لأنّه اشترط في الديـن والدنـيا الاجـتماع ولم يشـترط فـي الإفلاس والكفر ضدّه، فلايكون هذا البيت عند السكّاكي من المقابلة[٢].

وأدخل الخطيب القزويني المقابلة في الطباق، وقد عدّها السكّاكي قسماً مستقلّاً من البديع المعنوي.

ولايخفىٰ أنّ في الطباق حصول التوافق بعد التنافي ولذا سمّي بـالطباق، وفـي المقابلة حصول التنافي بعد التوافق ولذا سمّي بالمقابلة وفي كليهما إيراد المعنيين بصورة غريبة فكلّ منهما محسن بانفراده واستلزام أحدهما للآخر لايقتضي دخوله فيه[٣].

ومن أمثلة المقابلة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٤].

جمع في هذه الآية بين الطباق اللفظي والطباق المعنوي. أمّا اللفظي، ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ... وَيَنْهَىٰ﴾. وأمّا المعنوي، ففي قوله تعالى: ﴿بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾. فان الثـلاثة الأُخـر اضداد للثلاثة الأُوَل، لأن الثلاثة الأُوَل من الفعل الحسن، والثلاثة الأُخَر من الفعل القبيح، فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية.

---

١. الايـضاح، ص٢٥٩؛ الاشـارات، ص ٢١٠؛ مـعاهد التـنصيص، ج٢، ص٢٠٧؛ أنـوار الربيع، ج١، ص٢٩٩؛ تحرير التحبير، ج١، ص١٨١؛ العمدة، ج١، ص٥٩٢؛ المصباح، ص١٩٤؛ المطول، ص٦٤٣.

٢. أنوار الربيع، ج١، ص٢٩٩.

٣. انظر شروح التلخيص ٤: ٢٩٧.

٤. النحل: ٩٠.

وأمّا التقابل في هذه الآية، فلقد جمع فيها بين ثلاثة متقابلات:

الأوّل: منها مأمور به، والثلاثة التوابع منهيٌّ عنها، ثمّ هي فيما بينها متقابلة أيضاً، فالتقابل بين خصال الخير وخصال الشرّ قد تجسّدت بأوضح صورة في هذه الآية:

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[١].

والمقابلة هنا بين صفات أهل البر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، وصفات أهل الفجور: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، يتخلّله الطباق بين «أعطىٰ» و«بخل»، وبين «اتّقىٰ» و«استغنىٰ»، وبين «صدّق» و «كذّب». والايقاع بين المتجانسين «اليسرىٰ» و«العسرىٰ»، فالأولىٰ تمثّل الخصلة المؤدّية إلى الخير والتي عاقبتها الجنّة، والثانية تمثّل الخصلة المؤدّية إلى الشرّ والتي عاقبتها النار، واتّحاد الإيقاع يوحي بأنّ الخصلتين تصدران بنفس القوّة، ليؤدّيا إلىٰ طريقين متقابلين يتطابقان في وضوحهما.

إنّ جودة التعبير المشتمل علىٰ محسّنات بديعية تأتي من صميم النصّ وتستمدّ جمالها من مفردات تلك الدلالات المعنوية للألفاظ الناشئة من ترتيبها في نسق معين، ثم من الموازنة والايقاع الموسيقي الناشئين من مجموعة إيقاعات تلك الألفاظ متناغمة بعضها مع بعض، ثمّ من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ المتناسقة في العبارة، وهذه في مجموعها تدلّ علىٰ القيمة الكاملة للكلام المعجز.

وقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

الجهاد فرض من فروض الإسلام، ومظهر من مظاهر التقوىٰ، جعله اللّه وسيلة سامية لغاية رفيعة، إلّا أنّ النفوس تكرهه وتنفر منه، وتحبّ خلافه وتنسيقاً مع جوّ

---

١. الليل: ٥ ـ ١٠.

٢. البقرة: ٢١٦.

«الكره» جاء بصيغة المبالغة لترسّم صورة الموضوع بظلّها الذي تلقّيه في الخيال، فذكره بمعنىٰ الكراهة علىٰ وضع المصدر موضع الوصف، كأنّه نفسه؛ لفرط كراهتهم منه. واستعمل لذلك «عسىٰ» التي جمعت بين الإشفاق والترجّي، وعقّب بأنّ كراهة الخير ومحبّة الشرّ كلاهما ممّايشفق منه. وتكرير «عسىٰ»؛ لكون المؤمنين كارهين للحرب، محبين للسلم، فأرشدهم اللّه إلىٰ خطأهم في الأمرين. أي لا في كرهكم أصبتم ولا في حبّكم اهتديتم؛ لأنّكم لاتقدرون علىٰ أن تهتدوا بأنفسكم إلىٰ حقيقة الأمر، فعليكم أن تسلموا الأمر للّه.

وقد رسّم سبحانه صورتين متقابلتين: صورة الكراهة والمحبّة ﴿عَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ﴾ و ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ﴾، وهي الصورة الحاضرة؛ إذ في المضارع معنىٰ الاستمرار والإحضار، وصورة ماضية في الزمان «هو خير» و «هو شرّ»، حيث يعمل الخيال في استحضار صورتهما ليقابلهما بالصورة المنظورة. ثم عدّ المسافة بين الصورتين وجعلهما متقابلتين، ليثبت ان العلم له وحده ولينفي العلم عن غيره علىٰ الإطلاق.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

وقد جاء الطباق بين الليل والنهار في صدر الكلام، وجاء في عجزه طباق بين السكون والحركة مقابلاً كلّ طرف منه بالطرف الآخر علىٰ نحو الترتيب. ثمّ أتمّ صدر الكلام وعجزه بمناسبة معنوية. فالسمع يناسب الليل؛ لعدم نفوذ البصر في الظلمة، والإبصار يناسب النهار[٢].

---

١. القصص: ٧١ ـ ٧٣.

٢. رجّح البعض بيت أبي الطيب على بيت أبي دلامة ـ الذي سبق ذكره ـ بكثرة المقابلة فيه مع سهولة النظم وأن ←

كما أنّ في الكلام لفّاً ونشراً مرتّباً، حيث جمع الليل والنهار، ثمّ قال: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، جعل السكن في الليل والابتغاء لطلب الرزق في النهار.

وحيث إنّ الحركة تتناسب مع المصلحة والمفسدة، فلذا عبّرَ سبحانه عن الحركة بلفظ ابتغاء الفضل الذي لايكون إلّا لمصلحة، وهذا ما يسمّى بالإرداف. وهو أن يعبّر المتكلّم عن معنىً لا بلفظه الموضوع له، ولا بدلالة الإشارة إليه، بل بلفظ رديفه[١] وجعل العلّة في وجود الليل والنهار حصول المنافع للإنسان حيث قال: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ و ﴿لِتَبْتَغُواْ﴾ بلام التعليل.

فجمعت بين المقابلة والتعليل، والإرداف والائتلاف، وحسن النسق وحسن البيان؛ لمجيء الكلام متلاحماً آخذاً بعضه بأعناق بعضٍ.

ثمّ أخبر بأنّ جميع ما عدّده من النعم هي بعض رحمته حيث قال مبعّضاً «ومن رحمته»، هذه الكلمة وما بعدها تفسّر ما ذكر أوّلاً بنحو مناسب. وهذا مايسمّىٰ بفنّ التفسير.

وقال النبيّ ﷺ: «اللّـهُمَّ اجْعَلْني مِنَ الذينَ إذا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا، وإذا أساؤوا اسْتَغْفَرُوا»[٢].

وقد اشتمل كلامه علىٰ المقابلة في «احسنوا واستبشروا» وفي «اساؤوا واستغفروا» وعلىٰ الطباق بين «احسنوا وأساؤوا»، وعلى السجع المرصّع بين «استبشروا» و «استغفروا».

← قافية أبي الطيب متمكّنة بينما قافية أبي دلامة مجلوبة لأجل الوزن والقافية، غير أنّهم قالوا: إنّ المقابلة في بيت أبي دلامة أجود منها في بيت أبي الطيب؛ لأنّ ضدّ الليل هو النهار، وليس الصبح.

١. يختلف الإرداف عن الكناية في أنّه يُستخدم مرادفاً للمعنىٰ المقصود، وأمّا الكناية، فتستخدم في معنى يلازم المعنى المقصود. فلو قلت مكنّياً: فلان كثير الرماد؛ فإن كثرة الرماد تلازم كثرة الطبخ وهذه يلازمها الكرم، أمّا في آية ﴿الابتغاء من فضله﴾ فترادف الحركة وهو المعنىٰ المقصود.

٢. نهج الفصاحة، ص ٦٣٣.

وقالﷺ: «إنّ للّه عباداً جعلهم مفاتيح الخير مغاليق الشرّ»[١].

وقالﷺ للأنصار: «إنّكم لتكثُرُون عند الفزع، وتقلّون عند الطمع»[٢].

وقالﷺ: «إنّ الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه، والخرق لا يكون في شيء إلّا شانه»[٣].

وقالﷺ: «يَسّروا ولاتعسّروا، وبشّروا ولاتنفّروا»[٤].

وقال عليّؑ: «أَضْربُ بالمُقْبِلِ إلىٰ الحَقِّ المُدْبِرَ عَنْهُ، وبالسَّامِعِ المُطيع العاصِيَ المُرِيبَ أبَداً حَتّىٰ يَأتي عَلَيَّ يَوْمِي»[٥].

لقد التزم الإمامؑ استخدام التقابل ممثّلاً فيه الأحوال النفسيّة المتنازعة والأهواء المتناقضة، وهو الأسلوب البلاغي الذي يجسّد تلك المعاني ويمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجدّدة. فراعىٰ إبداء الصورة من خلال تلك الحركة التخييليّة في ضرب المدبر عن الحقّ بالمقبل إليه؛ لمقابلة المقبل بالمدبر، والعاصي بالمطيع، والمريب بالسامع؛ لأنّ المرتاب في الحقّ قوبل به القائل.

ثمّ إنّ في تقديم «المقبل» قصراً للأفراد؛ أي ماأضرب إلّا باستعانة من المقبل إلىٰ الحقّ دون غيره وذلك قطعاً للشركة التي اعتقدها المخاطب. وكذلك الحال بالنسبة إلى تقديم السامع.

وقالؑ: «أمّا بعدُ: فإنَّ الدُّنيا قد أدْبَرَتْ وآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وإنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ باطّلاعٍ»[٦].

كثيراً مّايشترك الوصف والإيقاع في إبراز صورة من الصور، تملأ العين والأذن،

---

١. المصدر، ص ٦٣٣.

٢. المصدر، ص ٥٦٥.

٣. التبيان للطيّبي، ص٣٤٦؛ الطراز، ج٢، ص ٣٨٠؛ أنوار الربيع، ج١، ص٣٠١.

٤. رواه مسلم عن رياض الصالحين، ص١٨٧.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ٦ ـ ٢.

٦. المصدر، الخطبة: ٢٨.

والحس والخيال، والفكر والوجدان، فالصورة المتولّدة من إضافة المعنىٰ الذهني إلى شكل أو ظاهرة حسّيّة تتجسّد قبل أن ترتسم في العين، وإضفاء الجمال الموسيقي المتمثّل بالإيقاع المتجانس في توازن الفقرتين وارتباطهما في الإطار العامّ بالسياق هي غاية في التأثير في إذن المخاطب ونفسه وعقله.

لقد شخّص إقبال الدنيا بصفة انسانيّة، وذلك بتشبيه الدنيا بمحبوب مرتحل آذن ـأي أعلم ـ بوداعه فأسف عليها. ثمّ نبّه بتصوير آخر علىٰ وجوب الاستعداد للآخرة لدنوّها من الإنسان، ثمّ نزّلها لشرفها علىٰ الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل، فأسند إليها لفظ الإشراف، بينما أسند إلىٰ الدنيا لفظ الإدبار؛ تشبيهاً لها بالحيوان المدبر. إضافة إلىٰ ماينمّ معنىٰ الاطّلاع من الإحاطة بجميع الأحوال. والعمق في الرؤيا والبعد في حدود الخيال فالمقابلة طباق بين صورتين، بين المفارقة من الصورة الأولىٰ، واللقاء من الصورة الثانية.

وقال عليه السلام: «الحَمْدُ للّهِ الّذي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حالٌ حَالاً. فَيَكُونَ أَوّلاً قَبْلَ أنْ يَكُونَ آخِراً. وَيَكُونَ ظاهِراً قبلَ أنْ يَكُونَ باطِناً. كُلُّ مُسَمَّى بالوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزيز غَيْرَهُ ذَليلٌ، وَكُلُّ قَوِيّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِم غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ. وَكُلُّ قادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ. وكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصمُّ عَن لَطِيفِ الأصواتِ... وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَىٰ عَنْ خَفِيّ الألوانِ وَلطيفِ الأجسامِ. وَكُلُّ ظاهِرٍ غَيْرَهُ باطِنٌ. وَكُلُّ باطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرَ ظَاهِرٍ»[1].

وهذه مقابلات جيء بها في صدر الخطبة مع سلامتها وجودة سبكها، وتأثيرها الخاصّ المتميّز، ويتجلّىٰ هذا التأثير في أنّه يجمع بين الأضداد ليخلق صوراً ذهنيّة ونفسيّة متعاكسة يوازن فيما بينها عقل المخاطب ووجدانه، ولتترك آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن.

---

١. المصدر، الخطبة ٦٥.

وقوله ﷺ لعثمان بن عفّان:

«إنّ الحقَّ ثقيل مَرِيءٌ، والباطل خفيفٌ وَبِيءٌ وأنتَ رجل إذا صُدِّقتَ سَخِطتَ، وإنْ كُذِّبتَ رَضِيتَ».[١]

فقد قابل بين الحقّ والباطل، والثقيل والخفيف، والمـريء والوبـيء، والصـدق والكذب، والرضا والسخط.

ومن جيّد ما وقع في المنثور والمنظوم من المقابلة قول بعض الكتّاب:

«فإنَّ أهل الرأي والنُّصح لايساويهم ذوو الأفن والغشِّ، وليس مـن يـجمعُ إلى الكفاية الأمانة كمن أضاف إلىٰ العجز الخيانة»[٢].

ومن الأمثلة الشعريّة للمقابلة:

قول الطُّغْرائي، صاحب لامِيّة العجم:

حُلْوُ الفكاهةِ، مُرُّ الجِـدِّ، قـد مُـزِجت بشــــدَّة البـأس مــنه رِقّـةُ الغَـزَلِ

فإنّه قابل الحلو والفكاهةِ بالمرّ والجدّ في صدر البيت، ثمّ قابل الشـدّة بـالرّقة والغَزَل في عجز البيت[٣].

وقول البحتري:

يا أُمّةً قَـدْ كـانَ قُـبْحُ الجـورِ يُسْخِطها دهـراً فـأصْبَحَ حُسْـنُ العَـدْلِ يُـرْضِيها

فقابل القبح بالحسن، والجور بالعدل، والسخط بالرضا[٤].

ومما ينسب إلى الإمام عليّ ﷺ قوله:

إذا جادتِ الدُّنـيا عَـلَيْكَ فَـجُدْ بِـهَا عَـلىٰ الخَـلْقِ طُـرّاً إنّـها تَـتَقَلَّبُ

---

١. نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٧٦.

٢. ذو الأفن: الضعيف الرأي والعقل، والتمدح بما ليس عنده وفعله. انظر: القـاموس (أفـن)، وانـظر: العـمدة، ج ١، ص ٥٩٤.

٣. البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج ٣، ص ٥٠.

٤. الفوائد، ص ٢٠٩.

فَـلا الجُـودُ يُـفْنِيهَا إذا هِـيَ أَقْـبَلَتْ ولا البُخْلُ يُبْقيها إذا هِـيَ تَـذْهَبُ[١]

فقابل بين «الجود والبخل، والفناء والبقاء، والإقبال والذهاب».

وقول عزالدين الإربلي (ت ٦٦٠هـ،ق):

تَسُـرّ لئـيماً مكـرماتٌ تُـعِزُّهُ وَتُبْكي كَرِيماً حادثاتٌ تُـهِينُهُ

فقد قابل بين «تسرّ وتبكي» و«لئيماً وكريماً»، و«مكرمات وحادثات»، و«تُعزّهُ وتُهينهُ».

وعدّوا من مقابلة خمسة بخمسة قول الثعالبي[٢]:

عَذِيرِي مِنَ الأيّـامِ مَـدّتْ صُـرُوفُها إلىٰ وَجْهِ مَنْ أَهْوَىٰ يَدَ النَّسخِ والمَحْوِ

وَأَبْـدَتْ بِـوَجْهِي طـالِعَاتٍ أرىٰ بِـها سِـهَام أبـي يَـحيىٰ مُسَـدَّدَةً نَـحْوي

فَذَاكَ سَوَادُ الخَطِّ يَـنْهَىٰ عَـنْ الهَـوَىٰ وهـذا بَـياضُ الخَـطِّ يَـأمرُ بـالصَّحْوِ

ومن يرىٰ المقابلة بين صلتي الفعل فهو عنده من مقابلة ستّة بستّة.

ومثال مقابلة ستّة بستّة ما أنشده الصاحب شرف الدين مستوفي أربل لغيره وهو لعنترة:

على رأسِ عَبْدٍ تاج عِـزٍّ يَـزينهُ وَفِي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يَشِينُهُ[٣]

فقد قابل بين «على» و«في» وبين «رأس» و«رجل» وبين «عبد» و«حر» وبين «تاج» و«قيد» وبين «عزّ» و«ذلّ» وبين «يزينه» و«يشينهُ».

أمثلة قرآنية حول المقابلة

١ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[٤].

---

١. ديوانه، ص١٧؛ انظر: التبيان للطيّبي، ص٣١٦؛ أنوار الربيع، ج١، ص٣٠٢ بلا عزو.

٢. أنوار الربيع، ج١، ص٣٠٤؛ التبيان، ص٣٤٧.

٣. أنوار الربيع، ج١، ص٣٠٤.

٤. الأعراف: ١٥٧.

٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[١].

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَـآءً﴾[٢].

٤ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٣].

٥ـ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾[٤].

٦ـ قوله تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَـٰكُمْ﴾[٥].

٧ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾[٦].

٨ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٧].

٩ـ قوله تعالىٰ: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٨].

١٠ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[٩].

١١ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[١٠].

١٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ

---

١. المائدة: ٥٤.

٢. البقرة: ٢٢.

٣. النساء: ٦.

٤. النساء: ٧٦.

٥. الحديد: ٢٣.

٦. آل عمران: ١٢٠.

٧. آل عمران: ١٨٥.

٨. الحديد: ١٣.

٩. هود: ١١٤.

١٠. النازعات: ٣٧ـ ٤١.

فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[١].

١٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[٢].

١٤ـ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

١٥ـ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٤].

أي إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة اخسروه.

* * *

١. فصلت: ٥١.

٢. الزمر: ٨.

٣. البقرة: ٢٧٤.

٤. المطففين: ٢ و ٣.

الالتفات

الالتفات في اللغة: الانصراف والدوران ذات اليمين أو ذات الشمال، وهو مصدر لفعل «التفت»، يقال: التفت بوجهه يمنة ويسرة: مال به، والتفت عنه: أعرض، والتفت إلى الشيء: صرف وجهه إليه.

وقد وردت بعض مشتقات «الالتفات» في القرآن الكريم، من ذلك ما جاء في قوله تعالى مخاطباً «لوطاً»ﷺ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[1].

وعرف علماء العربية القدماء هذا اللون البلاغي، لكنّهم لم يسمّوه «الالتفات» يقول «أبو عبيدة» (ت٢٠٩هـ.ق): «والعرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب، والمعنى للشاهد، فترجع إلى الشاهد».

ولعلّ أول من تنبّه إلى هذا الفن وأشار إلى اسمه الاصطلاحي هو الأصمعي (ت٢١٦هـ.ق) في سياق حديثه عن شعر جرير[2]. وأدخله ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ.ق) في باب «مخالفة ظاهر اللفظ معناه»[3]. وجاء بعدهم ابن المعتز وجعله على نوعين:

---

١. هود: ٨١.

٢. حلية المحاضرة، ج١، ص١٥٧، عن ابن رشيق في العمدة عن إسحاق الموصليّ أنّه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف التفات جرير؟ قلتُ: وما هو؟ فأنشدني:

أَتَنْسَىٰ إذْ تُوَدِّعُنا سُلَيْمَىٰ بعودِ بَشَامَةٍ سُقْيَ البَشَامُ

ثمّ قال: أما تراهُ مقبلاً على شعره، إذ التفت إلى البشام، فدعا له. العمدة، ج١، ص٦٣٩.

٣. تأويل مشكل القرآن، ص٢١٣ و ٢٢٢.

نوع ينصرف فيه المتكلّم من المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك.

ونوع ثانٍ ينصرف فيه المتكلّم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر[١].

والمعنى الثاني يريد به ـ ابن المعتزّ ـ أن يفرّغ فيه المتكلّم من المعنى، فتظنّ أنّه سيجاوزه، لكنّه يلتفت إليه، فيذكره بغير ما تقدّم ذكره.

والأصمعي هو الذي اقترح لهذا النوع الثاني اسم الالتفات[٢].

أمّا قدامة فعرّفه بـ«أنْ يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنّه يعترضه إمّا شكّ فيه، أو ظنّ بأنّ رادّاً يردّ عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ماقدّمه، فإمّا أنْ يؤكّده، أو يذكر سببه، أو يحلّ الشكّ فيه»[٣].

وهكذا يكون قدامة قد أخذه من نقّاد سبقوه وتصرّف في مدلوله تصرّفاً يخالف به بعض ما قصده منه بعض سابقيه[٤].

ويتبيّن من الأمثلة الشعريّة التي استدلّ بها قدامة على تحديد مفهوم الالتفات، ومنها قول الرماح بن ميادة:

فلا صَرْمُهُ يبدو وفي اليأس راحة ... ولا وَصْلُهُ يَصْفُو لَنا فَنُكارِمُهْ

أنّ هذا المفهوم يقترب عنده من المعنى الذي قصده ابن المعتزّ، كما أنّه يأتي كذلك عنده بمعنى الاستدراك[٥].

ولكن بما أنّ بعض الباحثين[٦] يلوّح بوجود فرق بين مفهوم الالتفات عند كلّ من

---

١. البديع، ص٥٨.

٢. أُنظر: كتاب الصناعتين، ص٣٩٢.

٣. نقد الشعر، ص١٦٧.

٤. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص٤٥١.

٥. قدامة والنقد الأدبي، ص٢٨٥.

٦. انظر: علم البديع، د. بدوي طبانة، ص١٣٨ حيث يشير إلى أنّ بعض البلاغيّين أخذوا مفهوم قدامة، وبعضهم مفهوم ابن المعتزّ في الالتفات.

قدامة وابن المعتزّ، فلابدّ من التوكيد هنا على أنّه فرق كبير فعلاً وربّما كان الفرق في المفهوم هو الذي يبرّر اختلاف وتعدّد التسميات للمصطلح الواحد[١].

وأمّا أبو هلال العسكري فجعله على ضربين:

الأوّل: أنْ يفرغَ المتكلّم من المعنى، فإذا ظننت أنّه يريد أنْ يجاوزه يلتَفِتُ إليه، فيذكره بغير ما تقدّم ذكره به.

وهذا النوع استقاه العسكري من ابن المعتزّ.

والضرب الآخر: هو نفس تعريف قدامة للالتفات[٢].

وعرّفه الباقلاني بـ«أنّه اعتراض في الكلام، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً، وكان الكلام منتظماً... فمتى خرج من الكلام الأوّل، ثمّ رجع إليه على وجه يلطف، كان ذلك التفاتاً».

ويضيف الباقلاني ـ في ثنايا حديثه عن الالتفات ـ: إنّ من أصحاب البديع من لا يعدّ (الاعتراض) و(الرجوع) من هذا الباب، ولكن ابن المعتزّ قد أفرد لهما في باب البديع، وجعلهما فنّين مستقلّين[٣].

وقال ابن رشيق: «هو الاعتراض عند قوم، وسمّاه آخرون الاستدراك، وسبيله: أن يكون الشاعر آخذاً في معنىً، ثمّ يعرض له غيره، فيعدل عن الأوّل إلى الثاني فيأتي به، ثمّ يعود إلى الأوّل، من غير أن يُخِلَّ في شيء، بل يكونُ مما يَشُدُّ الأوّل».[٤]

وهذا هو الاعتراض أو الرجوع أيضاً[٥].

ثمّ بيّن أنّ منزلة الالتفات في وسط البيت كمنزلة الاستطراد في آخر البيت، وإن

---

١. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص٤٥١.

٢. انظر: كتاب الصناعتين، ص٣٩٢.

٣. إعجاز القرآن، ص٩٩.

٤. العمدة، ج١، ص٦٣٦.

٥. معجم النقد العربي، ص٢٢٣.

كان ضدّه في التحصيل؛ لأنّ الالتفات تأتي به عفواً وانتهازاً، ولم يكن لك في خلد، فتقطع له كلامك، ثمّ تصله بعد أن شئت، فيكون فيما عدل إليه مبالغة وزيادة حسنة، والاستطراد تقصده في نفسك، وإن تحيد عنه في لفظك، حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره، أو تلقيه إلقاءً، وتعود إلى ما كنت فيه[1].

فالالتفات عند ابن رشيق يشمل ـ من خلال الأمثلة الكثيرة التي عرضها ـ التنويع بين الضمائر الانتقال من معنى إلى معنى كما يشمل معاني الاعتراض والرجوع والتتميم أو (الاحتراس) والاستدراك. الأمر الذي يدلّ على أنّ المصطلح في نظره صالح لاحتوائها جميعاً[2].

وممّن سار في هذا الاتّجاه الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ،ق) فهو ينقل رأيين مختلفين في تحديد معنى الالتفات ـ دون أن يرجّح أحدهما على الآخر ـ: الأوّل يقصره على التحوّل من نوع من أنواع الضمائر إلى آخر، والثاني يجعله مرادفاً لمعنى «التذييل».

وبدأ الالتفات يأخذ معنىً دقيقاً بعد ذلك، وذلك عند الزمخشري فهو أوّل من بدأ التأصيل النظري لظاهرة الالتفات وأولى عناية فائقة ببيان القيمة الفنّيّة لتلك الظاهرة، وسايره فيما ذهب إليه في هذا الصدد كثير من البلاغيين الذين جاؤوا بعده أمثال السكّاكي والقزويني والعلوي وغيرهم.

فالزمخشري يرى أنّ الالتفات يتحقّق بإحدى صورتين: أولاهما: تحوّل التعبير عن المعنى الواحد من نوع من أنواع الضمائر الثلاثة: (التكلّم، الخطاب، الغيبة) إلى نوع آخر منها، والأخرى هي التعبير بأحد هذه الأنواع في مقام يقتضي غيره.

امّا ما جرى عليه جمهور البلاغيين فمؤدّاه أنّ الالتفات لايتحقق إلّا في الصورة

---

١. العمدة، ج٢، ص٦٣٨.

٢. اسلوب الالتفات، ص١٦.

الأولى، وقد تجلّت ثمرة هذا الخلاف أصحاب الرأيين لمواطن الالتفات في أبيات امرئ القيس التي يقول فيها:

تَـطاوَلَ ليـلُكَ بـالأَثْمُدِ وَنـامَ الخَـلِيُّ وَلَـمْ تَـرْقُـدِ

وَبـاتَ وَبـاتَتْ لَـهُ لَـيْلَةٌ كَلَيْلَة ذي العائرِ الأَرْمَـدِ

وَذلِكَ مـن نَـبَإٍ جـاءَني وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أَبي الأَسْوَدِ[١]

ففي البيت الأول التفت من الحكاية[٢] إلى الخطاب قائلاً: «ليلك» و«لم تـرقد»، وإلّا فالأصل: ليلي، ولم أرقد. غرضه أنْ ينبّه على نفسه وقتَ ورود ذلك النبأ عليها وَلِهَتْ وَلَهَ الثَّكْلى، فجعلها كالمصاب الذي لا يتسلّى إلّا بتفجُّع المـلوك له، وأخـذ يخاطبها بـ«تطاول ليلك» تسليةً لها.

وفي البيت الثاني التفات في «بات» من الخطاب إلى الغيبة؛ إذ القياس على ليلك: «بت» بالخطاب، وكذا «باتت لك»، لكنه نبّه بذلك على أنّه بعد الصدمة الأولى حين أفاق مدركاً بعض الإدراك ما وجد النفس معه، فبنى الكلام على الغيبة.

أمّا في البيت الثالث، فعَدل إلى التكلّم؛ إذ القياس على بات: «جاءه»، عدل عنه، للدلالة على أنّ جميع ذلك إنّما كان أمر يخصّه، ولم يتعدّه إلى من سواه، بناءً على الظاهر.

وهذا ظاهر على ما ذهب إليه الزمـخشري إمّـا عـلى رأي جـمهور البـلاغيّين فالالتفات هو التحوّل الماثل في البيتين الثاني والثالث فحسب، أمّا التعبير بالخطاب في مقام التكلّم أو ـ بعبارة أُخرى ـ مخاطبة الشاعر نفسه في البيت فليس في نظر هؤلاء من الالتفات بل هو من باب التجريد.

كما أدخله السكّاكي في علم المعاني، وقال: «إنّ هذا النوع ـ أعني نقل الكـلام

---

١. الأثمد: اسم موضع. ذي العائر: ذي الجفن العائر، وهو ما به العوار، أي القذى، لوجعه ورمده.

٢. أي نقل الكلام عن الحكاية التي هي التكلّم إلى الظاهر الذي هو من معنى الغيبة.

عن الحكاية[١] إلى الغيبة ـ لا يختصّ بالمسند إليه[٢]، ولا هذا القدر، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كلٌّ واحد منها إلى الآخر، ويسمّى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني، والعرب[٣] يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أُسلوب إلى أُسلوب أدْخَلُ في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغاءَة»[٤].

وذكره في علم البديع من حيث إنّه يحسّن الكلام ويزينه، أما كونه من الأحوال التي تذكر في علم المعاني كونه يشتمل على نكتة يقتضيها المقام، ولكون الكلام سؤالاً أو مدحاً أو إقامة حجّة، كما سيأتي في أغراضه البلاغية، والتي تكسب الكلام قوّة وجمالاً، وتجعل النظم يوحي بالأفكار التي تثير انتباه القارئ والسامع.

ويشترط الجمهور أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقّبه السامع، فيخرج من معنى الالتفات نحو قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنّه وإن عبّر عن المعنى وعن الذات العليّة بطريق الخطاب بعد التعبير عنها بآخر وهو الغيبة في قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إلّا أنّ هذا التعبير على مقتضى الظاهر؛ لأنّ الالتفات حصل أوّلاً بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والثاني وهو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أتى على

---

١. أي التكلّم؛ لأنّ المتكلّم يحكي عن نفسه.

٢. أي يكون تارةً في المسند إليه، مثل قول الشاعر:

إلهي عَبدُكَ العاصي أتاكا ... مقرّاً بالذنوب وقد دعاكا

فإن تغفر فأنت لذاك أهل ... وإن تطرد فمن يرحم سواكا

[ومقتضى الظاهر أن يقال: «أنا أتيتك عاصياً، ولم يقل: أنا، لما في لفظ «عبدك» من الخضوع وطلب الرحمة والشفقة].

وتارة يكون ذلك النقل في غير المسند إليه، كقوله تعالى: ﴿فإذا عَزَمتَ فتوكّل على اللّهِ﴾ (آل‌عمران: ١٥٩) مكان فتوكل عليَّ، فهذا كلّه من الالتفات عند السكّاكي.

٣. وهنا ينقل كلام الزمخشري. أُنظر: الكشاف، ج١، ص٨ (القاهرة ١٩٥٣هـ).

٤. مفتاح العلوم، ص٨٦؛ الإيضاح، ص٦٩.

أُسلوبه، ولأنّ الانتقال فيه من الخطاب وهو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى خطاب آخر وهـو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فكل واحد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿اَهْدِنَا﴾ و﴿أَنْـعَمْتَ﴾ إذا نظرت له مع قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يصدق عليه أنّه انتقال من طريق إلى طريق آخر، لكنه ليس على خلاف مقتضى الظاهر، بل جار على مقتضى الظـاهر؛ لأنّـه لما التفت للخطاب صار الأُسلوب له، فهو خارج عن الالتفات.

وعلى ذلك يكون الالتفات بتفسير الجمهور أخصّ منه بتفسير السكاكـي، لأن النقل عنده أعمّ من أن يكون قد عبّر عنه بطريق من الطرق الثلاثة، ثمّ عـبّر عـنه بطريق آخر، أو يكون مقتضى الظاهر أن يعبّر عنه بطريق، فترك وعدل إلى طريق آخر، فيتحقّق الالتفاف بجملة واحدة عـند السكّـاكـي، وعـند الجـمهور يـتحقّق بجملتين، فكلّ التفات الجمهور التفات عند السكّاكي ولا عكس[١].

ولعلّ ما ذهب إليه السكّاكي أدقّ وأولى؛ لأنّ هذا النـوع مـبني عـلى مـقتضى الظاهر، فالعدول عمّا اقتضاه التفات لا محالة، سواء عبّر عـنه بـغيره أم لا[٢]، ولأنّ إخراج ما سمّاه السكاكي التفاتاً عن الالتفات يحوجنا إلى تخريج الكلام على وجوه نحن في غنى عنها[٣].

وسار معظم البلاغيين على خطى السكّاكي في دراسة الالتفات[٤].

وخلاصة القول: فإنّ الالتفات هو الانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخرَ، ومـن صيغة إلى صيغة أُخرى، كأن تستفهم ثمّ تطلب، أو تتحدّث عن غائب، ثـمّ تـوجّه الحديث إلى مخاطب، أو من الخبر إلى الإنشاء. وذلك بغية التنويع، وإدخال الحيويّة

---

١. شروح التلخيص، ج١، ص٤٦٧؛ الإيضاح، ص١٥٧.

٢. شرح التلخيص (البابرتي)، ص٢٥٧.

٣. المصدر.

٤. الإيضاح: ٦٩؛ عروس الأفراح، ج١، ص٤٦٣؛ المطول، ص ١٣٠؛ شرح عقود الجمان، ص٢٨؛ مواهب الفتاح، ج١، ص٤٦٣؛ الأقصى القريب، ص٤٤؛ الطراز، ج٢، ص١٣١؛ نفحات الأزهار، ص٥٣و٥٤؛ معجم النقد العربي القديم، ج١، ص ٢٢٥.

على الكلام، فيكون ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أُسلوب واحد. وهو أحد خصائص الأُسلوب القرآني، ومن مظاهر الجمال فيه، وهو ـ كذلك ـ من ظواهر الأُسلوب الخطابي، كقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾[1].

يصف أحوال يوم القيامة، وما يكون فيها من أخطار وأهوال، فيصوّر لنا مشهداً: فيه تنقطع الجبال من أماكنها، وتنسف نسفاً، وتبقى الأرض سطحاً مستوياً، لا تخبئ شيئاً، ولا تخفي أحداً، وكذلك تنكشف خبايا القلوب، فلا تخفى منها خافية، ويتحوّل السياق من الوصف إلى الخطاب، فكأنّما المشهد حاضر اللحظة، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه.

وآثر الماضي في «حشرناهم» بعد «نسيّر» و«ترى» للدلالة على تحقّق الحشر المتفرّع على البعث الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء، وكذا الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجباً. وهذا الانتقال من الوصف إلى المخاطبة المباشرة يحيي ذلك المشهد، ويجسّمه كأنّه هو حاضر اللحظة، ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه.

ففي الالتفات إلى الغيبة في «عرضوا»، وبناء الفعل للمجهول مع التعرّض لعنوان الربوبيّة، والإضافة إلى ضميره ﷺ تربية للمهابة، وجري على سنن الكبرياء، وإظهار اللطف به ﷺ.

ثمّ خاطب الكفّار المنكرين للبعث «لقد جئتمونا»، واستعمل أُسلوب الإضراب والانتقال من كلام إلى كلام، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، كلاهما للتوبيخ والتقريع.

---

١. الكهف: ٤٧ و ٤٨.

وقال الإمام عليّ ﷺ:

«نَحْمَدُهُ على ما كانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنا على ما يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ المُعَافَاةَ في الأَدْيانِ، كما نَسْأَلُهُ المُعَافَاةَ في الأَبْدَانِ.

عِبادَ اللّهِ! أُوصِيكُمْ بالرَّفْضِ لهذه الدُّنْيا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، والمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا»[١].

يلاحظ تحوّل الكلام من أُسلوب الإخبار إلى أُسلوب المخاطبة؛ إذ انتقل الإمام من حمد اللّه والاستعانة به إلى مخاطبة عباد اللّه، ويعتبر هذا الانتقال من مظاهر قوّة الخطبة وحيويّتها.

صور الالتفات وهي ستّ:

الأُولى: الالتفات من التكلّم إلى الخطاب، كقوله تعالى حكاية عن حبيب النجّار في موعظة قومه في الإيمان:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

والمعنى: أيّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني؟! ثمّ رجع إلى خطابهم؛ لبيان أنّه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولم يقل: إليه أرجع، ففيه التفات إلى الخطاب؛ مفيداً لفائدة حسنة وهي تنبيههم على أنّه مثلهم في وجوب عبادة من إليه الرجوع[٣].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩٩ـ١.

٢. يس: ٢٢.

٣. ذكر التفتازاني قولين في تقرير الالتفات في هذه الآية: الأوّل منها: أنّ الضميرين للمتكلم، ولكنّه عبر ثانياً عن الذات المتكلّمة بضمير المخاطبين، ففيه التفات، ومقتضى الظاهر (أرجع).

وحاصل القول الثاني: أنّ الضميرين للمخاطبين، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون، فعدل عن مقتضى الظاهر في الأوّل، وأوقع ضمير التكلّم موقع ضمير الخطاب، ثمّ عبّر بعد ضمير التكلّم بضمير الخطاب، فقد اتّحد المعبّر عنه واختلفت العبارة، فعبّر أوّلاً بطريق التكلّم ثمّ عبّر ثانياً بطريق الخطاب، وهذا التفات. (انظر: شروح التلخيص، ج ١، ص ٤٦٧).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

فيه التفات من التكلّم إلى الخطاب، وكان الظاهر أن يقال «على قـلبي»، وذلك للدلالة على أنّ القرآن كما لا شأن في إنزاله لجبريل، وإنّما هو مأمور مطيع، كذلك لا شأن في تلقّيه لرسول الله ﷺ إلّا أنّ قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئاً سوى أنّه مأمور بالتبليغ.

ومن أمثلته في الشعر قول مجنون ليلى:

تمرُّ الصّبا صفحاً بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهبَّ هبوبها
إذا هبّت الريحُ الشمال فإنّما ... جواي بما تهدي إلى جنوبها
قريبة عهدٍ بالحبيبِ وإنّما ... هوى كلّ نفسٍ حيث حلَّ حبيبها
وحسبُ الليالي إن طرحنكَ مطرحاً ... بدارِ قلىً تمسي وأنت غريبها

الثانية: الالتفات من الغيبة إلى التكلّم، كقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[٢].

والأصل: فساقه [أي فساق الله ذلك السحاب إلى بلد ميّت فأحياه به]، وفائدة هذا الالتفات: التنبيه على التخصيص بالقدرة، وأنّه لا يدخل تحت قدرة أحد.

كذلك أسند «أرسل» إلى الغائب، وساق «أحيا» إلى المتكلّم؛ لأنّه في الأوّل عرف ـ سبحانه ـ نفسه بفعل من الأفعال، وهو الإرسال، وكأنّه قد قال: أنا الذي عرفتني سقت السحاب، وأحييت الأرض، ففي الأوّل كان تعريفاً بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة، فإنّ كمال نعمتي الرياح والسحب بالسوق والإحياء.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ جاء به على جهة المضارع والاستقبال بين

---

١. البقرة: ٩٧.

٢. فاطر: ٩.

فعلين ماضيين، والسرّ في مثل هذا هو أنّ الفعل المستقبل يوضح الحال، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأنّ الإنسان يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عـطف؛ لأنّه لا يعطي هذا المعنى، ولا يدلّ عليه، وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادهما إلى نون العظمة المنبئ عن الاختصاص به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض، وبين البعث الذي شبّه به بـقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْـجِدِ ٱلْحَـرَامِ إِلَى ٱلْمَسْـجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١].

فقد قال ـ أوّلاً ـ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ بلفظ الواحد الغائب، ثمّ قال: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ بلفظ جمع المتكلّم، لتعظيم البركات والآيات؛ لأنّها كما تدلّ على تعظيم مدلول الضمير تدلّ على عظم ما أُضيف إليه وصدر عنه[٢].

وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصّة وهي أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً﴾ يدلّ على مسيرهﷺ من عالم الشهادة إلى عالم الغيب فهو بالغيبة أنسب.

وقوله تعالى: «لنريه» على معنى بعد الاتّصال وعن الحضور، فـيناسب التكـلّم معه، وأمّا الغيبة، فلكونهﷺ إذ ذاك ليس في عالم الشهادة.

ثمّ قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بلفظ الواحد الغائب، على تقدير كون الضمير للّه تعالى والمطابق قوله تعالىٰ: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ لترشيح ذلك الاختصاص[٣] بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه، ولو جاء به على أُسلوب واحد مـن غـير التـفات لقـال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله، ليريه من آياته إنّه هو السميع البصير.

---

١. الإسراء: ١.

٢. كما يقال: انّما يفعل العظيم العظيم.

٣. أي اختصاصهﷺ بتلك الكرامة.

وهذا جميعه محمول على «أسرى»، فلمّا خولف بين أسلوب وأسلوب آخر في الانتقال من صيغة إلى صيغة، كان ذلك اتّساعاً في الكلام، وتفنّناً فيه، وتنويعاً لأساليبه. والفائدة منه هي تنشيط الذهن، واستحضاره، واسترعائه لعرض الحقائق المملوءة بالعظات والعبر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1].

فإنّه قال: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ ﴿وَأَوْحَىٰ﴾.

والفائدة من ذلك أنّ طائفة من الناس غير المتشرّعين يعتقدون أنّ النجوم ليست في سماء الدنيا، وأنّها ليس حفظاً ولا رجوماً. فلمّا صار الكلام إلى هنا، عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنّه مهمّ من مهمّات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذّبة المعتقدة بطلانه.

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «واللّهِ لابْنُ أبي طالبٍ آنَسُ بالمَوْتِ مِنْ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ اندَمَجْتُ على مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُم»[2].

ومقتضى الأصل أن يقول: ولكنّه قد اندمج على مكنون علم لو باح به ... إلّا أنّه عليه السلام أراد من وراء هذا الالتفات أن يترمّم التقرير والتعبير المباشر لما انفعل به؛ ليولجه إلى ضمير المستمع.

ومن أمثلته في الشعر قول الحاجري:

أهل لك في إعانةِ مستهامِ ... يقادُ إلى الغرامِ بلا زمامِ
تعرض بالخيامِ على زرودٍ ... فراحَ وقلبُهُ بينَ الخيامِ

---

١. فصّلت: ١١ و ١٢.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ٥ ـ ٤.

عُـريب البـرّ كـيف أُبـيح قـتلى ألـيس العـربُ تُـعرف بـالذمامِ

الثالثة: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ومنه قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ❁ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

في إيراد «إيّاك» دون «إيّاه» التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وسرّ الالتفات تكمن في تنزيله الغائب منزلة الحاضر لأجل ذكر أوصافه التي أوجبت تميزه وانكشافه، حتى صار كأنّه تبدّل خفاء غيبته بجلاء حضوره، كأنه قيل: أيّها الموصوف المتميّز بهذه الأوصاف، نخصّك بالعبادة والاستعانة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[2].

فالسياق يحتمل أن يكون «ولا يـلتفت مـنهم»، إلّا أنّـه عـدل عـن الغـيبة إلى الخطاب، للتنبيه في الحثّ على الإسراع، لئلّا يلحقه أثر ما نزل عـلى قـومه مـن العذاب؛ لأنّ من يلتفت إلىٰ ورائه لا يخلو عن أدنى وقفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

فقد انتقل من الغيبة إلى الخطاب بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ زيادة في النكال، وتأكـيداً للوعيد والإنذار.

ونحـو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ❁ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[4].

فأضرب عن صيغة الغيبة، ثمّ أتى بـلفظ الخـطاب «جـئتم» اسـتعظاماً للأمـر، كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

---

١. الفاتحة: ٣ و ٤.

٢. هود: ٨١.

٣. آل عمران: ١٨٠.

٤. مريم: ٨٨ و ٨٩.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1].

في قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، والقصد المبالغة في الحثّ، وفي وضع الإراءة موضع الاعتبار مجاز مرسل من إقامة المسبّب مقام السبب مبالغة أيضاً.

وقول عليّ‏‏ﷺ: «وَمَنْ عاشَ فَعليه رِزْقُهُ، وَمَنْ ماتَ فإليهِ مُنْقَلَبُهُ. أو لمْ تَرَكَ العُيُونُ فَتُخبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الواصِفينَ مِنْ خَلْقِكَ».

في قوله: «لم ترك العيون فتخبر عنك» التفات من الغيبة إلى الخطاب، يعني: ما رأتك العيون فتخبر عنك كما يخبر الإنسان عمّا عاينه، بل أنت أزليّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

ونكتة الالتفات اشتداد عناية الإمامﷺ بطرح ذلك المعنى المراد تقريره إلى السامعين، وإيقاظ إصغائهم في قضيّة اعتقاديّة بالغة الأهمّيّة، وهي نفي إمكان الإخبار المستند إلى المشاهدة الحسّيّة عنه تعالى، والفاء دالّة على عدم تراخي ذلك عن الرؤية، والفعل «تخبر» جاء للاستقبال إشارة إلى استمرار الأمر، وأنّه لا يختصّ بزمان دون زمان.

وقول ربيعة بن مقروم الضبي[2]:

تهدّمتْ الحياضُ فلم يغادر ... لحوض من نصائبه إزاءُ

لخولة إذ همُ مغنىً وأهلي ... وأهلك ساكنون وهم رتاءُ

ففي قوله: «وأهلك» التفات من الغيبة إلى الخطاب. والنصائب: حجارة تنصب حول الحوض، والإزاء: مصبّ الماء إلى الحوض، ورتاء: أي متقابلة.

---

١. الأعراف: ١٤٥.

٢. أحد شعراء مضر البارزين في الجاهليّة والإسلام، أسلم وشهد القادسية. انظر: أنوار الربيع، ج١، ص٣٦٤؛ الأغاني، ج٢٢، ص٨٧؛ الشعر والشعراء، ص٢٣٦.

وقول أبي العلاء المعرّي[١]:

هـي قـالت لمـا رأت شـيب رأسـي وأرادت تـــنكّراً وازورارا
أنـا بـدر وقـد بـدا الصبح فـي رأ سك والصــبح يــطرد الأقــمارا
لست بـــدراً وإنّــما أنت شــمس لا تـرى فـي الدّجـى وتـبدو نـهارا

التفت من الغيبة إلى الخطاب؛ لينقل الصورة الحقيقية فيما دار بينه وبينها.

الرابعة: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...﴾[٢].

وفائدة ذلك أنّه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخـبار قـوم آخـرين بحالهم، كأنّه يعدّد على أولئك ذنوبهم، ويشرح لهؤلاء بغيهم وعنادهم الحقّ، ويقبّح عندهم ما فعلوه، وهم في الواقع يتعجّبون وينكرون حال أنفسهم فصار كأنّه قـال: اتّقوا أنتم يامطيعون يوماً يعذّب فيه العاصون. فالسرّ البلاغي في هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: ترفّق اللّه بالمؤمنين بدلاً من صريح مخاطبتهم في مجال الوعيد والإنذار.

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ للتصريح بأنّ النعمة شملتهم، وللإشارة إلى أنّ مجيء العاصفة فجأة في حال الفرح مراد منه ابتلاؤهم وتخويفهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾[٣].

والأصل «عليكم» ثمّ قال: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾[٤].

---

١. انظر: أنوار الربيع، ج ١، ص ٣٦٤.
٢. يونس: ٢٢.
٣. الزخرف: ٧٠ و ٧١.
٤. الروم: ٣٩.

وقول الشريف الرضي يخاطب الخلفاء العبّاسيّين:

رُدُّوا تــراثَ مـحمّـدٍ رُدُّوا ... ليس القضيبُ لكم ولا البـردُ
هــل عُـرِفَت فيكم كفاطمة ... أم هــل لكــم كمحمّـد جـدُّ
جـــلَّ افـــتخارهم بـــأنّهم ... عــند الخـصام مـصاقع لدُّ
إنّ الخــلائفَ والأُلى فـخروا ... بـــهم عــلينا قــبل أو بــعدُ
شُــرِّفوا بــنا ولجـدِّنا خُـلِقوا ... فـــهم صــنائعنا إذا عُــدُّوا

وقول النابغة الذبياني:

يــا دار مــيّة بـالعلياء فـالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأبـد

وقول عنترة:

ولقـد نـزلت فـلا تـظنّي غـيره ... مــنّي بـمنزلة المـحبِّ المكرمِ
كيف المـزار وقـد تـربّع أهـلها ... بـــعنيزتين[١] وأهــلنا بــالغيلَمِ

الخامسة: الالتفات من التكلّم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلنَّـاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢].

قال ﴿فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: والأصل: «وبي»، فعدل عنه لنكتتين: إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبيّة لها. والأخرى: تنبيههم على استحقاقه الاتّباع بما اتّصف به من الصفات المذكورة، والخصائص المتلوّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّـآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[٣].

والأصل: «فصلّ لنا»، وبلاغة الالتفات في الآية تأتي من أنّ في لفظ الربّ حثّاً على فعل المأمور به؛ إذ مَنْ غيرُ ربّك يستحقّ العبادة؟! وفيه إزالة الاحتمال أيضاً،

---

١. العنيزتين (بلفظ التثنية): موضع بين البصرة ومكّة. الغيلم: موضع قرب موطن عنترة.

٢. الأعراف: ١٥٨.

٣. الكوثر: ١ و ٢.

لأنّ قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ليس صريحاً في إفادة الإعطاء من اللّه، وأيضاً كلمة «إنا» تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلما التفت بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ زال هذان الاحتمالان.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[٢].

تنبيهاً على أنّهم غير صالحين للخطاب والتكلّم بعدما كان حالهم هذا الحال.

ضمير «ليذكّروا» عائد إلى معلوم من المقام دلّ عليه قوله تعالى: «أفأصفاكم ربُّكم بالبنين» أي: ليذكُر الذين خوطبوا بالتوبيخ في قوله تعالى: «أفاصفكم ربُّكم». فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين.

وقال الإمام عليّ‌ﷺ: «فإنْ أَقُلْ يَقُولوا: حَرَصَ على المُلْكِ، وإنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ المَوْتِ، هَيْهاتَ بَعْدَ اللَّتيّا والّتي، واللّهِ لابْنُ أبي طالبٍ آنَسُ بالموتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْي أُمِّهِ»[٣].

ومقتضى السياق أن يقول: إنّي آنِسُ بالموت، وإنّما عدل إلى الغيبة ليجرّد من نفسه شخصاً قد ملأه اليأس منهم، فالألفاظ لو لم تأت على نسق واحد، بل طفح عليها الانفعال، وبأنّ على قائلها تأثير الإيقاع النفسي، فهو يعبّر عن الأزمة التي يمرّ بها، ويكشف عن مكنونات قلبه، ولقد ارتبط ذلك التشبيه أشدّ ارتباطٍ بتلك النفسيّة الهادرة، فجاء قمة لما يريد أن يوضحه، ويمنحه من جلاء للصورة، والذي تطابق مع تناقضاتهم، وما أَلِف من ازدواج شخصيّاتهم، وكذلك اعتمد ذلك التشبيه على تلك اللحظة النفسيّة التي تجمع في إبداعها الأطراف المتباعدة في ظاهرها ـ وهي بداية التلهف على الحياة للطفل الرضيع، وإقباله على الدنيا، وأُنس الإمامﷺ بالموت ـ والمتقاربة في جوهرها.

---

١. انظر: شروح التلخيص (حاشية الدسوقي)، ج١، ص٤٦٨.

٢. الإسراء: ٤١.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٥.

وقول مهيار الديلمي:

أنــذرتني أمُّ ســعدٍ أنَّ ســعدا لم يـزلْ يـنهدُ لي بـالشرّ نـهدا

مـا عـلى قـومِك إن صـارَ لهـم أحدُ الأحرار مـن أجـلك عـبدا

فــيه التـفاتان، أحـدهم مـن الغـيبة إلى الخـطاب، والثـاني: مـن التكـلّم إلى الغيبة؛ لأنّ الأصل: ما عـلى قـومها إن صـرت لهـم عـبداً. والنكـتة فـي العـدول ظاهرة.

السادسة: الالتفات من الخطاب إلى التكلّم، نحو قول علقمة بن عبدة العجلي:

طَحَا بِكَ قلبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ بُـعَيْدَ الشَّـبابِ عَصْرَ حَـانَ مَشِيبُ

تُكــلِّفُني ليــلى وقـد شَـطَّ وَلْـيُها وعــادَتْ عَــوادٍ بَـينَنَا وَخُـطُوبُ[1]

حيث التفت الشاعر في قوله: «تكلّفني» عن قوله: «بكَ» من الخطاب إلى التكلّم، والأصل: «تكلفك»[2].

ووجه الالتفات هنا أنّه رأى القلب ذاهباً إلى الحسـان، مـطرباً فـي أوانـه بـعد ما عريت أفراسه وبطلت رواحله، فجعله كالمخاطب الذي يخاطب معه نصحاً، ثمّ جعل نفسه مجيباً عن ذلك فقال: تكلّفني، لست بملام فيما أنا فيه لتكليف المحمول بعد القرب والمقابلة.

ولم يقع الالتفات في هذه الصورة في القرآن، وذكر السيوطي أنّ بعضهم مثّل له بقوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[3]، وهذا المثال لا يصحّ؛ لأنّ شرط الالتفات أن يكون المراد به واحداً.

---

١. طحابك: ذهب بك كل مذهب، طروب: كثير الطرب: وهو خفّة تعتري الإنسان لشدّة سرور، العـوادي: جـمع عادية، وعوادي الدهر: عوائقه ونوازله، خطوب: جمع خطب: وهو الأمر العـظيم، شـطّوليـها: أي بَـعُد قـربها وعهدها.

٢. وفيه التفات آخر على رأي السكّاكي في طحابك. وإذا كان المخاطب في تكلّفني القلب وليس ليلى يكون هناك التفات آخر من الغيبة ـ وهو لفظ القلب ـ إلى الخطاب.

٣. طه: ٧٢.

الأغراض البلاغيّة في الالتفات:

الالتفات من محاسن «النظم» والصورة المثيلة له هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلّم ومشاعره، والتي تتجمّع فيها روعة الخيال والنغم، ووحدة العمل الأدبي، وتظهر فيها شخصيّة الأديب في تخيّره للألفاظ تخيّراً دقيقاً.

فالنظم الحيّ هو الذي يحفزك على التفكير والتأمّل فيه، ويربي عندك ملكة التذوّق للقول الفنّي الجميل.

وفيما يلي أهمّ الأغراض التي وردت في القرآن:

١. قصد المبالغة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟...﴾[1].

فغرض الالتفات من الغائب إلى المخاطب ـ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ...﴾ ـ هو المبالغة في تحقيق الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ...﴾[2].

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى فريقي أهل الكتاب بطريق الالتفات على لسان النبيّ ﷺ بعد إبطال مسلك كلّ منهما للمبالغة في زجرهم عمّا سلكوه من المسلك الباطلّ، وإرشادهم إلى الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا

---

١. سبأ: ٣٦ و ٣٧.

٢. المائدة: ٧٦ و ٧٧.

﴿بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[١].

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتأكيد الأمر بالأخذ بالأحسن، والحثّ عليه فهي بمثابة التعليل، ولا يخفى ما في الالتفات من زيادة في التأكيد والمبالغة في الأخذ بالأحسن.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٢].

فيه التفات من الغيبة «يخافون» إلى التكلّم «لاتتّخذوا»، ثمّ عدل إلى الحضور «وإيّاي فارهبون»، لأنّ ذلك أبلغ في الرهبة من أن يقول جرياً على السياق؛ فإنّ تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من ترهيب الغائب، لاسيّما بعد وصفه بالوحدة والألوهيّة المقتضية للعظمة والقدرة التامّة على الانتقام.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ...﴾[٣] قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٤].

لقد خاطبهم أوّلاً، بيد أنّهم لم يأبهوا لخطابه، ولم يستوعبوا نصحه، فالتفت من الخطاب إلى الغيبة لإعراضهم؛ إذ ليس له إلّا أن يعرض عن خطابهم؛ ليصحّ التلازم، ويناسب اللفظ المعنى، وهذا من أرفع أنواع البلاغة وأرقاها.

٢. التوبيخ، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّـهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ...﴾ إلى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ...﴾[٥].

فقد كان الكلام بصيغة الغيبة، ثمّ التفت فخاطبهم بصيغة الحضور.

---

١. الأعراف: ١٤٥.

٢. النحل: ٥٠ و ٥١.

٣. فصّلت: ٩.

٤. فصّلت: ١٣.

٥. البقرة: ٢٧ و ٢٨.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١].

ففي الالتفات تشديد للتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

في الكلام عدول عن الخطاب إلى الغيبة «سمعتموه... ظنّ»، وعن الضمير المضمر إلى الظاهر، للمبالغة في التوبيخ؛ إذ لم يردّوا حديث الإفك حينما سمعوه، ولم يظنّوا بمن رمي به خيراً. والمعنى: لولا إذا سمعتموه ظننتم بمن رمي به خيراً، فإنّكم جميعاً مؤمنون، والمرميّ به من أنفسكم، وعلى المؤمن أن يظنّ بالمؤمن خيراً، ولا يصفه بما لا علم له به.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[٣].

في هذه الآية الالتفات في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ...﴾، فقد انتقل من الغيبة الى الخطاب؛ لمشافهتهم بالتوبيخ والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[٤].

أي فليأت من يزعم ذلك بحجّة بيّنة، كما أتى محمّد بالبرهان القاطع. ثمّ التفت من الغيبة ـ وهي الإنكار لأقوالهم المتناقضة بتكذيبهم الرسولﷺ ـ إلى الخطاب؛

---

١. الاعراف: ١٦٩.

٢. النور: ١٢.

٣. النساء: ١٠٨ و ١٠٩.

٤. الطور: ٣٨ و ٣٩.

لتشديد ذلك الإنكار والتوبيخ لهم؛ إذ جعلوا للّه تعالى ما يكرهون من الإناث، ولأنفسهم البنين، فهم كما طعنوا بالرسولﷺ بتكذيبهم إيّاه طعنوا بخالقهم، وهذا دليل على طبيعتهم الفاسدة، وتردي عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ... إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾[١].

فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والأصل: إنّهم لذائقو العذاب، وفيه زيادة التقبيح والتشنيع على الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾[٢].

خطاب للإنسان على طريق الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت، أي: فما يحملك على التكذيب بالدّين. وإذا كان الخطاب للنبيّﷺ فهو من باب حثّه على الثبات، والتعريض بغير المؤمنين. والمعنى: أنّه لا يكذّبك شيء ما بعد هذا البيان بالدين، لا تكن كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات اللّه. والاستفهام للإنكار والتعجّب.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ إلى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾[٤].

٣. للتحقير، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ... فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٥].

في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة، فهو لا يريد أن يخاطبهم، ولكن عندما

---

١. الصافات: ٣٦ـ٣٨.

٢. التين: ٦ و ٧.

٣. التوبة: ٦٨ و ٦٩.

٤. محمّد: ٢١ و ٢٢.

٥. الجاثية: ٣٥.

يتطلّب الأمر أن يزيدهم تشنيعاً وتقبيحاً يعرضهم للعيان، فيزيدهم افتضاحاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[١].

فقوله: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي والكفرة والمشركون يجادلون في اللّـه ذلك بتكذيبهم الرسول وإنكار ما يصف به ربّ العزّة من الوحدانيّة والتنزّه عن الشركاء والأنداد والأولاد. وفي الجملة التفات من الخطاب عنهم إلى الغيبة، بعد أن كان الكلام موجّهاً إليهم مع سائر الناس في الجمل السابقة؛ إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب، وإعراضاً عن لغوهم وباطلهم الذي يخوضون فيه[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا...﴾[٣].

والأصل: «وتجعلون»، والالتفات للإشارة إلى أنّهم ليسوا أهلاً للخطاب، وهم بعيدون من رحمة اللّه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[٤].

والالتفات من الخطاب إلى الغيبة، للتحقير والحطّ من شأنهم، والأصل: هذا نزلكم.

٤. للمزيد من الاهتمام، كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[٥].

الالتفات ـ ﴿لَا تَدْرِى ... أَمْرًا﴾ ـ وردّ بطريق الخطاب، والأصل أن يكون بطريق

---

١. الرعد: ١٣.

٢. في رحاب البيان القرآني، ص٤٣ و ٤٤.

٣. الصّافات: ١٥٧ و ١٥٨.

٤. الواقعة: ٥١ ـ ٥٦.

٥. الطلاق: ١.

الغائب (لا يدري)، لمزيد من الاهتمام بالزجر عن التعدّي.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ... سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ...﴾[١].

في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى﴾ التفات من الغيبة إلى التكلّم؛ للاهتمام بما يلقّيه تعالى في قلوبهم.

فاستعير هنا الإلقاء لحلول الرعب وسيطرته على نفوسهم تجسيداً وتشخيصاً بتنزيل المعنوي بمنزلة الحسّي حيث ألقىٰ اللّهُ في قلوبهم الرعبَ يوم أُحد فانهزم المشركون من غير سبب، تعزّزها نون العظمة في «سنلقي»؛ لتدلّ على الكبرياء وتربية المهابة.

٥. للتفخيم والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿...وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٢].

والسياق: «إذ قلنا له: أسلم»، والتعرّض بعنوان الربوبيّة لإظهار مزيد اللطف والاعتناء بتربيته، كما أنّ جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال: «أسلمت لربّ العالمين» ولم يقل: «اسلمت لك»؛ للإيذان بكمال قوّة إسلامه، وللإشارة إلى أنّ من كان رباً للعالمين لا يليق به إلّا أن يُلقى بالخضوع وحسن الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾[٣].

فيه التفات من ضمير المتكلّم إلى الغيبة؛ إذ الأصل: «نلعنهم»، ولكنّ في إظهار الاسم الجليل «يلعنهم اللّه» إلقاء للروعة والمهابة في القلب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ...﴾[٤].

---

١. آل عمران: ١٤٩ ـ ١٥١.

٢. البقرة: ١٣٠ و ١٣١.

٣. البقرة: ١٥٩.

٤. الزمر: ٥٢ و ٥٣.

فيه التفات من التكلّم إلى الغيبة، والأصل: «لا تقنطوا مـن رحـمتي»، لإضـافة الرحمة للفظ الجلالة، الجامع لجميع الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[١].

الالتفات للتفخيم وتقوية الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ إلى قوله تـعالى: ﴿وَإِذْ قُـلْنَا لِـلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟...﴾[٢].

٦. للكناية، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَاجُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾[٣].

الالتفات في قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾، فقد التفت من الخطاب إلى الغيبة؛ لأنّه كناية عمّا يستحيا من ذكره، فلم يخاطبهم به، وهذا من محاسن الكلام.

٧. للتنبيه على عظم القدرة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنـزَلَ مِـنَ ٱلسَّـمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ...﴾[٤].

والأصل: «فأخرج به»، والنكتة هي الاعتناء بشأن المخرج، والإشارة إلى عظيم نعمه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[٥].

التفات من الغيبة إلى التكلّم للتعظيم.

---

١. النساء: ٧٩.

٢. البقرة: ٣٠ ـ ٣٤.

٣. النساء: ٤٣.

٤. الأنعام: ٩٩.

٥. الفرقان: ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[1].

الالتفات من الغيبة إلى التكلّم، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد قوله: «خلق، ألقى، بثّ» والتي كلّها بضمير الغائب، تعظيماً لمقام الامتنان؛ وليتنبّه الإنسان لشكر النعمة، فيزيد له الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[2].

الالتفات من الغيبة إلى التكلّم في قوله: «فأخرجنا» بعد قوله: «جعل، وسلك، وأنزل» للتنبيه على كمال القدرة الإلهيّة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾[3].

كذلك فيه التفات من الغيبة إلى التكلّم في قوله: «فأخرجنا» بعد قوله: «أنزل» للإشارة إلى عظيم فضله.

وفيه تخصيص ـ أيضاً ـ بأنّا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرته أحد.

٨. لهزّ مشاعر الآباء نحو الأبناء، والزوج تجاه زوجته، قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ...﴾[4].

في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب، ولا يخفى أنّ في الخطاب إيجاز حذف، أي تسترضعون المراضع لأولادكم.

٩. لإظهار المزيد من العناية، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَـٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

---

١. لقمان: ١٠.

٢. طه: ٥٣.

٣. فاطر: ٢٦ و ٢٧.

٤. البقرة: ٢٣٣.

وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[١].

في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا...﴾ التفات من الغيبة إلى التكلّم حيث أسند التزيين إلى ذاته سبحانه، لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ...﴾[٢].

في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلّم للإيذان بكمال الاعتناء بأمر الحشر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٣].

الالتفات في قوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا۟﴾ للزيادة في سرورهم.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾[٤].

فقد التفت من الغيبة الى التكلم؛ لإظهار كمال الاعتناء بصدد الاستجابة، وتشريف الداعين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[٥]. بعد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ...﴾[٦].

وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد.

---

١. فصّلت: ١٢.

٢. الإسراء: ٩٧.

٣. التوبة: ١١١.

٤. آل عمران: ١٩٤ و ١٩٥.

٥. الأنبياء: ٣٣.

٦. الأنبياء: ٣٠.

١٠. للتصوير، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾[١].

فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر، والأصل: «فاخذناهم»؛ للدلالة على أنّ الأَخْذَ يتراءىٰ إلى الأعين، كأنّه قد حدث الساعة .

١١. للتنوع في الفصاحة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[٢].

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيه إلتفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة.

١٢. لتفخيم وتعظيم شأن الرسولﷺ، كقوله تعالى: ﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّـلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٣].

ولو جرى على الأصل لقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾، ولكنّه عدل عن ذلك للتنويه بالرسول تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أنّ شفاعته في حيّز القبول، ليدل دلالة مؤثّرة في قلوبهم على طريق: حكم الأمير بكذا، مكان حكمت حيث أسند استغفاره تعالى إلى لفظ منبئ عن علوّ مرتبة الرسول.

١٣. لتفخيم شأن الرّاسخين في العلم، كقوله تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

والأصل: «سيؤتيهم»[٥]، وتنكير الأجر للتفخيم، أي: هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعاتهم، وهو الخلود في الجنة، والسين لتوكيد الوعد ووقوعه في القريب العاجل.

---

١. آل عمران: ١١.

٢. آل عمران: ٥٧.

٣. النساء: ٦٤.

٤. النساء: ١٦٢.

٥. وهي قراءة حمزة: مراعاة لظاهر قوله تعالى:﴿المؤمنون بالله﴾.

ولتعظيم شأن المؤمنين وخاصّة المجاهدين منهم، كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ...﴾[1].

أي: وتلك الأيام نداولها بين الناس؛ ليقوم بذلك العدل، وليظهر علم اللّه بذلك للناس بظهور ما يعلم لهم.

والالتفات من الحاضرة «نداولها» إلى الغيبة. «ليعلم»، أي ليثبّت ويتحقّق صدق إيمان الذين آمنوا؛ لأنّه متى ثبت وتحقّق كان اللّه عالماً به على أنّه حقيقة ثابتة؛ إذ علم اللّه ثابت في الأزل، ولا يكون إلّا مطابقاً للواقع، فاللّه ـ سبحانه ـ لا يحاسب الناس على ما يعلمُهُ من أمرِهم، ولكن يحاسبهُم على وقوعه منهم، وكذلك اتّخاذهُ الشهداءَ هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص، فهم الذين اختصّهم ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه، ويخصّهم بقربه، ولتشريف المؤمنين في مقام الامتنان، كقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾الى قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[2].

الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٤. لزيادة في التحذير، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَـٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

في هذه الآية التفات بديع من الغيبة إلى الخطاب، ولو جرى على سنن الكلام لقال: «إلّا أن يتّقوا»، ولكنّه عدل عن الغيبة إلى الخطاب؛ لأنّ موالاة الكفّار والأعداء أمر مستقبح ينكره الطبع.

---

١. آل عمران: ١٤٠.

٢. الفتح: ١٨ و ١٩.

٣. آل عمران: ٢٨.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1].

الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: «وما تعدهم إلّا غروراً» ولكنّه عدل عن ذلك؛ لتقوية معنى الاعتراض مع مافيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان حاله للناس، ومن الإشعار بعلّيّة شيطنته للغرور، وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنّه صواب.

١٥. للتسجيل على المشركين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّـهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ...﴾[2].

الالتفات في قوله: «لهم ...» والضمير للناس المشركين والعدول عن الخطاب إلى الغيبة؛ للتنبيه على أنّهم لفرط جهلهم وحمقهم ليسوا أهلاً للخطاب، بل ينبغي أن يصرف عنهم إلى من يعقله، وتسجيلاً للنداء على ضلالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[3].

فقد انتقل من الغيبة في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، ثمّ عاد إلى الغيبة، والفائدة من ذلك زيادة التسجيل المباشر عليهم.

١٦. للتأثير في النفوس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[4].

---

١. الإسراء: ٦٤.

٢. البقرة: ١٦٨ ـ ١٧٠.

٣. آل عمران: ١٨٧.

٤. الحجرات: ٧.

الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾، والجملة تفيد الحصر، أي: هم الراشدون لا غيرهم، ليكون مدحاً للمتّصفين بذلك، وتشويقاً لغيرهم ليتجنّبوا الكفر والفسوق والعصيان، ويلزموا الإيمان حتى يرشدوا ويتّبعوا الرسولﷺ.

١٧. لحسن الخطاب، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[١].

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، والأصل «وجعل له»، والنكتة أنّ الخطاب إنّما يكون مع الحيّ، فلمّا نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذرّيّته.

١٨. لزيادة اللوم والعتاب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾[٢].

في قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، وقد خاطبهما بطريق الالتفات، ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبةممّ بدر منهما من الإيذاء لسيّد الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ * كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ...﴾[٣].

وفيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب، والاصل: «بل لا يكرمون».

١٩. التهديد، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ

---

١. السجدة: ٦ ـ ٩.

٢. التحريم: ٣ و ٤.

٣. الفجر: ١٦ و ١٧.

ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[١].

فالانتقال من الحديث عنهم أي «وقالوا»، إلى الحديث إليهم أي «لقد جئتم» زيادة في تهديد من قالوا، ومواجهة لهم بالسخط عليهم، والتأنيب لهم.

٢٠. البشرى، كقوله تعالى ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[٢].

التفات من الغيبة إلى الخطاب إذ عبّر عن المعنى أوّلاً بطريق الغيبة، فقال: «ربّهم» ثمّ التفت فعبّر ثانياً بطريق الخطاب فقال: «لكم» يخصّهم بالبشرى، وكان مقتضى السياق أن يقال: «لهم».



---

١. مريم: ٨٨ ـ ٩٠.

٢. الإنسان: ٢١ و ٢٢.

المبالغة

المبالغة لغةً: بذل الجهد في العمل ليبلغ غايته، والجَوْدة والإتقان، فيقال: شيء بالغ أي جيّد، وبهذا فهي الاجتهاد وعدم التقصير.

وقد تفيد معنى الغلوّ والإفراط حين يتجاوز الاجتهاد والتقصّي الحدّ المعقول[1].

وللبلاغيين والنقّاد والأُدباء آراء حول المبالغة نستعرضها لنلقي الضوء على تطورها وما رافقها من مصطلحات، وتباين الدراسات حولها.

فالمبالغة عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ،ق) تعني البلوغ إلى أقصى النهاية، وهذا ماأورده أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ،ق) من بعده في تعريف المبالغة، قال هي: «أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازِله وأقرب مراتِبه»[2].

والمبالغة المفرطة في المعنى غير مرغوبة عند الجاحظ، وهو لا يميل كذلك إلى ما يسمّى بـ«الخيال الخرافي» عند النقاد، فذكر فيما زعمه أبو البلاء الطهوي في وصف مغامراته مع الجنّ ومبارزته للسعالى والعفاريت: «وأبو البلاء هذا الطهوي كان من شياطين الأعراب، وهو كما ترى يكذب وهو يعلم، ويُطيل الكذب ويُحبِّرُهُ،

---

١. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص٨٩.

٢. الصناعتين، ص٣٧٨، وما بعدها.

وقد قال كما ترى:

فقالت زِدْ فقلتُ رُويداً إنّـي   عـلى أمـثالِها ثَـبْتُ الجـنان

لأنّهم هكذا يقولون، ويزعمون أنّ الغول تستزيد بعد الضربة الأولى؛ لأنّها تموت من ضربةٍ، وتعيش من ألف ضربةٍ[1].

ومن المبالغة في التصوير مبالغتهم في تصوير سرعة العدوّ:

وكــأنّما جــهـدت أليّـتُهُ   أن لا تمسَّ الأرض أربعُهُ[2]

يقول الجاحظ: «فأفرط المولدون في صفة السرعة ـ وليس ذلك بأجود ـ فقال شاعرٌ منهم يصف كلبةً بسرعة العدوّ: كأنّما ترفعُ ما لم يُوضع.

وقال الحسن بن هانئ: «ما إن يقعن الأرض إلّا فرطاً»[3]. أي أنّ المبالغة تكمن في عدم الاقتصار على الحدّ الأوسط في المعنى، إنّما هي إضافة لمـزيد مـن البـيان، والتوكيد، وتمكين الصورة في ذهن المستمع.

و «الغلوّ» عنده: تجاوز في نعت ما للشيء أن يكون عليه خارجاً عن طباعهِ إلى ما لايجوز أن يقع له، فمثل قول النمر بن تولب:

تَـظلُّ تَـحْفِـر عـنهُ إن ضَـرَبَتَ بـهِ   بُعْدَ الذراعينِ والساقَينِ والهـادي[4]

فليس خارجاً عن طباع السيف أن يقطع الذراعين والساقين والهادي، وأن يُؤثّر بعد ذلك، ويغوص في الأرض، ولكنّه ممّا لا يكاد أن يكون.

أمّا الامتناع فعنده: الذي يصعب تحقيقه لتنافيه مع النواميس العامّة، فيقول فـي قول أبي‌نواس:

---

١. الحيوان، ج٦، ص٢٣٥.

٢. جهد: جدّ وبالغ، والأليّة: اليمين والقسم، و«أربعه» أي قوائمه الأربع.

٣. الحيوان، ج٢، ص٣٥.

٤. نـقد الشعر، ص٢٠٢؛ كـتاب الصـناعتين، ص٣٦٠؛ العـمدة، ج١، ص٥٣٩؛ الشعر والشعراء، ج١، ص٣١١، الهادي: العنق.

يا أمين اللّـه عش أبـداً دُم على الأيّام والزّمن[١]

ما نصّه: «ليس من طباع الإنسان أن يعيش أبداً، وإذ «الغلوّ» إنّما يقبل «يكاد»، ويحسن فيه ذلك، فليس في «عش أبداً» موضع يحسن فيه؛ لأنّـه لا يـحسن فـي موضوع الدعاء أن يقال: يا أمين اللّه تكاد تعيش أبداً».

وفرّق بينه وبين المتناقض بكونه لا يكون ولا يمكن تصوّره في الوهم، والممتنع لا يكون ويجوز أن يتصوّر في الوهم.

وجعل البغدادي منزلة الممتنع المستحيل في الشناعة كأن تركّب أعضاء حيوان ما على جثّة آخر، فإنّ ذلك جائز في التوهّم، ولكنّه معدوم في الوجود[٢].

ثمّ عرض لها ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ،ق) في مشكل القرآن في مبحث الاستعارة فاستحسنها، وردّ على من عـابوا الشـعراء بـها، ونسـبوهم إلى الإفـراط وتـجاوز المقدار[٣].

يقول بعد قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَـانُواْ مُـنظَرِينَ﴾[٤]: «تقول العرب إذا أرادت تعظيم مَهْلكِ رجل عظيم الشأن، رفيع المكان، عالم النفع، كثير الصنائع: «أظلمّت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الريح والبرق والسماء والأرض»، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به، وأنّها قد شملت وَعمَّتْ، وليس ذلك بكذب؛ لأنّهم جميعاً متواطئون عليه، والسامع له يعرف مـذهب القـائل فـيه، وهكذا يفعلون في كلّ ما أرادوا أن يعظّموه ويستقصوا صنعته، وليتهم فـي قـولهم: «أظلمت الشمس» أي: كادت تظلم، و «كسف القمر» أي: «كاد يكسـف، ومـعنى: (كاد): همَّ أن يفعل ولم يفعل»

---

١. المصدر الأوّل، ص٢٤٢ و ٢٤٣.

٢. قانون البلاغة، ص٣٩؛ رسائل البلغاء، ص٤١٣.

٣. تأويل مشكل القرآن، ص ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٨، (تحقيق السيّد أحمد صقر ١٩٧٣).

٤. الدخان: ٢٩.

وقال: «وكان بعضُ أهلِ اللغةِ يأخذُ على الشعراءِ أشياء مِنْ هذا الفنّ وينسبها إلى الإفراط وتجاوز المقدار، وما أرى ذلك إلّا جائزاً حسناً».

وكذلك عرض لها المبرّد (ت٢٨٥هـ.ق) من خلال درسه للتشبيه فيما نقله ابن رشيق عنه فيما بعد[١].

ولم يوضح ثعلب (ت٢٩١هـ.ق) ماذا يقصد بـ«الإفراط والغلوّ في المعنى»، واكتفى بأن ضرب مثلاً لامرئ القيس[٢].

وانتقل مصطلح «الإفراط في الصفة» من الجاحظ، وتردّد عند ثعلب وابن قتيبة والمبرّد إلى ابن المعتزّ (ت٢٩٦هـ.ق)، ويعني به: الإسراف، أو الغرابة، أو الخروج عن المألوف[٣].

وعند الزجاج (ت٣١١هـ.ق) تعني المبالغة: تمام القدرة واستحكامها، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٤]، يقول: «ومعنى الملك في اللغة تمام القدرة واستحكامها»[٥].

ونجد أنّ مصطلح المبالغة لم يستقرّ حتى مجيء قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ.ق) وتفريقه بين ثلاثة مصطلحات تفريقاً واضحاً، وهي «المبالغة»، و«الغلوّ»، و«الامتناع»، فظلّت مفاهيمها تسيطر على البلاغيّين من بعده[٦].

لقد جعل قدامة المبالغة من أنواع نعوت المعاني، وهي عنده: «أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده،

---

١. الكامل للمبرد، ج٣، ص١٢٨.

٢. قواعد الشعر، ص٣٩ وما بعدها.

٣. البديع، ص٦٥.

٤. المائدة: ٤٠.

٥. معاني القرآن وإعرابه، ج١، ص ١٦٨.

٦. انظر: نقد الشعر، ص٢٠٢؛ جواهر الألفاظ، ص٦؛ البديع تأصيل وتجديد، ص ١٣٠.

فلا يقف يزيد في معنى ما ذكره من تلك الأحوال ما يكون أبلغ فيما قصد إليه، وذلك مثل قول عمير بن الأبهم التغلبي:

ونُكرِمُ جارَنا مـا دامَ فـينا ونُتْبِعُهُ الكرامةَ حيثَ كـانا

فإكرامهم للجار ما دام فيهم من الأخلاق الجـميلة المـوصوفة، واتّـباعهم إيّـاه الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل[1].

وهكذا يتبيّن من شروح قدامة هذه، ومن الأبيات التي استدلّ بها أنّ المـقصود عنده بالمبالغة توكيد الشاعر للمعنى وبلوغه أقصى حدوده، وبهذا فهو يـضع حـدّاً فاصلاً بين المبالغة بالمعنى الذي شرحه، وبين الغلوّ والإغراق، يقول قـدامـة: «إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً... ومن أنكر على مهلهل والنمر وأبي نواس قولهم المقدّم ذكره فهو مـخطئ؛ لأنّـهم وغيرهم ـ ممّن ذهب إلى الغلوّ ـ إنما أراد المبالغة...»[2]

فهو وإن كان يعتبر المبالغة نوعاً من الغلوّ إلّا أنّها في نظره تأتي في مرتبة أقل من الغلو الذي يبني على الإفراط الشديد[3].

وقسّم ابن وهب المبالغة إلى قسمين: مبالغةٍ في اللفظ، وهي التي تجري مجرى التأكيد، مثل: «هذا هو الحقّ بعينه»، وقول الحطيئة:

ألا حـبَّذا هـنـدٌ وأرضٌ بـها هِـنْدُ وهندٌ أتى من دونها النَّأيُ والبُعْدُ

ومبالغةٍ في المعنى وهي إخراج الشيء على أبلغ غايات معانيه، كقوله تـعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[4]، فبالغ اللّه في تقبيح قولهم وإخراجه على غاية الذمّ. ومنه قول زهير:

---

١. المصدر الأوّل، ص١٦١.

٢. النكت في إعجاز القرآن، ص٩٦.

٣. الخصائص، ج٣، ص٢٦٦.

٤. المائدة: ٦٤.

وفيهنّ ملهىً للطيف ومـنظرٌ أنـيقٌ لعـين النـاظر المـتوسّمِ

واعتبر أنّ المبالغة من شأن العرب، فهي تبالغ في الوصف والذمّ كما هو من شأنها أن تختصر وتوجز، وذلك لتوسّعها في الكلام واقتدارها عليه، ولكلّ من ذلك موضع يستعمل فيه[١].

أمّا الرمّاني (ت ٣٨٤هـ.ق) فالمبالغة عنده: (الدلالة على كبر المعنى) على جهة التغيير من أصل اللغة لتلك الإبانة، والتغيير عن أصل اللغة للإنـابة إمّـا أن يكـون بالصيغ القياسية الصرفية كـ«فعّال» و«مفعال» و«فعول» وغيرها وبتغيير الصـياغة، وله عدّة طرق:

أ) وضع الصيغة العامّة موضع الخاصّة، كقوله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢].

ب) أو اخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر، كقوله تـعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٣].

ج) أو إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[٤].

د) أو إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل، والمظاهرة فـي الحـجاج، فمن ذلك ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٥] ومنه ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾[٦].

هـ) أو حذف الأجوبة للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ﴾[٧]، كـأنّه

---

١. انظر: المصطلح النقدي، ص ٩٠.

٢. الأنعام: ١٠٢.

٣. الفجر: ٢٢.

٤. الأعراف: ٤٠.

٥. سبأ: ٢٤.

٦. الزخرف: ٨١.

٧. ص: ١.

قيل: لجاء الحقّ، أو لعظم الأمر، أو لجاء بالصدق، وكلّ ذلك يذهب إليه الوهم، لما فيه من التفخيم، والحذف أبلغ من الذكر؛ لأنّ الذكر يقتصر عـلى وجـه، والحـذف يذهب فيه الوهم إلى كلّ وجه من التعظيم، لما تضمّنه من التفخيم[١].

والمبالغة عند ابن جنّي (ت٣٩٢هـ.ق) زيادة في المعنى تقتضي زيادة في بناء اللفظ، «فإذا أرادوا المبالغة في جمال ووضاء رجل قالوا: وضّاء، وجمّال، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه»[٢].

وأمّا العسكري (ت٣٩٥هـ.ق) فيتفق مع قدامة بن جعفر على اعتبار معاني الشعر غير معاني النثر، فيجوز فيه ما لا يجوز في غيره حيث يقول: «للشعر مواضع لاينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بـني عـلى الكـذب... ولاسيّما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله، وليس يراد منه إلّا حسـن اللفظ، وجودة المعنى... وقيل لبعض الفلاسفة: فلان يكذب في شعره، فقال: يراد من الشعر حسن الكلام، والصدق يراد من الأنبياء»[٣].

فمبدأ الغلوّ والكذب ومخالفة الواقع أمر مسلّم به عند أكثر النقّاد، ومعمول بـه فـي الشـعر العـربي فـي جـميع أدواره، لكـن حسـن اسـتعماله يـتوقّف عـلى ذوق الشاعر، فإن كان غلوّه مصطنعاً يقصد من ورائه الاستراحة وإشغال الأسـماع حين يعجز عن إيراد المعنى الحسن ـ كما سنجده عند ابـن رشـيق قـريباً ـ فـهو حينذاك غلوّ مردود.

وفرّق النقّاد بين غلوّ حسـن وغـلوّ قـبيح، فـصاحب الصـناعتين (أبـي هـلال العسكري) الذي يستحسن الغلوّ كمبدأ، يستهجنه إذا جاء تافهاً مـتكلفاً، قـال فـي تحديده: «الغلوّ تـجاوز حـدّ المـعنى والارتـفاع فـيه إلى غـاية لا يكـاد يـبلغها،

١. علم البديع نشأته وتطوّر، ١٤١.
٢. البرهان في وجوه البيان، ص١٥٣.
٣. كتاب الصناعتين، ص١٣١.

كقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[١]. ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[٢].

ومن عيوب هذا الباب أن يخرج فيه الشاعر إلى المحال، ويشوبه بسوء الاستعارة، وقبيح العبارة، كقول أبي نؤاس في الخمر:

تَوَهّمتُها في كأسِها فكأنّما تَوَهَّمْتُ شيئاً ليس يُدرَكُ بالعقلِ

فتىً ألفُ جزءٍ رأيه في زمانه أقلُّ جزيٍْ بعضه الرأي أجمعُ[٣]

وعلى أساس اتّخاذ الذوق حكماً أنكر النقّاد التصنّع والإفراد والاستحالةَ والتناقض، وذمّوا الغلوَّ المكروه الثقيل، فأعلنوا أنّ الإسهاب في الشكر ثقيلٌ، والإفراط في الاستعطاف إبرامٌ[٤]، وشغفوا بالقدماء؛ لأنّهم أطبع من المحدّثين، وأقلّ غلوّاً، وزعموا أنّ أنصار البديع ـ نظير مُسلم وأبي‌تمّام وغيرهما ـ قد أفسدوا الشعر العربى[٥].

ولم يتساهل النقّاد في مخالفة الواقع لغير داعٍ بياني أو فنّي، واستهجنوا إفساد المعنى في قولِ أحدِهم:

شكوتُ إلى الزمان نحولَ جسمي فأرشدني إلى عبدِ الحميدِ

قال الناقد: «وإنّما يُرشد في نحول الجسم إلى الأطبّاء، فأمّا الرؤساء والممدوحون فإنّما يُلتمس عندهم صلاح الأحوال»[٦].

غير أنّ هؤلاء النقّاد لم يفصّلوا بين مبدأ الغلوّ ومخالفة الواقع كما فعل أرسطو، ففي كتاب الشعر لأرسطو يرد ذكر الغلوّ والكذب، والفنّ المثالي والخيالي الغريب أو الفائق الطبيعة الذي شرط المؤلّف وجوده في التراجيديا ورأىٰ

---

١. الأحزاب: ١٠.

٢. إبراهيم: ٤٦.

٣. كتاب الصناعتين، ص ٢٨٠ و ٢٨٦.

٤. المصدر، ص ١٤٩ و ١٥٣.

٥. الموازنة، ص٨؛ انظر: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، ص ١٢٥.

٦. الوساطة، ص٦٥ و ٦٨.

فيه أصلاً هامّاً من أصول الملحمة، وليس للمثالي ولا الفائق الطبيعة أيّ ذكر في نقد العرب[1].

وعند قدامة وجدنا أنّه يتحدّد الأمر اعتماداً على الفكر اليوناني، فهناك «المبالغة»، وهناك «الغلوّ»، وهناك «الممتنع»، والمقياس هنا أيضاً «الواقع» و«الحقيقة» فالمبالغة مرحلة تأتي بعد تصوّر الواقع أو الحدث، والغلوّ متجاوز للواقع.

وظلّ هذا المفهوم مسيطراً على البلاغيّين من بعد قدامة، فأوقعهم في اللبس، فجعلوا المبالغة مرتبطة بالواقع، والغلوّ متجاوزاً للواقع، ولو رجعوا إلى القرآن الكريم لأدمجوا الغلوّ في المبالغة، ولأبدلوا الواقع الحقيقي الذي شغلهم كثيراً بالواقع الفنّي الذي يبدعه الفنّان، فله حقيقته وله مقاييسه[2].

ويعتبر كتاب ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦ هـ.ق) العمدة صدىً لكتاب الصناعتين، فابن رشيق يذكر المبالغة كأمر مختلف فيه: «والناس فيها مختلفون: منهم يُؤثرُها، ويقول بتفضيلها، ويراها الغاية القصوى في الجودة ... ومنهم من يعيبها وينكرها، ويراها عيباً، وهُجنةً في الكلام»[3]. ويبدو أنّه اختار مذهب الوسط إذ قال: «ولو بطلت كلّها وعيبت لبطل التشبيه، وعيبت الاستعارة، إلى كثير من محاسن الكلام»[4].

وينقل لنا ابن رشيق عن عبد الكريم النهشلي أُستاذه ما يراه حول المبالغة في صناعة الشعر، فهي: «كالاستراحة من الشاعر إذ أعياه إيرادُ معنى حسن بالغ، فيشغلُ الأسماع بما هو محالٌ، ويهوّل مع ذلك على السامعين، وإنّما يقصدُها من ليس

١. النقد الجمالي، ص١٢٦.
٢. البديع تأصيل وتجديد، ص١٥٦ و ١٥٧.
٣. العمدة: ١: ٦٤٩ ـ ٦٥٠، هجُن الكلام هُجنةً: دخل فيه عيب، (القاموس: هجن).
٤. المصدر، ج١، ص٦٥٢.

بمتمكّنٍ من محاسن الكلام»[١].

ويعلّق ابن رشيق على هذا الكلام بأنّه: «فيه كفاية وبلاغ، إلّا أنّه ـ فيما يظهر من فحواه ـ لم يُرد إلّا ما كان فيه بُعدٌ، وليس كلُّ مبالغةٍ كذلك»[٢].

واعتبر الإيغال والإغراق ضرباً من المبالغة، وحكى عن ابن دريد اشتقاق الإيغال من الإبعاد، يقال: أوغل في الأرض إذا أبعد، فالشاعر الذي يريد أن يوغل كأنّه أبعد في المبالغة، وذهب فيها كلّ الذهاب.

وكذلك يرى أن أحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلّم بـ«كاد» وما شاكلها، نحو «كأنّ» و«لو» و«لولا»[٣]؛ وذلك للتخفيف من الشطط والبقاء قريباً من الحقيقة، لأنّ الحقيقة هي المطلوبة، حينما تعرّض لنصوص قرآنيّة.

ورجّح ابن رشيق القيرواني أن يكون الغلوّ صحيحاً، بعيداً عن الخلط والتقوّل، فيقول: وأصحّ الكلام عندي ما قام عليه الدليل، وثبت فيه الشاهد من كتاب اللّه تعالى، ونحن نجده قد قرن «الغلوّ» فيه بالخروج عن الحقّ، فقال جلّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[٤].

ولو استشهد بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[٥]، لكان أظهر للمعنى، فالغلوّ الخروج عن الحق، وهو ما بعد البلاغة، فإذا كانت المبالغة أن يبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، فالغلوّ أن تتجاوز هذه الغاية، وتتعدّى هذه النهاية، وتكون قد غلوت ولم تقُل الصدق[٦].

ويعود هذا الموقف لإيمانه الثابت بأنّ البيان القرآني لم ينطق إلّا بالحقيقة، ونقّاد

---

١. المصدر، ج ١، ص ٦٥١.

٢. المصدر، ج ١، ص ٦٥٢.

٣. المصدر، ج ١، ص ٦٥١ و ٦٥٤.

٤. المصدر، ج ١، ص ٦٦٢. الآية في المائدة: ٧٧.

٥. النساء: ١٧١.

٦. البديع تأصيل وتجديد، ص ١٥٣.

البلاغة يرون أنّ وظيفة الشعر الأولى هي التعبير بالانفعال، وأنّ وظيفة الانفعال هي إحياء الأشياء وبعثها وبناؤها جديداً، بحيث تبدو في عالم الشعر حقيقتها أقرب إلى النفس ممّا هي عليه في الواقع.

ولعلّ أهمّ خصائص الانفعال الفنّي أنّه يبعث سور المبالغة والغلوّ في النفس، فتسقط أعراض الواقع وجزئياته، ويتعاظم الجوهر الذي يتأثّر به الأديب أو الشاعر، ويدرك أقصى أبعاده.

فالفنّ هو تعديل من عالم العقل والحواس، ومحاولة لإعادة بناء الأشياء وصياغتها صياغة جديدة توافق طبيعة الإنسان، وتجعله ذا قدرة في خلق المعاني والقيم والمفاهيم، بدلاً من أن يبقى مشاهداً لها.

ولا شكّ أنّ للمبالغة فضل بهاء، وجودة رونق، وصفاء خاصّة إذا صحبها الحدس المبدع، وتوفّرت لها الثقافة التي تعمّقها وتنهض بها من النزوة الآنية العارضة إلى المعاناة الإنسانية العامّة، ولعلّ هذا يفسّر لنا شدّة تأثير الشعر في وجداننا، فهو يميط لنا اللثام عن الحقائق الخفيّة، ويعرفنا على ذواتنا، ويتوسّل بها ليبثّ الحياة في كلّ ما هو جامد ومتحجّر في الوجود.

وسلك ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ.ق) مسلك قدامة، واستعرض اختلاف الناس في المبالغة والغلوّ، فمنهم من يحمدها، ومنهم من يذمّها، ثمّ مال إلى الرأي الأوّل، لأنّ الشعر مبنيّ على الجواز والتسامح، ولكنّه يرى استعمال «كاد» وما يجري في معناها، ليكون الكلام أقرب إلى حيّز الصحة[1]، وهو بهذا يتبنّي موقف ابن رشيق بوجوب اقتران الغلو بـ «كاد» وما شاكلها.

وإذا مابدا من خلال هذا الموقف منسجماً مع مذهبه في غاية الكلام الذي تطابق مع موقف ابن رشيق في البيان والإفصاح، وعاد إلى عمود الشعر العربي القديم، فإنّه قد وقف مضطرباً بين شاعريّته التي تجيز المبالغة والغلوّ، وبين موقفه النقدي الذي

١. أُنظر: سر الفصاحة، ص٣١٩ و ٣٢١.

يطلب البيان والوضوح، دون أن نحسّ أنّ البيان القرآني دخلاً في هذا الاضطراب.

أمّا عبد القاهر الجرجاني[١] (ت ٤٧١ هـ، ق)، فقد سبق وإن بيّنّا تعرّضه للمبالغة في مقدّمة هذا الكتاب.

وأمّا الزمخشري (ت٥٣٨ هـ، ق) فالمبالغة عنده هي بلوغ الغاية في المعنى.

ولم يتحدّث السكّاكي (ت٦٢٦ هـ، ق) عن المبالغة في المفتاح.

بينما استرسل ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ، ق) في حديث عن (الاقتصاد والتفريط والافراط».

ويتأثّر ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ، ق) بما قاله الرمّاني.

وهناك معالجات من قبل الزركشي (ت ٧٩٤هـ، ق)، والقزويني (ت٧٦٩هـ، ق)، ويحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ، ق)، بين إسهاب وتلخيص، واجتهادات متواضعة.

ويمكن تقسيم مذاهب البلاغيّين والنقّاد في المبالغة إلى ثلاثة مذاهب:

الأوّل: أنّها غير معدودة في محاسن الكلام، ولا من جملة فضائله؛ وحجّتهم على هذا هي أن خير الكلام ما خرج مخرج الحقّ من غير إفراط ولا تفريط.

الثاني: أنّها من أجلِّ المقاصد في الفصاحة، وأعظمها في البراعة؛ وحجتهم على ذلك أنّ: «خير الشعر أكذبه»، و«أفضل الكلام ما بولغ فيه».

الثالث: أنّها فنّ من فنون الكلام، ونوع من محاسنه، ومتى كانت جارية على جهة الغلوّ والإغراق فهي مذمومة. وذكر العلوي أنّ: «من عاب المبالغة فقد أخطأ، فإنّ المبالغة فضيلة عظيمة لا يمكن دفعها وإنكارها، ولولا أنّها في أعلى مراتب البيان لما جاء القرآن ملاحظاً لها في أكثر أحواله، وجاءت فيه على وجوه مختلفة لا يمكن حصرها، فقد أخطأ من عابها على الإطلاق، وأمّا من استجادها على الإطلاق فغير

---

١. الطراز، ج٣، ص١١٩.

مصيب على الإطلاق أيضاً؛ لأنّ منها ما يخرج عن الحدّ فيعظم فيه الغلوّ والإغراق، فيكون مذموماً، كما يحكى عن أقوام أغرقوا فيها وتجاوزوا الحدّ بحيث لا يـمكن تصوّر ما قالوه على حال قرب ولا بعد، لكن خير الأمور أوساطها، فما كـان مـن الكلام جارياً على حدّ الاستقامة من غير إفراط ولا تفريط فهو الحسن لامراء فيه، فيكون فيه نوع من المبالغة من غير خروج ولا تجاوز حدّ»[١].

وسار على هذا المذهب معظم البلاغيين والنقّاد.

وخلاصة القول أنّ المبالغة هي أن تبالغ في وصف الشيء، فتصفه بما يزيد على ما هو عليه في الواقع. وتكون على ثلاثة أنواع تبعاً لدرجات الابتعاد في المعنى:

١. **التبليغ**: وهو الوصول بالمعنى إلى حدّ يظلّ فيه ممكناً عقلاً وعادة، أي يمكن تصوّره في الذهن، ووقوعه في الحياة.

٢. **الإغراق**: وهو الوصول بالمعنى إلى درجة يظلّ معها ممكناً عقلاً، وغير ممكن واقعاً، أي يستطيع الذهن أنْ يتصوّره ويقبله، لكنّ العين لا تقع على مثله في الحياة.

٣. **الغلوّ**: وهو البلوغ في المعنى درجة المستحيل وهو نوعان: غلو فنّي مستحبّ، وغلو فجّ مستكره[٢].

ومن النوع الأوّل قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**﴾[٣].

والمعنى أنّ هول القيامة إذا فاجأ المرضعة وقد ألقمت الصبيّ ثديها نزعته من فيه؛ لما يلحقها من الدهشة عن الذي أرضعته.

---

١. مجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي، ص٣٢٥ و ٣٢٦.

٢. ذكر القزويني «أنّ البلاغة تنحصر في التبليغ والإغراق والغلوّ؛ لأنّ المدّعي للوصف من الشدّة أو الضعف إمّا أن يكون ممكناً في نفسه أو لا، الثاني الغلوّ، والأوّل إمّا أن يكون ممكناً في العادة أيضاً أو لا، الأوّل التبليغ، والثاني الإغراق». الإيضاح، ص٢٧٥؛ التلخيص، ص٣٧٠. ودرجة المستحيل التي ذكرناها فالمستحيل ليس مستحيلاً عقلاً بل هو مستحيل عادة فقط؛ لأنّ المستحيل عقلاً ما كان كاجتماع النقيضين.

٣. الحجّ: ٢.

فتصوير الذهول المذكور مبالغة في وصف يوم القيامة بالشدّة، وهي مبالغة خفيفة يطلق عليها اسم التبليغ.

ولو قال: «تذهل كلّ امرأة عن ولدها» لكان بياناً حسناً، وبلاغة كاملة، وإنّما خصّ المرضعة للمبالغة؛ لأنّ المرضعة أشفق على ولدها، لمعرفتها بحاجته إليها، وأشغف به، لقربه منها ولزومها له، لا يفارقها ليلاً ونهاراً، وعلى حسب القرب تكون المحبّة والإلف.

وقوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾[1].

فلو قال تعالى: «يحسبه الرائي» لكان جيّداً، ولكن لمّا أراد المبالغة ذكر الظمآن؛ لأنّ حاجته إلى الماء أشدّ، وهو على الماء أحرص.

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فأَبيتُم عَلَيَّ إباءَ المُخالفينَ الجُفاةِ، والمنابذينَ العُصاةِ، حتَّى ارْتابَ الناصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّندُ بِقَدْحِهِ»[2].

فـ«ارتياب الناصح بنصحه» و«ضنّ الزّند بقدحه» مبالغة في وصف إبائهم وتمرّدهم بالشدّة، وهما أمران ممكنان عقلاً وعادة.

وقوله عليه السلام: «ولعمري ما عليَّ من قتالِ مَن خالفَ الحقَّ، وخابَطَ الغيَّ من إدهانٍ ولا إيهانٍ»[3].

جعل الضالّ والغيّ متخابطين يخبط أحدهما الآخر بمقتضى صيغة «فاعل» في خابط، وذلك أبلغ من أن يقول: خبط في الغي؛ لأنّ من يخبط ويخبطه غيره يكون أشدّ اضطراباً ممّن يخبط ولا يخبطه غيره.

وقول الشاعر:

إذا ما سابَقَتْها الرّيحُ فَرَّتْ وَأَلْقَتْ في يدِ الريحِ التُّرابا

---

١. النور: ٣٩.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٣٥ـ٤.

٣. المصدر، الخطبة ٢٤ـ١.

ومن النوع الثاني: قول الإمام عليّ عليه السلام:

«يَنْحَدِرُ عنِّي السَّيْلُ، ولا يَرْقَىٰ إليَّ الطَّيرُ»[١].

فإنّ عدم رقى الطير إلى مكان يكون فيه الإنسان ممتنع عادة، ولكنّه ممكن عقلاً، نظراً إلى مقام الإمام المعصوم، ومعجزاته الخارقة للعادة.

وقول عُمير بن الأيهم التغلبي:

ونُكرِمُ جارَنا ما دامَ فِينا   ونُتْبِعُهُ الكَرامَةَ حَيْثُ كانا[٢]

فإنّه لم يكتف بما صدّره في أوّل البيت من مقدار ما هو عليه وقومه من الإحسان إلى الجار، والقيام بحقّه، وبذل الجُهد في المعروف إليه حتى شفّعه بقوله: «ونتّبعه الكرامة حيث كانا» مشتملاً على زيادتين:

الزيادة الأولى: إلحاق الكرامة به من الإتحاف، والإلطاف، وكثرة الإحسان، والتبجيل والتعظيم.

والزيادة الثانية: قوله «حيث كانا»، وأراد به حيث يسير من سائر الجهات من برّ أو بحر أو سهل أو جبل.

وبهاتين الزيادتين بلغ الشاعر أقصى ما يمكن أن يقدر عليه في وصف قومه.

ولا يعدّ الإغراق من محاسن القول إلّا إذا دخل عليه أو اقترن به ما يقرّبه إلى الصحّة والقبول، نحو: «قد» للاحتمال، «لو» «لولا» للامتناع، «كاد» للمقاربة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[٣].

---

١. المصدر، الخطبة ٣ـ٢.

٢. ديوان الحماسة، ص١٣٨٥؛ نقد الشعر، ص١٤٦؛ الايضاح، ص٢٧٦؛ خزانة الأدب، ج٣، ص١٣٥؛ كتاب الصناعتين، ص٣٦٦؛ العمدة، ج١، ص٦٥٢؛ و روي الشعر في بعض هذه المصادر «سارا» بدل «كانا» أو «مالا» بدل «كانا».

٣. النور: ٤٠.

أي مثل أعمالهم التي عُملت على غير هدىً، مثل ظلماتٍ مترادفةٍ في بحرٍ عميقٍ غورُه، يغطّيه موجٌ من فوقه موجٍ من فوقه سحاب، فإنّ البحر يكون مظلم القعر جدّاً بسبب غور الماء، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة، وإذا كان فوق الماء سحاب يغطّي النجوم ويحجب أنوارها بلغت الظلمة حدّاً عظيماً، بدليل أنّه إذا أخرج الناظر يده ـ وهي أقرب ما يرى إليه ـ لم يستطع رؤيتها، أي لم يرها ولم يكد.

والمبالغة في «لم يكد يرها»، أي لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1].

فإنّ إضاءة الزيت مع عدم مسيس النار مستحيلة عقلاً وعادةً «في الواقع»، وبدخول يكاد خرج عن الامتناع؛ لأنّها دلّت على مقاربة الإضاءة، لا وقوعها الذي هو المستحيل.

ومن الإغراق المستحسن قول المتنبّي:

ولولا أنّني في غير نومٍ ... لكُنتُ أظُنُّني منّي خيالا

ومن ذلك ما قاله الفرزدق في مدح زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام:

يكاد يُمسكهُ عرفان راحته ... رُكنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ

فكلمة «يكاد» قد أكسبته جمالاً، وزادته رقّة وكمالاً.

ومن المستحبّ منه قول الشاعر يصف فرساً له بسرعة جريه:

ويكاد يخرجُ سرعةً من ظلّه ... لو كان يرغبُ في فراق رفيق

أراد أنّه يقرب أن يفارق ظلّه عند جريه، وما يمنعه عن المفارقة إلّا أنّ ظلّه رفيق له، ومن شيمه أن لا يفارق حميمه ورفيقه.

ومن النوع الثالث: الغلوّ الحسن والغلوّ المستكره.

فالغلوّ الحسن، كقول المتنبّي يمدح سيف الدولة:

تظلّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً له ... تُفارقُهُ هلكى وتلقاهُ سُجّدا

---

١. النور: ٣٥.

وصولٌ إلى المستصعبات بخيله فلو كان قرنُ الشمس ماءً لأوردا
ذكيّ تظنّيه طليعة عينه يرى قلبه في يومه ما ترى غدا

ومن أمثلة الغلوّ الحسن ـ والذي عدّه الكثيرون من الغلوّ المستكره، وليس كذلك ـ قول عمرو بن كلثوم:

مَلَأْنا البَرَّ حتّى ضاق عنّا وظهرُ البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

والغلو المستكره، كقول أبي نؤاس:

وأخَفْتَ أهلَ الشِّركِ حتّى أنّهُ لتخافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ[1]

أسند الخوف إلى النطف (الأجنة في بطون أُمّهاتها)، وهو أمر ممتنع عقلاً وواقعاً.

وقول ابن هانئ الأندلسي في مدح معزّ الدين الفاطمي:

ما شِئْتَ لا ما شاءَت الأقدارُ فاحكُمْ فأنتَ الواحدُ القهّارُ

أن يصبح الممدوح الواحدَ القهّارَ غلوٌّ يوهم الكفر.

وقول الأعشى:

فتىً لو يُنادي الشمسَ ألقَتْ قِناعَها أو القَمَرَ السَّارِي لألْقى المقالِدَ[2]

فقد غالى في تصوير المعنى، فعلّق تبذّل الشمس على مجالسته لها، وكذلك تخلّي القمر الساري عن المقالد مرهون بتلك المجالسة، ولم يخل كلامه من التكلّف، فقد أثبت للشمس قناعاً وللقمر مقالد وجوّز في جانبهما المنادمة.

❊ ❊ ❊

١. ديوانه، ص٤٥٢؛ الايضاح، ص٢٧٦؛ المصباح، ص٢٢٩؛ سر الفصاحة، ص٢٦٣؛ عيار الشعر، ص٤٨؛ الطراز، ج٢، ص٣١٤؛ الوساطة، ص٦٢؛ الاشارات، ص٢٢١؛ حسن التوسل، ص٢٣٦؛ نقد الشعر، ص٩٢.
٢. كتاب الصناعتين، ص٢٨٣.

أدوات المبالغة في القرآن

أوّلاً: الأدوات اللّغوية

استخدم القرآن عدّة صيغ من صيغ المبالغة المعروفة وهي:

١. **فَعُول**: كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّـهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[١].

«يؤوس، قنوط» بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء «فعول»، ومن طريق «التكرير»، والقنوط: أن يظهر فيه أثر اليأس، فيتضاءل، وينكسر[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾[٣].

التأكيد بـ«إنّ واللام» مع صيغة المبالغة.

٢. **فِعِّيل**: كما في قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[٤].

مبالغة في الصدق والتصديق[٥].

٣. **فعلان**: كقوله تعالى: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ

---

١. فصّلت: ٤٩.

٢. الكشاف، ج٤، ص٢٠٥.

٣. الحجّ: ٦٦.

٤. المائدة: ٧٥.

٥. معاني القرآن للفراء، ج١، ص٤٢٩.

لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[١]. «الحيوان»: مصدر حيي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، وهو أبلغ من الحياة؛ لما في بناء «فعلان» من الحركة والاضطراب اللازم للحياة الدائمة[٢].

٤. فَعْلان: كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٣].

«الرّحمن»: صيغة فعلان في اللغة تدلّ على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة للصفات الطارئة، كعطشان وغرقان.

«الرّحيم»: صيغة فعيل تدلّ على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة الدائمة الثابتة؛ ولهذا لا يستغني بأحد الوصفين عن الآخر.

٥. المفاعلة: كقوله تعالى: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّـهَ وَٱلَّـذِينَ ءَامَـنُواْ وَمَـا يَخْـدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[٤].

«يخادعون» جيء به على لفظ «يفاعلون» للمبالغة[٥].

٦. افْتَعَل: كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّـاعَةُ﴾[٦].

أصل «افتعل»: إعداد المعنى للمبالغة، نحو: «اشتوى»، إذا اتّخذ شواءً مبالغاً في إعداده.

٧. فَعّال: كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٧]، ﴿هُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٨]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾[٩]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١٠]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ

---

١. العنكبوت: ٦٤.

٢. الكشاف، ج٣، ص٤٦٣.

٣. الفاتحة: ٣.

٤. البقرة: ٩.

٥. الكشاف، ج١، ص٥٨.

٦. القمر: ١.

٧. هود: ١٠٧.

٨. سبأ: ٢٦.

٩. النساء: ٢٤.

١٠. التوبة: ١٠٤.

رَبِّيٓ﴾[١]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[٢].

أمّا قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٣]، فهو ليس للمبالغة، وإنّما هو للنسب، مثل عطّار، أي ليس ربُّك بذي ظلم، أي: لو عذبّتُ عبداً ضعيفاً منقاداً لأمري لكان ذلك غاية الظلم، ولست بظلّام فأُعذّب من ليس لي تعذيبه. فظهر بهذا أنّ نفي كونه ظلّاماً يستلزم نفي كونه ظالماً، ومن حمل ذلك على المبالغة صبَّ النفي على المبالغة، فيثبت أصل الفعل، مع أنّ اللّه منزّه عن ذلك.

٨. فُعَلَة: كقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾[٤].

فإنّ بناء «فُعَلة» يدلّ على أنّها عادة مستمرّة، فهي صيغة مبالغة.

٩. فَعِيْل: كقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ... ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ... ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٥].

وقوله تعالى في وصف العصاة: ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾[٦]، ﴿خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾[٧].

١٠. استفعل: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾[٨].

أي: يبالغون في السخريّة.

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾[٩].

والمستطير: هو الفاشي المنتشر البالغ أقصى درجات المبالغة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا

---

١. يوسف: ٥٣.

٢. لقمان: ٣١.

٣. فصّلت: ٤٦.

٤. الهمزة: ١.

٥. البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

٦. الجاثية: ٧.

٧. النحل: ٤.

٨. الصافات: ١٤.

٩. الإنسان: ٧.

فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾[١].

قوله: «فَلْيَسْتَعْفِفْ» أبلغ من «فليُعف، كأنّه يطلب زيادة العفّة من نفسه هضماً لها، وحملاً على النزاهة.

١١. فَعَلُوت: كقوله تعــالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].

الملكوت: صيغة مبالغة من الملك، ومعناه الملك الواسع التامّ، مـثل الجـبروت والرحموت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٣].

الطاغوت أصله «طغيوت»، ولام الكلمة هي الياء؛ لأنّها من الطغيان، ثمّ قدّمت الياء على الغين وقلبت الياء ألفاً؛ لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، فصار وزنه «فـلعوت» بتقديم اللام على العين، و أُطلقت على الشيطان؛ لكونها مصدراً، وفيها مبالغة، وهي التسمية بالمصدر، كأنّ عين الشيطان طغيان، وأنّ البناء بناء مبالغة، والقـلب وهـو الاختصاص؛ إذ لا يطلق على غير الشيطان.

١٢. فَوْعَل: كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[٤].

الكوثر: «فوعل» من الكثرة، كنوفل من النفل، والعرب تسمّي كلّ شـيء كـثير العدد أو عظيم القدر والخطر كوثراً، فهو بناء يفيد المبالغة في الكثرة، والإفراط فيها.

١٣. زيادة التاء: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[٥].

أُلحقت الهاء بـ«مثابة» لما كثر من يثوب إليه.

---

١. النساء: ٦.

٢. الأنعام: ٧٥.

٣. الزمر: ١٧.

٤. الكوثر: ١.

٥. البقرة: ١٢٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[١].

«كافّة» حال من الكاف في أرسلناك، ولحقت الهاء «كافة» للمبالغة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٢].

أي متمكّن في القدرة، لا يردّه شيء عن إمضاء قدرته.

١٤. تضعيف بالتشديد: كقوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[٣].

في قراءة عن الحسن: «يُصَهّر» بتشديد الهاء للمبالغة[٤]، أي إذا صبّ الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم، كما يذيب جلودهم.

١٥. كاد ويكاد: كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٥].

أي: كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا؛ لأنّهم أرادوا أن لا يذبحوها، وكلّ شيء في القرآن عبّر عنه بـ«كاد» أو «كادوا» أو «لو» فإنّه لا يكون، وهو مثل قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾[٧].

أي لو أنّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر حبراً، وأمدته سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات اللّه الدالّة على عظمته وصفاته وجلاله، لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار، وما انتهت كلمات اللّه، مبالغة في عدم نفاد كلمات اللّه إذا كان ما في الأرض من شجرة أقلاماً، وكان البحر الممدود بسبعة أبحر مداداً.

---

١. سبأ: ٢٨.

٢. القمر: ٤٢.

٣. الحج: ٢٠.

٤. تفسير الطبري، ج ١، ص ٢٨١ (الطبعة الأُولى، مصر ١٣٢٣هـ).

٥. البقرة: ٧١.

٦. طه: ١٥.

٧. لقمان: ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[1].

المبالغة في قوله: «وَلَا يَكَادُ»، فدخول فعل «يكاد» للمبالغة، يعني: ولا يقارب أنْ يسيغه، فكيف تكون الإساغة؟! وفي الآية استقصاء بديع[2].

ثانياً: الأدوات الفنية

هناك أساليب للمبالغة توزّعت ما بين علوم: المعاني، والبيان، والبديع، وهي أساليب كثيرة لا نهاية لها، نختار بعضها:

أوّلاً: أسلوب المبالغة في علم المعاني

١. الإخبار والإنشاء: قد يقع الخبر موقع الإنشاء لأغراض: منها: القصد إلى المبالغة في الطلب حتى كأنّ المخاطب يسارع في الامتثال، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾[3].

لم يقل: «لا تسفكوا»، قصداً للمبالغة في النهي حتى كأنّهم نُهوا فامتثلوا، ثمّ أخبر عنهم بالامتثال.

وللإنشاء الطلبي أساليب: منها: الأمر، والاستفهام، والنهي، والتمنّي، والنداء.

أ) الأمر: من أغراض الأمر البلاغية:

---

١. إبراهيم: ١٦ و ١٧.

٢. أي: استقصى المعنى الذي أراده في الآية، وهو كراهية الصديد الذي يشربه بقوله: يتجرّعه؛ إذ فيه احتمالات:

١. أنّه مطاوع (جرّعته) بالتشديد.

٢. أنّه يتكلّف (جرّع).

٣. أنّه يتناوله شيئاً بالجرع؛ لدلالة الفعل على المهلة.

٤. جرّعه بمعنى المجرّد. وفي جميع هذه الأحوال استقصى غاية ما يمكن أنْ يتناوله شارب الماء.

٣. البقرة: ٨٤.

١. المبالغة في التهديد:

كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾[١].

ومثله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾[٢].

٢. المبالغة في الإهانة:

كقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[٣].

٣. المبالغة في الدوام، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾[٤].

فليس الأمر بالإيمان؛ لأنّه حاصل، وإنّما الغرض المبالغة في الدوام عليه.

٤. المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا...﴾[٥].

أي وإن أردتم ـ أيّها المؤمنون ـ نكاح امرأة مكان امرأة طلّقتموها والحال أنّكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً، فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر.

جاء الأمر بصيغة النهي لتعظيم الأمر والمبالغة فيه.

ب) الاستفهام: من أغراض الاستفهام البلاغية:

١. التوبيخ: بمعنى ما كان ينبغي أن يكون، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِـٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٦].

فالمنكر نسيانهم أنفسهم، وهو مع علمهم وتصدّيهم لتذكير غيرهم أقبح، فالتوبيخ ليس على أمر الناس بالبرّ نفسه، بل لمقارنته بالنسيان المذكور.

والمراد بالنسيان هنا: الترك؛ لأنّ أحداً لا ينسى نفسه، بل يحرمها ويتركها

---

١. الزمر: ٨.

٢. الأنعام: ١٣٥.

٣. الإسراء: ٥٠.

٤. النساء: ١٣٦.

٥. النساء: ٢٠.

٦. البقرة: ٤٤.

كما يترك الشيء المنسيّ مبالغة في عدم المبالاة والغفلة فيما ينبغي أن يفعله.

٢. الاستنكار، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ...﴾[١].

في انكار ثبوت العهد نفسه من المبالغة ما ليس في إنكار ثبوته للمشركين؛ لأنّ انتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأساً.

٣. التعظيم والتهويل، كقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[٤].

٤. الحثّ والاستعجال، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾[٥].

ج) النهي: هو طلب الكفّ عن الفعل على وجه الإلزام والاستعلاء. وقد وردت المبالغة على هذه الصيغة كثيراً في القرآن، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾[٦].

و: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[٧].

و: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾[٩].

---

١. التوبة: ٧.

٢. الواقعة: ٨.

٣. يونس: ٥٠.

٤. القارعة: ١ و ٢.

٥. الشعراء: ٣٩.

٦. الأنفال: ٦٧.

٧. التوبة: ١١٣.

٨. آل عمران: ١٦١.

٩. البقرة: ٢٣٥.

ذكر العزم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح، فإذا نهي عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى.

ومن أمثلة النهي للمبالغة في الإهانة، كقوله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[١].

أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾[٢]، فتوجيه النهي إلى التقرّب من مال اليتيم مبالغة في النهي عن أكله.

ومن أمثلة النهي للمبالغة قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، أي: فلا يكن في صدرك شكّ فيما يلزمك من القيام بحقّه، فإنّما أُنزل إليك لتنذر به، فإنّ الشاكّ يعتريه ضيق الصدر، كما أنّ المتيقّن يعتريه الانشراح، مبالغةً في تنزيه ساحتهﷺ عن نسبة الشكّ إليه؛ وتضميناً للنهي معنى الإثارة والحثّ ليداوم على اليقين ويزيد فيه؛ وتصعيداً في التنفير والتحذير بإيهام أنّ ذلك من القبح بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلاً، فكيف بمن يمكن ذلك منه.

د) التمنّي: وهو طلب حصول شيء محبوب لا يتوقّع حصوله، كقوله تعالى: ﴿يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾[٥].

وتستعمل «لعلّ» موضع «ليت» لإبراز المتمنّي في صورة الممكن القريب الحصول، وإنْ كان المطلوب لا يتوقّع حصوله، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۞ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾[٦].

---

١. المؤمنون: ١٠٨.

٢. الأنعام: ١٥٢.

٣. الأعراف: ٢.

٤. مريم: ٢٣.

٥. الزخرف: ٣٨.

٦. غافر: ٣٦ و ٣٧.

بمعنى ليتني أبلغ الأسباب، ففرعون يعلم أنّ ما يأمله بعيد المنال، فالمقام مقام التمنّي، ولكنّ النظم القرآني ورد فيه «لعلّ» مكان «ليت»، لتصوير حال فرعون النفسيّة، والمبالغة في الثبات على كفره وصلفه وعماه حتى اعتقد أنّ البعيد المنال قريب المنال.

هـ) النداء: وهو التصويت بالمنادى ليقبل، أو هو طلب إقبال المدعوّ على الداعي، و من أساليب المبالغة في النداء التي تقال لمن لا يتصوّر فيه الإقبال: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[1]. و ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾[2].

وكذلك وضع النداء موضع التعجّب، نحو: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[3].

فالحسرة لا تنادى، وإنّما ينادى الأشخاص، ففائدته المبالغة في التنبيه، ولكن المقصود التعجّب.

وتأتي المبالغة في أُسلوب الدعاء، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[4].

فتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرّع؛ ولإظهار كمال اليقين بمضمونها، والإيذان بشدّة الخوف، وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيّته، وتبيين غاية فظاعته.

وقد يكون العكس، أي يخرج الإنشاء في معنى الخبر، كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾[5].

---

١. سبأ: ١٠.

٢. هود: ٤٤.

٣. يس: ٣٠.

٤. آل عمران: ١٩٢.

٥. التوبة: ٨٠.

أي: لا ترى اختلافاً بين حالتي الاستغفار وتركه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

لم يقل: «وإقامة وجوهكم» تأكيداً، لمكان العناية بالصلاة.

٢. أُسلوب القصر و هو على أقسام:

أ) القصر الحقيقي: كقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[2].

قصر الاختلاف على الّذينَ أُوتُوا الكتاب قصراً حقيقيّاً، وهو مبنيّ على المبالغة؛ لأنّ الآية نزّلت اختلاف غيرهم منزلة العدم بالنسبة إلى اختلافهم؛ لأنّهم كانوا يعرفون النبيّ ﷺ كما يعرفون أبناءهم، فلمّا اختلفوا فيه عُدّ هذا الاختلاف فظيعاً، ونزّل غيره منزلة العدم. وهذا تصوير دقيق لحال أهل الكتاب، وموقفهم من الإسلام.

ب) القصر الإضافي على سبيل الادّعاء والمبالغة: كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[3].

أي: ما جزاء من أحسن العمل في الدّنيا إلّا الإحسان في الآخرة. قصرت الآية الكريمة جزاء الإحسان «الموصوف» على الإحسان «الصفة». وجاء القصر بالنفي والاستثناء، ليؤكّد هذه الحقيقة ويقرّرها في نفوس المنكرين، ولعلّك لاحظت أنّ الاستفهام «بهل» بمعنى النفي، وكأنّه قيل: لن تجد جزاء الإحسان إلّا الإحسان.

ج) القصر بـ«إنّما»: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾[4].

---

١. الأعراف: ٢٩.

٢. البقرة: ٢١٣.

٣. الرّحمن: ٦٠.

٤. المائدة: ٩١.

قصّر الشيطان على إيقاع العداوة والبغضاء، والصدّ عن ذكر اللّه، وعن الصلاة في الخمر والميسر، وهو قصر مبنيّ على المبالغة.

وجاء القصر بـ«إنّما» ليشير إلى أنّ هذا الأمر من الأُمور المعلومة الّتي لا ينكرها أحد، ولا يدفعها دافع.

٣. الإيجاز: و هو على قسمين:

أ) إيجاز قصر: ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[١].

فجمع في أحرفٍ: العنوان، والكتاب، والحاجة.

ومن المشهور في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٢].

جعلت الآية الكريمة القصاص كالأصل للحياة بإدخال «في» عليه، فكأنّ أحد الضدّين (وهو الفناء) محلّ الحياة، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة الجميلة، والتخييل العجيب؛ إذ يكون الفناء محلّاً للحياة،إضافة إلى ما يندرج تحت هذه الآية الكريمة من معاني جمّة لا يمكن حصرها.

ب) إيجاز حذف: وهو التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة أقلّ منها بحذف شيء من تركيبها مع عدم الإخلال بتلك المعاني، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[٣].

حذف جواب «لو» من النظم الكريم مبالغة، وتقديره: لرأيت أمراً فظيعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ

١. النمل: ٣٠و ٣١.

٢. البقرة: ١٧٩.

٣. الأنعام: ٢٧.

أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[١].

حذف جواب «إذا» مبالغة، والتقدير: سعدوا.

«وفتحت»: الواو هنا دليل على أنّ الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على اللّه.

وسرّ بلاغة حذف الجواب هنا: الدلالة على أنّه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب فيه النفس كلّ مذهب، ولو عيّن شيء لاقتصر عليه.

٤. المساواة:

أنْ يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

فاللّه سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن الممدوحة، وينهي عن جميع القبائح المذمومة، فأخرج الألفاظ في صورة مساوية للمعاني، لا تزيد ولا تنقص عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[٣].

٥. الإطناب:

هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة، كقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[٤].

---

١. الزمر: ٧٣.

٢. النحل: ٩٠.

٣. المزمل: ٢٠.

٤. الأحزاب: ٤.

ففي قوله تعالى: «في جوفه» إطناب جاء لإفادة التوكيد؛ لأنّ القلب لا يكون إلّا في الجوف، ولكنّه بهذا الإطناب أراد نكتة بلاغيّة وهي المبالغة في الإنكار في أنْ يكون للإنسان قلبان، فأكّد ذلك بقوله: في جوفه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾[1].

«و لا يَرتَابَ الَّـذِينَ أوتُـوا الكِـتَابَ وَالْـمُؤْمِنُونَ»: أي لا يشكّ أهـل الكـتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيد لما قبله؛ لأنّه لمّا ذكر اليقين نفىٰ عنهم الشكّ، فكان قوله «ولا يرتاب» مبالغة وتأكيداً.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2].

فزكريا يريد أنْ يقول: ربّي إنّي قد كبرت، وزيادة الألفاظ للمبالغة فـي إظـهار الضّعف وتأكيده، وهو يريد أنْ ينصّ على أنّه ضعيف الجسم زيادة على كبر سـنّه، وليس أدلّ على غرضه هذا من ضعف العظم، وانتشار الشيب.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[3].

فمن الواضح أنّ القول لا يكون إلّا عن طريق الفم إلّا أنّ ذكره للتسجيل مبالغة في الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[4]. أي: إذا بطشتم بسوط أو سيف كان ذلك ظلماً وعلوّاً، بالغ في تنبيههم على نعم اللّه حيث أجملها ثمّ فصّلها مستشهداً

---

١. المدثر: ٣١.

٢. مريم: ٤.

٣. النور: ١٥.

٤. الشعراء: ١٣٠.

بعلمهم، حيث قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، ثمّ عدّدها عليهم، وعرّفهم المُنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنّه كما قدر أنْ يتفضّل عليهم بهذه النعمة، فهو قادر على الثواب والعقاب، فاتّقوه[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[٣].

فإنّ المعلوم من حالة السقف أنّه لا يكون إلّا من فوق، فالغرض: المبالغة والترهيب والتخويف.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[٤].

فيه إجمال بعد التفصيل، وهذا من باب الإطناب، وفائدته: زيادة التأكيد، والمبالغة في المحافظة على صيامها، وعدم التهاون بها، أو تنقيص عددها.

٦. التكرير:

هو أن يأتي المتكلّم بلفظ ثمّ يعيده بعينه، سواء كان اللفظان متّفقي المعنى أو مختلفين، أو يأتي بمعنىً ثمّ يعيده، وهذا من شرطه اتّفاق المعنى الأوّل والثاني، فإنْ كانا متحدي اللفظ والمعنى فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس، وكذلك إذا كان المعنى متّحداً، وإن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلفاً، فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين[٥].

قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ...﴾[٦].

---

١. الشعراء: ١٣٢.

٢. الكشاف، ج٣، ص٢٢٦.

٣. النحل: ٢٦.

٤. البقرة: ١٩٦.

٥. الفوائد، ص١٥٩ و ١٦٠.

٦. التوبة: ٦٩.

التكرير في ترديد «استمتعوا»، ذلك أنّه شبّه حالهم بحال الأوّلين، ففي التكرير تأكيد ومبالغة في ذمّ المخاطبين، وتقبيح حالهم، واستهجان أمرهم.

و قال تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[1].

فقد وقع التكرار من ثلاثة أوجه، لأنّه قال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[2].

وهذا عين الأوّل، وليس فيه إلّا التعبير: ﴿لَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

والفائدة فيه أنّ القوم لمّا كانوا مُصرّين على ذلك العمل القبيح احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد. والتكرير يفيد شدة الاهتمام بالشيء، وقد نهوا أوّلاً عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، ثمّ ورد الأمر بالإيفاء مصرّحاً بلفظه؛ ليكون أكثر إثارة، وأدعى إلى الترغيب فيه.

وقد كرّر اللّه تعالى في سورة آل عمران كلمة «ربّنا»[3] خمس مرّات، والغرض منه المبالغة في التضرّع.

وتكرير كلمة «يا قوم» في نداء موسى عليه السلام لقومه في سورة غافر[4] مبالغة في التنبيه، والتحدّي، وإمحاض النصيحة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[5]، المبالغة والتكرير، ولهذا اعتبرت هذه الجملة من أفصح الكلام وأبلغه في معناه، والتكرار لقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[6]، وهو لفظ واحد في كلام واحد.

ومن فوائد هذا التكرار التهويل والإعظام، وإلّا فقد كان الكلام مستقلّاً لو قيل:

---

١. هود: ٨٥.

٢. هود: ٨٤.

٣. آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٥.

٤. غافر: ٣٨ و ٣٩.

٥. الصفّ: ٣.

٦. الصفّ: ٢.

كبر مقتاً عند الله، وإعادته لمكان هذه الفائدة.

وتكرار الصلاة في الآيتين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢]. للاهتمام بشأنها، والتنويه بفضلها[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾[٤]، المبالغة في تعظيمها وعلوّ قدرها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٥].

التكرار مبالغة في التهديد والإنذار، وعطفه بـ «ثمّ» للتنبيه على أنّ الثاني أبلغ من الأوّل، فهو وعيد بعد وعيد في مقام الزجر والتوبيخ.

٧. المبالغة في الوعيد والتهديد:

كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ...﴾[٦].

في قوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ بعد ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ مقابلة لفظية رائعة، وقد اتّبع المبالغة المتكررة في الهمزة واللمزة بوعيده بالنار التي سمّاها الحطمة.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[٧].

---

١. المعارج: ٢٣.

٢. المعارج: ٣٤.

٣. يضاف إلى التكرير تصدير الجملة بالضمير وبناء الجملة عليه وتقديم الجار والمجرور على الفعل، وفعليّة الخبر، فتفيد الجملة الاسميّة الدوام والاستمرار، وتفيد الجملة الفعليّة التجدّد والاستمرار.

٤. القدر: ١ و ٢.

٥. التكاثر: ٣ و ٤.

٦. الهمزة: ١ ـ ٤.

٧. النمل: ٦٧.

تكرير الهمزة للمبالغة في التعجّب والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾[١].

﴿ٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ هذا الأمر الثاني هو الأوّل ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، كرّر على سبيل التأكيد، والمبالغة في الأمر بالذكر[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[٣].

تكرير حرف التنبيه «ألا»، وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٤].

تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجّب، ثمّ لإظهار ما بين التعجّبين من التفاوت، وما يبديه من تناقض.

كذلك قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[٥].

المبالغة في المعنى الذي قصد بإيراده أوّلاً، وهو استعظام ما أقدم عليه من مخطّط رهيب لم يخطر على بال أحد.

ثانياً: أسلوب المبالغة في علم البيان

و هو يقوم على قواعد وأصول يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في اللفظ، تتباين في وضوح دلالتها العقلية على ذلك المعنى، كما تتباين في جمالها، ومدى إيحائها، وبعد المرميّ الذي تهدف إليه.

أمّا موضوعات هذا العلم، فتدرس اللفظ العربي في التشبيه و المجاز و الكناية من

---

١. البقرة: ١٩٨.

٢. البحر، ج٢، ص٩٧.

٣. هود: ٦٠.

٤. المائدة: ٧٥.

٥. المدّثّر: ١٩ و ٢٠.

حيث وفائه بمقتضيات المعاني من جهة، وبمتطلبات الذوق والجمال من جهة ثانية[١].

أ) التشبية: إنّ التأكيد والمبالغة والتقرير من الألوان التي ترافق جميع وجوه التشبيه في كلّ حال من الأحوال، وإلّا لم يستحسن أنْ يكون تشبيهاً؛ لأنّ إفادة المبالغة هي مقصده الأعظم، وبابه الأوسع، وهذا الأمر في التشبيه المضمر الأداة، وماكان له أداة كـ«كأنّ» فهو أقوى فيه وأظهر.

قال حازم القرطاجني: «تشترك الكاف وكأنّ في الدلالة على التشبيه، وكأنّ أبلغ؛ لأنّها تستعمل حيث يقوى الشبه، حتى يكاد الرّائي يشكّ في أنّ المشبّه هو المشبّه به أو غيره، ولذلك قالت بلقيس: (كأنّه هو)»[٢].

فمن التشبيه ما يفيد المبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[٣].

شبّه القرآن السفن الجارية على ظهر البحر بالجبال في ضخامة حجمها على سبيل المبالغة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٤].

شبّه ضيق صدر الضّال بمن يزاول أمراً غير ممكن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٥].

أي شرّ من دبّ على وجه الأرض من الحيوان. وفيه بيان كمال سوء حال المشبّهين مبالغة في التحذير، وتقريراً للنهي وأثر النهي.

---

١. البلاغة والتحليل الأدبي، ص١٢١.

٢. منهاج البلغاء، ص٣٩٠.

٣. الرحمن: ٢٤.

٤. الأنعام: ١٢٥.

٥. الأنفال: ٢٢.

أمّا التشبيه المضمر الأداة، فكقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

أي عرضها كعرض السماوات والأرض، والمراد أنّها غاية في السعة والبسط، فشبّهت بأوسع ما يتصوّره الإنسان، وخصّ بالذكر العرض دون الطول للمبالغة في ذلك، ويسمّى التشبيه المضمر الأداة بالتشبيه البليغ، ويراد به التشديد والتأكيد في تقريب المشبّه من المشبّه به، والمبالغة في دعوى الاتّحاد بين طرفي التشبيه من جميع الوجوه، فعلى هذا كلّما تحقّق حذف الأداة ووجه الشبه تحقّق التأكيد والمبالغة في تقريب المشبّه من المشبّه به من جميع الجهات، هذا في الأساليب غير القرآنية، أمّا فيها، فلا تتفاوت التشبيهات في البلاغة بكافة أنواعها.

وهناك تشبيه آخر يسمّى «التشبيه المقلوب»، يجعل المشبّه مشبّهاً به، وبالعكس، فتعود فائدته إلى المشبّه به؛ لادّعاء أنّ المشبّه أتمّ وأكمل وأظهر وأشهر من المشبّه به في وجه الشبه، والمقصود من هذا القلب في التشبيه المبالغة؛ لإيقاعها في النفس من حيث لا تشعر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[2].

فكان الأصل أن يقولوا: إنّما الرّبا مثل البيع؛ لأنّ الكلام في الرّبا وليس في البيع، ولكنهم عدلوا عن ذلك وتجرّأوا، فجعلوا الرّبا كأنّه الأصل والبيع ملحق به، فكأنّه هو الفرع، فقلبوا التشبيه مبالغة فيه زعماً أنّ الرّبا أولى بالحلّ من البيع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[3].

أي: أنجعلُ المجرمين كالمسلمين، ولكنّه عكس مبالغة ومسايرة لظنّ المجرمين بأنّهم أفضل من المسلمين.

---

١. آل عمران: ١٣٣.

٢. البقرة: ٢٧٥.

٣. القلم: ٣٤ و ٣٥.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[١].

فالآية بصدد عرض مستحقّي جهنّم؛ لقوله: «فويل...»، وأصل الكلام أنْ يقول بأنّ المؤمنين ليسوا كالمفسدين المستحقّين لجهنّم، وبأنّ المتّقين ليسوا كالفجّار في سوء الحال، فلا عكس في التشبيه.

ب) **المجاز العقلي، والمجاز المرسل: الأوّل: المجاز العقلي** وهو إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر. وأمثلته في القرآن كثيرة: منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[٢].

الإخراج في الحقيقة ليس فعل الأرض، ولكن نسب إليها تجسيماً للتسريع في العمل، وإشارة إلى درجة انقياد الأرض في عمليّة الإخراج هذه، فكأنّها نفسها المخرج للأثقال.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[٣].

نُسب الفعل إلى اليوم لوقوعه فيه مبالغة، والجعل في الحقيقة للّه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾[٤].

أسند النصح إلى التوبة مجازاً للمبالغة، وإنّما هو من التائب.

الثاني: المجاز المرسل وهو ما كانت العلاقة فيه بين المعنى المجازي والمعنى الأصلي ليست المشابهة مع قرينة دالّة على عدم إرادة المعنى الوضعي وله أمثلة

---

١. ص: ٢٧ و ٢٨.

٢. الزلزلة: ٣.

٣. المزمّل: ١٧.

٤. التحريم: ٨.

كثيرة في القرآن أيضاً: منها: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[١].

المراد: مواقع الزينة، وهو من باب إطلاق اسم الحالّ على المحلّ، وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستّر والتصوّن.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٢].

وصف البلد بالأمن، وهي صفة لأهله.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾[٣].

«هُـوَ أُذُنٌ»: مجاز مرسل، كما يراد بالعين الجاسوس؛ لأنّ العين هي المـقصودة منه، فصارت كأنّها الشخص كلّه، وهو من إطلاق اسم الجزء عـلى الكـلّ مـبالغةً، والعلاقة تسمّى الجزئية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

أي يثبت على الطاعة، عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العـباد، فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٥].

أخرج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، والإخبار عنه مجازاً كقول من رأى موكباً عظيماً، أو جيشاً خضماً: جاء الملك نفسه، وهو يعلم أنّ ما جاء جيشه فقد جعل في الآية مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه.

٣. مجاز الحذف: ويكون بحذف شيء من العبارة لايخلّ بالفهم عند وجود مايدلّ

---

١. النور: ٣١.

٢. إبراهيم: ٣٥.

٣. التوبة: ٦١.

٤. البقرة: ١٥٨.

٥. الفجر: ٢٢.

على المحذوف من قرينة لتفظيّة أو معنويّة، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[١].

وهو يريد: اسأل أهل القرية؛ لأنّ القرية لا تسأل، وإنّما هو تصوير ومبالغة بأن تسأل القرية بأُناسها وحيطانها وأشجارها وحيواناتها، فهي كلّها تثبت صدقهم في أنّهم لم يكونوا بالسارقين، ففيه تخيّل عجيب، وجذب للانتباه، وتحريك للمشاعر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

في هذه الآية حذفان بليغان داخلان في نطاق المجاز الذي هو عنصر البلاغة وإكسيرها، وهما:

١. حذف المضاف في قوله: ﴿أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، والمراد: أحكام التوراة والإنجيل وحدودهما، وما انطوى تحتهما من أحكام بالغة، وعبر شائقة.

٢. حذف المفعول به من قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ لقصد التعميم، أو للقصد إلى نفس الفعل.

وفي الحذف الذي نحن بصدده ثلاثة أوجه:

أ) أنْ يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض.

ب) أنْ يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلّة.

ج) أنْ يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، يجنون ما تهدّل من رؤوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾[٣]، أي: أولياء اللّه.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾[٤]، أي: رحمة اللّه.

---

١. يوسف: ٨٢.

٢. المائدة: ٦٦.

٣. الأحزاب: ٥٧.

٤. الأحزاب: ٢١.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾[١]، أي: عذاب ربّهم.

د) الوصف بالمصدر.

يرى ابن جنّي أنّ في الوصف بالمصدر نوعاً من المبالغة حتى إنّ الموصوف يصبح هو نفس الوصف. ويوضح ذلك في أكثر من موضع، وهو يستقي معنى المجاز العقلي من آراء النحاة في الوصف بالمصدر، فيقول في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾[٢]، أي غابراً.

ونحو قول الخنساء:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت فإنّما هي إقبال وإدبار

فالوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالصفة؛ لأنّ الوصف بالمصدر ينبئ عن الموصوف بأنّه مخلوق من الفعل الذي وصف به، وأنّه معتاد فيه ودائم لديه، ولا ينقطع منه أبداً، وفي ذلك مبالغة أيّ مبالغة. بخلاف الوصف بالصفة الصريحة، فإنّه يعرّي من هذا المعنى، فيتجرّد عن المجاز، ولا يصل في قيمته الفنّيّة إلى تلك الدرجة التي وصل إليها الوصف بالمصدر، فالوصف بالصفة أضعف معناً، والبلاغيون إنّما يتركز نشاطهم في المعاني وما تشمله من مبالغات.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾[٤].

الخزي والهوان ـ في الآيتين ـ، وهما مصدران وصف بهما العذاب مبالغة.

---

١. النحل: ٥٠.

٢. الملك: ٣٠.

٣. فصلت: ١٦.

٤. فصلت: ١٧.

وقال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[١].

حساباً: صفة لعطاء بمعنى كافياً أقيم مقام الوصف.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[٢].

وضع المصدر (كره) موضع اسم المفعول (مكروه).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٣]. الحرث مصدر بمعنى المفعول.

وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾[٤]. أي عجيباً في حسن ايجازه وروعة اعجازه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[٥].

الهدى: الآيات الهادية إلى كنه أمره، ووجوب اتّباعه، والإيمان به، عبّر عنها بالمصدر مبالغة، والغاية من تكرير ذكر اللعن هي التأكيد في الذمّ، والالتفات في قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ للدلالة على إظهار السخط عليهم.

هـ) الاستعارة: و هي من الصور البلاغية الهامّة، ومن أكثرها دوراناً في القرآن، فهي تعمل على التوسعة والتصوير في التعبير، والسرّ في جمال الاستعارة في القرآن هو ـ بعد حسن تصويرها، وإيضاحها المعنى وإيجازها في أدائه ـ اختيار ألفاظها، وحسن تركيبها، ومراعاة حسن تشبيهها الذي بنيت عليه، فألفاظ القرآن موحية صادقة في جعل السامع أو القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، كما أنّها تصوّر المنظر للعين، وتنقل الصوت للأُذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسوساً.

---

١. النبأ: ٣٦.

٢. البقرة: ٢١٦.

٣. آل عمران: ١٤.

٤. الجن: ١.

٥. البقرة: ١٥٩.

ومن أغراض الاستعارة المبالغة، وذلك بادعاء دخول المشبّه في جنس المشبّه به، وتناسي التشبيه بينهما، حتى كأنّ المشبه صار فرداً من أفراد المشبّه به، كـقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[1].

والمراد: لمّا علا الماء قاهراً، فاستعمل «طغى» مكان «علا» للمبالغة في عـظم الحال.

وكقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[2].

وحقيقته: فاعمل بما تؤمر، لكنّ الاستعارة أبلغ؛ لما في الصدع ـ الذي يكون في الزجاجة ونحوها ـ من إفادة المبالغة فيما أمر به حتى يؤثّر في النفوس تأثير الصدع في الزجاج.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3].

شبّه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان، وارتداد الطرف معناه التقاء الجفنين، وهو أبلغ ما يمكن أنْ يوصف به في السرعة. فـاستعار للسـرعة الفـائقة ارتداد الطرف.

ومثـه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[4]. وهذا تمثيل لسرعة مجيئها على وجه المبالغة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾[5].

النطق لا يكـون إلّا مـمّن يـتكلّم بـلسانه، والكـتاب ليس له لسـان، فـوصف ـسبحانه ـ الكتاب بالناطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان، وإعلان البرهان، وتشبيهاً

---

١. الحاقة: ١١.

٢. الحجر: ٩٤.

٣. النمل: ٤٠.

٤. النحل: ٧٧.

٥. المؤمنون: ٦٢.

باللسان الناطق بطريق الاستعارة.

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[1].

جُعِل لفرط استعجاله كأنّه مخلوق من نفس العجل، كوصف بعضهم قوماً بقوله: نساؤهم لعب، ورجالهم طرب.

و) الكناية: و هو لفظ أُريد به غير معناه الذي وُضِعَ له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي.

وأطبق البلغاء على أنّ الكناية أبلغ من التصريح؛ وعـلّلوا ذلك بـأنّ الأُسـلوب الكنائي كدعوى الشيء مع البيّنة والبرهان، وبأنّه يقع في التعبير الكنائي من المبالغة في الوصف ما لا يكون في اللفظ المخصوص بذلك المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[2].

الغل والبسط: كناية عن البخل والجود، قُصِد بهما المبالغة في التشنيع؛ ولهذا قيل: إنّهم أبخل خلق اللّه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[3]. كناية عن المبالغة في هلعهم وخوفهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَـيْلاً وَنَهَـارًا ۞ فَـلَمْ يَـزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُـمْ جَـعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِـمْ وَٱسْـتَغْشَوْاْ ثِـيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾[4].

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِـنۢ

---

١. الأنبياء: ٣٧.

٢. المائدة: ٦٤.

٣. الأحزاب: ١٠.

٤. نوح: ٥ ـ ٧.

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1].

ردّ الأيدي في الأفواه كناية عن شدّة الغيظ والضجر عند حدوث ما لا تهواه النفس وتريده، وتصدير العبارة بالحرف المؤكّد، ومواجهة الرّسل بضمير الخطاب، وإعادة ذلك ـ مبالغة في التأكيد ـ دليل على قنوطهم بالمرّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[2].

في قوله: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ كناية عن غاية السعة والخصب.

ثالثاً: أسلوب البالغة في علم البديع

هو أحد علوم البلاغة، كعلم المعاني وعلم البيان، وغايته عرض مختلف وجوه التحسين المعنوى، والتزيين اللفظي التي تميّزت بها النظم القرآنيّة، وآثار المعصومين والمبدعين من أهل الشعر والنثر في اللغة العربيّة، والتي استخلصها وصاغ تقنّياتها أرباب النقد والمباحث البلاغيّة من قدّامين ومعاصرين.

وهو علمٌ بقواعد وأصول يستطيع المتأدّب متى أجاده ولم ينهج فيه نهج التصنّع المغرق والتكلّف المرهق أن يجاري القدماء في أساليب التنميق، وطرائق التزيين التي تزيد الكلام حسناً، وتكسوه رونقاً، بعد أن تتوافر له شروط علمي، فالمعاني والبيان مطابقة لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد معناً ولفظاً.

ويشتمل هذا العلم على أنواع ندرج بعضها فيما يخصّ موضوعنا، وهو البلاغة و هي كما تلي:

١. **الالتفات**: فمن التصرّفات التي تحدث في النظم بلاغة ودقّة وجمالاً الالتفات.

---

١. إبراهيم: ٩.

٢. المائدة: ٦٦.

وهو الانتقال بالأُسلوب من صيغة التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغة أُخرى من هذه الصيغ، كقوله تعالى حكاية عن حبيب النجّار في موعظة قومه في الإيمان: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

الالتفات في الآية من التكلّم إلى الخطاب للمبالغة في التهديد.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

فيه مبالغة في التوبيخ بطريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا...﴾[٣].

في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم...﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، والسرّ فيه المبالغة في تحقيق الخبر، وأنّ ذلك الذي تسرّون به وتحبرون ـ من كثرة الأولاد والأموال ـ لن يجديكم فتيلاً.

٢. التجريد: وهو أن يُنتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغةً في كمالها في المنتزع منه، نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[٤].

لأنَّ جهنّم هي دار الخلد، لكن انتزع منها مثلها، وجعل فيها مُعَدّاً للكفّار (أي دار إقامة) تهويلاً لأمرها.

وكقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٥].

---

١. يس: ٢٢.

٢. النور: ١٢.

٣. سبأ: ٣٥ـ٣٧.

٤. فصلت: ٢٨.

٥. الأحزاب: ٢١.

جرد من نفسه الزكيةﷺ قدوة، أي إنّ رسول اللهﷺ أُسوة حسنة.

٣. القلب: وهو من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وذلك بأن يجعل المتكلّم أجزاء الكلام أحدها مكان الآخر على وجه يثبت حكم كلّ منهما للآخر، كقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾[١].

استعير العمى لعدم الاهتداء للأنباء، ثمّ قلب للمبالغة، فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم، والأصل: «فَعَمُوا عَنِ الأَنْبَاءِ»، وضُمّن معنى الخفاء، فعدي بـ«على»، ففيه أنواع من البلاغة: الاستعارة، والقلب، والتضمين.

٤. المذهب الكلامي: هو أن يورد المتكلِّم على صحّة دعواه حجّة قاطعة مُسلَّمة عند المخاطب، وذلك بأن تكون المقدّمات ـ بعد تسليمها ـ مستلزمة للمطلوب.

وقد عرّفه الرمّاني في نكت إعجازه بـ: إخراج الكلام مخرج الشكّ للمبالغة في العدل للاحتجاج، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

أفحمهم بدليليّ القدرة والعلم.

٥. فن التنذير: وهو أن يأتي المتكلّم بنادرة حلوة أو نكتة مستظرفة داخلة في نطاق المبالغة، وذلك واضح في مبالغته تعالى في وصف المنافقين بالخوف والجبن حين أخبر بأنّهم تدور أعينهم حالة الملاحظة كحالة من يغشى عليه من الموت في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ...﴾[٣].

فلو اقتصر على قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ لكان كافياً، ولكنّه زاد شيئاً بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ إذ أنّ حالة المغشي عليه من الموت أشدّ وأنكى من حالة المغشيّ

---

١. القصص: ٦٦.

٢. يس: ٧٨ و ٧٩.

٣. الأحزاب: ١٩.

عليه من غير الموت.

٦. فنّ التعطّف: و هو إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام أو البيت من الشعر، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾[1].

فقد ردد (هم) للمبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة.

٧. التعليل: وهو كلّ صياغة فنيّة تُبرِّزُ وقوع الحدث، كقوله تعالى: ﴿... خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

فهو تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ، كأنّه قيل: ما له يُعذّب هذا العذاب الشديد، فأُجيب بذلك.

٨. التتميم: وهو تقييد الكلام بتابع يفيد مبالغةً، أو صيانة عن احتمال مكروه، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[3].

فقوله: «الكريم» تتميم ومبالغة للتربية؛ لأنّ التربية مشعرة بالكرم.

٩. الترقّي: وهو أن يُذكر معنى ثمّ يردف بما هو أبلغ منه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[4].

أي قدّر ما يوجد، ثمّ ميّزه، ثمّ مثّله.

١٠. الرجوع: وهو أن يذكر شيء، ثمّ يرجع عنه، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

كأنّه قيل: نعم هو أُذُن كما قلتم، إلّا أنّه أُذُنُ خيرٍ لا أُذُنُ سوءٍ، فسُلِّم لهم قولهم فيه،

١. الروم: ٧.

٢. الحاقة: ٣٠ـ٣٣.

٣. الانفطار: ٦.

٤. الحشر: ٢٤.

٥. التوبة: ٦١.

إلّا أنّه فُسِّر بما هو مدحٌ له، وإن كانوا قصدوا به المذمّة، ولا شيء أبلغ في الرّد من هذا الأُسلوب؛ لأنّ فيه إطماعاً في الموافقة، وكرّاً إلى إجابتهم بالإبطال.

١١. الإدماج: وهو أن يدمج المتكلّم غرضاً في غرض، أو بديعاً في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلّا أحد الغرضين، أو أحد البديعين، والآخر مدمج في الغـرض الذي هو موجود في الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

أُدمجت في الآية المبالغة في المطابقة؛ لأنّ انـفراده ـ سبحانه ـ بـالحمد فـي الآخرة ـ وهما الوقتان اللذان لايـحمد فـيهما سـواه ـ مـبالغة فـي وصـف ذاتـه بالانفراد والحمد، وهذه وإن خرج الكلام فيها مخرج مبالغة في الظاهر، إلّا أنّ الأمر حقيقة في الباطن؛ لأنّه أولى في الدارين، وربّ الحمد والشكر والثناء والحسن في المحلّين حقيقة.

ومنه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[٢]؛ لأنّ فيه مبالغة مدمجة في المقابلة.

١٢. فن المناسبة: هو مجيء صفات مسرودة على نمط عجيب خلاب، كـقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[٣].

فجاء بـ«حلّاف» وبعده «مهين»؛ لتراخي النون مع الميم، ثمّ جاء بصفتي المبالغة «همّاز مشّاء بنميم»، ثم جاء بـ«منّاع للخير معتد أثيم»، وبعدما عدَّ لَهُ من المثالب والنقائص أتى بصفتين من أشدّ معايبه، وقد جاءت البعديّة لتدلّ على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ

١. القصص: ٧٠.

٢. الرعد: ١٠.

٣. القلم: ١٠ ـ ١٤.

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[١].

في هذه الآية مبالغات عديدة بلغت أسمى مراتب البيان. والغاية منها زيادة الوعيد والتهديد، فقد أقسم ـ سبحانه ـ أوّلاً بنفسه مؤكّداً لهذا القسم بحرف النفي، ثمّ لم يكتف ـ سبحانه ـ بذلك حتى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فضمّ إلى التحكّم أمراً آخر، وهو عدم وجود أيّ حرج في صدورهم، وهذا أجمل تصوير للعلاقة التي يجب أن تترسّخ بين الرسول ﷺ والمؤمنين، ثمّ لم يكتف ـ سبحانه ـ بهذا كلّه، بل ضمّ إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ أي يذعنوا إذعاناً تامّاً، وضمّ إلى ﴿يُسَلِّمُواْ﴾ المصدر المؤكّد، فقال: ﴿تَسْلِيمًا﴾.

ثالثاً: الأدوات المعنويّة

١. الخروج عن مألوف العادة:

كقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[٢].

أي ألسنتهم كاذبة، كقولهم: عينها تصف السحر، أي ساحرة، وهذا من بليغ الكلام وبديعه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[٣].

قولهم: لستم على شيء بمعنى: أمر يعتدّ به من الدّين، أو على شيءٍ ما منه أصلاً مبالغة في ذلك، كما قالوا: أقلّ من لا شيء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[٤].

---

١. النساء: ٦٥.

٢. النحل: ٦٢.

٣. البقرة: ١١٣.

٤. آل عمران: ١٨١.

أكّد اليهود الجملة بـ «إنّ» على سبيل المبالغة، ولكن حيث نسبوا إلى أنـفسهم الغنى لم يؤكّدوا، بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد، كأنّ الغنى وصف لهم لا نزاع فيه، فيحتاج إلى تأكيد، وهذا دليل على تمرّدهم في الكفر والطغيان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[١].

فنّ المبالغة في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ وذلك أنّ المنهيّ عنه ـ وهو نكاح ما نكح الآباء من النساء ـ أمر مستنكر عند أكثر الخلق، وقد بلغ حدّاً من البشاعة والاستهجان جعله ممقوتاً قبل ورود الشرع، ولكن ما سبق قد عفا اللّه عنه، ولمّا كان مستبعداً ذلك من ذوي المروءات، فقد أثبت حرمة نكاحهنّ مطلقاً على أبلغ وجه.

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ﴾[٢].

جعل البرّ نفس من آمن على طريق المبالغة، أي ولكن البرّ برّ من آمن باللّه، كما يقال: السخاء حاتم، أي إنّ السخاء سخاء حاتم.

وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٣].

أي: تمتلئ بالدمع، فاستعير له الفيض ـ الذي هو الانصباب عن امتلاء ـ مبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها، فإذا قلت: فاضت عينه دمعاً، فإنه قد حوّل فيها الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة إيضاً.

٢. استعمال الأساليب النحوية و له أنواع:

أ) وضع الاسم الجليل موضع الضمير للتفخيم، وإدخال الروعة في النفوس،

---

١. النساء: ٢٢.

٢. البقرة: ١٧٧.

٣. المائدة: ٨٣.

وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[١].

ب) وضع الصفة موضع الموصوف، كقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٢]. أي، البارّ من اتّقى.

ج) عطف جملَة اسمية على جملة فعلية، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٣].

جملة: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ للمبالغة، أي إنهم غير منصورين دائماً، ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح مؤقّت.

د) تأكيد الفعل بلام الجحود، كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾[٥].

فمجيء لام الجحود مبالغة في نفي القابلية والوقوع، وهو أبلغ من تسلّط النفي على الفعل بغير لام[٦].

هـ) المبالغة بنفي الجنس، كقوله تعالى: ﴿... ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ... لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ...﴾[٧].

أي لا يبشر يومئذٍ المجرمون بالعفو والشفاعة، والنكرة في سياق النفي تعمّ جميع أنواع البشرى في جميع الأوقات، أي إنّ الّذين لا يرجون لقاءنا مجرمون، والمجرمون لا بشرى لهم، فالّذين لا يرجون لقاءنا لا بشرى لهم.

---

١. البقرة: ١٨٧.

٢. البقرة: ١٨٩.

٣. البقرة: ٤٨.

٤. الأنعام: ١١١.

٥. الأعراف: ١٠١.

٦. البحر المحيط، ج٤، ص٥٣٥.

٧. الفرقان: ٢١ و ٢٢.

و) إضافة الصفة للموصوف، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[١].

قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ـ أي الطريق المستوي ـ من إضافة الصفة إلى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوّة الاتّصاف، فكأنّه نفس السواء، وفي التعبير به نهاية الزجر والتشنيع لمن ظهر له الحقّ، فعدل عنه إلى الباطل؛ لمبادرته بالتصريح من أوّل الأمر بأنّه كفر وارتداد.

ز) إقامة صيغة مقام أُخرى، أو أُسلوب مقام أُسلوب آخر، ومن أمثلة ذلك:

١. إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[٢].

أي كأنّه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذّاب: هو الكذب بعينه.

٢. إطلاق اسم الفاعل أو المفعول على المصدر، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٣].

أي تكذيباً.

وقوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾[٤]. أي الفتنة، على أن الباء غير زائدة.

٣. إطلاق اسم الفاعل على المفعول وبالعكس، نحو قوله تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[٥].

أي مدفوق.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[٦]. أي مأموناً فيه.

والعكس كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ

---

١. البقرة: ١٠٨.

٢. يوسف: ١٨.

٣. الواقعة: ٢.

٤. القلم: ٦.

٥. الطارق: ٤.

٦. العنكبوت: ٦٧.

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1].

أي ساتراً، والمستور في الأصل هو القرآن، أو الرسول ﷺ لا الحجاب، ولكن أُسندت الصفة إلى الفاعل ـ وهو الحجاب ـ مبالغة في شدّة جحودهم، وقسوة قلوبهم.

٤. وصف الواحد بالجمع، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[2].

أي كان وحده أُمّة من الأُمم في جميع صفات الكمال.

وقوله تعالى: ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾[3].

نزل الواحد ـ وهو الموصوف ـ منزلة الجمع لوصفه به إظهاراً لكمال حفظه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ﴾[4].

فقد جمعوا لفظ الضغث، فقالوا: أضغاث أحلام، وجعلوه خبراً للرؤيا مع أنّها واحدة للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان.

٥. مجيء الصيغة العامّة موضع الخاصّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

فوعدهم ـ سبحانه ـ بجزاء غير مقدّر لإخراج العبارة مخرجاً عامّاً لتردّد الأذهان في مقدار الثواب.

٦. إطلاق المفرد على المثنّى وبالعكس، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[6].

أي يرضوهما، فأفرد لتلازم الرضاءين، فحقّ عندئذ أن يعبّر عنهما بلفظ المفرد.

---

١. الإسراء: ٤٥.

٢. النحل: ١٢٠.

٣. الجنّ: ٩.

٤. يوسف: ٤٤.

٥. الزمر: ١٠.

٦. التوبة: ٦٢.

ونحو قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾[١].

أي ألق، فأطلق المثنّى على المفرد، فكأنّ تثنية الفاعل تقوم مقام تكرار الفعل، والتكرار يعطي المثنّىٰ قوّة وتأكيداً، ويزيده فضلاً وتأثيراً.

٧. إطلاق المثنّى على الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[٢].

أي كرّات؛ لأنّ البصر لا يحسر إلّا بها.

ح) التنكير والتعريف، كقوله تعالى: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[٣].

في تنكير لومة لائم مبالغة لا تخفى؛ لأنّ اللومة المرّة من اللوم.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٤].

السرّ في تعريف الفقراء هو المبالغة في فقرهم، كأنّهم لشدّة افتقارهم هم الموسومون بالفقراء، وأنّ افتقار غيرهم بالنسبة لفقرهم لا يعتبر افتقاراً، أو كأنّهم أصبحوا وقد بلغوا من الفقر غايته، ومن العوز نهايته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً﴾[٥].

في تنكير أغلالاً مبالغة في تعظيمها وتهويل أمرها إضافة إلى أُسلوب فنّ القلب؛ إذ حقيقته جعلنا أعناقهم في الأغلال.

ط) التفنّن بالأساليب النحوية و هو كما يأتي:

١. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[٦].

الشرذمة: هي الطائفة أو الجماعة القليلة، وكان يمكن الاكتفاء بها تعبيراً عن

---

١. ق: ٢٤.

٢. الملك: ٤.

٣. المائدة: ٥٤.

٤. فاطر: ١٥.

٥. يس: ٨.

٦. الشعراء: ٥٤.

القلّة، ولكنّه وصفها بالقلّة القليلة زيادة في احتقارهم، واستصغار شأنهم، ثمّ جمع وصفهم ليعلم أنّ كلّ ضرب منهم قليل، واختار جمع المذكّر السالم الذي هو للقلّة، فهذه أربعة تتساند لتقليلهم. وهناك وجه خامس، وهو أنّ جمع الصفة ـ والموصوف منفرد ـ قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف، وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ﴾[٢]. في هذا التعبير فنّ القلب، والأصل: لتنوء العصبة بالمفاتح، وكذلك في وصف كنوز قارون حيث ذكرها جمعاً، وجمع المفاتح أيضاً، وذكر النوء، والعصبة، وأُولي القوّة، كلّ ذلك استقصاء تامّ يدلّ على الكثرة، وهذا من أحسن المبالغات في القرآن وأغربها. وختمت الآية بحسن تعليل جميل، وهي جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[٣]، أي بزخارف الدنيا؛ لكونها مانعة من محبة اللّه تعالى.

٣. استعمال بعض الأساليب الأُخرى لأغراض بلاغية خاصّة:

كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٤].

تعليق الاتقاء بيوم القيامة للمبالغة في التحذير عمّا فيه من الشدائد والأهوال، وتنكير ذلك اليوم للتفخيم والتهويل. أي تأهّبوا للقيامة بما تقدّمون من العمل الصالح.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[٥].

أي فكيف تتّقون هذا اليوم الذي هذه صفته مع الكفر باللّه تعالى.

---

١. إعراب القرآن، ج٧، ص ٨٠.

٢. القصص: ٧٦.

٣. القصص: ٧٦.

٤. البقرة: ٢٨١.

٥. المزمّل: ١٧.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١].

مبالغة في ردّ مقالتهم، وتسكين قلوبهم، وهذا كما ترى جواب ناشئ من كمال ثقتهم بنصر اللّه تعالى وتوفيقه.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢].

قارن اللّه بين ما يتمتّع به الناس في الحياة الدنيا وبين ما عنده من حسن المآب إجمالاً، ثمّ أمر النبيّ ﷺ أنْ يفصل ذلك المجمل ـ وهو حسن المآب ـ للناس مبالغة في الترغيب.

وقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٣]. أمرها بإقامة الصلاة وإطالتها، وذَكَرَ أركانها مبالغة في إيجاب رعايتها.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[٤].

تعليق الردّة بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية.

---

١. البقرة: ٢٤٩.

٢. آل عمران: ١٤ و ١٥.

٣. آل عمران: ٤٣.

٤. آل عمران: ١٠٠.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١].

أي لا تموتنّ على حال من الأحوال إلّا حال تحقّق إسلامكم وثباتكم عليه، أراد الثبات على الإسلام إلى الموت.

وتوجيهه النهي إلى الموت للمبالغة في النهي، فهناك فرق واسع بين قوله تعالى وبين قولنا مثلاً: لا تترك الإسلام في هذه الحياة، فالأوّل يفيد من المبالغة في إيجاب الإسلام في هذه الحياة ما لا يفيده الثاني، فهذا نهي عن ترك الإسلام فقط، وذاك نهي عنه وعما يقارنه؛ لكون الإسلام هوالعمدة في هذه الحياة، وأنّ الحياة بدون الإسلام حقّها أن لا توجد.

وقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً﴾[٢].

توجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلّقها بأن يقال: أتهدون ... الخ للمبالغة في إنكاره، ببيان أنّه ممّا لا يمكن إرادته فضلاً عن إمكانه في نفسه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[٣].

عارضوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[٤] بقولهم: «بِكُلِّ سَحَّارٍ»، فجاؤوا بكلمة الإحاطة، وصفة المبالغة، ليطامنوا من نفس فرعون، ويُسكنوا بعض قلقه[٥].

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِالنَّهَارِ﴾[٦].

---

١. آل عمران: ١٠٢.

٢. النساء: ٨٨.

٣. الشعراء: ٣٦ و ٣٧.

٤. الأعراف: ١٠٩.

٥. الكشاف، ج٣، ص٣١١.

٦. الرعد: ١٠. السارب: الظاهر الجليّ.

فجعل من يسرُّ القول كمن يجهر به، والمستخفي بالليل كالسارب بالنهار، وكُلُّ واحد منهما أشدّ مبالغةً في معناه، وأتمّ صفةً[١].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢].

مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف لكونه في مـقام الاهـتمام بـالحكم المبين والاعتناء بشأنه، ولا يعتنى بشيء إلّا إذا كان بالغاً أقصى مـراتـبه، وكـذلك تصدير الحكم بحرف التنبيه «ألا» الذي يدلّ على تفخيم شأنه كأنّه بلغ خسرانهم من الفضاعة إلى حيث لا تصل العقول إليه ليتنبهوا له، وبالإشارة إليه بـ«ذلك»، وتأكيده بأداة الحصر «هو»، وتعريفه بأل الذي يفيد الحصر أيضاً، كأنّه قيل: كلّ خسران في مقابله كلا خسران، وأخيراً وصفه بأنّه بيّن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًاۢ بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٣].

اشتملت هذه الآية على ضروب من المبالغات في ذمّ اليهود، وذلك على النحو التالي:

أ) وصفهم بأنّهم أهل الكتاب، والاختلاف بحدّ ذاته قبيح، ولكنّه بعد إتيان الكتاب والعلم بنواحيه أقبح.

ب) ثمّ ترقّى في المبالغة، فوصفهم بأنّهم بعد أنْ أوتوا كتاباً جاءهم عـلم آخـر يوضح لهم طريق الصواب، فكان القبح أزيد.

ج) ثمّ ترقّى مرة أُخرى في المبالغة، فجعل الاختلاف بعد ظهور العـلم لديـهم مرّتين متتاليتين لم يكن إلّا بغياً منهم، وهذا ما توارثوه إلى اليوم، وبذلك استوفت المبالغة غايتها.

---

١. العمدة، ج١، ص٦٥٤.

٢. الزمر: ١٥.

٣. آل عمران: ١٩.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ...﴾[1].

إنّما ذكر الرجال والنساء من المستضعفين، وأكمل بذكر الولدان للاستعطاف، واستجلاب المرحمة، والتنبيه على تناهي ظلم المشركين، إذ بلغ أذاهم الصبيان لإرغام آبائهم وأُمهاتهم، والإيذان بإجابة الدعاء الآتي، واقتراب زمان الخلاص، وكلّ ذلك للمبالغة في الحثّ على القتال.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[2].

«الفرات»: البالغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة، والتاء فيه أصليّة (لام الكلمة)، ووزنه فُعال، و«الأُجاج»: البالغ في الملوحة أو المرارة، فإذا اجتمعت الملوحة والمرارة فهو أُجاج.

وتكمن المبالغة في بيان قدرته على الفصل بينهما، ومنعهما من التمازج، وهذا من عظيم اقتداره.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[3].

أي حسبك أنّ اللّه مطّلع على أعمال العباد جمالاً، وكفى بالأدب مالاً، وهي بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره؛ لأنه خبير بأحوالهم، قادر على مجازاتهم، وذلك وعيد شديد.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ... وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

١. النساء: ٧٥.

٢. الفرقان: ٥٣.

٣. الفرقان: ٥٨.

٤. المائدة: ٨٧ و ٨٨.

توكيد للوصية بما أمر به، فإنّ الإيمان به تعالى يوجب المبالغة في التقوى، والانتهاء عمّا نهي عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ...﴾[1].

يسارعون أي تراهم مسارعين في موالاتهم، وإنّما قيل: «فيهم» مبالغة في بيان رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على أنّهم مستقرّون في الموالاة، لذا نجد فرقاً بين قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ...﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا...﴾[3].

تأكيد للمبالغة في أنّهم لا يسمعون حسّ النار، ولا حركة لهبها وصوتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[4].

تضمّنت هذه الآية المبالغة في تكذيبهم، فقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأصل فيه أن يقول: ﴿وَمَا آمَنُوا﴾؛ ليطابق قوله: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾، ولكنّه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين، وأكّده بالباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم.

❊ ❊ ❊

١. المائدة: ٥٢.

٢. آل عمران: ١٣٣.

٣. الأنبياء: ١٠٢.

٤. البقرة: ٨.

الموازنة

هي: تساوي الفاصلتين أو الفواصل في الوزن دون التقفية، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ...﴾[1].

فإنّ «نمارق مصفوفة» معناها: الوسائد المصفوفة بعضها إلى بعض، والمعدّة للاتكاء، و «زرابيّ مبثوثة»: البسط ذات الخمل (السجاجيد) متفرّقة هنا وهناك للزينة والراحة، وكلمتا «مصفوفة» و «مبثوثة» متّفقتان في الوزن دون التقفية؛ إذ الأُولى على الفاء، والثانية على الثاء، ولاعبرة بتاء التأنيث كما بُيّن في علم القوافي.

وإيقاع الموسيقى يوحي بالنعومة واليسر، و يصوّر الأمن والسلام والعيش الرغيد،ومدلول اللفظين أقصى ما تطيقه النفس من صور اللذاذ والحلاوة والمتاع والظلّ الندي.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[2].

فقوله «عزّاً، وضدّاً» متفقان في الوزن، وكذلك «عدّاً، وأزّاً» متفقان في الزنة.

---

١. الغاشية: ١٥ و ١٦.

٢. مريم: ٨١ ـ ٨٤.

وكلمة (ضدّ) توحي بمعانٍ إضافة إلى إيقاعها الموسيقي الذي تهتزّ له النفوس، فالآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزّاً صارت ضدّاً للعزّ، أي ذلاًّ وهواناً، أو صارت عوناً عليهم، وآلة لعذابهم، وحصباً لجهنّم، أو سبباً لعذابهم باعتبار عبادتهم لها، وإطلاق الضدّ على العون باعتبار أنّ عون الرجل يضادّ عدوّه وينافيه بإعانته له عليه، أو أن الكفرة ضدّ وأعداء للآلهة، كافرون بها بعد أن كانوا يحبّونها كحبّ اللّه.

وإنّما استعمل القرآن ألفاظاً يراد بها عدّة معانٍ أو دلالات، لتظلّ حائمة حول ذلك اللفظ متداعية بذكره، ولتفتح في الأذهان آفاقاً وسبلاً عديدة ومتنوّعة، ويقترن في تخيّل السامعين أكثر من صورة تدور حول ذلك اللفظ، فتزيد وقعاً في النفس، وتملأ كلّ المشاعر والوجدان، فحين تقرع سمعهم لأوّل مرّة تنفجر من اللفظ إيحاءات وإشارات عديدة، فتأخذ النفس من جميع أقطارها.

وأما مثاله من السنّة النبويّة، فكقوله ﷺ: «كُنْ في الدنيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أو عابِرُ سَبيلٍ»[1]

فـ«سبيلٌ» و«غريبٌ» مختلفان في اللفظ متّفقان في الزنة.

وقوله ﷺ: «فإذا أَصْبَحَتْ نَفْسُك فلا تحدِّثها بالمساءِ، وإِذا أَمْسَتْ فلا تُحَدِّثْها بالصَّباحِ».

فـ«المساءُ» و «الصباحُ» مختلفان لفظاً متّفقان في الوزن[2].

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «وَكَفىٰ باللّهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً، وَكَفى بالكتابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً»[3].

فإن كان في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثرُ ما فيها مثل ما يقابله من

---

١. نهج الفصاحة، ص ٥٢١.

٢. أُنظر: الطراز، ج٣، ص٣٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣ ـ ٤٢.

الأُخرى في الوزن دون التقفية خُصَّ باسم المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا﴾[٢].

وقول أبي تمّام:

مَـها الوَحْشِ، إلّا أنَّـهاتا أوانِسٌ ... قـنا الخـطِّ إلّا أنَّ تِـلْكَ ذوابِـلُ[٣]

والمها: جمع مهاة: البقرة الوحشية، والخطّ: موضع تنسب إليه الرماح المستقيمة.

ومن توافق الفاصلتين وزناً لا تقفية قول البحتري:

فَأَحْجَمَ لمّا لَـمْ يَـجِد فـيكَ مَـطْمَعا ... وَأَقْدَمَ لمّا لَـمْ يَـجِدْ عَـنْكَ مَـهْرَبا[٤]

وقوله أيضاً:

بـأَشَدّهِم بَـأْساً عـلىٰ أَعْـدائِـهِ ... وَأَعَزّهِم فَقْداً على الأَصْحابِ

فقوله: بـ«أشدّهم» و«أعزّهم»، وقوله: «بأساً» و«فقداً» متماثلان في الأوزان دون التقفية.

أو أن تكون الألفاظ أوزانها متعادلة، وأجزاؤها متوالية، كقول امرئ القيس:

سليمِ الشَّظىٰ عَـبْلِ الشَّـوَىٰ شَـنِجِ النَّسـا ... لَـهُ حَـجَباتٌ مُشْـرِفاتٌ عـلىٰ الفالى[٥]

والموازن غير المماثل، وهو أن يتّفق اللفظان الأخيران من الفاصلتين فقط،

---

١. الصافات: ١١٧ و ١١٨.

٢. النازعات: ٣ و ٤.

٣. أي إنّ هذه النساء كمها الوحش، لكنّ هذه أُوانس والمها متوحّشةٌ. وكقنا الخط، لكن تلك ذوابل لاطراوة فيها، وهذه حسنة الأجسام غضّة.

٤. أحجم: نكص هيبة وتقهقر، وفاعله ضمير يعود إلى الأسد الذي بارزه الفتح بن خاقان، ممدوحه الذي قال فيه قصيدة منها هذا البيت. انظر: حاشية الإيضاح، ص٢٩٩.

٥. ديوانه، ص١٤٣. الشظى: عظم لاصق بالركبة. الشوى: اليدان والرجلان. الشنج: الصلب. النسا: عرق في الفخذ. الحجبات: رؤوس عظام الوركين. الفالي: اللحم الذي على الورك، وأصله: الفائل.
وسمّى أبو هلال العسكري هذا النوع من الشعر «الترصيع». سر الفصاحة، ص١٦٣.

كقول ابن جابر الأندلسي:

قَصْداً لِمُرْتَقِبٍ لِلّهِ مُنْتَصِرٍ   في الحَقّ مُجْتَهِدٍ لِلرُّسْلِ مُخْتَتِمِ

وموضع الشاهد: «مرتقب» مع «منتصر»، و «مجتهد» مع «مختتم»، فلم يتّفق فيه إلّا آخر الفاصلة مع آخر الأُخرى.

بين السجع والموازنة مباينة:

فشرط السجع هو التساوي في التقفية بخلاف الموازنة؛ إذ يشترط فيها عدمه، لذا انفرد السجع بنحو قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[١]؛ لوجود التقفية فيكون سجعاً دون الوزن، فلا يكون موازنة.

وتنفرد الموازنة بنحو قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[٢]؛ لوجود الوزن فيكون موازنة دون التقفية، فلا يكون سجعاً.

أما قوله تعالى: ﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾[٣]، فلا يكون موازنة، بل سجعاً لتساوي الوزن والتقفية، وعليه سمي سجعاً متوازياً.

وتحقّق الموازنة إيقاعاً عالياً أساسه التناظر الموسيقي في مواضع محدّدة، ويضفي ذلك على الكلام روعة وبهاءً، وتتفوّق المماثلة في هذا الميدان لاعتمادها التناظر التامّ بين أجزاء القرينتين[٤].

---

١. نوح: ١٣ و ١٤.

٢. الغاشية: ١٥ و ١٦.

٣. الغاشية: ١٣ و ١٤.

٤. انظر: الكافي في علوم البلاغة العربية، ج٢، ص٦٦٦.

الإبداع

الإبداع لغةً: هو إيجاد الشيء وصنعه لأوّل مرّة على غير مثال سابق من «أبْدَعَ» يقال: أبدع الشيء: خلقه واخترعه وأبدع الأمرَ وفيه: أتقن صنعه وأجاد فيه، والإبداع: هو أن يأتي الشاعر بالبديع، والبديع: الشيء الذي يكون أوّلاً، أو الذي يُحْدث شيئاً ليس له مثيل.

والإبداع اصطلاحاً: وهو تجاوز المألوف في الخلق الأدبي والفنّي. وهو بهذا المعنىٰ العامّ صفة لكلّ حركة في الأدب والفنّ تتّسم بطابع الجدّة والابتكار.

وقديماً كان البديع هو البلاغة في أسمىٰ درجاتها، فالأُسلوب المتميّز المبتدع هو الذي يؤدّي إلىٰ البلاغة، وهو الذي يعطيها البديع، وبالتالي تكون الفنون البلاغيّة كلّها فنوناً لتحقيق درجة الإبداع.

ولكن بعد مدرسة السكّاكي (ت٦٢٦هـ.ق) نجد أنّ الإبداع قد عدّ فنّاً من فنون البديع، وأُدرج ضمن لون من ألوانه بدلاً من أن يكون درجة من التميّز يصل إليها الفنان عن طريق أي فنّ بلاغي.

وفهم البلاغيون الإبداع علىٰ أنّه الجديد والغريب والعجيب، أو هو الإتيان بشيء لانظير له، أو إخراج مافي الإمكان والعدم إلىٰ الوجوب والوجود، يظفر به الفنان المطبوع علىٰ درجة خاصّة من التميّز، وهو ممّا يصبو إليه القلب والطرف.

وذكر ابن رشيق (ت٤٥٦هـ،ق) أن: «الإبـداع: [هـو] إتـيانُ الشـاعر بـاللفظ[1] المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثمّ لزمته هذه التسمية حتىٰ قيل له: «بديع»، وإنْ كثر وتكرّر الإبداع فصار الاختراع للمعنىٰ والإبداع للّفظِ فإذا تمّ للشـاعر أن يأتيَ بمعنى مخترع في لفظٍ بديعٍ فقد استولىٰ علىٰ الأَمدِ، وحازَ قصب السَّبق»[2].

وقال الوطواط (ت٥٧٣هـ،ق): «قال أرباب البيان: إنَّ هذه الصنعة عبارة عن نظم المعاني البديعة في ألفاظٍ حسنةٍ بعيدة عن التكلّف. وفي رأيي أنّ ذلك لايدخل في جملة الصناعات؛ لأنّ كلام العقلاءِ سواء المنظوم منه أو المنثور يكون عـلىٰ هـذا النسق، فإن لم يكن كذلك اعتبر من أحاديث العوام»[3].

غير أنّ ابن الأثير قسّم المعاني إلىٰ ضربين:

الأول: يبتدعه مؤلّف الكلام من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه. وهذا الضرب ربما يُعثر عليه عند الحوادث المتجدِّدة، ويُنتبه له عند الأُمور الطارئة، فمن ذلك ماورد في شعر أبي تمّام في وصف مصلّبين:

بَكَرُوا وَأَسْرَوْا في مُتُونِ ضَوامِـر قِيدَتْ لَـهُمْ مِـنْ مَـرْبِطِ النَّـجّارِ

لا يَبْرَحُونَ وَمَنْ رَآهـمْ خـالَهُمْ أبَـداً عـلىٰ سَفَرٍ مِـنَ الأَسْـفَار[4]

والثاني: هو الذي يُحتذى فيه علىٰ مثالٍ سابقٍ ومـنهجٍ مـطروقٍ، وعـليه جـلّ ما استعمله مؤلّفو الكلام، ومنه قول عنترة:

هَلْ غادَرَ الشُّعراءُ مِـنْ مُـتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بعد تَوَهُّمِ[5]

---

١. في العمدة المحقّقة من قبل محيي الدين عبد الحميد ذكر: إتيان الشـاعر بـالمعنىٰ، وهـذا خـطأ أتـعب بـعض الباحثين من النقّاد في مناقشة مـاهو غـير صـحيح. انـظر: ابـن رشـيق ونـقد الشـعر، ص ٣٩١ ـ ٣٩٤ و ٤١٥، حاشية العمدة، ج ١، ص ٤٥٣ (تحقيق: محمد قرقزان).

٢. المصدر، ج ١، ص ٤٥٣.

٣. حدائق السحر، ص ١٨٨.

٤. المثل السائر، ج ١، ص ٣٠٣.

٥. المصدر، ص ٣٣٥.

وهذا الاتّجاه نجده قد تغيّر ـ كما قلنا ـ بعد زمن السكّاكي حين عدّ الإبداع أحد فنون البديع، لذا قال ابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ.ق): «هو أن تكون مفردات كلمات البيت من الشعر، أو الفصل من النثر، أو الجملة المفيدة متضمّنة بديعاً بحيث تأتي في البيت الواحد والقرينة الواحدة عدّة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملته، وربّما كان في الكلمة الواحدة ضربان فصاعداً من البديع، ومتىٰ لم تكن كلّ كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع»[1].

وقد استخرج أكثر من عشرين ضرباً من المحاسن البديعيّة من قوله تعالىٰ:

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2].

ومن هذه الفنون: المناسبة، والمطابقة، والاستعارة، والتمثيل، والإرداف، والتعليل، وصحّة التقسيم[3].

أمّا الطيّبي (ت٧٤٣هـ.ق) فيرىٰ أنّ الإبداع هو أن يخترع المتكلّم معاني غير مسبوق إليها.

قال عبد الحميد كاتب مروان: «خير الكلام ماكان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً»، وهو ضربان:

أحدهما: ما يبتدع عند الحوادث المتجدّدة ...

وثانيهما: مايبتدع من غير شاهد حالٍ[4] ...

وسمّاه أصحاب البديعيات «سلامة الاختراع». وتعريفهم للأخير يخرجه من

---

١. تحرير التحبير، ص٦١١؛ بديع القرآن، ص٣٤٠.

٢. هود: ٤٤.

٣. تحرير التحبير، ص٦١١؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧٥؛ جوهر الكنز، ص٢٣١؛ شرح الكافية البديعية، ص٢٩٢؛ الاتقان، ج٢، ص٩٦؛ أنوار الربيع، ج٥، ص٣٢٨؛ نفحات الأزهار، ص٢١٢.

٤. التبيان للطيّبي، ص٣٠٥.

تعريف المصري ومن سار علىٰ نهجه.

وأمّا تعريف سلامة الاختراع، فقد ذكره المدني بقوله: «هذا النوع عبارة عن أن يَخترع الشاعر بمعنىً لم يسبق إليه، وسمّاه بعضهم الإبداع، وهو اسم مطابق للمسمّىٰ، غير أنّ أصحاب البديعيات وكثيراً من علماء البديع اصطلحوا علىٰ جعل الإبداع اسماً للإتيان في البيت الواحد والفقرة الواحدة بعدّة أنواع من البديع، وسمّوا هذا النوع بسلامة الاختراع، ولكلّ ما اصطلح»[١].

فالإبداع عند بعضهم هو «سلامة الاختراع»، وهو عند آخرين أن يكون البيت من الشعر أو الفصل من النثر مشتملاً علىٰ عدّة ضروب من البديع، كما ذهب إليه المصري وأصحاب البديعيات؛ ولذلك كان للإبداع تعريفان مختلفان عندهم، وإن ذهب المدني إلىٰ أن «الإبداع» اسم مطابق للمسمّىٰ غير أنّه خصّه بضروب البديع، وخصّ «سلامة الاختراع» بالمعنىٰ الجديد[٢].

فمن أمثلة النوع الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[٣]، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٤].

قوله: ﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذّبين، وافصل بيننا بالحقّ. فأراد ـ سبحانه ـ أن يقول: قال: ربّ أهلك هؤلاء المكذّبين، فعدل عن هذا اللفظ الخاصّ ـ لما فيه من شائبة النفرة التي قد تعلّق علىٰ الأنبياء تجاه معانديهم؛ لأنّهم بعثوا رحمةً لا نقمةً حتىٰ يؤذن لهم بالدعاء عليهم ـ إلىٰ لفظ الإرداف، فقال: ﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِالْحَقِّ﴾.

---

١. أنوار الربيع، ج٦، ص٢٠٤.

٢. معجم النقد العربي القديم، ج١، ص٧٣.

٣. الأنبياء: ١٠٩.

٤. الأنبياء: ١١٢.

وكذلك أوضح الحكم بأنّه حقّ، فجاء ذلك الإيضاح مدمجاً في الإرداف والتتميم، إذ لو وقع الاقتصار علىٰ قوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾، لكان المعنىٰ المراد نـاقصاً؛ لأنّ مـطلق الحكم لايفي بالمقصود، وكذلك المقارنة؛ لأنّ الإدماج والإيضاح اقترنا في التتميم، وكذاالافتنان؛ لجمع هذه الألفاظ الثلاثة بين فنّين من الفنون يقصدها المتكلّمون، وهما:

أ) فنّ الأدب في تعليمه ـ سبحانه ـ لنبيّه ﷺ كيف يدعو علىٰ من خالفه دعاءً غير منفرّ عنه.

ب) فنّ الهجاء، لأنّ عدل الله ـ سبحانه ـ يأبىٰ أن يأمر نبيّه بالدعاء إلّا علىٰ من علم تصميمه علىٰ العصيان، وبراءته من الإيمان، ومن كان كذلك كان مستحقاً للذمّ، فأدمج ـ سبحانه ـ في أمر الرسول بالدعاء عليهم هجاءهم بمقتضىٰ ماتضمّنه الكلام من استحقاق الملام.

وكذلك الإيجاز عن المعنىٰ المراد بأقلّ مايمكن مـن الحـروف، والسـهولة فـي تركيب الكلمات تركيباً سهل المخارج.

والتهذيب، في كون تركيب الجملة وضع علىٰ أصح ترتيب، وأسهل تهذيب؛ إذ قدّم فيها ذكر المدعوّ، وثنّىٰ بالطلب، وثلّث بالمطلوب.

وحسن البيان؛ لأن الذهن يسابق إلىٰ فهم معنىٰ الكلام.

والتمزيج، لامتزاج الفنون بمعاني البديع، فإن فني الأدب والهجاء امتزجا بمعنيي الإرداف والتتميم، ولم يظهر في اللفظ لكلّ معنيين سوىٰ صورة واحدة، فظهر فـنّ الأدب، وأُدمج فيه فنّ الهجاء، وظهر الإرداف، وأُدمج فيه التتميم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ...﴾[١]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

---

١. النور: ٦.

٢. النور: ١٠.

اشتملت هذه الآيات ـ بالإضافة إلىٰ ما انطوت عليه مـن الأحكـام والتشـريع الصالح ـ علىٰ العديد من فنون البلاغة: منها:

أ) الالتفات: في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ من الغيبة إلىٰ الخطاب لتسجيل المنّة علىٰ المخاطبين بحيث لاتبقىٰ لديهم أعذار واهية يتشبّثون بها إذا هم تجاوزوا حدود ما بيّنه لهم.

ب) التغليب: فقد غلب صيغة الذكور علىٰ صيغة الإناث؛ لأنّـه بـصدد مـخاطبة الفريقين، أي القاذفين والمقذوفات.

ج) الحذف: فإن ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ خبره محذوف وجوباً، وكذلك حذف جواب لولا للتهويل، ولكي يذهب الوهم في تقديره كلّ مذهب، فيكون أبلغ فـي البـيان، وأبعد في التهويل والزجر، ورُبّ مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

ونجد أنّ اللّه أسدل علىٰ ذلك كلّه لأنّ الغرض الأسمىٰ هـو الصـون، والصـون يتطلّب الاحتياط، وهو يستدعي السكوت عمّا لايحسن التصريح به.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا...﴾[١].

اشتملت هذه الآية الكريمة علىٰ تسعة أضرب من فنون البديع:

١. صحّة التقسيم؛ وذلك لاستيعاب الكلام جميع أقسام الأقارب القريبة بـحيث لم يغادر منها شيئاً.

٢. التهذيب في تقديم الأقرب فالأقرب.

٣. حسن النسق وذلك في اختياره «أو» لعطف الجمل، وهي تدلّ علىٰ الإباحة.

---

١. النور: ٦١.

٤. الكناية حيث كنّىٰ ـ سبحانه ـ عن الأموال بالبيوت.

٥. المناسبة في مناسبة الألفاظ بعضها مع بعض في الإيقاع.

٦. التذييل؛ فإنّ الكلام الذي خرج مخرج المثل جاء تذييلاً لمعنىٰ الكلام المتقدّم لقصد توكيده وتقريره.

٧. المطابقة، وذلك في قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ لأنّ المعنىٰ مجتمعان ومتفرّقان.

٨. المقارنة، وذلك في موضعين: أحدهما: اقتران التمثيل بالتذييل، والثاني: اقتران المطابقة بالتمكين، فإنّ فاصلة هذا الكلام في غاية التمكين.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

في الآية فنون عديدة من البلاغة:

١. المناسبه؛ فإن نفي الإدراك يناسب اللطف، وكذلك إدراك الأبصار يناسبه وصف المدرك بالخبرة.

٢. فنّ الاحتراس؛ فإنه ـ سبحانه ـ لما نفى عن نفسه إدراك الأبصار اقتضت البلاغة فنّ الاحتراس تفادياً؛ لأن يظنّ ظانّ أنّه إذا لم يكن مدركاً لم يكن موجوداً، فوجب أن يقول: «وهو يدرك الأبصار» يثبت لذاته الوجود.

٣. فنّ اللفّ والنشر: فقوله: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ راجع إلىٰ قوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ راجع إلىٰ قوله ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّـهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

فيها فنون متنوّعة من علوم البديع والبيان والمعاني:

١. إقباله ـ سبحانه ـ عليهم، وفي ذلك منتهىٰ الاطمئنان لهم، لمحو ماسبق لهم من ذنوب.

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. الزمر: ٥٣.

٢. نداؤهم، وفي ذلك من التودّد إليهم والتلطّف بهم ما لا يخفى.

٣. إضافتهم إليه إضافة تشريف لهم، وذلك كافٍ لمقابلتهم بالمثل وإعلان التوبة إليه بها.

٤. إضافة الرحمة إلىٰ أخصّ أسمائه تعالىٰ وأجلّها.

٥. إعادة الظاهر بلفظه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

٦. الالتفات من التكلّم إلىٰ الغيبة في قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لتخصيص الرحـمة بالاسم الكريم.

٧. إبراز الجملة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مؤكّـدة بـ«إنّ»، وبـ«ضـمير الفصل»، وبالصفتين المودعتين للمبالغة.

ومن النوع الثاني ـ وهو الإتيان بالمعنىٰ الجديد، والذي اصطلح عليه اسم سلامة الاختراع ـ: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْـلُوبُ﴾[1].

وهذه الآية من أبلغ ما أنزله اللّه في تصوير مدىٰ جهل الكافرين وخفّة عقولهم؛ لغرابة التمثيل الذي تضمّن الإفراط في المبالغة مع كونها جارية علىٰ الحقّ، خارجة مخرج الصدق، ولم يسمع بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن، وكذلك جميع أمثال القرآن ليس لها أمثال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

فإنّ نجاتهم من الغرق برحمة منه تعالىٰ هي في حدّ ذاتها متاع يستمتعون بـه، ولكنّه علىٰ كلّ حال إلىٰ أجل مقدّر يموتون فيه، فهم إن نجوا من الغرق فلن ينجوا من الموت المحتوم.

---

١. الحج: ٧٣.

٢. يس: ٤٣ و ٤٤.

وفي السنّة النبويّة نجد أنّ الرسولﷺ قد اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدّم كلامها، وهي تعدّ من غاية حسنات البيان، لم يتّفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوّة دلالتها، وغرابة القريحة اللغويّة في تأليفها وتنضيدها، وكلّها قد صار مثلاً، وأصبحت ميراثاً خالداً في البيان العربي، ومصدراً ثانوياً للاقتباس والتضمين الأدبي بعد القرآن الكريم.

فهما أوّل المنابع التي استقىٰ منها المسلمون حياتهم في كلّ مجالاتها العلميّة والفنّيّة والخلقيّة، وفي كلّ مسالكها الحيويّة والعمليّة، لم يكونا يؤكّدان قيمة الأدب تأكيداً نظرياً دائماً، بل كانا يقومان عليه، ويتمثّلان به، ويجعلان منه صورة لهما، وتعبيراً عنهما.

فكان نمط الرسولﷺ في كلامه هو المثل الأعلىٰ للبيان العربي إذ قال: «أُعطيت جوامع الكلم»، فقد خصّه اللّه بالإيجاز وقلّة اللّفظ مع كثافة المعنىٰ، فامتاز بإشراق ديباجته، واتّساق عبارته، وتساوق ألفاظه، عليها رواء الطبع، وجلال النبوّة، ورونق الفصاحة.

فمن أقوالهﷺ في حديث الفتنة: «هدنةٌ علىٰ دخنٍ»[١].

وذلك أنّ الصلح إنّما يكون موادعةً وليناً، وانصرافاً عن الحرب، فإذا بني الصلح علىٰ فساد القلوب، كما يغلب الدخن علىٰ الطعام، فلايجد آكله إلّا رائحة هذا الدخان.

كما أنّ هناك دلالة أُخرى لتصوير ذلك الصلح حالة طارئة لتأجيج فتنة أُخرىٰ، فبالرغم من أنّ هذه الحرب قد أُطفئت مؤقّتاً ولكنّها سرعان ماتشتعل نارها لا تواجهها سوىٰ قلوب واهية، كما يلقىٰ الحطب الرطب علىٰ النار لتخبو به قليلاً ثمّ يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلظّىٰ.

---

١. الهدنة: الصلح والموادعة، والدخن: تغيّر الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه.

هذا كلّه إبداع في تصوير دقائق المعنىٰ، وتعميق وبلورة الدلالة، لتقريب وتوضيح مايهدف إليه الرسولﷺ.

وقولهﷺ: «بُعِثْتُ في نفسِ السَّاعَةِ»، يريد أنّه بعث والساعة قريبة منه، فوصف ذلك باللفظة التي تدل علىٰ أدقّ معاني الحسّ بالشيء القريب، وهي لفظ النـفس، كما يحس المرء بأنفاس من يكون بإزائه، ولا يكون ذلك إلّا علىٰ شدّة القرب[١].

وقولهﷺ: «الآن حَمِيَ الوطيس».

قالها في يوم حنين لمّا رأىٰ مجتلد القوم، وهو يعني شدّة الحرب، وعظم الخطب، وتشبيهه الحرب بالنار لحرّ مواقع السيوف، وحمي المعترك، وكون النار تأكل رجالها كما تأكل النار حطبها. وقد روي عن عليّ؈ قوله: «ما سمعتها من عربيّ قبله».

وكذلك أقوالهﷺ التي جرت مجرىٰ الأمثال، منها: «كل الصيدِ في جَوْفِ الفَرَا».

و «يا خيلَ اللّهِ اركبي».

و «إنّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَع، ولا ظَهْراً أبقىٰ».

و «المؤمنُ هيّنٌ ليّنٌ كالجَمَلِ الأَنَفِ، إنْ قِيدَ انقادَ، وإنْ أُنيخَ علىٰ صَخْرَةٍ اسْتَناخَ».

و «السعيدُ مَنْ وَعظَ بغيرِهِ».

و «الناسُ معادنٌ».

و «المستشار مُؤْتَمنٌ، وهو بالخيارِ مالم يَتَكَلّم».

و «إنّ أحبَّكُم إليَّ وأقربَكُم منّي مجالساً يوم القيامةِ أحسنُكُم أخلاقاً، الموطّئونَ أكنافاً، الذينَ يَألفُونَ ويُؤلفونَ».

و «إيّاكُمْ وَخَضْراءَ الدِّمَن».

و «الإيمانُ قَيْد الفَتْك».

و «ماتَ حَتْفَ أَنْفِه».

١. اُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٣٢٨ و ٣٢٩.

و «سَبَقَكَ بِها عُكّاشَة».

و «رَحِمَ اللّهُ عبداً قالَ خَيْراً فَغَنِمَ، أو سَكَتَ فَسَلُمَ».

و «الكلمةُ الطيّبةُ صَدَقةٌ».

ولا نعلم بعد رسول اللّهﷺ فيمن سلف وخلق أفصح من عليّ عليه السلام في المـنطق، ولاأبلّ منه ريقاً في الخطابة، وكان حكيماً تتفجّر الحكمة من بيانه، وخطيباً تتدفّق البلاغة علىٰ لسانه، فهو مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها. وله عليه السلام في الكلمات القصيرة في الحكم النافعة وآداب النفوس مالم يبلغ أحدٌ شأوه، ولا تحوّم حوله، كـقوله: «قـيمةُ كـلّ امـرئٍ ما يُحسِنُه».

فهذه اللفظة لا توازى بها حكمة.

وقوله: «المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانِهِ».

وقوله: «من أرخىٰ عنانَ أملِهِ عَثَرَ بأجَلِهِ».

وقوله: «هَلَكَ امروٌ لايعرف قدره».

و «الطَمَعُ رِقٌّ مُؤَبّدٌ».

و «التفريطُ ثَمرتُه الندامةُ، وثمرةُ الحزمِ السلامةُ».

و «من كانَ لَهُ من نفسهِ واعظ كانَ عليه من اللّهِ حافظ».

و «لسانُ العاقِل وراءَ قلبهِ، وقلبُ الأحمقِ وراءَ لسانِهِ».

الابداع في النظم. وهو علىٰ ضربين:

أ) إتيان البيت الشعري مع عدّة ضروب من البديع.

قال الشاعر:

فضحت الحيا والبـحرَ جُـوداً فـقد بكـىٰ الـ

ــحيا مِــنْ حــياءٍ مِــنْكَ والْـتَطَمَ البَـحْرُ

ففي هذا البيت حسن التعليل في قوله: «بكىٰ الحيا من حياءٍ منك»، وفيه التقسيم

في قوله: «فضحت الحيا والبحر»؛ إذ أرجع ما لكلٍّ إليه علىٰ التعيين بقوله: «بكـىٰ الحيا والتطم البحر»، وفيه المبالغة في جعله بكاء الحياء والتطام البحر حـياءً مـن الممدوح، وفيه الجمع في قوله: «فضحت الحيا والبحر»، وفيه ردّ العجز علىٰ الصدر في ذكر البحر والبحر، وفيه الجناس بين «الحيا» و«الحياء».

ب) الإبداع الذي يأتي في صورة غير مألوفة متجسّداً في الآثار الأدبيّة، كحصيلة تفاعل خفيّ خلّاق بين العناصر المكوّنة للشخصيّة الإنسانيّة عبر سعيها الفـردي، وتأثيراتها في المحيطين: الاجتماعي والطبيعي.

والابتكار والإبداع ليس وقفاً علىٰ العبقري وحده دون العادي من الناس، فكلّ إنسان يتمتّع بقدرة تعبيّرية تعينه على تجسيد خلجاته النفسيّة بشكل أو بآخر، أمّا الفارق بين هذا وذاك، فهو الفارق في الدرجة والنوعيّة، وليس في الطبيعة النفسيّة والذهنيّة لعمليّة الخلق المبتكر.

والإبداع بدء بالاختراع وفق نسق تختاره الإرادة، أي: هو صدق في المعاناة يجد معادلاً تعبيريّاً، وليس استحضار تجربة غريبة، ومحاولة تدجين النفس كي تلائمها.

وأمثلة هذا الضرب لاتحصىٰ، وهي متناثرة في كـتب الأدب والبـلاغة والنـقد، ولولا انحصار بحث هذا الكتاب ضمن نطاق أساليب البديع في القرآن لضربنا أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع.

❊ ❊ ❊

مراعاة النظير

المراعاة لغةً: من فعل رَعَى رعياً، وراعىٰ النجوم: راقبها، والأمر: نظر إلىٰ مـاذا يصير.

واصطلاحاً: هي الجمع بين أمرين أو أُمور متناسبة لا علىٰ جهة التضادّ[1]، بل علىٰ سبيل الملاءمة أو الوفاق بحيث يُقوّى المعنىٰ لكلّ منها بمعاني الكلمات أو العبارات الأُخرىٰ، وتسمىٰ التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والمؤاخاة بين المعاني أيضاً[2].

قال المدني: «هذا النوع ـ أعني مراعاة النظير ـ سمّاه قوم بالتوفيق، وآخـرون بالتناسب، وجماعة بالائتلاف، وبعضهم بالمؤاخاة، قالوا: هو عبارة عن أن يـجمع المتكلّم بين أمر وما يناسبه لا بالتضادّ، سواء كانت المناسبة لفظاً لمعنىٰ، أو لفـظاً للفظ، أو معنى لمعنىٰ؛ إذ القصد جمع شيء وما يناسبه من نوعه، أو ملائمه من أحد الوجوه»[3]، ثم قال: «ولا يخفىٰ أن هذا التفسير يدخل فيه ائتلاف اللفظ مع المعنىٰ، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف المعنىٰ مع المعنىٰ، وكلّ هذه الأقسام عدّه أرباب

---

١. وبهذا القيد ـ أي: كون المناسبة بغير المضادّة ـ يخرج الطباق؛ لأنّه جمع بين أمرين متضادّين، وقد تقدم أنّ المراد بالتضادّ مطلق التقابل والتنافي في الجمع، ولمّا كان في هذا الجمع رعاية الشيء مع نظيره بشبه أو مناسبة سمّي مراعاة النظير. انظر: شروح التلخيص، ج ٤، ص ٣٠٢.

٢. أنوار الربيع، ج ٣، ص ١١٩؛ الإيضاح، ص ٢٦٠؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ٣٣٥؛ شرح عقود الجمان، ص ١٠٨؛ شروح التلخيص، ج ٤، ص ٣٠١.

٣. أنوار الربيع، ج ٤، ص ١٩٨ وج ٦، ص ٢١٧؛ التبيان، ص ٣٤٩.

البديعيات نوعاً برأسه، ونظّموا له شاهداً مستقلّاً، وجعلوه مغايراً لهذا النوع، مع أنّهم مثّلوا لائتلاف اللفظ بما مثّلوا به لمراعاة النظير بعينه. ولا وجه لذلك، بل كان الصواب تنويع هذا النوع إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة كما فعل صاحب التبيان حيث قال: مراعاة النظير هي: أن يجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضادّ، وهو أصناف:

الأوّل: ائتلاف اللفظ مع اللفظ.

الثاني: ائتلاف اللفظ والمعنىٰ.

الثالث: ائتلاف المعنىٰ مع المعنى.

الرابع: ائتلاف المعنىٰ مع الوزن.

الأوّل: ائتلاف اللفظ مع اللفظ: أن نستعمل للمعاني المختلفة ألفاظاً يناسب بعضها بعضاً، كقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[١].

والمعنىٰ: أنّهم قد اختاروا الضلالة وتركوا الهدىٰ، كما يفعل المشتري حين يأخذ شيئاً مقابل شيء.

وفي عبارة «اشتروا» استعارة تصريحيّة[٢]، لكن ذكر «الاشتراء» قد استدعىٰ ذكر التجارة؛ لكون التجارة هي مجال البيع والشراء، فعبارة «تجارتهم» تتّفق مع عبارة «اشتروا»[٣].

ثمّ ضرب مثلاً وضّح فيه خسارتهم الفادحة، فشبّه[٤] حال هؤلاء المنافقين بحال

---

١. البقرة: ١٦ و ١٧.

٢. المراد: استبدلوا الغيّ بالرشاد، والكفر بالإيمان، فخسرت صفقتهم، ولم تربح تجارتهم، فاستعار لفظ الشراء للاستبدال، ثمّ زاده توضيحاً بقوله: «فما ربحت تجارتهم»، وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا.

٣. انظر: البلاغة والتحليل الأدبي، ص ١٨٨.

٤. التشبيه: تشبيه تمثيلي، أي: شبّه حال المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار.

شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء، فما اتقدت حتىٰ انطفأت، وتركته في ظلام دامس، وخوف شديد.

وفي ذكر الضوء والنور مراعاة النظير، والسرّ في ذكر النور مع أن السياق يقتضي أن يقول: «بضوئهم» مقابل «أضاءت» هو أنّ الضوء فيه دلالة علىٰ الزيادة، فلو قال: بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء مايسمّىٰ نوراً، والغرض هو إزالة النور عنهم رأساً، وطمسه أصلاً.

ويؤكد هذا المعنىٰ أنّه قال: ذهب بنورهم، ولم يقل: أذهب نورهم، والفرق بينهما أن معنىٰ أذهبه: أزاله، وجعله ذاهباً، ومعنىٰ ذهب به استصحبه ومضىٰ به معه، والغرض إفادة أنّه لم يبق مطمع في عودة ذلك النور إليهم بالكلّيّة؛ إذ لو قيل: أذهب اللّه نورهم، فلربّما توهّم أنّه إنّما أذهب عنهم النور وبقي هو معهم، فربّما عوّضهم بدل مافاتهم، فلمّا قال: ذهب اللّه بنورهم، كان ذلك حسماً لأيّ احتمال يتبادر إلى الذهن من حصول أيّ خير لهم أو منهم. وهذا من أسمىٰ ما يصل إليه البيان.

وقال الرسول الأعظمﷺ: «لو صَلّيتُم للّـهِ حَتّىٰ تَعُودوا كالقسيّ، وَصمْتُم حَتّىٰ تَعُودُوا كالأوتارِ».

فقد اختار تشبيههم بالقسيّ[1] دون العراجين والأطناب مثلاً من أجل أنّه أراد تشبيههم في صيامهم بالأوتار، فتحصّل بذكره معه ملاءمة لاتحصل بدونها، فكانت قمّة في البلاغة؛ لما اشتملت عليه من حسن التأليف، وجودة التعبير، ومراعاة المناسبة.

ومنه اقتبس البحتري بيته المشهور في وصف الإبل:

كالقِسِيّ المُعَطَّفَاتِ، بَلِ الأَسْـ ـهُمِ مَبْرِيَّةً، بَلِ الأَوْتَارِ[2]

---

١. القسيّ: جمع قوس، وأصله: قووس؛ بدليل قولهم: قوس الشيخ واستقوس.

٢. ديوانه، ج٢، ص٩٨٧؛ الطراز، ج٣، ص١٤٦؛ التبيان، ص٣٥٠؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٥٨؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص٢٣٤؛ أنوار الربيع، ج٣، ص١٢٥؛ بديع القرآن، ص٤٧٢؛ خزانة الأدب، ج٤، ص٣٣٩؛ أمالي المرتضى، ج٣، ص٢٥؛ الإيضاح، ص٢٦١؛ الطراز، ج٣، ص١٤٦؛ تحرير التحبير، ص٥٤٢؛ المثل السائر، ج٢، ص٣٦.

إنّ تشبيه الإبل بالقِسِيّ تعبيراً عن هزالها يمكن معه وصفها بالعراجين، أو الأهِلّة والأطناب ونحوها، ولكنّه اختار من ذلك تشبيهها بالأسهم والأوتار لما بينها وبين القسيّ من الائتلاف اللفظي، والمناسبة المعنويّة.

ومن شواهد التمامة في الحديث قولهﷺ فيما روي عنه ممّا كان يرقي به الحسن والحسينعليهما السلام: «أعيذُكما بكلماتِ اللّهِ التامّة مِنْ كلِّ شَيطانٍ وهامّة، ومن كلِّ عين لامّة»[١].

لم يقل: ملمّة ـ وهي القياس ـ لمكان المناسبة بين الألفاظ.

وقال الإمام عليّعليه السلام: «والدُّنيا كاسِفَةُ النورِ، ظاهِرَةُ الغُرُورِ، علىٰ حينِ إصْفِرارٍ من وَرَقِها، وإياسٍ مِنْ ثَمَرِها، واغْوِرَارٍ مِنْ مائِها»[٢].

ناسب بين: الورق، والثمر، والماء.

وقالعليه السلام: «فكفىٰ بالجَنّةِ ثَواباً ونَوالاً، وَكَفىٰ بالنارِ عِقاباً وَوَبالاً، وَكَفىٰ باللّهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً، وكفىٰ بالكتابِ حَجيجاً وَخَصِيما»[٣].

والتناسب قائم بين: الثواب والنوال، وبين العقاب والوبال، وبين المنتقم والنصير، وبين الحجيج والخصيم، كلّ ذلك يجعل الصورة مؤتلفة، متقاربة الألوان، متناسقة الأجزاء.

وقالعليه السلام في صفة خلق الإنسان: «أمْ هذا الذي أنشَأَهُ في ظُلُماتِ الأرحامِ ... نُطفةً دِهَاقاً، وَعَلَقةً مِحَاقاً، وَجَنيناً، وَرَاضِعاً، وَوَليداً، ويافِعاً، ثم مَنَحَهُ قَلْباً حافِظاً، وَلِساناً لافِظاً، وَبَصَراً لاحِظاً»[٤].

---

١. الحديث في المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٦٧، و سنن ابن ماجة، ج٢، ص١١٦٤؛ حسن التوسل، ص٢٩٠؛ الصناعتين، ص٢٦٧؛ قانون البلاغة، ص٣٠؛ النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٤، ص٢٧٢؛ التبيان للطيّبي، ص٥٠٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٨٩ ـ ٢.

٣. المصدر، الخطبة ٨٣.

٤. المصدر.

ومنه قول ابن رشيق:

أَصَحُّ وأَقْوىٰ ماسَمِعْنَاهُ فـي النَّـدَىٰ ... مِـنَ الخَـبَرِ المَـأْثُورِ مُـنْذُ قَـدِيمِ

أحادِيثُ تَـرْوِيها السُّـيُولُ عَـنِ الحَـيا ... عَنِ البَحْرِ عَـنْ كَـفِّ الأمـيرِ تَـمِيمِ[1]

لاءم بين: الصحة والقوة، وبين الرواية والخبر؛ لأنّها متقاربة في ألفاظها، ثمّ قوله: أحاديث يقارب الأخبار، ثمّ أردفها بقوله: السيول، ثمّ عقّبه بالحيا؛ لأنّ السيول منه، ثمّ عن البحر؛ لأنّه يقرب من السيل، ثمّ تابع بعد ذلك بقوله: «عن جود الأمير تميم»، فهذه الأُمور كلّها متقاربة، فلأجل هذا لاءم بينها في تأليف الألفاظ، فصار الكلام بها مؤتلف النسج، محكم السّدىٰ، مع ما أدخله في البيت الثاني من حسن الصنعة؛ إذ أتىٰ بصحّة الترتيب في العنعنة، فجعل الرواية لصاغر عن كابر كما يـقع فـي سـند الأحاديث، ألا ترىٰ أنّ السيول أصلها المطر، وهو أصله البـحر، وهـو أصـله كـفّ الممدوح علىٰ حسب ما ادّعاه مبالغة في المدح.

وقال ابن الخشاب في المستضيء بأمر اللّه:

وَرَدَ الوَرَىٰ سَـلسَالَ جُـودِكَ فـارتَووْا ... وَوَقَـفْتُ دُونَ الوِرْدِ وَقْـفَةَ حـائِمِ

ظَـمْـآنَ أطْـلبُ خَـفَّةً مـن زَحْـمةٍ ... والوِرْدُ لايَـزْدَادُ غَـيْرَ تَـزَاحُـمِ[2]

وهذان البيتان كأنّهما يجريان مع الماء في السلاسة، مع أنّ قائِلَهُما لم يـتجانف فيهما عن حكاية الماء وما يُناسبُه[3].

وقال الشاعر:

والطـلُّ فـي سـلك الغُصون كـلُؤلؤٍ ... رطبٍ يُـصافحُهُ النَّسـيمُ فـيسقُطُ

والطَّـيرُ يـقرأُ، والغـديرُ صحيفةٌ ... والرّيـحُ تكـتُبُ، والغـمامُ يُـنَقِّطُ

ففي البيت الثاني ذكر الشاعر القراءة، ثمّ مايلائمها من: صحيفة، وكتابة، وتنقيط.

---

١. التبيان للطيّبي، ص٣٥١؛ الطراز، ج٢٣، ص١٤٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٥٨ و ١٥٩؛ أنوار الربيع، ج٦، ص٢٣٤؛ الإيضاح، ص٢٦١.

٢. معاهد التنصيص، ج٢، ص٢٣٥؛ أنوار الربيع، ج٣، ص١٢٧؛ التبيان للطيّبي، ص٣٥١.

٣. الطراز، ج٣، ص١٤٦.

وكقول المتنبي:

أُحِـبُّكِ يـاشَمْسَ النّـهارِ وَبَـعْدَهُ وإن لامَني فِيكِ السُّهىٰ والفَرْقَدُ

فقد أتىٰ المتنبّي في هذا البيت بائتلاف اللفظ للّفظ بين: «الشمس، والنهار»، وبين «البدر، والسُّهىٰ، والفرقد».

وكقوله أيضاً:

علىٰ سابحٍ مـوجَ المـنايا بـنحرِهِ غداةَ كَأَنَّ النَّبْلَ في صَـدْرِهِ وَبْـلُ

فالسابح: الحصان، فلمّا وصفه بالسباحة عقّبه بذكر الموج، وذكر النبل وعـقبه بذكر الوبل لما كان يشبه النبل في شدّة وقعه وسرعة حركته، ثمّ واصل بين الوبل والموج لما بينهما من الملاءمة[١].

الثاني: ائتلاف اللفظ والمعنىٰ، وهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنىٰ المـقصود ومناسبة له، فإذا كان المعنىٰ فخماً كان اللفظ الموضوع له جزلاً، وإذا كان المـعنىٰ رقيقاً كان اللفظ رشيقاً، فيطابقه في كلّ أحواله.

وهما إذا خرجا علىٰ هذا المخرج، وتلاءما هذه الملاءمة وقعا من البلاغة أحسن موقع، و تآلفا علىٰ أحسن شكل، وانتظما في أوفق نظام. وهذا باب عظيم في علم البديع.

وقد جاء القرآن الكريم علىٰ هذا الأُسلوب، فإذا كان المعنىٰ وعـيداً وزجـراً أو تهديداً أو إنزال عذاب أو إيقاع واقعة أُتي فيه بالألفاظ الغـريبة الجـزلة، وإذا كـان المعنىٰ وعداً وبشارة أُتي فيه بالألفاظ الرقيقة العذبة.

كقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾[٢]؛ إذ إنّه لما كان مفخّماً للخطب، ومهوّلاً له، وخيف علىٰ يعقوب ﷺ من

---

١. الطراز، ج٣، ص١٤٦.

٢. يوسف: ٨٥.

دوام حزنه، وطول أسفه، جاء بالألفاظ الغريبة: كقوله: «تفتأ»، وقد تقدّمها أغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلىٰ أخواتها، وهي التاء؛ لأن الباء والواو أكثر دوراناً علىٰ الألسنة، وكذلك أنّ لفظة «حرض»[١] أغرب من جميع ألفاظ الهلاك، فاقتضىٰ حسن النظم وحسن الوضع فيه أن تجاور كلّ لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة والاستعمال توخّياً لحسن الجوار، ورغبة في ائتلاف المعاني والألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَـئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[٢].

أي أقسم المشركون باللّه بأغلظ الأيمان، وبالغوا فيها أشدّ المبالغة لإن جاءهم من اللّه رسول ينذرهم بأسه، ليكوننّ أسلك لطريق الحقّ، وأشدّ قبولاً له من أيّ أُمّة من الأُمم التي خلت من قبلهم، ولكن بعد ما جاءهم الرسول انقلبوا علىٰ أعقابهم، فما زادهم مجيئه إلّا بعداً من الإيمان باللّه، وانصرافاً عن الحقّ.

فكانت ألفاظ المعنىٰ المراد يلائم بعضها بعضاً، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها، غير لائقة بمكانها، فالألفاظ كلّها من المستعمل المتداول، لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلىٰ مجاورة مايشاكلها في الغرابة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٣].

لمّا كان الركون إلىٰ الظالم هو الميل إليه والاعتماد عليه دون مشاركته في الظلم، وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم، فأتىٰ بلفظ المسّ دون الإحراق.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[٤].

---

١. الحرض: هو الاقتراب من الهلاك.

٢. فاطر: ٤٢.

٣. هود: ١١٣.

٤. البقرة: ٢٨٦.

أتىٰ بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيّئة لثقلها.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[2].

فاستعمل الجوف في الأُولىٰ، واستعمل البطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، و وزنهما واحد أيضاً، ولو استعمل هذه موضع تلك لكان الكلام نافراً قلقاً.

وقال بعض الشعراء المعاصرين:

و رقّتنا كالماء تجري عيونه ... منابع للظمآنِ من دمعهِ الأصفىٰ

وأعذبُ ماءِ النبعِ من ثدي أُمّهِ ... وأنضر زهر الرّوضِ عن غصنِهِ قطفا

وخير نجومي ما اقتلعت جذورها ... ومن مشتلِ الأنوارِ والنور ماجفا

فقد تخيّر ألفاظاً مناسبة لمعانيه، فعندما تحدّث عن الرقّة استخدم كلمات تقطر بالعذوبة واللين: كـ«الماء، وعيون، ومنابع، ودمع، وأصفىٰ»، وعندما تحدّث عن القوّة والتفوق لجأ إلىٰ كلمات مناسبة كـ«الجذور، واقتلع، والنجوم، والنور ماجفا»، فكلمة «النجوم» تشعر ببعد المنال، وكلمتا «النور ماجفا» تشعران بأنّ النور مازال حيّاً شديد الإحراق، وكلمتا «اقتلعت جذورها» تشعران بالقوّة المسيطرة، والهمّة المتفوّقة، وهذا اللون من التعبير يعتبر من أهمّ دعائم الفن الرمزي في الأدب الحديث.

وقال زهير بن أبي سلمىٰ:

أَثَافِيَّ سُفْعاً فـي مُـعَرَّسِ مِـرْجَلٍ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَـوْضِ لَـمْ يَـتَثَلَّمِ[3]

---

١. الأحزاب: ٤.

٢. آل‌عمران: ٣٥.

٣. الأثافي: الأحجار التي تنصب عليها القدر ـ جمع «أُثفيّة» بضم الهمزة وتشديد الياء ـ. والسفع: السود، جمع ←

فَـلَمّا عَـرَفْتُ الدّارَ قُلْتُ لِـرَبْعِهَا ألا انْعِمْ صَبَاحاً أيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ[1]

فالبيت الأوّل ألفاظه غريبة لما كان المعنىٰ المقصود جزلاً؛ لكونه غير معروف مجهولاً حاله، فلمّا عرفه أتىٰ في البيت الثاني بما يلائم المـعنىٰ مـن رقّـة اللـفظ وحسنه ورشاقته، لما في البيت من البيان والظهور وكثرة الاستعمال.

وبكلمة جامعة نقول: لابدّ من موافقة الألفاظ للمعاني رقّة وشـدّة، فـللغزل أو المديح ألفاظ الرقّة وعبارات اللين، وللفخر والحماسة ألفاظ الجزالة والشدّة.

مثال الرقّة قول الشاعر:

لَمْ يَطُلْ ليـلي ولَكِـن لَـمْ أنَـمْ ونفىٰ عـنّي الكـرىٰ طَـيْفاً ألَـمْ

ومثال الروع:

إذا مــــا غَـضِبْنا غَـضْبَةً مُـضَريةً هتكنا حجابَ الشمس أو قطّرت دما

وقال المتنبّي:

فالعُرْبُ مِـنْهُ مَـعَ الكُـدريِّ طـائِرةٌ والرُّومُ طـائرةٌ مِـنْهُ مَـعَ الحَـجَلِ[2]

يصف انهزام الناس من خوفه وشدّة سطوته، «فالكدريُّ، والحـجل»: طـائران، لكن الكدريّ من طير السَّهل، فضمّه إلى العرب؛ لأنّ أكثر ما يسكنون هذه المواضع، وضمّ الحجل ـ من طير الجبل ـ إلىٰ الروم؛ لأن بلادها الجبال.

أي العرب تفرُّ منه مع القطا في السهل، والروم مع القبج في الجبل، فلأجل هذه المناسبة والتزامها ضمّ كلّ واحد إلىٰ مايليق به ويناسبه بعض مناسبة.

الثالث: ائتلاف المعنىٰ مع المعنىٰ، وهو أن يكون الكلام مشتملاً علىٰ أمـرين،

← سفعاء كسود جمع سوداء. المعرّس: المنزل من التعريس وهو النزول في وجه السحر، استعاره للـمكان الذي ينصب فيه المرجل. والمرجل: القدر. والنؤي: حفيرة تحفر حول الخباء لئلّا يدخله المطر. والجذم: أصله الشيء. ولم يتثلّم: أي لم تحصل له ثـلمة. انـظر: التبيان للـطيّبي، ص٣٤٩؛ أنـوار الربـيع، ج٦، ص٢١٧؛ الطراز، ج ٣، ص ١٤٥.

١. تحرير التحبير، ص١٩٥؛ أنوار الربيع، ٦، ٢١٧؛ التبيان للطيّبي، ص٣٤٩.

٢. العرف الطيب، ج ٢، ص٣٥٢؛ الطراز، ج٣، ص ١٥؛ أنوار الربيع، ج ٤، ص١٩٨؛ التبيان للطيّبي، ص٣٥٣.

فيقرن بكلّ واحد منهما ما يلائمه من حيث إنّ لاقترانه به مزيّة غير خافية، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[١].

لم يقل: فإنّك لاتجوع فيها ولاتظمىٰ، وإنّك لاتعرىٰ فيها ولا تضحىٰ، فإنّه لم يُراع ملاءمة الريّ للشبع، ولا أراد مناسبة الاستظلال للضّحىٰ، وإنّما أراد مناسبة أدخل من ذلك، فقرن الجوع بالعُري؛ لما للإنسان فيهما من مزيد المشقّة، وعظيم الألم بملابستهما، وأراد مناسبة الاستظلال للرّيّ، فقرن بينهما لما في ذلك من مزيّة الامتنان وإكماله، ووجه آخر، وهو أنّ الجوع يلحق منه ألم في بطن الإنسان، وتلتهب منه أحشاؤه، والعُري يلحق منه ألم في ظاهر جسد الإنسان، فلهذا جمع بينهما لما كان أحدهما يتعلّق بالظاهر، والآخر يتعلّق بالباطن، وهكذا حال الظمأ، فإنّه يُحرق كبد الإنسان، ويوقد في فؤاده النار، والضّحىٰ يُحرق جسده الظاهر، فلأجل هذا ضمّ كلّ واحد منهما إلىٰ ماله تعلّق به لتحصل المناسبة.

ومثاله ما قال المتنبّي في السيفيات:

تَمرُّ بِكَ الأبْطالُ كَلْمَىٰ هَزيمةً وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ وَثَغْرُكَ باسِمُ
وَقَفْتَ وَما في المَوْتِ شَكٌّ لِواقِفٍ كَأنَّكَ في جِفْنِ الرَّدىٰ وَهُوَ نائِمُ[٢]

فإن عجز كلّ واحد من البيتين ملائمٌ لكلّ واحد من صدريهما، وصالح لأن يؤلف معه، لكنّه اختار ما أورده في البيت لأمرين:

الأوّل: أنّ قوله: «كأنّك في جفن الردىٰ وهو نائم» إنّما سيق من أجل التمثيل للسلامة في موضع العطب، فجعله مقرّراً للوقوف والبقاء في موضع يُقطع علىٰ صاحبه بالموت أحسن من جعله مقرّراً لثباته في حال هزيمة الأبطال.

والثاني: أنّ جعل قوله: «ووجهُكَ وضّاح وثغرك باسم» تتمّة لقوله «تُمرُّ بك

١. طه: ١١٨ و ١١٩.
٢. الطراز، ج٣، ص١٤٨.

الأبطال» أحسنُ من جعله تتمّةً لقوله: «وقفت ومافي الموت شك لواقف»، لأنّ الإنسان في حال الهزيمة يلحقه من ضيق النفس وعبوس الوجه مالايخفىٰ. فلهذا ألصق كلّ واحد منهما بما يكون فيه ملاءمة وحسن انتظام من أجل المبالغة في المعاني.

الرابع: ائتلاف المعنىٰ مع الوزن، وهو أن يكون المعنىٰ مفصلاً على قدِّ الوزن، فلا يضطرّ الشاعر إلىٰ الغموض أو التعقيد كي يستقيم الوزن معه، ومنه قول صلاح الدين الصفدي:

واسْتَشْعِرِ الحِلْمَ في كُلِّ الأُمُورِ ولا ... تَسْرع ببادِرةٍ يوْماً إلىٰ رَجُلِ
وإنْ بُلِيتَ بِشَخْصٍ لا خَلاقَ لَهُ ... فَكُنْ كأنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ يَقُلِ

أنواع مراعاة النظير

اعلم، أنّ التناسب أقلّ ما يُتصوّر بين إثنين؛ إذ لابدّ من ذكر شيء ونظيره، وقد تكثّر الأشياء المتناسبة بحسب المعاني المقصودة. وقد نوّع أهل هذا الفنّ مراعاة النظير أربعة أنواع:

النوع الأوّل: ذكر شيء وما يُناسبه من متّحد أو متعدّد من غير زيادة معنىً آخر.
فقد يكون بين إثنين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[1].
فناسب بين: «السماء» و «الكواكب» لملازمة أحدهما الآخر، ومنه ـ نظماً ـ قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلني والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعي ... وَمسْنُونَةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوالِ[2]

---

١. الصافات: ٦.
٢. ديوانه، ص ٣٣؛ معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٧؛ العمدة، ج ١، ص ٤٩١.

فناسب بين: «المشرفيّ» ـ وَهُوَ السيف ـ وبين «مسنُونة زرق»، وهي أَسنّةُ السهام، وشبهها بـ«أنياب الغُول»، وهذا ممّا أجرت العربُ فيه المعدوم مجرى الموجود.

وقد يكون بين ثلاثة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[1].

فناسب بين: «الثلثين» و «النصف»و «الثلث».

ومنه ـ نظماً ـ قول ابن قاضي ميلة:

فكأنّها شَمْسٌ وكفُّ مُدِيرِها ... فينا ضُحىً وَفَمُ النَّديمِ أصِيلُ[2]

فناسب بين: «الشمس»و «الضحى»و «الأصيل».

وكقول ابن خفاجة يصف فرساً:

وأشْقرَ تَضْرِمُ مِنْهُ الوَغَىٰ ... بشُعْلةٍ مِنْ شُعَلِ الباسِ

مِن جلنار ناضرٍ خَدُّهُ ... وأُذنُهُ مِنْ وَرَقِ الآسِ

تَطْلُعُ للغرّةِ في وَجْهِهِ ... حَبابَةٌ تَضَحُّلاً في الكاسِ[3]

فالمناسبة هنا بين: «الجلنار» و«الآس» و«النضارة».

وقد يكون بين أربعة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾[4].

ناسب بين هذه الأربعة؛ لأنّها جهات.

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[5].

---

١. المزمّل: ٢٠.

٢. نظم الدر والعقيان، ص ٢٨٨.

٣. معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٢٣٠.

٤. الأعراف: ١٧.

٥. الشورى: ١٣.

ناسب بين هؤلاءالمصرّح بهم من الأنبياء؛ لأنّهم أُولو العزمِ من الرسل.

ومنه ـ نظماً ـ قول أبي تمّام:

يا غـايةَالأُدبـاءِوالظـرفاءِ بَـل   يـاسيّدَالشّـعراءِوالخُـطباءِ[1]

ناسب بين: «الأدُباء»و «الظرفاء»و «الشعراء» و «الخطباء» لمزاولةِالجـميع فـنّ الفصاحة والبلاغة.

وقد يكون بين خمسة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[2].

وقد يكون بين ستة، كقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[3]؛ إذ هي كلّها مُتَنعّم بها.

ومن هذا القسم والقسم الذي قبله ـ نظماً ـ قول بعضهم في مدح أهـل البـيت الشريف عليهم السلام:

أنـتُم بَـنُو طـه ونـونَ والضُّحى   وَبَنُو تَـبارَكَ والكِتابِ المُـحْكَمِ

وبنو الأباطِحِ والمشاعِرِ والصّـفا   والركْنِ والبيتِ العـتيقِ وَزَمْـزمِ

وَعَـلَيْكُم نَـزَلَ الكِـتَابُ وأَنْـتُمُ   خَـيْرُ البَـرِيَةِ مِـنْ سُلالةِآدمِ

جبريل خادِمُكُم وخادِمُ جَدِّكُم   مِنْ قَبْلِ ذا ولغيركم لم يَـخْدِمِ

فإنّه أحسن المناسبة في البيت الأوّل بين أسماء السور الخمسة، وفي الثاني بين الجهات الحجازيّة السّتّة[4].

ومن الغايات في هذا الباب قول البـديع الهـمدانـي مـن قـصيدة يـصف فـيها

---

١. ديوانه، ص ٥؛ نظم الدر، ص ٢٨٨.

٢. عبس: ٣٤ ـ ٣٦.

٣. الواقعة: ٢٨ ـ ٣٤.

٤. خزانة الأدب، ج ٢، ص٣٣٦؛ معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٢٣٠.

طول السرى:

لكَ اللّه من عزمٍ أجوبُ جيوبهُ	كأنّيَ في أجفانِ عين الردىٰ كحلُ
كأنَّ السرىٰ ساقٍ كأنَّ الكرىٰ	طلٌّ كأنّما لها شربٌ كأنّ المنىٰ نَقْلُ
كأنّا جياعٌ والمطيُّ لنا فمٌ	كأنّ الفلا زادٌ كأنّ السرى أكلُ
كأنّ ينابيع الثرىٰ ثديُ مرضعٍ	وفي حجرها مِنىً ومن ناقتي طفلُ
كأنّا على أُرجوحةٍ في مسيرنا	لِغَورٍ بنا تَهْوِي ونجدٍ بنا تعلُو[1]

وأما النوع الثاني: فهو المسمّى بـ: **تناسب الأطراف**

من مراعاة النظير ما يسمّىٰ تناسب الأطراف، أو تشابه الأطراف، وهو أن يبتدئ المتكلّم كلامه بمعنى، ثمّ يختم الكلام بما يناسب أوّله في المعنىٰ، أو في اللفظ.

فتناسب الأطراف قسمان: معنوي ولفظي:

فالمعنوي: كقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

فإنّ اللطف يناسب ما لايدرك بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك؛ لأنّ الخبير من له علم بالخفيات، ومن جملة الخفيات، بل الظواهر الأبصار، فيدركها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[3].

ناسبت هذه التوبة لفظ الباري دون غيره من الأسماء؛ لأنّ الباري هو الذي خلقهم أبرياء من التفاوت، وهي نعمة جسيمة، وكان من حقّ الشُّكر أن يخصّوه بالعبادة، فلمّا عكسوا وقابلوها بالكفران ـ عبدوا ما لا تمييز له أصلاً ـ استردّ منهم

---

١. المصدر الأوّل، ص٢٣٣؛ المصدر الثاني، ص ٢٣٣؛ الغور: المنخفض من الأرض أو الوادي، النجد: المرتفع من الأرض.

٢. الأنعام: ١٠٣.

٣. البقرة: ٥٤.

تلك النعمة بالقتل.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١]، إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

اختلفت الفاصلتان؛ لأنّ أمر النفاق وما فيه من البغي المؤدّي إلىٰ الفتنة والفساد في الأرض أمرٌ دنيويٌّ مبنيٌّ على العادات، فهو كالمحسوس، فقيل: «لا يشعرون».

وأمّا أمر الإيمان والوقوف علىٰ الحقّ والباطل، فيحتاج إلىٰ دقّة نظرٍ وفكرٍ وتأملٍ، فقيل: «لا يَعْلَمُونَ».

وأيضاً في ذكر السّفه مع العلم مطابقة معنوية،فإنّ السفه في معنىٰ الجهل، والعلم في معنىٰ الرُّشد.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٤].

إنّما قال: «الغنيّ الحميد» لينبّه علىٰ عدم افتقاره لما له من السماوات والأرض، بل هو غني عنها جواد بها، فإذا جاد بهما حَمَدَهُ المنعم عليه.

ومنه ما روي أنّ قارئاً قرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٥]، بدل: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فسمعه أعرابي فأنكر عليه قراءته قائلاً له: إنّ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنّه إغراء عليه، هذا مع أنّ الأعرابي لم يكن قارئاً للقرآن.

ومن خفيّ هذا القسم قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ

١. البقرة: ١١.

٢. البقرة: ١٢.

٣. البقرة: ١٣.

٤. الحجّ: ٦٤.

٥. البقرة: ٢٠٩.

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١].

حيث إنّ قوله: «إن تغفر لهم» يوهم أنّ الفاصلة هي «الغفور الرحيم»، لكنّ المناسب أنّه لايغفر لمن يستحقّ العقاب إلّا من ليس فوقهُ أحدٌ يردّ عليه، وهو «العزيز»، أي الغالب من قوله: عزّني في الخطاب، ثمّ نبّه على أنّه في ذلك «حكيم» على سبيل الاحتراس؛ لئلّا يتوهّم أن غُفرانه لمستحقّ العقاب خالٍ من الحكمة؛ إذ الحكيم من يضع الشيء في محلّه.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمىٰ مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذلِكَ حَيْثُ الحاجَةُ إليهِ، منْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وآذانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوائِهِ مَواضِعَ الغَفْلَةِ، وَمَواطِنَ الحَيْرةِ»[٢].

فقوله عليه السلام: «متتبع بدوائه» يناسب قوله: «دوّار بطبه» وقوله عليه السلام: «مواضع الغفلة» ومواطن الحيرة»، يناسب قوله: «من قلوب عمي وآذان صم».

وقال الشاعر:

أَلَذُّ مِنَ السِّحْرِ الحَلالِ حَدِيثُهُ ... وأَعْذَبُ مِنْ ماءِ الغَمامَةِ رِيقُهُ

والريق: يناسب اللّذة في أوّل البيت.

وقال المتنبي:

علىٰ سابحٍ مَوْجُ المنايا بِنَحْرِهِ ... غداةَ كأنَّ النَّبْلَ في صَدْرِهِ وَبْلُ

بين لفظة «السباحة» ولفظتي «الموج، والوبل» تناسب معنويّ، صار البيت به متلاحماً.

واللفظي نوعان:

الأوّل: أن ينظر الناظم أو الناثر إلىٰ لفظة وقعت في آخر المصراع الأوّل أو الجملة، فيبدأ بها المصراع الثاني، أو الجملة التالية.

---

١. المائدة: ١١٨.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨ ـ ٤.

كقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

حيث أعاد فاصلة الآية الأُولىٰ في أوّل الآية الثانية.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «المُنَجِّمُ كالكاهِنِ، والكاهِنُ كالسَّاحِرِ، والسَّاحِرُ كالكافِرِ، والكافِرُ في النّارِ»[٣].

وقال عليه السلام: «الظَّفَرُ بالحَزْمِ، والحَزْم بإجالةِ الرأي، والرأيُ بِتَحْصينِ الأَسرارِ»[٤].

وقال عليه السلام: «الإسلامُ هو التسليمُ، والتسليمُ هو اليقينُ، واليقينُ هو التصديقُ، والتصديقُ هو الإقرارُ، والإقرارُ هو الأداءُ، والأداءُ هو العملُ»[٥].

وقال عليه السلام: «أوّلُ الدينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التصديقُ بِهِ، وكمالُ التصديقِ به توحيدُهُ، وكمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ لَهُ، وكَمَالُ الإخلاصِ لَهُ نفيُ الصفاتِ عنهُ»[٦].

وقال عليه السلام: «بالصالحاتِ يُسْتَدَلُّ علىٰ الإيمانِ، وبالإيمانِ يُعْمَرُ العِلْمُ، وبالعِلْمِ يُرْهَبُ المَوْتُ»[٧].

وقال عليه السلام: «لا يَسْتقيمُ إيمانُ عَبْدٍ حتىٰ يَسْتقِيمَ قَلْبُهُ، ولايَسْتقيمُ قَلْبُهُ حتىٰ يستقيمَ لِسانُهُ»[٨].

---

١. النور: ٣٥.

٢. الروم: ٦ و ٧.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٧٩ـ ٤.

٤. المصدر، قصار الحكم ٤٨.

٥. المصدر، قصار الحكم ١٢٥.

٦. المصدر، الخطبة ١ـ ٣.

٧. المصدر، الخطبة ١٥٦ـ ٣.

٨. المصدر، الخطبة ١٧٦ـ ٢٢.

ففي هذه الفقرات نجد كلّ واحدة من هذه الجمل تتولّد منها الجملة اللاحقة تولّداً عقلياً واقعياً؛ إذ تعمّد فيها الأُسلوب التفكيري المحض حيث مثّلت كلّ لفظة الخيط الفكري الذي تتّصل به، وتنساق منه الفكرة المتطوّرة بالنظر والتفكير، فهو أُسلوب منطقي يتدرّج من فكرة إلىٰ أُخرىٰ تدرّج النتيجة من السبب.

وقال أبو تمّام:

هوىً كانَ خلساً إنَّ من أَبْرَدِ الهوىٰ ... هوىً جُلتُ في أفيائهِ وهو خامِلُ

الثاني: أن يعيد الناظم لفظة القافية من كلّ بيت في أوّل البيت الذي يليه.

كقول أبي حيّة النميري:

رَمَتْني وسِتْرُ اللّه بيني وبينها ... عَشِيَّةَ آرامِ الكناسِ رَميمُ

رَميمُ التي قالتْ لجيران بيتِها ... ضَمِنْتُ لكم ألّا يزال يهيمُ

فلوكنتُ اسطيعُ الرماءَ رميتُها ... ولكنَّ عهدي بالنضالِ قديمُ[1]

وأمّا النوع الثالث: فهو المسمّى: إيهام التناسب وهو الجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان، وإنْ لم يكونا مقصودين هنا، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[2].

فالنجم المراد به هنا النبات الذي لاساق له، كالبقول وما يشبهها، وهو وإنْ لم يكن مناسباً للشمس والقمر، إلّا أنّه موهم لإرادة نجم السماء المناسب لهما[3].

وقال الإمام عليّ ﵇: «إنَّ لِسانَ المؤمنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وإنَّ قَلْبَ المُنافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسانِهِ»[4].

---

١. ديوان شعره، ص١٧٢ و ١٧٣.

٢. الرحمن: ٥.

٣. الإيضاح، ص ٢٦٢؛ شروح التلخيص، ج ٤، ص ٣٠٥ ـ ٤٣٠ الأطول، ج ٢، ص١٨٩.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦ ـ ١٩.

وقال المعرّي:

وَحَـرْفٍ كَنُونٍ تَحْتَ راءٍوَلَـمْ يَكُـنْ بِـدالٍ يَـؤُمُّ الرَّسْـمَ غَـيْرَهُ النَّـقْطُ

فإنّ «النونَ» هو أحد حروف الهجاء، وسائر ما معه في البيت فيه إيهام التناسب لا حقيقته[١].

وأمّا النوع الرابع: التفويف، فهو عبارة عن إتيان المتكلّم بمعان شتّى متناسقة متتابعة، كلّ فنّ في سجعة منفصلة عن أختها مع تساوي الجمل في الوزنيّة، وتكون في الجمل الطويلة والمتوسّطة والقصيرة.

وفي الشعر هو إتيان الشاعر في البيت بجمل مستقلّة متساوية في الوزن أو متقاربة وهو مأخوذ من قولهم: ثوبٌ مفوفٌ إذا كان فيه خطوط بيض، والمراد تلوينه ونقشه، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ﴾[٢].

فقد جاء بمعان متلائمة في جمل مستوية المقدار، منفصلة عن أُختها بالسجع مع تساويها في الإيقاع، فالإيقاع الداخلي تخلّل الكلام كلّه، وانتظمت به جميع أجزائه. وهذا الإيقاع نابع من اختيار الألفاظ ذات الوقع الخاصّ، ومن ائتلاف هذه الألفاظ بعضها مع بعض كنغم عام طاغ يمكن معرفة مصدره بسهولة؛ لقيامه على المحسّنات المختلفة، كالطباق الذي يلفت الحسّ الواعي، وهو أُسلوب يوافق صيغة التجربة

---

١. المراد بـ«حرف»: الناقة، وشبّهها بالنون لضمورها، ولفظ «راء»: اسم فاعل من رأى إذا ضرب الرئة، ولفظ «دال»: المراد به هنا اسم فاعل من «دال»إذا سار سيراً رفيقاً، ولفظ «الرسم»: المراد به هنا أثر الدار، ولفظ «النقط»:المراد به هنا المطر نظر: سقط الزند، ج ٤، ص١٦٠٩؛ خزانة الحموي، ج٣، ص١٨٤؛ مفتاح العلوم، ص٢٢٥، نظم الدرر، ص ٢٦١ و ٢٩٨.

٢. الشعراء: ٧٨ ـ ٨٣.

الجدلية القائمة على التأكيد والنقض، ممثّلاً فيه الأحوال النفسيّة المتنازعة والمتناقضة، وكالتقسيم بين العبارات وتوازنها، كأنّها أشطر متوازية، كما توحّدت نزعة المقابلة واتفقت مع الطباق، وهو الأُسلوب البلاغي الذي يجسّدها، وكذا دقّة التعبير وحسن الاختيار، والمناسبة بين اللفظ والمعنى حتى من خلال استخدام حروف العطف، فالأوّل عطفه بالواو التي هي لمطلق الجمع مع تقديم الإطعام على الإسقاء مراعاةً لحسن النظم، ثمّ عطف الثاني بالفاء لأنّ الشفاء يعقّب المرض بلازمان، ثمّ عطف الثالث بـ «ثمّ» المتراخية؛ لأنّ الإحياء يكون بعد الموت بزمان.

وحسن النسق بتقديم الخلق الذي يجب تقديم الاعتداد به من الخالق على المخلوق، فإنّه أوّل نعمة، ثمّ ثنّى بنعمة الهداية التي هي أولى بالتقديم بعد نعمة الإيجاد، ثمّ تبعها الإطعام والإسقاء اللذان هما ماء الحياة، وذكر المرض وأسنده إلى نفسه تأدباً مع اللّه؛ لأنّ الشرّ لا ينسب إليه تعالى أدباً، وإن كان المرض والشفاء كلاهما من اللّه.

وكذا صحّة التقسيم، فاستوعبت هذه الآيات أقسام النعم الدنيويّة والأُخرويّة من الخلق، والهداية، والإطعام، والإسقاء، والمرض، والشفاء، والموت، والحياة، والإيمان بالبعث، وغفران الذنب.

وإضافة إلى هذه السمات المتنوّعة يؤطر تلك الآيات إيقاع خارجي مبعثة الوزن الذي وقعت الآيات عليه.

ومثاله من المنظوم قول النابغة الزبياني:

فللّهِ عيناً من رأى أهلَ قُبّةٍ ... إضرّ لمن عادى وأكثر نافعا

وأعظم أحلاماً وأكبرَ سيّد ... وأفضَلَ مشفوعاً إليه وشافعا

ففي البيت الثاني أربع جمل طويلة مستقلّة ومتقاربة في الوزن، ومنه قول امرئ القيس:

أفادَ وجادَ وسادَ وزادَ ... وذادَ وقادَ وعادَ وأفْضَل

وكقول من يصف سحاباً:

تَسَرْبَلَ وَشْياًمِنْ خُزُوزٍ تَطَرَّزتْ مَطارِفُها طُرْزاً من البَرْقِ كالتِّبْرِ
فَوَشْيٌ بلا رَقْمٍ، ونَقْشٌ بلا يَدٍ وَدَمْعٌ بلا عَيْنٍ، وَضحكٌ بلا ثَغْرِ[١]

وقال ابن عنين:

دَعَتْ في أعالي السُّعْدِيَوْمَاًحَمامةٌ على فَنَنٍ في ظلِّ رَيّان كاليَمّ
فَهاجَتْ مَشُوقاً، واستفزَّتْ مُتَيّماً وَأَبْكَتْ غرِيباً، واستخفَّتْ أخا حِلْمِ[٢]

وقول الآخر:

فَلَو أنَّ ما بي بالجِبالِ لَهَدَّهَا وبالنّارِ أطْفاها، وبالماءِ لَمْ يَجْرِ
وَبالنَّاسِ لَمْ يَحْيَوا، وبالدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ وبالشَّمْسِ لَمْ تَطْلَعْ، وبالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ[٣]

وقول المتنبّي:

يا أيُّها المُحْسِنُ المَشْكُورُمن جِهَتي والشّكرُ من قِبَل الإحسانِ لا قِبَلي
ما كان نوميَ إلّا فَوقَ مَعْرِفَتي بأَنَّ رَأْيَكَ لا يُؤْتَى مِنَ الزَلَلِ
أقِلْ أنِلْ اَقْطِعِ اَحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ
لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبّما صَحَّتِ الأَجْسامُ بالعِلَلِ[٤]

---

١. تَسَرْبَلَ: لبس. الوشي: المنقوش، خزوز: ضرب من الحرير، تطرّزت: انقشت، المطارف: رداء من الخزّ، الوشي والرقم والنقش: كلّها بمعنى واحد، ودمع وضحك:استعارتان لماء المطر ولمع البرق.
راجع: الإيضاح، ص ٢٦٢؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص ٣١٠؛ نظم الدر، ص ٢٩٤؛ الاشارات، ص٢١٢ و سماه: «التفويف».

٢. ديوانه، ص ٩٠؛ أنوار الربيع، ج٢، ص ٣١٠؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٩٣.

٣. انظر: التبيان للطيّبي، ص٣٩٤؛ أنوار الربيع، ج٢، ص ٣١٠ و ٣١١.

٤. ديوانه، ص ٢٥٩، من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، والأبيات في يتيمة الدهر، ج١، ص١٣٣؛ خزانة الحموي، ج٢، ص١٣٢ و ٢٥٠؛ العمدة، ج٢، ص٢٨.
أَقِلِ: من الإقالة في العثرة، أنل: من الإنالة والإعطاء: أَقْطِعْ: من الإقطاع، أَحْمِل: من قولهم حمله على فرسه، علِّ: من الاستعلاء والعلوّ، سَلِّ: من السلو، أعد: أعدني إلى موضعي في الجوائز، زد: زدني ممّا كنت أعهده منك، هشّ: من الهشاشة، وهي التهلّل، وبشّ: من البشاشة، أدن: قرّبني إليك، سرّ: من التسرّي: صل: من الصلة.

والشاهد في البيت الثالث، وبعض جمله قصيرة مدمّجة.

ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسّطة قول أبي الوليد بن زيدون:

يــهْ أَحــتملْ، واستطلْ	أَصــبِرْ، وعِــزَّ أَهُــنْ
ووَلِّ أقْــبِلْ، وقُــلْ	اســمَعْ، ومُــرْ أُطِــعِ[١]

واعلم، أنّ التفويف كما يكون في مراعاة النظير يكون في الطباق، ومثّلوه بقول ديك الجنّ:

أحِلْ وامْرِرْ وضُرَّ وانْفَع وَلِنْ وَاخْـ	ـشُنْ ورِشْ وابْرِ وانتدِبْ للمعالِي[٢]

أمثلة قرآنيّة لمراعاة النظير:

١. قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[٣].

قوله تعالىٰ في صدر الآية الأُولىٰ: «أولم يهد لهم»، مسوق للموعظة السمعيّة، فلا يناسبه إلّا كلمة «أفلا يسمعون»، وأمّا قوله تعالىٰ في صدر الآية الثانية، فمسوق للموعظة المرئيّة، أعني: «أولم يروا...»، ولا يلائمه إلّا قوله تعالى: «أفلا يُبصرون».

٢. قال تعالىٰ: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤].

---

١. وقبل هذا البيت:

بيني وبينك ما لو شئت لـم يضع	سـرّ إذا ذاعـت الأسـرار لـم يذع
يا بائعـاً حظّـه منّي ولـو بذلـت	لـي الـحيـاة بـحـظي منه لـم أبـع
يكفيك أنّك إنّك حملت قبلي ما	لا يستطيع قلوب الناس يـستـطـع

٢. ديوانه، ص٨٢؛ الذخيرة، ق ١، ١، ص ٣٢٠؛ العمدة، ج ٢، ص٢٨؛ شروح التلخيص، ج ٤، ص٣٠٥؛ نظم الدر، ص٢٩٥.

٣. السجدة: ٢٦ و ٢٧.

٤. الزخرف: ١ ـ ٣.

القسم في قوله تعالىٰ: «والكتاب المبين * إنّا جعلناه» غاية في التناسب، فقد أقسم بالقرآن، وإنّما يقسم بعظيم، ثمّ جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنّه قرآن عربي مرجوّ له أن يعقل به العالمون، فكان جواب القسم مصحّحاً للقسم، وتمّ التناسب بين القسم والمقسم به؛ لأنّهما من وادٍ واحدٍ.

٣. قال تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[١].

لمّا اعتقد الكفّار أنّ سبب اندحارهم في المعركة مع المسلمين هو هبوب الرياح، وهذا مايحصل في كلّ معركة قد تحسم بفعل بعض الظواهر الطبيعيّة، وليس شيئاً من عند اللّه سبحانه، كان من المناسب الاحتراس بالفاصلة التي أخبر فيها ـ سبحانه ـ بأنّه قويّ عزيز قادر بقوّته علىٰ كلّ شيء.

٤. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٢].

حفلت هذه الآية بالألفاظ الدالّة علىٰ الغضب والتهديد والوعيد والإرعاد والإبراق للإشارة إلىٰ أنّ جريمة القتل من أكبر الجرائم، وأشدّها إمعاناً في الشرّ؛ لما يترتّب عليها من هدم لبناء المجتمع.

٥. قال تعالىٰ: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

ناسب ـ سبحانه ـ بين فرحين ويستبشرون، وبين عدم الخوف، وبين النعمة والفضل.

٦. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ

---

١. الأحزاب: ٢٥.

٢. النساء: ٩٣.

٣. آل عمران: ١٧٠.

أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[١].

جاءت هذه الصفات مسرودة على نمط عجيب خلاب متناسب، وهو مراعاة النظيرة، فجاء: حلاف، وبعده مهين؛ لأنّ النون مع الميم متراخيان، ثمّ جاء بصفتي المبالغة: همّاز، مشّاء بنميم، ثمّ جاء: منّاع للخير معتد أثيم، وبعد ما عدّ له من المثالب والنقائص أتىٰ بصفتين من أشدّ معايبه، وقد جاءت البعديّة لتدلّ علىٰ ذلك.

٧. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

سبق وأنْ تعرّضنا لها في قسم المقابلة.

٨. قال تعالىٰ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[٣].

٩. وقال تعالىٰ: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾[٤].

* * *

---

١. القلم: ١٠ ـ ١٣.

٢. القصص: ٧١ ـ ٧٣.

٣. القلم، ١ ـ ٣.

٤. يونس: ٤.

الإرصاد أو التسهيم

الإرصاد لغةً: الانتظار والترقّب والإعداد، يقال: أرصدته: إذا قعدت له على طريقه تترقّبه[1].

الإرصاد اصطلاحاً: هو أن يُذكر قبل الفاصلة من الفقرة، أو القافية من البيت ما يدلّ عليها إذا عُرف الرّويّ، أي يعرف آخر الكلام من معرفة أوّله بطريقة عفويّة.

وكان ابن المقفّع قد ذكره ـ وإن لم يسمّه ـ حينما قال: «وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»[2].

وإذا تعلّق غرض المتكلّم بمثل هذا كان ما دعوه باسم الإرصاد عائداً على الأُسلوب بالتحسين الذاتي؛ لأنّه ممّا يقتضيه المقام.

وسمّاه قدامة «التوشيح»، وقال: «هو أن يكون أوّل البيت شاهداً بقافيته، ومعناها متعلّقاً به، حتى أنّ الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أوّل البيت عرف آخره، وبانت له قافيته»[3].

وفضّل العسكري أن يسمّيه «التبيين»، قال: «سمّي هذا النوع التوشيح، وهذه

---

١. لسان العرب، مادة (رصد).

٢. البيان والتبيين، ج ١، ص ١١٦.

٣. نقد الشعر، ص ١٦٧.

التسمية غير لازمة بهذا المعنى، ولو سمّي تبييناً لكان أقرب»[١].

وقال ابن الأثير: «إنّ تسميته بالإرصاد أولى، وذلك حيث ناسب الاسم مسـمّاه ولاق به، أمّا التوشيح، فنوع آخر من علم البيان»[٢].

وسمّاه ابن رشيق «تسهيماً» بعد أن نقل تسمية قدامة، وبيّن أنّ أوّل مـن سـمّاه «تسهيماً» هو عليّ بن هارون المنجّم، وأنّ ابن وكيع سمّاه بـ«المطمع»[٣].

والتسهيم: مأخوذ من الثوب المسهّم، وهو المخطّط الذي يدلّ أحد خطوطه على الآخر الذي قبله؛ لكونه يقتضي أن يليه لون مخصوص به لمجاورة اللون الذي قبله.

وسمّاه القزويني وشرّاح تلخيصه «إرصاداً»، وقال: «إنّه يسمّى التسهيم أيضاً»[٤]، وقبله ذكر ابن سنان أنّ بعضهم يسمّيه «توشيحاً»، وبعضهم يسمّيه «تسهيماً»[٥].

وفرّق الحموي بين التوشيح والتسهيم، فـقال: «اتّـفق عـلماء البـديع عـلى أنّ التوشيح أن يكون معنى أوّل الكلام دالّاً على لفظ آخره»، والتسهيم: «أن يتقدّم من الكلام ما يدلّ على ما يتأخّر، تارةً بالمعنى، وتارة باللفظ»[٦].

وذكر النويري أنّ الفرق بينهما هو أنّ التوشيح لا يـدلّك أوّله إلّا عـلى القـافية فحسب، والتسهيم تارةً يدلّ على عَجُز البيت، وتارةً على ما دون العجز[٧].

وقال الحلّي: «والفرق بين التسهيم والتوشيح من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّ التسهيم يعرف به من أوّل الكلام آخره، ويعلم مقطعه من حشوه من غير أن تتقدّم سجعة النثر أو قافية الشعر، والتوشيح لا تعلم السجعة والقافية منه إلّا بعد تقدّم معرفتها.

---

١. كتاب الصناعتين، ص٣٨٢.

٢. المثل السائر، ج٢، ص٢٠٥.

٣. العمدة، ج١، ص٦١٦.

٤. الإيضاح، ص٣٤٧؛ شروح التلخيص، ج٤، ص٣٠٥.

٥. سر الفصاحة، ص١٨٧؛ قانون البلاغة، ص١٠١.

٦. خزانة الأدب، ج٢، ص٢٠٣؛ ج٤، ص٩٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٢.

٧. نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٢.

والآخر أنّ التوشيح لا يدلّك أوّله إلّا على القافية فحسب، والتسهيم يدلّ تارةً على عجز البيت، وطوراً على ما دون العجز بشرط الزيادة على القافية.

والثالث: أنّ التسهيم يدلّ تارةً أوّله على آخره، وطوراً آخره على أوّله بخلاف التوشيح»[١].

فالإرصاد أو التسهيم في النثر هو أن يُؤسّس الكلام على وجه يدلّ على بناء ما بعده، وهو ضربان:

الأوّل: ما دلالته لفظيّة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢]؛ فإنّ مادّة العجز دلّ عليها قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ»؛ إذ يفهم منه بعد قوله «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفَسَهُمْ» أنّ العجز هو مادّة الظلم؛ إذ لا معنى لقولنا مثلاً: وما كان اللّه ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم ينفعون، أو يمنعون من الهلاك، أو نحو ذلك، وممّا يعيّن كون المادّة من الظلم مختومة بنون بعد واو معرفة الروي الكائن فيما قبل الآية؛ إذ قبلها: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ ... ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

فلو وقف عليه عُلِمُ أنّ بعده بيت العنكبوت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٥].

فإنّه لو لم يعرف أنّ حرف الرويّ النون لربّما توهّم أنّ العجز ها هنا فيما هم فيه

---

١. شرح الكافية البديعية، ص ٢٦٩، وينظر: نفحات الأزهار، ص ١٣٥.

٢. العنكبوت: ٤٠.

٣. النحل: ٣٠ـ ٣٢.

٤. العنكبوت: ٤١.

٥. يونس: ١٩.

اختلفوا، أو فيما اختلفوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[٣].

تقتضي أوائل هذه الآيات أواخرها اقتضاءً لفظياً ومعنوياً، كما ائتلفت الألفاظ فيها بمعانيها المجاورة، الملائم بالملائم، والمناسب بالمناسب؛ لأنّ ذكر الحرث يلائم ذكر الزرع، والاعتداد بكونه ـ سبحانه ـ لم يجعله حطاماً ملائم لحصول التفكّه به، وعلى هذه الآية يقاس نظم أُختها.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[٤].

فذكر طلوع الشمس جعلنا نتوقّع ذكر غروبها.

وقال الإمام عليّ‌ﷺ في خلق الكواكب: «وَأَجْراها على أَذلالِ تَسْخِيرِها من ثَباتِ ثابِتِها، وَمَسِير سائِرِها، وهُبُوطِها، وَصُعُودِها ونُحُوسِها وَسُعُودِها»[٥].

قال عمرو بن كلثوم:

وَنُوجدُ نحنُ أمْنَعُهُم ذِمارا وَأَوْفاهُم إذا عَقَدُوا يَمِينا[٦]

فإنّه فخر في حالتي الحرب والسلم برعاية الذمام والوفاء، فالشاعر رصد عجز البيت في مبناه ومعناه، فجاء أشدَّ لحمة وارتباطاً.

---

١. الواقعة: ٦٣.

٢. الواقعة: ٦٨ و ٦٩.

٣. الواقعة: ٧١ و ٧٢.

٤. طه: ١٣٠.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ٩١ ـ ٣٧.

٦. شرح القصائد السبع الطوال، ص٤٠٨؛ جمهرة أشعار العرب، ص١٩١.

الثاني: ما دلالته معنوية، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[١].

فإنّ من لوازم اصطفاء الشيءأن يكون مختاراً على جنسه أو نوعه.

وحين بلغت قراءتهﷺ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[٢] قال عبد اللّه بن أبي سرحٍ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ المؤمنون/١٤، فقالﷺ: أكتب هكذا نزل.

وقال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

فإذا وقف على قوله: «لننظر» مع ما تقدّم من قوله تعالى: «جعلناكم خلائف في الأرض» علم أنّ بعده: «تعملون»؛ لأنّ المعنى يقتضيه.

ومثال ذلك في النظم قول الراعي:

وإنْ وُزِنَ الحَصَى فَوَزَنْتُ قَوْمِي وَجَدْتُ حَصَى ضَرِيبتهم رَزِينا[٤]

فإذا سمع الإنسان أوّل هذا البيت استخرج منه لفظ قافيته، فإنّه يعلم أنّ قوله «وزن الحصى» سيأتي بعده «رزين» لعلّتين:

إحداهما: أنّ قافية القصيدة توحيه.

والأُخرى: أنّ نظام المعنى يقتضيه؛ لأنّ الذي يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول في حصاه إنّه رزين[٥].

وحنين أحد الشعراء ـ وهو يتذكّر عهده السالف مع الأحبّة ـ في قوله يقارن حال الورقاء (الحمامة) بحاله:

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ في الضُّحى ذاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ

---

١. آل عمران: ٣٣.

٢. المؤمنون: ١٤.

٣. يونس: ١٤.

٤. الحصى: جمع الحصاة: العقل والرأي، الضريبة: الطبيعة والسجية، الرزين: الأصيل الرأي.

٥. انظر: حسن التوسّل، ص ٢٦٦.

ذَكَرَتْ إلفاً ودَهْراً سالِفاً وبكت حُزْناً فثارت حَزَني
فبكائي رُبّما أرَّقَها وبُكاها ربّما أرَّقَنِي
وَلَقد تَشْكُو فما أفْهَمُها وَلَقد أشكُو فما تَفْهَمُني!
غيرَ أنّي في الجَوَى أعْرِفُها وهي أيضاً في الجَوَى تَعْرِفُني

وقال الشاعر:

ولو أنّني أُعْطيتُ من دَهْرِيَ المُنى وما كُلُّ مَنْ يُعْطى المنى بِمُسَدَّدِ
لقلتُ لأيّامٍ مَضَيْنَ: ألا ارْجِعِي وقلتُ لأيّامٍ أتَيْنَ ألا ابْعُدى[1]

وقال البحتري:

أحَلَّت دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وحَرَّمَتْ بلا سَبَبٍ يَوْمَ اللقاءِ كلامي
فَلَيْسَ الذي حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ وَلَيْسَ الذي حَرَّمْتِهِ بِحرامِ[2]

فالحاذق بمعاني الشعر وتأليفه يعلم ـ بعد أنْ عرف البيت الأوّل وصدر الثاني في بيتي البحتري ـ أنْ ليس عجزه إلّا ما قاله[3].

وأما قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اَهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْنَا اَهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[4].

فقد قيل: إنّه من باب تكرير اللفظ والمعنى، وقيل: هو من باب تكرير اللفظ لا المعنى ـ والأخير هو ما يسمّى بالترديد[5] ـ لاختلاف الهبوطين؛ فإنّ الهبوط الأوّل

---

١. المنزع البديع، ص ٣٦١؛ كفاية الطالب، ص١٨٢؛ العمدة، ج ١، ص ٦٢٠. صدحت: غردّت، الفنن: الغصن، الجوى: شدّة الوجد من العشق أو الحزن.

٢. نقد الشعر، ص ١٩١؛ كتاب الصناعتين، ص ٣٨٣؛ الايضاح، ص٢٦٣؛ ديوان البحتري، ج٣، ص١٩٩٧؛ المصباح، ص٢١٥.

٣. إنّها لم تهدر دمه، ولكن إعراضها عنه وهجرها إياه يؤلمه، ويقع من نفسه موقع إهدار الدم، فاستعاره له، وبين البيتين إيجاز حذف دلّت عليه الفاء، وفيهما التفات ظاهر.

٤. البقرة: ٣٦ ـ ٣٨.

٥. الترديد: هو تعليق الشاعر لفظة في البيت متعلّقة بمعني ثمّ يردُدها فيه بعينها ويعلّقها بمعنى آخر في البيت نفسه».

كان من الجنّة إلى سماء الدنيا، والهبوط الثاني كان من سماء الدنيا إلى الأرض.

وكقول أبي فراس:

صفراءُ لا تَنْزلُ الأحزانُ ساحَتَها لو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ[١]

أضاف المسّ الأوّل إلى الحجر، ثمّ أضاف المسّ الثاني إلى السرّاء؛ ليكون الكلام متناسباً مفيداً لفائدة جديدة.

وقال ابن جبلة:

مضطربٌ يرتجُّ مِنْ أقطارِهِ كالماءِجالت فيه ريحٌ فاضطربْ

إذا تَظَنَّيْنا بهِ صَدقَنا وإنْ تَظَنَّى فوقَهُ الدَّهْرُ كَذَبْ

لا يبلغ الجَهْدَ به راكبُهُ وَيبلغُ الريحَ به حيثُ طَلَبْ[٢]

ففي كلّ واحد من هذه الأبيات لفظة مكرّرة قد علّق عليها في الأوّل ما لم يُعلّق عليها في الثاني، كما تراه حاصلاً في صورته.

وقال الشيخ صفي الدين الحلّي في بديعيّته:

له السلامُ من اللّهِ السلام وفي دارِ السلامِ تراهُ شافِعَ الأُممِ[٣]

السلام الأُولى بمعنى التسليم، والثانية من أسماء اللّه الحسنى، والثالثة بمعنى الجنّة.

وقال الشاعر:

راقبتني العيونُ فيكَ فأشْفَقَتْ وَلَمْ أخلُ قطُّ من إشفاقِ

ورأيتُ العذول يَحْسِدُني فيك مجدّاً يا أنفس الأعلاقِ

فتمنيتُ أن تكوني بعيداً والذي بيننا من الودِّ باقِ

رُبَّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هجرٍ وفراقٍ يكونُ خوفَ فراقِ

---

١. نهاية الأرب، ج٧، ص١٤١؛ الطراز، ج٣، ص٨٢.

٢. كتاب الطراز، ج٣، ص٨٣.

٣. ديوانه، ص٥٧٣؛ شرح الكافية البديعية، ص١٤٨؛ نفحات الازهار، ص١٤٢؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٤٨.

جمالية الإرصاد:

الإرصاد في الواقع من أزهى أنواع التكرير، وأدلها على الترابط النفسي لمدلول التعبير، وله تهشّ نفس السامع بالتحريك من المتكلّم، وانتظار صدق الحدس بما تقدّر من اللفظ، فإذا ما توقّع المتلقي الكلام اللاحق بناء على إدراكه للسابق، ثمّ صح توقّعه وتحقّق حدسُه، أدركته ـ لا محالة ـ حالٌ من الرضى والبهجة، هي حال من توقّع فأصاب، وتفرّس فصحّ تفرّسه.

يؤيّد مذهبنا ذلك المبدأ البلاغي العربي: خيرُ الكلام مادلّ بعضه على بعض، ولأمر من هذا القبيل افتخر ابن نباتة السعدي بذلك حين قال:

خُذْها إذا أُنشِدتْ في القومِ من طَرَب ... صدورُها عُرِفَت منها قوافيها

ينسى لها الراكبُ العجلانُ حاجتَهُ ... ويصبحُ الحاسدُ الغضبان يطويها[1]

ومن خلال استعراضنا للشواهد نجد أنّ أكثرها جاءت لتقرير المعاني والأحكام بالتذييل أو التعليل أو الاستدراك أو غير هذا ممّا لا يخفى على الدارس عن أُختها بالسجع مع تساوي الجمل في الإيقاع، فالإيقاع الداخلي تخلّل الكلام كلّه وانتظمت به جميع أجزائه. وهذا الإيقاع نابع من اختيار الألفاظ ذات الوقع.

وقالت جنوب أُخت عمروٍ ذي الكَلْبِ:

فأُقْسِمُ يا عَمْرُو لو نَبَّهاك ... إذاً نَبّها مِنْكَ داءً عُضَالا

إذاً نَبَّها لَيْثَ عِرِّيسَةٍ ... مُفيتاً مُفِيداً نُفُوساً وَمَالا

ففي البيت الأوّل تسهيم على المعنى؛ لأن «داءً» أقوى من أيّ لفظ آخر يوضع مكانه، واللفظ الذي سهم أو أرصد هو: «نَبّه»، أمّا البيت الثاني، فإنّ الشطر الأوّل منه نبّه إلى ألفاظ الشطر الثاني[2].

❊ ❊ ❊

---

١. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٥٧٥.

٢. العمدة، ج١، ص٦١٦؛ شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٥٨٢، وانظر: الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٥٧٥.

التورية

وهي لغةً: مصدر «ورّى» الخبر إذا ستره، وأظهر غيره.

واصطلاحاً: هي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد، أمّا القريب، فظاهر غير مقصود، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، وأمّا البعيد، فدلالة اللفظ عليه خفيّة، فيتوهّم السامع أنّه يريد المعنى القريب، والحقيقة أنّه يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره، وتستره عن غير المتيقّظ الفطن.

ويظهر من تعريف التورية أنّ لهذا الفنّ من فنون البديع ركنين معنويين:

أوّلهما: المورَّى به وهو المعنى القريب للّفظ الذي لا يقصد إليه المتكلّم، ويستر به سواه.

ثانيهما:المورَّى عنه وهو المعنيّ البعيد المستور الذي يعنيه المتكلّم.

وجمال التورية يكمن في كونها تحتاج إلى شيء من الفطنة والذكاء، ليرد القارئ أو السامع المعنى القريب، ويلتفت إلى المعنى البعيد، وفيها ما فيها من المفاجأة والإثارة، وفيها ما فيها من الحرّيّة في التعبير حيال ضغط الرقيب.

وهي فنّ يرع فيه شعراء مصر والشام في القرن السابع والثامن من الهجرة، كالقاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وسراج الدين الورّاق، وابن العفيف، وابن نباتة، وغيرهم، فأتوا فيه بالعجيب الرائع، والطرافة والرشاقة، وروح الفكاهة الذي يدلّ

على صفاء تلك الطباع، والقدرة على التحكّم بأساليب الكلام.

فهذا ابن سناء الملك المصري (ت ٦٠٨هـ،ق) يقول متغزّلاً:

أَمَا واللّه لولا خَوْفُ سَخْطِكْ   لَهانَ عَليَّ ما أَلْقَى بِرَهْطِكْ
مَلَكْتِ الخافِقَينِ فَتهْتِ عُجْباً   وَلَيْسَ هُما سِوى قَلْبي وَقُرْطِكْ[1]

فكلمة «الخافقين» لها معنيان: قريب، وهو المشرق والمغرب، وقرينتهما «ملكت»، أي حكمت وتحكمت فيَّ، ويؤيده لفظ «التيه»، وهذا غير مقصود، ومعنى آخر بعيد ـ مقصود ـ وهو: «القلب والقرط»، وقرينتهما تكمن في أنّ القلب والقرط من طبيعتهما الخفقان، فقلبه يخفق كلّما رآها، وقرطها يخفق كلّما تحرّكت، وكأنّ القرط موكّل بسرعة خفقان القلب.

ومن روائع القاضي الفاضل:

بِاللّهِ قُلْ للنِّيلِ عنّي إنَّني   لم أَشفِ من ماءِ الفُراتِ غليلا
وَسَلِ الفؤادَ فإنّهُ لي شاهِدٌ   إنْ كانَ طرفي بالبكاءِ بخيلا
يا قلبُ كَمْ خلَّفتَ ثمَّ بُثَيْنَةً   وأظنُّ صَبْرَكَ أنْ يكونَ جَميلا[2]

فكلمة «جميلا» في البيت الأخير لها معنيان: أحدهما: هو جميل بن مَعْمَر العُذري الشاعر الذي شُهِر بحبّه لبثينة، وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن، وقد مهّد له الشاعر باسم الحبيبة «بثينة»، وثانيهما: هو «الصبر الجميل» الذي حكاه القرآن الكريم على لسان يعقوب عليه السلام حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[3]، وهو المعنى البعيد الذي أراده الشاعر، ولكنه تلطّف فورّى عنه، وستره بالمعنى القريب.

وقال ابن حجّة: «كانت خواطر المتقدّمين عن نظم التورية بمعزل، وأفكارهم

١. البيتان في ديوان المصري، ج٢، ص٤١٥؛ خزانة الأدب، ج٣، ص١٩٧؛ نفحات الازهار، ص١٩٤؛ ديوان الصبابة، ص٩٠.
٢. ديوان القاضي الفاضل، ص٩١، المصدر الثاني، ج٣، ص١٩٦.
٣. يوسف: ١٨.

ـمع صحّتها ـ ما خيمت عليها بمنزل، ولكنها ربّما وقعت لهم عفواً من غير قصد؛ لأنّهم على كلّ حال ولاة هذا الشأن، وأدلّة هذا الركب، وقيل: إنّ أوّل من كشف غطاها، وجلا ظلمة أشكالها، أبو الطيب المتنبّي»[1].

واتّخذ القاضي عبد الجبّار (ت ٤١٥ هـ.ق) التورية وسيلة من وسائل الدفاع عن الوحدانيّة، ودفع قول المجسمّة في اللّه تبارك وتعالى، وذلك في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[2،3].

وقد بذل القاضي جهداً كبيراً لإثبات أنّ الاستواء هنا ليس على حقيقته، بل على معناه الآخر: الاستيلاء والاقتدار، وكرّر هذا الجهد مع كلّ الآيات التي ورد فيها لفظ «استوى».

وجعل ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ.ق) التورية نوعاً من أنواع الإشارة[4]، وإن كانت التورية عنده ليست هي التورية المعروفة عند البلاغيين المتأخّرين.

ولعلّ أُسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ.ق) هو أوّل من عرّفها تعريفاً دقيقاً، وبيّن معناها، واختار لها الشواهد الأدبيّة الجيّدة، وأفرد لها باباً مستقلاً[5]. أمّا السكّاكي (ت ٦٢٦ هـ.ق) فسمّاها بـ«التوجيه»، وعرّفها بإيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين...، يقول: «وللمتشابهات من القرآن مدخل في هذا النوع باعتبار»[6]، ويعتبر ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ.ق) التورية من «المغالطات المعنوية»[7]، وأمّا ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ.ق) فيطلق عليها «التوجيه» أيضاً، ويستشهد بقوله تعالى:

---

١. خزانة الأدب، ج٣، ص١٨٧.

٢. البقرة: ٢٩.

٣. انظر: شرح الأصول الخمسة، ص ٢٠١، وانظر: البديع تأصيل وتجديد، ص ٢٠١.

٤. العمدة، ج١، ص٣١١.

٥. البديع في نقد الشعر، ص٩٧، يقول: التورية: هي أن تكون الكلمة بمعنيين، فتريد أحدهما، فتورّي عنه بالآخر.

٦. المفتاح، ص١٨٠.

٧. المثل السائر، ج٣، ص٧٦.

﴿قَالُوا۟ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[١]، ويقول: «فانظر إلى كـون الضـلال هـاهنا يحتمل الحبّ وضدّ الهدى، وكيف استعمله أولاد يعقوبﷺ ضدّ الهدى، فورُّوا به عن الحبّ ليعلم المراد ما أهملوا لا ما استعملوا»[٢].

وهكذا نرى أنّ مصطلح «التورية» من المصطلحات التي استقرّت سريعاً بالرغم من اضطراب دائرتها بين السعة المفرطة حتى تدخل الكناية، والضيق المناسب حتى يحتويها هي والاستخدام، وتظلّ الشواهد تتردّد، ومـعها الإضـافات، حـتى يـأتي القزويني (ت ٧٣٩هـ.ق) ويطلق عليها «التورية» و«الإيهام» أيـضاً، ويـقسّمها إلى ضربين، أو قل: يقسّم الشواهد إلى ضربين: تورية مجرّدة، وأُخرى مرشّحة، وتابعه شرّاحه، وكلّها قريب من قريب[٣].

وممّا مثّل له علماء البديع: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٤].

فإنّه أُريد بالاستواءمعناه البعيد، وهـو الاسـتيلاء بـالقهر والغـلبة، وورّي عـنه بالقريب، وهو الاستقرار.

والتحقيق أنّ ذلك استعارة تمثيليّة، بأن شبّهت الهيئة الحاصلة من تصرّف المولى في الممكنات بالإيجاد والإفناءبالهيئة الحاصلة من استقرار المـلك عـلى عـرشه، بجامع أنّ كلاً صادر على الملك التامّ، واستعير التركيب الدالّ على المشبّه به للمشبّه على طريق الاستعارة التمثيليّة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[٥].

---

١. كلمة «ضلال» تحتمل معنيين: ضلال ضد الهدى، وقرينته قول يعقوبﷺ: ﴿...إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ يوسف: ٩٤، ومعنى آخر بعيد، وهو حب يعقوبﷺ لابنه يوسف، وقرينته: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف: ٨. والآية في يوسف: ٩٥.

٢. البديع تأصيل وتجديد، ص٢٠٤ و ٢٠٥.

٣. بديع القرآن، ص ١٠٢.

٤. طه: ٣.

٥. الذاريات: ٤٧.

فإنّه أريد بـ«أيد» معناها البعيد، وهو القدرة، مع اقترانها بما يلائم القريب، وهي اليد ـ أحد الأطراف العليا من الإنسان ـ المخصوصة بالبناء.

يقول السبكي: فكأنّ البناء بالأيدي جعل مرادفاً لنهاية القوّة في البناء، والنهاية العظيمة في تركيب الشيء، وقد جزم الزمخشري وغيره بأنّ المراد في الأيد المفرد، وهو القوّة.

وقيل: إطلاق اليد على القدرة مجاز مرسل، والمراد بها هنا المعنى البعيد الذي هو القوة والقدرة، والقرينة استحالة الجارحة على اللّه، فتكون تورية، وإن كانت مجازاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[١].

أراد بقوله: «جرحتم» معناه البعيد، وهو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سمّيت التورية «إيهاماً» و «تخييلاً».

وقال النبيّ ﷺ لأزواجه: «أَسْرَعُكُنَّ لحاقاً بي أَطْوَلُكنَّ يَداً».[٢]

إنهنّ لمّا سمعن منه ﷺ هذا القول أخذن قصبة لقياس أيديهنّ، ونظرن أيّهنّ أطول يداً، إلى أن توفّيت زينب بنت جحش الأسدي، وهي أوّل من توفّي منهنّ، وكانت كثيرة المعروف، ووافرة الكرم، فعلمنّ بأنّه ﷺ إنّما أراد بطول اليد: كثرة البرّ، وبذل الوفر، وهو معناه البعيد.

وقال النبيّ ﷺ: «إنّما نحنُ حَفْنَةٌ من حَفَنات الله».[٣]

فإنّ المعنى القريب للحفنة هو ملأ الكف، وأُريد المعنى البعيد، أي: ـ نحن على كثرة عددنا ـ قليلون عند اللّه، أو نحن قليلون بالإضافة إلى ملكهِ ورحمته.

ومنه قول النبيّ ﷺ حين سئل عند خروجه إلى بدر: فقيل لهم: ممّن أنتم؟ فلم يُرد

---

١. الأنعام: ٦٠.

٢. رواه البخاري، ج٣، ص٢٢٦ و ٢٢٧؛ ومسلم: برقم ٢٤٥٢، والنسائي، ج٥، ص٦٦ و ٦٧؛ و النهاية، ج٣، ص١٤٥، ينظر: المجازات النبوية: ص ٥٩؛ التبيان للطيّبي، ص٢١٩.

٣. لسان العرب، (حفن)؛ تاج العروس (حفن).

أن يعلم السائل، فقال: من ماء[١].

أراد: أنّا مخلوقون من ماء، فورّى عنه بقبيلة يقال لها ماء.

ومنه ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يزال المنام طائراً حتى يقصّ، فإذا قصّ وقع»[٢].

ففي الكلام توريتان: لفظة طائر، ولفظة يقصّ.

وكقول الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في الأشعث بن قيس: «إنّ أبا هذا كانَ يَنْسجُ الشمالَ باليمين»[٣].

فلفظة «الشمال» قد تكون جمع «شملة»، وهي الكساء يُشتمل به، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو المقصود، وقد تكون بمعنى: اليد اليسرى، وهذا هو المعنى القريب المورّى به، وغير المقصود، ولولا ذكر «اليمين» بعد «الشمال» لما تنبّه السامع لمعنى اليد.

وقال المتنبّي:

بـرَغْمِ شبيبٍ فـارَقَ السَّـيفُ كفَّهُ ... وكـانا عـلى العِـلّاتِ مُـصْطَحِبانِ

كـأنَّ رِقـابَ النـاس قـالَتْ لِسَـيْفِهِ ... رَفِـيقُكَ قَـيْسِيٌّ وأَنْتَ يَـماني[٤]

يريد أن كفّ شبيب وسيفه متنافران، فلا يجتمعان؛ لأنّ شبيباً كان قيسياً، والسيف يقال له يماني، فورّى به عن الرجل المنسوب إلى اليمن، ومعلوم ما بين قيس واليمن من التنافر.

وقال الشابّ الظريف:

قـامَتْ حُـرُوبُ الدَّهْـر مـا ... بـينَ الرِّيـاضِ السُّـنْدُسيَّهْ

وَأَتَتْ بِـأَجْمَعِها لتَـغْـ ... ـزُو رَوْضَـةَ الوَرْدِالجَـنِيَّهْ

---

١. أنوار الربيع، ج ٥، ص٦؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ٤٠؛ المستطرف، ج ١، ص ٤٥؛ نظم الدر، ص٢٥٧.

٢. خزانة الأدب، ج ٣، ص١٨٧.

٣. تهذيب الإيضاح، ج ١، ص ١٠٤.

٤. ديوانه، ج ٤، ص٣٧٣ و ٣٧٤؛ خزانة الأدب، ج ٣، ص١٨٧.

لكِـنَّها انْكَسَـرَت لأنَّ الوَرْ دَ (شَـوْكَـتُـهُ) قَـويّـهْ[١]

فالتورية هنا في كلمة «شوكة»؛ إذ معناها القريبُ: واحدُ الشوك، بدليل التمهيد له بذكر الزَّهر والرِّياض والورد...، ومعناها البعيد: السلطان والسيطرة، وهذا هو المعنى الذي أراده الشاعر.

وقال الشاعر:

فـقالَتْ: رُحْ بـربّك مـن أمـامِي فـقلتُ لهـا: بـربّكِ أنتِ روُحـي

فلفظة «روحي» لها معنيان: قريب، بمعنى: اذهبي، وهـو غـير مـقصود، وبـعيد بمعنى: نسمة الحياة، وهذا المعنى هو المقصود.

والتورية أربعة أنواع:

١. **التورية المجرّدة:** وهي التي لا يُذكر معها شيء من قرائن المورّى به، ولا من قرائن المورّى عنه، أو تذكر قرينة كلّ واحد منهما فتتساقطان.

فالتورية المجرّدة ـ إذن ـ قسمان، والمراد من القرائن في هذا الباب ما يختصّ به أحدهما، ولا يشاركه فيه صاحبه.

فمثال ما كانت التورية فيه مجرّدة لا قرينة فيها ألبتّة ـ كما مثّل له علماء البديع ـ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٢]؛ لأنّ «الاستواء» على معنيين، أحدهما: الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب، وهو المورّى به، وليس المراد، والآخر الاستيلاء بالقهر والغلبة، وهو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو المراد هنا، ولم تذكر قرينة للمورّى به ولا للمورّى عنه.

ومنه قول الشاعر في سنة كان فيها شهر كانون معتدلاً، فأزهرت فـيه الأرض، وكأنّ الشمس فيها من كبرها وطول مدتها صارت خرفة قليلة العقل، فنزلت في برج

---

١. المصدر الثاني، ص٢٧٣؛ و الأبيات في ديوانه، ص٣٥٢ و فيه: «و أتت جيوش الآس لتغزو» و «لكنّها كُسِرت ...».

٢. طه: ٥.

الجدي في أوان الحلول ببرج الحمل:

كـأنَّ نـيسانَ أهْـدى مـن مَـلابسِهِ لشـهرِ كـانونَ أنـواعـاً مِـنَ الحُـلَلِ
أو الغزالةُ مِنْ طولِ المَدى خَـرُفَتْ فَما تُـفرِّقُ بـينَ الجَـدْيِ والحَـمَلِ[١]

فالتورية في هذا البيت في لفظة «الغزالة» التي أراد بها الشمس: «المعنى البعيد المورّى عنه»، لا الحيوان المعروف: «المعنى القريب المورّى به».

ولم يذكر الشاعر أوصاف الشمس كالإشراق والطلوع والغروب... ولا أوصاف الغزالة ـ (أنثى الغزال) ـ من طول العنق، وسرعة الالتفات وسوادالعين....

وكذلك لفظ «الجدي» ولفظ «الحمل»[٢]، فالجدي يطلق على ولد الماعزة وبه ورَّى، وعلى أحد البروج السماوية وعنه ورَّى.

والحمل يطلق على ولد الضائنةِ، وهو الخروف، وبه ورّى، وعلى أحد البروج السماوية، وعنه ورّى.

وليس في البيت شيء من قرائن المورّى به كالرعي والرضاع ونحو ذلك، ولا من قرائن الموری عنه كالطلوع والغروب ونحو ذلك.

ومثال الثاني ـ وهو ما كانت التورية فيه مجردة مع ذكر قرينة المورّى به وقرينة الموری عنه ـ قول بعضهم:

نَـقَلَ الأراكُ بـأنَّ ريـقةَ ثَـغْرها مِنْ خَـمْرةٍمُزِجَتْ بـماءِالكَـوْثرِ
قد صَـحَّ مـا نَـقَل الأراكُ لأنَّـهُ يَرويهِ نقلاً عن صحاحِ الجوهرِ[٣]

و«صحاح الجوهر» يطلق على الكتاب المشهور في اللغة، وهـو المـورّى بـه،

١. تحرير التحبير، ص ٢٧٠؛ خزانة الحموي، ج٣، ص٥٣٥؛ الإيضاح، ص٢٦٧؛ المصباح، ص ٢٦٠؛ نظم الدر، ص٢٥٨.

٢. فإن قيل: إن الغزالة قد رشّحت بذكر «الجدي» و «الحمل»، وهما مرشّحان بالغزالة، فالجواب: أنّ لازم التورية من شرطه أنْ يكون لفظه غير مشترك، والغزالة هنا مشتركة، وكذلك الجدي والحمل. (خزانة الحموي، ج٢، ص٢٤٤).

٣. نظم الدر، ص ٢٥٩.

وقرينته الرواية والنقل، وقد ذكرا في البيت، ويطلق على المَبْسِم، وهو الموَرّى عنه، وقرينته الأراك الذي يُستاك به، وقد ذُكر في البيت.

وقول ابن الوردي:

قـالَتْ إذا كُـنْتَ تَـهْوَى وَصْـلِي وَتَـخْشى نُفُورى
صِـفْ وَرْدَ خَـدّي وإلّا أجُـورُ، نـاديت جُـورى

فقوله: «ورد خدّي» يلائم المراد بقوله: «جوري»، اسم نوع من الورد، وهو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو المقصود، وقوله: «وإلّا أجور» يلائم المراد بفعل الأمر المسند إلى ضمير الواحد، وهو المعنى القريب المورّى به.

٢. التورية المرشحة، وهي التي تذكر معها قرينة الموَرّى به، إمّا قبل لفظ التورية، وإمّا بعده، أو يجتمعان، فهي ـ إذن ـ ثلاثة أقسام.

وسمّيت مرشّحة؛ لأنّ المعنى المرشّح لمّا كان غير مراد صار كأنّه ضعيف فرُشّح، أي قُوّي بالقرينة.

فمثال التورية المرشحة بذكر قرينة المورّى به سابقة قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[1].

فإنّ لفظة «أيدٍ» تصلح للأعضاء، وهو المعنى القريب المورّى به، ورشّح بقرينة سابقة، وهي: البنيان، ويطلق على القوة، وهو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو المراد؛ لأنّ الأوّل في حقّ اللّه تعالى محال، ولكن ورّى به تنبيهاً على تمكّن القوّة.

ومنه قول الشاعر:

حملناهُمْ طُرّاً على الدُّهْمِ بعدما خَلَعْنا عليهِمْ بالطّعانِ ملابسا[2]

ففي كلمة «الدهم» يحتمل معنيان: قريب غير مراد، وهو «الخيول السود»، وبعيد مراد هو «قيود الحديد»، أي قيّدوهم بقيود الحديد، ورشّح التورية بذكر ملائم

---

١. الذاريات: ٤٧.

٢. الإيضاح، ص٢٦٧؛ الاشارات، ص٢١٦؛ خزانة الحموي، ج٣، ص١٨٩؛ شرح الكافية البديعية، ص١٣٥.

المعنى القريب، وهو «الحَمْل» الذي يومي إلى الخيل.

ومثال التورية المرشّحة بذكر قرينة لاحقة قول الشاعر:

سـألتُكَ يـا عـودَ الأراكِ بـما بـهِ   رَقيتَ مَكاناً غيرُكَ الدَّهْرَ مـارقى

وَصَـلْتَ إلى ثَـغْرٍ عَسِيرٍ بـلُوغُهُ   تمرُّ عليهِ في العُذَيبِ وفي النَـقا[1]

فإنَّ «الثغر» يراد به المكان المَخُوف، وهو المورّى به، ورشّحَهُ بـقرينة عسر البلوغ إليه، ويراد به المبسم، وهو المراد المورّى عنه، وأمّا قوله: «في العذيب وفي النقا»، ففيه أيضاً تورية، لكنّها ليست من هذا القسم الذي نحن فيه، بل من المهيأة على ما يأتي إنْ شاء اللّه.

وكقول الصاحب عطاء الملك في امرأة اسمها شجر:

يـا حـبّذا شَجَرٌ وطـيبُ نَسِـيمها   لو أنّـــها تُسْـــقى بـماءٍواحـدِ

ففي «شجر» يحتمل ما له ساق من النبات، وهو المعنى المورّى به، ويحتمل اسم المرأة، وهو المعنى المورّى عنه، وهو المقصود.

ومثال التورية المرشّحة بذكر قرينة سابقة وأُخرى لاحقة تترشّح بها التورية قول حازم يذكر ماءَ الحنايا حين أُصلحت وجرى إلى تونس:

قـد كـانَ كـالنائِمِ حـتّى نَـبّهَتْ   عَيْن المعالي عَيْنَهُ مِنَ الكرى[2]

فإنّ لفظ «العين» من قوله: «عينه» يصلح للعين الناظرة، وهو المورّى به، ورشّحه بقوله: «نبّهت» سابقاً، وبقوله «من الكرى» لاحقاً، ويصلح لعين الماء الجارية، وهو المراد المورّى عنه.

٣. التورية المبيّنة، وهي التي يذكر معها ما يُبيّن المورّى عنه، إمّـا قـبل لفـظ التورية، وإمّا بعده، أو يجتمعان.

---

١. نظم الدر، ص ٢٦١.

٢. المصدر، ص ٢٦٢.

فهي ـ أيضاً ـ ثلاثة أقسام، وسمّيت مبيّنة؛ لأنّ المعنى المورّى عنه لمّا كان بعيداً صار كأنّه خفيّ فَبُيِّنَ، أي أُظهِربما يُذكر معه.

فالمثال الأوّل ـ وهو ما كانت التورية فيه مبينة وما به البيان للمورّى عنه سابق ـ قول البحتري:

وَوراءَ تَشْـــدِيَةِ الوِشـــاةِ مَـــلِيَّةٌ   بالحُسْن تَمْلُحُ في القُلُوبِ وَتَعْذُبُ[١]

حيث أتى الشاعر بكلمة «تـملح» ولهـا مـعنيان: الأوّل: مـن المـلوحة «ضـدّ العذوبة»، وهذا هو المـعنى المـورّى بـه غـير المـقصود، والثـاني: مـن المـلاحة، أي الجمال، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو المقصود، وقد نبّه عليه بقوله «مليّة بالحسن».

وقول الشاعر:

ومُـعْتَقِدٍ أنّ الرّئـاسَةَ فـي الكِـبْرِ   فأصبحَ مَمْقُوتاً بـها وَهْـوَ لا يَـدْري

يَجرُّ ذيـولَ العُـجْبِ طـالِبَ رِفْـعَةٍ   ألا فاعجَبُوا من طالبِ الرَفْعِ بالجَرِّ[٢]

فإنّ «الرفع» و «الجرّ» يطلقان على قسمين من أقسام الإعراب، وهـما ضـدّان على طرفي النقيض، وهما المورّى بهما، وليسا المرادين، ويطلق «الجرّ» على سحب الشيء، و«الرفع» على العلوّ، وهما المرادان المورّى عنهما، وقد نـبّه عـليهما فـي المصراع الأول من البيت بقوله: «يجرّ ذيول العجب طالب رفعة».

والمثال الثاني ـوهو ما كانت التورية فيه مبيّنة إلّا أنّ ما وقع به البيان لاحق ـ كقول الشاعر:

يــــامَنْ رآنـــي بـــالهُمُومِ مُـــطَوّقا   وظَلَلْتُ من فَقْدي غُصوناً في شُجُونْ

أتـلُومُنِي فـي عِـظْمِ نَـوْمي والبكا   شأنُ المُطَوّقِ أنْ يَنُوحَ عـلى غُـصُونْ

---

١. ديوان البحتري، ج ١، ص ٧٢؛ و أورده التبريزي في شرح ديوان أبي‌تمام، ج ١، ص ٣٥؛ خزانة الأدب، ج ٣، ص ١٨٩، و فيه «تسديد الوشاح».

٢. بغية الوعاة، ج ١، ص ١٣٨؛ نظم الدر، ص ٢٦٢.

للفظ «مطوّقاً» معنيان: قريب غير مراد، وهو «محاط العنق»، وبعيد مراد، وهو «الحمامة»، فقد شبّه نفسه بالحمامة، وبيّن المعنى المورّى عنه (الحمامة) حين صرّح بذكره في قوله في البيت الثاني: «شأن المطوق...».

والمثال الثالث ـ وهو أن يؤتى بمبيّنين: أحدهما سابق، والآخر لاحق ـ قول حازم:

أَلوَتْ بِخَفْضِ العيشِ عنّا أَحْرفٌ نواصِبٌ جاءَت لمعنى في السُرى[1]

والشاهد في قوله: «أحرف نواصب»، فإنّه يصلح للحروف الناصبة عند النحاة، وهو المعنى القريب المورّى به، وللنوق التَعِبَة، وهو المرادُ المورّى عنه، وبيّن ذلك أوّلاً بقوله: «ألوَت بخفض العيش»، أي ذهبت براحة العيش، وذلك من صفاتها ـ غالباً ـ عند العرب، وآخراً بقوله: «جاءت لمعنى في السُرى»، وهو السير ليلاً، وهو أيضاًمن صفاتها، ولم تشاركها حروف النصب في معنى واحد منهما.

٤. **التورية المهيأة**، وهي ما كان المعنى البعيد فيها لا يخطر بالبال إلّا بذكر ما ينبّه عليه، وبذلك انفصلت عن المبيّنة؛ لأنّ المعنى البعيد في المبيّنة يخطر بالبال لو قدر عدم ذكر المبيّن.

والتهيئة تكون بلفظ سابق أو لاحق أو باجتماعهما، وقد تكون التورية فيها بلفظين لولا كلّ واحد منهما ما تهيّأت التورية في الآخر، فهي إذن أربعة أقسام.

مثال الأوّل ـ وهو ما وقعت التهيئة فيه بلفظ سابق ـ كقول ابن سناء الملك يمدح المظفّر صاحب حماة:

وأظْهَرْتَ فينا من سَمِيِّكَ سيرةً فأظْهَرْتَ ذاكَ الفَرْضَ من ذلِكَ النَّدْبِ[2]

ففي كلّ من «الفرض» و «الندب» تورية؛ إذ يحتمل أنْ يريد الشرعيين، ويحتمل أنْ يريد المعنى البعيد، وهو أنّ الفرض: «العطاء»، والندب: الرجل السريع في

---

١. نظم الدر، ص ٢٦٤.

٢. خزانة الحموي، ج٣، ص٥٤١؛ و البيت في ديوانه، ج٢، ص١١.

قضاءالحوائج، ولولا ذكر «السيرة» قبلهما لما تهيّأت التورية، ولا فهم من الفرض والندب إلّا الحكمان الشرعيان.

وقول بعضهم يصف وادياً تجري فيه عينان على الحجارة العظيمة:

وَوَادٍ حكى الخنساءَلا في شُجُونها ولكن له عينان تجري على صَخْرِ[1]

والشاهد في «صخر»، فإنّه صادق على الحجارة العظيمة، وهو الموّرى عنه، وعلى «صخر»: اسم رجل هو أخو الخنساء الشاعرة، وهو الموّرى به، ولولا ذكر الخنساء قبله لما صحّت التورية به؛ إذ لا يخطر ببال. واكتفى الشاعر في هذا البيت في قوله «تجري» بضمير إحدى العينين ولم يقل: تجريان لتلازمهما.

والثاني ـ وهو ما وقعت التهيئة فيه بلفظ لاحق ـ قول ابن أبي الربيع:

لولا التَطيّرُ بالخلافِ وَأنّهُم قالوا مريضٌ لا يَعُودُ مَريضا

لقضيتُ نحباً في فنائِكَ خِدْمةً لأكُونَ مَنْدُوباً قَضىً مَفْروضا[2]

ففي لفظة «مندوب» تورية؛ إذ يحتمل أن يريد الشاعر المعنى القريب غير المراد، وهو الميت الذي يبكى عليه، ولولا ذكر «المفروض» بعد كلمة «المندوب» لم ينتبه المتلقي لمعنى المندوب.

والثالث ـ وهو أنْ يؤتى بلفظين مهيّأين أحدهما سابق والآخر لاحق ـ كقول الشاعر.

وَلَمّا ندبتَ الجيشَ للغزوِ جاهِداً أقَمتَ لهم في الفرضِ سُنَّةَ مَنْ مَضى[3]

والشاهد في لفظ «الفرض»، فإنّه يصدق على ما يفرض من العطاءللجند، وهو المراد الموّرى عنه، ويصلح لأحد الأحكام الشرعيّة، وهو الموّرى به، ولولا ذكر

---

١. نظم الدر، ص ٢٦٤.

٢. خزانة الأدب، ج٣، ص٥٤٢؛ شروح التلخيص، ج٤، ص٣٢٦؛ المصباح، ص ٢٦١؛ نظم الدر، ص٢٦٥؛ الايضاح، ص٢٦٧؛ الاشارات، ص٢١٦.

٣. نظم الدر، ص٢٦٦.

«الندب» قبله و «السنة» بعده ما تهيّأت التورية بالحكم الشرعي؛ لأنّ الفرض إذا ذكر مقارناً للجيش لا يفهم منه بديهة إلّا العطاء.

الرابع ـ وهو ما تهيّأت فيه التورية بين لفظين لولا كلٌّ واحد منهما ما تهيّأت في الآخر ـ قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي حين تزوّج سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل: رجل من اليمن اسمه سُهيل، الثريا بنت عليّ بن عبد اللّه بن الحارث بن عبد شمس، وكان مستقرّها بالشام:

أَيُّها المُنْكِحُ الثُّريّا سُهَيلاً   عَمْرُكَ اللّه كيفَ يلتقيانِ
هِيَ شاميّةٌ إذا ما اسْتَقَلَّتْ   وسُهَيلٌ إذا استقلّ يمانى[1]

فالتورية في اللفظين: الثريّا وسهيل، فالأُولى لها معنيان:

أ) بنت عليّ بن عبد اللّه بن الحارث بن أُميّة، (وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه والمقصود).

ب) نجم الثريّا، (وهذا هو المعنى القريب المورّى به وغير المقصود).

ولفظة «سهيل» لها معنيان أيضاً:

أ) ابن عبد الرحمن بن عوف اليماني، «وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه والمقصود».

ب) النجم المعروف بـ «سهيل» «وهذا هو المعنى القريب المورّى به وغير المقصود».

الفرق بين الجناس والتورية:

١. أنّ الجناس لابدّ فيه من تكرار الكلمة مرتين، فتذكر مرة بمعنى، ثمّ تعاد

---

١. ديوانه، ص٥٠٣؛ تحرير التحبير، ص٢٦٨؛ خزانة الأدب، ج٣، ص٥٤٣؛ العمدة، ج١، ص٤٧٧؛ المعارف، ص٢٣٩؛ نظم الدر، ص ٢٦٦؛ شرح عقود الجمان، ج٢، ص٩٨ و ٩٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣١؛ المصباح، ص٢٥٤.

بمعنى آخر، أمّا التورية فلا تكرّر الكلمة فيها.

٢. أنّ المعنيين في الجناس سواء من حيث القرب والبعد، أمّا في التورية فأحد المعنيين قريب متبادر إلى الذهن، وثانيهما بعيد خفيّ.

٣. أنّ المعنيين مرادان في الجناس، أمّا في التورية، فأحد المعنيين خاصّة هو المراد، فمثلاً تقول في التورية: حيّرتني رؤية الأطلال، فخاطبتها وكان دمعي سائلاً، وتقول في الجناس: كم وقف على الأطلال من «سائل» بدمع «سائل».

الفرق بين التورية، والمجاز، والكناية:

لا يعتبر بين معنيي التورية لزوم الانتقال من أحدهما إلى الآخر، ولا علاقة بينهما، بخلاف المجاز والكناية، وإن كانت التورية تشبه تعريف المجاز عموماً، وتشبه تعريف الكناية خصوصاً، ففي كليهما يقال شيء ويقصد غيره.

❊ ❊ ❊

التوجيه أو الإيهام

التوجيه: مصدر وجّهه إلى كذا توجيهاً، كما يقال: وجّهت وجهي للّه سبحانه، وقد يقال: وجّهت إليك: بمعنى توجّهت لازماً، وأمّا توجّه: فمصدره «التوجيه»، وهذا أمر قياسي، ولا يحتاج فيه إلى سماع[1].

والإيهام: من الوهم، وهو من خطرات القلب، وتَوَهّم الشيء تخيّله وتمثّله كان في الوجود أو لم يكن.

ووهمت في الشيء: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره ويسمّى محتمل الضدّين، وهو إيراد الكلام محتملاً لوجهين على السواء. وأدخله جماعة في التورية، وليس منها، والفرق بينهما من وجهين:

أحدهما: أنّ التورية تكون باللفظة المشتركة، والتوجيه باللفظ المصطلح عليه.

والثاني: أنّ التورية تكون باللفظة الواحدة، والتوجيه لا يصحّ إلّا بعدّة ألفاظ متلائمة[2].

ويرى المصري وتبعه الحموي أنّ تسمية التوجيه بالإيهام أليق، وكذلك ذكر الحموي أنّ التورية يقال لها: الإيهام والتوجيه والتخييل، والتورية أولى في التسمية؛ لقربها من مطابقة المُسمّى، لأنّها مصدر ورّيت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره،

---

١. أنوار الربيع، ج٣، ص١٤٣.

٢. المصدر، ص١٧٨.

وسُمّيت «إيهاماً» لأنّ المستمع يتوهّم لأوّل مرّة أنّ المتكلّم يريد المعنى القريب، وليس كذلك[١].

وعرّف السكّاكي التوجيه بأنّه: «إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين»[٢].

وذكر أنّ متشابهات القرآن من التوجيه باعتبار، وهو احتمال تلك المتشابهات في الجملة لوجهين مختلفين، وتفارق تلك المتشابهات التوجيه باعتبار آخر، وهو عدم استواءالاحتمالين، أي أنّ أحد المعنيين المتشابهين قريب، وهو غير مراد، والآخر بعيد، وهو المراد بالقرينة[٣].

وقبله ذكر الرازي في تعريف الإيهام: «هو أن يكون للفظ معنيان: أحدهما قريب، والآخر بعيد، فالسامع يسبق فهمه إلى القريب، مع أن المراد هو ذلك البعيد، وهذا إنما يحسُن إذا كان الغرض تصوير ذلك المعنى البعيد بالمعنى الظاهر، وأكثر المتشابهات من هذا الجنس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾»[٤].

ومعلوم أنّ متشابهات القرآن من التورية، وتقدّم توضيح الفرق بين التورية والتوجيه.

وعرّف القزويني التوجيه بمثل ما عرّفه السكّاكي[٥]، وأضاف إليه تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ...﴾[٦]، نقلاً عن الزمخشري الذي

---

١. خزانة الأدب، ج ٢، ص ١١٠؛ أنوار الربيع، ج ٥، ص ٥.

٢. المفتاح، ص ١٨٠.

٣. ويجوز أن يكون وجه المفارقة هو أنّ المعنيين في المتشابهات لا يجب تضادهما؛ إذ يجوز اجتماعهما، كالقدرة واليد بمعنى الجارحة، بخلاف التوجيه فيشترط فيه تضاد المعنيين.

٤. نهاية الإيجاز، ص ٢٩١. الآية في الزمر: ٦٧.

٥. الإيضاح، ص ٢٨٤.

٦. النساء: ٤٦.

سمّاه «ذا الوجهين»[١].

وقد التفت إلى هذا الأُسلوب قبلهم الفرّاء ـ وإن لم يسمّه ـ عند تفسيره لهذه الآية[٢]. وخلاصة ما قاله الفرّاءوالزمخشري بصدد الآية: أنّ «اسمع غير مسمع» أي: اسمع ما نقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشرّ، وأصله للخير أي لا سمعت مكروهاً، ولكنّ اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسولﷺ، أي لا أسمعك اللّه، وهو الدعاء بالصمم أو الموت، وكذا قوله «راعنا»، وهي كلمة باليهوديّة للشتم من الرعونة، وهي الحمق، فكانوا يسخرون ويهزؤون بالنبيّﷺ، ويكلّمونه بكلام محتمل الوجهين ينوون به الشتيمة والإهانة، ويظهرون به التوقير والإكرام.

وسار على خطى القزويني شراح التلخيص[٣].

وسمّى الوطواط التوجيه بـ«المحتمل للضدين»[٤]، وقال: «الإيهام في اللغة بمعنى التخييل، ولذلك يسمّون هذه الصنعة بالتخييل أيضاً، وتكون أَنْ يذكر الكاتب أو الشاعر في نثره أو نظمه ألفاظاً يكون لها معنيان، أحدهما قريب والآخر غريب، فإذا سمعها السامع انصرف خاطره إلى المعنى القريب، بينما يكون المراد منها هو المعنى الغريب»[٥]، ومثّل له بقول أبي العلاء:

إذا صَدَقَ الجدُّ افْتَرى العَمُّ للفَتى مكارِمَ لاتكَرى وإنْ كَذَبَ الخالُ

فقوله: «الجد» بقصد الخطّ و«العمَ» هو الجماعة، ولفظة «الخال» تعني مَخِيلة السّحاب، وهي ما يرى فيها من علامة المطر[٦].

١. الكشاف، ج١، ص٥١٧.
٢. معاني القرآن، ص٦٩ و ٧٠.
٣. شروح التلخيص، ج٤، ص٤٠١.
٤. حدائق السحر، ص١٣٢.
٥. المصدر، ص ١٣٥.
٦. شرح سقط الزند، ج٣، ص١٢٦٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣١، تخفى بدل تكرى.

وعرّفه العلوى[١] بمثل تعريف السكّاكي والقزويني.

وكذلك ذهب الحلبي والنويري والسيوطي إلى أنّ الإيهام هو التخييل أو التورية[٢].

وهكذا نجد الخلط في المصطلحات حتى نرى أنّ المصري يسمّي التوجيه «توجّعاً»[٣] في بعض الموارد، ويذكر الزركشي في مبحث التورية أنّها تسمّى الإيهام والمغالطة والتوجيه[٤]، وسبب ذلك عدم استقرار المصطلحات في ذلك الزمان، وطغيان التفنّن في تنوّع المسمّيات لإثبات المهارة والصنعة.

فالتوجيه هو الإيهام لا فرق بينهما، كما في قوله تعالى لموسى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾[٥].

ففي قوله: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ إيهام لأمرين متضادّين:

أوّلهما: استصغار أمرها، أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العويد الفرد الصغير الذي بيدك، فإنّه بقدرة اللّه تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها.

وثانيهما: تعظيم أمرها، أي لاتعبأ بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة، فإنّ في يمينك شيئاً هو أعظم منها كلّها، فألقها تمحقها، وتطح بها بإذن اللّه.

ومنه قول الرسولﷺ: «مَنْ جُعِلَ قاضياً فقد ذُبِحَ بغير سكّين»[٦].

---

١. الطراز، ج٣، ص١٣٦.

٢. حسن التوسل، ص٢٤٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣١؛ الإتقان، ج٢، ص٨٣؛ شرح عقود الجمان، ص١١٢.

٣. تحرير التحبير، ص٢٦٨.

٤. البرهان، ج٣، ص٤٤٥. قال الزركشي في باب التورية: «وتُسمّى الإيهام والتّخييل والمغالطة والتوجيه»، وعرّفها كتعريف الإيهام، وفرّق بينها وبين الاستخدام على أنّها استعمال المعنيين في اللفظ وإهمال الآخر، بينما الاستخدام استعمالهما معاً بقرينتين.

وقال: «إنّ المشترك إن استعمل في مفهومين معاً فهو الاستخدام، وإن أُريد أحدهما مع لمح الآخر باطناً فهو التورية». (البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٤٩٣ و ٤٩٤).

٥. طه: ٦٩.

٦. المعجم المفهرس، ج٢، ص٤٩٥؛ نظم الدرر، ص ٢٥٠.

فإنّ الكلام مُوجّه إلى ما يتحمّله القاضي من مشقّة القيام بحقوق الخصُوم، والنظر فيها بما هو مصلحة لهم، فأَشبه في تكلّف هذه المشقّة من ذُبِحَ بغير سكّين، وإلى معنىٰ أنّه لا يَسْلَمُ ـ غالباً ـ من الحَيْفِ والظلم والرُشىٰ، فيقع بذلك في أعظم الهلاك كمن ذُبح بغير سكّين.

ومنه قول النبيّ ﷺ ـ وقد ذكر عنده سريح بن الحضرمي، وهو من الصحابة ـ: «ذاك رجل لا يتوسّد القرآن».

فيحتمل وجهين:

أحدهما: المدح، وهو أنّه لا ينام الليل حتى يتوسّد القرآن معه، فيكون مدحاً.

والثاني: الذمّ، وهو أنّه ينام ولا يتوسّده معه، أي لا يحفظه، فيكون ذماً.

وقول الشاعر:

ويرغبُ أنْ يبني المعاليَ خالةٌ ... ويرغبُ أن يرضىٰ صَنِيعَ الألائمِ

فالبيت يحتمل المدح والذمّ؛ لأنّه إن قدّر «في» أولاً و «عن» ثانياً فمدح، وإن عكس فذمّ؛ إذ يقال:رغب فيه ورغب عنه.

ومنه قول المتنبّي في مدح كافور:

ويغنيكَ عمّا ينسب الناسُ أنّهُ ... إليك تناهىٰ المكرماتُ وتُنْسَبُ

فقد يريد به المدح، أو السخريّة، أي أنّه لا نسب لكافور.

هذا وحكي أنّه رُفع غلامان إلى بعض الولاة، فاستحسن سمتهما، فسأل عن نسبهما، فقال أحدُهُما:

أَنا ابنُ مَن ذَلَّتِ الرّقابُ لَهُ ... مِنُ بينِ مخْزُومِهَا وَهَاشِمِها

تَأْتِيهِ طَوْعاً إليهِ خاضِعةً ... يَأخذُ مِنْ مالِها ومِنْ دَمِهَا

وقال الآخر:

أَنا ابنُ الذي لا يَنْزِلُ الأَرضَ قِدْرُهُ ... وإنْ نَزَلَتْ يَوْماً فَسَوفَ تَعُودُ

تَرَى النّاسَ أَفْوَاجاً إلى ضوءِ نارِهِ ... فَمِنْهُم قِيامٌ حَوْلَها وَقُعُودُ

فظنّ أنّ الأوّل من أبناء الملوك، وأنّ الثاني من أبناء الكرام، فقال لأعوانه: خلّوا عنهما، فسأل عنهما بعد ذهابهما، فقيل: ابنا حجّام، وطبّاخ[١].

وقال الشاعر:

وللّــهِ سِــرٌّ فــي عُـلاكَ وإنّـما ... كلامُ العِدا ضَرْبٌ مِنَ الهَـذَيانِ

فهو يحتمل المدح والذمّ في قوله: وللّه سرّ في علاك.

ومنه ما يحكي أنّ أعجمياً سأل ابن الجوزي بقوله: أيّ الرجلين أفضل: أبو بكر، أم علي؟ فقال ابن الجوزي: من كانت ابنته تحته.

فالضمير الأوّل «ابنته» إن عاد على «من»، وابنته عائشة، والضـمير الثـاني أي ضمير «تحته» يرجع إلى النبيّ ﷺ، فهو تفضيل لأبي بكر، وإن عاد الضمير الثـاني «تحته» على «من»، أي لـ «علي»، والأوّل على النبيّ ﷺ، وابنته فاطمة،فهو تفضيل لعليّ[٢].

وسأل الحجاج سعيد بن جبير عن نفسه، فقال: «أنت قاسطٌ عادلٌ». فقال القوم: ما أحسن ما قال، حسبوا أنّه يصفه بالقسط والعدل، فقال الحجّاج: يـا جـهلة إنّـه سمّاني ظالماً مشركاً، ثمّ تلا له قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٤].

---

١. التبيان للطيّبي، ص٣٠٢؛ جمع الجوامع، ص٢٣٩؛ المنتخب، ص٥٦؛ الكناية والتعريض، ص٤٦.

٢. أي أنّ الأوّل فيه ضمير «ابنته» لأبي بكر، وضمير «تحته» لرسول اللّه ﷺ، والثاني فيه ضمير «ابنته» لرسول اللّه، وضمير «تحته» لعليّ عليه السلام.

وإنّما جاء هذا التوجيه في الحقيقة من لفظ «مَنْ»، فإنّها على المعنى الأوّل واقعة على أبي بكر، وعـلى المـعنى الثاني واقعة على الإمام عليّ عليه السلام.

الرواية في: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٢٣ مع ترجمة ابن الجوزي، المستطرف، ج١، ص٤٥؛ نظم الدر، ص ٢٥٤؛ البديع في ضوء أساليب القرآن: عن زهر الربيع، ص١٤٩.

٣. الجنّ: ١٥.

٤. التبيان للطيّبي، ص٣٠١؛ الكشاف، ج٤، ص١٦٩. و الآية في الأنعام: ١.

وأمّا مصطلح الإبهام فلم يفرّق البلاغيون بينه وبين الإيهام، فذكر المصري أنّ الإبهام: «أنْ يقول المتكلّم كلاماً يحتمل معنيين متضادّين لا يتميّز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه ما يحصل التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصدا»[١].

وسار البلاغيون على خطى المصري في التسمية والتعريف[٢]، وعقد العلوي فصلاً للإبهام والتفسير، وقال: «إنّ المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مُبهماً، فإنّه يفيده بلاغةً، ويكسبهُ إعجاباً وفخامةً؛ وذلك لأنّه إذا قرع السمع على جهة الإبهام، فإنّ السامع له يذهب في إبهامه كلّ مذهب...»، وأضاف: «إنّ الإبهام يُوقّع السامع في حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه، فلا تزال نفسه تنزع إليه، وتشتاق إلى معرفته، والاطّلاع على كُنه حقيقته»[٣].

ومن أمثله ذلك في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٤].

ففي إبهام فاعل غشيهم مبالغة وتعظيم لما أصابهم من اليمّ، مع إيجاز اللفظ، أي: علاهم وغمرهم من الأمر الهائل الذي لايدرك كنهه ولايسير غوره إلّا اللّه، وكذلك «من» في قوله: «من اليم» للتبعيض، أي: علاهم وسترهم من ماء البحر قدر ما أغرقهم، فيكون الإبهام للتحقير[٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۞ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[٦].

فهذه أبلغ من الآية التي قبلها؛ لأنّ إبهامها أكثر، فلهذا كان أبلغ وأوقع، فإنّه قال في الأُولى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، واليمُّ هو البحر، فصار الذي أصابهم من الألم

---

١. بديع القرآن، ص ٣٠٦؛ تحرير التحبير، ص ٥٩٦.

٢. خزانة الأدب، ج ١، ص٣٠٨؛ حسن التوسل، ص ٣١١؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧٤؛ نفحات الأزهار، ص ٦.

٣. الطراز، ج ٢، ص٧٨.

٤. طه: ٧٨.

٥. انظر: حاشية شيخ زادة على البيضاوي، ج٣، ص٣٢٧.

٦. النجم: ٥٣ و ٥٤.

والتعب إنّما هو من البحر خاصّة لا من غيره، بخلاف الثانية، فإنّه أبهم فيها الأمر الذي غشيها، ولم يخصّه بجهة دون جهة، وهذا لا محالة يكون أبلغ؛ لأنّ الإنسان يَرْمِي به خاطره فيه كلّ مرمىً، ويذهب به كلّ مذهب.

وممّا يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[١].

فأبهم الأمر في هذه الأُمور الثلاثة: فيما شرح اللّه به صدره من العلوم المُوحاة، وأنّ الفؤاد ما أنكر ما رأى من تلك العجائب الإلهيّة، ثمّ عقّبه بالإنكار عليهم في المُماراة له في الذي رآه؛ وما ذاك إلّا لأنّه قصد تعظيم حالها، وأنّها بلغت في الفخامة مبلغاً لا تدركه العقول، كأنّه قال: أوحى إلى عبده أمراً أيّ أمر[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ...﴾[٣].

والإبهام في قوله تعالىٰ: «ببعض ذنوبهم»؛ وذلك لتعظيم التولي، وإسرافهم في ارتكابه، والمراد أنّ لهم ذنوباً كثيرة واحد منها هو التولّي، وفيه تعظيم الذنوب؛ فإنّ بعضها مهلك فكيف بكلّها؟! واستعمال «بعض» في الإبهام وارد كثيراً في أشعار العرب، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة في معلّقته:

تــرّاكُ أمكــنةٍ إذا لم أرضــهَا   أو يَعْتلقْ بعض النفوس حِمامُها

أراد نفسه، وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام، كأنّه قال: نفساً كبيرة، ونفساً أيّ نفس.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِظُـلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[٤].

---

١. النجم: ٩ ـ ١٢.

٢. الطراز، ج٢، ص٨و ٨١.

٣. المائدة: ٤٩.

٤. النساء: ١٦٠.

الإبهام في قوله: «فبظلمٍ» بالتنوين؛ ليعلم السامع أنّ أيّ نوع من أنواع الظلم يكون سبباً للعقاب في الدنيا قبل الآخرة.

ومن الإيهام أو التوجيه نوع آخر يقع لأحد أمرين: إمّا لامتحان جودة الخاطر، وإمّا لامتحان قوّة الإيمان وضعفه، ومن الأخير قوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1].

فأبهم أشدّ الإبهام، وذلك لاستبعاد تولّي هذا العدد القليل أمر الجمّ الغفير.

وهناك نوع من التوجيه يكون الكلام بحيث يشتمل على مجموعة أو مجموعات من مصطلحات العلوم، أو الفنون، أو الأسماء المتلائمة، ومثاله قول علاء الدين الوداعي:

مِنْ أُمّ بابِكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ   تَرْوِي أحاديثَ ما أوْلَيْتَ مِنْ مِنَنِ
فالعينُ عَنْ قُرّةٍ والكَفُّ عَنْ صِلَةٍ   والقَلْبُ عَنْ جابِرٍ والأُذْنُ عَنْ حَسَنِ

فقرّة هو قرّة بن خالد السدوسي، وأمّا صلة، فهو صلة بن أشيم العدويّ، وأمّا جابر، فهو بن عبد اللّه، وأما الحسن، فهو الحسن البصري، فهناك مناسبة بين القرّة والعين، والصلة والكفّ، والجبر والقلب، والصلة والكفّ، والحسن والسمع[2].

وأمّا التوجيه في قواعد العلوم، فمثاله قول ابن حجّة الحموي في بعض قواعد النحو:

إغراءُ لحظكِ مالي منه تحذيرُ   ولا لتعريفِ وجدي فيكِ تنكيرُ
يا نَصْبُ عيني غرامي كيف أجزمُهُ   والقدَّ مرتفعٌ والشعرُ مجرورُ

وأطلق بعض الدارسين[3] التوجيه على كلّ كلام احتمل معنيين من غير

---

١. المدّثر: ٢٩ و ٣٠.

٢. انظر: خزانة الأدب، ج٢، ص٣٥٤؛ مطالع البدور، ج١، ص١٢٠.

٣. صاحب كتاب نظم الدر والعقيان و هو محمد بن عبدالله التنسي، ص ٢٤٥.

تخصيص[١]. فيتنوّع التوجيه على هذا المذهب إلى ما احتمل معنيين مستحسنين، وإلى ما احتمل معنيين مستقبحين، وإلى ما احتمل معنيين غير حسنين ولا قبيحين، وإلى ما احتمل معنيين مستحسن ومستقبح، وهو المتّفق عليه، وإلى ما احتمل معنيين: أحدهما: مستحسن، والآخر غير مستحسن ولا مستقبح، وإلى ما احتمل معنيين: أحدهما: مستقبح، والآخر غير مستقبح ولا مستحسن، فمجموع ذلك ستّة أنواع، فمثال الأول: قول أبي بكر للذي سأله حين هاجر مع الرسولﷺ وقال: «من هذا الذي أمامَك؟ فقال: هادٍ يهديني السبيل».

فإن «الهادي» يطلق على الدالّ على السبيل المنجية من الهلاك شرعاً ديناً وآخرة، ويطلق على العارف بالبلاد، الدالّ على طرقها الموصلة إلى الأماكن المرادة، وكذلك «السبيل» يُطلق على الطريق الحسّي والمعنوى[٢].

وعن مالك بن أنس قال: «خدمت رسول اللّهﷺ عشر سنين، واللّه ما قال لي: أُفّاً قطّ، ولا قال لشيء: لِمَ فعلت كذا؟ وهلّا فعلت كذا»[٣]. فإنّه موجّه إلى وصف رسول اللّهﷺ بحسن الخلق، وكرم العشرة، وهو الأظهر، وإلى الإخبار عن أنس بالمحافظة بفطنته بحيث لا يفعل إلّا ما يوافق غرض رسول اللّهﷺ ليزكّي نفسه.

ومثال الثاني: قول بعضهم يهجو قاضي بلدة:

لا مثل قاضٍ رأيناهُ ببلدتِنا ... في الجهلِ منه وفي الجَوْرِ الورى حارُوا
فهو من النَّفرِ الأَدْنَيْن مَنْزِلةً ... مِنْ حاكمٍ بسَدُوم عَنْهُ أخبارُ

فإنّ الأدنى موجّه إلى الأقرب، وإلى الأحطّ منزلة، وحاكم سدوم يضرب به المثل في الجور[٤].

---

١. أي إنّ أكثر البيانيين يرون أنّ التوجيه هو إيراد الكلام محتملاً لوجهين متضادّين.

٢. نهاية الأرب، ج٣، ص١٥٩؛ المستطرف، ج١، ص٤٥؛ نظم الدر، ص ٢٤٥.

٣. صحيح مسلم كتاب الفضائل: ٤: ١٨٠٤.

٤. نظم الدر: ص ٢٤٧.

ومثال الثالث: قول الشاعر:

عجبتُ من عينٍ جرى ماؤُها وليس يَسقي النبتَ ذاك الماءُ

فإنّ لفظ «العين» موجه إلى الباصِرة والعنصر، لكن إذا كان جارياً على صخرٍ ونحوه[١].

ومثال الرابع: الأمثلة التي مرّت.

ومثال الخامس: قول النبيّ ﷺ لأزواجه: «أسرَعُكنَّ لحاقاً بي أطولُكنَّ يداً»[٢].

فإنّ قوله: «أطولكنّ يداً» موجّه إلى طول اليد حسّاً، وإلى طولها بالصدقة، وهو الذي ظهر لمّا ماتت زينب ـ رضي الله عنها ـ قبل سائرهنَّ؛ إذ كانت كثيرة الصدقة.

ومثال السادس: قول الشاعر:

في كُلِّ يَومٍ قُوتُهُ ثَوْرٌ وربّما يغلبُه الثَّوْرُ

فإنّ لفظ «ثور» موجّه إلى الحيوان المعروف، وإلى القطعة من الأَقْط[٣].

جمالية التوجيه أو الإيهام

جليّ أنّ هذا الفنّ البديعي يشدّ المتلقّي؛ لأنّه لا يقدّم من محدّدات الدلالة ما يطمئنّ الذهن إلى معنى بعينه، بل يدعه يلوب في حيرة البحث عن الدلالة الحقيقيّة، وينطوي ـ أيضاً ـ على التعجّب المتأتّي من إحساس المتلقّي بأنّ المنشئ قادر على عرض كلام يَشْرِكُهُ هو في معرفة مفرداته، لكنّه يجهل المراد من مركّبه، وفي جبلة الإنسان حبّ للألغاز والمبهمات[٤].

١. المصدر، ص ٢٤٩.
٢. المعجم المفهرس، ج٦، ص٩٩؛ نظم الدر، ص٢٥٢.
٣. نظم الدر، ص٢٥٤. الثور الاولى اللبن المحفف.
٤. الكافي في علوم البلاغة العربية، ج٢، ص ٦١٦ و ٦١٧.

إيهام التأكيد ابتدعه زين الدين بن الوردي، قال ابن معصوم ـ وهو ينقل كلام ابن الوردي ـ: «هو عبارة عن أن يعيد المتكلّم في كلامه كلمة فأكثر مراداً بها غير المعنى الأوّل حتى يتوهّم السامع من أوّل وهلة أنّ الغرض التأكيد، وليس كذلك... ولم أقف عليه في شيء من كتب هذا الفنّ، وإنّما أشار إليه صلاح الدين الصفدي في شرح لامية العجم استطراداً، وقال: إنه في غاية الحسن، ويظنّ السامع من أوّل وهلة أنّه من باب التكرار وتحصيل الحاصل، إلى أن يعيره ذهنه، ويتأمّل معنى الشاعر في ذلك فيرقص طرباً[1]، ومنه قول ابن الوردي.

تَعَشَّقْتُ أَحْوَى الي إليه وَسائِلُ   وإصْلاحُ أحْوالي لَدَيْهِ لَدَيْهِ
أَمُرُّ بِهِ مُسْتَعْطفاً وَمُسَلِّماً   فينقل تَسْلِيمي عَلَيْهِ علَيْهِ

فقوله: «لديه لديه» و «عليه عليه» هو إيهام التوكيد».

والمقصود بالتأكيد في قولهم هو اللفظي الذي يتبع فيه الثاني ما سبقه في حكمه، وليس توثيق المعاني، وتقرير الغرض بالوجه الأعمّ الذي هو ميزة في كلّ ترديد، وقد مثّلوا لإيهام التأكيد بقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[2].

فقوله: «فيه، فيه» هو ايهام التوكيد؛ فإنّ السامع يظنّ قبل التحقيق أنّ تكرير الأوّل بالثاني على الاتباع، وليس كذلك.

ومنه قول أبي نصر الزوزني:

ألا حلَّ بي عَجَبٌ عاجِبُ   تَقاصَرَ وَصْفِىَ عَنْ كُنْهِهِ
رَأيتُ الهلالَ على وَجْهِ مَنْ   رأيتُ الهلالَ على وَجْهِهِ

ولم يذكر من أصحاب البديعيات هذا الفنّ سوىٰ صلاح الدين الصفدي:

---

١. أنوار الربيع، ج٦، ص١٥٩.

٢. التوبة: ١٠٨.

حَـقَّقْتُ إِيـهام تـوكيدي لِـحُبِّهِمُ وَلَـــمْ أَزَلْ مُـــغْرِياً وَجْــــدي

فـقوله: «بـهم بـهم» يـوهم التـوكيد، وليس تـوكيداً؛ إذ «بـهم» الأُولى مـتعلّقة بـ«وجدي»، والثانية بقوله: «مغرياً».

❊ ❊ ❊

الاستخدام

الاستخدام لغةً: مصدر استخدم من الخدمة، وكان ابن منقذ أوّل من عرّفه اصطلاحاً بقوله: «اعلم، أنّ الاستخدام هو أن تكون الكلمة لها معنيان فتحتاج إليها فتذكرها وحدها فتخدم للمعنيين».

وعرّفه المصري: «هو أن يأتي المتكلّم بلفظة لها معنيان ثمّ يأتي بلفظين تتوسط تلك اللفظة بينهما، ويستخدم كلّ لفظة منهما لمعنى من معنيي تلك اللفظة المتقدّمة».

ونقل الحلبي والنويري تعريف المصري.

واختلف تعريف الاستخدام بعد ذلك، حتّى جاء القزويني بتعريف سار عليه معظم البلاغيّين وأصحاب البديعيات، ومراده من الاستخدام هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين يراد به أحدهما، ثمّ يعاد عليه ضمير أو إشارة مع إرادة المعنى الآخر، أو يعاد عليه ضميران يراد بثانيهما غير ما يراد بأوّلهما، سواء كان المعنيان حقيقيين أو مجازيين، أو كان أحدهما حقيقياً والآخر مجازياً[1].

فالأوّل: ـوهو أنْ تستعمل اللفظ بمعنى، وتعيد الضمير عليه بمعنى آخر ـ

---

١. انظر: البديع في نقد الشعر، ص٨٢؛ تحرير التحبير، ص٢٧٥؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٥؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٣؛ جواهر البلاغة، ص٢٦٤؛ أنوار الربيع، ج١، ص٣٠٧؛ شروح التلخيص، ج٤، ص٣٢٦؛ الإيضاح، ص٢٦٨؛ الفوائد لابن قيم الجوزية، ص٢٩٦؛ البديع تأصيل وتجديد، ص١٩٦ و ١٩٧.

كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[١].

أُريد أوّلاً بالشهر «الهلال»، ثمّ أُعيد عليه الضمير «الهاء» في «يصمه»، ويراد به أيّام رمضان.

ومن الشعر العربي قول الشاعر:

أُراعي النَجْمَ في سَيْري إليكُمْ وَيَــرْعاه مِــنَ البــيدا جَــوَادى

فمن معاني كلمة «النجم»: الكوكب والنبات، وقد جاءت أوّلاً في هذا البيت بمعنى الكوكب، لكنّ الشاعر أعاد عليه الضمير «الهاء في يرعاه» بمعنى: النبات.

وكقول الشاعر:

إذا نَزَلاالسَّماءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَــيْناهُ وَإِنْ كــانُوا غِـضابَا[٢]

يصف الشاعر قوّة بأس قومه، وسعة سلطانهم، فأينما نزل المطر ـ ولو بأرض غيرهم ـ فهم يرعون الكلأ الناتج عن المطر على رغمهم، ومن غير رضاهم، فالسماء تحتمل معنيين مجازيين: المطر والنبات «لعلاقة السببية»، فأطلق السماء على الغيث (المطر)مجازاً؛ لأنّه نازل من جهة السماء المعلومة، ثمّ أعاد الضمير على لفظ السماء في قوله «رعيناه» باعتبار المعنى الآخر، وهو النبات؛ لأنّه هو المرعى، فقد أُريد بلفظ السماء معنىً، وأُريد بضميره معنىً آخر.

وقول الشاعر:

وللــغَزالةِ شــيء مِــنْ تَــلفتِهِ وَنورُها مِنْ ضيا خَدّيهِ مُكْتَسبُ

استخدم لفظ الغزالة بمعنى الحيوان المعروف، وأعاد إليه الضمير بمعنى الشمس.

وقول ابن معتوق الموسوي:

تاللّهِ ما ذُكِرَ العَقِيقُ وأهلُهُ إلّا وأجراهُ الغرامُ بمحجرى

---

١. البقرة: ١٨٥.

٢. البديع في البديع: ص ١٢٧، الإيضاح: ص٢٦٨، حسن التوسل: ص٢٦٨. البيت لمعوّد الحكماء، معاوية بن مالك، الحماسة البصرية: ١: ٧٩، المفضليات: ص٣٥٦، نهاية الأرب: ٧: ١٤٤، شروح التلخيص: ٤: ٣٢٧، الصناعتين: ص٢٧٦؛ نظم الدر، ص٢٤٣؛ معاهد التنصيص، ج ٢، ص ٢٦٠.

إذ المراد بالعقيق الذي بظاهر المدينة ببلاد الحجاز، وبالضمير الذي يعود إليه: الدم الأحمر الشبيه بالعقيق.

أو أن يكون بدل الضمير اسم إشارة، كقول الشاعر:

رأى العقيقَ فأجْرَى ذاكَ ناظرُهُ ... متيّمٌ لجَّ في الأشواقِ خاطرُهُ

فالمراد بالعقيق: المكان؛ لأنّه اسم مكان، ثمّ أعاد اسم الإشارة عليه بمعنى: الدم الأحمر الشبيه بالعقيق على الاستعارة.

والثاني: ـ وهو ذكر لفظ له معنيان مثلاً، ثمّ إعادة ضميرين عليه بمعنييه ـ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾[1].

فالصلاة هنا تحتمل أن تكون فعل الصلاة، وموضع الصلاة، فاستخدم الصلاة بلفظ واحد لمعنيين؛ لأنّه قال سبحانه: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾، فدلّ على أنّه أراد موضع الصلاة، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، فدلّ على أنّه فعل الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ...﴾[2].

إنّ لفظة «كتاب» يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم، والكتاب المكتوب، وقد توسّطت بين لفظتي: «أجل» و«يمحو»، فاستخدم أحد مفهوميها ـ وهو الأمد ـ بقرينة ذكر الأجل، واستخدم المفهوم الآخر ـ وهو الكتاب المكتوب ـ بقرينة «يمحو».

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «وَخَلَقَ الآجالَ فأطالَها، وَقَصَّرهَا، وَقَدَّمَها، وَأَخَّرَها»[3].

الأجل قد يطلق على مدّة الشيء، وقد يطلق على زمان حلول الموت، فضمير «أطالها» و «قصّرها» راجع إليه باعتبار المعنى الأوّل مع التزامه الطباق، والضميران الأخيران راجعان إليه باعتبار المعنى الثاني مع التزامه الطباق أيضاً، وراعي بين الطباقين السجع المتوازن.

---

١. النساء: ٤٣.

٢. الرعد: ٣٨ و ٣٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٩١ـ ٨٧.

ومن أقوال أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه الجهادية: «فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَها، وَأَعِدُّوا لَها عُدّتها، فَقَدْ شَبَّ لَظاها، وَعَلا سَناها»[١].

فالضميران الأولان راجعان إلى الحرب باعتبار معناها الحقيقي، وأمّا الضميران الأخيران فراجعان إليها باعتبار المجاز، أي نار الحرب.

ونحو قول البحتري:

فَسَقَى الغَضا والسَّاكنيه وإنْ هُمُ   شَبُّوهُ بَيْنَ جَوَانِح وَضُلُوعِ[٢]

فمن معاني «الغضا»: مكان معيّن بنجد، ونوع من الشجر تمكث به النار وقتاً طويلاً، وقد أعاد الشاعر الضمير (الهاء) في «ساكنيه» إلى المعنى الأوّل (المكان)، ثمّ أعاد الضمير في «شبّوه» إلى الشجر ذي النار الموقدة، وقرينة معنى المكان في «الغضا»: «والساكنيه»، وقرينة معنى النار الموقدة في الغضا: «شبّوه بين جوانح وضلوع».

فالبحتري يدعو للغضا ويدعو لساكنيه بالسقيا والنماء والسعادة؛ لأنّ صاحبته أحد الساكنين؛ ولأنّ الغضا اكتسب من اسم واديهم القدرة على امتلاك الجوانح، وإحراق قلبه بنار الجوى، ولكنّه لا يشكو، وإنّما يدعو لهم لعلّهم يرقّون له فيواصلون.

وقد جمع ابن الوردي بين الاستخدامين ـ أي الاستخدام في اللفظ ذي المعنيين وذي المعاني ـ في قوله:

ورُبَّ غزالةٍ طَلعَت   بقلبي وَهْوَ مَرعاها
نَصبتُ لها شِباكاً مِنْ   لُجينٍ ثمّ صِدْناها

---

١. المصدر، الخطبة ٢٦ ـ ٦.

٢. ديوانه، ج١، ص٢٤٦؛ البديع في البديع، ص ١٢٧؛ الإيضاح، ص٢٦٨؛ حسن التوسل، ص٢٦٧؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص٢٦٩، وفيه «قلوب» بدل «ضلوع»؛ تحرير التحبير، ص٢٧٥؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٤٣؛ نقد الشعر، ص٨٢.

فـقالتْ لِـي وقـدْ صِـرنا إلى عَـــينٍ قَــصَدْناها
بذلْتَ العـينَ فـاكْـحلها بـــطلْعتها ومــجراهـا

ففي البيت الأوّل استخدام، وفي البيت الرابع أربعة استخدامات، ومعناه: بـذلت الذهب، فاكحل عينك بطلعة عين الشمس، ومجرى العين من الماء، لأنّه وطّأ لهذه المعاني في الأبيات المتقدّمة، وأتى بالبيت الرابع، فتنزّل جملة على ما تفصّل.

وفي الاستخدام ما في التورية من جمال ورشاقة، ويفرق بينهما: أنّ في التورية يراد أحد المعنيين من اللفظ، وعادة ما يكون المعنى البعيد هـو المقصود، وهـو المورّى عنه، ويكون المعنى القريب للإيهام، وأمّا في الاستخدام فيراد كلا المعنيين، فالاستخدام أعلى مرتبة عند علماءالبديع من التورية، وأحلى مـوقعاً فـي الأذواق السليمة، وقلّ من البلغاءمن تكلّفه وصحّ معه بشروطه لصعوبة مسلكه.

وكما قال أبو العلاء يرثي فقيهاً حنفياً:

وفـقيه أفكـارُهُ شِـدْنَ للـنُّعـ ـمانِ ما لم يَشدْهُ شِعْرُ زيادِ[1]

النعمان يحتمل معنيين: أحدهما: النعمان بن المنذر الملك، أو النعمان بن ثابت الفقيه، فاستخدم المعنيين بلفظ واحد، فقال: شدن للنعمان، يعني أبا حنيفة، وقـال: شعر زياد، يعني الشاعر النابغة شاعر النعمان بن المنذر، وكان كثير المدح له.

وقول صفي الدين الحلّي:

لئـــن لم أُبـــرقع بـالحيا وَجْـهَ عِـفَّتى فـــلا أشـــبَهَتْهُ راحـــتي فـي التَكَـرُّمِ
ولا كُنْتُ مِـمّنْ يَكْسِرُ الجفن فـي الوَغـى إذاً أنـا لَـمْ أغـضضه عــن رأيِ مـحرمِ

ومن الاستخدامات البديعة قول ابن نباتة المصري يمدح النبيّ ﷺ:

إذا لم تـفض عـيني العـقيقَ فـلا رأت مَـــنازله بـــالقُرْبِ تـــبهى وتـبهرُ

---

١. البيت من قصيدة له مشهورة مطلعها غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي. شرح سقط الزند، ج٣، ص٩٨٦؛ البديع في البديع، ص١٢٨؛ معاهد التنصيص، وفيه «ألفاظه» بدل «أفكاره»، ج٢، ص ٢٧٠، والمراد بالبيت: أنّ ألفاظ هـذا الفقيه شادت لأبي حنيفة من حسن الذكر مالم يشده شعر زياد للنعمان بن المنذر.

وإن لم تُـواصِـل عـادةَ السـفح مُـقلتي فـلا عـادها عـيشُ بـمغناهُ أخـضر

وهناك استخدام في الإعراب، كقول الشاعر:

اسمُ من ملّني ومـن صـدَّ عـنّي وجـفاني مـن غـير ذنب وجُـرْمِ
والذي ضَــنَّ بـالوِصالِ عـلينا مـثلَما ضَـنَّ بـالهوَى قَـلْبُ نُـعْمِ

لأنّ «قلبَ» مرفوع بالابتداء، وبكونه فاعلاً لـ«ضنَّ»، وهو أيضاً استخدام في المعنى؛ لأنّ معنى قلب من القلوب، أو العكسِ؛ لأنّ الاسم: مَعْنٌ[1].

ولعلماء البلاغة ثلاثة اتّجاهات في تعريف الاستخدام:

الأوّل: تعريف ابن منقذ القائل بأنّ الاستخدام هو أن تكون الكلمةلها معنيان، فتحتاج إليها فتذكرها وحدها، فتستخدم للمعنيين. ومثّل له بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾. وقول البحترى[2].

الثاني: تعريف ابن مالك القائل: إنّ الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثمّ يؤتى بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنىٰ الآخر، ثمّ إنّ اللفظين قد يكونان متأخّرين عن اللفظ المشترك، وقد يكونان متقدّمين، وقد يكون اللفظ المشترك متوسّطاً بينهما[3]، ومثال هذه الطريقة قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

الثالث: تعريف القزويني القائل هو أن يراد بلفظ له معنيان: أحدهما، ثمّ بضميره معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما، وبالآخر الآخر[4].

وذكر الحموي طريقتي ابن مالك والقزويني ثمّ قال: «وعلى كلّ تقدير فالطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد، وهو استعمال المعنيين بضمير وغير ضمير»، وذكر الآية

---

١. معاهد التنصيص، ج٢، ص٢٧١.
٢. البديع في نقد الشعر، ص٨٢.
٣. أنوار الربيع، ج١، ص٣٠٨؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٥، وقد سقط هذا التعريف والفن كلّه من المصباح المطبوع.
٤. الإيضاح، ص٢٦٨.

التي استشهد بها ابن‌مالك ثمّ قال: «ومنه قوله من القصيدة النباتية:

حويت ريقاً نباتياً حلا فغدا ينظّمُ الدرَّ عقداً من ثناياك»

فإنّ لفظة «نباتي» تحتمل الاشتراك بالنسبة إلى السكر، وإلى ابن نباتة الشاعر، وقد توسّطت بين «الريق» وحلاوته وبين «الدر» و «النظم» و «العقد»، فاستخدم أحد مفهوميها ـ وهو السكر النباتي ـ بذكر الريق والحلاوة، واستخدم المفهوم الآخر ـ وهو قول الشاعر (النباتي) ـ بذكر النظم والدر والعقد.

جماليات الاستخدام

كلّ ما قيل عن جماليّة التورية ينسحب على هذا الفنّ البديعي، وإنْ كان ينفرد بجماليّة أُخرى هي جماليّة التعرّف المتتابع، فإنّ المتلقّي يقف أمام دلالة اللفظ الذي جرى فيه الاستخدام موقف غير المستيقن، ثمّ أخذ في التعرّف على هذه الدلالة على نحو محدّد كلّما تقدّم في النصّ.

وفيه ـ أيضاً ـ جماليّة التعجيب، فإن قدرة المتكلّم على استثمار المعاني المتعدّدة للفظ الواحد شيء يثير دهشة المتلقّي، وينال إعجابه[1].

❊ ❊ ❊

---

[1] . الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٥٨٦.

القول بالموجب

القول بالموجب: ـ بالكسر ـ هو أن يخاطَب المتكلِّم بكلام فيبني عليه من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلَّم به[1]؛ وهو ضربان:

أحدهما: أن يذكر المتكلّم صفة ينتحلها لنفسه مع إثباته حكماً تقتضيه فيه تلك الصفة. ثمّ تثبت تلك الصفة لغيره من غير تعرّض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه. وغايته من ذلك ردّ كلام المتكلّم وعكس معناه؛ لأنّ حقيقته ـ القول بالموجب ـ ردّ كلام الخصم من فحوى كلامه، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إنّ المنافقين أثبتوا صفة العزّة لهم وصفة الذلّ للمؤمنين، ثمّ أثبتوا ـ على ضوء ذلك ـ حكماً وهو أنّ العزيز يخرج الذليل، فيكون النتيجة أنّهم سيخرجون الرسول والمؤمنين من المدينة. إلّا أنّ اللّه عمد إلى كلّ كلمة مفردة ذكروها فبنى عليها ما يوجب عكس معنى كلامهم مع إثبات، تلك الصفة ـ وهي العزّة ـ له ولرسوله وللمؤمنين ـ، فيفهم من السياق أنّ الذلّ سيكون من نصيب أولئك المنافقين. ويغيب طبقاً لذلك: حكم الإخراج المعاكس، لأنّه لمّا ثبتت العزّة للمؤمنين كان الإخبار بإخراج الكفّار حكماً قاطعاً باعتراف المنافقين به، وهو أنّ من كان عزيزاً فهو

---

١. تحرير التحبير، ص٥٩٩.

٢. المنافقون: ٨.

قادر على الإخراج.

والثاني: حمل اللفظ الواقع في كلام الغير على خلاف مراده ممّا يحتمله بذكر متعلقه، كقول ابن الحجّاج:

قـلْتَ: ثَـقَّلْتُ إذْ أَتَيْتُ مِراراً ... قـالَ: ثَـقَّلْتَ كـاهِلِي بـالأَيادِي

قـلتُ: طَـوَّلْتُ قـال: بَـلْ تـطوَّ ... لْتَ وَأَبْرَمْتُ قال: حَبْلَ وِدادى[1]

فلفظ «ثقَّلتُ» وقع كلام الشاعر بمعنى: حمَّلتك المؤنة ولكن حمله الممدوح على تثقيل عاتقه بالأيادي «أي النعم» وهكذا وقع في كلام الشاعر لفظ طَوَّلتُ: أي أطلت في الزيارة، فأُجيب بلفظ «تَطوَّلتَ»: أي أكثرت طوائلك بمعنى زدت فضائلك، وفيه لطف باعتبار الردّ على المتكلّم على وجه بلغ الغاية في التأدب وعدم المواجهة بالرد وقوله: أبرمت أي أمللت، وقوله: «حبل ودادي» أي قال: نعم أبرمت، ولكن أبرمت وأحكمت حبل ودادي.

ومنه قول الشاعر:

و إخـوانٍ حَسِبْتَهُمْ دُرُوعـاً ... فكـانُوها و لكِـنْ للأَعـادي

وَ خِـلْتُهُمْ سِهاماً صـابئاتٍ ... فكـانُوها و لكِـنْ فـي فـؤادي

وقـالوا: قَـدْ صَـفَتْ مِـنّا قُـلُوبٌ ... لقد صَدَقوا ولكنْ مِـنْ وِدادى[2]

صفاء القلوب في قولهم يعني: «خلاصها»، وفي قوله هو في عجز البيت: «خلّوها» من الوداد.

ودليل ذلك متعلّق الفعل وهو: «من ودادي» فإنّ المناسب للجار والمجرور هنا «صفا» بمعنى: «خلا» أي: خلت القلوب من الوداد.

---

١. الايضاح، ص٢٨٧؛ بديع القرآن، ص ٣١٥؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧١؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٢٧١. والاستشهاد بقوله: ثقّلت وأبرمت، دون قوله طوّلت لأنّه ردّ عليه بقوله: «لا» وأثبت شيئاً آخر هو التطوّل وهو غير التطويل.

٢. الايضاح، ص٢٨٧ و ٢٨٨؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٨٥.

ومن هذا الباب قول القاضي الأرجاني:

غـالَطَتْني إذْ كَسَتْ جِسْمِيَ الضَّنا كِسْـوَةًعَرَّتْ مِـنَ اللّحْم العِظاما

ثُمَّ قـالَتْ أَنْتَ عِـنْدِي فـي الهَـوَى مِثْلُ عَـيْني صَـدَقَتْ لكِـنْ سَـقَامَا[١]

والمراد بالمتعلّق هنا ما يناسب المعنى المحمول عليه سواء كان متعلقاً اصطلاحياً كالمفعول والمجرور أم لا، فالأوّل، كقول ابن الحجاج المذكور آنفا والثاني، كقول محاسن الشوا:

ولمّا أتاني العاذلون عدمتهُم وما فيهم إلا لِلَحْمِيَ قارضُ

وقد بُهتوا لما رأوني ساحباً وقالوا: به عَيْنٌ فقلت: وعارضُ[٢]

أراد بالعين إصابة العائن وحمله على اصابة عين المعشوق بذكر ملائم وهو العارض بالأسنان التي هي كالبرد[٣].

والحمل على خلاف المراد تارة يكون باعادة المحمول كبيت ابن‌الحجاج المارّ ذكره: «قلت: ثقّلت... وأبرمت...» وتارةً يكون بدون إعادته، كما في بيت محاسن الشوا.

وقد جعل السبكي الضرب الأوّل من القول بالموجب من المذهب الكلامي والضرب الثاني من الأسلوب الحكيم، وجعل بيت المشاكلة: «اطبخوا لي جبّة» من القول بالموجب[٤]

وذكر الحموي أن القول بالموجب يقال له: الأسلوب الحكيم[٥] وليس الأمر كذلك، وأنّ ذكر أحد شواهده وهو قصّة القبعثري مع الحجاج؛ لأنّ القول بالموجب

---

١. الايضاح، ص٢٨٧.

٢. حسن التوسل، ص ٣٠٧؛ خزانة الأدب، ج ١، ص٢٥٩.

٣. فكأنّه قال: صدقتم في عينها وعارضها لأعين العائن ووجه كون هذا الضرب من القول بالموجب ظاهر كالأوّل؛ لأنّه اعترف ما ذكر المخاطب لكنّ المعنى غير مراد ولمّا لم يصرّح بنفي المراد صار ظاهره إقراراً بما قيل.

٤. شروح التلخيص، ج ٤، ص٤٠٩.

٥. خزانة الأدب، ج ٢، ص٢٦٩، انظر: عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص، ج ٤، ص٤٠٩.

فنّ آخر.

وذهب إلى ذلك كثير من البلاغيين كالسيد المدني الذي قال عن القول الموجب: «هو والأسلوب الحكيم رضيعاً لبان وفرسا رهان حتى زعم بعضهم أنّ أحدهما عين الآخر، وليس كذلك»[١]، ثمّ قال: «هذا النوع ـ أعنى القول بالموجب ـ يشترك هو والأسلوب الحكيم في كون كلّ منهما من إخراج الكلام لا على المتكلّم وعكس معناه، والأسلوب الحكيم هو تلقّي المخاطب بغير ما يترقّب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنّه الأولى بالقصد أو السائل بغير ما يتطلّب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنّه الأولى بحاله أو المهم له»[٢].

وذكر أمثلة الأسلوب الحكيم ليفرّق بينه وبين القول بالموجب[٣].

* * *

---

١. انوار الربيع، ج ٢، ص١٩٨.

٢. المصدر، ص٢٠٩.

٣. المصدر؛ انظر: المعجم النقدي العربي، ج ١، ص ١٧٤.

العنوان والتلميح

وأمّا العنوان: فهو أن يأتي المتكلّم كلمات هي عناوين لحوادث مشهورة، نحو قول أبي تمّام:

تَـثَبَّتْ إنَّ قـولاًكـان زوراً أَتى النُّعمانَ قَبْلَكَ منْ زِيادِ

ففي هذا البيت عنوان قصّة النابغة الذبياني مع النعمان حين وشيبه الواشون إلى النعمان فجرَّ ذلك إلى حروب طالت زماناً طويلاً.

وقول صفي الدين الحلّي:

والعاقِبُ الحبرُ في نَجْرانَ لاحَ لَـهُ يَـوْمَ التباهلِ عُقْبى زَلَّـةِ القدمِ

فالشاعر أشار بعنوانه إلى عبد المسيح عالم النصارى حين أخبرهم النبيّ محمّدﷺ يوم المباهلة بقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[1].

وأمّا التلميح، فهو أن يشير المتكلّم إلى قصّة مشهورة أو شعر نادر أو مثل سائر دون أنْ يذكرها، نحو قول أبي تمّام في مدح أبي سعيد الثغري:

فـو اللّـهِ مـا أَدْري أَأَحـلامُ نـائِمٍ أَلَمَّتْ بنا أم كانَ في الرّكبِ يُوشَعُ[2]

يشير إلى قصّة النبي يوشع بن نون الذي أوقف الشمس فإنّه قاتل الجبارين

---

١. آل‌عمران: ٦١.

٢. ديوان أبي‌تمام، ج٢، ص٣١٩ فقوله: أأحلام نائم: استعظام واستغراب.

يوم الجمعة فلمّا أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم، ويدخل السبت فلا يحلّ له قتالهم فيه فدعا اللّه عزّوجلّ فردّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم.

وكقول ابن المعتزّ:

أتـرى الجـيرَةَ الذيـنَ تَـداعَـوا عِـنْدَ سَـيْرِالحـبيبِ وَقْتَ الزَّوَالِ

عَـلِمُوا أنَّـني مُـقِيمٌ وَقَـلْبى راحِـلٌ فِـيهم أَمـامَالجِمالِ

مِثْلَ صاعِ العَـزِيزِ فـي أرْحـلا القَـوْ مِ ولا يَـعْلَمُونَ مـافي الرِّحـالِ

والتلميح إلى الشعر كقول أبي تمّام:

لَـعَمْرو مَـعَ الرَّمْـضاءِوالنـارُتَلْتَظِيْ أَرَقُّ وأحْفَى مِنْكَ في ساعةِالكَرْبِ

أشار إلى البيت المشهور:

المُسْتجيرُ بِـعَمروٍ عَـنْدَ كُـرْبَتِهِ كالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنارِ[1]

والتلميح إلى مثل كقول ابن كلثوم: «وَمِنْ دُونِ ذلِكَ خَرْطُ القَتادِ».

أشار إلى المثل السائر: «دون عليان خرط القتاد»[2]

ومن الطريف إدراج [العنوان] في علم البديع والتلميح في علم المعاني.

ولكن من خلال ما سنورده من تعريفات البلغاء والنقّاد نـجد أنّ العـنوان هـو التلميح.

قال العلوي وهو ما يعرف بالتلميح: «وهو أن يشير المتكلّم فـي أثـناء كـلامه ومعاطف شعره أو خُطبه إلى مثلٍ سائرٍ، أو شعرٍنادرٍ، أو قـصّة مشـهورة، فـيلمحُها فيوردُها لتكون علامةًفي كلامه، وكالشامة في نظامه». وعقب قائلاً «فيحصل الكلام

---

١. أي المستغيث، والضمير في كربته عائد على الموصول، أي الذي يستغيث عند كربته بعمرو. وعمرو هو جساس بن مرة ولهذا البيت قصّة عجيبة. انظر الإيضاح، ص ٣٢١.

٢. القتاد كسحاب شجر صلب شائك، وابل قتادية تأكلها، والتقتيد، أي أن تقطعه فتحرقه، فتعلفه للإبل. (كـذا فـي القاموس باب الدال فصل القاف) والخرط، ودونه خرط القتاد، يضرب للأمر الشاق، قاله كليب، إذ سـمع قـول جساس لأعقرن فحلاً، فظنّ أنّه يعرض بفحل له يسمّى «عليان». والخرط: أن تمرّ يدك على القتادة من أعلاها إلى اسفلها حتى ينتثر شوكها.

من أجل ذلك على لطافةٍ رشيقةٍ، وبراعةٍ رائقةٍ»[١].

وعرفه ابن معصوم بقوله: «أن يشار في الكلام إلى آية، أو حديث مشهور، أو مثل سائر، أو قصّة، من غير ذكر شيء من ذلك تصريحاً. وأحسنه وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود»[٢].

وقال القزويني في باب السرقات: «وأمّا التلميح فهو أن يشار إلى قصّة أو شعر من غير ذكره». والأوّل كقول أبي تمّام الذي سبق ذكره في ابتداء الحديث ـ كما بيّناه في مقدّمة الحديث ـ، والثاني: كقول الحريري: «بت بليلة نابغية» أومأ به إلى قول النابغة الذبياني:

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ ... من الرُّقْشِ في أَنْيابِها السمُّ ناقِعُ

ومن التلميح ضرب يشبه اللغز، كما روي أن تميمياً قال لشريك النميري: «ما في الجوارح أحبّ إليّ من البازي». فقال: «إذا كان يصيد القطا».

أشار التميمي إلى قول جرير:

أنا البازي المُطِلُّ على نُمَيْرٍ ... أُتِيحَ مِنَ السماءِ لها انصِباباً

وأشار شريك إلى قول الطِّرِمّاح:

تَمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ القَطا ... وَلو سَلَكَتْ طُرْقَ المكارِمِ ضَلَّتِ

ولا يخرج كلام الآخرين من هذه الدلالة[٣].

وأمّا العنوان، فعرّفه المصري بقوله: «هو أن يأخذ المتكلّم في غرض له من وصف، أو فخر، أو مدح، أو هجاء، أو عتاب، أو غير ذلك، ثمّ يأتي بقصد تكميله بألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدّمة وقصص سالفة»[٤].

---

١. الطراز، ج٣، ص١٧١.

٢. انوار الربيع، ج٤، ص٢٦٦.

٣. شروح التلخيص، ج٤، ص٥٢٤.

٤. تحرير التحبير، ص٥٥٣؛ بديع القرآن، ص٢٥٧.

وعرّف ابن معصوم «العنوان» بتعريف المصري بتصرّف، بعد تعريفه إيّاه لغوياً فقال: «وفي اصطلاح البديعيين قال ابن أبي الإصبع: هو أن يأخذ المتكلّم في غرض فيأتي بقصد تكميله وتأكيده بأمثلة في ألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدّمة وقصص سالفة»[١].

وأخذ البلاغيون هذا النوع من المصري، كالحلبي، والنويري، وابن الأثير الحلبي، والحموي، والسيوطي[٢].

وإذ كان العلوي ـ كما مرّ ـ يرى التلميح للمنشئ «علامة في كلامه، وكالشامة في نظامه، فيحصل الكلام من أجل ذلك على لطافة رشيقة، وبراعة رائعة «فهو يشير ـ بشكل من الأشكال ـ إلى «التحسين»، كما نبّه عليه كلّ من ابن حجّة الحموي وابن معصوم حيث قال: «وأحسنه وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود» فمن هنا يستشف أنّ من البلاغيين من يرى أنّ الأمر ـ في التلميح ـ أكثر من التحسين أو الصبغ. والتلميح يلقى ظلالاً، ويشير إلى أجواء، ويضع نقاط إشعاع تغني النصّ، وتبث فيه مزيداً من الفاعلية[٣].

ومن أمثلة التلميح في التنزيل قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[٤].

يشير بذلك إلى المثل السائر: أرقُّ من نسج العنكبوت، وأضعف من بيتها.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[٥] يشير به إلى قولهم في الأمثال

---

١. انوار الربيع، ج ٤، ص٢١٣.

٢. حسن التوسل، ص ٣٠٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٦٦؛ جوهر الكنز، ص٢٣٧؛ شرح الكافية، ص٢٤٧؛ خزانة الأدب، ج ٤، ص٨٩؛ معترك الأقران، ج١، ص٤٠٧؛ معاهد التنصيص، ج ٤، ص١٥٦؛ نفحات الازهار، ص١٣٢؛ عن المعجم النقدي، ج ٢، ص١٣٧.

٣. المحسنات البديعية، ص ٤٧.

٤. العنكبوت: ٤١.

٥. الجمعة: ٥.

السائرة: أجهل من حمار..

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾[١].

يشير به إلى قولهم: أعظم تهوّراً من فراشة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

يشير به إلى قولهم: فلان ألهث من كلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[٢].

قال الزمخشري في قوله تعالى فيه: «وآتينا داود زبورا»: دلالة على وجه تفضيل محمّدﷺ وأنّه خاتم الأنبياء، وأنّ أُمتّهُ خيرُ الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في الزبور.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾[٣].

وأما أمثلته من السنّة: فكقولهﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد».

يريد: ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل.

وقولهﷺ: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرجلِ زَعَمُوا».

المراد بهذا الحديث هو الذي تكون كلمة «زعم» في أكثر كلامه، لما فيها من التوهّم والظنّ ملمحاًﷺ إلى موقع هذه الكلمة في القرآن؛ لأنّها مقولة الكفّار والمكذّبين بالآخرة[٤].

ومن كلام عليّ‌عليه السلام في خطبته الشقشقيّة:

«فَصَبَرْتُ وَفي العينِ قَذًى، وفي الحَلْقِ شَجىً، أرى تُراثي نَهْباً، حَتّى إذا مَضَى الأُوّلُ لسبيلِهِ أَدْلى بها إلى فلانٍ بَعْدَهُ».

فيه تلميح إلى الأوّل «يعني أبا بكر»، والثاني «يعني عمر» لأنّه عقد له بالخلافة

---

١. القارعة: ٤.

٢. الاسراء: ٥٥.

٣. الأنبياء: ١٠٥.

٤. الطراز، ج٣، ص١٧٢.

قبل وفاته.

ثمّ تمثّل أمير المؤمنين ببيت الأعشى:

شَتّانَ ما يَوْمِي على كُورِها ... وَيَوْمُ حَيّانَ أَخِي جابِرِ

فاستشهاده بهذا البيت واقع موقع التلميح في كلامه هذا؛ لكونه مطابقاً لمقصده، موافقاً لغرضه؛ لأنّ غرضه من ذلك بيان الحال وافتراق الأمر بين ولايته وولاية غيره، كما يشهد له ظاهر البيت.

ومن ذلك ما قاله متمثّلاً حينما شكا من أصحابه تقاعدهم عن الجهاد وميلهم إلى الدعة والإعراض عن أمره:

«اللّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُم كَما يمُاثُ المِلْحُ في الماءِ، أمَا واللّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لي بِكُمْ أَلْفَ فارِسٍ مِنْ فِراسِ بنِ غنم.

هنالِكَ لو دَعَوْتَ أتاكَ مِنْهُمْ ... فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الحَمِيمِ»[1]

فهذا البيت واقع على جهة التلميح؛ لأنّ فيه إشارة إلى سرعة إجابتهم لمن يدعوهم ويُعرِّض فيه بإصحابه لتثاقلهم عن إجابة أمره[2].

وقوله‌عليه السلام: «أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بالثَّقَلِ الأَكْبَرِ، وَأَتْرُكْ فِيكُمْ الثَّقَلَ الأَصْغَر»[3].

وفيه تلميح إلى حديث الثقلين المعروف بين الفريقين.

ومن التلميح إلى المثل نثراً قوله‌عليه السلام:

«ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمرٌ».

وقوله‌عليه السلام: «فما آتي على آخِرِ قَوْلي حَتّى أَرَاكُم مُتَفَرّقِينَ أيادِيَ سَبَأ»[4].

ومن التلميح إلى القصّة قوله‌عليه السلام:

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٥.

٢. الطراز، ج٣، ص١٧٣.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٨٧ـ ١٧ و ١٨.

٤. المصدر، الخطبة ٥.

«وإن امرءاً دلّ على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، لحريٌّ أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد».

وقولهعليه السلام: «إيهٍ أَبا وَذَحَةَ»[1].

فإنّ الأوّل إشارة إلى قصّة نفاق الأشعث وغدره بقومه، والثاني إشارة إلى قصّة الحجاج مع الخنفساء.

ومن النظم: قول بعضهم مورياً:

يـابدر أهـلك جـاروا	وعــلموك التــجرى
وقــبحوا لك وصــلي	وحســنوا لك هــجرى
فــليفعلوا مــا أرادوا	لأنّــهم أهــل بــدر

ففيه تلميح إلى ما روته العامّة عن النبيّصلى الله عليه وآله من قوله لعمر حين سأله قتل حاطب: لعلّ اللّه قد أطلع على أهل بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

وقول كعب بن زهير:

كانَتْ مَوَاعيدُ عرقوبٍ لَها مَثلاً ... ومــا مــواعـيدُها إلّاالأبـاطيلُ

وكان أبو العلاء يتعصّب لأبي الطيّب، فحضر يوماً مجلس المرتضى فجرى ذكرهُ، فَتَنقَّصَه المرتضى. فقال المعرّي: لو لم يكن له من الشعر إلّا قوله:

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلُوبِ منازِلُ ... أَقْفَرت أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

لكفاهُ فضلاً. فغضب المرتضى وأمر بطردهِ، ثمّ قال لمن بحضرتهِ: هل تدرونَ ما عنى الأعمى بذكر البيت؟ قالوا: لا. فقال: عنى به قوله فيها:

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِن نـاقِصٍ ... فَهِيَ الشهادَةُ لي بأَنِّي كـامِلُ[2]

وكقول أبي بكر الشبلي، وقد جلس يوماً على الجسر فمرّت بعض الجـواري،

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١١٦ ـ ٦.

٢. التبيان للطيّبي، ص٤٣٥؛ انظر: معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٤؛ العرف الطيب، ج١، ص١٧٩؛ الطراز، ج٣، ص١٩٣؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص٢٠٦ و ٢٠٩؛ انوار الربيع، ج٤، ص٢٩٢.

فلمّا أبصرته رجعت بوجهها وسترت ما ظهر من محاسنها.

وعقيلةٍ لاحَت بشاطئ نهرِها كالشمس طالعةً لدى آفاقِها

فكأنّما بلقيس وافت صرحَها لو أنّها كَشَفَتْ لَنا عَنْ ساقِها

حُورية قَمَريةَ بَدَوية ليس الجفا والصدّ مِنْ أخلاقِها

وقول الشريف الرضي:

وحاجة أتقاضاها وتمطلنى كأنّها حاجة في نفس يعقوب

الاعتراض

الاعتراض لغةً: ـ من عرض، واعترض له ـ منعه، واعترض عليه: أنكر قوله أو فعله، ويقال: اعترض الشيء دون الشيء، أي حال دونه.

والاعتراض اصطلاحاً: هو أن يُؤُتىٰ في أثناء الكلام أو بين كلامين متّصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب، وذلك لفائدة غير دفع الإبهام[1].

ويقول عنه ابن المعتزّ: «ومن محاسن الكلام والشعر اعتراض كلام لكلام لم يتمّ [المتكلّم أو الشاعر] معناه ثمّ يعود إليه فيتمّمه في بيت واحد» ومَثَّلَ له بقول كثير:

---

١. أي فائدة كما سيأتي توضيحه في قسم «أغراض الاعتراض»، وأمّا الاعتراض الذي يأتي لغير فائدة، فهو الذي يدخل في الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسناً ولا قبحاً، كما في أُسلوب «لا أباً لك» الذي لا فائدة فيه إلّا إقامة الوزن.

و اعلم أن البلاغيين في تحقيق الاعتراض فرقتان: فرقة ذهبت الىٰ ما ذكرناه، و علىٰ هذا يكون الاعتراض مبايناً لكل من التذييل و التكميل و التتميم. و فرقة أُخرىٰ تقول: قد تكون النكتة في الاعتراض غير ما ذكر ـأي: سوىٰ دفع الابهام ـ يعني لايشترط أن تكون نكتة الاعتراض سوىٰ دفع الإبهام بل تجوزه أيضاً، و هؤلاء فرقتان: منهم من لايشترط وقوعه في اثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنىً بل بان لاتكون جملة أصلاً، أو كانت لكن لم يتصل بالاولىٰ معنىً بل يجوز أن يقع في آخر الكلام. و الاعتراض عند هؤلاء يشتمل بعض صور التذييل و بعض صور التكميل.

و منهم من يشترط أن يكون الاعتراض في أثناء الكلام او بين كلامين متصلين معنىً و لايشترط كونه جملة أو أكثر، فالاعتراض عنه هؤلاء يباين التذييل لأنه لايكون في آخر الكلام ـكما مر ـ و يشمل من التكميل و التتميم ماكان متوسطاً لامحل له من الاعراب.

لو أَنَّ الباخِلينَ ـ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ـ　　　رَأَوْكَ تَـعَلَّمُوا مِـنْكِ المِـطالا[١]

ومن قول النابغة الجعدي:

ألا زَعَمَتْ بـنو سَـعْدٍ بـأنّي　　　ـ ألا كذبوا ـ كبيرُ السِّنّ فانِ

وذكر هذا التعريف العسكري في الصناعتين، كما تعرّض لهذا اللـون ابـن‌سنان وسمّاه حشواً، ثمّ تعرّض لتحديده وتـنويعه إلى مـفيد وغـير مـفيد، ووشـح ذلك بالأمثلة، وذكر قول أبي‌الطيّب:

وتــحتقِرُ الدُّنــيا احـتِقارَمُجرّبٍ　　　يَرى كُلَّ ما فيها ـ وحاشاكَ فانيا[٢]

فكلمة ـ حاشاك ـ هنا لم تدخل إلّا لإكمال الوزن، ولو كان البيت بدونها تام، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاءاً حسناً للممدوح في موضعه. هذا ما قاله ابـن‌سنان ويؤخذ عليه في تسميته مثل ذلك حشواً؛ لأنّ مثل هذا يقال له: اعتراض لا حشو.

وأورد السكّاكي حديثاً حول مصطلح «الاعتراض» قائلاً: ومنه الاعتراض [أي من القسم الأوّل من المحسّنات] ويسمّى الحشو، وهو أن يدرج في الكلام ما يـتمّ المعنى بدونه كقول طرفة بن العبد:

فَسَقى ديارَكِ ـ غَيْرَ مُـفْسِدِها ـ　　　صَـوْبُ الربـيعِ وديـمةٌ تَـهْمِي[٣]

فأدرج غير مفسدها ... ويفهم من هذا أنّه يمكن الاستغناء عن «غير مفسدها»

---

١. فجملة «وأنت منهم» اعتراض بين لو وجوابها، وفائدته التصريح بما هو مقصوده مـن ذمّـه، وتـأكـيد انـصراف الذمّ إليه.

٢. يقول: «أنت عظيم القدر، فلهذا تحتقر الدنيا احتقار من جرّبها، وعرفها وعلم أنّها فانية، ولا يبقى فيها إلا الذكـر الجميل بين الناس، فأنت تجود بما فيها، شرح ديوان المتنبي (للعكبري)، ج٤، ص٢٩٠ و شرح ديوانه للبرقوقي، ج٤، ص٤٢٧.

٣. العمدة، ج١، ص٦٤٦ وديوان طرفة، ص ١٤٦ وفيه فسقى بلادك البيت من شواهد التـتميم، والشـاعر يـمدح قتادة بن مسلمة الحنفي وكان قد أصاب قومه سنة، فأتوه فبذل لهم وأحسن إليهم.
وغير مفسدها أي بالقدر المحتاج إليه لا زائد ولا ناقص. وقد استشهد الجاحظ بهذا البيت في (البيان والتبيين، ج١، ص٢٢٨) على المقدار وإصابته وعدّه العباسي في معاهد التنصيص، ج١، ص٣٦٣ من شواهـد التكـميل وسمّاه الاحتراس أيضاً.
وصوب الربيع: انصباب مطر الربيع، والديمة: المطر الدائم في لين، وتهمي: تسقط وتسيل مياهها.

وهو حشو.

والأمر الذي يستدعي الوقوف عنده هو إرداف السكّـاكـي قـائلاً: وكـما قـال عزّوجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾[١].

فقوله: «ولن تفعلوا» اعتراض[٢]. وكان ينبغي للسكّاكي أن يفرّق بين معنى الحشو في كلام الناس. ومفهوم الاعتراض أو الحشو في كلام اللّه تعالى؛ وذلك لأنّ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ يعني فيما مضى. ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي تطيقوا ذلك فيما يـأتي.. وفـيه قـوله ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. وقال ابـن كـيسان (ت ٢٩٩هـ.ق): ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ توقيعٌ لهم على أنّه الحقّ، وأنّهم ليسوا بصادقين فيما زعموا من أنّـه كذب، وأنه مفترىً، وأنّه سحر، وأنّه شعر، وأنّه أساطير الأوّلين، وهم يدّعون العلم، ولا يأتون بسورة من مثله[٣].

وتعرّض عبد القاهر للحشو وذكر أنّه ذمّ؛ لأنّه خلا من الفائدة، ولو أفاد لم يكن حشواً، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القبول أحسـن مـوقع، وذلك لحصول الفائدة المترتبة علىٰ مجيئه مجيء ما يعول في الإفادة عليه...، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها[٤].

ونقل القزويني الفقرة الأخيرة منه ليعرض لنا بلاغة الاعتراض، فيقول: «ووجه حسن الاعتراض على الإطلاق: حسن الإفادة مع أن مجيئه مجيء ما لا مُعوّل عليه في الإفادة. فيكون مثلُهُ مثل الحسنة تأتيك من حيث لا ترتقبها»[٥].

وأضاف قائلاً: «ومن الناس من لا يُقَيّد فائدة الاعتراض بما ذكرناه، بل يجوز أن

---

١. البقرة: ٢٤.

٢. المفتاح، ص١٨١.

٣. تفسير القرطبي، ج١، ص٢٠١ انظر: مقاصد البلاغة عند السكـاكـي. د. مـحمد بـركات أبـو عـلي ١٥٠ مـجلة الفكر العربي، عدد ٤٦.

٤. اسرار البلاغة، ص ١٩.

٥. الإيضاح، ص١٦٠.

تكون دفع توهّم ما يخالف المقصود، وهؤلاء فرقتان:

فرقة لا تشترط فيه أن يكون واقعاً في أثناء كلام، أو بين كلامين متّصلين معنىً. بل يُجَوّز أن يقع في آخر كلام لا يليه كلامٌ. أو يليه كلام غير مُتّصل به معنىً. وبهذا يُشْعِر كلام الزمخشري في مواضع من «الكشاف». فالاعتراض عند هؤلاء يشمل التذييل. ومن التكميل ما لا محلّ له من الإعراب، جملةً كان أو أكثر من جملة.

وفرقة تشترط فيه ذلك، لكن لا تشترط أن يكون جملة أو أكثر من جملة. فالاعتراض عند هؤلاء يشمل من التتميم ما كان واقعاً في أحد الموقعين. ومن التكميل ما كان واقعاً في أحدهما ولا محلّ له من الإعراب جملة كان أو أقلّ من جملة أو أكثر[1].

ومن أغراض الاعتراض:

١. التنزيه: نحو قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[2].

فقوله: «سبحانه» كلمة تنزيه أوردها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة في التنزيه عمّا نسبوه إلى اللّه سبحانه من اتّخاذ البنات، ومبالغة في الإنكار عليهم بهذه المقالة.

فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة، من حسن الموقع لكونها واردة على جهة الاعتراض، وما تضمّنته من الفوائد الشريفة والأسرار الجليلة من الإنكار والردّ والتهكّم، وإظهار التعجّب من حالهم، وغير ذلك من اللطائف[3].

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فقال سبحانه ـ وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات

---

١. المصدر، ص ٣١٧، والتذييل: يكون بتعقيب جملة بجملة أخرى مشتملة على معناها لتأكيد منطوق الاولى أو مفهومها. والتتميم: أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة، والتكميل: التعقيب بجملة أو بشبه جملة تحسِّن المعنى. والفرق بينه وبين التتميم أنّ هذا الأخير يكون فيه المعنى أو الوزن ناقصاً فيتمّم. أما في التكميل، فلا نقص في المعنى.

٢. النحل: ٥٧.

٣. انظر: الطراز، ج ٢، ص ١٧٠. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ البقرة / ١١٦. (سبحانه) تنزيه له عمّا يصفون وتعجّب ممّا يقول الجاهلون، والجملة اعتراضية لإبطال دعوىٰ الظالمين الذين زعموا للّه الولد.

الغيوب ـ إني خالقٌ بشراً».

فجملة: «وهو العالم...» معترضة بين قال ومقوله «إنّي خالق» جيء بها لقـصد التنزيه.

٢. التوكيد: نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً * وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾[١].

وهذا الاعتراض أفاد التأكيد على وجوب اتّباع ملّة إبراهيم؛ لأنّ من بلغت بـه الرتبة والزلفى عند اللّه أن اتّخذه خليلاً من الأخلّاء كان جديراً بأن تتبّع ملّته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[٢].

«تلك أمانيهم» جملة اعتراضية لإبطال دعواهم.

وقال الإمام عليّ﷣: «فإنّ اللّه سبحانه خلق الخلق ـ حين خلقهم ـ غنيّاً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم».

فإنّ المقصود بالاعتراض توكيد تنزيه اللّه سبحانه عن صفات النقص والافتقار في الأزل، كما في الأبد، والإشارة إلى أنّ غرضه من الخلق والإيجاد لم يكن تكميل ذاته بجلب المنفعة أو دفع المضرّة.

٣. التعظيم: كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[٣].

ففي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراضـان: أحـدهما: ﴿وَإِنَّـهُۥ لَـقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ والآخر: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾. أريد بهما تعظيم القسم وتفخيم أمره، وفي

---

١. النساء: ١٢٥ و ١٢٦.

٢. البقرة: ١١١.

٣. الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧.

ذلك تعظيم للمقسم عليه، وهو: «القرآن الكريم»، وتنويه برفعة شأنه، فيكون أوقع في النفوس، وأدخل في البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[1].

الجملتان معترضتان في كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين.

وقال عليّ عليه السلام: «ألا وفي غدٍ ـ وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون ـ يأخذُ الوالي من غيرها عمّا لها على مساوئ أعمالها...»[2].

فإنّ قوله: «في غدٍ» متعلّق بقوله: «يأخذ» والجملة بين المتعلِّق والمتعلَّق معترضة جيء بها لتعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه.

٤. التنبيه على أمر من الأمور: كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[3].

فقوله: «حملته أمّه ـ إلى قوله ـ عامين»، وارِد على جهة الاعتراض، وسرّ ذلك هو أنّه لمّا ذكر التوصية بالوالدين عقّبه بما يؤكّد أمر الوصيّة. ويؤذن باستحقاقها من أجل ما تكابدته الأمّ من المشاقّ في حمل الولد وفصاله، وما في أثناء ذلك من مشقّة التربية وغيرها، وخصّ الأُم بالذكر تأكيداً لحقّها وتنبيهاً على اختصاصها بمزيد المشقّة.

وقول الإمام عليّ عليه السلام: «فيا عجباً واللّه يُميتُ القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم».

نبّه على عظم الرزيّة من خلال الجملة المعترضة.

---

١. آل عمران: ٣٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٣٨.

٣. لقمان: ١٤.

وقول الشاعر:

واعْـلَم - فَـعِلْمُ المَـرْءِ يَنْفَعُهُ - أَنْ سَوْفَ يَـأْتي كُـلُّ مـا قُـدرا[1]

فجملة «فعلم المرء ينفعه» اعتراضية أتى بها الشاعر قصداً لينبه على فضل العلم ومنزلته ممّا يزيد المخاطب إقبالاً عليه.

وقول الشاعر:

فلا هَـجْرُهُ يَـبْدُو - وفـي اليـأسِ راحَـةٌ - ولا وَصْـــلُهُ يَـــبْدُو لَـــنا فَـنُكارِمُهْ[2]

حيث نبّه على سبب غريب، فإنّ قوله «فلا هجره يبدو» يشعر بأنّ هجر الحبيب أحد مطلوبيه، وغريب أن يكون هجر الحبيب مطلوباً للمحب فقال «وفـي اليـاس راحة» لينبّه على سببه، فهذا القول إذاً اعتراض أريد منه بيان سبب الأمر الغريب.

٥. التقرير: كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3].

فقوله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، وفائدته تقرير علمهم بـالبراءة عن الفساد والبعد عن تُهمة السرقة، ثمّ إنّهم مع اثبات علمهم بذلك أكّدوا ذلك بالقسم مبالغة في الأمر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّـهُ أَعْـلَمُ بِمَـا يُـنَزِّلُ قَـالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾[4].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، اعتراض بين إذا وجوابها، وفائدته تقرير مصلحة التبديل، وتعريض بجهلهم ذلك، وإعلامهم بأن اللّه تعالى هو المتولّي له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُـنتُمْ تَكْـتُمُونَ * فَـقُلْنَا

---

١. الايضاح، ص١٥٩؛ و هو بلا نسبة في الدرر، ج٤، ص٣٠؛ و معاهد التنصيص، ج١، ص٣٧٧.

٢. البيت لابن ميادة، انظر: ديوانه، ص٢٢٥؛ نقد الشعر، ص١٥١؛ الصناعتين، ص٤٠٩؛ الايضاح، ص١٥٩.

٣. يوسف: ٧٣.

٤. النحل: ١٠١.

ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾[١].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، جملة ابتدائية وردت معترضة بين الكلامين، وفائدتها التقرير في نفوس السامعين بأنّ تدافُع بني اسرائيل في قتل النفس ليس بنافعهم في إخفائه وكتمانه؛ لأنّ اللّه تعالى مطّلع على كلّ خافية ومظهرها لا محالة.

٦. أُسلوب من أساليب التصوير: كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[٢].

وفائدة هذا الاعتراض من وجهين:

أوّلهما: تصوير حرصه ﷺ على إيمان قومه وهدايتهم وسعيه لردعهم عن غيّهم مع علمه بعدم جدوى ذلك.

ثانيهما: تصوير لجاجتهم وإصرارهم على الغيّ الذي هم فيه مستمرّون.

٧. التوبيخ: كقول الإمام عليّ عليه السلام: «يا أَشباهَ الرجالِ ... لَوِدِدْتُ أَنّي لَمْ أَرَكُم وَلَمْ أَعرِفْكُم مَعْرِفَةً واللّهِ جَرَّتْ نَدَما ...»[٣].

وجملة القسم لتوكيد التوبيخ.

٨. التنفير: كقول الامام عليّ عليه السلام: «فإِنَّ المَرْءَ المُسْلِمَ ما لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَها إذا ذُكِرَتْ، وَيُغْرِيبها لِئامُ الناسِ، كانَ كالفالِجِ الياسِرِ»[٤].

فإنّ قوله: «كان كالفالج» خبر إنّ، وإدراج جملة «فيخشع» في البين من باب الاعتراض.

---

١. البقرة: ٧٢ و ٧٣.

٢. يوسف: ١٠٢ و ١٠٣.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧ ـ ١٣.

٤. المصدر، الخطبة ٢٣.

٩. **الاستعطاف**: كقول الشاعر:

أَتَجْزَعُ مِنْ دَمْعِي وَأَنْتَ أَسَلْتَهُ ... وَمِنْ نارِ أحْشائي وَمِنْكَ لهيبها

وَتَزْعَمُ أَنَّ النَّفْسَ غَيْرَكَ عُلِّقَتْ ... وَأَنْتَ - ولا مَنّ عليكَ - حَبِيبها

فإنّ جملة «ولا منّ عليك» اعتراضية، والنكتة فيها الاستعطاف وان لا يشمئز قلبه منه.

وكقول المتنبّي:

وخُفُوقُ قَلْبٍ لو رأيتِ لهيبَهُ ... يا جَنَّتي لرأيت فيه جَهَنَّما[1]

١٠. **التحسر**: ومنه قول إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه:

وإنّي - وإنْ قُدِّمْتَ قَبْلي - لَعالِمٌ ... بِأنّي - وَإنْ أُخِّرْتُ - مِنْكَ قريبُ

ففي هذا البيت اعتراضان الغرض منهما إظهار الأسى والتحسّر على أنّ الموت سبق إلى ولده.

١١. **الدعاء**: كقول أبي المنهال عوف بن ملحم الخزاعيّ:

إنَّ الثَمانينَ - وَبُلِّغْتَها - قد ... أَحْوَجَتْ سَمْعِي إلى تَرْجمانِ[2]

تَرْجُمانَ: مفسّر وَموضّح ومبيّن. وقوله: «وبُلِّغْتَها» اعتراض في تضاعيف الكلام، قصداً إلى الدعاء لمخاطبه أن يوصله البارئ سبحانه إلى سنّ الثمانين التي بلغها الشاعر، والواو اعتراضية لا عاطفة ولا حالية.

١٢. **تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر علّق بهما**: كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[3].

---

١. ديوانه، ج ٤، ص٢٨؛ الطراز، ج ١، ص١٠٦؛ الايضاح، ص١٥٩.

٢. أنوار الربيع، ج ٥، ص١٣٦؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٨٣؛ معاهد التنصيص، ج ١، ص٣٦٩؛ الايضاح، ص١٥٩؛ الدرر، ج ٤، ص٣١.

٣. لقمان: ١٤.

فقوله سبحانه «أن اشكر لی» تفسير لقوله سبحانه «ووصيّنا الإنسان» وقدجاءت جملة «حملته أُمّه» معترضة بين المفسِّر والمفسَّر تخصيصاً للوالدة بزيادة توكيد حقّها العظيم.

١٣. المدح: كقول أبي محمد الخازن:

فـأَيَّةُ طَـرْبَةٍ لِـلْعَفْوِ إنَّ الـ ـكريمَ - وأنت مَعْناهُ - طَروُبُ

١٤. أغراض متنوّعة في أشعار نادرة:

فلو سألتْ سراةَ الحيّ سلمى - على أنْ قد تَلوَّنَ بي زماني -

لَخَبَّرَها ذوو أَحْسابِ قومی وأعدائي فَكُلٌّ قَدْ بلانی

وهذا اعتراض بين لو وجوابها وهو من فائق الاعتراض، وتقديره فلو سألت سراة الحيّ سلمى لخبَّرها ذوو أحساب قومي وأعدائي وفائدة قوله: «على أن قد تلوّن بي زماني» أي أنّهم يخبرون بتلوّن الزمان بي، يريد تنقل حالاته من خير و شرّ.

وقول أبي تمّام:

رددت رونقَ وجهي في صحيفتِهِ رَدّ الصِقال بهاء الصارم الحذم

وما أبالي - وخير القول أصدقه - حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

ففي البيت اعتراض وهو جملة «وخير القول أصدقه» وبلاغته تحقيق المماثلة بين صيانة الوجه وحقن الدم.

وقد تبيّن ممّا سبق أنّ الاعتراض قد يكون بجملة، وقد جاءت الأمثلة المتقدّمة للدلالة على ذلك، وقد يكون الاعتراض بأكثر من جملة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[1].

---

١. البقرة: ٢٢١ و ٢٢٢.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ اعتراض بـين المـفسَّر: ﴿فَأْتُوهُنَّ...﴾ ومفسِّره: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ وهو أكثر من جملة.[1]

ومنه أيضاً قوله سبحانه حكاية عن أمّ مريم عليها السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[2]. وقوله سبحانه ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ... وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ...﴾ ليس من كلام أمّ مريم، فهو اعتراض في تضاعيف الكلام بـأكـثر من جملة.

❊ ❊ ❊

١. وقع اعتراضاً بين الكلامين المتصلين معنىً للجامع العقلي المجوز للعطف و هما قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: التسمية عند الجماع أو طلب الولد أو العمل الصالح، بياناً لقـوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ﴾ معناهُ أن المأتي المأمور به هو مكان الحرث دلالة علىٰ أن الغرض الأصلي فيه من الاتيان هو طلب النسل لا افضاء الشهوة (انظر: شرح التلخيص للبابرتي، ص٩٥٤، حاشية البناني علىٰ مختصر المعاني، ج٢، ص١٤٢).

٢. آل عمران: ٣٦.

الاستطراد

الاستطراد في اللغة: التتابُع والتسلسل، وهـو مـصدر لفـعل «اسـتطرد» يـقال: استطرد الفارس من قرينه في الحرب، وذلك أن يفرّ من بين يديه ليوهمه بالانهزام، ثمّ يعطف عليه على غرّة منه، وأطرد الشيء: تبع بعضه بعضاً وجرى، وأطرد الكلام: تتابع.

وفي الاصـطلاح: هـو انـتقال المـتكلّم مـن المـوضع الذي يـتحدّث فـيه إلى موضع آخر؛ لوجود علاقة بين الإثنين، ثمّ يعود بعد ذلك إلى الموضع الأوّل[1].

فالاستطراد علم دقيق المجرى، غزير الفوائد، يستعمله الفصحاء، ويعوّل عـليه أكثر البلغاء، وقد ذكر الحاتمي أنّه نقل هذه التسمية من البحتري الشاعر[2] وقيل: إنّ أوّل من نطق بهذا الأسلوب السموأل حيث يقول:

وإنّا أُناسٌ لا نَرى القَتْلَ سُبّةً ... إذا مـا رَأَتْـهُ عـامِرٌ وَسَلُولُ

يُقرِّب حُبُّ الموتِ آجالنا لنا ... وَتَكْرهُـهُ آجَـالُهُم فَـتَطُولُ[3]

وسياق القصيدة للفخر، وقد استطرد فيها لهجاء قبيلتي «عامر، وسلول»، ثمّ عاد

---

١. البلاغة والتحليل الأدبي، ص ١٨٨.

٢. حلية المحاضرة، ج ١، ص ١٦٣؛ انوار الربيع، ج ١، ص ٢٢٨؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١١٩.

٣. انظر: خزانة الأدب، ج ٢، ص ٤٧٨؛ كـفاية الطـالب، ص ١٨٦؛ زهـر الآداب، ج ٤، ص ١٦٣؛ المـنزع البـديع، ص ٤٥٧؛ الايضاح، ص ٢٦٤؛ البديع لابن المعتز، ص ١١٠؛ الصناعتين، ص ٣١٧.

إلى فخره، [فزاد فخره بقومه قوّة، وهجاؤه لإعدائه قوّة، من خلال جمعه بينهما،وإظهار التناقض الحادّ بين الصورتين] فكان هذا أوّل شاهد ورد في هذا النوع وسار مسار الأمثال.

وعلّق الآمدي على بعض حسن الخروج عند الشعراء بقوله: «وهذا يسمّيه قوم الاستطراد، وهو حسن جدّاً»[١] وسمّاه العسكري الاستطراد وقال: «هو أن يأخذ المتكلّم في معنى فبينما يَمُرُّ فيه يأخذ في معنىآخر وقد جعل الأوّل سبباً إليه»[٢].

والاستطراد عند الجاحظ هو: «الانتقال من موضوع إلى آخر لكي لا يملَّ القارئ أو السامع» وهذا واضح في معظم مؤلفاته.

والاستطراد عند ثعلب هو: «حسن الخروج» وكذلك عند ابن المعتزّ وقيل: إنّ البحتري الشاعر نقل هذه التسمية من أبي‌تمّام، هذا ما صرّح به الصولي بقوله: حدّثني أبو الحسن عليّ بن محمد الأنباري، قال: سمعت البحتري يقول:أنشدني أبو تمام لنفسه:

وَسابحٍ هَطِلِ التَّعْداءِهَتّانِ ... على الجِراءِأمينٍ غيرِ خَوّانِ
أظْمِئ الفُصُوصَ وَلَمْ تَظْمَأْ قوائِمُهُ ... فَخَلِّ عَيْنَيك في ظَمآنَ ريّانِ
ولو تراهُ مشيحاً والحصى فِلَقٌ ... تَحْتَ السنابِك من مَثْنى وَوُحْدانِ
أيقَنْتَ - إنْ لم تَثَبَّتْ - أنّ حافِرَهُ ... من صَخْرِ تَدْمُرَأو من وَجْهِ عُثْمانِ[٣]

ثمّ قال لي: «ما هذا الشعر؟» قلت: «لا أدري»قال: «هذا المستطرد» أو قال: «الاستطراد». قلت: «وما معنى ذلك»؟ قال: «يُرى أنّه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان»[٤].

ويرى ابن رشيق أنّ الاستطراد هو أن يبني الشاعر كلاماً كثيراً على لفظة من

---

١. الموازنة، ج٢، ص ٣٣٠.

٢. كتاب الصناعتين، ص٣٩٩.

٣. ديوانه، ج٤، ص ٣٨٤؛ الصناعتين، ص ٣٩٩؛ العمدة، ج١، ص ٦٢٩.

٤. أخبار أبي تمام، ص٦٨؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١١٩؛ أنوار الربيع، ج١، ص٢٢٨؛ العمدة، ج١، ص ٦٣٠.

غير ذلك النوع ويقطع عليها الكلام وهي مراده دون جميع ما تقدّم ويعود إلى كلامه الأوّل وكأنّما عثر بتلك اللفظة من غير قصد ولا اعتقاد نيّة[1].

وسمّاه بالاستطراد ـ أيضاً ـ التبريزي والبغدادي وابن مالك[2] وعدّه الصنعاني من أنواع الفصاحة[3]، وذكر المصري أنّه لم يظفر منه بشيء في القرآن المجيد إلّا في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[4]، وقال: «فمن ظفر فيه بشيء فهو المحسن بإلحاقه في بابه»[5].

وقال مثل ذلك ابن مالك فيما نقله منه السبكي[6]، وذكر العسكري من قبل غير هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[7]. فبينا يدل اللّه ـ سبحانه ـ على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الارض بعد خشوعها قال: «إن الذي أحياها لمحيي الموتى» فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدّم من ذكر الغيث والنبات دليلاً عليه ولم يكن في تقدير السامع لأوّل الكلام إلّا أنّه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر دون الدلالة على الاعادة فاستوفى المعنيين جميعاً»[8].

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[9].

---

١. العمدة، ج ١، ص ٦٣٠.

٢. الوافي، ص ٢٨١؛ قانون البلاغة، ص ١١٣؛ رسائل البلغاء، ص ٤٤٩؛ المصباح، ص ٢٣٧؛ المعجم النقدي، ص ١٥٠.

٣. الرسالة العسجدية، ص ١٥٢.

٤. هود: ٩٥.

٥. بديع القرآن، ص ٤٩.

٦. عروس الأفراح، ج ٤، ص ٣١٥ (ضمن شروح التلخيص).

٧. فصّلت: ٣٩.

٨. كتاب الصناعتين، ص٣٩٨.

٩. الأعراف: ٢٦.

وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد[١].

فقد وردت هذه الآية عقب ذكر السوءات إظهاراً للمنّة فيما خلق ـ سبحانه ـ من اللباس، ودلالة على ما في العُرى كشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنّ التستّر باب عظيم من أبواب التقوى، وإلماحاً إلى حسن التحلّي بزينة الثياب ومكارم الأخلاق.

وقال السيوطي[٢]: «وقد خرّج على الاستطراد قول تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٣] فإنّ أوّل الكلام فيه الردّ على النصارى الزاعمين بُنُوّة المسيح، ثمّ استطراد الردّ على العرب الزاعمين بُنُوّة الملائكة».

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

فقد ذكر الأهلّة وأنها مواقيت للحجّ، وأنّ مثلهم في السؤال كمثل من يترك باب البيت، ويدخل من ظهره، وهذا يدلّ على أنّ لأُسلوب الاستطراد أمثلة في كتاب الله الخالد غير ما ذكره المصري.

يقول العلوي في الطراز: ومن تأمّل آيات التنزيل فإنّه يجد فيها شيئاً كثيراً من هذه الأمثلة: فأمّا الخروج من قصّة إلى قصّة ومن أسلوب إلى أُسلوب آخر فعليه أكثر القرآن، ومن السنّة النبويّة.

قوله ﷺ: «لا تكونوا ممّنْ خدعَتْه العاجِلةُ وغرّتَهُ الأُمْنِيّةُ، واستهوتهُ الخُدعة فَرَكِنَ إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال إنّهُ لم يبقَ مِنْ دنياكم هذه في جَنْبِ ما مضى

---

١. الكشاف ٢:٧٦، معترك الاقران ١:٥٩.

٢. معترك الاقران، ج ١، ص ٥٩.

٣. النساء: ١٧٢.

٤. البقرة: ١٨٩.

إلّا كإناخِة راكبٍ، أو صَرّحالبِ فعلامَ تفرحون وماذا تنتظرون، فكأنّكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا كأن لم يكن، وبما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل».

فقوله: «فعلام تفرحون وماذا تنتظرون» من الاستطراد، الذي أناف على الغاية في الرشاقة والحسن وزاد؛ لأن ما قبله وما بعده ذكرُ الدنيا بما فيها من النفاد والزوال ولكنه وسطه على جهة الاستطراد، ثمّ رجع إلى ما شرع فيه من ذمّ الدنيا والإخبار عن نفادها وغرورها وزوالها.

ومن كلام أمير المؤمنينعليه السلام في الاستطراد: «مَعاشِرَ المُسلمينَ: اسْتَشعِرُوا الخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِيَنَةَ وَعَضُّوا على النواجِذ، فإنّهُ أنْبى للسُّيوفِ عَن الهامِ. وَأَكـمِلُوا اللّامَـة، وَقَلْقلوُا السيوف في أغمادِها قبلَ سَلّها، والْحَظوا الخَزْرَ، واطعَنُوا الشَزْرَ، ونافِحُوا بالظُّبَى، وَصِلُوا السُيوف بالخُطى، واعْلمُوا أنّكم بعين اللّه ومع ابن عمّ رسول اللّه، فعاودُوا الكرَّ، واسْتَحْيُوا مِنَ الفَرَّ فإنّهُ عارٌ في الأَعقابِ، ونارٌ يَوْمَ الحِسابِ»[1].

فقولهعليه السلام: «واعلموا، أنّكم بعين اللّه ومع ابن عم رسول اللّه» استطراد.

والاستطراد نوعان:

الأوّل: ما يكون بعيد التعلّق، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ...﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

فإنّ ذكر الكفّار تابع لذكر المؤمنين، أي مستطردٌ له، وليس بينه وبين ذكر الكتاب مناسبة، ففصّل.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٦٦. قالها لأصحابه ليلة الهرير أو أول اللقاء بصفين. استشعروا الخشية: اجعلوها من شعاركم. تجلبب: لبس الجلباب. النواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس، أنبى للسيوف: أبعد عنها الهام: جمع هامة وهي الرأس. اللامة: الدرع. قلقلوا السيوف: حرّكوها في أغمادها، الخَزَر: محركة وسكنها مراعاة للسجعة الثانية: النظر من أحد الشقين، وهو علامة الغضب، نافحوا بالظبا: كافحوا بالسيوف.

٢. البقرة: ١ و ٣.

٣. البقرة: ٦.

وكذا فصّل قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[١]، عمّا قبله، لكون السابق سيق لبيان إظهار سوأة آدم وحواء، وخصف الأوراق عليهما بسبب العصيان، وبالتالي لبيان إظهار المنّة علينا بما خلق من اللباس والزينة، ولما في العري، وكشف العورة من المهانة والفضيحة، واشعاراً بأنّ الستر باب عظيم من أبواب التقوى[٢].

الثاني: ما يكون قريب التعلّق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[٣].

فعطف «ومن كُلّ» لكونه مناسباً لأصل الكلام، وهو «البحران» المعنيُّ بهما المؤمن والكافر.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤].

فجيء به مستطرداً بين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[٦]، ولمّا كان مناسباً لأصل الكلام، وصل به، واعترض أيضاً في الاستطراد قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[٧]، بين المفسِّر والمفسَّر.

وفائدة الاستطراد: التحريض على قبول موعظة الآباء، والتأكيد على استحقاقهم الشكر.

---

١. الأعراف: ٣.

٢. الكشاف، ج ٢، ص٩٧؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٨٨.

٣. فاطر: ١٢.

٤. لقمان: ١٤.

٥. لقمان: ١٣.

٦. لقمان: ١٦.

٧. لقمان: ١٤.

وفائدة الاعتراض توكيد التوصيّة بحقّهم عموماً وبالوالدة خصوصاً، لما تكابد من مشاقّ الحمل والرضاع[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

كأنّه كان المراد أن يجري بالقول الأوّل إلى الإخبار عن أنّ كلّ شيء يسجد للّه عزّوجلّ، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاصّ، وفي ذكر الخاصّ بعد العامّ زيادةٌ في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[3].

ذمّ اليهود واستطرد ذمّهم بذمّ المشركين على نوع حسن من النسبة ولا يوجد للفصحاءفي الاستطراد أحسن ولا أمكن منه.

أساليب الاستطراد وأشكاله

قد يأتي الاستطراد في القرآن بأساليب بلاغيّة فريدة في نوعها ليعرض قضيّة من القضايا الهامّة في صور ناصعة، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾[4].

فالاستطراد واقع بين الأمر بقيام الليل وتعليله وهو ثقل الوحي الذي كلّف اللّه به

---

١. التبيان للطيّبي، ص ٣٨٩.

٢. النحل: ٤٨ و ٤٩.

٣. الممتحنة: ١٣.

٤. المزمّل: ١ ـ ٦.

رسوله ليقوم بتبليغه للناس بجدّ ونشاط؛ لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء، فلا بدّ لمن أحياه أن يكون قد جمع بذلك التناقض الحادّ الذي يحتاج إلى مجاهدة النفس ومصابرة عليها؛ ليكون حافزاً للاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة وتربيتهم التربية (الجسمية والروحية) على أكمل الوجوه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ...﴾[1].

فقوله: ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ... مَشْهُودًا﴾ من الاستطراد؛ إذ خرج من ذكر الليل إلى ذكر قرآن الفجر، ثمّ عاد بعده إلى ذكر الليل.

وقد يقع من الاستطراد ما يخرج به الشاعر من فخر إلى هجو، ثمّ يعود إلى فخره كقول السموأل الذي ذكرناه في أوّل بحث الاستطراد، فسياق القصيدة كان للفخر بقومه. ثمّ انتقل منه إلى هجو قبيلتي «عامر وسلول»، ثمّ عاد إلى مقامه الأوّل وهو الفخر بقومه، فزاد فخره قوّة من خلال جمعه التناقض الحادّ بين قومه وأعدائه.

وقد يقع من وصف إلى هجو، كقول بعضهم يهجو قاضي القضاة مُنتقلاً من وصف البستان إلى ما هو بصدده حيث قال:

للّه بستان حللنا دوحه ... في جنّة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنانيراً رأت ... قاضي القضاة فنفشت أذنابها

وقد يقع من الاستطراد ما يخرج به من ذمّ إلى مدح كقول زهير:

إنَّ البخيلَ مَلوُمٌ حيثُ كان ولـ... ـكنَّ الجَوادَ على عِلّاتِهِ هَرِمُ[2]

ومن الاستطراد نوع يسمّى «الإدماج»: وهو أن يدمج المتكلّم موضوعاً ضمن

---

١. الإسراء: ٧٨ و ٧٩.

٢. ديوانه، ص١٥٢؛ العمدة، ج١، ص٦٣٢؛ الصناعتين، ص٣٩٩ و ٤٥٤، وذكر عن الحاتمي وقوع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم الى مدح. وقوله: على علاته: أي على ما ينوبه من قلّة ذات يد وعوز.

الموضوع الأصلي، دون أن يُفهم السامع أنّه يقصده، وإنّما يتركه لفطنة المستمع وسرعة بديهيته في فهم غرض المتكلّم من ذلك الاستطراد.

كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾[1].

سيقت لإثبات النفقة، وتضمّنت معنى انتهاء النسب إلى الآباء.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[2].

سيقت لإثبات منّه الوالدة على الولد، وفيها أن أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر.

ونحو قول عبيد اللّه بن طاهر لعبد اللّه بن سليمان حين وزر للمعتضد:

أبى دَهْرُنا من إسْعافِنا في نُفُوسِنا ... وأَسْعَفَنا فيمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ

فَقُلْتُ لَهُ: نُعْماكَ فيهم، أَتِمَّها ... وَدَعْ أَمْرَنا؛ إنَّ المُهِمَّ المُقَدَّم[3]

فأدمج شكوى الزمان، وشرح ما هو عليه من الاختلال في ضمن التهنئة وتلطّف في التلويح، ورقّق الاحتيال؛ لبلوغ الغرض مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال.

وكذلك من الاستطراد ما يسمّى «التفريع»؛ وذلك أن يقصد الشاعر وصفاً ما ثمّ يفرع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً، كقول ابن المعتزّ:

وكأنّ حُمْرَةَ لونِها من خَدِّهِ ... وكأنَّ طِيبَ نَسيمها من نَشرِهِ

حتى إذا صُبَّ المزاجُ تَشَعْشَعَتْ ... عن ثَغْرِها فَحَسِبْتُهُ من ثَغْرِهِ[4]

ومن لطيف التفريع قول أبي الطيّب يصف ليلاً:

اقلّبُ فيه أجفاني كأنّي ... أعُدُّ بها على الدّهر الذُّنُوبا

فبينما هو يصف كثرة سهره وإدارة لحظه إذا به يشبهه بكثرة ذنوبه.

---

١. البقرة: ٢٣٣.

٢. الاحقاف: ١٥.

٣. ديوانه، ص ١٥٢، على علاته: على عسره ويسره: العمدة، ج١، ص ٦٣٠؛ الصناعتين، ص ٣١٧؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٣٦.

٤. الطراز، ج٣، ص١٣٥؛ العمدة، ج١، ص٦٣٣؛ المصباح، ص٢٥٧؛ ديوان عبدالله بن المعتز، ص٢١٣.

وهناكَ نوع آخر سمّاه صاحب الإيضاح بـ«إيهام الاستطراد» كقول أبي اسحاق الصابيّ:

إنْ كُنْتُ خُنْتُك في المودّة ساعةً　　فَذَممْتُ سيف الدولة المحمودا

وَ زَغَمْتَ أنَّ لهُ شريكاً في العُلىٰ　　و جَحَدْتُهُ في فَضْلِهِ التواحيدا

قسماً لو أني حالف بِغَمُوسِها　　لغريم دينٍ ما أرادَ مزيدا[1]

وسوف يأتي هذا اللون من البديع مفصّلاً في باب مستقل.

❊ ❊ ❊

---

١. الإيضاح، ص٢٦٥؛ الاشارات، ص٢١٤.

الاطّراد

الاطّراد لغةً: ـ مصدر «اطّراد» يقال: اطّرد الماء ـ إذا جرى من غير توقف.

اصطلاحاً: هو الجري على نسق واحد، فالقاعدة المطّردة هي التي تـخلو مـن الشذوذ والاستثناءات.

أو هو أن يذكر الشاعر اسم ممدوحة وأسماء آبائه مرتّبة حسب الولادة في بيت شعر أو في بيت واحد ومن دون تكلّف أو تعسّف، نحو قول الشاعر:

من يَكُنْ رامَ حاجَةً بَعُدَتْ عَنْهُ   وَأَعْـــيَتْ عـليه كـلّ العـياءِ

فَلها أحمد المَرجّـى بـن يـحيى   بن معاذِ بنَ مسلم بـنَ رجـاءِ[1]

وذكره ابن رشيق وبيّن منزلته حيث قال:

«ومن حسن الصنعة أنْ تطّرد الأسماءُ من غير كُلفة ولا حشو فارغ، فـإنّها إذا اطّردت دلّت على قوّة طبع الشاعر وقلّة كلفته ومبالاته بـالشعر» ومـثّل له بـقول الأعشى:

أَقَيْسُ بنَ مَسْعُودِ بن قَيْسِ بن خالدٍ   وأَنْتَ امـرؤٌ تَـرجُـوُ شَـبابَكَ وائِـلُ[2]

---

١. معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٠٣؛ الطراز، ج٣، ص٩٤.

٢. وقيس بن مسعود كان عاملاً لكسرى على طف العراقين والأُبلة وكان قيس قد ضمن لكسرى أحداث بكر بـن وائل، فتعبثت بكر بأصحاب كسرى فحبسه بإيوان حلوان حتى مات في حبسه (مـعجم المـرزباني، ص ٣٢٤) والاعشى يعاتب قيساً لوفوده على كسرى بعد انهزامه في موقعة ذي قار في القصيدة التي منها هذا البيت.

فأتى كالماء الجاري اطّراداً وقلّة كلفةٍ، وبين النسب حتى أخرجه من مـواضـع اللبس والشُّبهة[١].

وقال ابن أبي الإصبع المصرى[٢] إنّ هذا اللون من البديع موجود في القرآن كقوله تعالى حكاية عن يوسف:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[٣].

قال: وإنّما لم يأت به على الترتيب المألوف فإنّ العادة الابتداء بالأب ثمّ بالجدّ، ثمّ بالجدّ الأعلى؛ لأنه لم يرد هنا مجرّد ذكر الآباء، وإنّما ذكرهم ليذكر ملّتهم التي اتّبعها، فبدأ بصاحب الملّة ثمّ بمن أخذها منه أوّلاً فأوّلاً على الترتيب، ومثله قول أولاد يعقوب:

قالوا ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾[٤].

وذكر في الإيضاح قول النبيّ ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكـريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[٥].

ومن الشواهد الشعرية قول دريد بن الصمة يرثي أخاه عبد اللّه:

قَـتَلْنا بـعبدِ اللّـهِ خَـيْـرَ لِـدَاتِـهِ ذُؤابَ بنَ أسماءَ بْنِ زَيْدِ بْنِ قارِبِ[٦]

وفيه تعرّض للمقتول به ولشرف المقتول:

وقول الأديب يعقوب النيسابوري فـي السـيّد أبـي القـاسم عـليّ بـن مـوسى الموسوي.

---

١. العمدة، ج٢، ص٦٩٨.

٢. تحرير التحبير، ص ٣٥٢؛ بديع القرآن، ص١٤١.

٣. يوسف: ٣٨.

٤. البقرة: ١٣٣.

٥. الايضاح، ص٢٨٨؛ أخرج الحديث البخاري في أحاديث الأنبياء، ب ١٩، وأحـمد فـي المسـند، ج٢، ص٩٦ و٣٣٢ و٤١٦.

٦. العمدة، ج٢، ص٦٩٨؛ ديوان دريد بن الصمة، ص ٢٧؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٠٢؛ الايـضاح، ص٨٨؛ ونسبه لحفاف بن ندبة في ديوانه، ص ١٣٠.

يَـقُولُونَ لي هَـلْ للـمَكارمِ والعُـلا قِـوامٌ فـفيهِ لو عـلمت دَوامُـها

فقلت لهم والصـدق خُـلقٌ أَلِفـتُهُ عليٌّ بن موسى الموسَويُّ قوامُها[١]

وقال صفي الدين الحلّي في بديعيته:

محمدٌ المـصطفى الهـادي النـبيُّ أجَـلُّ المرسلينَ ابـنُ عـبد اللّـهِ ذي الكَـرَمِ[٢]

وقال ابن معصوم في يوم سابع محرّم الحرام:

مـــا عـــاد عـــاشوراء إلّا هـــمَتْ عـيني بـدمع هـاطل سـاكبِ

وَجْـــداً عــلىٰ سـبط الرسـول الحسين بن علي بن أبي طـالبِ[٣]

وفرق العلوي بين الاطراد والاستطراد بقوله: إنّ الاستطراد يكون كلاماً ثمّ تُدخل عليه كلاماً أجنبياً منه ثمّ ترجع إلى الأوّل بخلاف الاطّراد، فإنّه ذكر اسم الممدوح بعينه[٤] ليزداد وضوحاً وبياناً على ترتيب صحيح ونسق مستقيم من غير تكلّف في النظم ولا تعسّف في السبك حتى يكون ذكر الاسم في سهولته كاطّراد الماء وسهولة جريه وسيلانه، ومثاله ما قال بعض الشعراء:

إنْ يقتُلُوك فقد ثَلَلْتَ عُـرُوشَهُم بعُتَيْبَةَ بن الحارثِ بن شِهابِ[٥]

جمال الاطّراد وحسنه

ويقوم جمال الاطّراد على ما ينطوي عليه تسلسل الأسماء من توافق وانسجام

---

١. معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٠٣؛ انوار الربيع، ج٣، ص٣٣٢.

٢. خزانة الأدب، ج٢، ص٤٣٦؛ ديوان الحلي، ص٦٩١؛ شرح الكافية البديعية، ص١٣٢.

٣. أنوار الربيع، ج٣، ص٣٣١.

٤. كذا قاله العلوي والاحسن تعريفه بأن يذكر الشاعر اسم الممدوح واسم من أمكنه من آبائه على الترتيب.

٥. الطراز، ج٣، ص٩٣. والشعر لربيعة من بني نصر بن قعين يرثي ذؤاباً ابنه: وغرض الشاعر من هذا البيت وصف ابنه بالشجاعة حيث هدم أساس مجد قاتليه وقوّض دعامتهم بقتل رئيسهم: (عتبة بن الحارث بن شهاب) ولأجل أن يتأكّد غرضه بوصفه بالشجاعة النادرة تراه يذكر المقتول بنسبه حتى يتعيّن في الأذهان بذاته ولا يـلتبس بغيره.

واتّساق، ومعلوم أنّ الانسياب والرشاقة والسلاسة ملامح جمال لاخلاف بشـأنها، كما تكشف نماذجها العالية عن براعة المنشئ وامتلاكه ناصية القول وتذليله الصعب من الألفاظ، وعلى الجملة تكشف عن قدرة على تأليف المتنافرات[1].

❊ ❊ ❊

١. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٦٢٥.

الافتنان

الافتنان لغةً: ـ مصدر افْتَنَّ، يقال: افْتَنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته: تَفَنَّنَ، أو إذا جاء بالأفانين، ـ وهي الأساليب الحسنة المتنوّعة، وهي أجْناس الكلام وطرقه.

والافتنان اصطلاحاً: هو أن يأتي المتكلّم بفنّين متضادّين من فنون الكلام في بيت واحد، أو جملة واحدة، مثل المدح والهجاء، والتهنئة والتعزية والغزل والحماسة.

وأوّل من عرّفه المصري حيث، قال: «أن يفتنّ المتكلِّم فيأتي بفنّين متفاوتين من الكلام في بيتٍ واحد، أو جملة واحدة، مثل النسيب، والحماسة، والهجاء، والهناء والعزاء»[1]. ولم يخرج من مذهب المصري في الافتنان الحلبي، والنويري، والسبكي، والحلّي، والحموي، والسيوطي، والمدني، والنابلسي[2].

قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[3].

جمعت الآية بين متضادّات حيث جمعت بين الوعد والوعيد، وبين التبشير

---

١. تحرير التحبير، ص٥٨٨؛ بديع القرآن، ص٢٩٥.

٢. ينظر: حسن التوسل، ص٣٠٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧٣؛ عروس الأفراح، ج٤، ص٤٧٠؛ شرح الكافية البديعية ص٩٨؛ خزانة الأدب، ج٢، ص١٤١؛ معترك الأقران، ج١، ص٢٩٤؛ الإتقان، ج٣، ص٢٩٨؛ شرح عقود الجمان، ص١٣٦؛ أنوار الربيع، ج١، ص٣٢٠؛ نفحات الأزهار، ص٢٣٦؛ عن معجم النقد العربي، ج١، ص٢٠١.

٣. مريم: ٧٢.

والتحذير، وما يلزم من هذين الفنّين من المدح للمختصّين بالبشارة والذمّ للمنذرين.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

فجمع سبحانه بين التعزية والفخر؛ إذ عزّى جميع المخلوقات، وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات مع وصفه ذاته بعد الانفراد بالجلال والإكرام.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «زَرَعُوا الفُجُور، وَسَقَوهُ الغُـرُور، وَحَـصَدُوا الثُّبُور، لا يُـقاسُ بآلِ محمدٍ صلى الله عليه وآله مِنْ هذهِ الأُمّةِ أَحَدٌ، ولا يُسوّى من جَرَتْ نِعْمَتهمُ عليهِ أبداً».

فإنّ ذيل الكلام مسوق لمدح آل محمد صلى الله عليه وآله، وصدره مسوق لهجو المبغضين لهم.

وقال عنترة:

إن تُـغْدِفي دُونـي القِـناعَ فـإنّني ... طبّ بـأخْذِ الفـارِسِ المُسْتَلْئِمِ[2]

فإنّه جمع فيه بين الغزل والحماسة، والجدّ والهزل، فأتى فيه بنادرة طريفة حيث قال بعد وصفها بستر وجهها دونه بالقناع حتى صار ما بين بصره ووجهها كـالليل المغدف الذي يحول بين الأبصار والمبصرات: أنّني طب بأخذ الفارس المستلئم وإن تتبرقعي دوني فإنّني خبير لدرايتي بالحرب بـأخذ الفـارس الذي سـترته لامـته، وحالت دوني ودون مقاتلته، فأبرز الجدّ في صورة الهزل فجاء في بيته مع الافتنان الندرة والطرافة، وعبّر عن معناه اللطيف بهذا اللفظ الظريف.

ومن الجمع بين الهجاء والمدح «أو الفخر» قول أبي العلاء المعرّي:

بـأي لسـانٍ ذمّـني مُـتجاهلٌ ... عـليَّ وخـفقُ الريـحِ فـيَّ ثـناءُ

تكـلّمَ بـالقولِ المُـضَلَّلِ حـاسِدٌ ... وَكُـلُّ كـلامِ الحـاسَدِينَ هـراءُ

أتـمشي القـوافـي تـحتَ غـيرِ لوائِـنا ... وَنـحنُ عـلى قـوّالِـها أُمَـراءُ

ولا سارَ فـي عَـرْضِ السماوَةِ بـارِقٌ ... وَليسَ لَـهُ مِـنْ قـومِنا خُـفَراءُ

---

١. الرحمن: ٢٦ و ٢٧.

٢. انوار الربيع، ج ١، ص ٣٢٤؛ حسن التوسل، ص ٣٠٩.

فهو إذ يفخر بنفسه يهجو أبناء جنسه الذين يتطاولون وهم قصار، ويدعون المعرفة والجهل يكتنفهم.

ومن الجمع بين التهنئة والتعزية قول ابن نباته:

هناء مَحا ذاكَ العزاءَ المُقَدَّما ... فما عَبَسَ المَحْزونُ حتى تبسّما
ثغورُ ابتسامٍ في ثغورِ مَدامعٍ ... شبيهانِ لا يمتازُ ذو السبقِ مِنْهُما
نَردُّ مجاري الدمعِ والبشرُ واضحٌ ... كوابلِ غيثٍ في ضُحى الشمس قد همى
سَقى الغيثُ عنّا تربة الملك الذي ... عَهْدنا سجاياهُ أعَزَّ وأكرما
ودامت يَدُ النُّعْمى على المَلِكِ الذي ... تدانَتْ به الدنيا وعزَّ بهِ الحمى
مليكان هذا قد هوى لضريحِهِ ... برغمي وهذا للأسِرَّةِ قَدْ سَما
وإن تكُ أيّامُ المؤيّد قَدْ مَضَت ... فقد جَدَّدَتْ علياكَ وقتاً وموسِما
هو الغيثُ ولّىٰ بالثناءِ مُشَيَّعا ... وأبقاكَ بحراً بالمواهبِ مُنْعَما[1]

ومن افتنان الجمع بين الغزل والحماسة قول ذي اليمينين عبد اللّه بن طاهر الخزاعي:

نحنُ قومٌ تذيبنا الأعينُ النجـ ... ـل على أنّنا نذيب الحديدا
طوع أيدي الغرام تقتادنا الغـ ... ـيد ونقتاد بالطعان الأسودا
نملك الصيد ثمّ تملكنا البيـ ... ـض المصونات اعيناً وخدودا
تتّقي سخطنا الأُسود ونخشى ... سخطة الخشف حين يبدي الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا ... را، وفي السلم للحسان عبيدا[2]

وجمع القاضي الأرجّاني بين النسيب والحماسة بقوله:

نزل الأحبّة ساحة الأعداء ... فغدا لقاء منهم بلقاء

---

١. خزانة الأدب، ج١، ص١٣٩.

٢. أنوار الربيع، ج١، ص ٣٢٤؛ الوسيلة الأدبية، ج٢، ص ١٠٣ و ١٠٤.

وممّن افتنّ في قصيدة كاملة وتفنّن فيها وخلّص من تفخيم الحماسة والفخر إلى رقّة الغزل والحسن، القاضي السعيد هبة اللّه بن سناء الملك حيث يقول:

سوايَ يخافُ الدَّهْرُ أو يرهبُ الردى وغيري يهوى أنْ يكونَ مُخَلَّدا
ولكنّني لا أرهبُ الدهرَ إنْ سَطا ولا أحْذرُ الموتَ الزؤامَ إذا عَدا
ولو مدَّ نحوي حادثُ الدهْرَ طَرْفَهُ لحدَّثْتُ نفسي أنْ أَمُدُّ لهُ يَدا
تَوَقُّدُ عَزْمٍ يتركُ الماءَ جَمْرةً وحِلْيةُ حلمٍ تتركُ السيفَ مِبْرَدا
وفَرْطُ احتقاري للأنامِ فإنّني أرى كلَّ عارٍ من حُلْي سُؤددي سُدى
وأظمأُ إنْ أبديَ لي الماءُ مَنَّةً ولو كانَ لي نَهْرُ المَجَرَّةِ مَوْرِدا
ولو كان إدراكُ الهُدى بتذلُّلٍ رأيتُ الهدى أنْ لا أميلَ إلى الهُدى
وقِدماً بغيري أصبحَ الدهرُ أشيباً وبي بَلْ بفضلي أصبحَ الدهرُ أمْرَدا
وإنّكَ عَبْدي يا زمانُ وإنّني على الكُرْه منّي أن أرىٰ لكَ سَيّدا
وما أنا راضٍ أنني واطئُ الثرى ولي هِمّةٌ لا ترتضي الأُفْقَ مَقْعَدا
ولو عَلِمْتُ زُهْرُ النجومِ مكانتى لخرَّت جميعاً نحوَ وَجْهي سُجَّدا
وبذْلُ نوالي زادَ حتّى لقد غدا من الغيظِ منه ساكنُ البحرِ مُزْبدا
و لي قلَمٌ في أَنملي إنْ هَزَزْتُهُ فما ضَرَّني أن لا أهُزَّ المُهَنَّدا
إذا جال فوق الطرس وقع صريره فإنّ صليل المشرفي له صدا[1]

وما خَلَصَ به من الحماسة والفخر إلى الغزل قوله:

ومن كلّ شيء قد صحوت سوى هوى أقام عذولي بالملام وأقعدا
إذا وصلُ مَنْ أهواه لم يك مُسعدى فليت عَذولي كان بالصمت مسعدا
بحبّ حبيبي من يكون مفنّداً فيا ليتني كنت العذول المفنّدا[2]

---

١. خزانة الأدب، ج ٢، ص ٤٩ ـ ٥٠؛ ديوان سناء الملك، ج ٢، ص ٨٩ و ٩٠.
٢. مفنّدا: كاذباً

وقــــال لقـــد آنست نـــاراً بـــخدّه فـقلت وإنّــي مــا وجـدت بـهـا هـدى
وكــــم لي إلى دار الحـــبيب التـــفاتة تـــذكرني عـــهداً قـــديماً ومـــعهّداً
ولم أُذْمِ ذاك الخـــدَّ بـــاللحظ إنّـــما عَـمَلْتُ خَـلُوقاً حـين أبصرتُ مَسْجَداً
يــراقبُ طـــرفي أن يـــلوحَ هـــلالُها فـقد طـالما قـد قـامَ حـين تَـعبّدا
عَـــبَرْتُ عـــليها واعْــتَبَرْتُ تـجلُّدى فـيا حَسْـرَتي لمـا اعـتبرتُ التَـجَلُّدا
كـــأنَّ بـــطرفي مـــا بـــقلبي صـبابةً فـــلم يـــرَ تـــلكَ الدارَ إلّا تَـــقَيّدا
وكـــم لجـوادي وقـفةً فـي عَـراصِـها تـــعوّد مـــنها جـــيدُهُ مـــا تـعوَّدا[1]
تــــعوّد ذاك الجــيد مــنّي أنّــني أصـــيره مـــن درّ عـــيني مـــقلّدا
ويـــا رُبَّ ليـــلٍ بتُّ فـــيه وبـــيننا عِـــناقٌ أعـــادَ العَـــقْدَ عِـقْداً مُـبَدّداً
ولم أجْـــعَلَ الكـــفَّ الشمالَ وسـادةً فـــباتَ عـــلى كـفّي اليـمين مُـوَسَّدا
وجــــرَّدْتُهُ مـــن ثـــوبِهِ وأعَـــدْتُهُ بـــثوبِ عـــفافي كـــاسِياً مُـتَجرِّدا
وقـــرَّبني حـــتّى طـــرَبْتُ إلى النوى وأوردنـــي حـتى صَـدِيْتُ إلى الصَّـدا[2]
شـــهدْتُ بـأنَّ الشَـهْدَ والمِسْكَ ريـقُهُ ومـــا كـــنتُ لو لم أخـتبِرْهُ لأَشْـهدا[3]
وإنَّ الســــــلافَ البـــابلية لحـــظُةُ وإلّا سَـــلُوا إنســـانَهُ كـــيفَ عَـرْبدا[4]

وذكر ابن أبي الإصبع المصري نوعاً يسمىٰ التمزيج وهو قريب من الافتنان غير أنّ بينهما فرقاً دقيقاً، وهو أنّ الافتنان لا يكون إلّا بالجمع بين فنّين من فنون الكلام، والتمزيج يكون بالجمع بين الفنون والمعاني ومن أمثلته قول الشريف الرضي جامعاً بين الحماسة والمدح والهجو تعريضاً لا تصريحاً:

ما مُقامي على الهَوانِ وعندي مِـقْوَلٌ صـارِمٌ وأنْـفٌ حَـمِيُّ

١. عراصها: جمع مفرده عرضة، وعرصة الدار ساحته وفناؤه.
٢. صديت: عظشت، الصدى: رجع الصوت.
٣. الشهد: جنى النحل.
٤. خزانة الأدب، ج١، ص١٤٣.

وإباء مُحَلِّق بي عن الضيـ ـــمِ كما راغَ طائرٌ وحشيُّ
أيُّ عذر لَهُ الى المجدِ إنْ ذُلَّ غلام في غمدِهِ المشرفيُّ
ألبسُ الذلَّ في ديارِ الأعادي وبمصْرَ الخليفة العَلويُّ
مَنْ أبوهُ أبي ومَولاه مولا ي إذا ضامني البعيدُ القصيُّ
لَفَّ عِرقي بعرقه سيّد النا س جميعاً محمدٌ وعليُّ
إنّ ذُلّي بذلك الجوّ عِزٌّ وأوامي بذلك النَّقْعِ ريُّ
قد يذلّ العزيزُ مالم يُشمّرْ لانطلاقٍ وقد يُضام الأبيُّ
إنّ شرّاً عليَّ أسراع عزمي في طلاب العلى وحَظّي بَطيُّ
ارتضى بالأذى ولم يَقِفِ العَزْ م قصوراً ولم تعزِّ المطيُّ
تارِكاً أسرتي رجوعاً إلى حيـ ـثُ غَديري قَذٍ ورعيي وبيُّ
كالذي يخبط الظلام وقد اقْـ ـمَرَ من خلفِهِ النهارُ المضيُّ[١]

وجمع ابن الحجاج بين التعزية والمدح المؤدّى إلى التهكّم بقوله في تعزية بعض الرؤساء يأنبه في بيت واحد وهو:

أبوكَ قد جمّلَ أهل الثرى فجمّلَ اللّه به المقبرة

❊ ❊ ❊

١. أنوار الربيع، ج ١، ص ٣٣٥.

الاستدراك

هو رفع توهّم يتولّد من الكلام السابق رفعاً شبيهاً بالاستثناء وهو معنى «لكن» أو إثبات ما يتوهّم نفيه على أن تكون هناك نكتة طريفة لتحسّنه وتدخّله في البديع، وإلّا فلا يعدّ منه.

كقول ابن الدُّوَيْدَة المغربي يخاطب رجلاً أودع عند قاضٍ وديعة:

إنْ قالَ قَدْ ضاعَتْ فيصدُق أَنّها ضاعَتْ وَلكِنْ مِنْكَ يَعْني لو تَعى
أو قالَ قَدْ وَقَعَتْ فيصدُقُ أَنَّها وَقَعَتْ وَلكِنْ مِنْهُ أَحْسَنَ موقعِ[1]

وقول صفي الدين الحلّي:

رَجَوْتُ أنْ يَرْجِعُوا يَوْماً وَقَدْ رَجَعُوا عِنْدَ العِتابِ وَلَكِن عَنْ وَفا ذِمَمِى[2]

فإنّه قرّر ما أخبر به قبل الاستدراك، وأكّده بقوله: وقد رجعوا؛ والتنكيت الرائع في قوله: عن وفا ذممي، المتعلّق برجعوا، وقوله: عند العتاب تكميل بديعي.

وقول الأرجّاني:

غالطتني إذ كَسَتْ جسمي ضنىً كِسوةً أعرتْ من اللحمِ العظاما

---

١. تحرير التحبير، ج٢، ص٣٣١ و ٣٣٢؛ والإيضاح [ص٢٨٧] نسبتها لابن الرومي، خزانة الأدب، ج٢، ص٥٥؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٥١ بلاعزو؛ حسن التوسّل، ص ٢٧٩؛ أنوار الربيع، ج١، ص٣٨٦ ونسبها لابن فضّال النحوي.

٢. تحرير التحبير، ج٢، ص٣٤٤ و ٣٤٥؛ حسن التوسّل، ص ٢٨٠؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٥٧؛ ديوان صفي الدين الحلي، ص٦٨٩؛ شرح الكافية البديعية، ص ١١٠.

ثمّ قالت أنتَ عندي في الهوىٰ مثل عيني، صدقت لكن سَقاما

وقول ابن أبي حجلة:

شكوت إلى الحبيبة سُوءَ حظّي وما ألقاهُ من ألَم البعادِ

فقالت إنّ حظّك مثل عيني فقلت: نعم، ولكن في السوادِ

وقول المعرّي:

فيا دارها بالخَزْنِ إنَّ مَزارها قريبٌ ولكن دُونَ ذلك أهوالُ

وسمّى ابن المعتزّ «الاستدراك»: «الرجوع» وقال: «هو أن يقول شيئاً ويرجع عنه، كقول بعضهم: ما معك من العقل شيء بلى، مقدار ما تجب الحجّة به عليك».

وكذلك العسكري سمّاه ـ أيضاً ـ الرجوع وقال: «هو أن يذكر شيئاً، ثمّ يرجع عنه» ومثّل بقول أحد الشعراء:

أليسَ قليلاً نظرةٌ إن نَظَرْتُها إليكِ وكلاً ليسَمنكِ قليلٌ

وسمّاه التبريزي «الاستدراك والرجوع» وقد قال البغدادي عنه:

وأمّا الاستدراك والرجوع، فهو أن يبتدئ الشاعر بمعنىً فينفي شيئاً ثمّ يستدركه بما يؤيّد هذا المعنى أو يثبت ما نفاه أولاً، كقول أبي نواس:

يا خَيْرَ مَنْ كانَ وَمَنْ يكونُ إلّا النبيُّ الطاهِرُ الأَمينُ

إمامُ عَدْلٍ مالَهُ قَرِينُ استغفر اللّه بل هارُونُ

وقال ابن الإصبع المصري: إنّ الاستدراك والرجوع على قسمين:

قسم يتقدّم الاستدراك فيه تقرير لما أخبر به المتكلّم وتوكيد، كقول ابن الرومي:

وإخوانٍ تَخِذْتُهُم دُرُوعاً فكانُوها وَلَكِنْ للأَعادى

وخِلْتُهُم سِهاماً صائباتٍ فكانُوها وَلكِنْ في فؤادى

وقالوا قد صَفَتْ منّا قلوبٌ لقد صَدَقوا ولكن من ودادى[1]

---

١. أنوار الربيع، ج ١، ص ٣٨٩؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ٥٤؛ تحرير التحبير، ص ٢٣؛ نهاية الأدب، ج ٧، ص ١٥١؛ ديوان ابن الرومي، ج ٢، ص ٦٥٩.

وقسم لا يتقدّم الاستدراك، ليس فيه تقرير ولا توكيد، كقول زهير بن أبي سُلمى:

أخو ثقةٍ لا تُـهْلِك الخـمرُ مـاله ولكنّه قد يُـهلكُ المـالَ نـائِلُهْ[١]

والزيادة فيه أنّه لو اقتصر على صدر البيت لكان مدحاً ـ أيضاً ـ، لكن ربّما توهّم متوهّم أنّ ماله موفور وهي صفة ذمّ، فاستدرك بما يزيل هذا الاحتمال وتـخلّص الكلام إلى المدح الذي لا يشوبه شائبة ذمّ.

ومن أمثلة المصري وغيره من القرآن قوله تعالىٰ:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[٢].

فاللّه سبحانه أخبر عن الأمر الواقع بخبر أخرجته الفصاحة مخرج المثل، وقوّى دليل الكلام بذكر العلّة حيث قال بلفظ الاستدراك: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

وعرّفه السبكي بقوله: «إن الاستدراك إمّا بعد تقدّم تـقرير، كـقوله تـعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾[٣].

أو بعد تقدّم نفي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٤]. وهـذا القسم يرجع إلى الطباق أو الرجوع».

وعّرفه القزويني بقوله: هو العود على الكـلام السـابق بـالنقض لنكـتة، كـقول زهير بن أبي‌سلمى:

---

١. انوار الربيع ١: ٣٨٩، خزانة الأدب، ج ٢، ص٥٦؛ عيار الشعر، ص٨٦؛ تحرير التحبير، ص٣٣٢؛ ديوان زهير، ص١٥٥.

٢. الأنفال: ٤٢.

٣. الانفال: ٤٣.

٤. الأنفال: ١٧.

قِفْ بالدِّيارِ التي لَمْ يُعْفِها القِدَمُ   بَــلا وَغَـيَّرَها الأرواحُ والدِّيَـمُ[١]

كأنّه لمّا وقف بالديار عَرَتْهُ روعة ذهل بها عن رؤية ما حصل لها من التـغيير، فقال؛ لم يعفها القدم، ثمّ رجع إلى صوابه وتحقّق ما هي عليه من الدروس فقال: بلى عفت.

١. ديوانه، ص١٤٥؛ الايضاح، ص٢٦٦؛ تهذيب اللغة، ج١٠، ص٦٧٢؛ لسان العرب و تاج العروس (وا).

الاستتباع

الاستتباع لغةً: ـ مصدر استتبع، يقال: استتبعه، أي ـ طلب إليه أن يتبعه، والاستتباع هو المجيء بوجه يستتبع وجهاً آخر.

أوّل من سمّىٰ هذا الفنّ بهذا الاسم السكّاكي حيث قال: هو المدح بشيء على وجه يستتبع مدحاً آخر[1].

وتبعه القزويني والسبكي والتفتازاني والحموي والسيوطي والإسفرايني والمغربي والدمنهوري[2].

وسمّاه العسكري **المضاعفة**[3]. وابن منقذ **التعليق**[4]. وتبعه في ذلك المصري[5]. والعلوي.

وأطلق عليه الرازي والحلبي والنوري وابن قيم الجوزيه اسم الموجّه[6]، كما سمّاه الوطواط[7] وابن جنّي: **المدح الموجّه**[8].

---

١. مفتاح العلوم، ص ٢٠٢.

٢. معجم المصطلحات البلاغية، ج ١، ص ١٠٤؛ المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص ٦٩.

٣. الصناعتين، ص ٤٢٣.

٤. البديع في نقد الشعر، ص ٥٨.

٥. تحرير التحبير، ص ٤٤٣.

٦. معجم المصطلحات البلاغية، ج ١، ص ١٠٣. انظر: الايضاح، ص٢٨٣؛ ديوان المتنبي، ج ١، ص٧٢.

٧. حدائق السحر، ص ١٣١.

٨. لمعجم المفصّل، ص ٦٩.

والاستتباع هو أن يذكر القائل معنى ثمّ يُتبعه بآخر يفيد زيادة المعنى الأوّل وأكثر ما يكون في المدح نحو قول المتنبّي:

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمارِ ما لَوْ حَوَيْتَهُ لَـهُنِّئَتِ الدُّنـيا بـأَنَّكَ خـالِدُ[١]

فقد مدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة، واستتبع ذلك بأنّه لو خُلّد لكانت الدنـيا هنيئة سعيدة[٢].

وقوله أيضاً يمدح به سيف الدولة وقد ورد عليه رسول الروم يطلب الهدنة:

إلى كم تَرَدُّ الرسْلَ عـمّا أتـوا لَـهُ كـأَنَّهُمُ فـيما وَهَـبْتَ مَـلامُ[٣]

فترى المتنبّي يمدح سيف الدولة بالشجاعة والعزّة في ردّ الرسل عـمّا أتـوا له وصدّهم عن مطلوبهم والتهاون بمرسلهم، واستتبع في باقي البـيت مـدحه بـالكرم لعصيان الملام في الهبات وإذ كان الغرض من هذا البيت توفير صـفتي الشـجاعة والسخاء لممدوحه كان أسلوب الاستتباع ممّا يقتضيه المقام ومنه قول الشاعر:

ألا أيُّها المال الذي قد أبادَهُ تسلّ فهذا فعلُه في الكتائب

فقد مدحه بأنّه مبيد للمال بتوزيعه على المعتفين والمحتاجين على وجه استتبع مدحه بكونه شجاعاً مبيداً لكتائب الأعداء وقد ضاعف جمال البيت وحسنه إشعار الشاعر بأنّ المال متضايق ممّا فعل به الممدوح، ثمّ تعزيته بدعوته إلى التأسّي بحال كتائب الأعداء، كما قال أبو نواس يمدح:

بُـحَّ صـوتُ المـالِ مـمّا يشكـو مـنكَ ويـنوحُ

وكقول أبي بكر الخوارزمي:

سَـمْحُ البـديهةِ ليسَ يُـمْسِك لَـفْظَهُ فَكَـأنّما أَلْـفَاظُهُ مِـنْ مـالِهِ

---

١. ديوانه، ج٢، ص٧٢؛ الايضاح، ص٢٨٣.

٢. الإيـضاح، ص٢٨٣؛ مـعاهد التـنصيص، ج٣، ص١٣٢؛ التبيان للطيّبي، ص٣٨٩؛ الطراز، ج٣، ص١٣٧؛ ديوان المتنبي، ج١، ص٣٩٩.

٣. يقول: إنّك تردهم عمّا يطلبون من الهدنة ردّك لوم اللائمين لك في العطاء، أي كما أنّك لا تصغى إلى ملامة لائم في سخائك فكذلك لا تقبل الهدنة. انظر: التبيان للعكبري، ج٣، ص٣٩٤.

مدحه بذلاقة اللسان على وجه استتبع السماحة.

وقد يأتي للهجاء، كقول ابن الرومي:

نكْـهَتُها تَـقْتُلُ جُـلّاسَها | لِقُرْب مَجْشاها من المَفْسَأ

هجاها بالبخر أوّلاً ثمّ استتبعه ببيان قرب طرفيها[1].

وقد يأتي للذمّ وجعلوا من ذلك قول الشاعر في قاضٍ لم يقبل شهادته بـرؤية هلال الفِطر:

أَتَـرىٰ القـاضِيَ أَعْـمى | أَمْ تَـــــراهُ يَـــتَعَامىٰ

سَـرَقَ العِـيدَ كـأنَّ الـ | ـــعيدَ أَمْـوالُ الَيتامىٰ

فاستتبع خيانة القاضي فـي أمـوال اليـتامىٰ بـما قـدّمه فـي خـيانته مـن أمـر العيد.

وقول ابن هانئ المغربي:

إنَّ لفـــظاً نـــلوكُهُ لَشَـبيه | بِكَ في مَنْظَرِ الجفَاءِ الجـليفِ

وصفه بالعِيّ وقبح اللهجة على وجه يستتبع وصفه بجفاء الخلقة والجلافة.

ومن ذلك قول المدني

وبــثّوا الجِـيادَ السـابحاتِ لِـيَلْحَقُوا | وَهَلْ يُدْرِكُ الكَسْلانُ شَأو اخِي المَـجْدِ

فَســارُوا وَعـادُوا خـائِبينَ عـلى وَجـىً | كما خابَ مَنْ قَدْ بَاتَ مِنْهُم على وَعْدِ

وصفهم بخيبة السعي في طلبهم له على وجه يستتبع وصفهم بخلف الوعد[2].

جمال الاستتباع

يتأتّى جمال الاستتباع وحسنه من أنّه يعطيك الفائدة من حيث تتوهّم أن لا فائدة فثمّة لطافة في تقديم المدح أو الهجاء المستتبعين، فإذا كان الذهن قد تلقّى المعنى

---

١. التبيان للطيّبي، ص٣٩٠؛ معاهد التنصيص، ج١، ص١٠٨.

٢. أنوار الربيع، ج٦، ص١٤٩.

الأوّل الذي جاءه واضحاً لا لُبْسَ فيه بشيء من الراحة والاطمئنان وعدم التمحيص، فإنّ المعنى الثاني يأتيه أيضاً على استحياء ويستدعي منه تنشيطاً للإدراك أكثر من ذلك الذي استخدمه في إدراك المعنى الأوّل، ويتفنّن البلغاء عادة في الوجـه الذي يتأتّى فيه أن يستتبع المدح بشيء آخر[1].

---

١. الكافي في علوم البلاغة العربية، ص ٦١٦.

الاتّباع

الاتّباع لغةً: هو التقليد والاحتذاء، و... مصدر: اتّبع، يقال: اتَّبَعَ يَتَّبِعُ اتّباعاً: سار وراءه وتَطَلَّبَهُ، أو حذا حذْوَهُ واقْتدى به، واتّبع القرآن والحديث ونحوهما: عمل بما فيهما، والاتّباع: المشي خلف آخر وفي أثره، أو العمل بكلام الغير والاقتداء به.

والاتّباع اصطلاحاً: هو أن يأتي المتكلّم معنى اخترعه غيره فيحسن اتّباعه فيه بحيث يستحقّه بوجه من وجوه الزيادات التي وجب للمتأخّر استحقاق معنى المتقدّم، إمّا باختصار لفظه، أو تخفيف وزنه، أو عذوبة قافيته وتمكّنها، أو تتميم نقصه وتكميله، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم ويوجب الاستحقاق[1] وهذا حسن الاتّباع[2].

والاحتذاء: هو أن يقتفي متكلّم آخر في أسلوب من أساليب فنّي البلاغة والفصاحة، وهو محمود بل مقصود[3].

فالاصطلاحان متقاربا المعنى. ولمّا كان الاتّباع هو نقيض الإبداع بشكل عامّ

---

١. تحرير التحبير، ص ٤٧٥؛ بديع القرآن، ص ٢٠١؛ أنوار الربيع، ج٦، ص٥.

٢. ينظر: حسن التوسّل، ص ٢٩٨؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٦٥؛ شرح الكافية البديعية، ص ٢٢١؛ أنوار الربيع، ج٦، ص ٥؛ عن معجم النقد العربي، ج١، ص٨٤.

٣. التبيان للطيّبي، ص ٤٥١.

نرى أنّ من البلغاء من ألْحَقَ بحسن الاتّباع عبارة «والقدرة على الاختراع»[١].

وذكر ابن رشيق[٢] أنّ المتّبع إذا تناول معنىً فأجاده، فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك إن قلّبه، أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر.

فأمّا إن ساوى المبتدع، فله فضيلة حسن الاقتداء وإن قصر كان ذلك دليلاً على ضعف قدرته.

فممّا أجاد فيه المُتّبعُ على المُبْتَدِعِ قولُ الشّمّاخ:

إذا بَلَّغتِني، وحملتِ رَحْلي عَرابَةَ فأَشْرَقي بِدَمِ الوَتينِ[٣]

يقول لها: إذا حملت رحلي وبلّغتني عرابة، لم تبق إليك حاجة وحَلَّ ذبحُك، فمن حيث اللفظ نرى التقديم والتأخير والفصل بين الفعل ومفعوله، ومن حيث المعنى نرى سوء المكافأة، إذ كانت عاقبة الأين والكلال العقر.

فقال أبو نواس:

أَقُولُ لناقَتِي إذْ بلَّغَتْنِي: لَقَدْ أصْبَحْتِ عندي باليَمِينِ

فَلَمْ أَجْعَلَكِ للغِرْبَانِ نُحْلاً ولا قُلْتُ: أشرَقي بِدَمِ الوَتِينِ[٤]

فقد جعلها في يمينه، ومكان تقريبه وما يحرص عليه، وجنبها سوء المكافأة التي وعدها به الشمّاخ.

وكرّره فقال:

وإذا المطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمّداً فظُهُورُهُنَّ على الرِّجالِ حَرامُ

---

١. ينظر: صبح الأعشى، ج٢، ص٢٩٢ وما بعدها.

٢. العمدة، ج٢، ص١٠٥٤.

٣. البيت في ديوان الشماخ، ص ٣٢٣ برواية «... وحططت رحلي»، وفأشرقي: فغُصّي، الوتين: هو ما يعرف قديماً بعرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

٤. وأصبحت عندي باليمين. أي: باليمن والبركة نُحلاً: الشيء المعطى بلا عوض، انظر: العمدة، ج٢، ص١٠٥٤؛ حلية المحاضرة، ج٢، ص٨٦؛ الصناعتين، ص ٢١١.

قَرَّبْنَنا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الحَصى　　فَلَها علينا حُرْمَة وذِمامُ[١]

فقد فاق المتّبع المبتدِع بما حسَّن من المعنى وحمّله، وجعل فيه دلالة التقدير لمّا أبلت في سبيل إبلاغه غايته، فقد آنَ لها أن تستريح من الرحيل، وأصبح لها حرمة وذمام، وأصبح ظهرها حراماًلا يركب، ولا تجهد بحمل ولا ظعن.

وقول النابغة يذكر طول ليله:

كِليني لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ　　وَليلاأُقاسِيه بَطِيءِالكَواكِبِ

تَطاوَلَ حتّى قُلْتُ: ليسَ بِمُنْقَضٍ　　وَليسَ الذي يرعى النجُومَ بآيِبِ

وقول أبي الطيّب في وزنه ورويّه:

اعيدوا صباحي، فهو عندَ الكَواعِبِ　　وَرِدُّوا رُقادي، فَهْوَ لَحْظُ الحَبَائِبِ

فإنَّ نهارِي ليلةٌ مُدْلَهِمّةٌ　　على مُقْلَةٍمن فَقْدِكم في غياهبِ[٢]

فترى ما فيه من الزيادة وحسن المقصد على أن بيتي النابغة عندهم في غاية الجودة.

وممّا تساوى فيه المتّبع والمبتدع قول أمرئ‌القيس:

فلو أنّها نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيّةً　　وَلكِنّها نَفْسٌ تساقِطُ أَنْفُسَا[٣]

وقول عبَدةَ بن الطيّب:

فَما كانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ　　ولكنّه بُنْيانُ قَوْمٍ تَهَدَّما[٤]

وممّا قَصَّرَ فيه الآخذ عن المأخوذ منه قول عزّالدين الموصلي في بديعيته:

والجَزْعُ حنَّ إليهِ بَعْدَ فُرْقَتِهِ　　حُسْنُ اتّباعِ لِتِلْكَ الأَرْبُعِ الحرمِ

فقد ذكر الشيخ عزّالدين في شرحه أنّه أتبع الفرزدق في قوله في مديح الإمام زين‌العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ عليهما السلام وهو هذا:

---

١. العمدة، ج٢، ص١٠٥٥؛ البيتان في ديوان أبي نواس، ص٤٠٨؛ حلية المحاضرة، ج٢، ص٨٥.

٢. العمدة، ج٢، ص٩٧٥ و ٩٧٦؛ ديوان المتنبي، ج١، ص٢٧٤ و فيه «بعدكم» بدل «فقدكم».

٣. ديوانه، ص٩٩.

٤. ديوان عبدة، ص ١٢؛ العمدة، ص ٨١٦و ١٠٥٥.

هذا الذي تَعْرِفُ البطحاء وَطْأَتَهُ والركنُ يَعْرِفُهُ والبيتُ والحَرَمُ

وقول الفرزدق:

فياليتنا كنّا بَعيرينِ لا نَجِدْ على مَنْهَلٍ إلّا نُشَلُّ ونُقْذَفُ

فاسترقه كثيّر فقال:

ألا ليتنا يا عِزُّ كنّا لدى غنى بعيرينِ نَرْعى في الفلاةِ ونعزبُ

وهذا ممّا كرّه من سوء الأمنيّة[1].

وقال أبو العتاهيّة:

كَمْ نِعْمَةٍ لايُسْتَقَلُّ بِشُكْرِها لِلّهِ في طَيِّ المَكارِهِ كامِنَهْ

فأحسن أبو تمّام اتّباعه فقال:

قد يُنْعِمُ اللّهُ بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلي اللّهُ أدنى القومِ بالنِعَمِ

فزاد عليه إلّا أنّه أتى بعكس المعنى[2].

ومن شواهد الاتّباع المستحسنة حسن اتّباع ابن الرومي لمحمّد بن عبداللّه النميري في قوله يتغزّل بزينب أخت الحجّاج وأترابها، وهو:

تضوّع مِسْكاً بطنُ نُعمانَ إذ مَشَتْ بهِ زينب في نِسْوَةٍ عَطِراتِ

يُخَمِّرْنَ أَطْرافَ البَنانِ مِنَ التُقَى وَيُبْرِزْنَ شَطْرَ الليلِ مُعْتَجِراتِ

فَهُنَّ اللواتي إن بَرَزنَ قَتَلْنَني وإنْ غِبْنَ قَطَّعْنَ الحشاحَسَراتِ

فقال ابن الرومي وأحسن الاتّباع:

وَيْلاهُ إنْ نَظَرَتْ وإنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقْعُ السهام ونَزْعُهُنَّ أليمُ[3]

---

١. حلية المحاضرة، ج٢، ص٨٣.

٢. خزانة الأدب، ج٢، ص٣٧٨؛ الموازنة، ص ٧٨؛ الصناعتين، ص ١٧١.

٣. انظر: معجم النقد العربي، ج١، ص٨٤؛ انوار الربيع، ج٦، ص٥ و٦؛ حسن التوسّل، ص ٣٠٠، الحماسة البصرية ٢: ٢٠٥ـ٢٠٦، تحرر التحبير ٣: ٤٨١، نهاية الأرب ٧: ١٦٦.

وقال أبو تمّام يرثي طفلين:

لَهفي عَلى تِلْكَ الشَّواهِدِ فِيهِما   لَـو أُمْـهِلَتْ حَتّى تَكُونَ شَمَائِلا
نَجْمانِ شاءَ اللّهُ أَنْ لا يَطْلُعا   إلّا ارتِدادَ الطَّرْفِ حَتّى يَأْفُلا

فأحسن أبو الطيّب المتنبّي اتّباعه فقال يرثي عبد اللّه بن سيف الدولة:

بِنَفْسِي وَلِيدٌ عادَ مِنْ بَعْدِ حَمْلِهِ   إلى بَطْنِ أُمٍّ لا تُطَرِّقُ بِالحَمْلِ
بَدا وَلَهُ وَعْدَ السَّحابَةِ بالرِّوَي   وَصَدّ وَفِينا غُلَّةُ البَلَدِ المَحْلِ

فأجاد السبك وزاد بمراعاة النظير بين السحابة والرويّ، والغلّة والمحلّ، وأربى عليه بقوله: «وصدّ وفينا غلّة البلد المحلّ»؛ لأنّه مقدار حاجتهم إلى وجوده[1]

وقال النابغة:

يَقُولونَ حِصْنٌ ثمّ تَأْبى نُفُوسُهُم   فكيفَ بِحِصْنٍ والجِبالُ جُموحُ[2]

وأحسن ابن بسّام اتّباعه فقال:

قد استوى الناس وماتَ الكمال   وصاحَ صَرْفُ الدَهْرِ أينَ الرجال
هذا أبو القاسم في نَعْشِهِ   قُومُوا انْظُرُوا كيفَ تَزُول الجبال

وسمع أبو هلال العسكري قول النبيّ ﷺ: «يَسعى بذمّتهم أدناهم وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم حيثما كانوا».

فقال:

يَسْعى بِذِمَّتِهِم أَدناهُم وَهُم   يَدٌ على مَنْ سِواهم حَيثما كانوا[3]

وسمع أبو تمّام قول الإمام عليّ ؑ للأشعث بن قيس: «إنّك إن صَبِرْتَ جَرَى عليكَ قضاءُ اللّهِ وأنتَ مأجُور، وإنْ جَزِعْت جَرَى عليكَ أمرُ اللّهِ وأنتَ مَوْزُور؛ فإنّكَ إنْ

١. أنوار الربيع، ج٦، ص ١٠؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٤٢؛ شرح الصولي لديوان أبي تمّام ج٣، ص٣٣٢؛ العرف الطيب، ص ٢٨٨؛ المثل السائر، ج٢، ص٣٩٣؛ ديوان المتنبي، ج٣، ص ١٧٥ـ١٧٦.

٢. ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٩، جموح: الواحد جامح، وهو من جمحت المفازة بالقوم: طوحت بهم.

٣. الصناعتين، ج٧، ص ٢٢١.

لم تَسْلُ احتساباً سلوتَ كما تَسْلو البهائم».

فحكاه حكايةً حسنة في قوله:

وقالَ عليٌّ في التعازي لأشْعَث	وخافَ عليهِ بَعْضَ تلك المآثِم
أتَصْبِرُ للبَلْوَى رجاءً وحِسْبَةً	فتُؤجَرَ أمْ تَسْلُو سُلُوَّ البهائِمِ
خُلِقْنَا رِجالاً للتجلُّدِ والأسى	وتِلْكَ الغواني للبُكا والمآتِمِ

وممّن أحسن الاتّباع ـ أيضاً ـ أحمد بن يوسف ـ وقد سمع قول الإمام عليّ عليه السلام: «لا تكونَنَّ كمن يعجز عن شُكْرِ ما أُوتِيَ، وَيَلْتَمِسُ الزيادة فيما بقى».

فكتب: أحقّ من أثبت لك العُذر في حالِ شغلك من لم يَخْلُ ساعةً من بِرّك في وَقْتِ فراغِكَ.

وأخذه أخذاً ظاهراً أحمد بن صبيح فقال: في شُكرِ ما تقدَّم من إحسان الأمير شاغِلٌ عن استبطاء ما تأَخَّرَ منه.

وأخذه سعيد بن حميد، فقال: لست مُستَقِلّاً لشُكْرِ ما مَضَى من بلائِكَ فأستبطئ دَرْكَ ما أؤملُكَ من مَزِيدك.

ومن حسن الاتّباع ـ أيضاً قول إبراهيم بن العباس حين كتب: «إذا كان للمحسن من الثواب ما يُقنعه، وللمُسيء من العقاب ما يَقْمَعُه، ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المُسيءِ للحقّ رهبة».

أخذه من قول الإمام عليّ عليه السلام: «يجبُ على الوالي أن يتعهّد أموره، ويتفقّد أعوانه حتى لا يخفى عليه إحسانُ مُحْسِن، ولا إساءَةُ مسيء، وإلّا فسد الأمْرُ، وضاعَ العمل»[١].

١. انظر: كتاب الصناعتين، ص ٢١٤.

ردّ العجز على الصدر

هو كلام منثور أو منظوم يلاقي آخره أوّله بوجه من الوجوه[1]، أو هو عبارة عن كلّ كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظيّة غالباً، أو معنويّة نادراً تحصل بها الملائمة[2]، والتلاحم بين قسمي كلّ كلام.

وأوّل من تعرّض لهذا اللون هو ابن المعتزّ (ت ٢٩٦هـ،ق) فالفضل له في هـذا المصطلح وفي تقسيمه وانتقاء أمثلته، وسّماه «ردّ الأعجاز على ما تقدّمها» وقسّـمه إلى ثلاثة أقسام[3]:

١. ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه الأوّل، كقول الشاعر:

تُلْقى إذا مـا الأَمْـرُ كـانَ عَـرَمْرَماً　　　في جـيشِ رَأْيـلاً يُـفَلُّ عَـرَمْرَمِ[4]

وقد سمّى المصري هذا النوع «تصدير التقفية».

٢. ما يوافق آخر كلمة منه أوّل كلمه في نصفه الأوّل، كقوله:

---

١. نهاية الأرب، ج٧، ص١٠٩.

٢. من الروابط المعنوية، قوله تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ المائدة: ١٠٥، أي لا يضرّكم عن دينكم إذا كنتم مهتدين من ضلّ إذا اهتديتم.

٣. البديع لابن المعتزّ، ص٤٧ و ٤٨.

٤. العرمرم الأولى: بمعنى الكثير والثانية بمعنى الشديد.

سـريعٌ إلى ابـن العـمّ يشـتِمُ عِـرْضَهُ   وليس إلى داعــي النَّــدى بِسـريعِ[١]

وسمّى المصري هذا النوع «تصدير الطرفين».

٣. ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه، كقوله:

عــميدُ بـني سُـلَيْم أَقْـصَدَتْهُ   سِهامُ الموتِ وَهيَ لَـهُ سِـهامُ

وسّمى المصري هذا النوع «تصدير الحشو».

وأضاف قدامة نوعاً آخر سمّاه التبديل وهو أن يصيّر المتكلّم الأخير من كلامه أوّلاً، أو بالعكس، كقول ابن الرومي:

رَيْـحانُهُم ذَهَبٌ عـلى دُرَرٍ   وَشَرابُـهُم دُرَرٌ عـلى ذَهَـبِ[٢]

ونحو قولهم: اشكر لمن أنعم عليك وانعم على من شكركَ[٣]

وأمّا أبو هلال، فتأثّر في هذا اللون بابن المعتزّ، وأربى عليه بتبيين مـوقعه مـن البلاغة، و أنّ له في المنظوم ـ خاصّة ـ محلّاً خطيراً، وزاد قسماً رابعاً، وهو ما يقع في حشو النصفين، كقول النمر:

يَوَدُّ الفتى طولَ السـلامةِ والغـنى   فكيفَ تَرى طولَ السلامةِ تـفعلُ

وأشار إلى المعيب منه[٤].

وأضاف أسامة بن منقذ باباً مستقلّاً سمّاه «التشعيب» وهو أن يكون في المصراع الثاني كلمة من المصراع الأوّل ومثّله بقول الشريف الرضي:

ولقد مررتُ عـلى ديـارهم   وطـلولُها بـيد البـلى نـهبُ

---

١. أنـــظر: دلائـــل الاعـــجاز، ص ١٥٠؛ الاشـارات، ص٣٧؛ المـصباح، ص ١٦٥؛ الصـناعتين، ص ٤٠١؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٢٤٢؛ نهاية الارب، ج ٧، ص ١٠٩؛ حسن التوسل، ص ٢١٤؛ والبيت للمغيرة بن عبدالله المعروف بالأقيشر الأسدي في تحرير التحبير، ج ١، ص ١١٦؛ و الايضاح، ص ٢٩٤ بلانسبة.

٢. ديوان ابن الرومي، ج ١،: ص ١٤٧؛ العمدة، ج ١، ص ٥٧٤؛ كفاية الطالب، ص ١٤٢.

٣. نقد الشعر، ص١٣٨.

٤. كتاب الصناعتين، ص ٣٨٥ و ٣٨٨.

فوقفتُ حتى عجَّ من نَصَبٍ   نـضْوي ولجَّ بِـعَذْليَ الرَّكبُ
وتلفَّتتْ عيني فـمذ خـفيت   عـنّي الديـارُ تـلفَّت القـلْبُ

وهذا يدخل في ردّ العجز على الصدر[1].

أما المصري، فيردّد كلام ابن المعتزّ في باب «رد الأعجاز على الصدور» قائلاً: ويسمّى التصدير ويذكر أن بين التصدير والتسهيم فرقاً، وهـو أنّ التـصدير ضـرب معنوي، والتسهيم ضرب لفظي.

وأخذ المصري يسوق كلّ قسم من الأقسام التي ذكرها ابـن المـعتزّ و تـعريفه و النقد عليه[2].

وأمّا القزويني، فقد عرّفه في النثر بقوله: «أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة، والآخر في آخرها».

وكذلك عرّفه في الشعر بقوله: «وفي الشعر أن يكون أحدهما في آخر البـيت، والآخر في صدر المصراع الأوّل، أو حَشْوِه، أو آخره، أو صدر الثاني»[3].

فهذه صور أربع، كلّ منها يجري مـع واحـد مـن الثـلاثة السـابقة: المكـرّرين والمتجانسين، والملحقين بالمتجانسين[4]، ولهذا نراه قد التزم التمثيل لاثـنتي عشـرة صورة.

وقد أراد ابن معصوم أن يزيد شيئاً، فجعل الصور التي خلّفها القزويني ستّة عشرة صورة؛ إذ جعل الملحق بالمتجانسين نوعين، فجعل المـتّفقين فـي الاشـتقاق مـع اختلاف الهيأة نوعاً ومثّل له بأربعة أمثلة تساير ما جرى عليه الخطيب القزويني، ثمّ

---

١. البديع في نقد الشعر، ص١٣٨.
٢. بديع القرآن، ص ٤٦ و ١٠٠؛ تحرير التحبير، ج١، ص١١٦.
٣. الإيضاح، ص ٢٩٤.
٤. وهو يعني أنّه يأتي بلفظين قد اتّحد معناهما، وبلفظين قد اختلف معناهما، وبلفظين لا يجمعهما أصل اشـتقاقي بعد اتّفاق المكرّر في الحروف، أو يجمعهما مع اختلاف الهيأة.

جعل المتّفقين في اللفظ دون أن يجمعهما الاشتقاق أو الاشـتراك نـوعاً. ومـثّل له بأربعة أمثلة على النسق ذاته.

وعليه فـ«ردّ العجز على الصدر» في الأساليب النثرية يكون على ثلاثة أقسام؛ لأنّ اللـفظين المـوجودين فـي أوّل الفـقرة وآخـرها إمّـا أن يكـونا مكـرّرين، أو متجانسين، أو ملحقين بـالمتجانسين مـن جـهة الاشـتقاق أو مـن جـهة شـبه الاشتقاق.

فالقسم الأوّل: «المكرّران»: وهما المتّفقان في اللفظ والمـعنى، كـقوله تـعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[١]. فـقد وقـع «تخشى» في أوّل هذه الفقرة وكرّر في آخرها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٣].

والقسم الثاني «المتجانسان»: وهما المتّفقان في اللفظ دون المعنى نحو قولهم: «سائل اللئيم يرجع، ودمعه سائل» فالأوّل من السؤال، والثاني من السيلان.

وقد يكونان متّفقين في المعنى دون اللفظ، نحو قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤].

فقد ردّ «العزيز» إلى تفرّده بالوحدانيّة التي تقتضي العـزّة، وردّ «الحكـيم» إلى العدل الذي هو القسط.

---

١. الأحزاب: ٣٧.

٢. الأنعام: ١٠.

٣. الإسراء: ٢١.

٤. آل عمران: ١٨.

والقسم الثالث «الملحقان بالمتجانسين»: أي اللذان يجمعهما اشتقاق أو شبهه.

١. ما جمعهما الاشتقاق، نحو قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[١]. فإنّ «استغفروا» و «غفّاراً» مشتقين من المغفرة، ولذلك اُلحقا بالمتجانسين.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[٣].

وقول النبيّ ﷺ: «أطعموا اللّه يطعمكم».

ومن أقوال الإمام عليّ عليه السلام:

«جاهِلٌ خبّاطُ جهالات، عاشٍ ركّابُ عَشَوات»[٤].

و «ولا عِندهُم أنْكَرُ من المعروفِ ولا أعرفُ من المُنكر»[٥].

و «حُمِلوا إلى قُبُورِهم غير راكبين، وأنزِلُوا فيها غيرَ نازلين»[٦].

و «سَبَقَ في العُلُوِّ فلا شيءَ أعلى منهُ، وَقَرُبَ في الدُّنُوِّ فلا شيءَ أقربُ منْهُ»[٧].

٢. ما جمعهما شبه اشتقاق، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾.

فـ«قال» مشتقّ من القول، و «قالين» مشتقّ من «قِلى» بمعنى أبغض فبينهما شبه اشتقاق من حيث الحروف الأصليّة وهي القاف واللام وإن كانا من مصدرين مختلفين مدلولاً وهما: القول، والقلى ونحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ

---

١. نوح: ١٠.

٢. طه: ٦١.

٣. آل عمران: ٨.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٧ ـ ٨.

٥. المصدر، الخطبة ١٧ ـ ١٢.

٦. المصدر، الخطبة ١٨٨ ـ ٤.

٧. المصدر، الخطبة ٤٩ ـ ٢.

أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢].

وردّ العجز على الصدر في الأبيات الشعريّة أن يكون أحدهما في عجز البيت، والآخر: إمّا في صدر المصراع الأوّل، أو في حشوه، أو في عجزه، و إمّا في صدر الثاني. وعلى كلّ من هذه التقادير فاللفظان، إمّا مكرّران، أو متجانسان، أو ملحقان بهما سواء كان اشتقاقاً أوشبهه، فيكون كالآتي:

أ) صدر المصراع الأوّل، عجز البيت.

ب) حشو المصراع الأوّل، عجز البيت.

ج) عجز المصراع الأوّل، عجز البيت.

د) صدر المصراع الثاني، عجز البيت.

ولسهولة التوضيح فإنّ كلّاً من الفقرات الأربع إمّا أن تتّفقا صورة ومعنىً أو صورة، أو معنى.

الأوّل: أن يقعا طرفين، متّفقين صورة ومعنى: كقول الشاعر:

تمنّت سُليمى أن أَمُوتَ صبابةً وأهونُ شيءٍ عندنا ما تمَنَّت[٣]

وهذا أوّل أمثلة المكرّرين فـ «تمنّت» الثانية في آخر البيت والأُولى في أوّله اتّفقتا صورة ومعنىً.

أو صورة، كقول الشاعر:

ذوائبُ سُودٌ كالعناقيدِ أُرْسِلَتْ فَمِنْ أجلِها منّا النفوسُ ذوائبُ[٤]

---

١. الإسراء: ٨٣.

٢. الأنبياء: ٨٧.

٣. البيت في دقائق السحر، ص١١١؛ التبيان، ص٤٩٦؛ حسن التوسل، ص٢١٥؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٤٢.

٤. الاشارات، ص٢٣٤؛ نهاية الايجاز، ص١٣٥؛ المصباح، ص١٩٧؛ التبيان، ص٤٩٦؛ الايضاح، ص٢٩٥؛ ←

الذوائب الأولى: جمع ذؤابة وهيّأ أعلى شعر الرأس، والذوائب الثانية: جمع ذائبة بمعنى سائلة وهذا أوّل أمثلة المتجانسين وهو ما يكون أحد المتجانسين في صدر البيت والآخر في عجزه.

أو معنى. كقول مضروس بن ربعي:

تَـمَنّيتُ أن ألقـىٰ سُـليماً ومـالِكاً   على ساعةٍ يُنسي الحَليم الأمانيا[1]

قوله: تمنّيت مع قوله الأمـانيّ مـتّفقان فـي المـعنى ومـختلفان فـي الصـورة، وهــذا أوّل أمــثلة المــلحقين اشــتقاقاً، فـالأوّل مـنها أن يكـون عـجز البـيت كصدره.

وأمّا الملحقان بشبه الاشتقاق، كقول الحريري.

ولاحَ يَـلْحى عـلى جـرى العـنان إلى   مـلهىً فسُـحْقاً لَـهُ مـن لائـحٍ لاحِ[2]

فلاح الأوّل فعل بمعنى الظهور، ولاح الثاني اسم فاعل من لحاه: أي لاحه ولحاه اللاحي الأمة اللائم.

الثاني: أن يقع في حشو المصراع الأوّل وعجز الثاني، إمّا متّفقين صورة ومعنى، كقول أبي تمّام:

ولم يحفَظْ مُضاعَ العلمِ شـيء   من الأشـياءِكالمالِ المُـضاعِ[3]

← معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٠٩ و فيه: «أسبلت» مكان «ارسلت»؛ نهاية الارب، ج٧، ص١٠٩؛ و الشاعر هـو أبوالحسن المرغيناني.

١. مقامات الحريري، ج ٣، ص ٢٧ (المقامة الرابعة والعشرون)؛ حسن التوسل، ص ٢١٦؛ نقد الشعر، ص ١٦٨؛ الطراز، ج ٢، ص٣٩٣.

٢. مقامات الحريري، ج٣، ص٢٧ (المقامة الرابعة والعشرون).

٣. ديوانه، ج ٢، ص٢٦٧؛ الايضاح، ص ٢٩٤؛ باحسن التوسل، ص٢١٦؛ المطول، ص ٦٩٤. وكقول الشاعر:

تـــمتّع مِــنْ شـــميم نَــجْدٍ   فــما بـعد العشـية مـن عَـرارِ

أي: استمتع بشمّ عرار نجد و هي وروة ناعمة صفراء طيبة الرائحة، فإنا سوف نفقدها إذا غاورنا أرض نجد (انتظر: الايضاح، ص ٢٩٤)

وهذا هو الثاني من أمثلة المكرّرين فالمضاع في آخر البيت مع المضاع في حشو الشطر الأوّل قد اتّفقا صورة ومعنىً.

أو صورة، كقول الشاعر:

لا كان انسانٌ تَيَمّم صائداً صيد المها فاصطادَهُ انسانُها

وهذا هو الثاني من أمثلة المتجانسين: فالإنسان في آخر البيت «بمعنى حدقة العين» مجانس للإنسان الواقع حشواً في الشطر الأوّل منه.

أو معنى، كقول امرئ القيس:

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليهِ لِسانَهُ فليسَ على شيءٍ سِواهُ بخَزّانِ[1]

فيخزن في الحشو وخزّان في العجز مشتقّان من الخزن.

وأمّا الملحقان بشبه الاشتقاق، كقول أبي العلاء المعرّي:

لو اخْتَصَرْتُم من الإحْسانِ زرتكُمُ والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفراط في الخَصَرِ[2]

فإنّ الأوّل وهو الواقع في الحشو مأخوذ من مادّة الاختصار، والثاني مأخوذ من خصر أي برد. فقوله: اختصرتم مع الخصر بينهما شبه الاشتقاق؛ لأنّه المتبادر منهما كونهما من مادّة واحدة وليس كذلك. فليس هنا شبه اشتقاق ـكما مثّل له البلاغيون ـ إذ لم يؤخذا من شيء واحد حتى يتبادر كونهما من أصل واحد، ولما كانا مأخوذين من الفعل على قول واحد؛ إذ التبادر ممّا اكتفى فيه التوهّم.

الثالث: أن يقع أحدهما في آخر الشطر الأوّل و الشطر الثاني في آخر «البيت»، إمّا متّفقين صورة ومعنى، كقول جرير:

---

١. ديوانه، ص٩٠؛ الايضاح، ص٢٩٦؛ الاشارات، ص٢٣٥ با المطول، ص٦٩٣؛ اساس البلاغة (خزن).

٢. الايضاح، ص٢٩٦؛ سر الفصاحة، ص٢٦٧؛ سقط الزند، ج١، ص١٢٠؛ خزانة الحموى، ص٤١٠؛ المصباح، ص١٦٥.

زَعَمَ الفرزدقُ أنْ سيقتلُ مِرْبعاً   أَبْشِرْ بطولِ سَلامَة يا مِرْبَعُ[1]

وهذا ثالث أمثلة المكرّرين: «مربع» الأوّل والثاني قد اتّفقتا صورة ومعنىً.

أو صورة، كقول الحريري:

فَمَشْغُوفٌ بآياتِ المثاني   وَمَفْتُونٌ بِرَنّاتِ المَثاني[2]

«المثاني» الأوّل أمّ القرآن، والأخير: أوتار الطرب [أوتار عود الغناء].

وهذا هو الثالث من أمثلة المتجانسين وهو ما يكون فيه أحد المتجانسين في آخر الشطر الأوّل والآخر في آخر الشطر الثاني.

أو معنىً كقول بن عيينة:

فَدَعَ الوَعِيَد فما وعيدك ضائري   أَطَنينُ أجْنَحَةِ الذُّبابِ يَضِيرُ؟[3]

وهذ ثالث الملحقين اشتقاقاً، فبين ضائر ويضير اشتقاق ملحق والأوّل منهما في آخر المصراع الأوّل والثاني في عجز البيت:[4]

وأمّا الملحقان بشبه الاشتقاق، كقول الحريري:

ومُضطَلِع بتلخيص المعاني   ومُطَّلعٌ إلى تلخيصِ عانى

فالعاني في آخر البيت بمعنى الأسير من عنا يعنو إذا أُسِرَ، والمعاني في آخر الشطر الأوّل جمع معنى من عنى يعني بمعنى قصد.

الرابع: أن يقع أحدهما في بداءة المصرع الثاني والآخر في عجزه، إما متّفقين صورة ومعنى، كقول الحماسي:

---

١. الإيضاح، ص ٥٤٥؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٢٧١ ومثله قول ابن جابر:

زرت الديار عن الأحبّة سائلاً   ورجعت ذا أسف ودمع سائل

ونزلتُ في ظلِ الأراكة قائلاً   والربعُ أخرسُ عن جواب القائلِ

٢. مقامات الحريري، ص ٥٢١؛ الايضاح، ص ٢٩٥؛ الاشارات والتنبيهات، ص ٢٣٤.

٣. الاشارات، ص ٢٣٥؛ معاهد التنصيص، ٣، ٢٢٨؛ الايضاح، ص ٢٩٦.

٤. المطول، ص ٢٣٥؛ مقامات الحريري، ج ٤، ص ٢٢٧؛ حسن التوسل، ص ٢١٨.

وإن لم يكن إلّا مُعرَّجَ ساعةٍ قليلاً، فإنّي نافِعٌ لي قَلِيلُها[١]

وهذا رابع أمثلة المكرّرين «قليلها» في عجز البيت مع قليلاً في بداءة الشطر الثاني قد اتّفقتا صورة ومعنىً.

أو صورة، كقول الأرّجاني:

أمَّلْتُهُم، ثمّ تأمَّلْتُهُم فَلاحَ لي أن ليس فيهم فَلاح[٢]

فلاح الأوّل مركّب من الفاءوالفعل وهو بمعنى ظهر. والثاني بمعنى الفوز والنجاح وهذا هو الرابع من المتجانسين وهو أنّ ما يكون فيه أحد المتجانسين في بداءة المصراع والآخر في عجزه.

أو معنى، كقول أبي تمّام:

وَقَدْ كانتِ البيضُ القَواضِبُ في الوَغى بَواتِرَ وَهِيَ الآن مِنْ بَعْدِهِ بُتْرُ[٣]

فإنّهما مشتقّان من البتر وهو القطع، اتّحد الاشتقاق واختلفت الصيغة والمراد أنّها مقطوعة الفائدة بعد موته على الاستعارة.

وهذا هو رابع الملحقين اشتقاقاً وهو ما يكون فيه الملحق الآخر منهما في صدر المصراع الثاني.

أمّا الملحق بشبه الاشتقاق، كقول الشاعر:

لَعمْري لقد كانَ الثُّريا مكانَهُ ثَراءً فأضْحى الآنَ مَثْواهُ في الثَّرى[٤]

لأنّ الثرا من الثروة والآخر هو التراب، ويضعف كون هذا المثال من الملحق أنّهما لم يشتقّا من شيء واحدحتى يتوهّم فيهما الاشتقاق فالأقرب فيهما التجانس

---

١. الاشارات، ص٢٣٤؛ ديوان ذي الحريري، ص٤٠٩؛ الإيضاح، ص ٢٩٥.

٢. ديوانه، ج١، ص٢٩٧؛ الاشارات، ص٢٣٥؛ الايضاح، ص٢٩٥؛ التبيان، ص٤٩٨.

٣. ديوانه، ج٤، ص٨٣؛ الاشارات، ص٢٣٥؛ الايضاح، ص٢٩٦؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٧٧؛ التبيان، ص٤٩٩.

٤. المصباح، ص١٩٧؛ التبيان، ص٤٩٨.

وقد يقال يكفي في ذلك التبادر وكون أحدهما مما يؤخذ من الشيء فيسري الوهم في الآخر.

ومن نوادر هذا الباب بيتا الحريري اللذان سمّاهما «المطرفين» وهما:

سِمْ سِمَة تُحمدُ آثارُها واشكر لمن أعطى ولو سِمسِمه

والمكرُ مهما اسطعتَ لا تأتِهِ لتقتني السؤدَدَ والمَكْرُمَه[1]

فإن لم يقع في العجز فليس من هذا الباب، كقول زياد الأعجم:

ونُبّئْتُهم يستنصِرُون بكاهِلٍ وللّؤم فيهم كاهلٌ وَسَنام)[2]

---

١. مقامات الحريري (المقامة السادسة والأربعون)، ج٤، ص١٩٨؛ حسن التوسل، ص ٢١٩.

٢. نقد الشعر، ص١٦٢؛ إعجاز القرآن، ص٧٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١١٢؛ شرح مقامات الحريري للشريشي، ج٤، ص٢٢٠؛ حسن التوسل، ص ٢٢٠.

التجريد

التجريد لغةً: إزالة الشيء عن غيره.

واصطلاحاً: هو أن ينتزع من أمر ذي صفة «أو أكثر» أمر آخر «أو أكثر» مثله في تلك الصفة؛ لإفادة المبالغة بادّعاء كمال الصفة في ذلك الأمر، حتى كأنّه بلغ مبلغاً من الاتّصاف بتلك الصفة بحيث يصحُّ أن ينتزع منه موصوف آخر متّصف بتلك الصفة، فكأنّما يفيض بمثاله لقوّته، كما يفيض الماء عن البحر[١].

وأوّل من سمّاه بهذا الاسم هو أبو عليّ الفارسي (ت٣٧٧هـ.ق) ذكر ذلك ابن جنّي (ت٣٩٢هـ.ق) في معرض حديثه عن هذا الأسلوب قائلاً: «اعلم أنّ هذا فصل من فصول العربية طريف حسن، ورأيت أبا عليّ ـ رحمه اللّه ـ به غريّاً [مولعاً به] معنياً، ولم يفرد له باباً، لكنّه وسمهُ في بعض ألفاظه بهذه السمة، فاستقرأته منه وأنقت به. ومعناه أنّ العرب قد تعتقد أنّ للشيء في نفسه معنىً آخر كأنّه حقيقته ومحصوله، وقد يجري ذلك إلى ألفاظها لما عقدت معانيها، وذلك نحو قولهم: «لئن لقيت زيداً لتلقينَّ منه الأسد» و«لئن سألته لتسألنَّ البحر».

فظاهر هذا أنّ فيه من نفسه أسداً وبحراً، وهو بعينه الأسد والبحر، لا أنّ هناك

---

١. التجريد في علم البيان: نوع من الاستعارة ويكون بذكر ما يلائم المستعار له، ويسمى ـ أيضاً ـ الاستعارة المجردة.

وهو في الفن: اعتبار القيمة الفنية كامنة في الأشكال والألوان بغضّ النظر عن الموضوع المصوّر.

شيئاً منفصلا وممتازاً منه، وعلى هذا يخاطب الإنسان نفسه حتى كأنّها تقابله أو تخاطبه»[١].

ولا يبعد أن يكون هناك علماء ونقّاد آخرون قد تعرّضوا للتجريد قبل الفارسي.

وتعرّض له المبرّد (ت ٢٨٥ هـ. ق) في الكامل وإن لم يسمّه بهذا الاسم حيث قال: في قول أعشى باهلة:

أخو رغائِبَ يُعطيها ويَسألها ... يأبى الظُّلامَةَ منه النوفلُ الزُّفَر[٢]

«وإنّما يريده بعينه، كقولك لئن لقيت فلاناً ليَلْقَيَنَّكَ منه الأسدُ».

وعلّق المبرّد على بيت الأعشى:

يا خيرَ مَنْ يركبُ المَطِيَّ ولا ... يَشرَبُ كأساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلا[٣]

قائلاً: «إنّما تشرب بكفّك ولست ببخيل».

وأشار عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ. ق) إلى هذا الفن، وأبعده عن الاستعارة، وقال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[٤].

«والمعنى ـ واللّه أعلم ـ أنَّ النار هي دار الخلد، وأنت تعلم أن لا معنى لها هاهنا؛ لأن يقال: إن النار شُبّهت بدار الخلد؛ إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشيء يسمّى دار الخلد، كما تقول في زيد «إنّه مثل الأسد» ثمّ تقول: «هو الأسد» وإنما هو كقولك «النار منزلهم ومسكنهم»[٥].

---

١. الخصائص، ج ٢، ص ٤٧٣ و ٤٧٤.

٢. النوفل: البحر، والعطية، وبعض أولاد السباع، والرجل المعطاء، وزفر: كصرد الأسد الشجاع والبحر والنهر الكثير الماء، ومن العطية الكثير والقوي على حمل الأثقال وقوله: «وإنّما يريده بعينه» يريد أن «من» التجريد. (رغبة الآمل، ج ١، ص ١٩٤).

٣. ديوانه، ص ٢٣٥. ذكر ابن معصوم معلقاً على هذا البيت: فقد انتزع من الممدوح جواداً يشرب هو الكأس بكفّه على طريق الكناية؛ لأنّه إذا نفى عنه الشرب بكفّ البخيل فقد أثبت له الشرب بكفّ كريم، ومعلوم أنّه يشرب بكفّه، فهو ذلك الكريم (انوار الربيع، ج ٦، ص ١٥٦). انظر: الايضاح، ص ٢٧٥؛ المطول، ص ١٠٣.

٤. فصّلت: ٢٨.

٥. اسرار البلاغة، ص ٣١٠ و ٣١١.

ثمّ ساق ما ذكره المبرّد لشاهدي الأعشى الآنف الذكر.

وأشار الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ.ق) إلى معنى التجريد من خلال تفسيره لآية ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[١].

كما ذكر قراءة عمرو بن عبيد؛ لقوله تعالى ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةٌ كَـالدِّهَانِ﴾[٢] بـالرفع، بمعنى حصلت سماء وردةٌ، وقال: وهو من التجريد[٣].

أمّا ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ.ق) فقد ردَّ بعض كلام الفارسي ونقل بـعضه وعـرّفه فقال: إن التجريد إخلاص الخطاب لغيرك، وأنت تريد نفسك، لا المخاطب نـفسه، لأنّ أصله في وضع اللغة من جَرَّدْتَ السيف، إذا نَزَعْتَه من غِمْدِهِ، وَجَرَّدْتَ فلاناً: إذا نزعتَ ثيابه... وعلى هذا النمط مخاطبة المرء نفسه حتى كأنّه يقاول غيره كما قال الأعشى:

[وَدّعْ هُرَيْرةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ] وَهَـلْ تُـطِيقُ وَدَاعـاً أَيُّـها الرَّجُـلُ

«وهو الرجل نفسه لا غيره»[٤].

وذكر أنّ لهذا الفنّ فائدتين: الأولى: طلب التوسُّع في الكلام. والثانية: وهي الأبلغ تمكّن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره عـلى نـفسه، إذ يكون مخاطباً بها غيره، ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه، كما قسّم ابن‌الأثير هذا الأسلوب الفنّي التجريدي إلى قسمين:

الأوّل: وهو المحض ـ وذلك أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تـريد بـه نفسك، وذلك كقول الشاعر حَيْص بَيْص:

---

١. فصّلت: ٢٨.

٢. الرحمن: ٣٧.

٣. الكشاف، ج ٤، ص ٤٥٠.

٤. المثل السائر، ج ١، ص ٤٠٥ و ٤٠٩؛ ديوان الأعشى، ص ١٠٥؛ الايضاح، ص ٢٧٥؛ حسن التوسل، ص ٢٨٦، أي قوله «ايّها الرجل» قد جرّد الأعشى الخطاب من نفسه وهو يريدها.

أَلامَ يَرَاكَ المَجْدُ في زِيِّ شاعِرٍ وَقَدْ نَحلت شَوْقاً فُروعُ المَنَابِرِ[١]

فهذا من محاسن التجريد، ألا ترى أنّه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه، كي يتمكّن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة.

الثاني: التجريد غير المحض ـ فإنّه خطاب لنفسك لا لغيرك، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلّا أنّه يمكن اعتبارهما كالشيء الواحد أو بمثابة الشيء الواحد.

فممّا جاء منه قول عمرو بن الإطنابة

أَقُولُ لَها وَقد جَشَأَتْ وَجاشَتْ رُوَيْدَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحي[٢]

ونقل العلوي (ت ٧٤٥هـ، ق) معظم ما ذكره ابن الأثير، وقرن كلّ من ابن مالك وابن الأثير الحلبي (ت ٧٢٥هـ، ق) التجريد إلى المبالغة.

يقول ابن مالك: «التجريد: أن تدل على أنّ الشيء بليغ في وصف بدعوى ما يستلزمه صحّة استخلاص موصوف نهياً منه، كما نقول: «لي من فلان صديق كبير» على دعوى أنّه قد بلغ من الصداقة مبلغاً يصحُّ معها أن يستخلص منها مثلها»[٣].

ويقول الحلبي: «هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرٌ آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه»[٤].

ولم يخرج من هذا التعريف كلّ من النويري والعلوي والطيبي[٥] وسمّى ابن قيم الجوزية التجريد المحض «خطاب الغير» وقال: الأوّل خطاب الغير، والمراد به

---

١. ديوانه، ص٣١٦؛ حسن التوسل، ص٢٨٧.

٢. المثل السائر، ج١، ص٤٠٦ و ٤٠٨؛ انظر: أنباه الرواة، ج٣، ص٢٨١؛ الحيوان، ج٦، ص٣٢٥؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٢٨؛ الدرر، ج٤، ص٨٤؛ ديوان المعاني، ج١، ص١١٤. و معنى البيت: أنّه لمّا أراد أن يوطّن نفسه على احتمال المكروه جرّدها مخاطباً لها نصحاً.

٣. المصباح، ص٢٣٦.

٤. حسن التوسل، ص٢٨٥.

٥. نهاية الأرب، ج٧، ص١٥٦؛ الطراز، ج٣، ص٧٢؛ التبيان، ص ٣٨٨.

المتكلّم، وهو أولى باسم «التجريد». وسَـمّى غـير المـحض بـ«خـطاب المـتكلّم نفسه»[١].

وعرّفه الزركشي بقوله: «هو أن تعتقد أنّ في الشيء من نفسه معنى آخر كـأنّه مباين له، فتخرّج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقدت ذلك»[٢].

وعرّفه القزويني في الإيضاح بقوله: «هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخـر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه، وهو أقسام»[٣].

وعرّفه ابن حجّة الحموي في كتابه (خزانة الأدب) فقال: «هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله، وفائدته المبالغة في تلك الصفة، كقولك: مررت بالرجل الكريم، والنسمة المباركة. فجرّدت من الرجل نسمة متّصفة بالبركة وعـطفتها عـليه كـأنّها غيره، وهي هو»[٤].

ونقله السيوطي في كتابه معترك الأقران، وقسّم هذا الفنّ كما قسّمه القزويني[٥].

وعرّفه ابن معصوم المدني بقوله: «أن تنتزع من أمر متّصف بصفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة لكمالها، حتى كأنّه بلغ من الاتّصاف بها مبلغاً يصحّ أن ينتزع منه أمر آخر موصوف بتلك الصفة»[٦]. ثم قسّمه كما في تقسيم القزويني.

وأضاف إليه «أن يكون التجريد بلا توسّط حرف ومن طريق الكناية، وأن يكون بطريق خطاب المرء نفسه».

وهذه الأقسام جمعها المدني ممّن تقدّم من علماء البلاغة[٧].

---

١. الفوائد، ص ٢٣٢.

٢. البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٤٩٦.

٣. الإيضاح، ص٢٧٤.

٤. خزانة الأدب، ج٤، ص٣٢٨.

٥. معترك الأقران، ج١، ص٣٠١.

٦. أنوار الربيع، ج٦، ص١٥٣.

٧. المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص٢٩١.

أنواع التجريد

التجريد على أقسام:

منها ما يكون بحرف أو بدونه، والحرف إمّا يكون «من» أو «البـاء» أو «فـي»، والباء إمّا داخلة على المنتزع منه، أو على المنتزع.

وما يكون بدون الحرف؛ إمّا أن لا يكون على وجه الكـناية، أو يكـون عـلى وجهها، ثمّ هو ـ أي التجريد ـ إمّا انتزاع من غير المتكلّم، أو انتزاع من المتكلّم نفسه.

الأمر الأول: مايكون بحرفٍ و هو علىٰ أقسام

القسم الأول: ما يكون بـ «مِنْ» التجريديّة الداخلة على المـنتزع مـنه، كـقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ...﴾[1].

حيث جزّء من نفسه الزكيّة ـ صلوات اللّه عليه وآله ـ قدوة.

وقول الشاعر:

ترى منهُمُ الأسْدَ الغِضابَ إذا سَطَوا ... وتنظرُ منهم في اللقاء بدورا

وقول الشاعر:

وَبي ظَبْيَةٌ أَدْمَاءُ ناعِمَةُ الصِّبا ... يَحارُ الظباءُ الغِيْدُ مِنْ لَفَتَاتِها

أُعَانِقُ غُصْنَ البَانِ مِنْ لينِ قَدِّها ... وَأَجْني جَنِيَّ الوَرْدِ مِنْ وَجَناتِها[2]

وجاء في خطبة أبي طالب في تزويج خديجة بالنبيّ صلى الله عليه وآله:

«الحمد للّه الذي جعلنا من ذريّة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضي معد...».

---

١. آل عمران: ١٦٤.

٢. التبيان للطيّبي، ص ٢٩٠؛ انوار الربيع، ج٦، ص١٥٣؛ و البيتان لعزّالدين الأربلي في التذكرة الفخرية، ص ٣٦؛ خزانة الأدب، ج ٤، ص٣٢٨.

والقسم الثاني: ما يكون بـ «الباء» التجريديّة الداخلة على المنتزع منه، كقول الشاعر:

دَعَـوْتُ كُـلَيْباً دَعْـوَةً فَكَـأَنَّما دَعَوْتُ بِهِ ابْنَ الطَّوْدِ أو هُوَ أَسْرَعُ

جرّد من كليبٍ شيئاً يُسمّى ابن الطود، وهو الصّدى، أو الحجر إذا تَدَهْدَهَ يُـريدُ سُرْعَةَ أجابتهِ.

وكقول أبي تمّام:

هـتكَ الظـلام أبـو الوليـدِ بـعُزَّةٍ فتَحَتْ لنـا بـابَ الرجـاءِ المُـقْفَلِ

بـأَتَمّ مـن قَـمَر السماءِ إذا بـدا بَدْراً وأحسن في العـيون وأجـملِ

وأحَـلَّ مـن قسٍّ إذا استنطقته رأياً وألطـف فـي الأُمـور وأجْـزلِ

أو أن يكون بدخول «باء» المصاحبة في المنتزع، كقول ذي الرمة:

وَشَوْهاءَ تَـعْدُو بـي إلى صـارِخِ الوَغـى بِـمُسْتَلْئِمٍ مِـثْلِ الفَـنِيقِ المُـرَحَّلِ[1]

فقد انتزع من نفسه مستلئماً آخر، أي مستعدّاً للـحرب، مـبالغة فـي اسـتعداده للحرب، ولزومه لبس اللامة له، حتى صار بحيث يخرج منه مستعدّ آخر يصاحبه، وقد أدخل الباء على المنتزع دون المنتزع منه.

والقسم الثالث: أن يكون بدخول «في» على المنتزع منه. كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[2].

بولغ في اتّصافها بكونها داراً ذات عذاب مخلّد حتى صـارت بـحيث تـفيض،

---

١. الشوهاء: القبيحة المنظر لسعة الأشداق ولكنّه يستحسن في الخيل.

المستلئم لابس اللّامة وهي الدرع، والفنيق: الفحل المكرم عند أهله، والمرحّل من رحل البـعير اذا أرسـل مـن مكانه، أي تعدوبي ومعي من نفسي لابس درع لكمال استعدادي للحرب مسرعاً إلى الحرب مثل الفحل المكرّم عند أهله إذا أرسل.

أنظر: الايضاح، ص٢٧٤ و نهاية الأرب، ج٧، ص١٥٧؛ حسن التوسل، ص٢٨٥؛ ديوان ذي الرمـة، ص١٤٩٩؛ المصباح، ص٢٣٨؛ شرح عقود الجمان، ج٢، ص١١٢؛ اللسان (دجل)؛ الايضاح، ص٢٧٤.

٢. فصّلت: ٢٨.

وتصدر عنها دار أخرى مثلها في الاتّصاف بكونها داراً ذات عذاب مخلد. و«في» هنا للظرفية، فكأنّه قيل: إنّ ثمّة داراً أخرى كانت في هذه الدار التي هي دارهم الملازمة لهم لا ينفكّ عنهم عذابها، ولا يضعف مع طول الخلود، وكلّ ذلك مبالغة في اتّصافها بالشدّة، وتهويل بأمرها في العذاب، وعدم انقطاعه بطول المدّة، فكأنّه قيل: ما أعظم تلك الدار في لزومها لهم، وكونها لا تضعف بالخلود حتى أنّها تفيض بدار أخرى مثلها في اللزوم، وقوّة العذاب بلا ضعف مع التخليد.

وقد رمقها أبو الطيب المتنبّي فقال:

تمضي المواكبُ والأبصارُ شاخِصَةٌ ... منها إلى المَلِكِ المَيْمُونِ طائِرُهُ
قَدْ حِرْنَ في بَشَرٍ في تاجِهِ قَمَرٌ ... في دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أظافِرُهُ[1]

فإنّ الأسد هو الممدوح نفسه، لكنّه انتزع منه أسداً آخر تهويلاً لأمره، ومبالغة في اتّصافه بالشجاعة والإقدام.

الأمر الثاني: ما يكون بدون توسّط حرف، و هو علىٰ أنواع

النوع الأول: ما يكون بدون توسط الحرف و ليس علىٰ وجه الكناية و منتزع من غير المتكلم[2]، نحو قوله تعالى:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾[3].

أي: فقاتلوا منهم أئمّة الكفر، فانتزع من الناكثين للإيمان، والطاعنين في الدين، صفة ائمّة الكفر ـ لأنّهم الرؤساء المتقدّمون على غيرهم فهم أحقّ بالقتل ـ، مبالغة في اتّصافهم بتلك الصفة، والمبالغة إنّما يناسبها كلّ المناسبة خروج أئمّة الكفر منهم، لأنّهم بلغوا إلى حيث أفاضت منهم أئمّة هم رؤوس الكفر أضافة إلى كفرهم.

---

١. ديوانه، ج ٢، ص ٢٢٣ والمراد بالطائر: الفأل، والميمون: المبارك.

٢. لأنّه إمّا أن لايكون علىٰ وجه الكناية، أو يكون علىٰ وجهها، أو ينتزع من غير المتكلم، أو من المتكلم نفسه.

٣. التوبة: ١٢.

وقوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[١].

على إرادة أُقْسِمُ بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر.

وقال الشاعر:

فَــلئِنْ بــقيتُ لأَرحَـلَنَّ بـغزوةٍ تحوي الغنائِمَ أو يَمُوتَ كَـرِيمُ[٢]

ومعناه إن مات هذا الكريم يعني نفسه، فقد انتزع من نفسه بقرينة التمدّح بالكرم كريماً مبالغةًفي وصف نفسه بالكرم، لدلالة الانتزاع على أنّه في الكرم بحيث يخرج منه كريم آخر مثله في الكرم.

ولذا لم يقل: أو أموت، وقيل: تقديره أو يموت منّي كريم، فيكون من القسم الأوّل الذي هو «بمن» التجريديّة. ولا حاجة الى هذا التقدير لحصول التجريد بدونه ولا قرينة عليه.[٣]

والنوع الثاني: ما يكون بطريق الكناية، كقراءَةِ من قرأ قوله تعالى:

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٤]. أي يرثُني به، أو منه وارثٌ، وهو الوارث نفسُهُ فكأنّهُ جَرَّدَ من الوليّ وارثاً.

وكقول الأعشى:

يا خَـيْرَ مَـنْ يَـرْكَبُ المَـطِيّ وَلا يَشْـرَبُ كَـأساً بِكَـفِّ مَـنْ بـخِلا[٥]

فإنّه انتزع من الممدوح شخصاً كريماً يشرب من الكأس بكفّه على طريق

---

١. ص: ٢.

٢. الغنائم: جمع غنيمة، وهي الفوز بالشيء بلا مشقّة.

(أو) بمعنى (إلّا). و البيت لقتادة بن مسلمة الحنفي، انظر: ديوان الحماسة لأبـي تمام، ج ١، ص٣٢٧؛ الايـضاح، ص٢٧٤؛ الاشارات، ص ٢٢٠؛ التبيان، ص٢٩١؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ١٤.

٣. أنوار الربيع، ج٦، ص١٥٦؛ التبيان، ص٢٩١؛ معاهدالتنصيص، ج٣، ص ١٤؛ حسن التوسل، ص٢٨٦؛ الإيضاح، والبيت لقتادة بن مسلمة الحنفي، ديوان الحماسة، ص٢١٧.

٤. مريم: ٥ و ٦.

٥. ديوان الأعشى، ص٢٣٥؛ حسن التوسل، ص٢٨٦؛ الايضاح، ص٢٧٥.

الكناية بأن أطلق اسم الملزوم وهو نفي الشرب بكفّ البخيل وأثبته له بكفّ الكريم «وهو اللازم». ومعلوم أنّه شرب بكفّهِ، فهو ذلك الكريم، فالتجريد مقّدم على الكناية قصداً، لكن في توجيه كون التركيب محتوياً عليهما يقدّم توجيه الكناية[١].

أو تعريضٍ بآخر، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

كأنّ اللّه اعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. فقال: بل متّعتهم بما متّعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، أراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنّه إذا متّعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان. لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً، فمثاله أن يشكو الرجل من إساءة من أحسن إليه، ثمّ يقبل على نفسه، فيقول:

أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله. وهذا من التعريض المجازي[٣].

والنوع الثالث: ما يكون بمخاطبة الإنسان نفسه فينتزع من نفسه شخصاً آخر مثله في الصفة التي سيق لها الكلام ويخاطبه.

ومن أحسنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[٤].

صيّرها لشدّة جدالها كأنّها تجادل عن غيرها.

---

١. انظر: معاهد التنصيص، ج٣، ص١٤.

٢. الزخرف: ٢٦ ـ ٢٩.

٣. انظر: الكشاف، ج٤، ص٢٤٦ و ٢٤٧؛ التبيان، ص٢٨٩. وقوله تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ المراد بالكلمة الجملة التي قالها: وهي ﴿إنني براء مما تعبدون﴾.

٤. النحل: ١١١.

وقول أبي نواس:

يا كثيرَ النوحِ في الدِّمنِ لا عليها بلْ على السَكَنِ
سُنّةُ العُشّاقِ واحدةٌ فإذا أحْبَبْتَ فاسْتَكِن[١]

ومراده مخاطبة نفسه، ولذلك قال بعدهما:

ظنَّ بي مَنْ قَدْ كَلِفْتُ بهِ فَهُوَ يَجْفُوني على الظِّنَنِ
باتَ لا يَعْنيهِ ما لَقِيتْ عَيْنُ ممنوعٍ منَ الوسَنِ
رشأٌ لولا مَلاحَتُهُ خَلَتِ الدُنيا مِنَ الفِتَنِ

ومن القصائد البديعة التي تغلغل التجريد إلى أبياتها، قصيدة الصمة بن عبد اللّه في صاحبته ريّا، ونوردها كاملة، ففيها لعشاق البلاغة والأدب سلوى:

حَنَنْتَ إلى رَيَّا ونفسُك باعدَت مزارَكَ من رَيّا وشَعباكُما مَعا
فما حَسَنٌ أن تأتيَ الأمرَ طائِعاً وتجزعَ أنّ داعي الصبابةِ أسْمَعا
قفا وَدِّعا نَجْداً وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنا أن يُوَدَّعَا
بِنَفْسِيَ تِلْكَ الأرْضُ ما أطيبَ الرُّبا وَما أحْسَنَ المُصْطافَ والمُتَربَّعا
وَليست عَشِيّاتُ الحِمَى برَوَاجعٍ إليكَ ولكِنْ خَلِّ عينيك تَدْمعا
ولمّا رأيتُ البِشْرَ أعْرَضَ دُوننا وَحالَتْ بَناتُ الشوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعا
بَكتْ عيني اليسرى فَلمّا زَجَرتُها عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أسْبَلَتا مَعا
تَلَفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتّى حَسِبْتُني وَجِعْتُ من الإصْغاءِ لِيتاً وأخدَعا
واذْكُرُ أيّامَ الصبا ثُمَّ أنْثني على كَبِدي مِنْ خَشْيةِ أنْ تَصَدَّعا

ومن أغراض التجريد:

١. التوبيخ: كقول الإمام عليّ عليه السلام في أهل الكوفة:

«مُنيتُ منكم بثلاث واثنتين: صُمٌّ ذوو أسماع، وبكمٌ ذوو كلام، وعميٌّ ذوو أبصارٍ،

---

١. الديوان، ص ٥٨٠.

لا أحرار صدقٍ عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء»[١].

فإنّه انتزع واستخلص من أهل الكوفة الصمّ والبكم والعمي مبالغة في اتّصافهم بتلك الصفات.

٢. **النصح**: كما في قول الشاعر:

أقُـولُ للـنفسِ تـأساءً وتـعزيةً ... إحْدَى يَدَيَّ أصابَتْني ولم تُرِدِ[٢]

وقول الشاعر عمرو بن الإطنابة الذي سبق ذكره.

٣. **التحريض**: كقول أبي الطيّب المتنبّي:

لا خَـيْلَ عـندكَ تُـهْدِيها ولا مـالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إن لَمْ يُسْعدِ الحَـالُ

وَاجْـزِ الأمـيرَ الذي نُـعْماهُ فـاجِئَةٌ ... بـغيرِ قـولٍ ونُـعْمى القـومِ أقـوالُ[٣]

فهو يخاطب نفسه فيقول: أنتِ فقير لا تملك أن تجزي من أحسن إليكِ، فإذا كان هذا غير ممكن فقدِّمي الممكن وهو المدح والثناء.

٤. **الغزل**: كقول الصِمّة القشيري:

حـنتَ إلى رَيّـا ونـفسُك بـاعَدَتْ ... مَـزارَك مـن رَيّـا وشَـعْباكـما مـعا

فـما حَسَـنٌ أن تـأتيَ الأمـرَ طـائِعاً ... وتَجْزَعَ أنْ داعي الصَّـبابةِ أسْـمعا[٤]

٥. **الفخر**: كقول حيص بيص (ت ٥٦٤ هـ، ق):

إلامَ يَـراكَ المـجدُ فـي زيِّ شـاعرٍ ... وقـد نَـحَلتْ شـوقاً فـروعُ المـنابرِ

كَتَمْتَ بصيت الشـعرِ عِـلْماً وحكـمةً ... بـبعضهما يـنقادُ صَـعْبُ المـفاخرِ

لعـمرُ أبـيكَ الخـير إنّك فـارسُ الـ ... ـكلام ومُـحيي الدارسـاتِ الغـوابـرِ

وإنّك أعـــييْتَ المســـامِعَ والنُّـــهى ... بـقولِكَ عَـمّا فـي بـطونِ الدَفـاتِرِ[٥]

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

٢. الطراز، ج٣، ص٧٥.

٣. ديوان المتنبّى، ج٣، ص٣٩٤ـ٣٩٥؛ الايضاح، ص٢٧٥؛ حسن التوسل، ص٢٨٦.

٤. الاغانى ٦: ١ ـ ١٠، المؤتلف والمختلف ٢١٤، حسن التوسل ٢٨٦.

٥. ديوانه، ج٢، ص٣١٦؛ المثل السائر، ج١، ص٤٠٧؛ الطراز، ج٣، ص٧٣ و ٧٤؛ أنوار الربيع، ج٣، ص٢٠٤؛ التبيان، ص٢٨٩.

بلاغة التجريد

تتمثّل في التجريد جمال المبالغة المستساغة وتأكيد المعنى على نحو تألفه النفس. وتأمّل ذلك في الأمثلة القرآنيّة التي سبق ذكرها، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ لتجد كبير اختلاف بين هذه الطريقة لتأدية المعنى وأن تقول في المعنى نفسه: رسول اللّه أسوة حسنة لكم، وجهنّم دار الخلد للكافرين، فكأنّ المتكلّم يلحظ في التجريد تضخم صفة في الشيء أو مثالاً وصورة مثلى لهذه الصفة، أمّا التجريد في مخاطبة الإنسان نفسَه، فيتيح للمرء تصوير دِخْلتِهِ وسريرته بكلّ مايعتمل فيها وإجراء الأوصاف المقصودة دون تحرّج؛ لأنّه يوجّه الخطاب إلى غيره، فيكون أعذر وأخفّ التزاماً بما يقول، استمع لمايقوله ابن عبد ربّه مخاطباً قلبه؛ لتكون على بيّنة من الأمر:

أقول لقلبي كلّما ضامَهُ الأسى ... إذا ما أتيتَ العزّ فاصبر على الذلّ

برأيِكَ لارأيي تعرّضت للهوى ... وأمرك لا أمريِ وفعلك لا فعلي

وجدتُ الهوى نَصْلاً على غير مُغْمداً ... فجرّدْتَهُ ثم اتّكأتَ على النَّصْلِ

فإن تكُ مقتولاً على غير ريبةٍ ... فأنْت الذي عرّضتَ نفسكَ للقتلِ

جعل الشاعر من قلبه الذي بين جنبيه شخصاً آخر نسب إليه أفعالاً يصعب على الإنسان أن ينسبها إلى نفسه مباشرة؛ فكأنّ هذا الفنّ البديع يترك للمتكلّم متعاً للتعبير عن أشجان الذات وهواجس الضمير[1].

١. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٥٩٨ و ٥٩٩.

التعليل وطرافته

التعليل: هو أن تدّعي لأمر علّة مناسبة باعتبار لطيف[1].

ولا يُسأل في علم البلاغة عن جوهر العلّة وحقيقتها بل يكون السؤال عن كيفيّة صوغ العلّة، وعن أسلوب عرض هذه العلّة، وطريقة أكتشافها، والربط بينها وبين المعلول. فتهتمّ البلاغة بكيفيّة إيصال مفهوم العلّة إلى المخاطب، وبالبراعة في تصوير العلّة والمعلول في إطارٍ من التناسب.

إذن «التعليل» هو الطريقة الفنّيّة التي تعرض بها العلّة في إحداث الحدث من خلال ذات الفنان في إطار من التناسب.

و «طرافة التعليل» درجة من الإغراب اللطيف الذي يتوصّل به الفنّان إلى قطع رتوب وجود العلّة مقترنة بالمعلول، ونوعٌ من لفت الانتباه والإثارة وضرب من «خفّة الدم».

وقد أسهم القرآن الكريم بصور من «التعليل» بطريقة بليغة ومعجزة.

فيها الفنّ وفيها المنطق وفيها التشريع، وفيها الجِدّيّة[2].

---

١. انظر: التبيان للطيّبي، ص٣١٨؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١١٥.

والمراد بالاعتبار النظر، و باللطف الدقّة، أي: بأنْ ينظر نظراً يشتمل علىٰ لطف و دقّة، أي: يثبت لوصف علّة حال كون الاثبات ملتبساً بنظر دقيق بحيث لايدرك كون هذا المثبت علّة إلا من له تصرف في دقائق المعاني (انظر: حاشية البناني علىٰ مختصر المعاني، ج٢، ص٣٤٨).

٢. وهو ما يندرج تحت التعليل العلمي الذي يدخل في ميدان الشريعة أو القوانين الوضعية أو مجالات الدراسات ←

وقد احتذى الشعراء حذو القرآن الكريم في «التعليل»، ولم يُعْنَ القرآن الكريم لِطرافة التعليل اهتماماً بل أهمله. ففنّ التعليل في القرآن هو من مطلق التعليل لحكم من الأحكام.

ونستطيع أن نفرّق بين المصطلحين، فنقول:

التعليل: كلّ صياغة فنّيّة تبرّر وقوع الحدث من وجهة نظر صـاحبها وطـرافـة التعليل: كلّ صياغة فنّيّة تبرّر وقوع الحدث من وجهة نظر صاحبها تبريراً يهدف إلى الاستظراف والملاحة[١]. على أن يكون في هذه العلّة حسن وابتكار يـزيد المـعنى جمالاً، وهذا الضرب من البديع يحتاج إلى فطنة، ورشاقة في التعبير.

قال اللّه تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وسبق الكتاب من اللّه تعالى هو العلّة في النجاة من العذاب[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.[٤]

جعل اللّه تعالى فتح مكّة علّة للمغفرة؛ لأنّ الفتح من حيث كونه جهاداً وعبادة سبب للغفران. وقيل السرّ فيه اجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهـي: المـغفرة، وإتمام النعمة، والهداية، والنصر العزيز، كأنّه قيل: يسّرنا لك فتح مكّة ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك عزّ الدارين، وأغراض العاجلة والآجلة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ

← الإسلامية، أو الفنون أو العلوم.

فمردها إلى التعقل والتدبر، والبحث في طبائع الأشياء، والتفكير المبنيّ على الاستقراء والبحث.

١. البديع تأصيل وتجديد، ص١٨٤.

٢. الأنفال: ٦٨.

٣. أي لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب قوماً قبل تقديم ما يبيّن لهم أمراً أو نهياً.

٤. الفتح: ١ ـ ٣.

﴿مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[١].

إنّ جمال حسن التعليل هنا يكمن في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، لأنّ الفرح المحض في الدنيا من حيث إنّها دنيا مذموم على الإطلاق، وأيّ فرح بشيء فان وظلّ زائل. وأمّا من كان من طلاب الآخرة وعالم أنّه راحل عنها من قريب، لم تحدّثه نفسه بالفرح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَـٰكُمْ فَاسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[٢].

أي لو أراد اللّه لجمع الناس كلّهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها الآخر، ولكن شرع الشرائع المختلفة ليختبر العباد، هل يذعنون لحكم اللّه أم يعرضون، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣].

لقد بيّن سبحانه وتعالى وجه التعليل في النهي عن اتّخاذ المؤمنين المنافقين بطانة يطلّعونهم على أسرارهم بأمور:

الأوّل: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، أي لا يمنعونكم فساداً.

الثاني: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي يتمنّون مشقّتكم وإيقاعكم في الضرر الشديد.

الثالث: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بأفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

وفائدة التعليل هي التوبيخ الشديد بأنّهم في باطلهم أصلب من المؤمنين في حقّهم، كما جسّد التعبير بالاستعارة في تشبيه دخلاء الرجل وخواصّه بالبطانة؛

---

١. القصص: ٧٦.

٢. المائدة: ٤٨.

٣. آل عمران: ١١٨.

لأنّهم يستبطنون دخيل أمره، ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه، وكذلك جسّد الطباق في «الإبداء والإخفاء» معنى النفاق في تفصيلاته المتباينة، كما سلّط الأضواء على جزئيات تلك الصور وما تحويه من دلالات فنّيّة حين عبّر عمّا تنفلت من ألسنتهم من الشعور بالبغضاء، فذكر «من أفواههم» لأنّ المرء يعبّر عمّا يكنّه في نفسه بفمه، فكما ذكر الفم بدل اللسان ذكر الصدور بدل القلوب ليضفي تلك المبالغة البديعة في تعاظم نفاقهم.

وطرافة التعليل، على أربعة أقسام:

١. أن تكون الصفة موجودة متحققة، ولا علّة حقيقية لها، لكن الشاعر يتلمّس لها علّة طريفة مناسبة، ومنه قول الشاعر:

حبّذا الخالُ كـامناً مـنه بـين الـ خــدِّ والجـيد رقـبةً وحـذارا

رام تــقبيله أخـتلاساً ولكـن خاف من سيف لحظه فتوارى[1]

فظهور الخال تحت الحنك ليس له علّة في العادة، ولكن الشـاعر عـلّله بـعلّة مناسبة، فقال: إنّ الخال ودّ تقبيل المحبوب خلسة، ولكنّه خشي من سيف لحـظه فتوارى تحت الحنك.

وقال المتنبّي:

لَمْ تـحْكِ نـائِلَكَ السَّحَابُ وإنّـما حُـمَّتْ بـه فـصبيبُها الرُّحَـضَاءُ[2]

يقول: إنّ السحاب لم تشابه عطاءك بغزارة مطرها؛ وإنّما أصابتها الحمى؛ لأنّـها لم تجارِ عطاءك في غزارته، فما الصيِّبُ المتدفّق منها إلّا عرق الحمى التي أصابتها.

فنزول المطر، لا يظهر له ـ في العادة علّة ـ وإن كانت له علّة حـقيقية، ولكـن الناس لا ينظرون إليها، و قد عللها بأن عرق حماها الحادثة بسبب عطاء الممدوح.

---

١. أنوار الربيع، ج٦، ص١٣٨.

٢. الرُحضاء: العرق أثر الحمى. و البيت في ديوانه، ج١، ص ٣٣٠؛ الوساطة، ص ١٨٠؛ حسن التوسل، ص٢٢٣؛ التلخيص، ج ٢، ص١٧٢؛ الايضاح، ص٢٧٧؛ اسرار البلاغة، ص ٢٥٦؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٥١؛ المطول، ص٦٦٩.

٢. أن تكون الصفة موجودة متحققة، وعلّتها معروفة، ولكنّ الشاعر يُعلِّلها بأخرى، ومنه قول المتنبّي:

مـا بـهِ قَـتْلُ أعـاديه ولكنْ يَتَّقِي إخْلافَ ما تَرْجُو الذِّئابُ[1]

فقتل الأعداءسببه الرغبة في المُلك والتوسع وغيرهما، ولكن الشاعر علّله بكرم الممدوح، ورغبته في إطعام الذئاب من لحم البشر. وهذه مبالغة في وصفه بالجود، يعني إنّ ممدوحه لا يقتل أعداءه خوفاً منهم، لأنّهم عاجزون عنه، وإنما يقتلهم؛ لأنّه يخاف أن يخلف ما ترجوه الذئاب منه، من هلاك أعدائه لكي تطعم من قتلاهم. ويتضمّن المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخييلي.

وقول مسلم بن الوليد:

يـا واشـياً حَسُـنَتْ فـينا إساءَتُهُ نَجّى حِذارُكَ إِنْساني مِنَ الغَـرَقِ[2]

فإنّ استحسان إساءة الواشي شيء ممكن، لكن لمّا خالف الناس فيه عقّبه بأنّ حذاره منه نجّى إنسان عينه من الغرق في الدموع حيث ترك البكاء خوفاً منه.

وقول أبي طالب المأموني في بعض الوزراء ببخارى:

مُـغْرَمٌ بـالثناء صبٌّ بِكسْبِ المجـ ـد يَـهْتَزُّللسَّماحِ ارْتـيِاحا

لا يَـذُوقُ الإغْـفاءَ إلّا رجـاءً أَنْ يَـرَى طَـيْفَ مُسْتَمِيح رَوَاحـا[3]

يقول: إنّ ممدوحه لولوّعه الشديد باكتساب المحامد ـالتي تـورث الإنسـان مـجداً ـ لا يـنام إلّا رغـبةً مـنه فـي رؤيـة طـيفٍ لطـالب نـوالِـهِ فـي وَقْتِ العَشيّ.

---

١. يتّقي: يخشى ويخاف. إخلاف ما ترجوه: عدم الوفاء به. و البيت في ديوانه، ج١، ص١٤٤؛ اسرار البلاغه، ص٢٧٤؛ الارشاد، ص٢٢٣؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٥٣؛ حسن التوسل، ص٢٢٣؛ الايضاح، ص٢٧٨.

٢. المراد بالإنسان هنا: إنسان العين. و البيت في ديوانه، ص٣٢٨؛ الايضاح، ص ٢٧٩؛ المصباح، ص ٢٢٣؛ الاشارات، ص ٢٢٣؛ الطراز، ج ٣، ص ١٤٠؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٥٤؛ شرح المختصر، ج ٢، ص ١٧٣؛ تحرير التحبير، ص ٣١١؛ نهاية الارب، ج٧، ص١١٥.

٣. انوار الربيع، ج٦، ص١٣٩؛ يتيمة الدهر، ج ٤، ص ١٧٠.

فقد علّل الإغفاء برغبته في رؤية طيفٍ لطالب نوالهِ، مع أنّ للإغفاء علّة حقيقية غيرها.

٣. أن تكون الصفة ممكنة، ولكنّها غير ثابتة والشاعر يثبتها، نحو قول الشاعر قيس بن الملوّح:

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بقَتْلِها مِنْ حُبِّها ... كيما تكُونَ خَصيمَتي في المَحْشَرِ

حتّىٰ يَطُولَ على الصِّراطِ وُقُوفُنا ... فَتَلُذَّ عَيني مِنْ لذيذِ المَنْظَرِ[1]

فقد أدّعى الشاعر أمراً غير ثابت وغير معتاد، وهو همّه بقتل محبوبته، ثمّ علّله بطول الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر، لتلتذّ عينه بالنظر إليها.

وقول الطغرائي:

عِدايَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ ... فَلا أَبْعَدَ الرحمنُ عَنّي الأَعادِيا

هُم بَحَثُوا عَنْ زَلّتِي فاجْتَنَبْتُها ... وَهُمْ نافَسُوني فاجْتَنَيْتُ المَعَاليا

فثبوت الفضل والمنّة للأعداء أمر ممكن؛ ولكن الناس لا يعترفون بذلك، ولكن الشاعر لمّا خالف الناس في هذا بحث عن علّتين طريفتين سوّغ بهما هذه المخالفة وقربها من العقل.

٤. أن تكون الصفة غير ممكنة، ولا ثابتة، والشاعر يثبتها، ومنه قول الشاعر:

لو لَمْ تكَنْ نِيَّةُ الجَوْزاءِ خِدْمَتَهُ ... لمّا رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتَطِقِ[2]

فالشاعر أراد أن يثبت وصفاً غير ممكن، وهو نية الجوزاء خدمة الممدوح،

---

١. التبيان للطيّبي، ص ٣٢٢، ولم يردا في ديوانه: ونسبهما له صاحب حماسة الظرفاء، ج ٢، ص٩٦؛ أنوار الربيع، ج٦، ص ١٤٠.

٢. نسبة النية إلى الجوزاء غير ثابتة ولا ممكنة، فإنّ الإرادة لا تكون إلّا من حيّ، والجوزاء جماد ليس فيه حياة ولا إرادة لها، ولا نيّة، وقد نسب الشاعر ذلك إليها وعلّل بأمارة الخدمة وهي عقد النطاق، لأنّ الجوزاء صورتها صورة شخص قد انتطق، والنطاق الزنار وكلّ ما يشدّ به الوسط. والبيت في أسرار البلاغة، ص٢٥٦؛ الايضاح، ص ٢٨٠؛ معاهد التنصيص، ج ٢، ص٦٧؛ حسن التوسل، ص٢٢٣؛ عقود الجمان، ص١٠٧ و ٣٨٢؛ نهاية الارب، ج ٧، ص ١١٥؛ والبيت مترجم من الفارسية.

وجعل الانتطاق علّة له.

وقول التهامي:

لَوْ لَمْ يَكَنْ أُقْحواناً ثَغْرُ مَبْسَمِها ما كانَ يزدادُطيباً ساعةَ السِّحْرِ[١]

وأُلحق بطرافة التعليل ما بني على الشكّ، كقول أبي تمّام:

رُباً شَفَعَتْ رِيحُ الصَّبا لرياضِها إلى الغيثِ حتى جادَها وَهْوَ هامِعُ

كَأَنَّ السَّحابَ الغُرَّ غَيَّبْنَ تَحْتَها حَبيباً فما تَرْقا لَهُنَّ مدامِعُ[٢]

فالتعليل على سبيل الشكّ، فإنّه علّل شاكّاً نزول المطر من السحاب بأنّها غيبت تحت تلك الربا حبيباً فهي تبكي عليه ولهذا لم يكن من حسن التعليل، وإنّما هو ملحق به.

وقد أحسن ابن رشيق في قوله:

سألتُ الأرض لِمْ جُعِلَتْ مُصَلًّى ولِمْ كانَتْ لنا طُهْراً وطيباً

فقالَتْ غيرَ ناطقةٍ لأنّي حَوَيتُ لكلّ إنسانٍ حبيباً[٣]

جماليات حسن التعليل

ويؤكّد عبد القاهر الجرجاني جمال هذا الفنّ البديعي وحسنه ويرى أن هذا الجمال يتضاعف حين يأتي حسن التعليل في قالب التشبيهات بقوله:

وينبغي أن تعلم أنّ باب التشبيهات قد حِظِيَ من هذه الطريقة بضرب من السحر ... والقدر.

ويمثّل عبد القاهر لاجتماع حسن التعليل مع التشبيه وما يتأتّى من ذلك من

---

١. من روائع البديع، ص٢٢٦.

٢. بيان اعجاز القرآن، ص ٤٤؛ البرهان للزركشي، ج٤، ص ٣٤٠؛ معترك الأقران، ج٢، ص٢٢٩؛ ديوان أبي‌تمام، ج٤، ص٥٨١؛ سر الفصاحة، ص١٢٥؛ الإيضاح، ص ٢٨٠؛ المصباح، ص٢٤٢.

٣. ديوانه، ص٣٥؛ المصباح، ص٢٤٢؛ خزانة الادب، ص٤١٧؛ تحرير التحبير، ص ٣١٠؛ حسن التوسل، ص٢٢٤؛ الطراز، ج٣، ص ١٣٩؛ نهاية الارب، ج٧، ص١١٦.

سحر وخلابة بهذه المقابلة الرائعة بين الورد والنرجس لابن الرومي. نثبتها لك بتمامها لروعتها:

خَجِلَتْ خُدودُ الوردِ من تفضيلِهِ ... خَجَلاً تَورُّدُها عليه شاهِدُ
لم يَخْجَلِ الوَرْدُ المُوَرَّدُ لَونُهُ ... إلّا وناحِلُهُ الفضيلةَ عانِدُ
للنَرْجِسِ الفَضْلُ المُبينُ وإن أبى ... آبٍ وحادَ عن الطريقةِ حائدُ
فَصْلُ القضيّةِ أنّ هذا قائِدٌ ... زَهْرَ الرياضِ وأنّ هذا طارِدُ
شَتّانَبين إثنينِ هذا مُوعِدٌ ... بتَسلُّبِ الدنيا وهذا واعِدُ
يَنْهى النَدِيمَ عن القبيحِ بلحظِهِ ... وعلى المدامةِ والسماعِ مُساعِدُ
أُطْلُبْ بعفوِكَ في الملاحِ سَمِيَّهُ ... أبداً فإنّكَ لا محالةَ واجِدُ
والوَرْدُ إن فكّرتَ فَرْدٌ في اسمِهِ ... ما في الملاحِ له سَمِيٌّ واحِدُ
هذي النجومُ هي التي رَبَّتْهُما ... بحيا السَّحابِ كما يُربّي الوالِدُ
فإن نظر إلى الاخَوَينِ مَنْ أدناهُما ... شَبَهاً بوالدِهِ فَذاكَ الماجِدُ
أين الخُدُودُ مِنَ العيونِ نَفَاسةً ... ورِئاسَةً لولا القياسُ الفاسِدُ[1]

أنّ ما ذكره الشعراء من هذه الأسباب والعلل هو من وليد خيالاتهم الخصبة، ونتاج وجدانهم، وعواطفهم، وليست أسباباً أو عللاً طبيعيّة مطابقة للواقع، وإنّما يعمد إليها الشعراء ليوقظوا خيال السامع أو القارئ، ويثيروا الوجدان والعاطفة ويدخلوا السرور بتلك العلل المستملحة والأساليب المستطرفة.

وهناك فرق بين هذا التعليل الأدبي والتعليل العلمي، فالأوّل هو ـ كما أشرنا إليه ـ تعليل نفسي يرجع فيه الأديب إلى ذوقه الفنّي وخياله الأدبي وعاطفته.

أمّا التعليل العلمي، فمردّه إلى التعقّل والتدبّر العقلي والبحث عن طبائع الأشياء،

---

١. أسرار البلاغة، ص٣٦٢؛ ديوان ابن‌الرومي، ج٢، ص٣٥٦ و ٣٥٨؛ التشبيهان، ص١٩٢ـ١٩٣؛ أمالي المرتضى، ج١، ص ٢٧٠ و ٢٧١؛ زهر الآداب، ج ٢، ص ٢٠٩؛ ديوان المعاني، ج ٢، ص ٢١؛ نهاية الارب، ج ١١، ص ١٤٥.

ثمّ أنّه تعليل واقعي موضوعي يرجع فيه العالم إلى الواقع والحقيقة، ويدخل هذا التعليل في ميدان الشريعة والقوانين الوضعيّة ومجالات الدراسات الإسلامية والفنّ والعلوم المتنوّعة.

أمثلة قرآنية أخرى على التعليل

١. قول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١].

أي لأجل حبّ الخير[٢].

٢. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣].

أي ليحتجّوا عليكم بما أنزل ربّكم في كتابه[٤].

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[٥].

التقدير «أي لأجل موعدة»[٦].

٤. قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾[٧].

أي لهدايته إياكم[٨].

٥. قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾[٩].

---

١. العاديات: ٨.

٢. انظر: الكشاف، ج١، ص١٥٦؛ روح المعاني، ج١، ص٤١٠.

٣. البقرة: ٧٦.

٤. البرهان، ج٤، ص٢٨٧؛ معترك الأقران، ج٢، ص٦٧٢.

٥. التوبة: ١١٤.

٦. البحر المحيط، ج١، ص٢٦؛ الإتقان، ج٢، ص٢٣٧.

٧. البقرة: ١٨٥.

٨. الجنى الداني، ص٣٩؛ جواهر الأدب، ص١٨.

٩. البقرة: ٥٤.

و ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾[١].

و ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾[٢]. الباء للتعليل[٣].

٦. قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾[٤].

جعلوا الكاف في «كما» للتعليل لتقديرهم «أي لأجل إرسالي فيكم رسولاً منكم»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٦].

والتقدير عند الأخفش «أعجب لأنّه لا يفلح الكافرون[٧].

٧. قوله تعالى: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ﴾[٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[١١].

والتقدير هو من أجل ذكرى[١٢].

---

١. النساء: ١٦٠.

٢. العنكبوت: ٤٠.

٣. الجنى الداني، ص٨٤.

٤. البقرة: ١٥١.

٥. المغني، ج١، ص٣٥٩.

٦. القصص: ٨٢.

٧. اللامات، ص٥٤و ١٥٠و ١٥٣.

٨. الإسراء: ٧.

٩. البيّنة: ١٥.

١٠. النحل: ٤٠.

١١. طه: ١٤.

١٢. فقه اللغة وسرّ العربية، ص٥٢٤؛ منتخب قرّة العيون، ص٢١٢.

٨. قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

٩. قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾[٣].

١٠. قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٦].

* * *

---

١. الأنفال: ٦٨.

٢. الآية الأولى شاهد المرادي، الجنى الداني، ص ٢٥٠، والثانية كانت شاهداً لابن هشام في المغنى، ج١، ص١٦٨ و الآية في النور: ١٤.

٣. جواهر الأدب، ص ١٣١؛ المغنى، ج ١، ص١٦٨. و الآية في يوسف: ٣٢.

٤. الجنى الداني، ص ٣٠٠ و الآية في البقرة: ١٩.

٥. المائدة: ٣٢.

٦. يقول أبو تمّام: إنّ ريح الصبا قد شفعت لرياض الربا عند السحاب؛ فأمطرت السحاب الرياض ـ بسبب هذه الشفاعة ـ أمطاراً غزيرة، حتى كأنّ السحاب قد غيّبت حبيباً تحت ثرى هذه الرياض، ولهذا فإنّها ما تنفكّ تبكيه، ولا ينقطع لها دمع عليه و الآية في البقرة: ٧٤.

التتميم

وهو التمام ـ أيضاً ـ وبعضهم يسمّي ضرباً منه احتراساً واحتياطاً، وعرّفه ابن المعتزّ بـ «اعتراض كلام في كلام لم يُتَمّم الشاعر معناه ثمّ يعود إليه فيتمّمُه في بيت واحد، كقول بعضهم:

فظلّوا بيومٍ دَعْ أخاك بمثله　　　على مَشرع يُروي ولمّا يُصَرّد»[1]

و ربما أفاد قدامة هذا اللقب من تعريف ابن المعتز، فالتتميم عنده من أنواع نعوت المعاني و تعريف قدامة له: «أنْ يذكر الشاعر المعنىٰ فلايدع من الأحوال التي تتم بها صحته و تكمل معها جودته شيئاً إلّا أتىٰ به».[2]

والفرق الظاهر بين تعريفي كل من ابن المعتز و قدامة أن تعريف قدامة أدَقّ و أشمل، إضافة الىٰ أن ابن المعتز يقصر المعنىٰ علىٰ بيت واحد من الشعر و هو الرأي يؤكده قدامة بدقّة بالغة.[3]

ويرى ابن رشيق في العمدة أنّ التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضرباً من المبالغة وكذلك ما يسمّيه الناس حشواً[4]، وكذلك الإيغال ثمّ فرّق بين الإيغال والتتميم فقال:

---

١. البديع لابن المعتز، ص ٥٩.

٢. نقد الشعر، ص١٥٧.

٣. المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص١٠٢؛ علم البديع و نشأته و تطوره، ص١٤١؛ البلاغة تطور و تاريخ، ص٥٦؛ في البيان العربي، ص٧٦.

٤. العمدة، ج١، ص٦٥١.

«وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرقٍ، إلّا أنّ هذا في القافية لا يعدوها وذلك في حشو البيت»[١].

وذكر ابن حجّة الحموي: أنّ جماعة وهموا وخلطوا بين التكميل والتتميم، وساقوا في باب التتميم شواهد التكميل وبالعكس ... والفرق بين التكميل والتتميم. أنّ التتميم يرد على الناقص فيتمّه، والتكميل يرد على المعنى التامّ فيكمّله؛ إذ الكمال أمر زائد على التتميم، وأيضاً أنّ التمام يكون متمّماً لمعاني النقص، لالأغراض الشعر ومقاصده، والتكميل يكملها»[٢].

ومعنى التتميم: هو تقييد الكلام بتابع يفيد مبالغة، أو صيانة واحتراساً من الالتباس، أو لتقويم الوزن.

فمن الأوّل: أي المبالغة، وهي غاية الغايات، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ...﴾[٣].

أي تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع بمعنى زيادة على علمه على وجه التتميم[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٥].

فإنّ إطعام الطعام على حبّهم له، وحاجتهم إليه، وقد زيد قوله سبحانه ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ للتدليل على فرط سخائهم؛ لأنّ الجود الحقيقي لا يكون حتى تجود وماليك قليل، هذا إن كان الضمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ يعود على الطعام، أي: ويطعمونه مع حبّه والاحتياج إليه.

وإن كان الضمير عائداً على اللّه تعالى. أي: على حبّ اللّه تبارك وتعالى

---

١. المصدر، ج ١، ص ٦٦٠.

٢. خزانة الأدب، ج ١، ص٢٩٧.

٣. الأنعام: ١٥٤.

٤. انظر: الكشاف، ج ٢، ص ٨١؛ التبيان، ص ٣٧٧.

٥. الانسان: ٨.

فلا يكون قوله تعالى ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ من التتميم في شيء؛ لأنّه من تمام معنى الآية الكريمة[١].

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[٣].

قوله ﴿مَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ تتميم ـ لما تقدم ـ أفاد بأنّهم ضالّون في جميع ما يتعاطونه من عمل.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤].

التتميم هنا في كلمة «فيها صرّ» فإنّها أفادت المبالغة، كما أفادت التجسيد والتشخيص، كما تقول: برد بارد، وليلة ليلاء، ثمّ قيّد الصرّ بالظرفيّة؛ لأنّ الريح مطلقة، فصارت مقيّدة، وكلّ مقيّد ظرف المطلقة؛ لأنّ المطلق بعض المقيّد، فحصل التجسيد والتشخيص، وهذه من عيون النكت البلاغية.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[٥].

أي: أيّ شيء خدعك بربّك الحليم الكريم حتى عصيته وتجرّأت على مخالفة

---

١. وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: إذ يروى أنّه كان صائماً وجاءه سائل، فقال لفاطمة عليها السلام زوجته: ما عندك؟ قالت: بعض الأرغفة، فدفع بها إليه، وباتوا خماص البطون حتى إذا جاء اليوم الثاني والثالث والحادثة تتكرّر، فنزلت هذه الآية.

٢. البقرة: ١٧٧.

٣. البقرة: ١٦.

٤. آل عمران: ١١٧.

٥. الانفطار: ٦.

أمره مع إحسانه إليك وعطفه عليك، فلا تغترّ بكرم اللّه عليك. فذكر الكريم تتميم ومبالغة في التربية في المنع من الاغترار، فثبت أنّ محض الكرم لا يقتضي الاغترار به فكيف إذا انضمّ إليه وصف كونه قهّاراً منتقماً ذا بطش شديد[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

الشرط حالٌ ومتعلّق بالنهي كالتعليل له على سبيل التتميم، وليس على حقيقته؛ لأن الخطاب مع رسول اللّهﷺ تسلية لهم لما أصابهم يوم أحد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وهو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره، المتحقّق من صحّته، وهم كانوا متحقّقين من أنّهم أوّل المؤمنين، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾[٤]، مع علمه أنّهم لم يخرجوا إلّا لذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[٥] فبقوله تعالى: ﴿اسْتَقَامُوا﴾ تمّ المعنى أيضاً، وقد دخل فيه جميع الطاعات، فهو من جوامع الكلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٦].

هذه هي مفاتيح الغيب التي اختصّ اللّه بعلمها، وهي خمس، وختم الآية بأنّه تبالغ في العلم، يعلم كلّ الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها على وجه التتميم.

---

١. انظر: التبيان للطيّبي، ص ٣٧٧.

٢. آل عمران: ١٣٩.

٣. الشعراء: ٥١.

٤. الممتحنة: ١.

٥. فصّلت: ٣٠.

٦. لقمان: ٣٤.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَـٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[١]، تتميم لابّد منه: لأنّه إذا لم يغتنمها للعمل للآخرة، لم يكن له نصيب في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[٢].

فقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ تتميم، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميم ثان في غاية البلاغة التي بذكرها تم معنى الكلام، وجرى على الصحّة ولو حذفت الجملتان نقص معناه، وأختلّ حسن البناء.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[٣]، مع أنّ الإسـراء لا يكـون إلّا بالليل تتميم أفاد الدلالة على تقليل المدة، وانه أسرى به في بعض الليل، فالتنكير فيه يدل على معنى التبعيض.

ومن هذا القسم قول النبيّ ﷺ ممّا انفرد به مسلم: «ما من عبد مسلم يصلي للّه كلّ يوم اثنتي عشرة ركعة من غير الفرائض، إلّا بنى اللّه له بيتاً في الجنة».

فوقع التتميم في هذا الحديث في أربعة مواضع: منها: قوله: «(مسلم» ومنها قوله: «للّه» ومنها: «كلّ يوم» ومنها قوله: «من غير الفرائض».

وكقول الإمام عليّ عليه السلام: «شُقُّوا أَمْواجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجاةِ»[٤].

إذ شبّه الفتن بالبحر المتلاطم، وقرن ذلك بالأمواج التي هي من لوازم البحر وكنّىٰ بها عن هيجان الفتن وثورتها، وأتمّها بذكر سفن النجاة.

ومن أمثلة التتميم قول زهير:

مَنْ يَـلْقَ يَـوْماً عـلى عِـلّاتِهِ هَـرِماً ... يَلْقَ السَّماحَةَ مِـنْهُ والنَّـدَى خُـلُقا[٥]

---

١. القصص: ٧٧.

٢. النحل: ٩٧.

٣. الإسراء: ١.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٥. ديوان زهير، ص ٧٢؛ العمدة، ج١، ص٥٦٧؛ الطراز، ج٣، ص١٠٤؛ الايضاح، ص ١٥٨، هرم: هـو ابـن سـنان أحد من مدحهم زهير. والعلات: جمع علّة وهي هنا الحدث الذي يشغل صاحبه.

أي إن تلقه على قلّة مال أو عُدْمٍ تجده سمحاً كريماً، فكيف به وهو على تلك الحال؟ فقوله «على علّاته» تتميم للمبالغة.

وقول الشاعر:

إنّي على ما تَـرَيْنَ مـن كِـبَرى   أَعْرِفُ مِنْ أيْنَ تُؤْكَـلُ الكَـتِفُ[١]

فقوله: «على كبري» تتميم، فهو يقول: إنّني أعرف مداخل الأمور رغم هذه السنّ التي أنا فيها.

وقول نافع بن خليفة الغنوي:

رجـال إذا لم يُـقْبَلِ الحَـقُّ مِـنْهُمُ   وَيُعْطَوْهُ عاذُوا بالسُّيُوفِ القَوَاطِعِ[٢]

فقد تمّت جودة المعنى بقوله: «ويعطوه» وإلّا كان المعنى غير تامّ.

ويجري مجراه قول عنترة العبسي:

أَثْنِي عَلَيَّ بـما عـلمتِ فـإنّني   سَهْلٌ مُخَالَقَنِي، إذا لم أُظْـلَمِ[٣]

فقوله: «إذا لم أظلم» تتميم حسن.

وقول أبي الطيّب:

وَتَـحْتَقِرُ الدُّنـيا احْـتِقارَ مُـجَرِّبٍ   تَرَى كُلَّ ما فِيها وَحـاشاكَ فـانِيا[٤]

قوله: «وحاشاك» تتميم في غاية الحسن.

ومن الثاني ما يفيد صيانة واحتراساً، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٥].

والمعنى: أنّ من يرجع إلى الكفر فسوف يأتي اللّه بقوم فيهم ستّ صفات حميدة: الأولى: يحبّهم اللّه، والثانية: يحبّونه. والثالثة والرابعة: أذلّة على المؤمنين أعزّة على

---

١. الإيضاح، ص ١٥٨، أعرف من أين تؤكل الكتف مثل يضرب للخبير الداهي الذي يأتي الأمور من مأتاها.

٢. نقد الشعر، ص ١٥٧؛ العمدة، ج ١، ص ٦٤٧؛ نفحات الازهار، ص ٢٢٨ و فيه: «غاروا».

٣. ديوان عنترة، ص ١٤٨؛ العمدة، ج ١، ص ٦٤٧؛ المخالقة: المخالطة والمعاشرة.

٤. العرف الطيب، ج ٢، ص ٤٧٥؛ انوار الربيع، ج ٥، ص ١٤؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٨٠؛ الإيضاح، ص ١٥٨.

٥. المائدة: ٥٤.

الكافرين، والخامسة: يجاهدون في سبيل الله بإخلاص، والسادسة: ولا يخافون لومة لائم. فالتتميم هو جملة: «أعزّة على الكافرين» فلو اكتفت الآية الكريمة بقولها: «أذلّة على المؤمنين» فقد يتوهّم أنّ في ذاتهم ضعف، لذلك احترس بقوله: «أعزّة على الكافرين» ليزيل هذا الوهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[1].

أي حتى لو سلكَ بهم أوضح السبل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة وذلك بأن يفتح لهم باباً من السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهاراً ـ وإلى ذلك كان الاحتراس بكلمة «فظلّوا» لأنّ الظلالة إنّما يكون نهاراً خشية أن يكون عروجهم في الظلام ـ لتعلّلوا به على عدم الاهتداء ولقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف إنّما: سكرت أبصارنا وسحرنا محمّد. وما هذه إلّا خيالات مموّهة، فسجل عليهم بذلك أنّهم لا عذر لهم في التكذيب. فعرض مختلف مجالي المشاهدة والاعتبار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2].

المعروف أنّه لا يجمع بين العدد والمعدود إلّا فيما وراء الواحد والإثنين فيقال: عندي ثلاثة رجال، وثلاث نساء؛ لأنّ المعدود عارٍ من الدلالة على العدد الخاصّ، فلو لم تشفعه بصفته لما فهمت العدد المراد، وأمّا رجل وامرأة ورجلان وامرأتان، ففيها دلالة على المعدود، فلا حاجة إلى أن يقال: رجلواحد وامرأة واحدة، ورجلان إثنان وامرأتان اثنتان. أمّا في الآية، فالاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية، وهو إله وإلهان، وقد دلّا على شيئين على الجنسيّة والعدد المخصوص، فإذا أريد الدلالة على أنّ المراد الذي يساق الحديث له هو العدد كان لا بدّ من أن يشفع بما يؤكّده؛ ألاترى أنّك لو قلت: إله ولم تؤكّده بواحد لم يحسن، وخيّل إليك أنّك تثبتالإلهية

---

١. الحجر: ١٤ و ١٥.

٢. النحل: ٥١.

لا الوحدانيّة، فكان لابدّ من الاحتراس، وهذا من روائع البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾[١].

ففي قوله «وجعلنا بينهما زرعاً» تتميم لئلّا يتوهّم أنّ الانتفاع مقصور على النخيل والأعناب.

وكذلك في قوله: «وفجّرنا خلالهما نهراً» للدلالة على ديمومة الانتفاع بهما، فإنّ الماء هو سرّ الحياة، فيزداد بهاء تلك الجنّة به.

ثمّ تمّم بقوله: «كلتا الجنّتين أتت أُكلها» استحضار الصورة التامّة للانتفاع.

واحترس بقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ من أن يكون ثمّة نقص في الأكل الذي آتته، وليكون كناية عن تمام الجنّتين ونموهما دائماً وأبداً، فقد استوفى وصف الجنّتين الفنون الثلاثة جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[٢].

جاء بكلمة «خفيّاً» مراعاة لسنّة اللّه في إخفاء دعوته لطلب الولد، لأنّ الجهر والإخفاء عند اللّه سيّان، فكان الأُولى به أن يحترس ممّا يوهم الرياء أمام الناس الذين يحكمون على الظاهر. أو لئلّا يلام على ذلك الطلب في زمان الكبر والشيخوخة، ودفعاً للفضول الذي يطلق الألسنة بمختلف أنواع الملام. وقيل: احترس من مواليه الذين خافهم، وقيل: ليس في الأمر «احتراس» وإنّما هو جارٍ على حقيقته؛ لأنّ خفوت صوته ناتج من ضعفه وعجزه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ

---

١. الكهف: ٣٢ و ٣٣.

٢. مريم: ٣.

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١].

إحتراس بديع، فقد أضاف سبحانه اسمه إلى مكّة تشريفاً لها، ذاكراً تحريمها، ولمّا أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة بهذا التشريف، أتبع ذلك بإضافة كلّ شيء سواها إلى ملكّه، قطعاً لتوهّم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أنّ إفراد مكة بالاضافة لما مر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[٢].

فقوله «من غير سوء» احتراس من البرص.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ...﴾[٣].

فاحترس بذكر لفظ الإثم بعد قوله «العزّة»؛ لأنّه ربّما يتوهّم أنّ المراد عزّة الممدوح، فذكر بالإثم ليشير إلى أنّها مذمومة.

وذكر بعضهم أنّ الاحتراس هو ذكر معنى فيه غموض يوهم خلاف المقصود ثمّ الإتيان بما يزيل ذلك الغموض ويرفع عنه اللبس، وسمّاه الجاحظ بـ «إصابة المقدار»[٤] وسمّاه البلاغيون المتأخّرون بالاحتراس وقد أفردوه عن التتميم بباب خاص، والتتميم ـ عندهم ـ هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بقيد[٥] لنكتة. و أمّا ابن رشيق في العمدة، فلم يفصّل بينهما[٦] وعدّ الاحتراس ضرباً ثانياً من ضربي التتميم، وهو رأي سديد.

وكذلك نجد أنّ الخطيب القزويني قد جمع بين مصطلحي الاحتراس والتكميل

---

١. النمل: ٩١.

٢. النمل: ١٢.

٣. البقرة: ٢٠٦.

٤. الإيضاح، ص ٣٧٩.

٥. البيان والتبيين، ج ١، ص٢٢٨.

٦. العمدة، ج ١، ص٦٤٦.

في مصطلح واحد[١]. غير أنّ بدرالدين بن مالك يذكر في كتابه المصباح اختلافاً واضحاً بينهما، فالاحتراس عنده هو أن تأتي في المدح أو غيره فتراه مدخولاً بعيب من جهة دلالة منطوقه أو فحواه، فتردفه بكلام آخر لتصونه من احتمال الخطأ، والتكميل هو أن تأتي في شيء من الفنون بكلام ناقص؛ لكونه متّصفاً بعيب من جهة دلالة مفهومه، فتكمّله بجملة ترفع عنه النقص[٢].

وخلاصة ما تقدّم أنّ الفرق بين الاحتراس والتتميم والتكميل هو أنّ المعنى قبل التكميل صحيح تامّ، ويأتي التكميل بزيادة تكمل حسنه، إمّا بفن زائد، أو معنى. والتتميم يأتي لتتميم نقص المعنى ونقص الوزن معاً، والاحتراس إنّما هو لوهم يتطرّق إلى المعنى و به يندفع ذلك التوهّم. وإن كان تامّاً كاملاً، ووزن الشعر صحيحاً[٣].

فمن الأمثلة الشعريّة ما يفيد احتراساً أو صيانة من احتمال الخطأ فترد رافعة له، و منه قول أبي‌الطيب بن الوشّاء:

لَئِنْ كانَ باقي عَيْشِنا مثلَ ما مَضَى ... فَلَلْحُبُّ إنْ لم يُدخِلِ النارَ أَروَحُ[٤]

فقوله «إن لم يدخل النار» معناه سلامة العاقبة وقد أتمّ به المعنى صيانة من احتمال الخطأ. فقد أراد أنّ أوّل الحب لذة وراحة، فإن كان آخره مثل أوّله فهو

---

١. الايضاح، ص ٣١٠.

٢. المصباح، ص ٢٢٤ و ٢٢٥.

٣. ينقسم الكلام إلى قسمين: عمدة: وهو ما كان ركناً في الجملة كالمسند إليه والمسند، ويعبّر عنها في علم النحو بالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل. وفضلة: وهي ماليس كذلك، كالحال والتمييز والجار والمجرور والظرف. وهو ما يسمّيه البلاغيون قيداً، ففي الامثلة السابقة «على الذي أحسن» و «على حبّه» و «فيها صرّ» و «إن كنتم مؤمنين».. كلّها قيود لأنّها ليست جملاً مستقلّة، وليست أركاناً رئيسيّة في الجمل التي وردت فيها والمعنى يتمّ بدونها ولا يوهم تركها خلاف المقصود.

٤. الطراز، ج ٣، ص ١٠٥. والبيت لأبي‌الطيب بن الوشاء في العمدة، ج ١، ص ٦٤٨ وفيه: «فَلَلْمَوْتُ إذ لم تَدْخُلِ...». انظر: التبيان، ص ٣٨٠.

لا محالة أحمد عاقبة، لكن على أن تكون العاقبة سليمة.

وقول امرئ القيس:

إذا رَكِبُوا الخيلَ واستلأمُوا تحرّقَتِ الأرضُ واليومُ قَرْ

فاحترس بقوله «قر» فتمّم، وذكر البَطَلْيَوْسيّ أنّ هذا الشاعر هو الذي فتح باب الاحتراس[١].

وقول الآخر:

نَظَرَتْ إلَيْكَ بِعينِ جَازِيةٍ حَوراءُ حانيةٌ على طِفْلِ

شبّه عينها بعين الظبية على سبيل التجريد، ثمّ تمّ بقوله: «حانية على طفل»[٢].

وقول الشاعر:

فلا تَبْعُدَنْ إلّا من السُّوءِ؛ إنّني إليكَ - وإن شطّت بك الدارُ - نازعُ

فاستثناؤه «السوء» تتميم واحتراس جيّد[٣].

ومثله قول جرير:

فسقاكِ - حيثُ حَلَلْتِ - غَيْرَ فَقِيدَةٍ هَزِجُ الرَّواحِ، وَدِيمَةٌ لا تُقْلِعُ[٤]

فـ «غير فقيدة» تتميم للصيانة.

وقول صفي الدين الحلّي في بديعيته:

وَكَمْ بَذَلْتُ طريفي و التليدَ لَكُم طَوْعاً و أرضيتُ عنكم كُلَّ مُخْتَصِمِ

فوفني غير مأمور وعودك لي فليس رؤياك أضغاثاً من الحلم[٥]

---

١. خزانة الأدب، ج١، ص٤٨٦؛ و البيت في ديوان امرئ القيس، ص٧٧، و استلأموا: لبسوا اللامة و هي الدروع، و تحرقّت: اشتعلت من شدّة الحرب؛ قرّ: بارد.

٢. التبيان للطيّبي، ص ٣٧٨؛ أنوار الربيع، ج٣، ص ٥٤.

٣. العمدة، ج١، ص٦٤٨، وشطت الدار: بَعُدت. ونزع إليه نزوعاً: اشتاق ومال.

٤. ديوان جرير، ص ٩٠٩؛ العمدة، ج١، ص٦٤٦. الهزج: صوت الرعد والرواح: مصدر بمعنىٰ العشي أو من الزوال إلى الليل، ويقابله الصباح، يريد غيماً يأتي برعد فيكثر ماؤه، ولا تقلع: لا تكف.

٥. ديوانه، ص ٦٩٠؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٢٩٧؛ نفحات الأزهار، ص٢٢٩؛ شرح الكافية البديعية، ص ١١٩.

فالتتميم في قوله: «طوعاً» فإنّه أراد بها أنّه لم‌يبذل كرْهاً فتمّمَبها المعنىٰ.

ومن التتميم ما يختص باللفظ: وهو الذي يؤتى به لإقـامة الوزن، بـحيث إنّـه لو طرحت الكلمة استقلّ معنى البيت أو العبارة بدونها، والتتميم اللفظي الذي يفيد مع إقامة الوزن ضرباً من البديع هو المقصود هنا وقد يسمّى حشواً، وقلّ من البلغاءمن تكلّفه وصحّ منه ذلك بشروطه ومثاله قول المتنبّي:

وَخُفُوقُ قـلبٍ لو رَأَيتِ لَـهِيبَهُ   يا ـ جَنَّتي ـ لرأَيْتِ فيه جَهَنَّما

فقوله: «يا جنّتي» أتى بها من أجل استقامة الوزن، فحصل طباق وحسن موقع لا يوجد مع حذفها، ولو قال عوضاً منها «يا منيتي» لاستقام الوزن، لكن لا طباق فيها ولا يكون لها موقع حسن[١].

ومن التتميم نوع أسماه الطيبي بـ«الترقي»، وهو أن يذكر معنى، ثمّ يردفه بما هو أبلغ منه، كقولك، شاعر نحرير، وشجاع باسلٌ، وجواد فيّاض.

وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[٢].

أي قدّر ما يُوجدُ، ثمّ ميّزهُ، ثمّ مثّلهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾[٣].

أي لا يرضى عنك من هو أقرب مودّة وهم النصارى، فكيف من هو أبعدُ، وهم اليهوُدُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[٤].

كان القياس أن يقال: نومٌ ولا سنةٌ؛ لأنّه إذا لم تأخذه السنة، فكيف النوم؟ لكن

---

١. الطراز، ج ٣، ص ١٠٦؛ خزانة الأدب، ج ١، ص ٢٧٢؛ الايضاح، ص ١٥٩؛ و البيت في ديوان المتنبي، ج ٢، ص ١٤٢؛ تحرير التحبير، ص ١٠٩، والخفوق والخفقان: اضطراب القلب.

٢. الحشر: ٢٤.

٣. البقرة: ١٢٠.

٤. البقرة: ٢٥٥.

المراد لا يوجد السنة والنوم أولى على طريقة: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[١]. أي لا تقل عند الضجر: «أفّ» فضلاً عمّا يزيد عليه، ثمّ قال: «ولا تنهرهما» تأكيداً للمنفيّ ضمناً.

وقال أبو العلاء:

سَرَى بَرْقُ المَعرَّةِ بَعْدَ وَهْن فَبَاتَ برامَةٍ يَصفُ الكَلَالا
شَجَا رَكْباً وَأَفْرَاساً وَإِبْلاً وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجو الرِّحَالا[٢]

❊ ❊ ❊

---

١. الإسراء: ٢٣.

٢. سقط الزند، ٥١، انظر: التبيان، ص ٣٨١ و ٣٨٢، رامة: موضع، الكلال: الضعف، شجا: أحزن.

المساواة

لاتبعد الدلالة الاصطلاحية للمساواة عن دلالتها اللغوية، فالمساواة في اللغة مصدر: «ساوى بين الشيئين»[1] ومن ثمّ فإنّ «المساواة» من حيث هي أُسلوب حال للكلام يتطابق فيها اللفظ والمعنى من حيث المقدار.

والمساواة معتبرة في قسمي البلاغة معاً: الإيجاز والإطناب، فهي تالية لهما في العرض والتحديد[2]، وهذا معناه أنّها ـ أي المساواة ـ ذات قيمة جمالية وبلاغية اعتمدها النقد البلاغي مقياساً فنّياً ومعياراً نقدياً يقصد بها التوازن الحاصل بين الفكرة والتعبير عنها، أنّها ذلك التوسّط والاعتدال الذي يجنب الشاعر أو الناثر شطط الإيجاز المخلّ والإطناب المعيب.

ويتقيّد قدامة بن جعفر بهذا المفهوم الاصطلاحي؛ إذ أنّه يعتبر المساواة من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى ويعرّفها بقوله: «أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه»[3].

---

١. سواء الشيء: مثله، يقال: ساويت بينهما وسويت وساويت الشيء وساويت به، فساوى الشي الشيء إذا عادله وتساوت الأمور واستوت، وتساوى الشيئان واستويا بمعنى واحد. انظر: المعاجم المعتمدة (سوى).

٢. يقول بدر الدين بن مالك مشيراً إلى أنّ المساواة لا تعرّف إلّا بعد تحديد الإيجاز والاطناب: «أما المساواة وهو أن يكون لفظ الكلام بمقدار معناه لا ناقصاً عنه بحذف للاختصار ولا زائداً عليه بمثل الاعتراض والتتميم والتكرار (المصباح، ص ١٤٢)، ومعنى ذلك أنّ معرفتها رهينة بأساليب الإيجاز والإطناب.

٣. نقد الشعر، ص١٥٣.

وفي تقديره أنّ المساواة بهذا المعنى المحدّد ترادف البلاغة أو هي على الأقلّ مظهر من مظاهرها، يقول قدامة: «وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتّاب رجلاً فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر»[١].

والمساواة من المعاني التي تردّدت كثيراً عند الجاحظ وإن كان هذا الأخير لم يضع لها اصطلاحاً محدّداً، كما فعل قدامة فيما بعد[٢].

وذكر الرمّاني نوعاً من الإيجاز و هو «مطابقة اللفظ للمعنى»، وقال ابن رشيق: «فهم يسمّونه المساواة»[٣].

ويرى أبو هلال العسكري أنّ المساواة هي المذهب المتوسّط بين الإيجاز والإطناب، وإلى ذلك أشار القائل بقوله: «كأنّ ألفاظه قوالب معانيه» أي لا يزيد بعضها على بعض[٤].

وقال حازم القرطاجني: «لأنّ الكلام المتقطّع الأجزاء المنبتر التراكيب غير لذيذ ولا مستحلى، وهو شبّه الرشف المتقطّع الذي لا يروي غليلاً، والكلام المتناهي في الطول يشبه استقصاءالجرع المؤدّي إلى الغصص، فلا شفاء مع التقطيع المخلّ ولا راحة مع التطويل المملّ، ولكن خير الأُمور أوساطها»[٥].

وحينما قسّم السكّاكي البلاغة إلى علومها الثلاثة أدخل «المساواة» في علم المعاني[٦] وتبعه القزويني وشرّاح التلخيص وغيرهم من المتأخّرين، يقول القزويني

---

١. المصدر، ص ١٧١ و ١٧٣.

٢. البلاغة تطور وتاريخ، ص١٨٩؛ المصطلح النقدي في نقد الشعر ٧ ص ٢٤١ وبعدها. يقول الجاحظ: «حقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال له وفقاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً» البيان والتبيين، ج ١، ص٩٣.

٣. العمدة، ج ١، ص ٤٣١؛ النكت في إعجاز القرآن (ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص ٧٢.

٤. كتاب الصناعتين، ص ١٧٧.

٥. منهاج البلغاء، ص ٦٥.

٦. مفتاح العلوم، ص ١٣٣.

عنها: «المراد بالمساواة أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد، لا ناقصاً عنه بحذف أو غيره، ولا زائداً عليه»[١] ولم يخرج المتأخّرون من هذا التحديد[٢].

ووردت المساواة بمعنى آخر حين عقد ابن وكيع مبحثاً في وجوه السرقات فقال: «القسم الثامن: مساواة الآخذ والمأخوذ منه في الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام، وإن كان الأوّل أحقّ به؛ لأنّه ابتدع، والثاني اتّبع»[٣] ومن ذلك قول العَكوَّك في فرس:

مُطَّرِدٌ يَرْتَجُّ من أقطارِهِ ... كالماءِ جالَتْ فيهِ رَيحٌ فاضْطَرب

فذكر ارتجاجه ولم يذكر سكونه، وأخذه ابن المعتزّ، فقال:

فَكَأَنَّهُ مَوْجٌ يَذوبُ إذا ... أَطْلَقْتَهُ وإذا حَبَسْتَ جَمَدْ

فجمع بين الصفتين

وتأثّر ابن منقذ بهذا الاتّجاه فعقد باباً للمساواة وقال: هو مساواة الآخذ والمأخوذ منه، والأوّل أحقُّ به؛ لأنّهُ ابتدع والثاني اتبع، فالأوّل سابق والثاني لاحق، ومثّل له بقول ديك الجنّ:

مُشَعْشَةٌ في كفِّ ظبي كأنّما ... تَناوَلَها من خَدّهِ فَأَدارَها[٤]

فلحقه ابن المعتزّ، فقال:

كأنَّ سَدِيفَ الخمرِ من ماءِ خَدّهِ ... وعنقودَها من شعرِهِ الجعدِيُقْطَفُ[٥]

ومن أمثلة المساواة

قوله اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٦].

---

١. الإيضاح، ص ٢٨١؛ شروح التلخيص، ج٣، ص ١٨٠.

٢. معجم النقد العربي القديم، ج٢، ص٢٨١.

٣. المنصف، ج١، ص١٨.

٤. مشعشعة: ممزوجة.

٥. انظر: البديع في البديع، ص ٢٧٩، السديف: الأسود، والسديف: أيضاً: لحم السنام.

٦. فاطر: ٤٣.

يعني: لا ينزل المكر السّيءُ إلّا بمن يستحقه بعصيانه وكفره: والمكر السيّء من جانب اللّه تعالى: أن يفعل بالعبد ما يُوبِقُهُ.

وإنّما كانت الآية من قبيل المساواة؛ لأنّ المعنى قد أدّى بما يستحقّه من التركيب وَضْعاً يقتضي ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

فاللّه سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن والممادح وينهى عن جميع القبائح والمذامّ، فأخرج الألفاظ في صورٍ مساوية للمعاني لا تزيد عليها ولا تنقص عنها.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[٢].

فقد حصلت المساواة في هذه الآيات بين ألفاظها ومعانيها المقصودة منها، ولو رمت زيادة الألفاظ على المعاني وبالعكس لما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

فالمساواة بين الغنيّ والفقير في الإنفاق عبء يثقل كاهل الفقير، ولا يوجبه الشرع، وفي قوله: «على الموسع قدره وعلى المقتر قدره» مطابقة الألفاظ للمعاني

١. النحل: ٩٠.
٢. عبس: ١٧ـ٢٣.
٣. الزلزلة: ٧ و ٨.
٤. البقرة: ٢٣٦.

من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾[١] فقوله: «فله ما سلف» من جوامع الكلم، ومعناه أنّ خطاياه الماضية غفرت له وتاب اللّٰه عليه فيها، إلّا أنّ قوله «فله ما سلف» أبلغ، أي أنّ السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنّما هو له.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٧].

ومنه قول الرسول ﷺ: «إنّما الأعمالُ بالنياتِ ولكلِّ امرئٍ ما نَوَى».

وقوله ﷺ: «الحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيّنٌ، وبَيْنَ ذلِكَ أُمورٌ مُتَشابِهاتٌ».

---

١. البقرة: ٢٧٥.

٢. القلم: ٩. المداهنة: هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي.

٣. الأنعام: ٦٨.

٤. الرحمن: ٦٠.

٥. سبأ: ١٧.

٦. البقرة: ١٦٤.

٧. البقرة: ١١٠.

وقوله ﷺ: «لا تزالُ أمّتي بخيرٍ ما لَمْ تَرَ الامانَةَ مَغْنَماً والزكاةَ مَغْرَماً».

فالألفاظ هنا مساوية للمعاني تمام المساواة، وكلّ زيادة أو نقص في ألفاظ الحديث تخلّ بالمعنى.

ومن أقوال الإمام عليّ عليه السلام:

«أَحْسِنُوا في عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفظُوا في عَقِبِكُم»[١].

«إنَّ كَلامَ الحُكَماءِ إذا كانَ صَوَاباً كانَ دَواءً، وإذا كانَ خَطأً كانَ دَاءً»[٢].

«يَهْلِكُ فيَّ رَجُلان: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَبهوت مُفْتَرٍ»[٣].

«لا خَيْرَ في الصَّمْتِ عَنِ الحُكْمِ، كما أنّه لا خَيْرَ في القَوْلِ بالجَهْلِ»[٤].

«أَشَدُّ الذُنُوبِ ما اسْتَخَفَّ بِهِ صاحِبُهُ»[٥].

وقول امرئ القيس:

فإن تكتموا الداء لا نُخْفيه ... وإن تَبعثوا الحربَ لانقعد

وإن تقتلونا نقتلكم ... وإن تقصِدوا لدمٍ نَقْصُد

وقول النابغة الذبياني:

فإنّكَ كاللَّيْلِ الذي هو مُدْرِكي ... وَإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتأى عَنْكَ واسِعُ[٦]

وقول طرفة:

ستبدي لك الأيّام ماكنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

وقول زهير:

ومَهْما تكنْ عندَ امرئٍ مِنْ خليقةٍ ... وإنْ خالها تَخْفى على الناس تُعْلَمِ[٧]

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٢٦٤.

٢. المصدر، الحكمة ٢٦٥.

٣. المصدر، الحكمة ٤٦٩.

٤. المصدر، الحكمة ٤٧١.

٥. المصدر، الحكمة ٤٧٧.

٦. الإيضاح، ص ١٤٣؛ معاهد التنصيص، ج ١، ص ٣٣٢.

٧. ديوانه، ص ٣٢؛ نقد الشعر، ص ١٥٣؛ سر الفصاحة، ص ٢٠٦؛ اعجاز القرآن، ص ٨٩.

وكقول جرير:

فـلو شـاءَقومي كـان حِـلْمِيَ فـيهمُ وكان على جُهَّال أعدائـهم جَـهْلِي[١]

وقول زهير:

إذا أنت لم تُـقْصِرْ عـن الجـهل والخَـنا أصـبتَ حـليماً أو أصـابكَ جـاهلُ[٢]

وقول الهذلي:

فلا تَـجْزعَنْ مِـن سُـنَّةٍ أنت سِـرْتها وأوّلُ راضٍ سـنةً مـن يَسِـيرُها[٣]

* * *

١. ديوانه، ص ٤٦٢؛ إعجاز القرآن، ص ٨٩.

٢. ديوانه، ص ٣٠٠؛ سر الفصاحة، ص ٢٠٦؛ نقد الشعر، ص ١٥٤؛ اعجاز القرآن، ص ٨٩.

٣. ديوان أبي ذويب، ص ١٥٦و ١٥٧؛ نقد الشعر، ص ١٥٤؛ اعجاز القرآن، ص ٨٩.

تأكيد المدح بما يشبه الذمّ

هو في غاية العزّة في القرآن، وأسلوبه أبهى وأفخم أنواع المـدح، ولعـلّ السـرّ النفسيّ لجمال هذا الأسلوب يكمن فيما فيه من معنى المـباغتة والمـفاجأة الذي يكسبه طرافة، ويثير حوله تنبيهاً سواء أكانت هـذه الطـرافـة تـقوم عـلى اتّـصال الاستثناء، أم يتحوّل معها منقطعاً؛ فإنّ المباغتة هي الأصـل لامـلاحظة الاسـتثناء وحالته.

لقد تعدّدت تسميات موضوع تأكيد المدح بما يشبه الذمّ مـنذ أنّ اسـتخرجـه ابن المعتزّ وعدّه مُحَسَّناً من محسّنات الكلام[1]، وقد سمّي: «**المدح في معرض الذمّ**» و «**النفي والجحود**»[2]، كما سُمّيَ: بـ «**الاسـتثناء**»؛ لأنّ حسـنه المـعنوي مـن أثـر أداة الاستثناء التي يبنىٰ عليها[3].

وتعريفه: هو أن يعمد المتكلّم إلى تأكيد المدح باعتماد أسلوب يوهم بأنّه أراد الذمّ.

وينقسم هذا اللون إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: أن يُستثنى من صفة ذمّ منفيّة صفة مدح بـتقدير دخـول صـفة المـدح

---

١. البديع، ص ٦٢.

٢. أنوار الربيع، ج٦، ص٢٧.

٣. البلاغة والتطبيق، ص ٤٤٦.

المستثناة في صفة الذمّ المنفيّة.

كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلاً سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾[١].

استثنى «سلاماً سلاماً» الذي هو ضدّ اللغو والتأثيم، فكان ذلك تأكيداً لانتفاء اللغو والتأثيم؛ لأنّ السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم، فهو مدح لهم بإفشاء السلام[٢]، فما قبل «إلّا» نفي لصفة اللغو والتأثيم، وما بعدها إثبات السلام وكلاهما مدح[٣].

فتأكّد بذلك مدح ما ينتهي إلى الأذن في الجنّة من عدم سماع اللغو والتأثيم وذلك بإيراد صفة مدح أخرى هي قول: «سلاماً سلاماً».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾[٤].

أي قل: يامحمّدﷺ: يامعشر اليهود والنصارى هل تُعيّبوننا وتنكرون علينا إيماننا باللّه وبما جاء به رسل اللّه. فقد جعلوا التمسّك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة مع أنّ الأمر على العكس.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٥].

كأنّه يقول: ليس لهم جريمة إلّا إيمانهم باللّه، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر.

وقوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ﴾[٦].

فجعل مايحتجّ به الذين ظلموا مستثنى من الحجّة وإن لم يكن حجّة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٧].

---

١. الواقعة: ٢٥ و ٢٦.

٢. وهذا كقول القائل: «لاذنب لي إلّا محبّتك».

٣. التأكيد فيه من جهة أنّه كدعوى الشيء ببيّنة، وأنّ الأصل في الاستثناء الاتّصال، فذكر أداته قبل ذكر مابعدها يوهم إخراج الشيء ممّا قبلها، فإذا وليها صفةُ مدحٍ جاء التأكيد.

٤. المائدة: ٥٩.

٥. البروج: ٨.

٦. البقرة: ١٥٠.

٧. الدخان: ٥٦.

أي لايذوقون الموت البتّة، يعني أن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها؛ فإنّهم لايذوقونها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١].

فإنّه قال: ليس له صفه تعاب وتكره إلّا قدوم الرسولﷺ وهجرته إليهم، وإغناء اللّه إيّاهم بعد الفاقة والشدّة.

وقول النابغة الذبياني في مدح الغسانيّين:

ولاعَيْبَ فيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ[٢]

يعتمد الشاعر على المعنى ذي الوجهين: أنّه المعنى المزدوج الذي يوهمنا في الوهلة الأولى، أنّه يتصدّى لعيب الممدوح، لكنّنا سرعان ما نكتشف أنّ هذا العيب الضئيل ليس في الواقع سوى نتيجة لفضيلة عظمى من الفضائل التي يتحلّون بها؛ إنّ فلول سيوفهم ليس من الضعف والتخاذل والصدأ، وإنّما من كثرة القرع. فالشطر الأوّل بحدّ ذاته قد شكل هجاء، لكنّه بعد أن أردفه بالشطر الثاني غدا الهجاء مغالاة في المدح، ولعلّ هذا الأسلوب يضاعف المعنى ويوهم السامع بصدق القول وواقعيّته[٣].

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول حاتم الطائي:

ولاتَشْتكيني جارتي غير أنّنى إذا غابَ عَنْها بَعْلُها لا أَزُورُها[٤]

وقول الآخر:

ولاعَيْبَ فيهِ غَيْرَ أَنَّ ذوي النَّدى خِساسٌ إذا قيسُوا بِهِ و لِئامُ

وقول ابن نباتة:

ولاعَيْبَ فيها غَيْرَ سِحْرِ جُفُونِها وأحْبِبْ بِها سَحّارةً حين تَسْحَرُ

---

١. التوبة: ٧٤.

٢. انظر ديوانه، ص٤٤؛ الايضاح، ص٢٨١؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص٣١.

٣. انظر: في النقد والأدب، ج١، ص٣٠٨.

٤. نهاية الأرب، ج٧، ص١٢٢.

ففتاته لاعيب فيها سوى الجمال وسحر الجفون، لو عدّ الجفون عيباً، وكونه عيباً محال.

وقول المعريّ:

تُعَدُّ ذُنُوبي عِنْدَ قوم كثيرةً ولاذَنْبَ لي إلّا العُلا والفضائِلُ

وأنشد النويري قول بعض الشعراء:

ولاعيبَ فينا غير إن سمّاحنا أضرّ بنا والبأسَ من كلّ جانب

فأفنى الردى أعمارنا غيرَ ظالم وأفنى الندى أموالنا غير عاتب

الثاني: إن يثبت لشيء صفة مدح، ثمّ يؤتى بعدها بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى له، نحو قول النبيّﷺ: «أنا أَفْصَحُ العرب بيدَ أنّي من قريش»[1].

أي غير أنّي من قريش[2]. نجد أنّ النبيّﷺ وصف نفسه بصفة ممدوحة وهي أنّه أفصح العرب، ولكنّه أتي بعدها بأداة أستثناء حتى لكأنهﷺ ادهش السامع وجعله يترقّب ذكر صفة غير ممدوحة ولكن سرعان ما يزول هذا التخييل حينما يجد صفة ممدوحة بعد أداة الاستثناء، فكان ذلك توكيداً للمدح الأوّل في أسلوب أَلَفَ الناس سماعه في الذمّ.

ونظيره قول أمير المؤمنين؈ لمّا بلغه مقل محمد بن أبي بكر:

«إنّ حُزننا عليه على قدر سرورهم به، إلّا أنّهم نُقصُوا بغيضاً ونُقصنا حبيباً».

لقد لوّحت عبارة الإمام؈ عندما ذكر أداة الاستثناء قبل ذكر المستثنىٰ منه أن أتى مستثنىٰ من المدح السابق، ويراد به إثبات صفة ذمّ؛ ولكن عندما عكس التوقّع وجيء بعد الأداة بصفة مدح ازداد المدح الأوّل تأكيداً، لما في ذلك من المدح والإشعار بأنّ الامام؈ لم يجد له صفة ذمّ سوىٰ أن يزيده مدحاً إلى مدح.

---

١. علوم البلاغة، ص ٣٢٠.

٢. بيد كغير لفظاً ومعنىً فتكون كأداة استثناء وتستعمل أحياناً حرف تعليل بمعنى من أجل.

قال ابن نباته المصري:

ولاعَيْبَ فـيهِ غَـيْرَ أَنّـي قَـصَدْتَهُ فـأنْسَتْنِي الأَيـامُ أهـلاً وَمَـوْطِناً

صدّر الشاعر كلامه بنفي عامّة العيب من الممدوح. ثمّ أتى بعد ذلك بإداة أستثناء هي «غير» فأوهم أنّه سيأتي بعدها بصفه ذمّ، ولكنّه لم يفعل بل أتى بصفة مدح هي أنّه عظيم الجود وكثير الرعاية لقُصّاده، فصدر البيت يفيد المدح، وعجزه يؤكّد هذا المدح ولكن بأسلوب يوهم الذمّ وهذا من الضرب الأوّل.

وقال الشاعر:

وُجُوه كـأزهار الريـاض نـضارة ولكـنّها يـوم الهـياج صُخُور

أثبت الشاعر هنا لوجوه ممدوحية صفة مدح، وأتى بعد ذلك بأداة استدراك هي «لكنّ»، فأوهم أنّه سيُتبعها بشيء من الذمّ، ولكنّه لم يفعل، بل أتى بصفة مدح أخرى، فالكلام توكيد للمدح بما يشبه الذمّ وهذا من الضرب الثاني.

وقال النابغة الجعدىّ:

فـتىً كَـمُلَت أخـلاقُهُ غـيرَ أَنّـهُ جوادٌ فما يُبقِي من المـالِ بـاقياً

فَـتىً تَـمّ فـيه مـايُسِرُّ صـديقه على أنّ فيهِ ما يَسُوءُ الأعـاديا

فالشاعر قد أثبت لممدوحه صفة مدح هي كمال أخلاقه ثمّ أتى بأداة الاستثناء وهي «غير» فَتُوُهِّم أنّه سيأتي بصفة ذمّ، ولكنّه أورد صفة مدح ثانية هي أنّه جواد فما يبُقي من المال باقياً، فتأكّد مدحه وترسّخ.

ويعامل البلاغيون الاستدراك المفهوم من لفظ «لكنّ» في هـذا البـاب مـعاملة الاستثناء، ومن ذلك قول بديع الزمان الهمداني:

هُوَ البَـدْرُ إلّا أنّـه البَـحْرُ زاخِـراً سوى أنّه الضِرْغامُ لكِنّهُ الوَبْلُ[١]

فقوله: «إلّا أنّه البحر...» و «سوى أنّه الضرغام»

---

١. الإيضاح، ص ٢٨٢؛ نهاية الإيجاز، ص ٢٩٣.

استثناء أنّ على غرار «بيد أنّي من قريش» وقوله: «لكنّه الوَبْلُ» استدراك يفيد الفائدة المحصلّة من الاستثناء في هذا الباب، أي تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، وكذا قول الشاعر:

وُجُوهٌ كأزهار الرياض نضارةً ولكنّها يومَ الهياجِ صخورُ

الثالث: أن يأتي الأستثناء فيه مفرّغاً، وصورته أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذمّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[١].

أي وما عابوا منهم وما أنكروا إلّا الإيمان.

المستثنى في هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْمِنُواْ﴾ وقد وقع معمولاً لقوله تعالى: ﴿نَقَمُواْ﴾ الذي فيه معنى الذمّ، وهذا الاستثناء ـ كما تراه ـ مُفرَّغ، أي مانقموا منهم شيئاً من الأشياء.

الاستثناء بعد النفي يوهم أنّ ما يأتي بعده ممّا يوجب أن يُنقم على فاعله ممّا يذمّبه، ولكنّنا نجد بعد الاستثناء مايوجب مدح فاعله، فكان الكلام متضمّناً تأكيد المدح بما يشبه الذمّ للمبالغة في المدح، حيث جعلوا الإيمان باللّه ذمّاً، مع أنّه غاية في المدح.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾[٢].

الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ماعابوا به المؤمنين من الإيمان يوهم أن مايأتي بعده ممّا يوجب أن يُنقم على فاعله ممّا يذمّ به، فلمّا أتى بعد الاستثناء مايوجب مدح فاعله كان الكلام متضمّناً تأكيد المدح بما يشبه الذمّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٣].

---

١. البروج: ٨.

٢. المائدة: ٥٩.

٣. التوبة: ٧٤.

أي مانقموا إلّا بما سوى إغناء اللّه تعالى إيّاهم، فيكون الاستثناء مفرّغاً من أعمّ العلل. وهو على حدّ قولهم: مالي عندك ذنب إلّا أني أحسـنت إليك. وفـيه تـهكّم وتأكيد الشيء بخلافه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[١].

فإنّ ظاهر الاستثناء أنّ مابعده حقّ يقتضي الإخراج. فلمّا كان صفة مدح يقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذمّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾[٢].

إذ المعنى وما تعيّب منّا إلّا أسس المناقب ودعائم المفاخر كلهّا وهو الإيـمان بآيات اللّه.

تنبيه:

قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

يعني إن أمكن لكم أن تنكحوا ماقد سلف فانكحوا فلايحلّ لكم غيره هـذا إذا أُريد معنى تأكيد المدح بما يشبه الذمّ وذلك غير مـمكن، والغـرض المـبالغة فـي تحريمه وليس من تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه.

جمال اسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم:

هذا الاسلوب ذو سلطان كبير علىٰ نفس المتلقي، إذ يستعد ذهنه بعد سماع أداة الاستثناء، أو الاستدراك لتلقي معنىٰ مخالف لما سبق، كما هو المعهود في الاستثناء المعتاد؛ لكنه يباغت بتأكيد للمعنىٰ السابق و اثبات له فيُخبط توقّعه، مما يستدعي تنبُّهاً عالياً.

---

١. الحجّ: ٤٠.

٢. الاعراف: ١٢٦.

و يتفنن المدعون ـعادة ـ في تخيّر الصفة المستثناة المؤكدة للمعنىٰ المستثنىٰ منه، و يتنافس في ذلك المتنافسون. و في الأمثلة السابقة خير بيان لهذا، ولا يغب عنّا ـأيضاً ـ أن في الاستثناء والاستدراك ضرباً من الإيقاظ و التنبيه، فإذا أضيف إليه «إحباط التوقع» الذي تعتمده هذه الطريقة. ادركنا الاسلوب في ذهن المتلقي.[1]

١. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٦١٣.

تأكيد الذمّ بما يشبه المدح

و هو أن يبالغ المتكلم في ذمّه، فيعمد إلىٰ الإتيان بعبارة يتوهّم منها السامع في بادئ الأمر أنّه مدح فإذا هو ذم مؤكّد.[1]

وهو ضربان:

الأوّل: أن يُسْتثنى من صفة مدح منفيّةٍ صفةَ ذمّ بتقدير دخول صفة الذمّ المستثناة في صفة المدح المنفيّة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[2] فقبل إلّا نفي لذوق البرد والشراب، وبعدها إثبات لذوق الحميم والغسّاق وكلاهما ذمّ.

ومنه قوله عزّوجلّ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[3] فقبل إلّا نفي لوجود الصديق الحميم والطعام الطيّب وبعدها إثبات لوجود الطعام الخبيث: (غسلين) وكلاهما ذمّ.

نحو قول الشاعر:

خَلا مِنَ الفَضْلِ غَيْرَ أَنّي ... أراهُ فـي الحُمْقِ لايُجارى

فهنا نفى عن المهجو صفة مدح وهي خلوّه من الفضل ثمّ ذكر أداة الاستثناء وهي

---

١. البلاغة الصافية، ج٣، ص١١٨.

٢. النبأ: ٢٤ و ٢٥.

٣. الحاقة: ٣٥ و ٣٦.

«غير» وأعقبها بصفة ذمّ وهي عدم مجاراته في الحمق، فأكّدت صفة الذمّ هذه صفة المدح المنفيّة فثبت ذمّ المهجو بصفتين متداخلتين.

وقال الشاعر:

فإنّ من لامني لاخير فيه سوى وصفي له بأَخَسّ الناس كُلِّهِم

أي أنّه لاخير فيه سوى أنّه أخسّ الناس، فإن كانت تلك الصفة خيراً.

وكون الأخسّيّة محالاً، فيكون ثبوت الخير محالاً.

ونحو: «لافضل للقوم إلّا أنّهم لايعرفون للجار حقّه».

ذمّ المتكلّم القوم في صدر كلامه بأن نفى عنهم صفة من صفات المدح، ثمّ أتى بعد ذلك بأداة الاستثناء وهي «إلّا» فأوهم السامعين أنّه سيأتي بعدها بصفة مدح يُطريهم، ولكنّه أتى بصفة ذمّ، وهي أنّهم لايعرفون حقوق الجار. فصدر الكلام ـ كما ترى ـ مفيد للذمّ، وعجزه مفيد للذمّ كذلك، ولكن في أسلوب ألف الناس سماعة في المدح. فالكلام توكيد للذمّ بما يشبه المدح.

الثاني: أن يثبت لشيء صفة ذمٍّ، ثمّ يؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة ذمّ أخرى، نحو: «الكلام كثير التعقيد سوى أنّه مبتذل المعاني».

ذمّ المتكلّم الكلام أوّلاً بأن أثبت له صفة من صفات الذمّ، ثمّ أتى بعد ذلك بأداة استثناء هي «إلّا» فأوهم أنّه سيتبع ذمّه بشيء من المدح، ولكنّه بدلاً من ذلك أكدّ الذمّ الأوّل بأن أتى بصفة ذمّ أخرى. فالكلام توكيد للذمّ بما يشبه المدح.

وقد يؤتى بعد أداة الاستثناء بكناية عن صفة ذمّ أخرى، كقول طرفة بن العبد وهو يهجو زوج أخته عندما شكت إليه أمر زوجها:

ولاخَيْرَ فيهِ غَيْرَ أَنَّ لَـهُ غِـنىً وأنَّ لَهُ كَشْحاً، إذا قامَ، أهْضَما

فإنّه بعد أن نفى الخير عنه جاء بالاستثناء كمن يريد أن يذكر له حسنه يمدحه بها، فإذا به لايرى فيه من الحسن غير كثرة المال ودقّة الخَضْر. وهو من الهجاء المرّ و هو أن تصف رجلاً بما توصف به النساء، ونحو قول الشاعر:

لئيمُ الطـباعِ سـوىٰ أنّـهُ جَبانٌ يهونُ عليهِ الهوانُ

فالشاعر في هذا البيت أثبت لمهجوه صفة ذمّ هي لؤم الطباع ثمّ بنى عليها بأداة الاستثناء «سوى» صفة ذمّ ثانية وهي الجبن وهو أنّ الهوان عليه، فالتقت الصفتان الذميمتان لتأكيد ذمّه.

وشأن الاستدراك في هذا المحسّن البديعي، كشأن الاستثناء على ما عرفت في الفنّ السابق.

الجمع

الجمع لغةً: هو الضم والربط

واصطلاحاً: هو أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد وذلك

١. إمّا في إثنين، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١] فقد جمع بين المال والبنين في حكم وهو زينة الدنيا.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[٣].

فقد جمع بين الكافرين من أهل الكتاب والمشركين في حكم واحد وهو خلودهم في نار جهنّم.

وقول الرسولﷺ: «عينانِ لا تُصيبهما النارُ: عينٌ بكت في جوفِ الليلِ من خَشيةِ اللّه، وعينٌ باتت تَحْرسُ في سبيل اللّه»[٤].

وقولهﷺ: «يكبرُ ابن آدم ويكبر معه إثنان: حُبُّ المالِ وطُولُ العُمر»[٥].

---

١. الكهف: ٤٦.

٢. التغابن: ١٥.

٣. البينة: ٦.

٤. سنن النسائي، ج٦، ص١٠.

٥. صحيح البخاري، ج٢٢، ص١٩٧.

وقول الإمام علي‌ﷺ: «الإيمانُ والعِلْمُ أخوان توأمان ورفيقان لا يفترقان»[١].

وقوله‌ﷺ: «المَرْءُ بأصغريهِ بقلبِهِ ولسانِهِ، إن قاتلَ قـاتَلَ بـجنانٍ و إنْ نَـطَقَ نَـطَقَ ببيانٍ»[٢]

٢. وامّا في أكثر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[٣].

جمعت هذه الرذائل التي تفسد العقل، وتصدّ عن ذكر اللّه، وحكم عليها بأنّـها رجس من عمل الشيطان.

وقال الرسول‌ﷺ: «مَنْ أصْبَحَ آمِناً في سِربْهِ مُعَافىً في جَسَدِهِ، وعندَهُ قُوتُ يومِهِ، فكأنّما حِيزَت له الدُّنيا بِحَذَافِيرها»[٤]، أي بأسرها، وحذافير الشيء نواحيه أو جوانبه، أي ان من رزق الأمن من كلّ بلاء يتّقيه، والعافية من كلّ داء يؤذيه؛ وأعطيَ بـلغة يومه الذي هو فيه، فقد أحاط بما يهمّه في الدنيا أطرافه ونواحيه.

فجمع بين هذه الأمور الثلاثة في أنّها أصل المقاصد الدنيويّة.

وقال أمير المؤمنين‌ﷺ: «إنّ قوماً عَبَدُوا اللّهَ رَغْبَةً فتِلكَ عِبادَةُ التجّار، وإنّ قَـوْماً عبدوا اللّه رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ العبيد، وإنّ قَوْماً عبدوا اللّه شُكراً فَتِلْكَ عِبادَةُ الأَحْرارِ»[٥].

وقول أبي‌العتاهية

إنَّ الشّـبابَ والفَـراغَ والجِـدَهْ   مَـفْسَدَةٌ لِـلْمَرْءِ أيُّ مَـفْسَدهْ[٦]

---

١. غرر الحكم، ج٢، ص٤٧.

٢. غرر الحكم، ج٢، ص١٣٣.

٣. المائدة: ٩٠.

٤. النهاية، ج١، ص٣٥٦؛ التبيان للطيّبي، ص٤٠٢؛ أنوار الربيع، ج٣، ص٣٧١؛ خزانة الأدب، ج٤، ص٣٠؛ الترمذي، ج٤، ص٥٧٤.

٥. نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧.

٦. ديوانه، ص٤٤٨؛ الإيضاح، ص٢٦٩؛ الطراز، ج٣، ص١٤٢؛ نهاية الأدب، ج١٧، ص٨٠؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٨٣؛ شرح عقود الجمان، ص١١٨؛ المصباح، ص٢٤٥؛ التبيان للطيّبي، ص٤٠٢؛ انوار الربيع، ج٣، ص٣٧١ و ٣٧٢؛ المفتاح، ص٥٣٥.

فقد جمع بين الشباب والفراغ والجدة (أي الغنى) في حكم وهو كونها فساداً للإنسان.

وقول ابن جابر الأندلسي:

قَدْ أحْرَزَ البَأْسَ والإحسانَ في نَسَقٍ والعِلْمَ والحِلْمَ قَبْلَ الدَّرْكِ للحُلُمِ

وشاهده في موضعين من البيت: الأوّل قوله: «البأس والإحسان» فإنّه جمعهما في حكم واحد وهو كون النبيّ ﷺ أحرزهما قبل الدرك للحلم في نسق.

والثاني قوله: «العلم والحلم» فإنّه جمعهما ـ أيضاً ـ في مثل ذلك[1]

وقول ابن الرومي:

آراؤُكُم وَوُجُوهُكُم وَسُيوفُكُمْ في الحادثاتِ إذا دَجَوْنَ نجومُ[2]

فقد جمع بين الآراء والوجوه والسيوف و هي أمور ثلاثة، و أصدر فيما حكماً واحداً هو أنها ضياء في الحادثات و نورٌ عند الملمات.

وقول امرئ القيس:

أفادَ وجادَ وسادَ وزادَ وقادَ وذادَ وعادَ وأفضلَ[3]

بلاغة الجمع

يقوم جمال فنّ «الجمع» علىٰ تحديد الناحية التي يشترك فيها شيئان أو مجموعة أشياء مختلفة؛ إذ ما من شكّ في أنّ الذهن عندما يتلقّىٰ أمثلة كالأمثلة السابقة ينشط في إدراك الوجه الذي تجتمع فيه الأشياء المتباينة. فما هو معروف في عمليّة

---

١. الحلّة السيرا في مدح خير الورىٰ، ص ١١٥، وفي البيت من ألوان البديع: المطابقة بين «البأس الإحسان»، والجناس اللاحق بين «العلم والحلم» وفيه تجنيس التحريف بين «الحِلْم والحُلُم» والاحتباك، وهو حذف من الأوّل ما أثبت نظيره في الثاني، وحذف من الثاني ما ثبت نظيره في الأوّل.

٢. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٥٨٩.

٣. ديوانه، ص١٧٢.

الإدراك أنّ الذهن يقف عند المتعاطفات وقفة عادية، كـأن يسـمع الإنسـان هـذه العبارة: الخيل والليل والبيداء وهي أشياء مختلفة، فالحكم الواحد الذي اشتركت فيه ضعيف، أمّا عندما يتلقّىٰ من المتنبّي الذي يجمع سبعة أشياء في حكم واحد فـي قوله:

الخـيلُ واللـيلُ والبـيداء تـعرفني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقـلمُ

فإنّه يأخذ لا محالة في تأمّل هذا الوجه الذي اشتركت فيه هذه الأشياء، وكيف اشتركت فيه[1].

---

١. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٥٨٩.

التفريق

التفريق لغةً: ـ من الفَرْق ـ خلاف الجمع.

واصطلاحاً: هو إظهار التباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو في غيره.[1]

والمراد من التباين عدم شركة أحدهما مع الآخر في وصف مختصّ به الآخر، فالتباين هنا يقابل المشابهة، وإذا وقع التباين بين نوعين مختلفين فإنّه لايكون تفريقاً بل توضيحاً وتفصيلاً.

كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[2].

فقد فرّق بين أمرين من جنس واحد «البحرين» في الطعم؛ فإنّ أحدهما «عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ» والآخر «مِلْحٌ أُجَاجٌ»[3].

وقول النبيّ ﷺ: «البَيّنَةُ علىٰ المدّعي واليمينُ علىٰ مَنْ أنْكَر»[4].

وقوله ﷺ: «مَنْ دَعا إلىٰ هُدىً كانَ لَهُ مِنَ الآجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يُنقِصُ

---

١. الإيضاح، ص٢٦٩.

٢. فاطر: ١٢.

٣. الفُرات: شديد العذوبة، مائل إلى الحلاوة وهو ماء الأنهار، وسُمّي فراتاً لأنّه يَفْرُت العطش، أي يقطعه ويكسره. والأجاج: الشديدُ الملوحة والمرارة، وهو ماء البحار وسُمّي أجاجاً من الأجيج وهو تلهّب النار، لأنّ شربه يزيد العطش. وهنا اللحم الطري يستخرج من البحرين، والحلية من المِلح خاصة.

٤. كنز العمال، ج٦، ص١٥٢٨٢؛ وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٧ «على من ادّعى عليه» بدل «على من أنكر».

ذَلِكَ من أُجُورِهِم شَيئاً، وَمَنْ دَعَا الىٰ ضلاَلَةٍ كانَ عليه من الإثمِ مِثْلُ آثام مَنْ تَبِعَهُ لايُنقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثامِهِم شَيئاً»[١].

وقول الإمام عليّ ﷺ: «غَيرةُ المرأةِ كُفْرٌ، وغَيرةُ الرَّجُلِ إيمانٌ»[٢].

وقوله ﷺ: «صاحِبُكُم يُطيعُ اللّهَ وأنْتُم تَعْصُونَهُ، وصَاحِبُ أهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ»[٣].

ومنه قول الوطواط:

مـانَوَالُ الغَـمَامِ وَقْتَ رَبيعٍ كَـنَوالِ الأمـيرِ وَقْتَ سخاءِ

فـنوالُ الأمـيرِ بَـدْرَةُ عَـيْنٍ وَنَـوالُ الغـمامِ قَـطْرَةُ مـاءِ[٤]

نفىٰ المماثلة بين النوالين في البيت الأوّل (تدفُّق المطر، وتـدفُّق كـرم الأمـير) وفرّق بينهما علىٰ الإجمال، ثم علّل في البيت الثاني ما يؤكّد التفريق بينهما.

وقول الوأواء:

مَنْ قـاسَ جَـدْوَاك بـالغَمَامِ فَـما أنْـصَفَ الحُكْـمَ بـينَ شَكْـلَيْنِ

أنْتَ إذا جُـدْتَ ضَـاحِكٌ أَبَـداً وَهُـوَ إذا جـادَ دامِـعُ العَـيْنِ[٥]

ومثاله في الغزل:

حَسِـبْتُ جَـمالَهُ بـدراً مُـنيراً وأين البدر من ذاكَ الجـمال

---

١. سنن أبي داود، ج٥، ص١٦.

٢. نهج البلاغة، قصار الحكم ١٢٤.

٣. المصدر، الخطبة ٩٧ـ٧.

٤. نوال مانال فيه، والنوال: العطاء. الغمام: السحاب، وخصّ وقت الربيع لأنّ مطره أكثر نـفعاً، بـدرة: عشـرة ألاف درهم. والعين: المال النقد، والتنكير في «عين» للتعظيم، وماء للتحقير.
انظر: الإيضاح، ص ٢٦٩؛ دقائق السحر، ص١٧٨؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٥٢؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص٣٠١؛ الاشارات، ص ٢١٧؛ انوار الربيع، ج ٤، ص٢٣٩ و ٢٤٠؛ حسن التوسل، ص ٢٨١؛ المصباح، ص٢٤٤؛ المـفتاح، ص٥٣٥؛ الطراز، ج٣، ص١٤١.

٥. الجدوى: العطية، الشكلان: تثنية شكل وهو المثل، وقد فرّق بين الجودين أي النظيرين «جودك والمطر». أُنظر: التبيان، ص٤٠٢؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص٣١؛ أنوار الربيع، ج ٤، ص ٢٦٠؛ الإعجاز والإيجاز، ص ٢٢٠.

فقد أوقع التباين بين جمال ذلك المحبوب وجمال البدر مع أنّهما من نوع واحد وهو مطلق الجمال.

وقول المتنبّي:

وإنَّ الذي سَمَّىٰ عَلِيّاً لَمُنْصِف ... وإنَّ الذي سَمّاهُ سَيْفاً لَظالِمُهْ

وما كُلُّ سَيْفٍ يَقْطَعُ الهامَ حَدُّهُ ... وَتَقْطَعُ لُزُباتِ الزَّمانِ مَكارِمُهْ[1]

وقول الشاعر:

قاسُوكَ بالغصنِ في التَّثَنّي ... قياسَ جهلٍ بلا انتصافِ

هذاكَ غصنٌ الخلافِ يُدْعَى ... وَأَنْتَ غصنٌ بلا خلافِ[2]

وكقول آخر:

ورد الخدود أرقّ من ... وَرد الرياض وأنعمُ

هذاك تنشقُهُ الأُنـ ... فُ وذا يُقبِّلهُ الفَمُ

فقد جمع في النعومة بين الخدود و الورود، ثم فضل الخدود علىٰ الورود بالرقّة والنعومة؛ لأنّ الفم الذي يُقَبِّل أسمىٰ من الأنف الذي يُشَمّ.

وهذا الضرب من التفريق يكثر في المبالغة عند قلب التشبيه الظاهر أو المفهوم ضمناً، كقول الشاعر:

أتبكي ونبكي غير أنّ الأسى ... دموعه غير دموع الدلال

بلاغة التفريق

أساس الجمال في هذا الفنّ أنّه يعرّف المتلقّي بوجه الاختلاف بين الشيئين يبدو لأوّل وهلة أنّهما متّفقان، كما ينبّه في جانب المنشئ علىٰ براعة مَنْ تلمّس عنصر الاختلاف في المتآلفات، ثم تقديم البرهان علىٰ ذلك[3].

---

١. ديوانه، ج ٤، ص ٦١، و «علي» اسم سيف الدولة، لزبات الزمان: شدائده.

٢. من روائع البديع، ص ١٧٩.

٣. الكافي في علوم البلاغة، ج ٢، ص ٥٩٠.

الجمع مع التفريق

من التقسيم **الجمع مع التفريق**، وهو أن يدخل شيئان في معنىٰ واحد ويفرّق بين جهتي الإدخال.

قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1].

أي وجعلنا الليل والنهار دليلين للخلق علىٰ مصالح الدين والدنيا، فتكون آية الليل هي الليل نفسه وآية النهار هي النهار نفسه، ثم محا ظلمة الليل بضوء النهار ومحا ضوء النهار بظلمة الليل ـ إلّا أنّه ذكر أحدهما وحذف الآخر لدلالة المذكور علىٰ المحذوف.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[2].

جمع النفسين في حكم الوفاة ثُمّ فرّق بين جهتي الوفاة بالحكم بالإمساك، والإرسال. أي اللّه يتوفّىٰ الأنفس، النفس التي تقبض والنفس التي لم تُقبض، فيُمسك الأُولى، ويُرسل الأخرى.

وقال النبيّ ﷺ: «اقتربت الساعة، ولا يزداد الناس علىٰ الدنيا إلّا حرصاً،

---

١. الإسراء: ١٢.

٢. الزمر: ٤٢.

ولا يزدادون من اللّه إلّا بعداً»[١].

وقال عليّ عليه السلام: «وسيهلك فيّ صنفان محبٌّ مُفرطٌ يذهبُ به الحبّ إلىٰ غير الحقّ، ومبغضٌ مُفرّط يذهب به البغض إلىٰ غير الحق»[٢].

جمع بين الصنفين في الهلكة، ثمّ فرّق بين جهتي الهلاك.

وقال عليه السلام: «حتىٰ يقوم الباكيان يبكيان، باكٍ يبكي لدينه، وباكٍ يبكي لدُنياهُ»[٣].

وقول رشيد الدين الوطواط:

فَوَجْهُكِ كالنّارِ في ضَوْئِها وَقَلْبِيَ كالنّارِ في حَرِّها[٤]

شبّه وجه الحبيبة وقلبه بالنار، ثمّ فرّق بين وجهي المشابهة بأن جعله في الوجه الضوء واللمعان، وفي القلب الحرارة والاحتراق.

وقال الشاعر:

قَدِ إسْوَدَّ كالمِسْكِ صُدْغاً وَقَدْ طابَ كالمِسْكِ خُلقاً[٥]

جمع بين الصُّدغ والخُلُق في التشبيه بالمسك، ثمّ فرّق بينهما، فالصُّدغ يشبه المسك في سواده، والخلق يشبه المسك في طيبه وحسنه.

وقال مروان بن أبي حفصة:

تشابَهَ يَومَاهُ عَلَيْنا فأَشْكلا فَما نَحْنُ نَدْرِي أيُّ يَومَيهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ الغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ومَا مِنْهُما إلّا أغَرُّ مُحجَّلُ[٦]

جاء التفريق بين أيّام الممدوح علىٰ أسلوب تجاهل العارف مبالغة في عدم القدرة

---

١. مختارات الأحاديث النبوية، ص ٢٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧ ـ ٦.

٣. المصدر، الخطبة ٩٨ ـ ٢.

٤. البيت في دقائق السحر، ص١٧٩ و معاهد التنصيص، ج٣، ص٤ نسبته لرشيدالدين الوطواط ونهاية الأرب ج٧، ص١٥٣ و حسن التوسل، ص٢٨١ بلا عزو و الإيضاح، ص٢٧٠، أنوار الربيع، ج٥، ص١٧١.

٥. المفتاح، ص ٤٢٦؛ الطراز، ج٣، ص١٤٣؛ المصباح، ص٢٤٥.

٦. ويكنّىٰ الشاعر أبا السَّمْط. انظر: التبيان، ص٤٠٤؛ أنوار الربيع، ج٥، ص١٦٨ ويوم أغرّ: حسن مجيد.

علىٰ إبراز مكارمه وشجاعته، بعد الجمع بين يوميه بالتشابه الّذي هو قمة التشبيه في اتحاد الصفات المشتركة، وكل ذلك مؤكد للغرض المسوق له الكلام وهو المدح.

وقال آخر:

تَشَابَهَ دَمْعَانا غَدَاةَ فِرَاقِنا ... مُشَابَهَةً فـي قـصّةٍ دُون قِصّةِ

فَوَجْنَتُّها تَكْسُو المَدَامِع حُمْرَةً ... وَدَمْعِي يَكْسُو حُمْرَةَ اللَّونِ وَجْنِتى[1]

جمع الناظم بين الدمعين في الشبه، ثمّ فرّق بينهما بأنّ دمعها أبيض، فإذا جرىٰ علىٰ خدّها صار ذا حُمرة بسبب احمرار خدّها، وأنّ دمعه أحمر؛ لأنّه يبكي دماً وجسده من النحول أصفر، فإذا جرىٰ عليه الدمع حمّره.

وقول بعضهم:

أَرَىٰ قَمَرَيْنِ قَدْ طَلَعا ... علىٰ غُصْنين في نَسَقٍ

وفي ثَوْبَين قَدْ صُبِغا ... صِباغَ الخَدِّ والحَدَقِ

فَهَذِي الشَّمْسُ في شَفَقٍ ... وَهذا البَدْرُ في غَسَقِ[2]

ومنه قول البحتري:

وَلَمّا الَتَقْينا والنَّقا مَوعِدٌ لنَا ... تَعَجَّبَ رائِي الدُّرِّ مِنّا ولاقِطُهْ

فَمِنْ لؤلؤٍ تَجْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِها ... وَمِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الحَدِيثِ تُسَاقِطُهْ[3]

لقد جمع بين الدرّين المجازيين في التعجّب، وفرّق بينهما بما تجلّيه عندابتسامها وما تساقطه عند حديثها، والأوّل أسنانها والثاني كلماتها، ومشرق الجميع الثغر.

---

١. البيتان في التذكرة الفخرية، ص٢٦٠؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٤ و أنوار الربيع، ج٥، ص١٦٩ و التبيان للطيّبي، ص٤٠٤؛ خزانة الأدب، ج٤، ص١٢؛ نفحات الازهار، ص١٦٠.

٢. معاهد التنصيص، ج٣، ص٤ و ٥.

٣. البيتان للبحتري في ديوانه، ج٢، ص٦٦٨ و «حسن» مكان «مِنا» وفي التذكرة الفخرية، ص١٤٤؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص ٣٤؛ والتبيان، ص٤٠٤؛ و خزانة الادب، ج٤، ص١٣؛ نفحات الازهار، ص ١٦٠.

الجمع مع التقسيم

وهو أن تجمع أموراً مندرجة في حكم واحد، ثمّ تقسّمها أو العكس، بأن تقسّم متعدّداً ثمّ تجمعه في حكم واحد.

فالجمع مع التقسيم لا يخلو حاله من أن يجمع ثمّ يقسّم، أو يقسّم ثمّ يجمع.

الأوّل: كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

فقد جمع بين الأنفس حال الموت والأنفس حال المنام في حكم واحد هو توفّي اللّه إيّاها، ثمّ قسّم بينها في إمساك الأنفس التي قضىٰ عليها الموت، وإرسال الأنفس الأُخرىٰ، أي تركها.

وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾[2].

أي إنّ الذين اصطفاهم الله هم أمّة محمّدﷺ وجميعهم يدخلون الجنّة، فمن هؤلاء الذين أورثهم الكتاب من هو مقصِّر في عمل الخير، يتلو القرآن ولايعمل به وهو الظالم لنفسه، ومنهم من هو متوسّط في فعل الخيرات والصالحات، يعمل

---

١. الزمر: ٤٣.

٢. فاطر: ٣٢.

بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصِر في بعض الفترات وهو المقتصد، ومنهم من هو سبّاق في العمل بكتاب الله يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله.

وقال النبيّ ﷺ: «الإيمانُ معرفةٌ بالقلبِ، وقولٌ باللسانِ، وعملٌ بالأركانِ»[١].

وقال عليّ عليه السلام: «ثُمّ فتق ما بين السموات العُلى، فملّاهُنَّ أطواراً من ملائكته، منهُم سُجُودٌ لا يركعُون، و رُكُوعٌ لا ينتصبُون، وصافّون لا يتزايلُون، ومُسبّحُون لايسأمُون»[٢].

ومن الجمع التقديري مع التقسيم قوله تعالى:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾[٣]. إلىٰ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ﴾.

التفصيل هو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾ مشتمل علىٰ ذكر الفريقين، أمّا الجمع، فمذكور فيه غير المؤمنين: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، وحذف فريق المؤمنين وتقديرها: ومن لم يستكنف فسيحشرهم. لدلالة التقسيم عليه، إضافة إلىٰ أنّ حشر المجرمين إنّما يكون يوم حشر عامّة المكلّفين للمجازاة، فذكر حشرهم يدلّ علىٰ حشر الجميع.

ومن التقسيم التقديري قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٤].

فذُكر جزاء المؤمن ولم يُذكر جزاء الكافر.

---

١. مختارات الأحاديث النبويّة، ص٥١.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١ ـ ١٨.

٣. النساء: ١٧٢.

٤. النساء: ١٧٤ و ١٧٥.

وقريب منه قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

أي القُوا علينا ممّا رزقكم اللّه من الطعام.

ومن أمثلة «الجمع مع التقسيم» في الشعر العربي ما قاله المتنبّي:

الدَّهْـرُ مُـعْتَذِرٌ والسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ ... وأرضُـهم لَكَ مُـصْطافٌ ومُرْتَبَعُ

للسَّبْيِ ما نَكَحُوا للقَتْلِ مَا وَلَدُوا ... للنَّهْبِ ما جَمَعُوا للنّارِ مـا زَرَعُـوا[2]

حيث جمع ـ في البيت الأوّل ـ أرض العدوّ وما فيها من كونها خالصة له علىٰ جهة الإجمال من غير إشارة فيه إلىٰ تفصيل حالها، ثمّ إنّه قسّم حالها ـ في البيت الثاني ـ إلى ما يكون منها للسبي، وما يكون للقتل، وما يكون للنهب وللنار جميعاً.

والثاني: وهو التقسيم ثمّ الجمع:

كقول النبيّ ﷺ: «صِلَة الرَحِم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يُعَمِّرْنَ الديار، ويزدن في الأعمار».

وكقول حسّان بن ثابت:

قَـومٌ إذا حـاربُوا ضَـرُّوا عَـدُوَّهُمُ ... أو حاولوا النَّفْعَ في أَشياعِهِمْ نَفَعُوا

سَجَيّةٌ تِـلْكَ مِـنْهُمْ غـيرُ مُحْدَثَةٍ ... إنَّ الخلائقَ فاعْلَمْ شَـرُّها البِـدَعُ[3]

التقسيم من حيث إنّه ذكر في البيت الأوّل ضرر الأعداء في الحروب ونفع الأولياء وهذه صفة ممدوحة. ثمّ جمعهما (أي الضرر والنفع) في كلمة واحدة وهي

---

١. الأعراف: ٥٠.

٢. ديوانه، ج٢، ص٣٣٤؛ الإيضاح، ص٢٧١؛ الطراز، ج٣، ص١٤٣؛ المصباح، ص٢٤٥؛ خزانة الادب، ج٦، ص٩.

٣. ديوانه، ص٢٤٨؛ دلائل الاعجاز، ص١٢٧؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٦؛ حسن التوسل، ص٢٨٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٤١؛ الإيضاح، ص٢٧١؛ الطراز، ج٣، ص١٤٤؛ أنوار الربيع، ج٥، ص١٧٤ أشياعهم: أنصارهم. سجية: طبيعة وخلق. الخلائق: جمع خليقة، بمعنى خلق. البدع: جمع بدعة، وهي الأمر المستحدث.

سجيّة، ومن لطيف هذا الضرب قول الآخر:

لو أنّ ما أنتمُ يدومُ لكُمْ ظننتُ ما أنا فيهِ دائماً أبداً
لكن رأيتُ الليالي غَيْرَ تاركةٍ ما سَرَّ من حادثٍ أو ساءَ مُطَّرِداً
فقد سكنتُ إلىٰ أنّي وأنّكُمُ سنَستجِدُّ خِلافَ الحالَتَيْنِ غداً

فقوله «خلاف الحالتين» جمعٌ لما قسَّمَ لطيف، جمعٌ لما قسّمه في البيت الأول: ما أنتم فيه من سرور، ما أنا فيه من سوء. وقد ازداد لطفاً بحسن ما بناهُ عليه من قوله: «فقد سكنت إلىٰ أنّي وأنّكم».[1]

١. الإيضاح، ص ٢٧١؛ أنوار الربيع، ج ٥، ص ١٧٤.

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو عبارة عن جمع المتكلّم متعدّداً في أمر ثمّ يفرّق ثمّ يضيف إلىٰ كلّ ما يناسبه، وهذا النوع جامع للأنواع الثلاثة المتقدّمة (وهي الجمع والتفريق والتقسيم) وقد مثّلوا له بقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

فجمع في قوله: «نفسٌ»؛ لأنّها متعدّدةٌ معنى حيث إنّ النكرة في سياق النفي تَعمُّ، ثمّ فرّق بين الأنفس؛ إذ جعل بعضها شقيّاً وبعضها سعيداً، ثمّ قسّم فأضاف إلىٰ الأشقياء ما لهم من عذاب وإلىٰ السعداء ما لهم من نعيم الجنّة.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا

---

١. هود: ١٠٥ ـ ١٠٨.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١].

فالجمع ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والتفريق ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ... وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، والتـقسيم في: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾ الآية.

ولابدّ من جعل: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ قسيماً له؛ لأنّ التقسيم حاصرٌ، ولمّا حُذف «أمّا» حُذف ما يقتضيه من الفاء، وهذا يؤذن بأنّ الوقف علىٰ «إلّا اللّه» تامّ. وإليـه ذهب أبو حاتم والمحقّقون[٢].

قال النبيّ ﷺ: «أكثرُوا ذكر الموت، فإنّهُ يُمحِّصُ الذُّنُوب، ويُزهِّدُ في الدنيا، فـإن ذكرتموه عند الغنىٰ هدمهُ، وإن ذكرتموهُ عند الفقر أرضاكم بعيشكُم»[٣].

وقال الإمام عليّ عليه السلام في شرح حال الأموات:

«فجعلهُم فريقين أنعم علىٰ هؤلاء، وانتقم من هؤلاء، فأمّا أَهل الطاعة، فأثابهُم في جواره، وخلدّهم في داره ... فأمّا أهلُ المعصية، فـأَنزلهُم شـرَّ دارٍ، وغـلَّ الأيـدي إلىٰ الأعناق»[٤].

جمع الأموات في ضمير الجمع من «جعلهم»، ثمّ فرّقهم فريقين: أحدهما: المنعم عليهم، وثانيهما: المنتقم منهم، ثمّ قسّمهم بقوله: «فأمّا أهل الطـاعة»، «فـأمّا أهـل المعصية».

وقال الشاعر:

وَكـالنّارِ ضَـوْءاً وكـالنّارِ حَـرّاً ... مُـحَيّاً حَـبِيبتي وحُـرْقةُ بـالي
فَذلِكَ مـن ضَـوْئِهِ فـي اخـتيالٍ ... وَهــذا لِـحُرْقَتِهِ فــي اخْـتِلالِ

فجمع محيا حبيبه وحرقة باله في كونهما كالنار، ثمّ فرّق بين وجهي المشابهة،

---

١. آل عمران: ٧.

٢. التبيان للطيّبي، ص ٤٠٧ و ٤٠٨.

٣. مختارات الأحاديث النبوية، ص٢٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩ ـ ٢٩.

ثمّ قسّمه إلىٰ اختيال واختلال.

وقال ابن شرف القيرواني:

لمـختلفِي الحـاجاتِ جـمعٌ ببابه فـهذا لَـهُ فَـنٌّ وهـذا لهُ فَـنُّ
فـللخاملِ العَـلْيا وللـمُعدِم الغـنى وللمُذنب العُتْبىٰ وللخائفِ الأمـنُ[1]

وقول إبراهيم بن العباس

لنـا إِبِـلٌ كُـومٌ يَـضيقُ بِـها الفَضَا وَيَـفْتَرُّ عَـنْها أرْضُـها وَسَـمَاؤُها
فَـمِنْ دُونِـها أنْ تُسْـتبَاحَ دِمَـاؤُنا ومِـنْ دُونِـنا أَنْ تُسْـتَباحَ دِمَـاؤُها
حِمىً وَقِـرىً فَـالْمَوْتُ دُونَ مَـرَامِـها وَأَيْسَـرُ خَـطْبٍ يَـوْمَ حُـقَّ فَـناؤُها[2]

---

١. الإيضاح، ص٢٧٢؛ حسن التوسل، ص ٢٨٢؛ تحرير التحبير، ص١٨٨؛ معاهدة التنصيف، ج٢، ص٣١٠؛ جوهر الكنز، ص١٤٥؛ أنوار الربيع، ج٥، ص١٧٧.

٢. أنوار الربيع، ج٥، ص١٧٧؛ الطرائف الأدبية، ص١٥٣؛ المثل السائر، ج٢، ص٣١٢؛ التبيان، ص٤٠٨.

الجمع مع التقسيم مع الجمع

وعنوانه يغني عن بيانه.

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

جمع مثال الحقّ وأهله مع الماء الذي ينزله من السماء، فتسيل في أودية الناس فتنبت أراضيهم وتزهر.

والجواهر من المعادن التي يصوغون منها الحليّ وغيرها والتي تضفي عليهم الهيبة والجمال، إنّ ذلك كله ماكث في الأرض راسخ في أعماقه.

وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله بزبد السيل وبالرغوة التي تظهر على وجه الماء الذي يمرّ به، وبخبث المعادن والذي يطفو إذا أذيبت، فلا يلبث أن يتلاشى ويضمحلّ.

جمع أوّلاً الماء والمعادن في حكم هو كونهما جامعين لما ينتفع بهما وما لا ينتفع بهما. ثمّ فصّل لكلّ منهما من الذهاب باطلاً مطروحاً والثبات نافعاً مقبولاً.

---

١. الرعد: ١٧.

التقسيم

التقسيم لغةً: هو التجزئة والتفريق.

والتقسيم أوّل مصطلح انفرد به قدامة بن جعفر وَقَد استقاه من المنطق، ولم يستوحه من النقد العربي القديم، إذ لم يرد إلّا إشارة عند الجاحظ الذي نوّه بجودته وعلّل به استحسان عمر بن الخطّاب لبعض شعر زهير[1] كما ورد عند الصولي معاصر قدامة[2]، أمّا ابن قتيبة، فهو قد تحدّث عن أقسام الشعر وطبقاته دون أن يذكر التقسيم بمفهومه الاصطلاحي[3] ولم يشر إليه ابن المعتزّ لا في بديعه ولا في رسالته في أبي تمّام[4].

واصطلاح قدامة بن جعفر في التقسيم هو أن يبتدئ الشاعر فيضع أقساماً فيستوفيها ولا يغادر شيئاً منها، مثال ذلك قول نُصَيْب:

---

١. في قوله:

وإنّ الحقّ مقطعُهُ ثلاثٌ ... يمينٌ أو نِفارٌ أو جَلاءُ

يريد أنّ الحقوق إنّما تصِحُّ بواحدةٍ من هذه الثلاث: (يمين، أو محاكمة، أو حُجّة واضحة)، واستحسان عمر كان من معرفته بمقاطع الحقوق (حلية المحاضرة، ج ٢، ص ٢٤٥).

٢. أخبار البحتري، ص ١٣٧.

٣. الشعر والشعراء، ج ١، ص ٧.

٤. ذكرها المرزباني في الموشح، ص ٤٧ وما بعدها، انظر: المصطلح النقدي في نقد الشعر، ص ٤١٣.

فقالَ فريقُ القومِ: لا، وفَريقُهُم نعم، وَفريقٌ، قالَ، وَيْحَكَ، ما نَدْرِي[١]

يريد الشاعر أن يأتي بأقسام جواب المجيب عن الاستخبار: فقال فريق من القوم: لا، وفريق منهم: نعم. وفريق قال: ويحك ما ندري.

فأقسام الإجابة لا تتعدّى هذه المذكورة[٢] وذكر أنّ «فساد التقسيم يكون إمّا بأن يكرّر الشاعر الأقسام، أو إتيانه بقسمين: أحدهما داخل في الآخر.

وذكر شوقي ضيف قائلاً: نظنّ ظنّاً أنّ قدامة إنّما جلب اصطلاحه من حديث أرسطو في «الخطابة» عن صورة تأليف الكلام بذكر الأقسام ودقّة عرضها فيه[٣].

وعرّفه أبو هلال العسكري فقال: «التقسيم الصحيح أن تقسّم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٤] وهذا أحسن تقسيم؛ لأنّ الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث»[٥].

وذكر ابن رشيق القيرواني أنّ الناس قد اختلفوا في التقسيم:

فبعضهم يرى أنّه استقصاءُ الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به، كقول بشار يصف هزيمة:

بضربٍ يذوقُ الموتَ من ذاقَ طَعْمَهُ ويُدْرِكُ من نَجَّى الفِرارُ مَثالِبُهْ

---

١. المصباح، ص٢٢٤؛ الايضاح، ص٢٧٣؛ ديوان نصيب، ص٩٤؛ العمدة، ج٢، ص٣٥؛ الازهية، ص ٢١؛ الدرر، ج٤، ص٢١٦؛ خزانة الأدب، ج٤، ص٤٠؛ تحرير التحبير، ص١٧٧؛ شرح أبيات سيبويه، ج٢، ص٢٨٨؛ الطراز، ج٣، ص١٠٨؛ سر الفصاحة، ص٢٢٦؛ التبيان، ص١٧٦.

٢. انظر: نقد الشعر، ص ١٤٩.

٣. البلاغة تطور وتاريخ، ٨٧و ٩٢؛ قدامة والنقد الأدبي، ص٢٥٢؛ المصطلح النقدي، ص٤١٤؛ الأثر الأغريقي في البلاغة العربية، ص ٢٤٤؛ المنطق الصوري، ص١٢٩.

٤. الرعد: ١٢.

٥. كتاب الصناعتين، ص ٣٤١. انظر: نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٦؛ أنوار الربيع، ج ٥، ص ٢٩٤؛ التبيان، ص٤١٢؛ حسن التوسل، ص٢٥٧. ولكن مجرّد استيفاء الأقسام لا يعتبر بياناً، بل هناك أمر أبعد من ذلك وأدقّ وأبعد منالاً. وهذا الأمر هو تقديم ما هو أولى بالذكر وأجدر بالتقديم، وفي الآية قدّم الخوف على الطمع إذ كانت الصواعق.

فــراحَ فَــرِيقٌ فــي الإســارِ ومِــثْلُهُ   قــتِيلٌ، ومِــثْلٌ لاذَ بــالبحر هَــارِبُهْ[١]

وذكر في البيت الأوّل قسمين: إمّا موتٌ، وإمّا حياة تورثُ عاراً ومَثْلَبَةً، وذكر في البيت الثاني ثلاثة أقسام: أسيرٌ، وقتيلٌ، وهارب، فاستقصى جميع الأقسام، ولا يوجد في ذكر الهزيمة زيادة على ما ذَكَر[٢].

وبعضهم في التقسيم على خلاف ما قدّمتُ[٣]، كقول عمر بن أبي ربيعة:

تَــهيمُ إلى نُــعْمٍ؛ فــلا الشَّــمْلُ جامِعُ   ولا الحــبلُ مــوصولٌ، ولا أَنتَ مُــقْصِرُ

ولا قُــرْبُ نُعْمٍ ـ إنْ دَنَتْ ـ لك نـافِعٌ   ولا نَــأْيُها يُسْــلي، ولا أَنتَ تَــصْبِرُ[٤]

ثمّ قال: ومن أنواع التقسيم التقطيع، وساق ما أنشده الجرجـاني فـي الوسـاطة للنابغة الذبياني:

فَلِلَّهِ عَيْنَـا مَنْ رأى أهْلَ قُـبَّةٍ   أَضَرَّ لمن عادَى وأَكْـثَرَ نـافِعَا

وأعظَمَ أحـلاماً، وأكْـثَرَ سَـيِّدَاً   وأفضلَ مشفُوعاً إليه وشافِعا[٥]

ثمّ قال: وسمّاه قوم منهم عبد الكريم النهشلي[٦] التفصيل[٧].

وقال: ومن التقسيم نوع هو هذا الأوّل، إلّا أنّ فيه تدريجاً وترتيباً، فصعب لذلك على متعاطيه، وقلّ جدّاً، وأحسنه قول زهير:

يَطْعَنُهُم ما ارْتَمَوْا حَـتّى إذا اطّـعَنُوا   ضارَبَ حتّى إذا ما ضارَبُوا اعْـتَنَقا[٨]

---

١. ديوان بشار، ج ١، ص٣١٨ وفيه: «وتدرك». المثالب: ج مثلبة، وهي العيب.

٢. العمدة، ج ١، ص٥٩٩.

٣. أي أنّه لم يستوف التقسيم وإنّما أورد أشهر الأجزاء وأليقها بغرض الكلام.

٤. العمدة، ج ١، ص ٦٠٥، ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٩٢. ورواية البيت هـناك: «تـهيم الى نُـعم ... ولا القـلب مُقْصِرُ». أقصر قلبه: كفّ عن دواعي الصبابة. ومقصر: اسم فاعل مدّه. يُسلي النأي: يورث البعد النسيان، والمصدر السُلُو.

٥. العمدة، ج ١، ص ٦٠٧ و ٦٠٨؛ ديوان النابغة، ص٩٥، وروايةالبيت فيه: «للّه» بدون فاء.

٦. شاعر وكاتب ناقد وعالم باللغة وهو من شيوخ ابن رشيق القيراوني (نثار الأزهار، ص٣٦).

٧. العمدة، ج ١، ص٦٠٨.

٨. ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٧٣، والقصيدة في مدح هَرِم بن سنان المرّي يقول: «إذا ارتمى الناس في الحرب ←

فأتى بجميع ما يُستعمل في وقت الحرب، وزاد ممدوحه رتبةً، وتقدّم به خُطوةً على أقرانه، ولا أرى في التقسيم عديل هذا البيت.

وذكر الخفاجي في كتابه سر الفصاحة فقال: «أن تكون الأقسام المذكورة لم يخلّ بشيء منها ولا تكرّرت ولا دخل بعضها في بعض» ومثل ذلك بقول نُصيب وعلّق عليه بقوله: «ليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام. أي أنّ الشاعر قد استوفى جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه».[1]

ومن التقسيم المعيب عنده قول جرير:

صَارت حَـنِيفَةُ أثـلاثاً فـثلثهم من العبيدِ وثلثٌ مِنْ مَـواليِـها

لأنّ الشاعر قد أخلّ بقسم من الثلاثة.

وعرّفه أسامة بن منقذ بقوله: «هو أن يقسّم المعنى بأقسام تستكمله، فلا تنقص منه ولا تزيد عليه»[2].

أي أنّه عبارة عن استيفاء المتكلّم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً.

وسمّاه الرازي بـ«التقسيم المفرد» وعرّفه بقوله: «هو أن تذكر قسمة ذات جزءين أو أكثر، ثمّ تضيف إلى كلّ قسم من الأقسام ما يليق به»[3].

ومثّل له بقول بعض العجم:

أديـبانِ مـن بَـلْخَ، لا يَـأكُـلا نِ إذا صَحِبا المرءَ، غَيْرَ الكَبِد

← بالنبل، دخل هو تحت الرمي، فجعل يطاعنهم، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتنقة قِرْنَه والتزمه» يصف أنّه يزيد عليهم في كلّ حال من أحوال الحرب.

وقسّم في الوساطة هذا البيت على أحوال الحرب ومراتب اللقاء، ثمّ ألحق بكلّ قسّم ما يليه فـي المـعنى الذي قصده من التفضيل الممدوح فصار موصولاً به مقروناً إليه.

١. سر الفصاحة، ص٢٧٧.

٢. البديع في نقد الشعر، ص٩٨.

٣. نهاية الأيجاز، ص٢٩٥.

فــهذا طــويلٌ كَــظِلِّ القَــناةِ وَهــذا قَــصِيرٌ كَـظِلِّ الوَتِـد[١]

وهذا يقتضي أن يكون التقسيم أَعَمَّ من اللفّ والنشر، وقد نقل السكّاكي التعريف والمثل كاملاً.

وتحدّث القرطاجني عن أقسام التقسيم فقال: «والتـقسيم ضـروب. فـمن ذلك تعديد أشياء ينقسم إليها شيء لايمكن انقسامه إلى أكثر منها؛ ومنها تعديد أشـياء تكون لازمة عن شيء على سبيل الاجتماع أو التعاقب؛ ومنها تعديد أشياء تتقاسمها أشياء لايصلح أن ينسب منها شيء إلّا إلى ما نسب إليه من الأشياء المتقاسمة؛ ومنها تعديد أجزاء من شيء تتقاسمها أشياء أو أجزاء من شيء آخـر وتكـون الأجـزاء المعدودة إمّا جملة أجزاء الشيء أو أشهر أجزائه وأليقها بغرض الكلام، ويكون كلّ جزء منها غير صالح؛ لأنّ ينسب إلى غير ما نسب إليه بالنظر إلى صـحّة المـعنى، ومنها تعديد أشياء محمودة أو مذمومة من شيء متّفقة في الشهرة والتناسب»[٢].

وتباين رأي ابن القيم الجوزية، إذ عدّ هذه القسمة ـ التي سبق الحديث عـنها ـ صحيحة عقلاً لكن بعضها يستحيل وجوده، وإنّما المقصود هو أن يأتي المؤلّف إلى جميع أقسام الكلم المحتملة، فيستوفيها غير تارك منها قسماً واحداً.

وعرّفه كلّ من ابن أبي الإصبع المصري والحلبي والنويري نفس تعريف قدامة، ومثّلوا نفس أمثلته[٣].

وعرّفه القزويني في الإيضاح بقوله: «هو ذكر متعدّد، ثمّ إضافة ما لكُلٍّ إليه على التعيين.

---

١. المصدر، ص ٢٩٥؛ المفتاح، ص ٥٣٥؛ الايضاح، ص ٢٧٠.
ونسب الوطواط البيتين الى «أديب تركي» ص ١٨٩، وأكل الكبد: أما كناية عن الغيبة وسوء العشرة وأما وصف للأديبين بخسّة المأكل أو صنعتهما. والشاهد في البيتين التقسيم حيث ارجع ما لكلٍ على التعيين عنده.

٢. منهاج البلغاء، ص ٥٤.

٣. تحرير التحبير، ج ١، ص ١٧٣؛ حسن التوسل، ص ٢٥٦؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٣٦.

ومثّل له بقول المتلمس:

ولايُـقِيمُ عـلى ضَـيْمٍ يُـرادُ بـهِ إلّا الأذَلّانِ: عَـيْرُ الحـيِّ والوَتِـدُ

هذا على الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يَرْثي لَهُ أَحَدُ[١]

وخلاصة هذا الاستعراض أنّ للتقسيم إطلاقان:

الأوّل: ذكر أحوال الشيء مع بيان ما يليق به كلّ واحدة من تلك الأحوال وبعبارة أُخرى أن يذكر متعدّداً في حكم واحد، ثم يقسم وتستوفى أقسامه بقصد التحسين، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[٢].

لقد ذكر اللّه ستّ صفات لإقامة الحقّ لصادقي الايمان الذين يحبّهم فيزيدهم رسوخاً في الإيمان ويحبّونه فيؤثرون ما يحبّه من أقامة ذلك الحقّ على سائر ما يحبّون. رحماء متواضعين للمؤمنين، أشدّاء على الكافرين، يجاهدون لإعلاء كلمة اللّه، ولا يبالون بمن لامهم، فهم صلاب في دين اللّه، لا يخافون في ذات اللّه أحداً.

وقال الإمام عليّ؈: «أحْسِن إلىٰ مَنْ شِئْتَ تكُنْ أميرَهُ، واسْتَغْنِ عَمّنْ شِئْتَ تكُنْ نَظِيرَهُ، واحْتَج إلىٰ مَنْ شَئْتَ تكُنْ أَسِيرَهُ»[٣].

---

١. ديوانه، ص٢٠٣؛ الإيضاح، ص ٤٥ و من ٢٧؛ معاهد التنصيص، ج٢، ص٢٠٦؛ أنوار الربيع، ج٥، ص٢٩٣.

الضيم: الظلم، العير: الحمار الوحشي أو الأهلي وأراد به الثاني، والخسف: النقصان، يقال: رضي فلان الخسف أي بالنقيصة. وقيل الذلّ، يقال: سامه الخسف، أي أولاه ذلاً. والأليق بالمقام هو المعنى الثاني.

الرمة: قطعة حبل بالية، ورثىٰ له: أي رقّ له، والشاهد: التقسيم حيث أرجع هذا إلى الخسف وإلى عير الحيّ، وذا يشجّ إلى الوتد على التعيين.

ووجه التعيين أنّ ذا بدون ها إشارة للقريب وأمّا مع ها التنبيه فهو إشارة للبعيد، فيحتمل أن يكون إشارة إلى العير و إلى الوتد وحينئذ، فلا يتحقّق كون الأوّل للأول والثاني للثاني بقرينة خبر كلّ منهما؛ لأنّ المراد التعيين في اللفظ. وأمّا بالقرينة، فهذا متحقّق حتى في اللفّ والنشر، وحيث كان التعيين لفظاً في البيت غير متحقّق، فهو من اللفّ والنشر دون التقسيم.

٢. المائدة: ٥٤.

٣. علوم البلاغة، ص٣٠٩.

وقد استوعب كلامهعليه السلام أقسام الدرجات وأقسام أحوال الإنسان بين الفضل والكفاف والنقص.

وقالعليه السلام: «اَلْمَرءُ المُسْلِمُ ... يَنْتَظِرُ مِنَ اللّهِ إحْدىٰ الحُسْنَيَيْنِ، إمّا داعِيَ اللّهِ فَما عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لَهُ، وإمّا رِزْقَ اللّهِ، فإذا هُوَ ذُو أهلٍ وَمالٍ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ»[١].

وقالعليه السلام: «أَوَلَسْتُم تَرَونَ أهلَ الدّنيا يُمْسُونَ ويُصْبِحُونَ علىٰ أحوالٍ شَتّىٰ: فَمَيِّتٌ يُبْكىٰ، وآخَرُ يُعزَّىٰ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلىً، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطالِبٌ للدُّنيا والموتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ»[٢].

وقالعليه السلام: «وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سائِقٌ وَشَهِيدٌ، سائِقٌ يَسُوقُهَا إلىٰ مَحْشَرِهَا، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْها بِعَمَلِهَا»[٣].

وقال أبو الطيّب المتنبّي:

سأَطْلُبُ حَقّي بالقَنَا وَمَشايخٍ كأنَّهُمُ مِن طولِ ما التَثَمُوا مُرْدُ

ثِقَالٌ إذا لاقَوْا خِفافٌ إذا دُعُوا كثِيرٌ إذا شَدُّوا قَلِيلٌ إذا عُدُّوا[٤]

ذكر أحوال المشايخ، وأضاف إلى كلّ حالٍ ما يناسبها، فجعلهم ثقالاً عند لقاء العدو، سراعاً عند الدعوة إلى أمرٍ مهمّ، كثيرين مخلوقين من تراب.

ومنه في الشعر قول رشيدالدين الوطواط:

فوجهُكَ كالنّارِ في ضوئِها وقلبي كالنارِ في حرّها

جمع الشاعر بين وجه الحبيب وقلبه في مشابهة كلّ منهما للنار ثمّ فرّق بينهما في أن جعل مشابهة الوجه للنار في الضياء والإشراق، ومشابهة القلب للنار في الحرارة والاحتراق.

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٣ ـ ٤.

٢. المصدر، الخطبة ٩٩ ـ ٨.

٣. المصدر، الخطبة ٨٥ ـ ٥.

٤. ديوانه، ج ٢، ص ٩٢؛ الايضاح، ص ٢٧٢.

وقال المتنبي:

بَدَتْ قَمَراً وَمَالَتْ خَوْطَ بانٍ وَفَاحَت عَنْبَراً وَرَنَتْ غَزَالا[١]

وقال أيضاً:

فَنَحْنُ في جَذَلٍ، والرُّومُ في وَجَلٍ والبَرُّ في شُغُلٍ، البَحْرُ في خَجَلٍ[٢]

وقال محمود الورّاق:

شيئان لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِما عَيْنَايَ حَتّىٰ تُؤذِنَا بِذَهَابِ

لَمْ يَبْلُغا المِعْشارَ مِنْ حَقَّيهِمَا فَقْدُ الشَّبَابِ، وفُرْقَةُ الأحْبَابِ[٣]

وقول ابن حيُّوس:

ثَمانِيَةٌ لَمْ تَفْتَرِقْ مُذ جَمَعْتَها فَلا افْتَرقَت ما ذَلَّ عن ناظِرٍ شُفْرُ

ضَمِيرُكَ والتَّقوى وكَفُّكَ والغِنىٰ وَلَفْظُكَ وَالمَعْنَىٰ وَسَيْفُكَ والنَّصْرُ

الثاني: استيفاء أقسام الشيء و «هو أن يريد المتكلّم شيئاً ذا جزءين أو أكثر ثمّ يضيف إلى كلّ واحد من أجزائه ما هو له، أو هو أن يريد المتكلّم متعدّداً أو ما هو في حكم المتعدّد ثمّ يذكر لكلّ واحد من المتعدّدات حكمه على التعيين، كقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾[٤].

أي له سبحانه ما في الوجود كلّه: السموات السبع، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات وهو استقصاء شامل لاستيفاء أقسام كلّ ما خلق. والآية تدلّ على عظمته وجبروته وجلاله.

وقال تعالى: ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ

١. ديوانه، ج٣، ص٣٤٠؛ الايضاح، ص ١٨٩ و ٢٧٢.

٢. ديوان المتنبي، ج٣، ص٢٠٤، الجذل: الفرح، والوجل: الخوف.

٣. ديوانه، ص٣٧؛ وبلاعزو في اليتيمة، ج٤، ص٧٤؛ التذكرة الفخرية، ص٥٦، وفيه «شرح» مكان «فقد». وهما لعبيدالله بن عبدالله بن طاهر في حماسة الظفراء، ج٢، ص٣٠؛ وبلاعزو في عين الأدب والسياسة، ص٨٠، أنظر: التبيان للطيّبي، ص٤٠٣.

٤. طه: ٦.

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾[1].

شرع في تفصيل أحوال الناس عند قيام الساعة وانقسامهم إلى ثلاث طوائف «أصحاب اليمين، أصحاب الشمال، السابقون» ومآل كلّ فريق وما أعدّه اللّٰه تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشئمة في غاية سوء الحال، والسابقون إلى الخيرات والحسنات هم السابقون إلى النعيم والجنّات، وهم أكثر عراقة في الفضل.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[2].

قسّم اللّٰه الذين أورثهم القرآن من أمّة محمّدﷺ إلى ثلاثة أصناف:

إمّا عاصٍ، وإمّا سابق مبادر للخيرات، وإمّا متوسّط بينهما، مقتصد فيها.

وقول الرسول الأكرمﷺ: «وَهَلْ لَكَ يا ابن آدَمَ من مالِكَ إلّا ما أكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»[3].

قال النبيّﷺ: «اللّهمّ، إنّي أعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لايَخْشَعُ، ومِنْ دُعاءٍ لايُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاتَشْبَع، ومِنْ عِلْمٍ لايَنْفَعُ. أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هؤلاءِ الأَرْبَعِ»[4].

وقال الإمام عليّؑ: «شُغِلَ مَنِ الجنّةُ والنارُ أمامَهُ، ساعٍ سريعٌ نجا، وطالبٌ بطيء رجا، ومُقصّرٌ في النار هوىٰ»[5].

وقالؑ: «الزُهْدُ كُلّهُ بين كَلِمَتَيْنِ مِنَ القرآن، قالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا على ما فَاتَكُم وَلاتَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾[6].

---

١. الواقعة: ٧ ـ ١٠.

٢. فاطر: ٣٢.

٣. الحديث في صحيح مسلم، ج ٢، ص٣٨، والمقاصد الحسنة، ص ٣٥٥، وكشف الخفاء، ج ٢، ص١٧٢؛ حسن التوسل، ص ٢٥٧؛ العمدة، ج ١، ص ٦٠٠؛ كفاية الطالب، ص ٤٩؛ أمضيت: انفذت هذا المال في مكانه الصحيح.

٤. وهج الفصاحة، ص ٦٣٧؛ مختار الأحاديث النبوية، ص٢٨.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٦ ـ ٧.

٦. المصدر، قصار الحكم ٤٣٩.

وقال طُريح بن إسماعيل الثقفي:

إنْ يَعْلَمُوا الخيرَ يَخْفُوهُ وإنْ عَلِمُوا   شَرّاً أذيعَ وإنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

وقول الأسعر بن حُمْران الجُعْفي يصف فرساً على هبّاته من جميع جهاته:

أمّا إذا استَقْبَلْتَهُ فَكَأنّهُ   بازٌ يُكَفْكِفُ أنْ يَطيرَ وَقَدْ رأى

أمّا إذا استعرضته متمطّراً   فتقولُ هذا مِثْلُ سرحانِ الغَضَا

أمّا إذا اسْتَدْبَرتَهُ فتسوقُهُ   ساقٌ قَموصُ الدفعِ عاريةُ النَّسَا[1]

ومنه ما حكي عن أعرابيّ وقف على حلقة الحسن البصري فقال: «رَحِمَ اللّهُ مَنْ تَصَدَّقَ مِنْ فَضْلٍ، أو آسىٰ مِنْ كَفَافٍ، أو آثرَ مِنْ قوتٍ». فقال الحسن: «ما ترك لأحدٍ عُذراً»[2].

وقول أحد الأعراب لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين؛ أصابتنا سنون: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لنا فلا تمنعونا، وإن كانت للّه ففرّقوها في عباده، وإن كانت لكم فتصدّقوا، فإن اللّه يجزي المتصدّقين».

وكان الحسن البصري يقول: «لا توبة لقاتل المؤمن متعمّداً، فدسّ إليه عمرو بن عبيد رجلاً وقال: قل له: لا يخلو من أن يكون مؤمناً أو كافراً أو منافقاً أو فاسقاً، فان كان مؤمناً؛ فإن اللّه سبحانه يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[3] ويقول: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

وإن كان كافراً، فإنّه تعالى يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[5].

---

١. نقد الشعر، ص١٣٢.

٢. العمدة، ج١، ص٦٠١.

٣. التحريم: ٨.

٤. النور: ٣١.

٥. الانفال: ٣٨.

وإن كان منافقاً، فإنّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾[١].

إن كان فاسقاً، فإنّه تعالى يقول: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾[٢].

فقال الحسن للرجل: من أين لك هذا؟ قال: شيء اختلج في صدري. قال: محال: أصدقني، فقال: عمرو بن عبيد، فقال: عمرو وما عمرو، إذا قام بأمر قعد به، وإذا قعد بأمر قام به، ورجع عن قوله[٣].

ولمّا ورد قتيبة بن مسلم خراسان قال: «بلغني أنّ لعبد اللّه بن حازم بهذه البلدة مالاً، فمن كان في يده شيء منه فلينبذه، ومن كان في فمه فليلفظه، ومن كان في صدره فلينفثه» فتعجّبوا من حسن تفصيله.

أمثلة قرآنيّة على التقسيم:

منها: قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٤]

استوفىٰ عذاب من كذّب بالقارعة لكلّ من ثمود وعاد. فثمود كانت وقعتهم خاطفة بصيحة واحدة طاغية، وعاد بريح شديدة باردة تصطك منها الأسنان لشدّة بردها وبما يسمع من صوتها.

والعنصر الإيقاعي الذي يكسب هذه الآيات عنصراً جمالياً هو التوازن بين الكلمات «القارعة، الطاغية، العاتية» بما تحملها من جوّ، رهيب، مرعب، قاصم، إذ القرع: ضرب الشيء الصلب، والنقر عليه بشيء مثله فوصفت القيامة بهذه الصفة

---

١. النساء: ١٤٥ و ١٤٦.

٢. النور: ٤ و ٥.

٣. أنوار الربيع، ج ٥، ص ٢٩٤ و ٢٩٥.

٤. الحاقّة: ٤ ـ ٧.

الهائلة؛ لأنّها تقرع القلوب بالهول والرعب، وتقرع الكون بالدمار والنسف، فهي قويّة الإيقاع، عميقة التأثير، يتلقّاها الحسّ بهزّة عميقة ليمهّد وصف العذاب الذي حاق بالّذين كذّبوا بالقارعة.

فثمود أهلكهم اللّه بصيحة جاوزت الحدّ في الشدّة، وهي الصاعقة التي رافقتها الزلزلة العنيفة من تحتهم، وهنا يصف الصيحة بالطاغية؛ لأنّ هذا الوصف يفيض بالهول والفزع المناسب لجوّ السورة؛ ولأنّ إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع، ويكتفي بهذه الآية الواحدة لتطوي ثمود طيّاً، وتغمرهم غمراً، وتعصف بهم عصفاً، وتطغىٰ عليهم فلا تُبْقي لهم ظلّاً.

أمّا عاد، فيصف أمر نكبتها، فيرسّم لنا مشهد العاصفة المزمجرّة المدمّرة المستمرّة عليهم، وبعد مرور المشهد عليك يترك في أذنيك صرصرة الريح الباردة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم...﴾[١].

الإشارة بالبعيد ـ في قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ ـ لبعد مرتبتهم في الكمال، ثمّ فصّل ذلك التفضيل: فمنهم: من خصّه بالتكليم بلا واسطة، كموسىٰ. ومنهم: من خصّه اللّه بالمرتبة الرفيعة السامية، كخاتم المرسلين محمّدﷺ، فهو سيّد الأوّلين والآخرين في الدنيا والآخرة، ومنهم: من أعطاه اللّه المعجزات الباهرات، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وقوّاه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم.

لقد حصر من رفعهم درجات بين موسى وعيسى لما فيه من التفخيم والتنويه بالمنزلة الرفيعة السامية، ولما فيه من الشهادة على أنّه العَلَم الذي لا يشتبه به والمتميّز على غيره، فعدم الذكر أبلغ منه.

---

١. البقرة: ٢٥٣.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

أي اللّه ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولّي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية.

وأمّا الكافرون، فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشكّ والضلال.

فباستخدام الاستعارة رصدت علاقات التضادّ بين الكفر الذي شُبّه بالظلمات التي يتسكّع فيها الخابط ويضلّ القاصد، والإيمان الذي شُبّه بالنور الذي يؤمّه الجائر ويهتدي به الحائر. فعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب.

وفي الإتيان بالظلمات جمعاً، وأفراد النور سرّ بلاغي عجيب هو انطواؤه على الاشارة الى وحدة الحقّ وتعدّد أنواع الضلالات، فطريق الحقّ واضح المعالم، أمّا طريق الضلال، فهو ملتبّس على من يسلكه.

فالآية مشحونة بالألوان البلاغية التي تضفي جمالاً وامتاعاً وطرافة على النصّ تألّقت بفنّ التقسيم البديع المستوفي جميع أقسام معانيه.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[2].

حيث استوفى مواضع الأشياء، ولا رابع لها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[3].

---

١. البقرة: ٢٥٧.

٢. الإتقان، ج٣، ص٣٠٥ والآية في مريم: ٦٤.

٣. المصدر، ج٣، ص٣٠٥ والآية في النور: ٤٥.

استوفىٰ أقسام الخلق في المشي.

وقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[١].

يُعدّ هذا الكلام من محاسن التقسيم لتناسب الأمرين المقسم بهما، فقد أقسم بيوم البعث أوّلاً، ثمّ أقسم بالنفوس المجزية فيه ثانياً، على حقيقة البعث والجزاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[٢].

فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات إلّا أتى به.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[٣].

حيث قد وقعت بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها البلاغة، فتضمّن الكلام ائتلافاً؛ وذلك لأنّ الذكر يجب فيه تقديم القيام؛ لأنّ المراد به الصلاة ـ والله أعلم ـ والقيام واجب فيها للمستطيع، والقعود بعده للعجز عن القيام والاضطجاع عند العجز عن القعود.

والضرّ يجب فيه تقديم الاضطجاع، وإذا زال بعض الضرّ قعد المضطجع، وإذا زال كلّ الضرّ قام الجالس، فدعا لتتمّ الصحّة، وتكتمل القوّة، ويحصل التصرّف.

فحصل حسن الترتيب، وائتلاف الألفاظ بمعانيها، وترجح مجيء «أو» علىٰ مجيء «الواو» لما تدلّ عليه من تعدّد المضطرّين دون الواو.

ومثله قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾[٤].

---

١. القيامة: ٢.

٢. انظر: حسن التوسل، ص٢٥٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٦؛ أنوار الربيع، ج٥، ص٢٩٤؛ الإتقان، ج٣، ص٣٠٥ و الآية في آل عمران: ١٩٠ و ١٩١.

٣. يونس: ١٢.

٤. انظر: حسن التوسل، ص ٢٥٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٦؛ أنوار الربيع، ج٥، ص٢٩٤ و الآية في الشورى: ٤٩.

فاللّه تعالى إمّا أن يفرد العبد بهبة الإناث، أو بـهبة الذكـور، أو يـجمعهما له، أو لايهب له شيئاً.

وقد وقعت صحّة الأقسام في هذه الآية على ترتيب بلاغي؛ للانتقال في نـظم الكلام من الأدنى إلى الأعلى، فقدّم هبة الإناث، ثمّ هبة الذكور، ثمّ هـبة الإنـاث والذكور، وجاءت كلّ أقسام العطيّة بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتأخير؛ لأنّ إفضاله على عباده أهمّ من حرمانه إيّاهم، وتقديم الأهمّ أولى.

وقال وإنّما قال: «ويجعل» عوضاً «أو بدلاً» من أن يقول: «ويهب»، لتأتي الألفاظ ملائمة للمعاني، قياساً على قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا...﴾[1]. فأتىٰ لفظ العـطاء بـلفظ «الزرع»، ومـعنىٰ الحرمان بلفظ «الجعل».

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2].

فاتّفقت في هذه الآية صحّة الأقسام؛ إذْ لم يبق بعد قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ قسم من هذا المعنى حتى يذكره؛ لأنّ المرض عبارة عن إخفاء الكفر. والريبة: الشكّ والتردّد. وذكر الخوف من الحيف وتلك هي جميع الأقسام التي هي أسباب القعود عن الإجابة لحكم اللّه ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾[3].

فإنّه لا يخلو العالم جميعه من هذا التقسيم: إمّا عاصٍ ظالم لنفسه، وإمّا مـطيع

---

١. الواقعة: ٦٣ ـ ٦٥.

٢. النور: ٤٨ ـ ٥٠.

٣. التبيان للطيّبي، ص ٤١١ و ٤١٢ والآية في فاطر: ٣٢.

مبادر إلى الخيرات، وإمّا مقتصد فيهما[1].

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[2].

فاستوفت أقسام الأوقات من طرفي كلّ يوم ووسطه مع المطابقة والمقابلة[3].

١. الفوائد، ص ١٣٥.

٢. الروم: ١٧ و ١٨.

٣. البرهان، ج ٣، ص ٥١٥.

تجاهل العارف

وهو أن يكون القائل عارفاً بالشيء فيتجاهله لغاية في نفسه.

وقد وضعت صيغة «التفاعل» لتعرّض الفاعل وتظهره على صفة ليس هو عليها، وهذا كقولك: «تعامى عن الحقّ وما به عمى، وتجاهل وما به جهل»، هذا ما تفيده هذه الصيغة باعتبار وضعها، فيكون تجاهل العارف عبارة عن سوق المعلوم مساق غيره لنكتة المبالغة في التشبيه، فهو منقول من اصطلاح علماء البيان إلى فنّ من فنون البديع، وهو أن تسأل عن شيء تعرفه مُوهِماً أنّك لا تعلمه، وأنّه ممّا خالجك فيه الشكّ والريب، وتطرح الشبهة لتوهّم أنّ شدّة التشبيه الواقعة بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه بالمشبّه به.

ومن الأسرار والنكات الباعثة على سوق المعلوم مساق غيره أمور:

١. المبالغة في المعنى حتى يبلغ به الكلام الذروة العليا، ويحلّه في الفصاحة المحلّ الأعلى: نحو قوله تعالى: **﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**[١].

فهم يعنون بـ «رجل» محمّداً ﷺ وكأنّهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً سوى أنّه رجل ما، وهو عندهم أوضح من الشمس.

---

١. سبأ: ٧.

نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[١].

أي وما هذه التي بيمنك يا موسى؟ أليست عصا؟ فتجاهل العصا لينبّه لما سيبدو من عجائب صنعه في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حيّة؛ لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة، فإنّ السؤال هنا ما وقع لأجل المبالغة في التشبية المشار إليه في تجاهل العارف، بل هو لفائدة أخرى، إمّا لإيناس موسى؛ لأنّ المقام مقام هيبة واحترام؛ وإمّا لإظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه.

ولورود هذا اللون في القرآن الكريم سمّاه السكّاكي ـ تأدّباً ـ سوق المعلوم مساق غيره، والحقّ ما صنعه السكّاكي وإن لم يغيّر من جوهر المعنى المراد بتسميته «تجاهل العارف» شيئاً من حيث الواقع[٢].

٢. الاستدراج: نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾[٣].

إذ لو عدل عن الاستخبار المتضمّن للتوبيخ إلى تصريح الإخبار بأنّكم إذا تولّيتم أمور الناس أفسدتم وقطعتم الأرحام للبسُوا له جلد النمر، ولكن إذا تأمّلوا في الاستخبار أنصفوا وأذعنوا للحقّ.

٣. التوبيخ: كقوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[٤].

فإنّ السؤال هنا لم يكن للتشبيه، وإنّما هو توبيخ لمن ادّعى فيه ذلك، فقد أجاب عيسى بالنفي والله يعلم ذلك. وفي هذا الأسلوب ما يظهر بوضوح براءة عيسى ممّا نسب إليه، وإقامة الحجّة على من يعتقد ذلك.

---

١. طه: ١٧.

٢. انظر: البديع في ضوء أساليب القرآن، ص ٧١.

٣. محمّد: ٢٢.

٤. المائدة: ١١٦.

٤. التعريض: نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فهذا تعريض بأنّ الكافر في ضلال والرسولﷺ على هدى بلا شكّ[٢].

٥. التعجب: كقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

ونحو قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[٤].

٦. التحقير: نحو قوله تعالى حكاية عن الكفّار: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

كأنّهم لم يعرفوا منه إلّا أنّه رجل ما.

٧. التقرير: نحو قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[٥].

٨. التعظيم: نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[٦].

فسؤال اللّه الرسل يوم القيامة عمّا أجيبوا به ممّن أرسلو إليهم ـ وهو أعلم بذلك منهم ـ ممّا يدلّ على أهوال ذلك اليوم؛ لدرجة أنّهم ـ وهم رسل الله ـ يذهلون عن أخصّ أعمالهم.

وكذلك في السؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منّوا به منهم، إظهاراً للتشكي واللجؤ إلى ربّهم في الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة

---

١. سبأ: ٢٤.

٢. وهذا ليس على طريق الشكّ، بل على جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج ـ كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنّه صادق وصاحبه كاذب ـ ففي التعريض والتورية أفضل سبيل بالنسبة إلى المجادل للوصول إلى غرضه وفلّ شوكة عدوّه والتغلّب عليه في هجومه وصولته عليه.

٣. الطور: ١٥ و ١٦.

٤. القمر: ٢٦.

٥. الأنبياء: ٦٢.

٦. المائدة: ١٠٩.

وأفت في أعضادهم إذا اجتمع توبيخ اللّه وشكوى أنبيائه عليهم.

٩. التسجيل بالكفر: نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[1].

فسبب امتناع إبليس عن السجود لآدم معروف للّه سبحانه، ولكن هذا الأسلوب تسجيل على إبليس بالمعصية ليجيب بما أجاب به فيستحقّ الجزاء.

ومن أمثلة تجاهل العارف نثراً للمبالغة في التوبيخ والتنبيه على الضلال قول الإمام عليّ‌عليه السلام:

«فإنّي تُؤْفكُونَ، أم أين تُصْرَفُونَ، أم بماذا تَغْتَرُّونَ»[2].

وللمبالغة في التقرير قوله‌عليه السلام:

«أوَلَسْتُم أَبناءَ القومِ والآباءَ وإخْوَانَهُم والأَقرباءَ؟»[3].

وللمبالغة في التعجّب قوله‌عليه السلام:

«مالي أَراكُمْ أَشْباحاً بِلا أَرْواحٍ، وأَرْواحاً بِلا أشْبَاحٍ»[4].

وللمبالغة في التحقير قوله‌عليه السلام:

«يا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا وإلامَ أُجِيبَ»[5].

وللمبالغة في التعظيم قوله‌عليه السلام: «فكيفَ تَصِلُ إلى صِفَةِ هذا عَمَائِقُ الفِطَنِ. أو تَبْلُغُهُ قَرائِحُ العُقُولِ، أو تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أقوالَ الواصِفين»[6].

وللمبالغة في التحسّر قوله‌عليه السلام: «أينَ إخواني الذينَ رَكِبُوا الطـرِيقَ، وَمَـضَوْا عـلى

---

١. ص: ٧٥.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣ـ ٥٩.

٣. المصدر، الخطبة ٨٣ ـ ٣٠.

٤. المصدر، الخطبة ١٠٨ـ ٧.

٥. المصدر، الخطبة ٢٢ ـ ٤.

٦. المصدر، الخطبة ١٦٥ ـ ٢٥.

الحَقِّ، أيْنَ عَمّارٌ؟ وأين ابنُ التيهانِ؟ وأينَ ذو الشهادتينِ؟ وأين نُظَراؤُهُم»[١].

ومن أمثلته نظماً:

١. للمبالغة قول الشاعر:

أشـــوقٌ مـا أُقـاسي أم حـريقٌ ... وليــلٌ مــا أكــابدُ أَم زمــانُ

يتجاهل معرفته بحالته ويتحاير، أشوقه حريق أم ليلة زمان، إنّـه يشـبّه قسـوة الشوق بالحريق، وطول الليل بالزمان، مبالغاً في وصف سوء حاله وانشغال فكره وتوتّر أعصابه.

وللمبالغة في المدح، قول البحتري:

أَلَمْعُ برقٍ سَرَى أَمْ ضَـوْءُ مِـصْباحِ؟ ... أم ابْـتِسامتُها بـالمَنْظَرِ الضَّاحِي؟[٢]

فالشاعر يعلم أنّ الذي ظهر إنّما هو أبتسامتها، لكنّه تجاهل وتظاهر أنّه التبس عليه الأمر، فلم يدر هل هذا اللمعان المشاهد من ثغرها عند أبتسامتها: لمع بـرق سرى، أو ضوء مصباح، أو ضوء أبتسامتها؟، وفي ذلك إظهار لمفاتنها مـبالغة فـي المدح.

ومثله قول الشاعر:

أَثَغْرُكِ يـا هِـنْدُ أَبـدى ابـتساما ... أم البـرقُ سَـلّ عـليهِ حساماً[٣]

والمبالغة في الذمّ، كقول زهير بن أبي سلمى:

وَمــا أَدرِي وَسَـوْفَ إِخَـالُ أدْري ... أَقَـــوْمٌ آلُ حِــصْنٍ أَمْ نِســاءُ[٤]

يريد: أرجال أل حصن أم نساء؟ فالقوم: الرجال أي، فـيه دلالة عـلى أن لفـظ

---

١. المصدر، الخطبة ١٨٢ ـ ٣٠.

٢. ديوانه، ج١، ص٤٤٢؛ حسن التوسل، ص ٢٣١؛ الإيضاح، ص٢٨٥؛ سرى: ظهر ليلاً، المنظر: يراد بـه الوجـه أو الفم، الضاحي: الظاهر.

٣. خزانة الأدب، ج٢، ص٢٩٩.

٤. ديوانه، ص ٧٣؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٣٠٧؛ الطراز، ج٣، ص٨١؛ حسن لتوسل، ص ٢٣١؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٦٥؛ الإيضاح، ٢٨٦.

«القوم» لا يطلق إلّا على الرجال خاصّة.

وكما في قول المتنبّي يهجو كافوراً:

أمـــيناً واخــلافاً وكــذباً وَخِسّــةً وَجُبْناً؟ أَشَخْصاً لِحْتَ لي أَمْ مخازيا

أي: إنّي لأعجب من أمرك يا كافور كيف جـمعت الاحـتيال وإخـلاف الوعـد والكذب والخساسة والجبن في شخصك؟ تُرى هـل أنت شـخص مـن لحـم ودم كما هي حال البشر، أم إنّك مجموعة من المـخازي والعـيوب تكـتلت فـأصبحت كافوراً؟؟

٢. التحقير: كقول الشاعر:

يَقُولُونَ هـذا عِـنْدَنا ليسَ ثـابِتاً وَمَنْ أَنْتُمُ حتى تكون لَكُمَ عِـنْدُ

٣. التقرير: كقول الفرزدق:

أَلسَـتُمْ خَـيْرَ مَـنْ رَكِبَ المـطايا وَأَنْـــدَى العــالمينَ بـطونَ راحِ

وقول مهيار الديلمي:

سـلا ظـبيةَ الوادي ومـا الظـبيُّ مِـثْلُها وإن كــانَ مَــصْقُولُ التــرائبِ أَكْــحلا

أأَنْتَ أَمَرْتَ الصُبْحَ أَنْ يَـصْدَعَ الدُجـا وَعَــلّمْتَ غُــصْنَ البــانِ أن يَـتَمَيّلا[1]

٤. التوبيخ: ومنه قول ليلى بنت طريف الشيباني في رثاء أخيها:

أيـا شَـجَرَ الخـابُور مـالكَ مُـوْرِقاً كأنّكَ لم تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيفِ[2]

فهي تعلم أنّ الشجر لا يجزع على ابن طريف لكنّها تجاهلت واستعملت «كأنّ» الدالّة على الشكّ[3].

---

١. كتاب الصناعتين، ص ٣٦٧؛ البديع في البديع، ص ١٤٦ و ١٤٧.

٢. البيت في الحماسة البصرية، ج ١، ص ٢٢٩ والأغاني، ج ١١، ص ٨؛ كتاب الصناعتين، ص ١٦٥؛ حسن التوسل، ص ٣٢١؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ٣٠٨؛ الاشارات، ص ٢٢٦؛ التبيان، ص ٢٩٥؛ الايضاح، ص ٢٨٥.

٣. سؤال الشاعرة شجر الخابور عن استمرار إيراقه بعد مقتل أخيها يراد منه التوبيخ على عدم استجابته للحادث الجلل والمصاب العظيم على عادة أهل الرثاء في إشراك عناصر الطبيعة في الحزن على المتوفّى، مبالغة في تعظيمه (الكافي في علوم البلاغة، ج ٢، ص ٦٢٠).

٥. التعجب: كقول ذي الرمّة:

أيا ظبيةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلِ وبين النَّقا آأنتِ أمْ أُمُّ سالِمِ[1]

فالشاعر تجاهل بعدم تفريقه بين أمّ سالم والظبية الوحشية في الصورة، وأنّها متلبّسة عليه بها، وأوهم في كلامه هذا أنّه أشكل عليه المسمّى باسم الظبية على جهة الحقيقة، وأنّه لا يميّز بين الأمرين، هل اسم الظبية مستعار لأمّ سالم من الظبية الوحشية، أو يكون الأمر على العكس من ذلك؟ لذا سأل عن ذلك مستفهماً متعجّباً.

٦. التولّه في الحبّ: كقول العرجي:

باللّهِ يا ظَبَياتِ القاعِ قُلْنَ لَنا لَيْلايَ منكنَّ أم لَيْلى من البَشَرِ[2]

فالشاعر يعلم أنّ ليلى من البشر، لكنّه تجاهل ذلك وتظاهر بأنّه لا يدري، وقد أكّد ذلك التجاهل بسؤاله الظبيات، وهو يروم من وراء ذلك إلى الترجمة عن ذهوله، ومدى سيطرة حبّها عليه، حتى أفقدته صوابه، وحتى أصبح لا يدري أهي إنسانة من بنات حوّاء، أم هي ظبي من الظباء؟

ومن ظريف ما سمع فيه قوله:

بالذي ألهمَ تعذيبي ثناياكِ العِذابا
والذي صيَّرَ حظّي منكِ هجْراً واجتنابا
والذي ألبسَ خدّيك من الوردِ نِقابا
ما الذي قالتهُ عينا كِ لقلبي فأجابا[3]

---

١. معجم البلدان، ج٣، ص١١٩؛ الصناعتين، ص٣٩٧؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٦٧؛ الطراز، ج٣، ص٨٠؛ الوعساء: الرابية من الرمل، وجلاجل: جبل من جبال الدهناء، النقا: القطعة المحدودة من الرمل.

٢. حسن التوسل، ص ٢٣٢؛ البديع في البديع، ص ١٤١؛ معجم البلدان، ج٢، ص٢٨٠؛ ديوان العرجي، ص٢٤١؛ الإيضاح، ص٢٨٦.

٣. خزانة الأدب، ج٢، ص٣٠٩ ـ ٣١٠؛ البديع في البديع، ص ١٤٦.

٧. التعظيم: كقول ابن نباتة:

فـــو اللّـــه لا أدري أكـــانت مـــدامـــةً من الكرم تُجنى أم من الشمس تُعصرُ؟

إذا صـــبّها جـــنح الظّـــلام وعـــيَّها رأيت رداء الشّـــمش يُـطوي ويُـنشرُ

٨. التعريض: كقول حسّان بن ثابت يخاطب أبا سفيان الذي هجا المصطفىﷺ:

أتـــهجوهُ ولستَ له بكـــفـءٍ فشـــرّ كُـــما لخـيركما الفـداءُ

بلاغة تجاهل العارف

تبيّن ـ فيما تقدّم ـ أنّ المتكلّم يسوق المعلوم مساوق غيره ليبلغ مراده من وجهة تثبت المعنى المراد من مدح أو ذمّ أو سوى ذنبك، ومرجع تأكيد المعنى وإثباته في هذا الضرب إظهار المتكلّم أنّه تحرّى الدقّة والتمس الحقيقة، فـوجد الأمـر عـلى ما وصف، وحُكمُ مَن تَطمئِنّ إلى حياده ونزاهته أكثرُ تأثيراً في نفسك من حكم ذلك الذي يكون حكماً وخصماً في الوقت نفسه، كما يقول شخص لآخر: الناس يتّهموك بالحمق، فيشتدّ نكيره لذلك، لكنّه يكون أقلّ استنكاراً ورفضاً حـين يـقول ثـانية: الناس يقولون لا أنا، فيكون ذلك أثبت[١].

١. الصناعتين، ص ٣٩٦؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٦٧؛ الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٦٢٢ و ٦٢٣.

الاقتباس والتضمين

الاقتباس لغةً: ـ مصدر اقتبس ـ إذا أخذ من النار شيئاً، وذلك المأخوذ «قَبَسٌ» ـبالتحريك ـ. وكذلك اقتبستُ منه علماً أيضاً: استفدته[1].

أمّا في الاصطلاح: فهو تضمين الشعر أو النثر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث النبويّ الشريف من غير إشارة إلى أنّه منهما: وإنّما يحسن ويكون مقبولاً إذا وطّن له في الكلام بحيث يكون مندرجاً فيه، داخلاً في سياقه دخولاً تامّاً وإن كان في الكلام تصريح أو إشعار بأنّه من القرآن أو الحديث، فذلك لا يسمّى اقتباساً، وإنّما يسمّى تضميناً، كقول أمير المؤمنين‌ؑ: «وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الحرامِ، الذي جَعَلَهُ قِبْلَةً للأَنامِ ... وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفادَتَهُ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾»[2].

فكلّ ما نراه من كلام بيّن بين قوسين، أو مصرّح بقائله فهو تضمين[3].

وقد عرّف هذا الفنّ منذ عهد مبكر وكانوا يسمّون الخطبة التي لا توشّح

---

١. لسان العرب، مادّة «قبس»، انظر: أنوار الربيع، ج ٢، ص٢١٧.

٢. آخر الخطبة الاولى من نهج البلاغة، والآية في آل عمران الآية ٩٧.

٣. كذلك في قول الإمام عليّ‌ؑ وهو يضمّن حديثاً شريفاً: «واللّهِ ما أرى عبداً يتّقي تَقْوىً تَنْفَعُهُ حتى يَخْزُنَ لسانَهُ، وإنّ لِسانَ المؤمنِ من وراءِ قلبِهِ، وإنّ قلبَ المنافقِ من وراءِ لِسانِهِ... وإنّ المنافِق يتكلّمُ بما أتى على لسانِهِ لا يدري ماذا لَهُ، وماذا عليه، ولقد قال رسول اللّه‌ﷺ: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يَسْتَقِيمَ قلبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قلبُهُ حتى يستقيمَ لِسانُهُ». نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

بالقرآن بتراء[١].

وقد عرّفه الرازي بقوله: «هو أن تُدرَج كلمة من القرآن، أو آية منه في الكـلام تَزييناً لنظامه، وتفخيماً لشأنه»[٢].

وعرّفه الحلبي بقوله: «هو أن يُضَمَّن الكلام شيئاً من القرآن والحديث ولا ينبّه عليه للعلم به»[٣].

ومثله ذكر كلّ من الشريف الجرجاني والنويري والكفوي[٤].

وأمّا **التضمين لغةً**: فهو من ضمّن الشيءَ الشيءَ، أي أودعه إيّاه كما تودع الوعاءَ المتاع، والمضمّن من الشعر: ما ضمّنته بيتاً.

ولم يفرّق معظم علماء البديع في الاستعمال بين مصطلح الاقتباس والتضمين، وإنّما أداروهما لفظين مترادفين؛ لأنّ التضمين مثل الاقتباس يلتقي معه فـي إدراج شيء في شيء، وعرّفه الخطيب القزويني في الإيضاح بقوله: «فهو أن يُضَمَّن الشعرُ شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء»[٥].

وعرّف الاقتباس قائلاً: «أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنّه منه»[٦].

أي أنّه فرّق بين الفنّين، فالاقتباس يخصّ القرآن والحديث، والتـضمين يـخصّ الشعر.

أمّا ابن قيم الجوزية، فيرىٰ أنّ التضمين هو أن يأخذ المتكلّم كلام غيره ويدرجه في لفظه لتأكيد المعنىٰ الذي أتىٰ به؛ فان كان كلاماً كثيراً أو بيتاً مـن الشـعر فـهو

---

١. البيان والتبيين، ج٢، ص٦ و ١١٨.

٢. نهاية الإيجاز، ص ٢٨٨.

٣. حسن التوسل، ص ٣٢٣.

٤. التعريفات، ص ٣٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٨٢؛ الكليات، ج١، ص٢٥٣.

٥. الإيضاح، ص ٥٨٠.

٦. المصدر، ص ٥٧٥.

تضمين، وإن كان كلاماً قليلاً، أو نصف بيت فهو إيداع»[١].

وذكر الحموي رأياً جديداً نسبه إلىٰ العلماء يتلخّص في أنّه جعل الاقتباس على نوعين: فما يأتي به الناثرون من الخطباء والمنشئين يسمّىٰ الاقتباس، وما يأتي به الشعراء في أشعارهم يسمّىٰ التضمين؛ وذلك لأنّ العلماء قد قالوا في هذا الباب:

«إنّ الشاعر لا يقتبس بل يعقد ويضمّن، وأمّا الناثر، فهو الذي يقتبس كالمنشئ والخطيب»[٢].

لذا استنتج بعض الدارسين من هذه النصوص تخصيص مصطلح الاقتباس بما يؤخذ من القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، وجعل مصطلح التضمين مقصوراً على ما كان في الكلام من تصريح أو إشعار بأنّه من القرآن أو الحديث، أو على ما ينتزع من فنون الأدب من شعر أو نثر؛ وذلك دفعاً للالتباس بينهما؛ بياناً لأهمّيّة كلّ منهما في ميدان البلاغة.

ومن هنا يظهر للاقتباس أهمّيّة مشهودة في السُموّ بأساليب المقتبسين، ورفعة فنون قولهم؛ لأنّ المقتبس من القرآن الكريم الذي هو أعلى رتبة من مراتب فنّ البلاغة، والآخذ من أحاديث النبيّ الكريم الذي هو أفصح العرب يزيد قدر ثمار قريحته، ويزيّنها بأجمل العبارات، وأبلغ الصياغات. وأمّا الذي يضمّن كلامه بضاعة غيره ويحاكي أسلوب سواه من الآدباء، فإنّ في قيمة عمله؛ نظراً لابدّ من تقريره والوصول به إلى قاعدة[٣].

والاقتباس على ثلاثة أقسام: محمود مقبول، ومباح مبذول، ومردود مرذول. فالأوّل: ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبيّ ﷺ ونحو ذلك.

والثاني: ما كان في الغزل والرسائل والقصص.

---

١. الفوائد، ص ١٦٨.

٢. خزانة الأدب، ج ٤، ص ٣٦٤.

٣. البلاغة والتطبيق، ص ٤٦١

والثالث: على ضربين:

أحدهما: ما نسبه اللّه تعالى إلى نفسه، ونعوذ باللّه ممّن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد الولاة أنّه وقّع على مطالعة فيها شكاية من عمّاله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[١].

والآخر تضمين آية كريمة في معرض هزل أو سخف.

وأضاف السبكي إلى القسم الثالث ما إذا أُخِذَ شيء من القـرآن وجـعل بـيتاً أو مصراعاً، كقول الشاعر:

كتب المحبوبُ سطراً — في كتاب اللّـه مـوزون

لن تـنالوا البـرّ حـتّى — تـنْفِقوا مـمّا تـحُبون[٢]

وليس المقصود بالاقتباس من القرآن تقليده في طريقة مـعالجته لمـوضوعاته، فالغرض الديني الواضح والأصيل في القرآن هو الذي يحكم موضوعاته، وتوجيهاته، وتعبيراته، ولكنّه ـ مع وفائه بالغرض الديني كاملاً ـ، يحمل خصائص فنّيّة تصل إلى حدّ الإبداع والإعجاز؛ وذلك إلى جانب المفاهيم التي يعرضها عن الكون والحياة والإنسان، ومحاولة الإفادة من القرآن في مجال الفنّ أوجبت الإفـادة مـن هـاتين الناحيتين معاً (المفاهيم وطرق الاداء)، ولكن لا لتقليدها، وإنّما لالتـقاط التـوجيه الذي تحمله، والنسج على منواله فيما يترتّب عليه من الفنون[٣]، كقول الإمام عليّ عليه السلام:

«فَصَمْداً صَمْداً! حَـتّى يَـنْجَلىَ لكـم عَـمُودُ الَـحقِ، وأَنـتُمُ الأعْـلَوْنَ، واللـهُ مَـعَكُم، وَلَنْ يَتِرَ كُم أَعمالَكُم»[٤].

فهو يستعير من قوّة القرآن قوّةً، ويكشف عن مهارته في أحكام الصلة بين كلامه،

---

١. الغاشية: ٢٥ـ٢٦.

٢. أنوار الربيع، ج٢، ص٢١٨؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٥٥.

٣. منهج الفن الاسلامي، ص ٢٠٩.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧، الصمد: القصد، أي اثبتوا على قصدكم، لن يـتركم أعـمالكم: لن يـنقصكم شـيئاً مـن جزائها.

والكلام الذي أخذه تمثيلاً لأرقى أنواع الكلام[١].

وفي نهج البلاغة للإمام عليّ‌ عليه السلام ـ بخطبه ورسائله وحكمه، وكذلك ما نسب إليه من شعر ـ دلالة واضحة على أنّ أهمّ المصادر التي استقى منها ثقافته هو القرآن، وتدلّ جميع عباراته دلالة واضحة على تشبّع روحه بالإسلام، واحتفال فكره ولسانه بآياته، وإدراكه جوهر الإيمان الحقّ، والصلة العميقة بين أحكام اللّه في شريعته، فمن خطبه الجهاديّة:

«أمّا بَعْدُ، فإنَّ الجِهادَ بابٌ من أبوابِ الجَنّةِ فَتَحَهُ اللّهُ لخاصَّةِ أوليائِهِ، وَهُوَ لِباسُ التَّقْوى، وَدِرْعُ اللّهِ الحَصينَةُ، وَجُنَّتُهُ الوثيقةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغبةً عنهُ أَلْبَسَهُ اللّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ البَلاءُ، ودُيِّثَ بالصِّغارِ والقَماءَةِ، وَضُربَ على قَلْبِهِ بالإسْهابِ، وأُديلَ الحَقُّ مِنْهُ بِتَضْييعِ الجِهادِ وَسيمَ الخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصْفَ...»[٢].

فتحديده عليه السلام ـ مثلاً ـ للجهاد بأنّه «باب من أبواب الجنة فتحه اللّه لخاصة أوليائه» يذكّرك بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[٣].

وعبارة ﴿لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ تجدها في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٤].

و «جنته الوثيقة» تجدها في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٥].

وعبارة «ضرب على قلبه بالأسداد» تجد موردها في قول ربّ العالمين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

و قول أميرالمؤمنين عليه السلام في جواب لمعاوية: «ثم زَعَمْتَ أَنّي لِكُلِّ الخلفاء حَسَدْتُ

---

١. اقتبس عليه السلام ذلك من قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران: ١٢٩.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧. جُنّتُه ـ وقايته، والجُنّة: كلّ ما استترت به. رغبةً عنه: زهداً فيه، دُيّث مبنيّ للمجهول من ديثهُ أي ذلّله، القماءة: الصغار والذلّ، الإسهاب: ذهاب العقل أو كثرة الكلام، أديل الحقّ منه: صارت الدولة للحقّ بدلُه، سيم الخسف: أولى الخسف، والخسف الذلّ والمشقّة أيضاً.

٣. النساء: ٩٥.

٤. الاعراف: ٦٢.

٥. المجادلة: ١٦.

و على كُلِّهم بَغَيْتُ، فإنْ يَكُن كذلِكَ فلِمَ تكن الجناية عليكَ، حتىٰ تكونَ المعذرةُ إليك، و تلك شكاة ظاهِرٌ عنكَ عارُها».[1]

ولقد أجاد عبد الرحمن بن الجوزي في كتاب المدهش في وصف زواج فاطمة بعليّ عليهما السلام وإبراز فضائلهما بقوله:

«ولمّا نهض عليّ لخطبتها، طرّق بأنامل رجائه أرجاء باب الخطبة، فمشى إليه الآذن بالإذن على عجل العجل، فنقّد صدق الرغبة. فقبل نقد الصداق، فعقد على درع، لينبّه على جهاد الهوى، وجهّزت بالأجهاز على عدوّ الزهد، ولم يرض لها جهاز الدنيا؛ لموافقة البضعة التي هي منه، فحلّاها الرسول بحلية «فاطمة بضعة منّي»، وعقد لها عقداً، خرزات نظامه «إنّ اللّه يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»، وبعث بين يديها وصايف «غضّوا أبصاركم»، ونصب لها سدّة «ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأُمة» وأدخلها على الزوج في حلل الحالية، عليها قناع القناعة تسعى في فضاء الفضائل إلى خلوة الخلّة حتى أُجلست على منصّة النصّ، فأمر اللّه تعالى ليلة عرسها شجر الجنان، فحملت حللاً وحلياً، فنثرته على الملائكة، وليس المراد بذلك الملك، ولكن ليعلم رضى الملك.

يا عجباً، نثرت الحلل لأجل من؟ فراشه جلد كبش، هلّا حلّت له منها حلّة، كلّا، مركب الملك أحلى من أن يحلى.

فدخل عليها الرسول، فاستدعى بإناء من ماء، فدعا فيه بالبركة، ثمّ رشّ على حبيبين بلا غشّ، سأل [عليّ] الرسول: يا رسول اللّه؛ أنا أحبّ إليك أم هي؟ ففصّل الحاكم بين خصوم الحبّ، فقال: هي أحبّ إليّ منك، وأنت أعزّ عليّ منها.

فلمّا حازت بما حازت قناطر الفضل، صين وجه الكمال بخال الخلل في العيش، فأقوى على الأقوى، قفر الفقر، فصيح بفصيح خطاب الشرع يا عليّ. قم لكسب

---

١. تحرير التحبير، ج٣، ص ٣٨٠ـ٣٨١؛ نهاية الارب، ج٧، ص ١٦٤؛ نهج البلاغة، الكتاب: ٢٨ و فيه تغيير طفيف في كلماته، و عجز البيت لأبي ذؤيب الهذلي كما في ديوان الهذليين، ج ١، ص ٧٠ و صدره: و عيَّرها الواشون إني أحبّها.

قوت الوقت. فخرج يسعى على أرض الرضا، بين أعلام الصبر، فبات يسقي نخلاً إلى الفجر بشيء من الشعير على وجه الأجر، فلما جاء به، وأصلح للأكل، قام سائل على باب البذل، فنادى: يا أهل نادي الندى، والفضل أطعمونا أطعمكم اللّه من الفضل، فثارت رياح الارتياح للإيثار، فأثارت سحاباً يقطر من قطرته قطر جود الجود، فسال سيله بقدر وادي الودّ، فلمّا تروّت بالماء أشجار الأُنس صدحت على ورقها ورق القدس. وأغنى عن غرائب صدح المدح، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ثمّ أخبر الحقّ عن مضمون القصد: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، فلو رأيت القوم يوم القيامة في ظلّ «فوقاهُمُ اللّهُ»، وقد اكتست أجساد، وكست بكسا الضنك غضارة العيش على حلل الخفض، واستراحت أيد تفرق أيدها من طحن الرحاء، ونزع الدلو براحة متّكئين فيها، هذا من حصاد بذر النذر، ولقد عجب العلماء من شرح هذا الأجر، واستظرفوا عدم ذكر الحورفي هذا الذكر، فبقوا متحيّرين في حير الفكر، فنودوا من بطنان وادي الفضل بأنّ ذلك الفضل فضل زهراء الأُنس، غِيرَ عليها من ذكر الغِيرَ.

وإنّما آثر على الطفلين؛ لأنّهما غصنان من شجرة أبيت يطعمني ربّي، وبعض من جملة منّي، وفرخ البطّ سابح، وذكاة الجنين كذكاة أُمّه».

ومن الاقتباس الحسن ما وقع لعبد المؤمن الإصبهاني في مقالاته التي سمّاها أطباق الذهب، كقوله من مقالة:

«واعلم، أنّ الدنيا والآخرة ضرّتان، لك إليهما كرّتان: إحداهما: حرّة خريدة، والأُخرى أمة مريدة. فاجعل للحرّة يومين، فإنّ لها قسمين، وللأمة قسماً، فإنّ لها في كتابك اسماً، وأضعف نصيب العقبى «ولا تنس نصيبك من الدنيا» واحفظ القسمة العادلة، ولا تكن ممّن يحبّون العاجلة، فالويل كلّ الويل أن تميلوا كلّ الميل، واتّق الميل بالقلب، فكلّ أولئك كان عنه مسؤولاً.

وإن كان ولابدّ فللآخرة خير لك من الأُولى، فإن نفيت الزيغ، فطلّق الدنيا؛ فإنّها زائلة، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾».

أمّا الاقتباس عند الشعراء من القرآن، فيقسّم إلى عدّة أقسام:

الأوّل: اقتباس الآيات القرآنيّة مع تحوير بسيط، أو كبير في تركيب الجمل وترتيبها، محافظة على الوزن، وانسجاماً مع القافية، كقول الشاعر يشير إلى مطر أصاب الناس بعد مَحْلٍ وظهور صَحْو بعد ذلك:

اللّـهُ يَـلْطُفُ بـالِعبادِ فـواجبٌ … أنْ يَشْكُرُوا في كُلِّ حالٍ نِعْمَتَهْ

وهـو الذي فـيهم يُـنَزِّلُ غَـيْثَهُ … مِن بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشرُ رَحْـمَتَهْ

اقتبس ذلك من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[١].

وكقول أبي تمزام في قصيدة يرثي بها ابناً له

كـان الذي خـفتُ أن يكـونا … إنّـا إلى اللّـه راجـعُونا

أمسـى المـرجّـى أبـو عـلي … مـوسّداً فـي الثـرى يـمينا

حـين استوى وانـتهى شـباباً … وحـقّق الرأي والظـنونا

كـنت عـزيزاً بـه كـثيراً … وكـنت صـباً بـه ضـنينا

دافـعت إلّا المـنون عـنه … والمـرءُ لا يـدفع المـنونا

مراده آية الاسترجاع وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٢].

فإنّ فيه زيادة الألف بعد النون من «راجعونا» وإسقاط لفظ الجلالةالمجرور باللام مع «إنّا» وواو العطف المعطوف عليه، والعاطف هو الواو، وإبدال الضمير المجرور بـ«إلى» بالظاهر.

الثاني: اقتباس المعنى أو الفكرة التي وردت في آيات القرآن الكريم، و من ذلك قول عبد اللّه بن رواحة يصف النبيّ ﷺ:

يبيت مجافي جنبه عن فراشه … إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

---

١. الشورى: ٢٨.

٢. البقرة: ١٥٦.

وقد اقتبس هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١].

الثالث: أن لا ينقل المقتبس من معناه الأصلي، كقول الشاعر وقد طلب من بعض أصحابه الذين بمكّة حَبّاً فاعتذروا إليه:

طلبنا منكم حَبّاً ... أجبتم فيهِ بالمَنْعِ
عَذَرْناكم لأنّكم ... بوادٍ غير ذي زَرْعِ[٢]

فالمراد بواد غير ذي زرع مكّة المشرّفة، كما في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[٣].

وقول ابن العفيف:

يا عاشِقينَ حاذِرُوا ... مُبْتَسِماً من ثَغْرِه
فَطَرْفُهُ السَّاحرُ مُذْ ... شَكَكْتُم في أمْرِهِ
يُريدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ ... مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِه[٤]

مقتبس من قوله تعالى حكاية عن لسان فرعون: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[٥].

الرابع: ضرب ينقل من معناه الأصلي بناء على أنّه ليس من القرآن حقيقة، كقول ابن الرومي.

لَئِن أَخْطَأتُ في مَدْحِـ ... ـكَ مَا أَخْطَأتَ في مَنْعى
لَقَدْ أَنْزَلتُ حَاجَاتى ... بِوَادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ[٦]

فإنّه كنّي به عن الرجل الذي لا يُرجى خيرُه وليس ذلك هو المراد في

---

١. السجدة: ١٦.
٢. البلاغة والتطبيق، ص٤٥٨.
٣. إبراهيم: ٣٧.
٤. معاهد التنصيص، ج ٤، ص١٤٥؛ نظم الدر، ص٣١٢.
٥. الشعراء: ٣٥.
٦. الإيضاح، ص٣١٥؛ معاهد التنصيص، ج ٤، ص١٣٧ وفيه نسب البيتان إلى إسماعيل القراطيسي.

الآية الكريمة.

الخامس: أن يكتفي الشاعر بإشارة توحي للقارئ اللبيب بآية، أو أكثر من آيات القرآن الكريم، ومنه قول لبيد بن ربيعة:

رأيتُ التُّقى والحمدَ خيرَ تجارةٍ ... رِباحاً إذا ما المرءُ أصبحَ ثاقلاً

استلهمه من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١].

ومن قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾[٢].

وأخذ ابن الدمينة من الكتاب الشريف وقال:

أبيتُ خميص البطنِ غرثانَ جائعاً ... وأُوثرُ بالزادِ الرفيقِ على نَفْسِي

ويمكن القول بأنّ الشطر الثاني من البيت قد استلهمه من قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣].

وقال إبراهيم بن سهل من قصيدة اقتبس مضمونها من آيات سورة مريم أبدع فيها ما شاء منها:

لستُ أنسى الأحبَابَ مادُمتُ حَيّا ... مذ نَأَوْا بالنَّوى مكاناً قَصِيّا

وَتَلوْا آيةَ الوداع فخرّوا ... خيفةَ البَين سُجَّداً وَبُكِيّا

فبذكراهُم تَفيضُ دُمُوعي ... كُلّما أشتقتُ بُكْرَةً وَعَشِيّا

وَأُناجي الإلهَ مِنْ فَرْطِ وَجْدٍ ... كمناجاةِ عَبْدِهِ زَكَرِيّا

وَهن العظمُ بالبِعَادِ فَهَبْ لي ... ربِّ بالقُرْبِ من لَدُنكَ وَليّا

السادس: أن يقتبس الشاعر الآية نفسها ويضمّنها شعره بلا تغيير أو تبديل، وهو قليل؛ لأنّ الالتزام به صعب، وقد لا يستقيم تطبيعه مع وزن الشعر أو قافيته، ومن ذلك قول الحصين بن الحمام المرّي:

---

١. الصفّ: ١٠.

٢. المائدة: ٣.

٣. الحشر: ٩.

أعوذُ بربّي مـن المـخزياتِ يـومَ تـرى النـفسُ أعـمالَها
وَخَفّتْ الموازينُ بـالكافرينَ وَزُلْـزِلَتْ الأَرْضُ زِلْـزالها

حيث اقتبس الشطر الثاني من البيت الأخير من نصّ الآية: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[١].

وأمّا الاقتباس عند الشعراء من الحديث الشريف، فهو على أنواع مختلفة: منها:
قول النمر بن تولب:

ودعوت ربّي بالسلامة جاهداً ليـصحّني فـإذا السـلامة داءُ

اقتبس ذلك من الحديث «كفى بالسلامة داء».

وقال صالح بن عبد القدّوس من شعراء العصر العباسي:

احـفظ لسـانَكَ أنْ تَـقَولَ فـتبتلى إنَّ البـــلاءَ مُـوَكَّـلٌ بـالمَنْطِقِ

أخذ ذلك من نصّ الحديث: «البلاء موكَّل بالمنطق»

وكقول أبي جعفر الأندلسي:

لا تُعادِ النَّـاسَ فـي أوطـانهم قَـلّما يُـرْعى غـريبُ الوَطَـنِ
وإذا مـا شِـئْتَ عـيشاً بـينهُم خـالِق النـاسَ بـخُلْقٍ حَسَـنِ[٢]

ضمّن الشاعر كلامه من الحديث الشريف من غير تـصريح، فـقد اقـتبس مـن قوله ﷺ لأبي ذرّ: «اتّق اللّه حيثما كنت، وأتبع السيّئة الحسنة تمحها، وخـالق النـاس بخلق حسن».

وقول الصاحب بن عبّاد:

أقـولُ وَقَـدْ رَأَيْتُ لهـا سَحاباً مــن الهِـجْرانِ مُـقْبلةً إليـنا
وَقَـدْ سَحَّتْ غَـوَادِيـها بِـهَطْلٍ حَـواليـنا الصُّـدُودُ ولا عَـلَينا[٣]

---

١. الزلزلة: ١.
٢. معاهد التنصيص، ج ٤، ص١٤٦؛ خزانة الحموي، ج ٤، ص ٣٩١.
٣. ديوانه، ص٢٩٧؛ معجم الأدباء، ج ٢، ص٣١٦؛ يتيمة الدهر، ج ٣، ص٢٥٨؛ خزانة الحموي، ج ٤، ص٣٨٩؛ ←

اقتبسه من قوله ﷺ حين استسقى وحصل نزول مطر عظيم: «اللّهم حَوالَينا ولا عَلينا».[١]

وقول الصاحب بن عبّاد:

قــال لي: إنَّ رَقــيبي سَيءُ الخُـلْقِ فَـدَارِهْ
قُـلْتُ: دَعْـني وَجْـهكَ «الجنّةُ حُفَّتْ بالمكارِه»[٢]

اقتبسه من لفظ الحديث وهو قوله ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكارِه وحُفّت النارُ بالشَّهواتِ»[٣].

وفي النثر قول الحريري: «كتمان الفقرِ زهادة، وانتظار الفرج بالصبر عبادة».

وكقول القاضي منصور الهِرويّ الأزديّ:

فلو كانت الأخلاق تُحْوَى وراثَةً ولو كانت الآراء لا تتشعَّبُ
لأصبح كُلُّ النّاس قد ضَمَّهُم هَوىً كما أنّ كلّ الناس قد ضَمَّهُم أَبُ
وَلَكنّها الأقدارُ كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما هو مخلوق لَهُ ومُقَرَّب

اقتبسه من لفظ الحديث «اعملو كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ»[٤].

وقول ابن خلّكان:

انظر إلى عارضه فوقه أَلحاظهُ يرسل منها الحُتوف

← معاهد التنصيص، ج ٤، ص١٤٦؛ نظم الدر، ص ٣١٦؛ أنوار الربيع، ج ٢، ص٢٥٣؛ معجم الأدباء، ج٦، ص ٣٦١ و ٢٦٢؛ التبيان، ص٤١٩.

١. الحديث في النهاية، ج ١، ص ٤٦٤؛ أنوار الربيع، ج ٢، ص٤٥٣؛ سنن ابن ماجة، ص ١٥٤.

٢. ديوانه، ص ٢٣٠؛ يتيمة الدهر، ج ٣، ص٢٥٨؛ أنوار الربيع، ج ٢، ص٢٥٢؛ معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٦١؛ الإيضاح، ص ٣١٤؛ معاهد التنصيص، ج ٤، ص ١١٠؛ التبيان، ص ٤١٨. الرقيب، الحافظ والحارس، والمداراة: الملاطفة والمخاتلة.

٣. انظر: المجازات النبوية، ص ٣٨٧. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦. الحفوف: الإحاطة بالشيء.

٤. الإيضاح، ص ٣١٥. تحوي وراثة: تحاز وتحرز بالميراث، تتشعّب: تتفرق وتختلف. هوى: ميل واتّجاه. الأقدار: أقضية اللّه وأحكامه. ميسّر: موفّق.

وشـاهِدْ الجـنَّة فـي خـدِّهِ　　　لكنّها تَحْتَ ظِلالِ السيوف

اقتبسه من قولهﷺ: «الجنّة تحت ظلال السيوف» وهو كناية عن الالتحام في معارك الجهاد حتى يعلوه السيف ويصير ظلّه عليه.

هذا وقد اقتبس كبار الأدباء والكتّاب والشعراء من نهج البلاغة للإمام عليّعليه السلام الذي هو ربيب خاتم النبيّين، ورأس البلاغة من بعده، والمرتبط بلاغتهما ببلاغةالقرآن الكريم.

فالقصيدة التي أنشأها المتنبّي في مدح سيف الدولة الحمداني، والتي تعتبر من أشهرقصائده:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم　　　وتأتي على قدر الكرام المكارم

هي للإمام عليّعليه السلام: «قيمةُ كلّ امرئٍ ما يحسنه».

وقول المتنبّي أيضاً:

إذا أنتَ أكـرمْتَ الكريمَ ملكتَهُ　　　وإن أنتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ تَمَرّدا[1]

مؤسّس على كلمتهعليه السلام وهي قوله: «احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع».

قال ابن أبي الحديد عند شرحه لهذه الحكمه: ليس يعني بالجوع والشبع ما تعارفه الناس، وإنّما المراد: احذروا صولة الكريم إذا ضيمَ وامتهن، واحذروا صولة اللئيم إذا أُكرِمَ.

وقول المعرّي:

تواضع تكن كالنجم لاحَ لناظرٍ　　　على صفحات الماءِ وهو رفيعُ

مبنيّ على قولهعليه السلام: «ما تواضع إلّا رفيع».

---

١. ديوانه، ج٢، ص١١.

وقول الإمام الباقر عليه السلام:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ وكانَ من قَبْلُ نُطْفةٌ مَذِرَة

وَفِي غَدٍ بَعْدَ حُسْن صُورَتِهِ يَصِيرُ في الأَرْضِ جِيفَةً قَذِرَة

وَهُوَ على عجْبِهِ وَنَخْوَتِهِ مابَيْنَ جنبيهِ يَحْمِلُ العَذِرَة

فهو نظم من قول الإمام عليّ عليه السلام: «ما لابن آدمَ والفَخْرَ وإنّما أَوَّلُهُ نُطفَةٌ، وآخِرهُ جيفةٌ».

وأمّا الاقتباس من علم الفقه؛ فقد اتّسع فيه المجال، وتنافس فيه البلغاء

قال ابن سناء الملك، وكتب به إلى جارية كان يهواها، وهي بنت عشرين سنة:

وجاريةٍ لم تَعدُ عشرينَ حجّةٍ أقولُ لها قولاً لديهِ صَوابُ

عليك زكاةٌ فاجْعَلِيها وصالَنا فعمرُك في العشرينَ وهي نِصابُ[1]

وقال الفقيه أبو المطرف المخزومي:

بايَعونا مودّةً هي عندي كالمُصَرَّات بَيْعُها بالخِداعِ

فسأَقضي بردَّها ثمّ أقضى معها من ندامتي ألف صاعِ[2]

وهو القائل

شرطتُ عليهم عند تسليم مُهجتي وعند انعقاد البيع قُرباً يواصل

فلمّا أردت الأخذَ بالشرطِ أعرضوا وقالوا: يصحُّ البيعُ والشرطُ باطلُ[3]

ويقرب من الاقتباسات الفقهية في التصرّف الاقتباسات النحويّة، وأول من اخترع ذلك أبو الطيّب المتنبّي حيث يقول مخاطباً سيف الدولة الحمداني:

تُفِيتُ الليالي كُلَّ شَيءٍ أخَذْتَهُ وَهُنَّ لما يَأْخُذْنَ مِنْكَ غوارِمُ

---

١. ديوانه، ص٤٦.

٢. الإحاطة، ج١، ص١٧٩؛ الديباج المذهب، ص٤٦؛ نظم الدر، ص٣٢٣.

٣. الإحاطة، ج١، ص١٨٤؛ نظم الدرّ، ص٣٢٣.

إذا كـانَ مـاتَنويهِ فِـعْلاً مُضارِعاً مَضى قَبْلَ أنْ تُلْقَى عليه الجـوازِمُ[١]

وقول البوصيري:

خـفضتَ كـلَّ مـقام بـالإضافة إذ نُوديتَ بالرفعِ مثلَ المفردِ العَلَمِ[٢]

وإيّاه تبع الحلّي حيث يقول:

خلتُ الفضائل بـينَ النـاس تَـرفعُني بـالابتداءِ فكـانتْ أحـرفَ القسـم[٣]

ومن أرشق ما جاء من هذا المعنى ما اتّفق لشرف الدين ابن عُنَيْن مـع المـلك المعظم ابن الملك العادل، وذلك أنّه كتب إليه وهو مريض:

انظر إليَّ بـعينِ مـولىً لم يَـزَلْ يُولي النَّدى وتلافَ قَبْلَ تَـلافي

أنا كـالذي أحـتاجُ مـا يـحتاجُهُ فاغنَمْ دُعـائي والثـناءَ الوافـي[٤]

فلمّا قرأ البيتين نهض إلى زيارته وحمل معه ألفَ دينار، فلمّا حلّ منزلَه وعايَنه، قال له. أنت كالذي، وهو موصولٌ يحتاج إلى صلة وعائِدٍ، فهذه الصِّلةُ، وأنا العائدُ، ودفع إليه ألف دينار.

ولقد أحسنَ ابن عنين فيما تلطّف به للصلة والعائد وأجادَ، وعامله المـلكُ فـي السبق إلى فهم مقصوده معاملة الجواد؛ إذ جاء بما يُستغرب من سيبويه ونظرائـه. فلذلك جعل ابن عُنين ديوانه مملوءاً بمدحه واطرائِهِ.

ومما جاء من علم الحديث قول ابن جابر

نـــقلَ المســـواكُ لي فـــيما روى أن ذاكَ الريـــقَ مِسْكٌ وَعَسَـلْ

قلتُ عَمَّن؟ قـال: عـن مَـبْسَمها قُـلْتُ: هـذا خـبر صـحَّ وجـل

---

١. ديوانه، ج ٢، ص٩٧ـ٩٨؛ نظم الدرّ، ص٣٢٥.

٢. ديوانه، ص١٩٧. والبيت من قصيدة البردة.

٣. ديوانه، ٤٧٩. من بديعته المسمّاة بالكافية البديعية.

٤. ثـمرات الأوراق، ج ١، ص٣٩؛ خـزانـة الأدب، ج ٢، ص ٤٧٥؛ مـعاهد التـنصيص، ج ٣، ص١٤٨؛ نـظم الدرّ، ص٣٢٨ و ٣٢٩.

مـذ تَـبدّىَ جـوهريُّ الثّغرِ لي   صحَّ في الحسني لدينا ما نقل[١]

وكقول تقيّ الدين بن دقيق العيد من أُصول الفقه

قـالوا فـلانٌ رجـلٌ عـالمٌ   فأكْـرِمُوهُ مثل ما يـرتضى

فـقلتُ لمّـا لم يكـن عـالماً   تَعارَضَ المانِعُ والمقتضيْ[٢]

ولبعضهم من البيان:

قد قـلت للـبدر التـمام مـنزها   عنه معذب مهجتي تنزيهاً[٣]

أشبهته لمـا استعرت جـماله   والاسـتعارة تـقتضي التشبيها

وللبعض الآخر من البديع:

وحـوراء العـيون إذا انجلت   لجـيش الهـمّ آذن بـالشتاتِ

إذا التـفتت أفـادتني نشـاطاً   وذلك وجه حسن الالتـفات[٤]

ومن الاقتباس من علم الكلام قول ابن جابر أيضاً

عَـرَضُ الحُبِّ دوُنَ جَـوهَرِ ذاكَ الثَّـ   ـغْرِ مِـنْ أعـظمِ المحالِ فَجُودي

أجـــمَعَ النـاظُرون فـي ذَاكَ أنْ لا   عَـرَضٌ دُونَ جَـوْهَرٍ فـي الوُجـودْ[٥]

ومن الاقتباس من علم المنطق قول الشاعر:

مُـقدّماتُ الرقـيبِ كـيفَ غَـدتْ   عـــند لقـاءِ الحـبيب مُـتَّصِلَةْ

تَـــمنعُنا الجَـمْعَ والخَـلُوَّ مـعاً   وإنّـــما ذاكَ حُكْـــمٌ مُـنْفَصِلَة[٦]

ومن الاقتباس من علم العروض قول شهاب الدين ابن صارو:

وَبِـي عَـرُوضيٌّ سـريعُ الجـفا   يَغَارُ غُصْنُ البانِ مـن عِـطْفِه

---

١. نظم الدر، ص٣٢٩.

٢. الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ج٢، ص١٣٥.

٣. المصدر، ج٢، ص١٣٥.

٤. المصدر، ج٢، ص١٣٦.

٥. معاهد التنصيص، ج٤، ص١٤٧، نظم الدر، ص ٣٣١.

٦. خزانة الأدب، ج٤، ص٣٩٥، نفح الطيب، ج١٠، ص٢٠٧؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص١٤٩؛ نظم الدّر، ص ٣٣١.

الوردُ مـــن وجـــنتهِ وافــرٌ لكـــنّه يَــمْنَعُ مــن قَــطْفِهِ[١]

والتضمين في الشعر ـ كما أشرنا إليه في مقدّمة البحث ـ هو استعارتك الإنصاف والأبيات من غيرك، وإدخالك إيّاه في أثناء أبيات قصيدتك، ولا يضرّ التغيير اليسير مع بقاء المعنى، ويسمّى تضمين البيت «استعانة»، وتـضمين النـصف مـن البـيت «إيداعاً» وقد يسمّونه «رفواً»، ثمّ محلّ التضمين قد يكون في أوّل البيت، وقد يكون في حشوه، وقد يكون في آخره.

قال ابن جابر الأندلسي مادحاً الرسول الأكرمﷺ:

نـامَ الخَـلِيُّ ولم أرْقُـدْ ولي زَجَـلٌ بِـذِكْرِهِ فـي ذُرا الوَخّـادَةِ الرُّسُـم[٢]

أقُـولُ: «يـا لَكَ مـن لَـيْلٍ» وأُنْشِـدُهُ بَيْتَ ابن حُجْرٍ وَفُجْري غَيْرُ مُبْتَسِمِ[٣]

فَــقُلْتُ للـرَّكْبِ لمّـا عَـلاَ بِـهمُ تَلَفُّتُ الطَّـرْفِ بَـيْنَ الضّالِ والسَّلَمِ[٤]

أَلَـمْحَةٌ مِـنْ سَنا بَـرْقٍ عـلى عَـلَمٍ أم نُوْرُ خَيْرِ الورى مِنْ جانبِ الخِيَمَ[٥]

أَغَـرُّ أَكْـمَلُ مَـنْ يَـمْشي عـلى قَـدَم حُسْناً وأَملح مَنْ حـاوَرْت فـي كَـلِمِ[٦]

---

١. نفح الطيب، ج٣، ص٤٣٢.

٢. فيه تضمين نصف بيت كان في الأصل عجزاً فصيّره صدراً وغيّره تغييراً يسيراً، وجعله بعض نـصف بـيت وهـو قول امرئ القيس:

تـــطاوَلَ لَـــيْلُكَ بـالأثمِدِ ونـــامَ الخَـــلِيُّ وَلَـمْ تَـرْقُدِ

الزجل: الصوت: ذرا: أعلى الشيء. الوخادة: الناقة، الرُسُم: جمع رَسُوم، وهي الناقة التي ترسّم في الأرض بخفّها.

٣. ضمّن في حشو النصف الأوّل من بيته قطعةً من صدر بيت امرئ القيس وهو:

فـيالَكَ مـن ليـلٍ كـأنَّ نُـجومَهُ بِكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُـدَّتْ بِـيَذْبُلِ

٤. فيه تضمين نصف بيت كان في الأصل صدراً، ووقع في التضمين كذلك، ولم يغيّر منه شيئاً، والبـيت للـقطامي وهو:

فَقُلْتُ للركبِ لَـمّا أنْ عَـلا بِـهِمُ مِنْ عَنْ يَمِينِ الحُبَيّا نَظْرَةٌ قُـبُلُ

٥. فيه تضمين بعض الصدر من بيت القطامي من غير تغيير، ووقع هنا صدراً كما كان في الأصل، والبيت:

أَلَمحَة مِنْ سَنا برقٍ رأى بَصَري أم وَجْه عالية اختالَتْ بِهِ الكِلَلُ

٦. فيه تضمين البيت بجملته، مع تغيير.

يـا حـادِيَ الرَّكْبِ إنْ لاحَتْ مـنازِلُهُ فاهتِفْ: ألا عِمْ صباحاً، وادنُ واسْتَلِمِ[١]

واسْمَحْ بِـنَفْسِكَ وابْـذُلْ فـي زيـارتِهِ كَرائِمَ المـالِ مِـنْ خَـيْلٍ وَمِـنْ نَـعَمِ[٢]

١. فيه تضمين بعض الصدر من مطلع قصيدة امرئ القيس و هو قوله:

ألا عِـمْ صَـباحاً أيُّـها الطَّـلَلُ البَـالي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخـالي

٢. فيه تضمين شطر بيت كان في الأصل عجزاً فوضعه كما كان، ولم يغيّر فيه شيئاً والبيت:

ماضٍ من العيشِ لَوْ يُفْدَى بَذَلْتُ لَهُ كرائِمَ المالِ مِنْ خَـيْلٍ وَمِـنْ نَـعَمِ

وهو للشريف الرضي.

التكميل

وهو التعقيب بجملة أو شبهها تُحسِّن المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

أي رحماء متواضعين للمؤمنين، أشدّاء متعزّزين على الكافرين.

فمن صفات المؤمن الكامل بقدر ما يكون لين الجانب، متواضعاً لأخيه، أن يكون متسربلاً بالعزّة حيال الكافرين. فإنّه لو اقتصر على أذلّة لتوهّم أنّه لضعفهم، فرفعه بقوله: «أعزّة».

وقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

أي يظهرون لمن عاداهم الشدّة والصلابة، ولإخوانهم في الدين الرحمة والرأفة. ولمّا كان المقام مقام الأمر بالغلظة على الكافرين أكمله بالرحمة بينهم ليطّرد شبح الفظاظة والغلظة عنهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3]. احتراس لئلّا يتوهّم نسبة الظلم إلى سليمان.

وكذا قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ

---

١. المائدة: ٥٤.

٢. الفتح: ٢٩.

٣. النمل: ١٨.

﴿يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾[١]. فالجملة الوسطى احتراس لئلّا يتوهّم أنّ التكذيب في نفس الأمر.

ونحو قول كثير عزّة:

لو أنّ عَـزَّةَ خـاصمت شـمس الضُّـحى   فـي الحُسـنِ، عـند مُـوفَّقٍ، لقـضى لهـا

فشبّه الجملة أعني «عند موفّق» هي التي حسنت المعنى.

والفرق بين التكميل والاحتراس أنّ هذا يزيل الالتباس والغموض عن المعنى، أمّا ذلك، فيجمله، ومنهم من لا يفرّق بينهما[٢].

والفرق بينه وبين التتميم أنّ التتميم يكون فيه المعنى أو الوزن ناقصاً فيتمّم. أمّا في التكميل، فلا نقص في المعنى.

وقال العلوي في الطراز: «إنّ التتميم إنّما يقال في شيء نقص ثـمّ تُـمِّم بـغيره، بخلاف التكميل؛ فإنّه تامٌّ لم ينقص منه شيء، خلا أنّه أُكمل بـغيره، فـصار الأوّل بالزيادة تامّاً، وصار الثاني بالزيادة كاملاً، وأمّا من جهة المعنى فإنّ التتميم إنّما يذكر من أجل رفع احتمال متوهّم، فلهذا افترقا»[٣].

ومن شواهد التكميل، ما أنشده النابغة بين يدي سيّد المرسلين ﷺ:

ولا خـيرَ فـي حـلمٍ إذا لم يكُـن لهُ   بـوادرُ تـحمي صَـفوهُ أن يُكـدّرا

ولا خـيرَ فـي أمـرٍ إذا لم يكـن لهُ   حكـيمٌ إذا مـا أورد الأمـرَ أَصـدرا

وقال أبو الطيّب:

أشدُّ مـن الريـاحِ الهـوجِ بـطشاً   وأسرعُ في النّـدى مـنها هُـبُوبا

جمع الشجاعة مع السخاوة، ولم يتجاوز فيه عن صفتي الريح.

---

١. المنافقون: ١.

٢. كالقزويني في الإيضاح، ص ١٥٦؛ الطيبي في التبيان، ص ٣٧٤.

٣. الطراز، ج٣، ص ١١٠ و ١١١.

وأخذه من قول أبي تمّام:

رياحٌ كريح العنبر الغَضِّ في الندى ... ولكنّها يوم اللقاء زعازعُ

وكذا قول كعب بن سعِد الغنوي:

حَليمٌ إذا ما الحِلْمُ زيّنَ أهْلَهُ ... مَعَ الحِلْمِ في عَيْنِ العَدُوِّ مَهيبُ

فلو اقتصر الشاعر على قوله: «حليم إذا ما الحلم زيّن أهله» لأوهم السامع أنّه غير وافٍ بالمدح؛ لأنّ كلّ من لا يعرف منه إلّا الحلم ربّما طمع فيه العدوّ.

ومامات منّا سيّد في فراشِهِ ... ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ

فلو اقتصر على قوله: «وما مات منّا سيّد في فراشه» لأوهم أنّهم صُبرٌ على الحروب والقتل دون الانتصار من أعدائهم، فلا جرم أكمله بقوله: «ولاطلّ منّا حيث كان قتيل» فارتفع ذلك الاحتمال المتوهّم وزال.

اللفّ والنشر

اللفّ: هو الذكر التفصيلي أو الإجمالي لمتعدّد، ثمّ يذكر الأمر المتعلّق من دون تعيينه، ثقة بأنّ السامِعَ يَرُدُّ كلّ واحد إلى ما يليق به، وهذا هو النشر.

ومن هذا التعريف يتّضح أنّ اللفّ والنشر ضربان:

١. ضرب يكون فيه المتعدِّد مفصّلاً، وهو نوعان:

الأوّل: أن يكون النشر على ترتيب اللفّ.

الثاني: ان لا يكون النشر على ترتيب اللف.

٢. ضرب يكون فيه المتعدّد مذكوراً على نحو الإجمال.

أمّا النشر المرتّب، فهو أن يكون الأوّل من النشر للأوّل من اللفّ، والثاني للثاني، وهكذا، وهذا القسم هو الأكثر وروداً وشهرة، ومنه، قوله تعالى: **﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾**[١].

فجمع بين الليل والنهار ـ بواو العطف ـ ثمّ أضاف إلى كلّ واحد منهما ما يليق به، فأضاف السكون إلى الليل؛ لأنّ حركات الخلق تسكن ليلاً لأجل النوم، ثمّ قال بعد ذلك «ولتبتغوا من فضله» مضافاً إلى النهار؛ لأنّ ابتغاء الرزق إنّما يكون نهاراً بالتصرّف والحركة.

---

١. القصص: ٧٣.

ولم يقل جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتبتغوا من فضله؛ إيثاراً لما يظهر في النشر بعد اللفّ من البلاغة وحسن التأليف،

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1].

فجعل الذكرى للّيل، والشكر للنهار، فإنّ مجرّد الانتقال والتغير من حال إلى حال يَدُلّ على ناقل ومغيّر عظيم القدرة، وكون ذلك الانتقال مؤدّياً إلى النفع العظيم من ابتغاء الفضل بالنهار والسكون بالليل يدلّ على منعم واسع النعمة، وهما يوجبان المعرفة والعبادة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2].

فإنّ قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾. كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾.

والمراد بالسائل هو السائل عن العلم كما فسّره مجاهد وغيره.

وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

وقد تحذف إحدى القرينتين من اللفّ لدلالة النشر عليه.

فإن فسّر «السائل» بسائل المعروف كان مقابل قوله: «وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ» وكان من النشر غير المرتّب وهو ما يعرف بالمشوّش ـ كما سيأتي ـ، أي المخالف لترتيب اللفّ، وهو ما درج عليه الكشّاف.

كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ

---

١. الفرقان: ٦٢.

٢. الضحى: ٥ ـ ١١.

إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[١].

أي يوم يأتي بعض آيات ربّك الموجبة للإيمان الاضطراري لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبل أن تؤمن حينئذ، ولا نفساً لم تكن كسبت في إيمانها خيراً وعملاً صالحاً أن تفعل ذلك بعد مجيئها لبطلان التكليف الذي يترتّب عليه ثواب الأعمال، إلّا أنّه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً للإيجاز والبلاغة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢].

أي يلومك الناس إن بخلت، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت، فاللوم راجع إلى البخل، والحسرة راجعة إلى الإسراف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾[٤].

النشر المرتّب في ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ حيث رجع الأوّل إلى ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٥].

---

١. الأنعام: ١٥٨.

٢. الاسراء: ٢٩.

٣. مريم: ٧٣.

٤. مريم: ٧٥.

٥. الإسراء: ١٧ ـ ٢٠.

في قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ نشر مرتّب، فهؤلاء الأولى للفريق الأوّل أي مريد الدنيا، وهؤلاء الثانية للفريق الثاني أي مريد الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[1] أي أنّ الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها للإنسان بعد الحياة الدنيا خير من زينة المال فيها ثواباً، وخير من البنين فيها أملاً، فهو نشر على ترتيب اللفّ.

وقول الإمام عليّ‌عليه السلام: «وما أَعَدّ اللّهُ للمُطيعينَ مِنْهُمْ والعُصاةِ مِنْ جَنَّةٍ ونارٍ، وَكَرامةٍ وَهَوانٍ»[2].

فقوله: «للمطيعين والعصاة». لفٌّ.

وقوله: (من جنة ونار) نشرٌ، وكذلك «كرامة وهوان» أراد الكرامة لأهل الطاعة، والهوان لأهل المعصية.

وقال الإمام عليّ‌عليه السلام: «أيّها الناس إنّ أخوف ما أخاف عليكم إثنتان: اتّباع الهوى، وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى، فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل، فينسي الآخرة».

وقال أبو تمّام:

وما هُوَ إلّا الوَحْيُ أو حَدُّ مُرهْفٍ ... تُميلُ ظُباهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مائِلِ

فَهذا دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عالِمٍ ... وَهذا دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جاهِلِ[3]

ومنه قول الشاعرة حميدة الأندلسيّة:

ولمّا أَبى الواشونَ إلّا فِراقَنا ... وليس لهم عندي وعندكَ مِنْ ثارِ

وَشَنُّوا على أسماعنا كُلِّ غارةٍ ... وقلّ حُماتي عند ذاكَ وأَنصاري

---

١. الكهف: ٢٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣ ـ ٤.

٣. شرح ديوان أبي‌تمام، ج ٢، ص ٢٢٩؛ المثل السائر، ج ٢، ص ٣١٣؛ أنوار الربيع، ج ١، ص ٣٤٥؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٩٩. الإيضاح، ص ٢٧٠ جعلهما شاهداً للتقسيم.

غـزوتُهُم مِـنْ مُـقْلتيك وأدْمُـعي ومن نفسي بالسيفِ والسَّيلِ والنارِ[1]

فأرجـعت «السـيف» إلى «مـقلتيك»، و «السـيل» إلى «أدمـعي»، «النـار» إلى «نفسي».

وقول ابن الرومي:

آراؤُكُـم وَوُجُـوهكم وَسُـيوفُكُمْ في الحادِثاتِ إذا دَجَوْنَ نُـجُومُ

فـيها مَـعَالِمُ لِلـهُدَى وَمَـصابِح تَجْلُو الدُّجى والأُخْرياتُ رُجُومُ[2]

وواوالضمير للحادثات، والمعالم ـ جمع معلم ـ وهو ما يستدلّ به على الطريق، وهذا يرجع إلى الآراء، والمصابح: جمع مصباح، والدجى ـ جـمع دجـيّة ـ وهـي الظلمة وهذا يرجع إلى الوجوه.

ومنه قول عليّ بن بشير الكاتب من شعراء اليتيمة

يـــامَنْ يَـــمُرّ ولا تـــمرُّ بـــه القــلوب مِـنَ الفَـرَقْ

بـــغمامة مـــن خَـــدّهِ أو خـــدّه مـــنها اســترق

فكـــــأنّهُ وكـــــأنّها قـــمر تــعمم بــالشفق

فـــإذا بـــدا وإذا انـثنى وإذا شـــدا وإذا نـــطق

شـغل الخـواطـر والجـوا رح والمسـامع والحـدق[3]

وقول ابن خفاجة

وَمُـهَفْهفٍ طـاوي الحَشـا خـنث المـعاطِف والنَـظرْ

مـــلأ العـــيون بِـــصُورَةٍ تـــليت مـحاسِنها سـورْ

فـــإذا رَنـــا وإذا مشـــى وإذا شَـــدا وإذا سَـــفَـرْ

فَـــضَحَ الغَـــزالة والغـــما مـــة والحـــمامة والقَـمَرْ

---

١. خزانة الأدب، ج٢، ص٦٢.

٢. الإيضاح، ص٥٠٣.

٣. التبيان للطيّبي، ص ٤٠٠؛ معاهد التنصيص، ج١، ص٢٢٣.

وأمّا النشر غير المرتّب وهو ما يعرف بالمشوّش، كقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1].

حيث جاء في اللفّ ذكر البياض قبل السواد، وأمّا في النشر، فجاء ذكر السواد أوّلاً.

وليس اللفّ والنشر المرتّب أبلغ ممّا هو غير مرتّب وممّا يسمّونه المشوّش إنّما يختلف ذلك باختلاف الكلام ومقطعه في بيان حال المؤمنين وجزائهم.

وقيل: إنّ نكتة ذلك بيان أنّ المقصود من الخلق الرحمة دون العذاب ولذلك بدأ بذكر أهل الرحمة وختم بذكر جزائهم، وأدمج ذكر الآخرين في الأثناء. والقول الأوّل ترجيح بحسب اللفظ، والثاني ترجيح بحسب المعنى. وممّا يقوى هذا أنّه تعالى ذكر أنّ أهل الرحمة خالدون يقوى هذا أنه تعالى ذكر أنّ أهل الرحمة خالدون فيها ولم يذكر أنّ أهل العذاب خالدون فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[2].

ذكر ابتغاء الفضل للثاني «النهار»، وعلم الحساب للأوّل «الليل» على خلاف الترتيب.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[3].

وتقديره: منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار. فصّل بالقرينتين الأخيرتين الأوّليتين؛ لأنّهما زمانان، والزمان والواقع فيه بمثابة شيء واحد مع إعانة اللفّ على الاتّحاد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۞ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ

---

١. آل عمران: ١٠٦ـ١٠٧.

٢. الإسراء: ١٢.

٣. الروم: ٢٣.

سَلَـٰسِلَاْ وَأَغْلَـٰلاً وَسَعِيرًا ۞ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[1].

قدّم أوّلاً ذكر الشاكر، ثمّ الكافر، ثمّ عاد بالذكر على الثـاني دون الأوّل، فـفيه لفّ و نشر مشوّش.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

«فتبرأ» بعضهم من بعض راجع لقوله: «إذ تبرّأ»، وإرائتهم شـدة العـذاب راجـع لقوله: ورأوا صحيحة العذاب. والمراد أنّه أراهم هذين الأمـرين عـقوبة لهـم عـلى اتّخاذهم الأنداد للّه، فكما عاقبهم على عقائدهم عاقبهم على أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۞ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّـاعَةَ قَآئِمَةً وَلَـئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَـيْرًا مِّـنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِـن نُّـطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً ۞ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۞ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَـلَبًا﴾[3].

حاصل ما قاله الكافر ثلاث مقالات شنيعة وهي:

١. أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً.

٢. عندما دخل جنّته متكبّراً مزهواً ظالماً لنفسه، قال وقد أخذه الغرور: ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً.

---

١. الانسان: ٣ ـ ٥.

٢. البقرة: ١٦٦.

٣. الكهف: ٤١.

٣. قوله: ما أظنّ الساعة قائمة...

فأجاب صاحبه مبتدئاً بالثالثة؛ لأنّها الأهمّ قائلاً: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ﴾. وثنى بالثانية ناصحاً؛ لأنّها تأتي في المرتبة بعدها فقال: «ولو لا اذ دخلت جنتك...» وثلث بالأولى موبّخاً فقال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ * فَـَٔاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فقد جمع اتّباع الرسل في دعائهم عند لقاء العدوّ بين أسباب الفوز في الدنيا والآخرة وقد ذكر اللّه تعالى دعاءهم على سبيل التفصيل، ثمّ ذكر الإجابة من غير تعيين وقدّم ثواب الدنيا مع تأخّره في الدعاء لمّا كان المقام مقام القتال والنفوس متطلّعة إلى النصر، وخصّص ثواب الآخرة دون ثواب الدنيا بالحسن للإيذان بفضله ومزيّته وأنّه المعتدّ به عند اللّه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ...﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[4].

---

١. آل عمران: ١٤٧ و ١٤٨.

٢. سبأ: ٩.

٣. النساء: ٥٥ ـ ٥٧.

٤. الحجر: ٦ ـ ٨.

وقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ...﴾ ردًّا على مقالتهم الثانية وهي: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾. أمّا ردّه على مقالتهم الأولى وهي: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ فهو قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

وقال الشاعر:

ولحظُهُ ومحيّاه وقامته ... بدر الدُّجى وقضيب البان والرّاح[1]

فبدر الدُّجى: راجع إلى «المحُيّا» الذي هو الوجه، و «قضيب البان» راجع إلى «القامة»، والراح راجع إلى اللحظ بمعنى أنّ عيني الحبيب تسكران.

وقال آخر:

قَسَمْتَ صُروفَ الدَّهرِ بَأْساً ونَائِلاً ... فَمالُكَ مَوْتُورٌ، وَسَيْفُكَ وَاتِرُ[2]

وقال ابن حَيُّوس:

كَيْفَ أَسْلُو وَأَنْتَ حِقْفٌ وَغُصْنٌ ... وَغَزالٌ: لَحْظاً، وَقَدّاً، وَرِدْفا[3]

فاللحظ للغزال، والقدّ للغصن، والردف للحقف ـ وهو الرمل المتراكم. والمعنى: كيف أسلو عنك وهذه الصفات الموجبة لشهادة العشق كلّها مجموعة فيك.

المتعدّد المجمل

وهو أن يأتي المتعدّد مجملاً، ثمّ يؤتى بإجزاء هذا المتعدّد ولا يتصوّر في هذا القسم ترتيب ولا عكس، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾[4].

فذكر الفريقين من خلال الضمير في «قالوا» عن طريق الإجمال دون التفصيل،

---

١. الطراز، ج٢، ص٤٠٥ و ٤٠٦.

٢. البيت لمحمد بنُ رُهَيْبٍ الحميري، انظر: التبيان، ص ٤٠٠؛ معاهد التنصيص، ج١، ص ٢٢٠.

٣. المصباح، ص٢٤٤؛ الايضاح، ص٢٦٩؛ الاشارات، ص٢١٩؛ الصناعتين، ص٣٤٧؛ التبيان، ص ٤٠٠؛ شرح عقود الجمان، ص١١٨؛ أسلوا: أنسىٰ و تطيب نفسي، حقف: رمل متراكم مستدير؛ ردفاً: عجيزة.

٤. البقرة: ١١١.

ثمّ ذكر ما لكلّ منهما، والأصل: قالت اليهود لن يدخل الجنّة إلّا من كـان هـوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلّا من كان نصرانيّاً، فلفّ بينهما لعدم الالتـباس، وللثقة بأنّ السامع يرد إلى كلّ فريق قوله. وإنّما سوّغ الإجمال في اللفّ ثبوت العناد بين اليهود والنصارى، فوثق بالعقل في أنّه يرد كلّ قولٍ إلى قائله.

وقال الرسول صلى الله عليه وآله: «فإِنَّ المَرْءَ بين يَومين: يومٌ قد مَضى أُحْصِيَ فيهِ عَمَلُهُ فَـحُتِّمَ عليهِ، وَيَوْمٌ قد بَقِيَ لا يدري لَعَلَّهُ لا يصلُ إليهِ».

فقوله: «بين يومين» يكون من اللفّ؛ لاشتمالهما على ما يكون ماضياً ومستقبلاً، وهذا هو فائدة اللفّ. ثمّ نشرهما بعد ذلك بقوله: «يوم قد مضى أحصى فيه عمله»، فهذا يتناول الماضي و «يوم قد بقي لا يدري ما يفعل فيه» وهذا يتناول المستقبل.

ولو لم يرد اللفّ والنشر لقال فيه، «أنّ المرء بين يوم قد مضى ويوم قـد بـقي» ولو كان على هذه الصورة لم يكن من هذا الباب في وردٍ ولا صدرٍ.

ومنه قوله صلى الله عليه وآله أيضاً: «إنّما يؤتىَ الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث: إمّا من شُبهةٍ في الدين ارتكبوها، أو شهوةٍ للذّةٍ آثَرُوها، أو عَصَبيّةٍ لحميّةٍ أَعملوها، فإذا لاحَتْ لكم شُبهةٌ فأَجْلُوها باليقين، وإذا عرضَتْ لكُم شَـهْوَةٌ فـأَقْمَعُوها بـالزُّهدِ، وإذا عَـنَّتْ لَكُـمْ عصَبيّةٌ فادْرأُوها بالعفو».

وقال عليه السلام: «اليومَ توافَقْنا على سَبيلِ الحَقِ والباَطِلِ»[1].

إذ التقدير نحن متوافقون على سبيل الحقّ، وأنتم متوافقون على سبيل الباطل.

وقال عليه السلام: «الناسُ ثلاثةٌ: فعالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ على سَبيلِ نَجاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتباعُ كُلِّ ناعِقٍ»[2].

وقد يكون الإجمال في النشر لا فـي اللـفّ بـأن يـؤتى بـمتعدّد، ثـمّ بـلفظ يشتمل عليه يصلح لهما كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٤ ـ ٦.

٢. المصدر، قصار الحكم ١٤٧ ـ ٢.

ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾[١].

على قول أبي عبيدة: إنّ الخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل.

ومن غريب اللفّ والنشر أن يذكر متعدّدان أو أكثر ثمّ يذكر في نشر واحد ما يكون لكلّ من أحاد كلّ من المتعدّدين، كما تقول: الراحة والتعب، والعدل والظلم قد سدّ من أبوابها ما كان مفتوحاً، وفتح من طرقها ما كان مسدوداً.

فقولك: «قد سدّ من أبوابها ما كان مفتوحاً» راجع للراحة من اللفّ الأوّل، والعدل من اللفّ الثاني.

وقولك: «وفتح من طرقها ما كان مسدودً» راجع للتعب من اللفّ الأوّل وللظلم من اللفّ الثاني.

فالشق الأوّل من النشر راجع للأوّل من كلّ من اللّفين، والشقّ الثاني منه راجع للثاني من كلّ من اللّفين، فالمعنى سدّ من أبواب الراحة والعدل ما كان مفتوحاً وفتح من أبواب التعب والظلم ما كان مسدوداً.

محاسن اللفّ والنشر

ومن محاسن هذا الفنّ البديعي أنّه يضاعف فعاليّة الذهن؛ إذ ينثر أمامه مجموعة أشياء يتّصل بكلّ منها شيء، لكنّه يُبهم عليه أوّل الأمر نسبة الشيء إلى أصله، فيدعه يترقّب وراء هذه المعرفة بشوق، حتى إذا استطاع الذهن تحصيل العلاقة بين كلّ فرد من أفراد المتعدّد والشيء المتّصل به أدركته بهجة التعرّف ولذّة التوصّل، والأمر هنا لا يختلف كثيراً عمّا يحدث عندما يرى أحدنا إثنين لا يعرفهما لصديقين من أصدقائه، ثمّ يأخذ في التفرّس والتعرّف إلى إن يتمكّن من أن ينسب كلّاً منهما إلى صديق من أصدقائه، فإذا أفلح في ذلك أدركته نشوة خاصّة.[٢]

---

١. البقرة: ١٨٧.

٢. الكافي في علوم البلاغة، ص٥٨٨.

التسميط

والسمط لغةً: هو خيط القلادة ما دام فيه الخرز، ومنه جعلوا القافية كـالسمط والأجزاء المسجّعة بمنزلة حبّ العقد، كالقلادة المفصلة بالجواهر المتناسبة.

واصطلاحاً: هو أن يجعل الشاعر البيت أجزاء عروضيّة مقفّاة عـلى غـير رويّ القافية، نحو قول مروان بن أبي حفصة:

هُمُ القومُ إنْ قالُوا أَصابُوا، وإنْ دُعُوا — أجابُوا، وإِنْ أعْطُوا أَطـابُوا وأَجْـزَلُوا[1]

فجعل الشاعر البيت على أربعة أقسام ثلاثة منها على سجع واحد، مع مراعـاة القافية في الرابع.

وذكر المصري للتسميط مثالاً من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[2].

كما ذكر ابن قيم الجوزيّة له عدّة أمثلة: منها: قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[4].

---

١. شعر مروان بن أبي حفصة، ص ٥٥؛ حسن التوسل، ص ٢٧٢؛ سر الفصاحة، ص ١٨٢؛ الصناعتين، ص ١٠٣؛ العمدة، ج ١، ص ٦٥٩؛ طبقات الشعراء، ص ٨٣؛ المصباح، ص ١٩٩، والبيت من قصيدة يمدح بها مَعنَ بن زائدة الشيباني. وضمير الجماعة يعود على «بني مطر» في بيت سابق. وعدّ ابن رشيق هذا البيت شاهداً للإيغال.

٢. الإسراء: ٥.

٣. التكوير: ١ و ٢.

٤. التكوير: ٥.

وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ * ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٤].

فأتت بعض أجزا البيت السابق مسجّعة على خلاف قافيته، لتكون القافية بمنزلة السِّمط، والأجزاء المسجّعة بمنزلة حبّ العقد، لكون التسميط يجمع حبّ العقد ويربطه.

ومن التسميط نوع آخر يسمّى «تسميط التقطيع» وهو أن يكون سجع إو أن يجعل سجع جميع أجزاء التفعيل على رويّ يخالف رويّ القافية. كقول المصري:

وَأَسْمَرَ مُثْمِرٍ، بِمزْهِرٍ نَضِرٍ مِنْ مُقْمِرٍ مُسْفِرٍ، عَنْ مَنْظرٍ حَسَنِ

فجاءت سجعة جميع أجزاء «التفعيل» في هذا البيت على خلاف سجعة الجزء الذي هو قافية البيت[٥].

وقال التبريزي: «التسميط اعتماد الشاعر تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع، أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف والتمثيل، وسمّي تسميطاً تشبيهاً

١. التكوير: ١٥.

٢. الانفطار: ١ و ٢.

٣. الانشقاق: ١.

٤. الفوائد، ص ٣١٣ و ٣١٤ والآية في الرحمن: ٦.

٥. تحرير التحبير، ص ٢٩٥ و ٢٩٦؛ خزانة الحموي، ج٤، ص٣١٩؛ شرح عقود الجمان، ص ١٨٤؛ المصباح، ص ١٩٩؛ انظر: المعجم المفصل، ج١، ص٣٨٧؛ معجم النقد، ج١، ص ٢٩٠.

بالمسمّط في نظمه»[١]، كقول أمرئ القيس:

مكَـــرٍّ مـــفَرٍّ مُـقْبلٍ مُـدْبرٍ مـعاً كجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[٢]

فقوله: «مكرّ مفرّ» اللفظتان مسجوعتان في تصريف واحد، وقوله: «مقبل مدبر» لفظتان شبيهتان بالأوُليين في التعديل والتمثيل، والمراد أن تكون الأجزاء متوالية، أو أن تكون مسجوعة.

وقسّمه ابن مالك إلى ضربين: وهما:

الأوّل: تسميط التقطيع، كقول أمرئ القيس

أفـادَ فسـادَ وقـادَ فـذادَ وشادَ فجادَ وعادَ فأفضلَ[٣]

الثاني: تسميط التبعيض، كقول مروان بن أبي حفص الذي سبق ذكره.

فالضرب الأوّل هو أن يسجع جميع أجزاء التفعيل على رويّ يـخالف القـافية. والضرب الثاني أن تاتي بعض أجزاء.

وفي الضرب الثاني أتت بعض أجزاء البيت «الثاني» على خلاف قافيته.

ومنه ما سجعه مدمّج، كقول الخنساء:

حـامي الحـقيقة مـحمودُ الخـليفة مَـيْـ ـــمون الطـــريقة نـــفّاعٌ وضـرَارُ

جـــواز قـــاضيةٍ جـــزّاز نـــاصيةٍ عـــقّادِ ألويـــةٍ للـــخيلِ جَـــرّارُ[٤]

التقسيم في البيت الأوّل رباعيّ لكنّه غير متماثل في الوزن، داخل البحر الواحد.

---

١. الوافي، ص ٢٩٢، السمط: هو أن تجمع عدّة سُلُوك في ياقوتة أو خَرَزة ثمّ تَنْظِم كُلّ سلك منها على حدته باللؤلؤ يسيراً، ثمّ تجمع السلوك كلّها في زبرجدة أو شِبهه، أو نحو ذلك، ثمّ تنظم أيضاً كلّ سلك على حدته وتصنع به كما صُنع أوّلاً إلى أن يتمّ السمط. العمدة، ج ١، ص ٣٣٤.

٢. ديوانه، ص١٣٣؛ قانون البلاغة، ص ١٣٨؛ رسائل البلغاء، ص ٤٥٦.

٣. المصباح، ص١٩٩؛ تحرير التحبير، ص ٣٨٦؛ المعيار، ص ٨٣؛ العقد الفريد، ج ٥، ص٤٨٣؛ العمدة الوساطه، ص ٣٣٨؛ شرح عقود الجمان، ج ٢، ص ١٨٤.

٤. المصباح، ص ١٩٩ و ١٧٢؛ ديوان الخنساء، ص ٨١؛ المثل السائر، ج ١، ص ٢٨٠؛ الطراز، ج ٣، ص ٤١؛ الصناعتين، ص٣٧٨؛ شرح عقود الجمان، ج ٢، ص١٨٢؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٠٤؛ عيار الشعر، ص٦٧.

وفي البيت الثاني تقسيم رباعيّ متماثل في الوزن، وفي قافية الأشطار الثـلاثة الأولى التي جاءت مخالفة لقافية البيت.

وقال المدني: «هو عبارة عن أن يجعل الشاعر البيت من قصيدة أو كلّ بيت منها أربعة أقسام، ثلاثة منها على سجع واحد مع مراعاة القافية في الربع»[١].

ومن أمثلته قول جنوب الهذليّة:

وَحَـرْبٍ وَرَدْتُ وَثَـغْرٍ سَدَدْتُ وَعِـلْجٍ شَـدَدْتُ عـليهِ الحِبالا
ومـالٍ حَـوَيْتُ وخَـيْلٍ حَـمَيْتُ وَضَـيْفٍ قَـرَيْتُ يَخافُ الوِكالا[٢]

أو «أن يأتي الشاعر بأربعة أبيات على قافية، ثمّ يأتي ببيت على خلاف تـلك القافية، ثمّ يأتي بخمسة أبيات على قافية أخرى، ثمّ يعود فيأتي ببيت على قـافية البيت الأوّل، وهكذا إلى آخر الشعر»[٣]، كقول امرئ القيس يصف رجلاً قتله:

ومُسْتَلْئِمٍ كَشَّـفْتُ بـالرُّمْح ذَيْـلَهُ أَقَمْتُ بِعَضْبٍ ذي سَفاسِفَ مثله
فَجَعْتُ به في مُلْتَقى الحيِّ خـيلهُ تَركْتُ عِتاقَ الطيرِ تَـحْجِلُ حَـوْلَهُ
كأنَّ على سِرْبالهِ نَضْحَ جَرْيالِ[٤]

أو أن يأتي الشاعر بخمسة أبيات، ثمّ يأتي ببيت على خلاف تلك القافية، وهكذا إلى آخر القصيدة، كقول الشاعر:

يـا خـليلّي اسْـقياني بـالزُّجاجِ حَـلَبَ الكَرْمةِ مـن غـير مِـزاجِ
أنـــا لا أَلْـــتَذُّ سَـمْعاً بـاللَّجاجِ فـاسْقنيها قَـبْلَ تَـغْرِيدِ الدَّجـاجِ
قـبل أَن يُـؤْذِنَ صُـبْحِي بـانْبلاجِ إن أرَدْتَ الرَّاح فاشْربها صَـباحا[٥]

---

١. أنوار الربيع، ج٦، ص ١٩٠؛ وينظر نفحات الأزهار، ص ١٣١.

٢. الحماسة البصرية، ج ١، ص٣٢٥؛ ديوان الهذليين، ج٣، ص١١٣؛ اعلام النساء، ج ١، ص١٨٢.

٣. البرهان في وجوه البيان، ص ١٦١.

٤. انظر: الطراز، ج٣، ص٩٧ و ٩٨؛ أنوار الربيع، ج٦، ص١٩٦.

٥. المصدر، ج٣، ص٩٨.

وربّما كان التسميط بأقلّ من أربعة أقسام، كما قال أحدهم:

خَـيالٌ هـاجَ لي شَـجَنا فَـبِتُّ مُكـابِداً حَـزَنَا
عَـمِيدَ القَـلْبِ مُـرْتَهنا بـذكر اللَّـهْوِ والطَّـرَبِ
سَـبَتْني ظَـبْيةٌ عُـطُلُ كَـأنَّ رُضـابها عَسَـلُ
يَـنُوؤُ بـخصرها كَـفَلُ نَـبيل رَوادِفِ الحُـقُبِ
يـجول وشـاحُها قـلقا إذا مـا أُلبستْ شـفقا
رقـاق العـصب أو سـرقا مـن المـوشية القُشبِ
يـمجُّ المسك مـفرقُها ويُـصبي العـقلَ مـنطقُها
وتـمُسي مـا يـؤرِّقها سـقامُ العـاشق الوصبِ[1]

والفرق بين التسميط والتسجيع، كون أجزاء التسميط لا يلزم فيها أن تكون على رويّ البيت، وكون أجزاء التسجيع متّزنة، فيكون عددها محصوراً.

أمّا أجزاء التسجيع، فيلزم فيها أن تكون على رويّ البيت، وقد يأتي المتكلّم في أجزاء كلامه أو في بعضها بأسجاع غير متّزنة بزنة عروضيّة، ولا محصورة في عدد معيّن، كقول أبي تمّام:

تجلّى به رشدي وأثرت بـه يـدى وفاض به ثمدي وأورى به زنـدي

والفرق بين التسميط والتفويف هو أنّ الأخير عبارة عن اتيان المـتكلّم بـمعان متلائمة شتّى من المدح والغزل وغير ذلك من الفنون، كلّ فن في جملة من الكلام، منفصلة عن أختها مع تساوي الجمل في الأوزان، أي في جمل مستوية المقادير أو متقاربتها، كقول النابغة:

وأعـظم أحـلاماً وأكـبر سـيداً وأفضل مشفوعاً وأكرم شافع

---

١. لسان العرب، مادّة «سمط»؛ انظر: العمدة، ج ١، ص٣٣٣. الشجن: الحزن، كابد الحـزن: قـاساه، عـميد القـلب: متعبه. سباه: أسره بجماله وحيّره، ظبية عُطُل: تستغني عن الزينة، الرضـاب: الريـق، الكـفل: العَـجُز، الروادف: الأعجاز. الحُقُب: جمع حِقاب، ماتشدّه المرأة على وسطها وتعلّق به الحَليّ.

ولقد أورد ابن قيم الجوزيّة بعض الشواهد القرآنيّة للتسميط[١]، فأراد أن يـجعل بعض آيات القرآن في قوالب شعريّة مسمّطة، فتأمّلناها، فلم نجدها تَمّتُ بصلة إلى التسميط بأيّ شكل من الأشكال.

وللتسميط معنى آخر يكون في الموشّح وفي الدوبيت (الرباعي)، وفي كلّ فنون الشعرمن الفصيح والعامي الذي يمتاز بكثرة السجع بين فواصله، كقول الشاعر:

تُمَجِّدُ ذِكْرَ الجدُودِ الأوَل ونبني كما أَثلَّوُا فـي الدُّوَل

ولسنا نُبالي حلول الأجَـل إذا ما مشينا كأُسْدِ العرين

---

١. الفوائد، ص ٣١٣.

الاتّساع

الاتّساع لغةً ـ مصدر «اتَّسَعَ» يقال:اتّسَعَ الشيءُ: رَحُبَ وامتَدَّ.

والاتّساع اصطلاحاً: هو الإتيان بكلام يمكن تفسيره: تفسيرات مختلفة، كقوله تعالى:

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾[1].

فقد اتّسع التأويل في هاتين اللفظتين على ثلاثة وعشرين قولاً:

منها: أن يكون الزوج والفرد من العدد، أو هما كلّ ما خلقه الإنسان، أو أنّ الشفع هو الخلق؛ لكونه أزواجاً، والوتر هو اللّه تعالى وحده، أو هما الصلاة؛ لأنّ فيها شفعاً ووتراً وهكذا[2].

وقال ابن رشيق: «الاتّساع هو أن يقول الشاعر بيتاً يتسّع فيه التأويل؛ فيأتي كُلُّ بمعنىً، وإنّما يقع ذلك؛ لاحتمال اللفظ، وقوّته، واتّساع المعنى»[3].

وقال المصري: «هو أن يأتي الشاعر ببيت يتّسع فيه التأويل على قدر قِوىٰ الناظر فيه، وبحَسَبِ ما تحتمله ألفاظه»[4].

---

١. الفجر: ٣.

٢. ينظر: أنوار الربيع، ج٦، ص٥٣ وما بعدها.

٣. العمدة، ج٢، ص٧١٦.

٤. تحرير التحبير، ص٤٥٤؛ بديع القرآن، ص١٧٣.

وقال السبكي: «هو كلّ كلام تتّسع تأويلاته، فتتفاوت العقول فيها؛ لكثرة احتمالاته، لنكتة ما كفواتح السور»[١].

وقال الحموي: «هذا النوع، أعني الاتّساع، يتّسع فيه التأويل على قدر قِوىٰ الناظم فيه، وبحسب ما تحتمل ألفاظه من المعاني»[٢].

وقال المدني: «وهذا النوع عبارة عن أن يأتي المتكلّم في كلامه ـ نثراً كان أو نظماً ـ بلفظ فأكثر يتّسع فيه التأويل بحسب ما يحتمل من المعاني»[٣].

وهذه التعريفات ترجع إلى ما بدأه ابن رشيق وقرّره المصري، وهي تشير إلى أنّ الاتّساع يشمل الشعر والنثر[٤].

وكان ابن جنّي قد سمّى هذا الفنّ بـ «توجّه اللفظ الواحد إلى معنيين إثنين»[٥] وعقد له باباً وقال: إنّه في الكلام على ضربين:

الأوّل: ـ وهو الأكثر ـ أن يتّفق اللفظ ألبتّة ويختلف في تأويله نحو قولهم: «هذا أمر لا ينادى وليده» فاللفظ غير مختلف فيه، لكن يختلف في تفسيره.

الثاني: ـ وهو الأضيق ـ الذي ترى لفظه على صورة ويحتمل أن يكون على غيرها، ومن ذلك بيت المثقب العبدي:

أفاطمُ قبلَ بينكِ نَوّليني ... ومَنْعُكِ ما سألتُ كأن تَبيني

أي: منعك كبينك وأنت كنت مقيمة[٦].

ومن أمثلة الاتّساع الشعريّة قول أمرئ القيس:

---

١. عروس الأفراح، ج٤، ص٤٦٩.

٢. خزانة الأدب، ج٤، ص٢٦٦.

٣. أنوار الربيع، ج٦، ص٥٣.

٤. معجم المصطلاحات البلاغية وتطورها، ص ٢٨.

٥. الخصائص، ج٣، ص١٦٤.

٦. انظر: الاتّساع في معجم النقد العربي، ج١، ص٨٥ و ٨٧. البين: الفراق، نوّليني: متّعيني. أي إذا لم تجبني إلى ما طلبت منك فكأنّك قد فارقتني.

إذا قــامتا تَـضَوَّعَ المِسْكُ مِـنْهُما نَسِيمُ الصَّبا جاءَتْ بِـرَيّا القَـرنْفُلِ

فقد قيل في تفسيره: تضوّع المسك منهما بنسيم الصبا، كما قيل: انتشر المسك انتشار نسيم الصبا، كما قرئ المسك في البيت بفتح الميم وهو بمعنى: الجلد[1].

وكقول الشاعر:

بـيضٌ مـفارِقُنا تَـغْلي مَـراجِـلُنا نـأسوا بـأموالنـا آثار أيـدينا

فالاتّساع في قوله: «بيض مفارقنا»: فقيل: أراد بذلك الطهارة والعفاف، كقولهم: أبيض العرض والشيم والحسب، وقيل معناه: نحن أصـحاب حـروب قـد شـابت مفارقنا من كثرة الشدائد، إلى غيرهما من المعاني.

وباب الاتّساع واسع يجول في تأويله النقّاد والمفسّرون، وفي ذلك حريّة عظيمة وتفنّن في القول[2].

---

١. المعجم المفصل في اللغة والأدب، ج١، ص٤٠، تضوّع: انتشر فوحه، ريـاً: رائـحة طـيبة. و روايـة الديـوان ص١٢٩:

إذا التفتت نحوي تضوّع ريحها نَسِيمَ الصبا جاءت بريّا القَرَنْفُلِ

٢. المعجم النقدي العربي، ج١، ص٨٨.

إرسال المثل

وهو أن يأتي المتكلّم في أثناء كلامه بحكمة تجري مجرى المثل، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[7].

---

١. البقرة: ١٧٩.

٢. النساء: ١٢٣.

٣. البقرة: ١٧٥.

٤. النجم: ٥٨.

٥. الإسراء: ٧.

٦. البقرة: ١٣٨.

٧. النمل: ٨٨.

وقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢].

وامتازت صيغ الأمثال القرآنيّة بأنّها لم تنقل عن حادثة معيّنة، أو واقعة متخيّلة، أعيدت مكرَّرة تمثيلاً، وضرب موردها تنظيراً، وإنّما ابتدع المثل القرآني ابتداعاً. وبلا مورد سبقه، فهو تعبير فنّي جديد ابتكره القرآن حتى عاد صيغة منفردة في الأداء والتركيب والإشارة.

وللرسول ﷺ كلمات قصار وحكم نافعة جرت مجرى الأمثال فاق فيها أمثال العرب وحكمهم، وأتى فيهما بما تنقطع دونه أنفاسهم، وتكبو فصاحتهم وبلاغتهم وبيانهم: منها: كقوله ﷺ: «لا يُلْدَغُ المؤمِنُ من جُحْرٍ مَرّتين»[٣].

وقوله: «لا يَكُونُ ذو الوَجْهين وَجيهاً عِنْدَ اللّهِ»[٤].

وقوله: «أنمّا الأَعمالُ بالنيّاتِ، وإنّما لِكُلِّ امرئٍ مانوى».

وقوله: «دَعْ ما يُريبكَ إلى ما لا يُرِيبكَ».

وقوله: «الكلمة الطيّبة صدقة».

وقوله: «ماتَ حَتْفَ أَنْفَهُ»[٥].

وقوله: «إياكُم وخضراءَ الدِّمَنْ»[٦].

وللإمام عليّ عليه السلام أمثال سائرة هي عصارة فكره وخبرته في الحياة، وما استقاه من المكارم والفضائل الإسلاميّة من دوحةِ النبوّة وينبوعها المتفجّر، وما لعبته عبقريّته الفذّة في عمليّة الخلق والإبداع الفنّي؛ لتقديم النماذج المثاليّة التي تتّسم بصدق

---

١. آل عمران: ٩٢.

٢. المدثّر: ٣٨.

٣. يضرب مثلاً للحذر والتوقّي.

٤. يضرب مثلاً لعاقبة المنافق.

٥. يضرب مثلاً لمن مات على فراشه.

٦. يضرب مثلاً للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ في منبت السوء.

التعبير، ونصوع الحقّ، وجلاء الحقيقة: منها: قولهﷺ «الشاهد يرى ما لايراه الغائب».

قولهﷺ: «هَلَكَ امرؤٌ لا يَعرِفُ قَدرَهُ»[١].

«الغالِبُ بالشَّرِ مغلوب»[٢].

«التقى رأس الأخلاقِ»[٣].

«مَن صَارَعَ الحقَّ صَرَعَهُ»[٤].

«لسانُ العاقِلِ وراءَ قَلبِهِ، وَقَلب الأحمَق وَراءَ لسانِهِ»[٥].

«مَن لانَ عُودُهُ كَثُفَت أغصانُه»[٦].

«القناعة مالٌ لا يَنفَدُ»[٧].

«المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانِهِ»[٨].

«قيمةُ كلّ امرئ ما يحسنه»[٩].

وقالﷺ:

كُنْ ابنَ من شِئْتَ وَأكْتَسِبْ أدباً ... يُغْنيكَ محمُودُهُ عَنِ النسبِ

إنَّ الفتى مَنْ يَقوُلُ ها أنا ... ليسَ الفتى مَنْ يَقوُلُ: كان أبى

ليسَ الجمالُ بأثوابٍ تُزيِّنُنا ... إنَّ الجمالَ جمالُ العلمِ والأدبِ

ليسَ اليَتيمُ الذي قَدْ ماتَ والِدُهُ ... إنَّ اليتيمَ يَتيمُ العِلْمِ والأدَبِ

---

١. نهج البلاغة، قصار الحكم ١٤٩.

٢. المصدر، قصار الحكم ٣٢٧.

٣. المصدر، قصار الحكم ٤١٠.

٤. المصدر، قصار الحكم ٤٠٨.

٥. المصدر، قصار الحكم ٤٠.

٦. المصدر، قصار الحكم ٢١٤.

٧. المصدر، قصار الحكم ٥٧.

٨. المصدر، قصارالحكم ١٤٨.

٩. المصدر، قصارالحكم ٨١.

وقول النابغة:

ولست بـمُستبق أخـاً لاتَـلُمه … على شَعَث أيُّ الرجالِ المهذّبُ؟

وقول الشاعر:

إذا أنت لم تَشْـرَبْ مِراراً علـى القَذَى … ظَـمِئْتَ، وأيُّ النـاسِ تَـصْفُو مشـارِبُه

وقول امرئ القيس:

إذا المـرءُ لم يَخْزن عليه لِسانَهُ … فـليسَ على شَيءٍ سِواهُ بخزّانِ

وقول الأفوه الأودي:

لايَصْلُحُ النـاسُ فوضى لاسُراةَ لهم … ولا سُـراةَ إذا جُـهّالُهُمْ سـادوا

وقال أبو نواس:

وَنَـحْنُ أُنـاسٌ لا تَوسُّطَ بيننا … لنـا الصَّدرُ دونَ العالمينَ أو القَبْرُ

يَـهُونُ عـلينا في المعالي نُفوُسُنا … وَمَنْ يخَطْب الحَسْناءَ لم يُغْلِه المَهْرُ

وقول لبيد:

ومـا المالُ والأهلونَ إلّا وديعةٌ … ولابُـدَّ يـوماً أنْ تُـرَدَّ الودائـعُ

وقول بشّار:

إذا كُنتَ في كلِّ الأُمورِ مُعاتباً … صـديقَكَ لم تَلوَ الذي لاتُعاتِبُهْ

وقال أبو العلاء:

فإن كُنتَ تَهْوى العَيْشَ فابْغِ توسُّطاً … فَـعِنْدَ التـناهِي يَـقْصُرُ المُتطاولُ

تَـوَقَّى البُدُور النَّقْصَ وَهِي أَهِلَّةٌ … وَيُـدْرِكُها النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوَامِلُ

وقال ابن نباتةُ:

وَهَـلْ يـنفعُ الفتيان حُسنُ جسومهم … إذا كـانت الأَعْـراضُ غـيْرَ حِسَـانِ؟

فلا تَـجْعَلِ الحُسْـنَ الدليلَ على الفَتى … فـما كُـلُّ مَـصْقُولِ الحـديد يـمَانِ

وقول أبي العتاهيّة:

إنَّ الشـبابَ حُجَّةُ التصابي … روائـحُ الجـنّة في الشبابِ

ومن أقوال المتنبّي:

صَـبْراً بـني إسْـحاق عَـنْهُ تَكَرُّماً إنَّ الَـعظِيمَ عـلى العَـظِيمِ صَـبُورُ

والَــهمُّ يَـخْتَرِمُ الجَسِـيم نَـحافةً ويُشـيبُ نـاصيةَ الصَّـبيِّ ويُـهْرِمُ

وكُلَّ شَجاعَةٍ فـي المـرءِ لعـل تُـغنى ولا مِـثْلُ الشـجاعَةِ فـي الحكـيم

وكـم مـن غـائب قـولاً صـحيحاً وآفـتُهُ مـن الفَـهْم السَّـقيمِ

وإطـراقُ طـرف العـين ليس بـنافع إذا كان طـرفُ القـلب ليس بـمطرقِ

على قَدر أهـل العَـزمِ تـأتي العـزائـم وتـأتي عـلى قَـدْرِ الكرامِ المكـارِمُ

وقول أبي الفتح البستي:

أحْسِـن إلى النـاسِ تَسْـتَعْبِدْ قُـلُوبَهُمُ فَـطالما اسْـتَعْبَدَ الإنسـانَ إحسانُ

مَنْ جادَ بـالمالِ مـالَ النـاسُ قـاطِبةً إليــهِ والمــالُ للإنســانَ فـتّانُ

وقول زهير:

ومن يَجعلِ المعروفَ من دون عِـرْضهِ يَـضِرْهُ ومــن لايـتقِ الشـتمَ يُشْـتَمِ

وقول أبي تمّام:

فلو صَـوَّرْت نـفسك لم تـزدها على ما فيك مـن كـرم الطباع

وكقوله:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى مـــا الحبّ إلّا للــحبيب الأوّل

قال عليّ بن خلف الكاتب (ت ٤٣٧ هـ، ق)[١]:

المثل تشبيه سائر، ومعنىٰ سائر أنّه يكثر استعماله بمعنىٰ أن الثاني بمنزلة الأوّل، كأنّه يسير في الناس على هذا الوجه، والأمثال كلّها حكايات لا تغيّر، وهي من أحسن الطرق دلالةً على المعنىٰ؛ لأنّها تتضمّن حُسْن البيان مع شدّة الاختصار.

١. مواد البيان، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، العدد ١، المجلد الثامن عشر، ربيع ١٩٨٩، بغداد.

والأمثالُ تستخدم في النثر والنظم، فما استخدم منها في النثر، فينبغي لمستخدمه أنْ يوقعه في المعنىٰ الذي يناسبه والحال التي يشابهها ويورده بعبارته التي سبق المتمثّل به إلى التعبير عنه بها.

وقال الحموي: «إرسال المثل نوع لطيف في البديع، ولم ينظّمه في بديعته غير الشيخ صفي الدين، وهو عبارة عن أن يأتي الشاعر في بعض بيت بما يجري مجرى المثل، من حكمه أو نعت أو غير ذلك ممّا يحسن التمثّل به»[1].

وعرّفه بذلك ـ أيضاً ـ الحلّي[2] والمدني[3]. وقبل هؤلاء ذكره الثعالبي والوطواط والحلبي والنويري ولم يعرّفوه[4].

وقال الطيّبي: «هو أن يورد المتكلّم مثلاً في كلامه»[5]. ومثله قال السبكي[6]. وذكر أنّ محلّه في علم البيان في مجاز التمثيل.

إرسال المثلين أو ثلاثة:

أمّا ارسال المثلين، فعرّفه الوطواط بقوله: «وتكون هذه الصنعة بأن يذكر الشاعر مثلين في بيت واحد»[7]. وقال الرازي: «هو عبارة عن الجمع بين المثلين»[8]. ونقل الحلبي والنويري هذا التعريف[9].

---

١. خزانة الأدب، ج١، ص١٨٦.

٢. شرح الكافية البديعية ص ١١٨، وينظر نفحات الازهار ص ١٠٩.

٣. انوار الربيع ٢: ٥٩، عن معجم النقد العربي ١: ١٣٤.

٤. يتيمة الدهر، ج١، ص٢١٤ و ٢١٩؛ حدائق السحر، ص ١٥٥؛ حسن التوسل، ص ٢٤٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٢٧، انظر: معجم النقد، ص١٣٤.

٥. التبيان، ص٣٣٩.

٦. عروس الأفراح، ج٤، ص٤٧٣.

٧. حدائق السحر، ص ١٥٦.

٨. نهاية الإيجاز، ص٢٨٩.

٩. حسن التوسل، ص ٢٤٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٢٨.

كقول الإمام عليّ عليه السلام

اصْبِرْ قليلاً فَبَعْدَ العُسْرِ تَيْسِيرُ   وكُلُّ أمرٍ لَهُ وَقْتٌ وتدبيرُ

وكقول امرئ القيس:

اللّه أنجحُ ما طلبتَ به   والبرُّ خَيْرُ حقيبةِ الرَّحْلِ[1]

وقولُهُ:

فإنّك لم يفخر عليك كفاخرٍ   ضعيفٍ ولم يغلبْكَ مثلُ مُغَلَّبِ[2]

وقولُ النابغة:

حَلَفْتُ فلم أَتْرُكْ لنفسِكَ ريبةً   وليسَ وراء اللّه للمرءِ مَذْهَبُ[3]

ومنه قول لبيد:

ألا كُلُّ شيءٍ خَلا اللّه باطِلُ   وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زائِلُ

فقوله في صدر البيت مثل أوّل، وفي عجزه مثل ثانٍ، فاجتمع المثلان في بيت واحد.

وقول أبي فراس الحمداني:

ومَنْ لَمْ يُوَقِّ اللّهُ فَهْوَ مُضَيَّعٌ   وَمَنْ لَمْ يُعزّ اللّهُ فهْوَ ذَليلُ

وقول المتنبّي:

أَعَزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سابحٍ   وَخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَمانِ كِتابُ

وَكُلُّ امرئٍ يُولي الجميلَ مُحَبَّبٌ   وَكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

فقوله: «كلّ امرئ يولي الجميل مجبّب» من الأمثال السائرة، وقوله: «كُلّ مكان ينبت العزّ طيّب» مثل آخر، فاجتمع مثلان في بيت واحد من الشعر.

---

١. ديوانه، ص٢٣٨.

٢. ديوانه، ص٤٤.

٣. ديوانه، ص٧٦٠.

وقول زهير بن أبي سُلمى:

وَمـن يـغتربْ يـحسب عـدوّاً صـديقهُ   ومـن لا يكَـرِّم نَـفْسَهُ لم يُكـرَّم

ومـن لا يـذُد عـن حـوضِهِ بسـلاحِهِ   يُـهدَّم ومَـنْ لا يـظلم النـاس يُـظلم

ومن يـجعلِ المـعروفَ مـن دون عـرضِهِ   يـفرهُ ومـن لا يـتَّقِ الشَّـتْمَ يُشـتَم

ومن الأبيات التي تشتمل على ثلاثة أمثال قول زهير:

وفـي الحـلمِ إدهـانٌ وفـي العـفوِ دُرْبَـةٌ   وفي الصدِق منجاةٌ من الشرِّ فاصدُقِ[1]

وقول النابغة:

الرِّفْـقُ يُـمْنٌ والأَنـاةُ سـعادةٌ   فاستأنِ في رِفْقٍ تُلاقِ نجاحاً[2]

وقول صالح بن عبد القدّوس:

كـلُّ آتٍ لابُـدَّ آتٍ وذو الجـهـ   ـلِ مُعنيّ والغَمُّ والحـزنُ فَـضْلُ[3]

ويجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللـفظ، وإصـابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، لذا كان في نهاية الغاية[4].

وقال ابن وهب «و أمّا الأمثال، فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربونها ويبيّنون للناس تصرّف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً، وأقرب مذهباً»[5].

---

١. ديوانه، ص٢٥٢.

٢. ديوانه، ص٢٢٨.

٣. شعره، ص١١٨.

٤. انظر: مجمع الامثال، ج١، ص٥ و ٦.

٥. البرهان في وجوه البيان، ص ١٤٥.

فنّ التغاير والتلطّف

التغاير: هو أن يتوصّل المتكلّم بلطف إلى مخالفة ما يجمع عليه الناس في عصره، نحو قول أبي‌تمّام في تفضيل السيوف على الكتب، وكان الناس في زمانه على عكس ذلك:

السيفُ أَصْدَقُ أنباءً من الكُتُبِ　　　في حدّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِب

أي أنّ القوّة أجدى من الفكر والكلام، فهو يرى أنّ المرء لا يحقّق ما يريد بالتخمين، بل بالسيف أي بالإرهاب بدلاً من الإقناع، فيغدو كلامه هذا ضرباً من الترهات؛ لأنّه قد يكون الفكر عدلاً وعفّة ومحبّة، ودولة السيف تبنى على الإنقاض والجماجم، ودولة الفكر تبنى على القلوب والعقول. ولكنّ ظروف الشاعر وحماسته دعته إلى استهلال القصيدة بهذا البيت؛ ليظهر تهكّمه وسخطه على قول المنجّمين في ذلك الوقت، والذين حذّروا المعتصم من الإقدام على الحرب.

وعرّفه ابن رشيق قائلاً: «هو أن يتضادّ المذهبان في المعنى حتى يتقاوما ثمّ يَصِحّا جميعاً. وذلك من افتنان الشعراء وتصرّفهم وغوص أفكارهم»[1].

ثمّ ساق أمثلة كثيرة من بينها قول أبي الشيص:

أَجِدُ المَلاَمَةَ في هَوَاكِ لذيذةً　　　حُبّاً لِذِكْرِكَ فَلْتَلْمنِي اللُّوَّمُ[2]

---

١. العمدة، ج ٢، ص٧٢٨.

٢. العمدة، ج ٢، ص٧٣٢، والبيت في الأغاني، ج١٦، ص٣٢١، وهو في طبقات ابن المعتز، ص ٧٤ ضمن مقطوعة والوساطة، ص٢٠٦؛ وكفاية الطالب، ص ١١٠.

وقول أبي الطيّب في عكس هذا:

أَأُحِبُّهُ وأُحِبُّ فيه مَلامَةً   إنَّ المَلامَةَ فيهِ من أعدائِهِ[١]

وهذا عند الجرجاني هو «النظر والملاحظة» وهو يعدّه في باب السرقات: قال وأصله من قول أبي نواس:

إذا غادَيْتِني بِصَبُوحِ عَذْلٍ   فَمَمْزُوَجاً بِتَسْمِيَةِ الحبيبِ[٢]

وقال المصري: «هو تضادّ المذهبين إمّا في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئاً ويذمّه، أو يذمّ ما مدحه غيره، أو يفضّل شيئاً على شيء ثمّ يعود فيجعل المفضول فاضلاً، أو يفعل ذلك مع غيره، فيجعل المفضول عند غيره فاضلاً وبالعكس»[٣].

وقال الحلبي والنويري: «هو أن يخالف المتكلّم الناس فيما عادتهم أن يمدحوه، فيذمّه، أو يذمّون فيمدحه»[٤].

فمن أمثلة ذلك قول أبي تمّام يخالف جميع الناس في تفضيل التكرّم على الكرم:

قد بَلَوْنا أبا سعيدٍ حَدِيثاً   وبَلَوْنا أبا سعيدٍ قديما

فَوَرَدْناهُ سائِحاً وَقَلِيباً   ورعيناهُ بارضاً وجَمِيما

فَعَلِمْنا: أن ليس إلّا بِشقِّ الـ   ـنَّفْسِ صارَ الكريمُ يُدْعى كَرِيما[٥]

١. ديوان المتنبّي، ج ١، ص ١؛ العمدة، ج ٢، ص ٧٣٢.

٢. العمدة، ج ٢، ص ٣٧٧، انظر: الوساطة، ص ٢٠٦ و ٢٠٧؛ ديوان أبي نواس، ص ٢٥٤، غاديتني: باكرتني، والغداة: ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس. والعذل: الملام. الصبوح: الشرب بالغداة.

٣. تحرير التحبير، ص ٢٧٧؛ بديع القرآن، ص ١٠٥.

٤. حسن التوسل، ص ٢٦٩؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٤٥.

٥. ديوان أبي تمام، ج ٣، ص ٢٢٣؛ العمدة، ج ٢، ص ٧٢٩؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٤٥؛ حسن التوسل، ص ٢٦٩ و ٢٧٠. السائح: النهر، والماء الجاري الظاهر. والقليب: البئر. البارض: أوّل ما يظهر من النبات في الأرض. الجميم: ما غطّى الأرض من النبات وطال بعض الطول.

وهو مغاير لقول البحتري على العادة المألوفة:

لا يُـتْعِبُ النـائِلُ المَـبْذُولُ هِـمَّتَهُ وَكيفَ يُتْعِب عَيْنَ النَّـاظِرِ النَـظَرُ[١]

ومن هنا أخذ المتنبّي قوله:

لو كَــــفَّرَ العَـــالَمونَ نِـــعْمَتَهُ لمـــا عَـــدَتْ نَـفْسُهُ سَجاياها

كـالشَّمْسِ لا تَـبْتَغي بـما صَنَعَتْ مَـــنْزِلَةً عِـــنْدَهُم ولا جَـــاها[٢]

والأصل قول بشّار:

ليس يُـعْطيكَ للـرجـاء ولا الخَـوْ فِ ولكـنْ يَـلَذُّ طَـعْمَ الرَجـاءِ[٣]

ومن التغاير ما قاله ابن الرومي في تفضيل القلم على السيف، وهو خلاف المعتاد:

إنْ يَخْدِمُ القلمَ السيفُ الذي خَضَعت له الرقـــابُ ودانت خـــوفَهُ الأُمـــمُ

فــالموتُ والمــوتُ لا شــيء يـعادِلُهُ مــا زالَ يَـتْبعُ مــا يـجري بــه القَـلَمُ

كــذا قــضى اللّــه للأقـلام مُـذْ بُـرِيَتْ إنَّ السـيوفَ لهـا مــذ أُرْهِـفَتْ خَـدَمُ[٤]

وغايره المتنبّي على الطريق المألوف فقال:

حتى رَجَـعْتُ وأَقـلامي قـوائِـلُ لي والمجدُ للسيفِ ليس المجدُ للقَلَمِ

أكْـتُبْ بـها أَبَـداً بَـعْدَ الكتابِ بِـهِ فـإنّما نَـحْنُ للأَسيافِ كـالخَدَمِ[٥]

وعرّفه بمثل ذلك السبكي، مضيفاً أنّ التغاير إمّا من كلام شخصين، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾[٦].

---

١. ديوان البحتري، ج٢، ص٩٥٦ يمدح عليّ بن مُرّ الطائي؛ العمدة، ج٢، ص ٧٣٠؛ حسن التوسل، ص ٢٧٠؛ نهاية الأرب، ج٧، ص ٢٧٠.

٢. العمدة، ج٢، ص٧٢٩؛ حسن التوسل، ص ٢٧٠؛ ديوان المتنبّي، ج٤، ص٥٢٦ وفيه: «منفعة عندهم».

٣. ديوان بشّار، ج١، ص١١١، والممدوح عقبة بن مسلم أمير البصرة؛ العمدة، ج٢، ص ٧٢٠، وفيه «العطاء» بدل «الرجاء»؛ حسن التوسّل، ص ٢٧٠.

٤. ديوانه، ص٣٧٢ «كامل كيلاني»؛ حسن التوسل، ص ٢٧١؛ العمدة، ج٢، ص ٧٣٠ و ٧٣١.

٥. ديوانه، ج٤، ص٣٦٨؛ والبينات في الوساطة، ص ١٢٣؛ وكفاية الطالب، ص ١١١.

٦. الأعراف: ٧٥ و ٧٦.

وإمّا أن يتغاير كلام الشخص الواحد في وقتين، كقول قريش عن القرآن الكريم:
﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١].
فإنّه اعتراف بالعجز ثمّ قالوا في وقت آخر:
﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾[٢].
وكان الأصل أن لا يعدّ هذا حسناً بل عيباً؛ لكنّه لوقوعه في وقتين مختلفين في غير هذا المثال عُدَّ من المحاسن[٣].
وقال أبو تمّام

نَقّل فؤادَكَ حيث شئتَ مِنَ الهَوى ... ما الحبُّ إلّا للحبيبِ الأوّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ في الأَرْضِ يألفه الفتى ... وَحنينهُ أبداً لأوّلِ مَنْزِلِ

فغايره آخر فقال:

نَقّل فؤادك حيث شئت فلن ترى ... كهوى جديد أو كوصل مقبلِ
مالي أحنّ إلى خرابٍ مُقْفِرٍ ... درست معالِمُه كأن لم يؤهلِ

وراعي آخر الجهتين فقال:

أنا مبتلى ببليّتين من الهوى ... شوقي إلى الثاني وذكر الأوّلِ
قسم الفؤاد لحرمة وللذّةِ ... في الحبّ من ماضٍ ومن مستقبلِ

يشير إلى المثل المشهور «لكلّ جديد لذّة، ولكلّ قديم حرمة»[٤].
وسمّاه العسكري «التلطّف» وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه والمعنى الهجين حتى تحسنه»[٥]. ومنه قول الحطيئة في قوم كانو يُلَقّبُونَ بـ «أنف الناقة»

---

١. المؤمنون: ٢٤.
٢. الانفال: ٣١.
٣. العمدة، ج٢، ص٧٣١؛ حسن التوسل، ص ٣٧١ وفيه «قبل الكتاب بنا» بدل «بعد الكتاب به».
٤. عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص، ج٤، ص٤٦٨ و ٤٦٩.
٥. الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ج٢، ص١٤٠.

فيأنفون فقال فيهم:

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرهم ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

فكانوا بعد ذلك يتبجّحون بهذا البيت[١].

وقال الحلّي والحموي والمدني: إن بعضهم سمّى التغاير «تلطّفاً»[٢] ولكنّ التغاير ـكما تقدّم ـ أوسع من ذلك وإن كان لا يخرج منه كثيراً[٣].

ومن أمثلة التغاير النثريّة ما أورده ابن حجّة الحموي في خزانة الأدب بقوله: «فأمّا مدح الإنسان ما ذمّه غيره، فإنّ الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم اللّه وجهه أتى فيه بما يمتزج صافي مشربه بالأرواح، وينقلنا ببديع بلاغته من الإبهام إلى الإيضاح، فمن ذلك خطبته التي مدح فيها الدنيا، مغايراً لأمثاله في ذمها، حيث قال: «أَيُّها الذامُّ الدُّنيا، المُغْتَرُّ بِغُرُورِها، المَخْدُوعُ بأَباطيلِها! أَتَغْتَرُّ بالدُّنيا ثُمَّ تَذُمُّها؟ أَنْتَ المُتَجَرِّمُ عليها، أم هِيَ المُتَجَرِّمَةُ عليكَ؟ متى اسْتَهْوَتْكَ، أَمْ متى غَرَّتْكَ؟ أَبِمَصارِعِ آبائِك مِنَ البِلى أم بِمضاجِعِ أُمّهاتِكَ تحتَ الثرى؟ كم عَلَّلْتَ بكَفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ! تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوصِفُ لَهُمُ الأطِبّاءَ، غَداةَ لا يُغْني عَنْهُم دَواؤُكَ،ولا يُجْدِي عليهم بكاؤكَ. لم يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إشفاقُكَ ولم تَسْعَفْ فيهِ بِطِلْبَتِكَ، ولم تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ! وقد مَثّلَتْ لكَ بِهِ الدّنيا نَفْسَكَ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ إنّ الدنيا دَارُ صدْق لِمَنْ صَدَقَها، ودارُ عافِيةٍ لِمَن فَهِمَ عَنْها، وَدارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّد مِنْها، ودار موعظة لِمنَ اتَّعَظَ بِها. مَسْجِدُ أحبّاءِ اللّهِ، ومُصَلّى ملائكةِ اللّه، وَمَهْبطُ وَحْيِ اللّهِ، ومَتْجَرُ أولياءِ اللّهِ، اكْتَسَبُوا فيها الرحَمَةَ، ورَبِحُوا فيها الجنّةَ. فَمَنْ ذا يَذُمُّها وَقَدْ آذنَتْ بينها، ونادَتْ بِفِراقِها، وَنَعَتْ نَفْسَها وأهْلَها، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ ببلائِها البلاءَ، وَشَوّقَتْهُم بسُرُورِها إلى السرورِ؟! راحَت بعافيةٍ، وابتكَرَتْ بفَجيعةٍ، ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذَمَّها

---

١. كتاب الصناعتين، ص ٤٢٧.

٢. المصدر، ص ٤٢٨؛ ديوان الحطيئة، ص ٦.

٣. معجم النقد العربي، ج ١، ص ٣٦٠ و ٣٧٩.

رجالٌ غداةَ الندامة، وحمِدَها آخَروُنَ يَوْمَ القيامَةِ. ذَكرَتْهُمُ الدنيا فَتَذَكَّرُوُا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقَوُا، وَوَعَظَتْهُم فاتُعَظُوا»[١و٢].

فمن أقواله ﷺ في ذمّ الدنيا:

«الدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور»[٣].

«إنّ الدنيا دار فناء وعناء»[٤].

«وإنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى»[٥].

«وحقّاً أقول: ما الدنيا غرّتك ولكن بها اغتررت»[٦].

«من لهج قلبه بحب الدنيا التاط قلبه»[٧].

---

١. خزانة الأدب، ج٢، ص٢١٣.

٢. نهج البلاغة، الحكمة المختارة ١٣١.

٣. المصدر، الخطبة ٨٩.

٤. المصدر، الخطبة ١١٤.

٥. المصدر، الخطبة ١٣٣.

٦. المصدر، الخطبة ٢٢٣.

٧. المصدر، قصار الحكم ٣٢٨.

التشريع

وهو أن تبني القصيدة على وزنين من أوزان العروض وقافيتين، فإذا أُسْقِطَ من أجزاء البيت جزء أو جزءان، صار البيت من وزن آخر، كقول الحريري:

يـا خـاطِبَ الدُّنـيا الدّنـيّةِ إنّـها ‌‌ شَـرَكُ الرَّدَى وقـرارةُ الأَكْـدارِ
دارٌ متى ما أَضْحَكَتْ في يَومِها ‌‌ أَبْكَتْ غَداً بُـعداً لهـا مِـنْ دارِ[1]

فإذا أسقطنا من البيت الأوّل «وقرارةُ الأكدارِ»، ومن البيت الثاني: «بُعداً لها من دارِ» يصبحان على النحو الآتي:

يا خاطبَ الدُّنـيا الدنـيَّـ ‌‌ ـة إنّـها شَـرَكُ الرَّدى
دارٌ مـتى مـا أَضْـحَكَتْ ‌‌ فـي يـومِها أَبْكَتْ غـدا

والتشريع في اللغة مصدر «شرع»، يقال شرع باباً إلى الطريق تشريعاً، أي فتحه وبينه، ومن هذا المعنى نقل إلى المعنى المصطلح عليه، كأنّ الشاعر شرع في بيته باباً إلى وزن آخر[2].

وذكر السيوطي[3] أنّ الحريري ابتدع هذا النـوع، و أنّ الأجـدابـي سـمّاه بـهذه

---

١. مقامات الحريري، ص ١٩٢. وهي من شواهد الإيضاح، ص ٣٠٠؛ شرح عقود الجمان، ج ٢، ص ١٩٢؛ المثل السائر، ج ٢، ص ٣٤٠؛ المصباح، ص ٢٠١.

٢. أنوار الربيع، ج ٤، ص ٣٤٣.

٣. شرح عقود الجمان، ص ١٥٥.

التسمية، ويسمّى أيضاً «ذا القافيتين»[١]، وسمّاه المصري بـ «التوأم»[٢]، وسمّاه بعضهم «التوشيح».

قال ابن الأثير ـ مفصّلاً ذلك بقوله ـ: «وهو أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين، فإذا وقف على القافية الأولى من البيت كان شعراً مستقيماً من بحر العروض، وإذا أضاف إلى ذلك ما بنىٰ عليه شعره من القافية الأخرى، كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحرعروضي آخر، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى كالوشّاح، وكذلك يجري الأمر في الفقرتين من الكلام المنثور، فإنّ كلّ فقرة منهما تصاغ من سجعتين»[٣].

وإلى ذلك ذهب ابن قيم الجوزيّة[٤]، وذكر العلوي بأنّ التوشيح قد يسمّى «التشريع» أيضاً حيث قال: «لأنّ ما هذا حاله من الشعر؛ فإنّ النفس تشرع إلى تمام القافية وكمالها»[٥].

ولكي نزيل هذا الخلط والخبط نعيد إلى الأذهان كون التوشيح هو الإرصاد والتسهيم عند معظم النقّاد والبلاغيّين[٦].

ومن أمثلة التشريع ما قاله بعض الشعراء:

---

١. المصباح، ص ٢٠١؛ الإيضاح، ص ٣٠٠؛ شرح الكافية البديعية، ص ١١٣؛ عروس الأفراح، ج ٤، ص ٤٦١؛ أنوار الربيع، ج ٤، ص٣٤٣؛ عن معجم النقد العربي القديم، ج ١، ص٣٣٨.

٢. تحرير التحبير، ص ٥٢٢؛ بديع القرآن، ص ٢٣١، وعلّل المصري تسمية هذا النوع بالتوأم فقال: إنه متى اقتصر على القافية الأولى كان من ضرب ذلك البحر الذي عمل الشاعر بيته منه، فإذا استوفى أجراءه وبناه على القافية الثانية، كان البيت من ضرب غير ذلك الضرب من ذلك البحر، وغالبه أن يختلف الروّيان وإن جاز توافقهما.

٣. المثل السائر، ج ٢، ص ٣٤٠.

٤. الفوائد، ص ٣١٦.

٥. الطراز، ج ٣، ص ٧٠.

٦. نقد الشعر، ص ١٩١؛ كتاب الصناعتين، ص ٣٨٢؛ العمدة، ج ١، ص ٦٢١؛ سر الفصاحة، ص ١٨٧؛ بديع القرآن، ص ٩٠؛ المصباح، ص ٢٠١؛ الأقصى القريب، ص ١٠٥؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٣٧؛ أنوار الربيع، ج ٣، ص ٣٢ عن معجم النقد، ج ١، ص ٤١٣؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٣٠٢.

اِسْلَمْ وَدُمْتَ على الحوادِثِ مارَسا رُكْنا ثَبِيرٍ، أَوْ هِضَابُ حِراءِ

وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّناً مِنْهُ على رُغْمِ الدُّهُورِ وَفُزْ بِطُولِ بَقاءِ[1]

ولأبي بكر أحمد بن الحسين الأرجّاني قصيدة طويلة يمدح فيها قاضي قضاة فارس طاهر بن محمّد، وقد زاد على ذلك أنّ الشطر الأوّل من كلّ بيت مبنيّ على قافيتين، كما أنّ الشطر الثاني كذلك، فيمكن أن يقرأ البيت الواحد على ثلاثة أوجه، نذكر من هذه القصيدة عدّة أبيات، ونبيّن لك الوجوه التي يمكن أن تقرأ عليها، قال:

صَبٌّ مُقِيمٌ سائِرٌ فُؤادُهُ طَوْعُ الهَوَى مَعَ الخَليطِ المُنْجِدِ

غائِبُ قَلْبٍ حاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى في عَهْدِهِمْ والمَعْهَدِ

لَهُ جَوىً مُخامِرٌ يَعْتادُهُ إذا اشتكى طَيْفَ الكَرى في العُوْدِ

فهذه الأبيات على هذا الوجه من بحر الكامل من العروض الأولى، ويصحّ أن تقرأ هكذا:

صَبٌّ مقيمٌ سائِرٌ فُؤادُهُ طَوْعُ الهوى

غائِبُ قلبٍ حاضِرٌ وِدادُهُ لِمَنْ نَأى

لَهُ جَوىً مُخامِرٌ يَعْتادُهُ إذا اشتكى

فتكون من مجزوء الكامل، وتقرأ أيضاً على وجه آخر هكذا:

صبٌّ مقيمٌ سائِرٌ مع الخليطِ المنجدِ

غائِبُ قلب حاضِرٌ في عهدهِم والمعهد[2]

له جوى مخامِرٌ طيفَ الكرى في العُوْدِ

---

١. المثل السائر، ج٢، ص٣٤١. فإذا أسقطنا من البيت الأوّل: «أو هضاب حراء»، ومن البيت الثاني: «وفز بطول بقاء»، يتحوّل إلى قافية أخرى وبحر آخر، وذلك بأن يقال:

اسلَمْ ودُمْتَ على الحوا دث مارسا رُكْنا ثبيرِ

وَنَلِ المُرادَ ممكَّناً مِنْهُ على رُغم الدُّهورِ

٢. انظر: ديوان الأرجّاني، ص ٢١٣؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٣٠٠؛ حاشية المثل السائر، ج٢، ص٣٤٠.

فتكون من مجزوء الكامل أيضاً.

ومن ألطف ما وقع من هذا النوع عن قصد قول ابن جابر الأندلسي:

يَـرْنُو بـطرَفٍ فـاترٍ مَـهْما رَنَا فَـهُوَ المـنىٰ لا أنتهي عَـنْ حبّهِ

يَـهْفُو كَـغُصْنٍ نـاضرٍحُلو الجَـنَى يُشْفي الضَنى لاصَبْرَ لي عَنْ قُرْبهِ

لو كـانَ يَـوماً زائـري زالَ العَـنا يَحْلو لنا في الحُبِّ أن نُسْمي بـهِ

أنـزلْتُهُ فـي خـاطِري لمـا دَنـا قد سَرَّنا إذ لَمْ يَحُلْ عـن صَـبّهِ[1]

وهذه الأبيات من الرجز التامّ، وهو الضرب الأوّل منه، فان تركتها كانت على حالها من التمام، وإن أسقطت من البيت الأوّل: «لا أنتهي عن حبّه»، ومن الثاني: «لاصبر لي عن قربه»، ومن الثالث: «في الحبّ أن نسمى بـه»، ومن الرابع: «إذ لم يحل عن صبّه»، صارت من الرجز المجزو.

وإن أسقطت من البيت الأوّل: «فهو المنى» إلى آخره، ومن الثاني: «يشفي الضنى» إلى آخره، ومن الثالث: «يحلو لنا» إلى آخره، ومن الرابع: «قد سرنا» إلى آخره، صارت من الرجز المشطور.

وإن أسقطت من الأوّل قوله: «مهما رنا»، ومن الثاني: «حلو الجنى»، ومن الثالث: «زال العنا»، ومن الرابع: «لما دنا» إلى آخره صار من الرجز المنهوك[2].

ومما ينشأ منه بتصرّف يقرب من الأعجاز مائة قطعة وقطعتان قول ابن السيّد البَطَلْيوسَي:

طيفٌ سرىٰ، من خاطرٍ، القلب، الدَّوي، فوفىٰ لنا، بغداتهِ، وَقَضى، الوَطَر

بزَّ الكرىٰ، عن ناظرٍ، الصبِّ الجوى، وشفىٰ، الضّنىٰ، بهباتهِ، ومضىٰ، حَذَر الوَطَر[3].

ويُتصوّر فكّه على أربعة وعشرين وجهاً، ويشبه هذا في كثرةالتصرّف، بل يزيد

---

١. نظم الدر، ص ١٨٥؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص ٣٠٠ـ ٣٠١.

٢. أنوار الربيع، ج ٤، ص ٣٥٠؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص ٣٠٠.

٣. نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٦٧ و ج ٥، ص١٠٧؛ نظم الدر، ص١٨٧.

عليه أضعافاً مضاعفة وإن لم يكن من هذا النوع بيت شعر قاله القرافي في فـروقه وهو:

بقلبي حبيبٌ مليحٌ ظـريفُ   بديعٌ جميلٌ رشيقٌ لطيفُ[1]

قال فيه: إنّه يشتمل على أربعين ألف بيت وثلاث مائة بيت وعشرين بيتاً، وذلك بجعل كلّ كلمة مكان البواقي في كلّ تركيب.

جمال التشريـع وحسنـه:

تتمثّل جمال التشريع وحسنه فيما يطّلع به على النفس مـن مـفاجأة ودَهَش، فـالنفس التـي تـوهّمت انـتهاء البـيت عـند القـافية الأولى واطـمأنّت إلى ذلك واستسلمت له، تفاجأ باتّساع الميدان واتّصال الكلم ممّا يعصف بها ويباغتها، ويبعث فيها النشاط والبهجة. هذا إلى أنّ الدلالة الإضافيّة بعد الانتهاء مـن القـافية الأولى تحتلّ في النفس محلّاً خاصّاً؛ لأنّها حصّلتها من حيث لا تحتسب؛ ولأنّ تلقّي هذه القائدة الإضافيّة حدث بعد استعداد وأهبة ناتجين من المباغتة، ولا شكّ في أنّ قدرة الشاعر على إنشاء مثل هذا الشعر المركّب ستكون محلّ إعجاب وتقدير من جانب المتلقّي[2].

١. نظم الدر، ص ١٩٢. ملخَّص هذه العمليّة الحسابيّة هو: ١ × ٢ × ٣ × ٤ × ٥ × ٦ × ٧ × ٨ = ٤٠٣٢٠

٢. الكافي في علوم البلاغة العربية، ج٢، ص٦٦٨.

النزاهة

النزاهة لغةً: البعد عن السوء، وإنّ فلانا لنزيه كريمٌ إذا كان بعيداً عن اللؤم وهو نزيه الخُلُق، وتنزيه الله تبعيده عمّا لايجوز عليه من النقائص.

واصطلاحاً:هو هجاء ليس فيه فحش أو بذاءة أو كلام منفِّر.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[1].

وأوّل من سمّى هذا الفنّ بهذا الاسم هو المصري، وإن سبقه القدماء إلى الاشارة إليها، فقبله قال أبو عمرو بن العلاء: «خير الهجاء ما تنشده العذراءُ في خِدْرِها فلايَقْبُحُ بمثلها». وفضل المصري في أنّه عدّ النزاهة فنّاً من فنون القول وقال: «هو يختصّ غالباً بفنّ الهجاء وإن وقع نادراً في غيره؛ فإنّه عبارة عن نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفحش»[2] وذكر عبارة أبي عمرو بن العلاء. ومن ذلك قول جرير:

فَغُضّ الطَّرْفَ إنّكَ من نُميرٍ فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلاباً

وقال الحموي: «النزاهة ما نظّمها أحد في بديعيته إلّا صفي الدين الحلّي، وهو

---

١. النور: ٤٨ ـ ٥٠.

٢. تحرير التحبير، ص ٥٨٤؛ بديع القرآن، ص٢٩٢.

نوع غريب تجول سوابق الذوق السليم في حلبة ميدانه، وتغرد سواجـع الحشـمة على بديع أفنانه؛ لأنّه هجو في الأصل، ولكنّه عبارة عن الإتيان بألفاظ فيها معنى الهجو إذا سمعته العذراء في خدرها لم تنفر منه».

وذهب إلى ذلك السيوطي[١] والمدني أيضاً[٢].

وهذا اللون البديعي لم ينظّم من أصحاب البديعيات سوى صفي الديـن الحـلّي حيث قال: «وهو نوع غريب سوابق الذوق السليم في حلبة ميدانه بألفاظ فيها معنى الهجو الذي إذا سمعته العذراء في خدرها لاتنفر منه، ومثّل له بقول أبي تمّام:

لو أنَّ تَغْلِبَ جمعتْ أنسابَها يومَ التّفاخرِ لم تَزِنْ مِثقالا».

وقال صفي الدين مادحاً الرسولﷺ:

حَسْبي بِـذِكْرِكَ لِـيَ ذَمّـاً ومَـنْقَصَةَ فـيما نـطقْتَ فـلاتَنْقُصْ ولاتَـذِمِّ[٣]

---

١. الإتقان، ج٣، ص٣٢٩.

٢. أنوار الربيع، ج٢، ص١٥٩؛ معجم المصطلحات البلاغية، ص٦٥٩.

٣. المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص٦٦٤.

فنّ التندير

وهو أن يأتي المتكلّم بنادرة حلوة أو نكتة مستظرفة وهو يقع في الجدّ والهزل.

وهذا الفنّ من مستخرجات المصري، ونقل تعريفه كلّ من الحلبي والنـويري[1]. فهو لا يدخل في نطاق التهكّم، ولا في نطاق فنّ الهزل الذي يرادبه‌الجدّ. والفـرق بينهما وبين التندير أنّ التندير ظاهر لفظه جدّ وباطنه هزل بخلاف البابين.

ومن لطيف ما جاء منه في الجدّ وبديعه قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَـيْكَ تَـدُورُ أَعْـيُنُهُمْ كَـالَّذِى يُـغْشَىٰ عَـلَيْهِ مِـنَ ٱلْمَوْتِ﴾[2].

وصف المنافقين بالخوف والجبن حيث أخبر بدوران أعـينهم عـند مـلاحظتهم الرسول كحالة من يغشى عليه من الموت.

ولو أقتصر على قوله «كالذي يغشيّ عليه» لكان كافياً للمقصود، ولكنّه زاد شيئاً بقوله «من الموت» وهي التي تفيد النادرة؛ إذ أنّ حالة المغشيّ عليه من الموت أشدّ وأنكى من حالة المغشيّ عليه من غير الموت.

ولو جاء سبحانه بالخوف بدل الموت، لكان الكلام بليغاً غير أنّ ما جاء به أبلغ،

---

١. تحرير التحبير، ص ٥٧١؛ بديع القرآن، ص ٢٨٥؛ حسن التوسل، ص ٣٠٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧٢.

٢. الأحزاب: ١٩.

وهو مع ذلك خارج مخرج الحقّ، متنزّل منزلة الصدق، فإنّ من كان قويّ النفس شجاع القلب لا يرضى بالنفاق، بل يظهر ما يبطنه الخائف؛ لأنّه لا يبالي بالموت.

وأمّا ما جاء منه في الهزل، فكقول أبي‌تمّام فيمن سرق له شعراً وهو محمّد بن يزيد الرّقي:

مَنْ بنو بَحْدلٍ مَنْ ابنُ الحبابِ	مَنْ بَنو تَغْلِبٍ غَداة الكلابِ
مَنْ طفيلٌ مَنْ عامرٌ أم مَنْ الحار	ثُ أم مَنْ عُتيبةُ بن شهابِ
إنّما الضيغَمُ الهصورُ أبو الأشـ	ـبالِ هَتّاكُ كُلّ خيسٍ وغابِ
مَنْ عَدَتْ خَيْلُه على سَرْح شِعرى	وهو للحين راتِعٌ في كتابِ
يا عَذارى الكلام صِرْتُنَّ من بَعْـ	ـدي سبايا تُبَعْن في الأَعرابِ
لو تَرى منطقي أسيراً لأصبَحْـ	ـتَ أسيراً ذا عَبْرةٍ واكتئابِ
طالَ رَغبي إليكَ مما أقاسيـ	ـه ورَهْبي يا ربّ فاحفظ ثيابي[1]

١. ديوان أبي‌تمام، ج٤، ص٣٠٨ و ٣٠٩؛ تحرير التحبير، ص ٧٥١؛ بديع القرآن، ص ٢٨٥؛ حسن التوسل، ص٣٠٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧٢؛ معجم النقد العربي، ج١، ص٣٩٦.

التفريع

وهو وضع شيء عقيب شيء لاحتياج اللاحق إلى السابق، كما في قولك: فرّعت هذا إذا قرّرته على أصله، ومنه فروع الشجرة؛ لأنّها ثابتة على أصولها، وكلّ ما كان مبنيّاً على غيره، فهو فرعٌ له.

وأمّا مفهومه في مصطلح علم البديع، فهو عبارة عن إتيانك بقاعدة تكون أصلاً ومقدّمة لما تريده من المدح أو الذمّ، ثمّ تأتي بعد ذلك بتفصيل المديح وتُعيّنُه بعد إجمالك له أوّلاً. فالكلام الأوّل يؤتى به على سبيل المقدّمة. والآخر على سبيل الإكمال والتتميم والتفريع؛ لما أصّلته من قبل.

والتفريع يكون على وجهين[1]:

الوجه الأوّل: أن يُصدَّر الكلام الأوّل بحرف النفي وهو «ما» وتجعله أصلاً لما تريد ذكره من بعده، ثمّ تأتي بعد ذلك بأفعل التفضيل. وهذا كقول الأعشى:

ما رَوْضَةٌ مِنْ رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةً غَنّاءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤزَّرٌ بعَميمِ النَّبتِ مُكْتَهِلُ
يوماً بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحْسَنَ منها إذ دَنا الأُصُلُ[2]

---

١. انظر: الطراز، ج٣، ص١٣٢ و ١٣٥؛ المصباح، ص ٢٣٨ و ٢٣٩.

٢. ديوان الأعشى، ص١٧؛ حسن التوسل، ص ٢٩١؛ تحرير التحبير، ص ٣٧٣؛ الطراز، ج٣، ص١٣٣؛ الشعر والشعراء، ج١، ص١٨٦؛ نهاية الأرب، ج٧، ص ١٦٠؛ المصباح، ص ٢٣٩.

فمجيئهُ «بما» في أوّل الكلام و «بأفعل» في آخره هو كمال التفريع.

وقول عاتِكَةَ المرّيّة:

وَمـا طَـعْمُ مـاءٍ أيِّ مـاءٍ تَـقُولُهُ تَـحَدَّرَ مـن غُـرٍّ طِـوالِ الذوائِبِ
بـمنعرج مِـنْ بـطنِ وادٍ تـقابلت عليه رياحُ الصيف من كلّ جانبِ
نَفَت جَـرْيَةُ الماء القذى عن متُونهِ فـليس بـه عـيب تـراه لعـائب
بـأطيب مـمّن يَـقصِرُ الطرفَ دونـه تقى اللّه واستحياءُ بعض العواقب[1]

وقد وقع الأصل والفرع لأبي تمّام في بيت واحد وهو:

ولا الخـدودُ إن أَدْمَـيْنَ مـن خَـجَلٍ أشْهى إلى ناظري مِنْ خَـدِّها التّـرِب
مـا رَبْـعُ مَـيَّة مـعمُور يـطُوفُ بـهِ غيلانُ أَبهى رُبىً من رَبْعِها الخَرِب[2]

ذكر هذا النوع من التفريع الزنجاني في معيار النُّظار وقد سمّاه بعضهم «النفي والجحود»؛ لأنّ فيه نَفْي أن تكون الصفة في غير المراد إثباتها له أشدّ ظهوراً من وجودها فيه. فمحلّه التفضيل المسبوق بالنفي، والمؤدّي إلى المبالغة في إثبات الصفة للمفضّل عليه.

الوجه الثاني: ما يكون على خلاف هذه الصفة، وهو أن يأتي المتكلّم بصفة يُقرب إليها ما هو أبلغُ منها في معناها، فيذكرها ليفرّع عليها غيرها، نحو قول الكميت:

أَحْلامُكُم لِسقامِ الجَـهْلِ شـافِيةٌ كما دِماؤُكُم تَشْفي مِنَ الكَلَبِ[3]

فقد أثبت الشاعر الشفاء من الكلب ـ وهو الحكم ـ للدماء بعد أن أثبت الشفاء من الجهل للأحلام، أي أثبت حكماً لأمر بعد إثباته لأمر آخر. وغرض الكميت من هذا البيت وصفهم برجاحة العقول وفطنة الأذهان، وبلاغة التفريع آتية من دعم

---

١. نهاية الأرب، ج٧، ص ١٦٠.

٢. ديوان أبي تمام، ج ١، ص٦٣؛ حسن التوسل، ص ٢٩٢؛ المصباح، ص ٢٣٩.

٣. الإيضاح، ص ٢٨٠؛ العمدة، ج ١، ص ٦٣٢؛ الطراز، ج ٣، ص ١٣٥؛ شرح عقود الجمان، ج ٢، ص ١١٩؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٨٨؛ المصباح، ص ٢٣٩.

صفة بصفة أخرى سواء في المدح أو في الذمّ وكان المقام في كلّ منهما. وكما قال ابن المعتزّ:

كَلامُهُ أَخْدَعُ مِنْ لحَظِهِ   وَوَعْدُهُ أَكْذَبُ مِنْ طَيْفِهِ[١]

فبينا هو يصف خدع كلامه؛ إذ فرّع عليه وصف كذب لحظه، وبينا هو يصف كذب وعده؛ إذ فَرّعَ عليه كذب طيفهِ، وقوله أيضاً:

وكأنّ حُمرةَ لونِها من خَدّهِ   وكأنّ طِيبَ نَسِيمِها مِنْ نَشْرِهِ
حتى إذا صُبَّ المزاجُ تَشَعْشَعَتْ   عن ثَغْرِهِ فَحَسِبْتُهُ مِنْ ثَغْرِهِ[٢]

وذكر ابن أبي الإصبع المصري في التفريع قسماً ذكره في صدر الباب وهو أن يبدأ الشاعر بلفظة هي إمّا اسم و إمّا صفة، ثمّ يكرّرها في البيت مضافة إلى أسماء وصفات يتفرّع من جملتها أنواع من المعاني في المدح وغيره، كقول أبي الطيّب المتنبّي:

أنا ابنُ اللقاءِ أنا ابنُ السماءِ   أنا ابنُ الضِّرابِ أنا ابنُ الطِّعانِ
طويلُ النجادِ طويلُ العِمادِ   طويلُ القناةِ طويلُ السنانِ

فكلّ بيت منهما ينطوي على فروع شتّى من معاني المدح تفرّعت من أصل واحد[٣].

وذكر أُسامة بن منقذ القسم الأوّل وسمّاه النفي، ومثّل له بقول عَدِي بن الرِّقاع:

وما مُخْدَرٌ وَرْدٌ يُرشِّحُ شِبْلَهُ   بخَفَّان قد أَحْمَى جَميعَ الموارِدِ
كأَنَّ دِماءَ الهادِياتِ بنحرِهِ   صَبِيبُ ملاب أو خَضِيبُ مَجاسِدِ[٤]

---

١. ديوان ابن المعتز، ج١، ص٣٠٢؛ الطراز، ج٣، ص١٣٥؛ العمدة، ج١، ص٦٣٣؛ المصباح، ص ٢٣٩؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٨٩؛ الطراز، ج٣، ص١٣٥.
٢. العمدة، ج١، ص٦٣٣؛ الطراز، ج٣، ص١٣٥؛ المصباح، ص ٢٤٠.
٣. تحرير التحبير، ص ٣٧٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٦٢.
٤. البديع، ص ١٨١ و ١٨٢.

أمّا السيوطي، فقد جمع التفريع مع التأسيس، وعـرّفه فـقال: هـذا نـوع لطـيف اخترعته لكثرة استعماله في الكلام النبويّ، ولم أر في الأنواع المتقدّمة ما يناسبه، فسمّيته بالتأسيس والتفريع وذلك بأنّ يمهّد قاعدة كلّيّة لما يقصده ثمّ يرتّب عليها المقصود، كقولهﷺ: «لكلِّ دين خلق، وخلق هذا الدين الحياء»[1].

وهذا المعنى للتأسيس غير ما قصده المصري، فالتأسيس عنده الاستعانة، وعند السيوطي تفسير ما أسّسه أو ذكره، وذلك واضح في كـلمات الرسـول مـحمّدﷺ: «فلكلّ دين خلق، ولكن ما خلقه؟» الجواب أو الإيضاح أو التفسير قوله: «خلق هذا الدين الحياء»[2].

---

١. شرح عقود الجمان، ص ١٤١.

٢. المصدر، ص ١٤٠.

الاتّفاق

الاتّفاق لغةً: التوافق والتظاهر، والوِفاق الموافقة، ووفق الشيء مـالاءمه، وقـد وافقه موافقة ووفاقاً واتّفق معه وتوافقا.

والاتفاق اصطلاحاً: هوأن يتّفق للمتكلّم واقعة وأسماء تطابقها[1].

وهو النوع وإن سمّي بالاتّفاق، إلّا أنّه قليل الاتّفاق لعزّة وقوعه. وسبق أن ذكرنا أبياتاً في الجناس المستوفى، ومنها قول أبي تمّام:

ما ماتَ مِنْ كَـرمِ الزمـانِ فـإنّهُ ... يحيا لدى يحيى بن عبد اللّـهِ[2]

وقد جانس في عجز البيت بين الفعل «يحيا» من الفعل «حيّ» ولفظة «يحيى» الاسم العلم المعروف، وهو من لطيف الاتّفاق.

وقول أبي نواس:

عَـبّاسُ عَـبّاسٌ إذا احْـتَدَمَ الوَغَـى ... والفَـضْلُ فَـضْلٌ والرَّبــيعُ ربـيعُ[3]

وقد وقع في هذا البيت لطيف الاتّفاق ومليح الازدواج في قوله: «عبّاسُ عبّاسٌ» و «الفضل فضل» و «الربيع ربيع».

---

١. أنـوار الربيع، ج ٥، ص ١٦٤؛ انـظر: خـزانـة الأدب، ج ٤، ص ٦٦ و ٢٩٠؛ البـديع فـي نـقد الشـعر، ص ٨٧؛ تحرير التحبير، ص ٥٠٣؛ شرح الكافية البديعية، ص ٢٥٢؛ شرح عقود الجمان، ص ١٣٦؛ عن معجم النقد العربي، ج ١، ص ٨٩.

٢. أسرار البـلاغة، ص ٤١٧؛ الطراز، ج ٢، ص ٣٥٧؛ نـهاية الأرب، ج ٧، ص ٩٠؛ التـبيان للـزملكاني، ص ١٦٦؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ٢٠٦؛ ديوان أبي تمام، ج ٣، ص ٣٤٧؛ الإيضاح، ص ٢٨٩.

٣. ديوان أبي نواس، ص ٤١٥؛ جنان الجناس، ص ٤٦.

ونحو قول الآخر:

وسمّيته يحيى ليحيا، فلم يكن   إلى ردِّ أمرِ اللّه فيه سبيل

وقد جانس بين اسم العلم يحيى والفعل يحيا حياة.

وكذلك في قول أبي تمّام:

لِسلْمَى سَلاماتٍ وعَمْرَة عامِرٍ   وهندِ بني هِنْدٍ وَسُعْدَى بني سَعْدِ[١]

فاتّفقت هذه الأسماء التي هي أسماء نساء وأماكن.

ومن الاتّفاق أن يتّفق للشاعر واقعة وأسماء مطابقة لتلك الواقعة، تعلّمه العمل في نفسها، إمّا بالمشاهدة أو بالسماع، فإنّ السبق إلى معاني الوقائع التي يشترك الناس في مشاهدتها، وفي سماعها فضل لا يجحد كلّما حصل.

ومن ذلك ما اتّفق للشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ في الوزير مؤيّد الدين العلقميّ؛ إذ قال:

يا عُصْبَةَ الإِسْلامِ نُوحِي والطُمِي   حُزناً على ما حَلَّ بالمُسْتَعْصِمِ

دسْتُ الوَزارة كانَ قبلَ زَمانِهِ   لابنِ الفُراتِ فَصَارَ اليوم لابنِ العَلْقمى[٢]

فاتّفق أنّ المذكورين كانا وزيرين، و أنّ المورّى بهما نهران، وقد طابق الناظم بينهما بالفرات الحلو والعلقم المرّ.

وفيه بيت صفي الدين الحلّي في بديعيته:

ومن غدا اسم أُمّهِ نعتاً لأُمَّتِهِ   فَتِلْكَ آمنةٌ من سائرِ النِقَمِ[٣]

وقول الملك الأفضل عليّ بن السلطان صلاح الدين لما تعصب عليه عمّه أبوبكر وأخوه عثمان، فكتب إلى الناصر صاحب بغداد:

مولاي إنّ أبا بكرٍ و صاحبَهُ   عثمانَ قد غصبا بالسيفِ حقَّ عليّ

وَهُوَ الذي كانَ قد ولّاه والده   عليهما فاستقام الأمر حين ولي

---

١. السلامان: شجر وماء لبني شيبان، البديع في نقد الشعر، ص ١٣٤.

٢. أنوار الربيع، ج ٥، ص١٦٤؛ نفحات الأزهار، ص ٢١٨.

٣. أنوار الربيع، ج ٥، ص١٦٦.

فـــخالفاه وحـــلّا عـــقد بـيعته — والأمـرُ بـينهما والنـصُّ فـيه جـليّ
فانظر إلى حظّ هذا الاسم كيف لقى — مـن الأواخـر مـا لاقـى مـن الأوّلِ

فاتّفقت له قضيّة طابقتها أسماء مـن كـانت قـضيّتهم كـقضيّة حسب اعـتقاده، و لما وصل كتابه إلى الناصر كتب إليه:

وافى كتابكَ يابن يوسف مـعلناً — بالحقّ يـخبر أنّ أصـلكَ طـاهرُ
غـصبوا عـليّاً حـقّهَ إذ لم يكـن — بـعد النـبي له بـيثرب نـاصر
فاصبر فإنّ غداً عليه حسـابهم — وابشر فناصرك الإمـام النـاصرُ

وكتب إليه ابن عنين من الهند قصيدة يقول فيها:

هـيهات أن آتـي دمشـق ومـلكها — يـعزي إلى غـير المـليك الأفـضل
ومــن العـجائب أن يـقوم بـها أبـو — بكـر وقـد عـلم الوصـيّة فـي عـليّ
مــهلاً أبــا حســن فـتلك سـحابة — صـــيفية عـــما قـليل تـنجلي[1]

وربما أتفقت قرائح الشعراء في قول الشعر دون تعمد.

كقول أمرئ القيس:

وقوفاً بـها صـحبي عـليّ مـطِيَّهُم — يـقولون: لا تـهلك أَسـىً وتـجمّلِ

وقول طرفة:

وقوفاً بـها صـحبي عـليّ مـطيّهم — يــقولون: لا تـهلك أسـىً وتـجلّدِ

وقد يدّعي الثاني أنّه خطر على باله مثلما خطر على بال الأوّل[2]. واعتبر أبو هلال العسكري أنّ من أخذ معنى بـلفظه كـان له سـارقاً، واصـطلح عـلى هـذا النـوع بـ«النسخ»، وهو أحد أنواع السرقات الشعريّة المتعدّدة[3].

---

١. أنوار الربيع، ج ٥، ص ١٦٥ و ١٦٦.

٢. الحيوان، ج ١، ص ١٤٥.

٣. كتاب الصناعتين، ص ١٩٧.

الهزل الذي يراد به الجدّ

وهو انتقال المتكلّم من معرض الجد إلى معرض الهزل بقصد تأكيد الجدّ.

والفرق بينه وبين التهكّم أنّ التهكّم ظاهره جدّ وباطنه هزل وهذا بعكسه[1].

وهذا اللون ـ فيما نعلم ـ من ابتكار ابن المعتزّ، ذكره في محاسن الكلام، وسمّاه بهذا الاسم[2].

وعرّفه المصري بقصد المتكلّم مدح إنسان أو ذمّه، فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب، والمجون المطرب[3].

ونقل الحلبي والنويري والحلي والحموي هذا التعريف[4]. وألحقه العلوي بتجاهل العارف[5].

والفاتح لهذا الباب امرؤ القيس، وقوله أبلغ ما سمع فيه وألطف، وهو:

وَقَدْ عَلِمَتْ سَلْمى وإنْ كانَ بَعْلُها ... بأَنَّ الفَتى يَهْذِي وَلَيْسَ بفعَّالِ[6]

---

١. شروح التلخيص، ج ٤، ص ٤٠٢.

٢. البديع، ص ٦٣.

٣. تحرير التحبير، ص ١٣٨.

٤. حسن التوسل، ص ٣٣٢؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٢٤؛ شرح الكافية البديعية، ص ٨٠؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص ١١٩؛ انظر: معجم النقد العربي، ج ٢، ص ٤٢٥.

٥. الطراز، ج ٣، ص ٨٢.

٦. الإيضاح، ص ٢٨٥؛ معاهد التنصيص، ج ٣، ص ١٥٨؛ تحرير التحبير، ص ١٣٩؛ خزانة الادب، ج ٢، ص ٢٠.

وسلمى زوجة من ذُكِرَ في الأبيات قبله أنّه يهدّده، وما تهديده إلّا تخويف يتكلّم دون أن يقصد بكلامه شيئاً.

وكقول الشاعر:

وَيْكَ أبا طَلْحَةَ ما تَسْتَحي ... بَلَغْتَ ستّينَ ولم تَلْتَحِ[1]

وقول ابن الهبارية:

يقول أبو سعيد إذْ رآني ... عَفيفاً مُنْذُ عامٍ ما شَرِبْتُ

على يَدِ أيِّ شَيْخٍ تُبْتَ قُلْ لي ... فَقُلْتُ: على يَدِ الإفلاسِ تُبْتُ[2]

وفي معناه قول البهاء زهير:

قالوا: فلانٌ قَدْ غدا تائباً ... واليومَ قد صَلَّى مع الناسِ

قُلْتُ: متى كان وأنّىٰ له ... وكيف يَنْسَى لَذَّةَ الكاسِ

أَمْسِ بهذي العينِ أَبْصَرْتُهُ ... سكرانَ بين الوَرِدِ والآسِ

وَرُحْتُ عن تَوْبته سائِلاً ... وَجَدْتُها تَوْبَةَ إفلاسِ[3]

جمال هذا الفنّ وحسنه

هذا المحسِّن البديعي يمكّن المتكلّم من عرض مراده في قالب لا يؤاخذ عليه ولا يُتبيّن أثر الإساءة فيه، فقد جُبلّت النفوس على قبول الأشياء مادامت في إطار. الهزل والدعابة وهو مسلك دقيق من مسالك الكلام لا يجوّد فيه إلا الأفذاذ البصراء بمآخذ القول ودقائق التعبير[4].

---

١. أنوار الربيع، ج ٢، ص ١٧٠.

٢. المصدر، ص ١٧١.

٣. المصدر، ص ١٧٢.

٤. الكافي في علوم البلاغة، ج ٢، ص ٦٢٠.

الهجاء في معرض المدح

وهو أن يقول المتكلّم كلاماً يبدو لأوّل وهلة أنّه مدح، ثُمّ يتّضح أنّه هجاء لا مدح، نحو قول أبي العميثل في أبي تمّام:

يا نبيَّ اللّهِ في الشِّعـ ـر ويا عيسى بن مريمْ
أَنْتَ من أَشْعَرِ خَلْقِ الـ ـلّه ما لم تَتكَلَّمْ

وهذا النوع من مستخرجات المصري وهو أن يقصد المتكلّم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها القدح، فيوهم أَنَّهُ يمدحه وهو يهجوه، كقول[1] بعضهم في بعض الأشراف:

له حَقٌّ وليس عليه حَقٌّ ومهما قال فالحَسَنُ الجميلُ
وقد كان الرسولُ يرى حقوقاً عليه لغيرهِ وهو الرسولُ[2]

فالبيت الأوّل لا يصلح إلّا للمدح، و البيت الثاني لا يُفهم منه مدح ولا هجاء، ولكنه لمّا اقترن بالأوّل أهّل نفسه وأخاه للهجاء، وعُدل بألفاظهما عن الثناء، وحصل من اجتماعهما ما ليس لكلّ منهما على انفراده.

وذكر الحموي أنّ الفرق بين التهكّم والهجاء في معرض المدح، أنّ التهكّم لا تخلو ألفاظه من اللفظ الدالّ على نوع من أنواع الذمّ، أو لفظة توهّم من فحواها

---

١. تحرير التحبير، ص ٥٥٠، انظر: معجم النقد، ج ٢، ص ٤٢٣.

٢. حسن التوسل، ص ٣٠١؛ زهر الآداب، ج ١، ص ١٢٦؛ تحرير التحبير، ص ٥٥٠.

الهجو، وألفاظ المدح في معرض الذمّ لا يقع فيها شيء من ذلك.

ولا تزال تدل على ظاهر المدح، حتى يقرن بها ما يصرفها عنه[١].

وسمّاه المدني «الهجو في معرض المدح»[٢].

وسمّاه الحلبي والنويري «الذمّ في معرض المدح»[٣].

ومن شواهد هذا اللون قول المتنبّي في وصف كافور:

وللّــه ســرٌّ فــي عـلاكَ وإنّـما ... كلامُ العدى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

فهذا مدح موجّه يحتمل أن يكون مدحاً بحكم أن علاك فيه سر اللّـه لم يـهبه لغيرك، ويحتمل أن يكون هجواً، أي أنّك غير مستحقّ للعلى، وإنّما للّه تعالى سرٌّ في تقديم من يصلح للتقديم، من يكون أهلاً للكرامة[٤] ولكن وكما هـو مـعروف فـإنّ المتنبّي لم يخلص له منذ أوّل يوم، فكان ينال منه في شعره بغمزات ظاهرها التقدير وباطنها الهزء والتحقير، ولم تكن تمثّل هذه الغمزات ممّا تخفى على كافور.

وكذلك قوله فيه:

فجاءت بـنا إنسـان عـين زمـانه ... وخِـلْتَ بـياضاً خـلفها ومآقـيا

يجعل كافوراً بالنسبة إلى سائر الناس كسواد العين ويجعل سائر الناس كبياضها؛ لأنّ السواد هو الذي ينتفع به في الرؤية. ولكن هل يليق هذا المدح بمن كان لونه اسود.

ويقول أيضاً في نفس القصيدة:

ومــن قـولِ سـامٍ لو رآك لنسـلهِ ... فدى ابن أخي نسلي ونفسي ومـاليا[٥]

---

١. خزانة الأدب، ج٢، ص٢٧٦، وذكر السبكي أنّ هذا القسم يـدخل فـي «التـوجيه»، شـروح التـلخيص، ج٤، ص٤٧٤.

٢. انظر: جوهر الكنز، ص ٣٠٥ و ٣٠٦؛ معجم النقد، ج٢، ص٤٢٣.

٣. أنوار الربيع، ج٣، ص٦٠.

٤. حسن التوسل، ص ٣٠١؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٧٧.

٥. سام أبو الجنس الأبيض، وحام أبو الجنس الأسود.

فالمتنبّي يفضّل كافوراً على البيض كلّهم، ويجعلهم على لسان سام أبيهم فدى له مع أبيهم ومال أبيهم، وفيه تهكّم واضح، واستهزاء بـه، وسـخرية ظـاهرها المـدح والإعجاب.

وكذلك جعله كافوراً شمساً منيرة سوداء تكسف شمس الكون المشرقة، وذلك في قوله:

تَفْضَحُ الشمس كلّما ذرّت الشمـ ـس بشـمسٍ مـنيرة سـوداء

التسبيغ

وهو في النثر أن يعيد الناثر سجعة القرينة الأولى في أوّل القرينة التي تليها.

وفي النظم إعادة القافية في أوّل البيت الذي يليها، فتكون الأطراف متشابهة وهو مأخوذ من شيء سابغ، أي كامل واف، وسبغ الشيء طال[1].

وقال المصري: «هذا الباب سمّاه الأجدابي التسبيغ، وعرّفه بأن قال: هو أن يعيد لفظ القافية في أوّل البيت الذي يليها، والتسبيغ زيادة في الطول»[2] وذكر الحموي والسيوطي والمدني مثل ذلك[3].

فمثاله في النثر من الكتاب العزيز قوله سبحانه:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[4].

حيث أُعيد فاصلة الآية الأولى في أوّل الآية الثانية.

وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[5].

---

١. لسان العرب، مادّة «سبغ».

٢. تحرير التحبير، ص ٥٢٠؛ بديع القرآن، ص ٢٢٩.

٣. خزانة الأدب، ج ١، ص ٢٢٥؛ شرح عقود الجمان، ص ١٤٩؛ أنوار الربيع، ج ٣، ص ٤٥، عن معجم النقد العربي، ج ١، ص ٣٢٦ و ٣٢٧.

٤. الروم: ٦ و ٧.

٥. العلق: ١ و ٢.

وكقول أبي تمّام:

هَوىً كان جـلْساً إنَّ مِـنْ أبـردِ الهـوى هــوَى جُـلْتُ فـي أفـيائِهِ وهـو خـامِلُ

ووقع في غير الفواصل أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾[1].

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحَمْدُ للّهِ الواصِلِ الحَمْدَ بِالّنَعمِ، والنِّعَمَ بالشُكْرِ»[2].

ومنه قول النابغة الذبياني:

لَعَمْرِي وما عُـمْرِي عَـلَيَّ بِـهَيِّنٍ لَـقَدْ نَـطَقَتْ بُـطْلاً عَـلَيَّ الأَقـارِعُ

أَقــارِعُ عَــوْفٍ لا أُحَـاوِلُ غـيرها وُجُوهُ قُـرودٍ تَـبْتِغي مَـنْ تُـجادِعُ

وقول أبي حيّة النميري:

رَمَـتْني وسِـتْرُ اللّـهِ بـيني وبـينها عَشِــــيَّةَ آرامِ الكِــناسِ رَمــيمُ

رَميمُ التـي قـالت لجـيرانِ بـيتها ضَــمِنْتُ لَكُــم أَلّا يــزال يــهيمُ

وقول الشريف المرتضى وهو من أحسن ما وصف به الثغر:

تــبسَّم عــن حُــمّ اللّــثاث كـأنّها حــصى بــرد أو أقــحوان كــثيبِ

إذا ارتفعت عـن مـرقهٍ عـلّلتْ بـه مـن اليـانع الغـوري فـرع قـضيبِ

قـضيبٍ نـجاهُ الركب أيّـام عـرَّفوا لها من ذرى مال النباتِ خضيبِ[3]

جمال فنّ التسبيع

يتراءى أنّ جمال هذا الفنّ البديعي إنّما تـرجـع إلى مـا يسـمّيه النـقد العـربي

---

١. النور: ٣٥.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١١٤.

٣. أمالي المرتضى، ج ٢، ص ١٧٤؛ أنوار الربيع، ج ٣، ص ٤٧.

من يانع الغوري: يعني من يانع الأراك، ونجاه: قطعة، ومال النبات: نـاعمه وحسـنه. وعـرّفوا: أي اجـتنده مـن عرفات، وذكر أنّه خضيب بالطيب الذي بيديها.

«شدّة الأسر» أي تماسك الأجزاء وقوّة الحَبْك.

فتكرار المعنى الذي ابتدئ به وتكرار اللفظ الذي انتهت به العبارة في مطلع اللاحقة ينصر مبدأ شدّة الأسر ومتانه الخَلْق.

وممّا يزيد في جمال هذا وحسنه المعنى أو اللفظ لا يتكرّر بالدلالة نفسها والتي جاء عليها أوّل مرّة، بل يأتي ومعه دلالة توسّع مفهومه وتوضح جوانب منه، وكأنّ المتلقي أمام ما يمكن تسميته لـ«الإفادة التدريجيّة».

فتأمّل ذلك جلياً في الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾.

تلحظ هنا المصباح الأوّل منكراً في حين أن الثاني معرّف ومحدّد بأنّه في زجاجة وكذا الحال مع الزجاجة.

وفرق كبير بين الإتيان بالكلام وفق الصيغة القرآنيّة وأن يقال مثلاً: كمشكاة فيها مصباح في زجاجة، كأنّها كوكب درّيّ. ونحسب أنّ تكرار الكلمة في صورة المسند إليه: «المصباح كذا ... الزجاجة كذا...» يجعل المتلقي أكثر تيقّظاً لإدراك الكلام؛ إذ ثمّة فارق بين الخبر والصفة في طبيعة كلّ منهما، فالخبر يفيد تجديد الإفادة، والصفة تبيين لأمر موجود.

يقول عبد القاهر: «الخبر إثبات في الوقت للمعنى، والصفة تبيين وتوضيح وتخصيص بأمر قد ثبت واستقر وعُرِف»[1].

وذكر ابن معصوم بأنّ في هذا النوع دلالة على قوّة عارضة الشاعر وتصرّفه في الكلام، وإطاعة الألفاظ له، ولا يخلو مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع، فإنّ معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به، حتى كأنّ معنى البيتين أو الثلاث واحد[2].

---

١. الكافي في علوم البلاغة، ج٢، ص٦٢٩ و ٦٣٠.

٢. أنوار الربيع، ج٣، ص٥٠.

التهكّم

التهكّم في اللغة: التهدّم، يقال: تهكّم عليه من شدّة الغضب مثل تهدّم عليه.

والتهكّم أيضاً التهزّؤ ومنه قال ذلك على سبيل التهكّم، أي التهزؤ واشتقاقه من تهكّمت البئر إذا سقط طيّها.

وفي الاصطلاح: هو الخطاب بلفظ التعظيم في موضع التحقير، والتبشير في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في معرض السخريّة، ونحو ذلك...

والفرق بين التهكّم والهزل الذي يراد به الجدّ أنّ التهكّم ظاهرُهُ جِدٌّ وباطنه هزل، والهزل الذي يراد به الجدّ بعكسه، أي ظاهره هزل وباطنه جدٌّ.

والتهكّم كثير الدوران في كتاب اللّه العزيز، خاصّةً عند استعراضه لذكر الكفّار والمشركين والمنافقين، نحو قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

استعيرت البشارة التي هي الخبر السار، للإنذار الذي هو ضدّه، بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكّم والاستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[2].

---

١. النساء: ١٣٨.

٢. الدخان: ٤٩.

لأنّ المقصود هو الاستخفاف والإهانة، ولهذا ورد في حقّ من كان من أهل النار، والغرض منه الذليل المهان، أخرجه هذا المخرج للتهكّم، فيتمّ له مع العذاب الأوّل، وهو الحسّي، العذاب الثاني وهو النفسي.

وقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[١].

فيه تهكّم بأصحاب المشأمة؛ لأنّهم لا يستأهلون الظلّ البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنّة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾[٢].

فيه تهكّم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[٣].

يصوّر لنا القرآن حال المنافقين وهم يتعلّقون لحيرتهم ومهانتهم بأذيال المؤمنين، وقد شعّ نورهم فالتمسوا منهم أن يقتبسوا من هذا النور ـ عسى أن يتخلّصوا من ظلامهم الدائم، فيجيبهم صوت التهكّم والتنكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق. ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوه هناك.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[٤].

خطاب للمشركين، أي إن تطلبوا الفتح، أي القضاء، وأن يفصّل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم القضاء بما سألتم، وهو الهزيمة والخزي.

وقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[٥].

---

١. الواقعة: ٤٣ و ٤٤.

٢. الدخان: ٢٩.

٣. الحديد: ١٣.

٤. الانفال: ١٩.

٥. الحجر: ٢.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[٢].

على تفسير (المُعَقِّبات) بالحرس حول السلطان،يحفظونه على زعمه ـ من أمر اللّه وهو تهكّم؛ فإنّه لا يحفظه من أمر اللّه شيء إذا جاءه.

وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[٤].

والنزل لغةً: هو الذي يقدّم للنازل تكرمةً له قبل حضور الضيافة، ومنه قول الرسول الأكرمﷺ: «بَشِّرْ مالَ البَخِيلِ بِحادثٍ أو وارِثٍ».

وقول الإمام عليّ‌عليه‌السلام: «وآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ»[٥].

استعار لفظ الجود للمحتضر، ووجه المشابهة أنّه يسمح بنفسه ويسلّمها كما يسلّم الجواد ما يعطيه من مال.

ومنه قول ابن الرومي:

فـيالهُ مِـنْ عَـمَلٍ صـالِحٍ يَـرْفَعُه اللّـهُ إلى أَسْفَلِ[٦]

---

١. الأحزاب: ١٨.

٢. الرعد: ١١.

٣. الواقعة: ٥٦.

٤. الواقعة: ٩٢ـ ٩٤.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ٩٩ـ ٩.

٦. انظر: أنوار الربيع، ج٢، ص١٨٥ و ١٩٣ و ١٩٤؛ شرح الكافية البديعية، ص ٨٨؛ عروس الأفراح، ج٤، ص٤٧٢؛ تحرير التحبير، ص٥٦٨؛ بديع القرآن، ٢٨٣؛ شرح عقود الجمان، ص ١٣٠؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٨٠؛ حسن التوسل، ص ٣١٨؛ الطراز، ج٣، ص١٦٤ و ١٦٥.

وقول المتنبّي:

نَـــثَرْتَهُمْ فَـــوْقَ الأُحَـــيدِبِ نَـــثْرَةً كَما نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَراهِـمُ[1]

وقول الشاعر:

إذا المـلكُ الجـبّارُ صَـعَّرَ خَـدَّهُ أتـينا إليـهِ بـالسيوفِ نُـعاتِبُهُ

وقول امرئ القيس:

فَـأَنْشَبَ أَظْـفارَهُ فـي النَّسَـا فَـقُلْتُ هُبِـلْتَ ألا تَـنْتَصِرْ[2]

فقوله: «هبلت ألا تنتصر» تهكّم في غاية اللطافة والحسن.

لأنّ ما فعله، الكلب بالصيد هو غاية الانتصار[3].

١. ديوانه (الواحدي)، ج٣، ص٣٨٨.

٢. ديوانه، ص٩٧؛ المصباح، ص٢٤٣؛ الطراز، ج٣، ص١٦٥.

٣. المصباح، ص ٢٤٥؛ الطراز، ج٣، ص١٦٥.

الإدماج

الإدماج لغةً: مصدر «أَدْمَجَ» يقال: أدمَجَ الشيء في الشىء: أدخله وأحكم إدخاله، وأدمج كلامَهُ: لم يُبنْهُ، والإدماج: اللفّ، يقال: أدمجَ الحبلَ: أجاد فتله، وأدمجه في الثوب لفَّهُ فيه، واندمج الشيء وادّمج دخل في الشيء واستحكم فيه.

والإدماج اصطلاحاً: هو أن يُضمّن كلامُ سيق لمعنىً، مدحاً كان أو غيرهُ معنىً آخر، وهذا المعنى الآخر يجب أن لايكون مصرّحاً به ولايكون في الكلام إشعارٌ بأنّه مسوق لأجله، فهو أعمّ من الاستتباع عند قوم لأنّهم يخصّونه بالمدح، نحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾[1].

حيث سيقت لإثبات النفقة، وتضمّنت انتماء النسب إلى الآباء.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾[2].

أثبتت منّة الوالدة على الولد مع بيان أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر.

وسُمّي هذا النوع في أصول الحنفيّة بإشارة النصّ[3].

---

١. البقرة: ٢٣٣.

٢. الأحقاف: ١٥.

٣. الإيضاح، ص٢٨٣؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٣٤؛ أنوار الربيع، ج٦، ص٢٧٩.

ونحو قول المتنبّي:

أُقَلِّبُ فيه أَجْفاني كَأنّي أعُدُّ بِها على الدَّهْرِ الذُّنُوبا[١]

كلام الشاعر مسوق ـ أصلاً ـ لبيان طول الليل الذي بات يقلّب فيه أجفانه، ولكنّه ضمّن كلامه الذي ساقه لهذا الغرض معنى آخر لم يصرّح به وهو الشكوى من الدهر وتعداد إساءاته إلى الشاعر[٢]

وكقول ابن نباتة:

ولا بُدَّ لي مِنْ جَهْلَةٍ في وِصالِهِ فَمَنْ لي بِخِلٍّ أُودِعُ الحِلْمَ عِنْدَهُ؟

ضمّن الغزل الفخر بكونه حليماً المكنّى عنه بالاستفهام عن وجود خِلّ صالح؛ لأن يودعه حلمه، وضمّن الفخر الشكاية من الإخوان بقوله «فمن لي بخل». واللطف فيه أنّه لم يعزم على مفارقة الحلم؛ لأنّ الودائع تستعاد[٣].

ويقال في حسن هذا المحسّن البديعي وجماله ما ذكرناه في الاستتباع، ذلك أنّه لا يختلف عن الاستتباع إلّا في شموله المدح وغيره، في حين يُقصر الاستتباع على المدح، على المشهور بين البلاغيين[٤].

وعَدّ ابن رشيق القيرواني «الإدماج» من الاستطراد، ومثّل له بقول عبدالله بن طاهر لابن وهب حين وزّر للمعتضد، وكان الشاعر قد ساءت أحواله:

---

١. تقليب الأجفان كناية عن السهاد والأرق، وعدّ ذنوب الدهر كناية عن الشكوى، الكافي في علوم البلاغة، ج ٢، ص ٦١٦. انظر: ديوان المتنبي، ج ١١، ص ٣٣٨؛ التبيان، ص ٣٩٠؛ العمدة، ج ١، ص ٦٣٥؛ الايضاح، ص ٢٨٣؛ المصباح، ٣٥٧؛ الاشارات، ص ٢٢٥.

٢. لان الاستتباع عنده مدح يستتبع مدحاً آخر، والإدماج معنى يستتبع معنىً آخر وعلى تفسير غيره مساوٍ له.

٣. التبيان للطيّبي، ص ٣٩٠؛ المصباح، ص ٢٥٧؛ انظر: الطراز، ج ٣، ص ١٥٨؛ تحرير التحبير، ج ١، ص ٤٥٠؛ عقود الجمان، ج ٢، ص ١٢٨؛ الايضاح، ص ٢٨٣؛ الاشارات، ص ٢٢٥.

٤. الكافي في علوم البلاغة، ج ٢، ص ٦١٧.

أبىٰ دَهْرُنا إسْعافَنا في نُفُوسِنا وأسْعَفَنا فيمن نُحِبُّ وَنُكْرِمُ
فَقُلْتُ لَهُ: نُعماكَ فيهُم اتـمَّها وَدَعْ أمْرَنا إنَّ المُهِمَّ الُـمَقَّدَمُ[١]

فقد ضمّن الشاعر تهنئته لابن وهب شكواه من الزمن؛ لإظهار سوء حاله بغية الحصول على نوال الممدوح، وتلطّف حين صان نفسه من إظهار المسألة بالتصريح بها[٢].

وأدخل العلوي في الإدماج قسماً آخر هو اندراج نوعين من أنواع البديع أحدهما في ضمن الآخر، كقول الشاعر:

أأرضى أنْ تُصاحِبَني بَغيضاً مُـجاملةً وتَـحْمِلَني ثَـقيلا
وَحَـقِّك لارَضيتُ بـذا لأنّـي جَعلْتُ وَحَقّكَ القَسَمَ الجـليلا

فأدمج المبالغة في القَسَم وجعله مندرجاً فيها؛ لأنّ المبالغة ظاهرة في البيت، لكنّ القسم غير ظاهر؛ لأنّه لم يقل: «وحياتك» إنّما قال: «وحقّك القسم الجليلا»، فلهذا كان القسم مُدمّجاً في المبالغة، كما ترى[٣].

وعقد ابن منقذ للإدماج باباً مستقلّاً سمّاه باب «التعليق والإدماج» وعرّفه بقوله: إنّ صيغة ذلك هو أن تعلّق مدحاً بمدح، أو هجواً بهجو، أو معنىً بمعنى، كما قال المتنبّي:

إلى كَمْ تَرُدُّ الرُّسْلَ عمّا أتَوْا بهِ كَـأنَّهُمُ فـيما وَهَـبْتَ مُلامُ

أدمج ردّ الرسل بردّ الملام في الجود، فكلاهما مديح.

وأضاف: «أن يتخيّل الكاتب في بلاغته قصد شيء يُعَلّق به غيره»[٤].

---

١. العمدة، ج١، ص٣٦١ و ٦٣٢؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص١٣٦؛ كفاية الطالب، ص ١٨٧؛ الطراز، ج٣، ص١٥٧ و ١٥٨؛ تحرير التحبير، ص ٤٤٩؛ نهاية الأرب، ج٣، ص١٦٤؛ عقود الجمان، ج٢، ص١٢٨؛ الإيضاح، ص ٢٨٤؛ المصباح، ص ٢٥٧؛ حسن التوسل، ص٢٩٦.

٢. الطراز، ج٣، ص١٥٧ و ١٥٨؛ عقود الجمان، ج٢، ص١٢٩؛ المصباح، ص ٢٥٧.

٣. الطراز، ج٣، ص١٥٩.

٤. البديع في البديع، ص ٩٤ و ٩٦.

بينما ابن أبي الإصبع فرّق بين هذين الفنّين، فقال: «والفرق بين التعليق والإدماج أنّ التعليق يصرّح فيه بالمعنيين المقصودين مع شدّة اتّحادهما، والإدماج يصرّح فيه بمعنى غير مقصود قد أدمج فيه المعنى المقصود».

وعرّف الإدماج بقوله: هو أن يدمّج المتكلّم غرضاً في ضمن معنى قد نحّاهُ من جملة المعاني ليوهم السامع أنّه لم يقصده، وإنّما عرض له في كلامه لتتمّة معناه الذي قصد إليه، كقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ﴾[1].

فإنّ هذه الجملة قد أدمج فيها المبالغة في الحمد ضمن المطابقة؛ إذ أفرد نفسه ـ سبحانه ـ بالحمد حيث لا يُحمد سواه.

ومنه قول أحدهم.

رأى النّاسُ فَوْقَ المَجْدِ مِقْدارَ مَجْدِكُمْ
فَقَدْ سألُوكُمْ فَوْقَ ما كانَ يُسْألُ

وَقَصَّر عَنْ مَسْعاتِكُمْ كُلُّ آخرِ
وما فاتَكُمْ فيما تَقَدَّمَ أوَّلُ

ومالِيَ حَقٌّ واجِبٌ غَيْرَ أنّني
إلَيْكُمْ بكُم في حاجَتي أتوَسَّلُ

بَلَغْتُ الذي قَدْ كُنْتُ أمَّلْتُ فيكُمُ
وإن كُنْتُ لَمْ أبْلغ بِكُم ما أؤَمِّلُ[2]

وسمّاه أبو هلال العسكري «المضاعفة»، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3].

فالمعنى المصرّح به في هذا الكلام أنّه لا يقدر أن يَهْدِي مَنْ عَمِيَ عن الآيات،

---

١. القصص: ٧٠.

٢. تحرير التحبير، ج ١، ص ٤٥٠؛ البديع في البديع، ص ٩٥.

٣. يونس: ٤٢ و ٤٣.

وصَمّ عن الكلِم البيّنات، بمعنى أنّه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها، والمعنى المشار إليه أنّه فضّل السمع على البصر؛ لأنّه جعل مع الصمم فقدان العقل، ومع العمى فقدان النظر فقط[1].

وذكر البلاغيون أنّ الإدماج أعمّ من الاستتباع؛ لأنّه «تضمين كلام سيق لمعنى آخر»، كقول المتنبّي:

كأنّ دُجاهُ يجذبها سهادي ... فليس تغيب إلّا أن يغيبا
أُقلّبُ فيهِ أجفاني كأنّي ... أَعُدُّ بها على الدَهْرِ الذُنُوبا[2]

فإنّه ضمّن وصف الليل بالطول الشكاية من الدهر.

أي كأنّي اعدُّنجوم الليل الكثيرة التي هي عندي كذنوب الدهر في الكثرة.

والاستتباع هو: «المدح بشيء على وجه يستتبع المدح بشيء آخر»، كقول المتنبّي:

نهبتَ من الأعمار مالو حَوَيْتَهُ ... لهُنِّئت الدنيا بأنّكَ خالدُ[3]

فإنّه مدحه ببلوغه النهاية في الشجاعة؛ إذ كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم لخلد في الدنيا على وجه استتبع مدحه بكونه سبباً لصلاح الدنيا مهنّأه بخلوده[4].

---

١. كتاب الصناعتين، ص ٤٢٣.

٢. ديوانه، ج ١، ص ٢٣٩؛ الايضاح، ص ٢٨٣؛ التبيان، ص ٣٤٠؛ العمدة، ج ١، ص ٦٣٥؛ أنوار الربيع، ج ٦، ص ٢٧٩.

٣. ديوانه، ج ٢، ص ٧٢؛ الايضاح، ص ٢٨٣.

٤. معجم المصطلحات البلاغة، ج ١، ص ٨٦.

الاستيعاب والاستقصاء

الاستيعاب لغةً: ـ من وعَبَ، ويراد به الشمول، ومنه: استيعاب الحديث ـ فهم جميع معانيه. واستوعبه استيعاباً: أخذهُ بأجمعه واستأصله. واستوعب المكان والوعاء الشيء: وسعه.

والاستيعاب اصطلاحاً: هو أن يتعلّق بالكلام معنى له أقسام متعدّدة فيستوعبها في الذكر، ويأتي عليها[1]، كقوله تعالى:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾[2].

قسّم الناس على أربعة أصناف، فمنهم: من له بنات، ومنهم: من له بنون، ومنهم: ذو بنات وبنين، ومنهم: من هو عقيم، فهذه الآية مستوعبة لما ذكرناه[3].

وكقول ابن الرومي:

عفّى كلوم زماني ثُمّ قلّمهُ ... عنّي فأخفاه، ثُمّ اقتصّ ما اجترحا

حيث لم يغادر ركناً من أركان المعنى إلّا ذكره، فتمّ المعنى وجاء في نهاية البلاغة[4].

---

١. الطراز، ج٣، ص١٠٦.

٢. الشورى: ٤٩ و ٥٠.

٣. تحرير التحبير، ص ٥٠٤؛ بديع القرآن، ص ٢٤٧ بتصرّف.

٤. منهاج البلغاء، ص١٥٦.

والاستقصاء: «هو أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه حتّى لا يدع منه شيئاً إلّا وذكره»[١]، كقول عمر بن أبي ربيعة

تهِيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّمْلُ جامِعٌ ولا الحَبْلُ مَوصُولٌ ولا أَنْتَ تَقْصُرُ
ولا قُرْبُ نُعْمٍ إنْ دَنَتْ لك نافِعٌ ولا نَأْيُها يُسْلِي ولا أَنْتَ تَصْبِرُ[٢]

ومنه قول ابن الرومي:

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلاَلُ لو أَنَّهُ لَمْ يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنْ طالَ لم يُمْلَلْ وإنْ هي أوجَزت ودَّ المحدّثُ أَنَّها لَمْ تُوجزِ
شَرَكُ العُقُول، ونُزْهةٌ ما مِثْلُها للمُطْمئنّ وعُقْلَةُ المُسْتَوفِزِ

فقد استقصى وصف حديث هذه المحبوبة استقصاءاً تامّاً؛ إذ وصف حديثها بالسحر الحلال؛ لما فيه من التأثير في العقول، وجعله حلالاً لصدق الوصف، وليُضمّن كلامه معنى قول الرسولﷺ «أنّ من البيان لسحراً» فإنّ سحر البيان سحر حلال. ثمّ رجع مستدركاً بأنّ سحرها إنّما يكون حلالاً فيما لو لم يجن قتل المسلم المتحرّز؛ لكون قتل المسلم بغير حقّ حرام، فحصل في البيت طباق معنوي، فكأنّه قال، سحر حلال لو لم يجن حراماً، وبهذا طابق بين الحلال والحرام. وأحدث براءة المسلم المقتول بالحديث بالإيغال في قافية البيت، وهو قوله «المتحرّز»؛ لأنّ المتحرّز لا يقع في شيء من موجبات القتل، وفي ذلك مبالغة في وصف الحديث بإفراط الالتذاذ الذي يزهق حبّه النفس. ثمّ فكّر فيما يعرض من الملل بسبب طول الحديث، فاحترس عن ذلك بقوله: «إن طال لم يُملل». وبعد ذلك رأى أنّه متى اقتصر على وصفه بالحسن حالة الإطالة دون الإيجاز كان مقصّراً، فقال: وإن هي أوجزت ودّ المحدَّث أنّها لم توجز، ثمّ أراد وصفه بميل النفوس إليه إمّا اضطراراً أو اختياراً،

---

١. تحرير التحبير، ص ٥٤٠؛ بديع القرآن، ص ٢٤٧ بتصرّف.
٢. الطراز، ج٣، ص١٠٧.

فقال في الميل الاضطراري: «شرك العقول» فأخبر أنّه يصيد العقول قنصاً، ثمّ قال في الميل الاختياري مقسماً له قسمين: في حالتي الريث والعجل: ونزهة ما مثلها للمطمئنّ، وعقلة المستوفز. فإن كان مطمئنّاً كان الحديث نزهة، وإن كان مستوفزاً كان عقلة، فلم يبق في هذا المعنى مقالاً لمن بعده.

ومنه قوله تعالى:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾[1].

في هذا المثل الرائع استخدم الاستقصاء بأوسع صوره، حيث ذكر الجنّة وهي ما تألّفت من الأشجار المتكاثفة الملتفّة، ثمّ ذكر النخيل والأعناب كمثال على أفضل أشجارها، ثمّ زاد ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ متمّماً لوصفها بذلك؛ للدلالة على ديمومتها وخصبها، ثمّ وصفها بعد التتميمين فقال: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لكي يدفع توهّم اختصاص أشجار الجنّة على النخيل والأعناب، وبهذا صوّر سبحانه النعيم على أتمّ وجه وأبلغه.

ثمّ انتقل منه إلى أستقصاء ألوان الحَسرة حيث بدأ بوصفه بالكبر وإنّ له ذرّيّة ضعفاء، وأخيراً تعرّض لاستئصالها بالهلاك في أسرع وقت فقال «فأصابها أعصار» فيه ينمو، فيجتاح الأخضر واليابس، فإنّ مجرّد الأعصار لا تحصل به سرعة الهلاك إلّا إذا احتوى على النار المحرقة.

والفرق بين الاستقصاء والتتميم والتكميل أنّ التتميم يرد على المعنى الناقص ليتمّم بعضه، والتكميل يرد على المعنى التامّ فيكمل أوصافه. وأما الاستقصاء، فيرد على المعنى التامّ الكامل، فيستقصي لوازمه وعوارضه وأوصافه وأسبابه، حتى يستوعب جميع ما تقع الخواطر عليه، بحيث لا يترك لآخذه مجالاً لاستحقاقه[2].

---

١. البقرة: ٢٦٦.

٢. انظر: تحرير التحبير، ص ٥٠٦؛ بديع القرآن، ص ٢٢٢؛ الإتقان، ج ٣، ص ٢٥٣.

وقد نقل ابن الأثير الحلبي والسيوطي والسبكي ما قاله المصري حول الاستقصاء[١].

وكان عبد القاهر قد تحدّث عن استقصاء التشبيه[٢].

وقال السبكي «إنّه: قريب من مراعاة النظير»[٣].

---

١. جوهر الكنز، ص ٢٢٣؛ معترك الأقران، ج ١، ص ٣٧٠؛ عروس الافراح، ج ٤، ص ٤٧٠؛ المعجم النقدي، ج ١، ص ١٦٠.

٢. أسرار البلاغة، ص ١٦١ و ١٦٢.

٣. عروس الأفراح، ج ٤، ص ٤٧٠.

الفرائد

وهي إتيان المتكلّم بلفظه تنزل منزلة الفريدة «الحبّة الوسطى من العقد»، وهي الجوهرة التي لا نظير لها بحيث لو سقطت من الكلام لم يسدّ غيرها مسدّها، نحو قوله تعالى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾[1].

فكلمة «أهشّ» من الفرائد[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[3].

في لفظة فزع عن قلوبهم من غرابة الفصاحة ما لا مزيد عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[4].

حيث إن لفظة (خائنة) بمفردها سهلة مستساغة، كثيرة الجريان على الألسن، فلمّا أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع بحيث لا يتاح الإتيان بمثلها، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها.

---

١. طه: ١٨.

٢. أهشّ: أي أهزُّ بها الشجر واضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها. فترعاه غنمي وكان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنّه زاد في الجواب؛ لأنّ المقام مباسطة وقد كان ربّه يكلّمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وهذا ما يسمّى في علم المعاني بالإطناب.

٣. سبأ: ٢٣.

٤. غافر: ١٩.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[١].

أي ظهر وانكشف الحقّ وبان بعد خفائه.

وكلمة «حَصْحَصَ» مأخوذة من الحِصَّة، أي بانت حِصَّة الحقّ وجهته من حِصَّة الباطل، كما تتبين حصص الأراضي وغيرها، وذلك أنّ الحقّ في هذه القضيّة كان في رأي من بلغهم مُوزّع التبعة بيننا ـ معشر النسوة ـ وبين يوسف، لكلّ منّا حِصَّة بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحقّ في جانب واحد لإخفاء فيه، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفي، وها أنذا أشهد على نفسي شهادة إيجاب.

وكقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[٢].

فكلمة «الرَّفت» فريدة لا يقوم غيرها مقامها، والرفث ـ أيضاً ـ كناية عن الجماع، وعدّي بـ «إلى» لتضمّنه معنى الإفضاء.

ومن شواهد هذا الفنّ في الشعر قول أبي تمّام:

ومُـعْتَرِكٌ للشَـوْقِ أهـدى بـهِ الهـوى إلى ذي الهَـوَى نَـجْلَ العُـيُونِ رَبـائِبا

فالفريدة في لفظة «معترك» وقد اقتبسها ابن الفارض فقال:

ما بَيْنَ مُـعْتَرِك الأحْـداقِ والمُـهَجِ أنَـا القَـتِيلُ بـلا إِثْـمٍ ولا حَـرِجِ

ومنه أيضاً لأبي تمّام قوله:

وَقِـدْماً كُـنْتَ مَـعْسُولَ الأمـاني ومـأدومَ القـوافـي بـالسّدادِ

فلفظة «مأدوم» من الفرائد.

وأوّل من انتبه إلى الفرائد المصري، وهذا النوع مختصّ بالفصاحة دون البلاغة؛ لأنّ «مفهومه إتيان المتكلّم بلفظة تتنزّل من كلامه منزلة الفريدة من حبّ العقد تدلّ على عظم فصاحته، وقوّة عارضته، وشدّة عربيّته حتى إنّ هذه اللفظة لو سقطت من

---

١. يوسف: ٥١.

٢. البقرة: ١٨٧.

الكلام لعزّ على الفصحاء غرامتها»[١].

وتبع المصري المتأخّرون في هذا النوع[٢]، وقد تحدّث البلاغيون كابن سنان، وابن الأثير عن الكلمة وتأثيرها وإيحائها، ولم يسمّوا هذا الفنّ «الفرائد» وإنّما أدخلوه في بحث فصاحة الكلمة المفردة[٣].

وأَلفاظ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[٥].

ففي الآية الأولى يراد به لما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تامّاً، وعرفوا أن لاجدوى من الرجاء، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون، فقد ذكرت الآية صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير مايلقون به أباهم عند عودتهم إليه، ومايوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمّنت تلك الآية القصيرة معاني القصّة الطويلة[٦].

وأمّا الآية الثانية، فإضافة إلى فصاحتها: فيها استعارة تمثيليّة مثَّلَ للعذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم، فأناخ بفنائهم بغتة، ونصحهم بعض النصّاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم حتى اجتاحهم الجيش، قال الزمخشري: وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروقك موردها إلّا لمجيئها على طريقة التمثيل[٧].

---

١. تحرير التحبير، ص ٥٧٦؛ بديع القرآن، ص ٢٨٧.

٢. شرح الكافية البديعية، ص ٢٤٥؛ خزانة الأدب، ج ٤، ص ٨٢؛ معترك الأقران، ج ١، ص ٤٠٧؛ الإتقان، ج ٢، ص ٩٣؛ شرح عقود الجمان، ص ١٥٠؛ أنوار الربيع، ج ٥، ص ٢٦٧ عن معجم النقد العربي القديم، ج ٢، ص ١٦١.

٣. معجم النقد العربي القديم، ج ٢، ص ١٦٠ و ١٦١.

٤. يوسف: ٨٠.

٥. الصافات: ١٧٧.

٦. كتاب الشفا للقاضي عياض بحث إعجاز القرآن.

٧. الكشاف، ج ٤، ص ٥٢؛ صفوة التفاسير، ج ٣، ص ٤٨.

التهذيب

وهو التنقيح، والتصحيح، وتغيير الكلام الذي لا يراه الأديب جميلاً أو مناسباً، هذا في الأدب. **والتهذيب** لغةً: التنقية، وهذّبه: نقّاه وأخلصه.

وهو في علم البديع وصف يعمّ كلّ كلام منتحل وهو ترداد النظر في الكلام بعد نظمه ونثره وإمعان الفكر في تهذيبه وتنقيحه نظماً كان أو نثراً، وكشف ما يشكل من عويص معانيه، وغريب إعرابه، وطرح ما يتجافى عن مواطن الرقّة من لفظ قاس، وكلمة نابية جافية.

و أوّل من سمّى هذا المحسّن البديعي هو أسامة بن منقذ الذي عقد باباً سمّاه «التهذيب والترتيب» وقال: «ومن التهذيب أن يخلص المعنى قبل السبك للفظ، والقوافي قبل الأبيات»[1].

وأتبع الباب بجملة وصايا تتّصل بنظم الشعر، وجودة الكلام، وحسن سبكه وترتيبه[2].

وعقد المصري باباً لهذا الفن وقال: «التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لينقّح ويُتنبه منه لما مَرّ على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر

---

١. البديع في البديع، ص ٤١٢.

٢. انظر: معجم النقد العربي القديم، ج ١، ص ٤٠٤.

في العمل؛ فيغيّر منه ما يجب تغييره، ويحذف ما ينبغي حذفه، ويصلح ما يتعيّن إصلاحه، ويكشف عمّا يشكل عليه من غريبه وإعرابه، ويحرّر مالم يتحرّر من معانيه وألفاظه حتى تتكامل صحّته وتروق بهجته»[1].

وقال: «إنّ التهذيب لاشاهد له يخصّه؛ لأنّه وصف يعمُّ كلّ كلام منقّح محرّر إلّا أنّا نلخّصه فيما يعرّف به وهو أن نقول: كلّ كلام قيل فيه لو كان موضع هذه الكلمة غيرُها، أو لو تقدّم هذا المتأخّر. أو تأخّر هذا المتقدّم، أو لو تمّ هذا النقص، أو تكمّل هذا الوصف، أو لو أبدلت هذه اللفظة بتلك، أو لو طرح هذا البيت جملة، أو لو وضح هذا المقصد، أو تسهّل هذا المطلب، لكان الكلام أحسن، والمعنى أبين، فهو خالٍ من التهذيب، عارٍ من التنقيح والتأديب، ومن أمثلة ذلك قول سيف الدولة يخاطب أخاه ناصر الدولة:

وما كـانَ لي عَـنْها نُكولٌ وإنّـما تَجاوَزْتَ عَنْ حَقّي لِيَغْدُو لَكَ الحَقُّ

فإنّ سيف الدولة ـ كما قيل ـ كان قد عمل أوّلاً: «وما كان عنها لي نكول» ثمّ فطن إلى أنّ هذا السبك[2] يستثقل؛ لقرب الحروف المتقاربة المخارج، وإذا قدّم «لي» على لفظة «عنها» سهّل التركيب وحصل التهذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3].

وقد يقال: ما فائدة الفاصلتين وقد أغنى عنهما ما قبلهما؟ فيقال: في الكلام تقديم وتأخير إذا علم سقط معه السؤال وهو أن يقال: «ومنهم من ينظر إليك ولو كانوا لا يبصرون أفأنت تهدي العمي». والأخرى كذلك، ويرد على ذلك قول من يقول:

---

١. تحرير التحبير، ص ٤٠١.

٢. جوهر الكنز، ص ٢٩٥؛ أنوار الربيع، ج ٥، ص ١٤٩؛ الفوائد، ص ٢١٨؛ نفحات الأزهار، ص ١٨٠؛ معجم النقد العربي، ج ١، ص ٤٠٥.

٣. يونس: ٤٢ و ٤٣.

فما الداعي إلى وضع الكلام على التقديم والتأخير الذي هو أحد أسباب التـعقيد؟ قلت: الداعي إليه توحي الإتيان بمقاطع الكلام متماثلة مع ما قبلها ومع ما بعدها من الفواصل؛ فإنّ قبلها: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيـُٔونَ مِمَّآ أَعْـمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْـلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْـلِمُونَ﴾ ومعظم فواصل السورة على هذه الزنة والتقفية.

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰـلِمِينَ﴾[١].

أي جزاء العدوان الانتصار من الظالم من غير تعدٍّ في الزيادة، وإنّما سمّي ذلك سيّئة؛ لأنّها تسوء من تنزّل به، وسمّيت الثانية لمشابهتها الأولى في الصورة، فـفي هذه الآية فنّ التهذيب؛ إذ سلمت من المحذور الّذي يقتضي تهذيبها. فلو أسـندت الإساءة الثانية إلى اللّه لحذفت تأدّباً، كما في قوله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى﴾[٢].

فإنّ صحّة المقابلة في هذا النظم أن يقال: ليجزي الذين أسـاؤا بـالإساة حـتى تصحّ المقابلة بقوله: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى﴾ لكن منع من ذلك التزام الأدب مع اللّه سبحانه في إسناد فعل الإساءة إليه. فالآية ـ الّتي نحن بصددها ـ قد رفعت هذا المحذور، فأتى النظم على مقتضى البلاغة من مجيء تجنيس الازدواج فيه على وجهه من غير تغيير؛ إذ لا ضرورة تدعو إلى تغييره.

وفي قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰـلِمِينَ﴾[٣]. فنّ رفـيع وهو التهذيب ـ أيضاً ـ فإنّ الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السـيّئة والاعـتداء، خصوصاً في حالة الفوران والغليان، وفي هذا جواب لمن يتساءل ما مـعنى ذكـر

١. الشورى: ٤٠.

٢. النجم: ٣١.

٣. الشورى: ٤٠.

الظلم عقب العفو مع أنّ الانتصار ليس بظلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾[1].

لم يقل: فإنّه كفور ليسجّل على هذا الجنس أنّه موسوم بكفران النعم. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾[2].

فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان هو اسم «إنّ» فيقال: ألا إنّهم في عذاب مقيم.

وكان زهير بن أبي سلمى معروفاً بالتهذيب، وله قصائد تعرف بالحوليات؛ لأنّ كلّاً منها كان يستغرق سنة كاملة، يأخذ شعره بالتثقيف والتنقيح والصقل. فهو يفحص ويمتحن ويجرِّب كلّ قطعة من قطع نماذجه، حتى يخرج شعره بليغاً فصيحاً.

وما أحسن ما أشار أبو تمّام إلى التهذيب بقوله:

خُذْها ابْنَةَ الفِكْرِ المهذّب في الدُّجَى والَّليلُ أَسْوَدُ رقعةَ الجِلْبابِ[3]

فإنّه خصّ تهذيب الفكر بالدجى؛ لما في الليل من الهدوء والسكينة، فيكون الفكر فيه مجتمعاً، ومرآة التهذيب فيه صقيلة.

ويقول أبو تمّام في وصيّته للبحتري: «إيّاك وتعقيد المعاني، واجعل المعنى الشريف في اللفظ اللطيف؛ لئلّا يتلف أحدهما الآخر، ومتى عصى عليك الشعر اتركه، ومتى طاوعك عاوده، وروّح الخاطر إذا كلَّ، وأعمل في أحبّ المعاني إليك،

---

١. الشورى: ٤٨.

٢. الشورى: ٤٥.

٣. الجلباب: الثوب الواسع الفضفاض. انظر: ديوان أبي تمام، ج ١، ص ٩٠، والبيت من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي. انظر: العمدة، ج ١، ص ٦٧٦.

وفي كلّ ما يوافقه طبعك، فالنفوس تعطي على الرغبة، ولا تـعطي عـلى الإكـراه، وأعمل الأبيات متفرّقة على ما يجود به الخاطر، ثمّ أنظمها في الآخر وحصل المبدأ والمقطع والمخرج فهو أصعب ما في القصيدة، وميّز بفكرك محطّ الرسالة، ومـصبّ القصيدة؛ فإنّه أسهل عليك وأنظمها أوّلاً وهذّبها آخراً».

المغالطة المعنويّة

والإلغاز والاشتراك اللفظي

المغالطة: من تسمية عبد القاهر الجرجاني، وسمّاها السكّاكي: «الأُسلوب الحكيم»[1] وذكرها السيوطي باسم: «مجاوبة المخاطب بغير ما يترقّب»[2]، وهي من خلاف مقتضى الظاهر، قال ابن الأثير في المغالطات المعنويّة: «وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه؛ لما فيه من التورية. وحقيقته أن يذكر معنى من المعاني له مِثْلٌ في شيءٍ آخر ونقيض. والنقيض أحسن موقعاً، وألطف مأخذاً»[3].

وقال: «إنّ المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيئان: أحدهما: دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعي، والآخر: دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه»[4].

فالأوّل: الذي يكون له مثل يقع في الألفاظ المشتركة، فمن ذلك قول بعضهم من أبيات يهجو بها شاعراً، فجاء من جملتها قوله:

وَخَلَطْتُمْ بَعْضَ القرآنِ بِبَعْضِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ فَجَعَلْتُمُ الشَعَراءَ في الأَنعامِ[5]

---

١. مفتاح العلوم، ص ١٥٥.

٢. شرح عقود الجمان، ص ٢٩؛ معجم النقد العربي، ج ٢، ص٣٢٧.

٣. المثل السائر، ج ٢، ص٢٠٤.

٤. المصدر، ص٢١٢.

٥. المصدر، ص٢٠٤.

فالشعراء والأنعام كما يصلحان أن يكونا اسمين للسورتين المعروفتين، فهما كذلك يصلحان ليكونا جمع شاعر ونِعَم وهي البقرة والغنم والإبل وهذه مغالطة رشيقة؛ لاشتمالها على ذكر الأمرين جميعاً[١].

وأمّا القسم الآخر ـ وهو النقيض ـ، فإنّه أقلّ استعمالاً من القسم الأوّل الذي قبله؛ لأنّه لا يتهيّأ استعماله كثيراً، فمن جملته ما ورد شعراً لبعضهم، وهو قوله:

وَما أَشْياءُ تَشْرِيها بِمالٍ فَإِنْ نَفَقَتْ فَأَكْسَدُ ما تَكُونُ

يقال: نفقت السلعة، إذا راجت، وكان لها سوق، ونفقت الدابّة: إذا ماتت، وموضع المناقضة هاهنا في قوله: «إنّها إذا نفقت كسدت»، فجاء بالشيء ونقيضه، وجعل هذا سبباً لهذا، وذلك من المغالطة الحسنة[٢].

وفرّق ابن الأثير بين الجناس والمغالطة المعنويّة قائلاً: «إنّ الفرق بين هذين النوعين ظاهر، وذاك أنّ التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرّتين، فهو يستوي في الصورة ويختلف في المعنى ... والمغالطة ليست كذلك، بل يذكر فيها اللفظ مرّة واحدة، ويدلّ به على مثله وليس بمذكور»[٣].

وقال ابن قيم الجوزيّه: «المغالطة: ذكر الشيء وما يتوهّم مقابلاً له، وليس كذلك»[٤].

وسمّى الزركشي «التورية» بمسمّيات عدّة فقال: «وتسمّى الإيهام، والتخييل، والمغالطة، والتوجيه، وهي أن يتكلّم المتكلّم بلفظ مشترك بين معنيين: قريب وبعيد، ويريدبه المعنى البعيد، ويوهم السامع أنّه أراد القريب»[٥].

---

١. المصدر، ج٢، ص٢٠٤.

٢. المصدر، ص٢٠٨ و ٢٠٩.

٣. المصدر، ص٢١٠.

٤. الفوائد، ص ١٧٥.

٥. البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٤٤٥.

وليست هذه هي المغالطة، وإنّما هي التورية[١] وقد أدخلها العلوي في التـورية، وقال أنها: «مغالطة معنويّة» وهي الضرب الأوّل، وأمّا الضرب الثاني، فهو «الإلغاز» و «الأحجيّة» بينما رأينا أنّ ابن الأثير اعتبر التورية من المغالطات المعنويّة.

ويوضح العلوي رأيه قائلاً: «اعلم، أنّ المغالطة المعنويّة هي أن تكـون اللـفظة الواحدة دالّة على معنيين على جهة الاشتراك، فيكونان مرادين بالنية دون اللـفظ؛ وذلك لأنّ الوضع في اللفظة المشتركة أن تكون دالّة على معنيين فصاعداً على جهة البدليّة، هذا هو الأصل في وضع اللفظ المشترك، فإذا كان المعنيان مراديـن عـند إطلاقه، فإنّما هو بالقصد دون اللفظ، والفرق بين المغالطة والإلغاز هو أنّ المغالطة ـكما ذكرنا ـ إنّما تكون بالألفاظ المشتركة، وهي دالّة على أحدهما على جهة البدليّة وضعاً، وقد يرادان جميعاً بالقصد والنيّة، بخلاف الإلغاز؛ فإنّه ليس دالاّ على معنيين بطريق الاشتراك ولكنّه دالّ على معنى من جهة لفظه وعلى المعنى الآخر من جهة الحدس لا بطريق اللفظ فافترقا ـ بما ذكرناه ـ»[٢].

فالمغالطة هو أن يذكر المتكلّم لفظاً مفرداً له معنيان، ويراد به أحدهما دون الآخر على جهة البدليّة، أو يراد به على السواء بالقصد والنيّة.

أمّا التورية، فلها معنيان: أحدهما: قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر: بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيّة، فيقصد المتكلّم المعنى البعيد؛ لقرينة خفيّة ويـوّري عـنه بالقريب، فيوهم السامع أوّل وهلة أنّه يريد القريب.

وكان ينبغي أن يفرّق العلوي بين التورية والمغالطة، لا أن يدخل المغالطة فـي التورية ليجعلها أموراً مشتركة في كونها دالّة على أمور بظواهرها ـ على حدّ تعبيره ـ ولعلّه كان دقيقاً في تعريفه للإلغاز، وهو يريد به التعبير عن الشيء بعبارات يدلّ

---

١. المعجم النقدي، ج٢، ص٣٢٧.

٢. الطراز، ج٣، ص٦٣.

ظاهرها على غيره وباطنها عليه.

والجاحظ وضع باباً في اللغز والجواب[١] أقرب إلى ما جاء فـي المـغاليط عـند ابن الأثير.

وقال الحاتمي: «إنّما سمّي اللغز لغزاً؛ لأنّ اللغز والإلغاز ماخفي مـذهبه وبـعد مطلبه، مأخوذ من الأرض اللغز واللُّغَيْزَى وهي الخفيّة»[٢].

ولعلّ من أجمل التعريفات في مصطلح هذا الفنّ ماجاء بـه طـاش كـبرى زاده بقوله: علم الإلغاز يتوقّف تفصيله على تقديم تعريفه، وذلك أنّ الألغاز دلالة الألفاظ على المراد دلالةً خفيّة في الغاية، لكن لا بحيث تنبو عنها الأذهان السـليمة، بـل تستحسنها وتنشرح لها بشرط أن يكون المراد من الذوات الموجودة في الخـارج، وأمّا إن كان المراد اسم شيء، سواء كان إنساناً أم غيره، فيسمّى مُعَمّى[٣].

وقال ابن وهب: «هو قول استعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجّة. وفائدته في العلوم الدنيويّة ترويض الفكر في تصحيح المـعاني، وإخـراجـها مـن المناقضة والفساد إلى المعنى الصواب والحقّ وقدح الفطنة في ذلك، واستنجاد الرأي في استخراجها»[٤].

ويرى العلوي في الطراز أنّ الكناية والتعريض والمغالطة والأحـاجي والألغـاز كلّها أُمور مشتركة في كونها دالّة على أُمور بظاهرها، ويفهم عند ذكرها أمور أُخرى غير ما يعطيه ظاهرها، والذي نذكره هاهنا إنّما هو المـغالطة والألغـاز والأحـجية ـ والكلام للعلوي ـ وهي مندرجة في الألغاز وليس بينها تفرقة، فهذان ضربان نذكر ما يتعلّق بكلّ منهما، وهذه الأمور كلّها وإن كانت قريبة المـأخذ سـهلة المـدرك،

---

١. البيان والتبيين، ج٢، ص١٤٧.

٢. حلية المحاضرة، ج٢، ص١٧٨.

٣. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج١، ص٢٧٢ و ٢٧٣.

٤. البرهان في وجوه البيان، ص ١٤٧.

وكونها بليغة، ولكنّها غير خالية من تفنّن في الكلام، واتّساع فيه وتدلّ على تصرّف بالغ، وقوّة على تصريف الألفاظ واقتدار على المعاني، فهي غير خالية من فنّ من فنون البلاغة، وعلم البديع، وقد جرت عادة العلماء من أَهل البلاغة على ذكرها، والكلام عليها، فلا جرم أن أوردناها، ولم نخل هذا الكتاب منها[1].

وقال ابن سنان: «إنّ الموضوع على وجه الألغاز قد قصد قائله إغماض المعنى وإخفاءه، وجعل ذلك فنّاً من الفنون ليُسْبَرُ بها أفهام الناس، وتمتحن أذهانهم»[2]، كقول أبي العلاء المعرّي:

وَجبتُ سَرابيّاً كأَنَّ إكامَهُ ... جوار ولكنْ مالهُنَّ نُهُودُ

تَمَجَّسُ حرباءُ الهجيرِ وَحَوْلَهُ ... رَواهِبُ خَيطٍ والنهارُ يَهُودُ[3]

فقوله: «جوار» أَلغَزَ بها الجواري من الناس، وهو يقصد جريهنّ في السراب، وقوله: «نهود» ألغز بها عن نهود الجواري، وهو يريد بـ «نهود» «نهوض». وقوله: «تمجّس حرباء» أي صار لاستقباله النار أو الشمس كالمجوس الذين يعبدونها ويسجدون لها. وجعل الرواهب النعام لسوادها، ويهود: بمعنى يرجع، وقد ألغز بذلك عن اليهود لمّا ذكر المجوس والرواهب.

والألغاز عند ابن الأثير الأغاليط في الكلام أو الأحاجي، وقد يسمّى المعمى، وهو يشتبه بالكناية تارة، وبالتعريض أخرى، ويشتبه ـ أيضاً ـ بالمغالطات المعنويّة، ووقع في ذلك عامّة أرباب هذا الفنّ. فمن ذلك أنّ أبا الفرج الأصفهاني ذكر بيتي الأقيشر الأسدي في جملة الألغاز، وهما:

وَلَقَدْ أَروحُ بِمُشْرِفٍ ذي مَيْعَةٍ ... عَسِرِ المَكَرَّةِ ماؤُهُ يَتَفَصَّدُ

مَرِحٍ يَطِيرُ مِنْ المِرَاحِ لعُابَهُ ... وَيَكادُ جِلْدُ إهابِهِ يَتَقَدَّدُ

---

١. الطراز، ج٣، ص٦٢ و ٦٣.

٢. الطراز، ج٣، ص٦٢ و ٦٣.

٣. لزوم مالايلزم، ص٢٣١، جبت: قطعت واجتزت؛ سرابيا: أراد قفراً فيه السراب.

وهذان البيتان يُعدّان من باب الكناية؛ لأنّهما يُحملان على الفرس، أوعلى العصف المخصوص، وإذا حمل اللفظ على الحقيقة أو المجاز فكيف يُعَدّ من جملة الألغاز[١].

ولم يفرّق ابن الأثير بين الألغاز والتورية وقد فرّق بينهما غيره وقال: «الفرق بينه وبين التورية المحضة أنّ الكلام فيها صحيح على كلا المعنيين من غير اشتراط استحالة أحدهما أو بُعد وقوعه أو شدّة غرابته، واللغز بخلاف ذلك؛ فإنّه لابدّ أن يكون فيه وصف المورّى به مستحيل الوقوع عادة أو عقلاً أو بعيداً جدّاً حتى يستغربه السامع، فيتطلّب بقدح زناد الفكر معنى آخر ممكناً[٢].

ونقل البغدادي في خزانة الأدب فرقاً بين المعمّى واللغز فقال: «واللغز ذكر أوصافٍ مخصوصةٍ بموصوفٍ لينتقل منها إليه، وذلك بعبارةٍ يدلّ ظاهرها على غيره وباطنها عليه «وبهذا يستطيع الملغِزُ أن يأتي: «بعدّةٍ أوصافٍ في ألفاظٍ مشتركة من غير ذكر الموصوف ويشير بها إلى مقصودٍ مجهولٍ، وقد يكون بقلبٍ أو بتصحيفٍ لبعض الألفاظِ» على أنّ التفرقة بينه وبين المعمى كانت مدار الكلام كثيرين الدالّ على بعض الأسماء يكون معمّى من حيث أنّ مدلوله اسم من الأسماء بملاحظة الرمز على حروفه، ولغزاً من حيثُ إنّ مدلوله ذاتٌ من الذوات بملاحظة أوصافها، فعلى هذا يكون قول القائل في كمّون:

يا أيُّها العطارُ أعْرِب لنا ... عن اسمِ شيءٍ قَلَّ في سَوْمكا
تنظرهُ بالعينِ في يقظةٍ ... كما يُرى بالقلبِ في نَومِكا[٣]

يصلح أن يكون لغزاً بملاحظة دلالته على صفات الكمون، ويصلح أن يكون

---

١. سر الفصاحة، ص ٢٦٥.
٢. المثل السائر، ج٢، ص٢١١.
٣. إقامة الحجة، ص ٦٣.

معمّى باعتبار دلالته على اسمه بطريق الرمز[١].

وبهذا يعلم أنّ الكلام الواحد يمكن أن يكون معمّى ولغزاً باعتبارين؛ لأنّ المدلول إذا كان ألفاظاً وحروفاً، فإن قُصِدَ بهما معنىً أخر يكون معمّى، وإن قصد ذوات الحروف، على أنّها من الأشياء والذوات يكون لُغزاً[٢].

وممّن رفضوا دلالة الذوات والحروف في هذا ابن الأثير واعتبر أنّ الحدس والتخمين هما السبيل إلى الاهتداء إلى المعنى لا بدلالة اللفظ عليه لا حقيقةً أو مجازاً، ولا من عُرْضه؛ لأنّ قول القائل في الضرس وهو للأمير أُسامة بن منقذ:

وصاحِبٍ لا أَمَلُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ   يَشْقي لِنَفْعِي وَيَسْعَى سَعْيَ مُجْتَهِدِ
ما أَنْ رَأَيْتُ لَهُ شخصاً فَمُذ وَقَعَتْ   عَيْنِي عَلَيْهِ افْتَرَقْنا فُرْقَةَ الأَبدِ

لا يدلّ على أنّه الضرس، لامن طريق الحقيقة، ولا من طريق المجاز، ولا من طريق المفهوم، وإنّما هو شيء يحدس ويخمن، والخواطر تختلف في الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه[٣].

ولا يخرج كلام الحلّي والحموي والسيوطي والمدني والنابلسي عمّا ذكره المتقدّمون[٤].

ويرى البعض أنّ للغز أسماء منها: «المعاياةُ، والعويصُ، والرمز، والمحاجاة، وأبيات المعاني، والملاحن، والمرموسُ، والتأويل، والكناية، والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمّى، والممثّلُ، ومعنى الجميع واحد، واختلافها حسب اختلاف وجوه اعتباراته، فإنّك إن اعتبرته من حيث إنّ الملغز كأنّه يعييك أي يظهِرُ إعياءَك أي: يتعبك سمّيته معاياة، وإذا اعتبرته من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجه سمّيته عويصاً، وإذا

---

١. خزانة الأدب، ج٣، ص١١٣.

٢. مفتاح السعادة، ج١، ص٢٧٤.

٣. خزانة الأدب، ج٤، ص١٩٦؛ ولب لباب العرب، ج٣، ص١١٣.

٤. المثل السائر، ج٢، ص٢١٢.

اعتبرته من حيث أنّه قد جُعل على وجوهٍ وأبواب سمّيته لغزاً وفعلك له إلغازاً، وإذا اعتبرته من حيث إنّ الواضع لم يفصح عنه، قلت: رمزٌ وقريب مـنه الإشـارة، وإذا اعتبرته من حيث إنّه استخرج كثرة معانيه، سمّيته أبيات المعاني وإذا اعتبرته مـن حيث إنّ قائله يُوهِمُكَ شيئاً ويريد غيره سمّينه لحناً، وسمّيت فعلك الملاحن، وإذا اعتبرته من حيث إنّه سُتر عنك ورُمّسَ فهو المرموس، والرَّمس القبر وإذا اعتبرته من حيث إنّ معناه يؤول إليك سمّيته مُؤَوّلاً وسمّيت فعلك تأويلاً، وإذا اعتبرته من حيث إنّ صاحبه لم يصرّح بغرضه سمّيته تعريضاً وكناية[1] وإذا اعتبرته من حيث إنّه ذو وجوه سمّينه المُوجَّه، وسمّيت فعلك التوجيه، وإذا اعتبرته من حيث إنّه مُغَطّى عليك سمّيته مُعَمّى».

وقد يُجزّأ الاسم الملغز به، نحو قول ابن دريد في هجاء نِفْطويه:

أحْـرَقُه اللّـهُ بِـنِصْفِ اسْـمِهِ   وَصَيَّرَ الباقي صُراخـاً عَـلَيْهِ

وهذا ما اصطلح عليه بـ«التحليل».

وقسّم بعض الدارسين الألغاز إلى قسمين: معنوي ولفظي: فالمعنوي ما يشار فيه إلى الموصوف بمجرّد ذكر صفاته الذاتيّة، كقول مَنْ ألْغَزَ في القلم

وذي خُضُوعٍ راكعٍ ساجدٍ   وَدَمْعُهُ من جـفنِهِ جـاري

مواظبُ الخمسِ لأوقـاتِها   منقطعٌ في خدمِةِ البـاري

ولا مانع من أن يسمّى أيضاً باللغز الساذج أو الوصفي:

واللفظي: ما يشار فيه إلى الموصوف بذكر كلمات تتضمّن اسمه أو بعض أحرفه تضمّناً خفيّاً، ويُشار لذلك إمّا بالتصحيف، أو بالقلب، أو بـالحذف، أو بـالتبديل، أو ما أشبه ذلك. ولا مانع من أن يسمّى باللغز المصنّع أو الأسمى.

---

١. الكناية هي اللفظ الدالّ على ما أريد به الحقيقة والمجاز جميعاً بخلاف التعريض؛ فإنّه غير دالّ عـلى مـا يـدلّ عليه حقيقة، ولا مجازاً وإنّما يدلّ عليه بالقرينة.

وقد يقع الإلغاز بالمعاني فتسمّى «أبيات المعاني» لأنّها لا تفهم من أوّل وهلة، وقد يقع في اللفظ أوالتركيب أو الإعراب، وقد ألّفوا في ذلك كتباً[١]، وهو علم عرّفه العرب منذ الجاهليّة، فقد انشد ابن سلام لأبي دؤاد الأيادي:

رُبَّ كـلبٍ رأيـتُهُ فـي وثـاقٍ ... جـعلَ الكلبَ للامـيرِ جـمالا

رُبَّ ثورٍ رأيت في حُجر نَمْلِ ... وقـــطاةٍ تـــحملُ الاثـــقالا

فالكلب: الحلقة في السيف، والثور: ذكر النمل، والقطاة من الدابة: العَجُزُ ومركب الرديف.

ربَّ ثورٍ رأيتُ في حجر نملٍ ... ونــــهارٍ فــي ليـلةٍ ظـلماءِ

فالثور: هاهنا القطعة من الاِقِطِ وهي اللبن اليابس، والنهار: فرخ الحباري فـإذا قصد هذا المعنى صحّ الكلام، وإذا حمل على ظاهر لفظه كان محالاً[٢].

وتنقسم الألغاز المعنويّة وتتفرّع إلى تفريعات تتعلّق بموضوعات العلوم ومن هنا ظهرت الألغاز الفنّيّة وهي تتعلّق بدقائق كلّ علم وفنّ، فـظهرت الألغـاز النـحويّة والألغاز الحسابيّة والفقهيّة واللغويّة، أمّا الألغاز النحويّة، فهي كثيرة ومـن أمـثلتها قول، كقول الشاعر:

وَصِيغةُ الماضي تُرى مُضارِعاً ... مِنْ لفِظها فيه يُـرى الفِـعلان

يعني مثل تحامىَ وتعاطى وتسمّى وتزكّى كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فهذا ماضٍ وكقوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ على قراءة التخفيف فهذا مضارع على

---

١. انظر: معجم النقد العربي، ج ١، ص٢٢٨ و ٢٢٩؛ تحرير التحبير، ص ٥٧٩؛ شرح الكافية البديعية، ص ٢١٢؛ خزانة الأدب، ج ٢، ص٣٤٢؛ شرح عقود الجمان، ص ١٣٧؛ أنوار الربيع، ج٦، ص ٤٠؛ نفحات الأزهار، ص ٣٠؛ التبيان للطيّبي، ص ٣٠٢.

٢. ذكر عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب: من أجلّ التصانيف المؤلّفة في الألغاز والأحاجي كتاب الإعجاز في الأحاجي والالغاز تأليف أبي المعالي سعد الوراق الخطيري. وفي ديوان الشاعر ابن عنين باب خاص بالألغاز وكتاب الألغاز والأحاجي اللغوية للاستاذ أحمد محمد الشيخ والذي اغترفنا منه كثيراً من كتابه وخاصة في بحث الألغاز.

حذف إحدى التائين، ويحتمل الوجهين بيت امرئ القيس:

تحاماه أطرافُ الرماحِ تـحامياً   وجادَ عليه كلُّ أسحم هـطّالِ

واذا قيل: أين موضع حذفت فيه ألف لا، فالجواب هو في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ﴾ على قراءة جماعة.

وقال علم الدين السخاوي:

وهــل مـن مُـضمرٍ بـالميم وافٍ   لغــير ذوي العــقول المـدركاتِ

وهو نحو قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾ حيث استعمل ضمير مَنْ يعقِل لِمَنْ لا يعقل.

وهذا متصوّف عالمٌ يلهج بعلامات الإعراب والبناء في وجده وأذكاره، متناولاً النحو على مذهب التصوّف يقول ابن عربي:

حركاتُ الحروفِ ستّة ومـنها   أظــهر اللّـه مـثلَها الكـلماتِ

هي رفعٌ وثَمَّ نـصبٌ وخـفضٌ   حـركاتُ الأحـرفِ المـعرباتِ

وهـي فـتحٌ وثـمَ ضَـمٌ وكسـرٌ   حــركاتُ الأحـرفِ الثـابتاتِ

هــذه حــالةُ العــوالمِ فـانظرْ   في حياةٍ غـريبةٍ فـي مـواتِ[1]

ومن الألفاظ التي تُدُوّلت في النحو وصارت من أمثاله فـي كـلّ مـوقف ومـن تمثيلاته في كلّ بسط وشرح كلمتا عمرو وزيد وفي قوله:

أفي الحقّ أن يُعطى ثمانون شـاعراً   ويُحْرَمُ ما دونَ الورى شاعرٌ مـثلى

كـما ألحــقوا عـمراً بـواوٍ مـزيدة   وضويقَ باسم اللّه في ألفِ الوَصْـلِ

واستعذب القوم ألفاظ الرفع والنصب والخـفض ومـفردات الأسـماء والأفـعال والجموع فأتوا فيها بما هو ستعذب المورد ومستلذّ الوقع إجادة وحسناً كقوله:

عليك بأرباب الصدور فمن غَدَا   مضافاً لأربابِ الصـدور تَـصَدّرا

---

١. مجله مجمع اللغة العربية: القاهرة، الجزء ٣٠، ص ١٦٨.

وإيّاكَ أنْ ترضى بُصحبةِ ناقص فتنحط قدراً من علاك وتحُقَرا

فرفعُ أبُو من ثُمَّ خفُض من مَلّ يُبَيِّين قولي مُعرِباً ومُحذّرا

أمّا الألغاز الحسابيّة، فتتعلّق بموضوع الحساب، كقول الشاعر:

غزالٌ غزا قلبي بألحاظٍ وأحداقِ

له الثلثان من قلبي وثلثا ثلثهِ الباقي

وثلثُ ثلثِ ما يبقى وباقي الثلثِ للساقي

وتبقى اسهمٌ ستّة تقسَّمُ بينَ عشاقي

والجواب أنّ المقدار أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط أربعة وعشرون سهماً[١]

وممّا جاء في المسائل الفقهيّة قوله:

ولي خالَةٌ وأنا خالُها وَلي عَمَّةٌ وَأَنا عَمُّهَا

فأمّا التي أنا عَمٌّ لها فإنّ أَبي أُمُّهُ أمُّها

أبُوها أخِي وأَخُوها أبي وَلي خالَةٌ هكذا حُكمُها

قوله: «ولي خالَةٌ» صورتها رجلٌ له امراتان، أولد واحدة بنتاً والأخرى ابناً، ثمّ زوّج بنته من أبي امرأته التي ولدت ابناً فجاء ببنت، وهي خالة ابنه، وهو خالُها.

وأما العَمّة، فصورتها رجلٌ له ابنٌ، ولابنهِ أخٌ من أُمِّهِ فزوّجَ أخاه أُمَّ أبيهِ فجاء ببنتٍ، وهي عمَتُّهُ، وهُوَ عَمُّها[٢].

وأمّا الاشتراك اللفظي، فهو أن يذكر المتكلّم لفظة مشتركة بين معنيين، فيتبادر إلى ذهن السامع أنّه يقصد معنى منهما، فيبادر المتكلّم إلى تصحيح هذا الاعتقاد، وإيضاح المعنى المقصود، نحو قول كثير عزّة:

وأنتِ التي حَبّبْتِ كُلّ قصيرةٍ إليّ ولم تَعْلَمْ بذاك القصائِرُ

---

١. (الخلاصة الاكتسابية في الألغاز الحسابية) مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٤٠٥٥.

٢. التبيان للطيّبي، ص ٣٠٥ والأبيات أوردها ضياء الدين في المثل السائر، ج٢، ص٢٢٩ وذكر أنّ الحريري أوردها في مقاماته ألغازاً في مسائل فقهية، انظر: مقاماته، ص٣٣٣ المقامة ٣٢ بها مائة مسألة فقهية ملغزة.

عَنيتُ قصيرات الحـجال ولم أُرِد قصارى الخُطا شرُّ النساءِ البحاتِرُ

فنحن نفهم من البيت الأوّل أنّه يقصد قصارى النساء، لكنّ الشاعر يصحّح وهمنا ويبيّن أنّ المقصود قصيرات الحِجال: (الحجال: جمع حَـجَلة وهـو سـتر يُـضرب للعروس في جوف البيت).

ويختلف الاشتراك أو المشاركة عن التوهيم في أنّه يكون في لفظة مشتركة، أمّا التوهيم، فيكون بها وبغيرها، ويختلف عن الإيـضاح فـي أنّ هـذا الأخـير يـتعلّق بالمعاني لا بالألفاظ.

الترشيح

هو أن يؤتى بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتّى يـؤتى بـلفظه تـؤهلها لذلك.

ويأتي على لونين:

الأوّل: أن تذكر في الكلام كلمة لا تصلح لنوع من المحسّنات البديعيّة أو البيانيّة إلّا إذا ذُكر بعدها كلمة ترشّحها لذلك، كما في المواضيع التالية:

أ) التورية المرشّحة: وهي التي يذكر فيها ما يناسب المعنى القريب «الموَرّى به»، كقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1].

فالتورية في لفظه «أيد» التي لها معنيان:

١. الأيد وهي جمع يد، وهذا المعنى القريب الموَرّى به غير مراد.

٢. اليد بمعنى «القوّة» وهذا هو المعنى الموَرّى به والمقصود. وذكر اللّه تـعالى ما يناسب المعنى القريب لـ «أيد» وهو: (التوسعة).

وقوله عزّوجلّ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾[2].

فلفظة «ربّك» رشّحت لفظة «ربّه» في الآية وفيها تورية؛ إذ يحتمل أن يراد بها

---

١. الذاريات: ٤٧.

٢. يوسف: ٤٢.

الإله تعالى، وأن يراد بها الملك.

وقول الشاعر:

مُذْ هَمّتُ من وَجْدي في خالها وَكَمْ أصْلِ مِنْهُ إلى اللَّثْمِ

قالت: قفوا واستمعوا ما جَرى خالي قَدْ هامَ بِهِ عمّي

فالتورية في لفظة «خالها» التي لها معنيان:

١. أخو الأمّ وهذا هو المعنى القريب المورّى غير مراد.

٢. الشامة السوداء التي تظهر على الجلد وتكون علامة حسن وجمال وهذا هو المعنى البعيد المورّى به والمقصود، وقد ذكر الشاعر ما يناسب المعنى القريب وهو «أخو الأمّ» وهو لفظة «عمّي» أي أخو الأب.

وقول التهامي:

وإذا رَجَوتَ المستحيلَ فإنّما تَبْني الرجاء على شَفيرٍ هارِ

فذكر «الشفير» يرشّح «الرجاء» للتورية برجا البئر وهو ناحيتها، ولولا ذكره ماكان فيه تورية، ولكان من رجوت بمعنى أمّلت وهو بمعنىٰ ضدّ اليأس فقط لقوله أوّلاً: «واذا رجوت المستحيل».

ب) الاستعارة المرشّحة: وهي التي تقترن بما يلائم المستعار منه، نحو قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾[1].

شبّه «الاختيار» بـ «الاشتراء» بجامع الفائدة، ثمّ استعير فعل الاشتراء وهو «اشتروا» للمشبه وهو «الاختيار»، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي لفظيّة، وهي لفظة «الضلالة»، وقد ذكر في هذه الآية الكريمة شيء يلائم المشبّه به أعني «الاشتراء»، وهو قوله ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾.

وكقول أبي تمّام:

---

١. البقرة: ١٦.

وَيَـصْعَدُ حـتى يَـظُنَّ الجَـهُولُ بـأنَّ له حـاجَةً فـي السـماءِ

فإنّه استعار الصعود لعلوّ القدر، ثمّ بنى عليه ما يبنى على علوّ المكان والارتقاء إلى السماء من ظنّ الجهول أنّ له حاجة فيها، فلولا أنّ قصده تناسى التشبيه وإصراره على إنكاره حتى جعله صاعداً في السماء من حيث المسافة المكانية لماكان لهذا الكلام وجه، ففي الاستعارة مبالغة، فترشيحها وتزيينها بما يلائم المستعار منه تحقيق لذلك وتقوية لها.

وقول الشاعر:

إذا ما رأيتُ النَّسـر عَـزَّ ابـنُ دايَـة وعشَّش في وَكْرَيْهِ طارَتْ لَهُ نَفْسي

شبّه الشيب بالنسر، والشعر الأسود بالغراب، واستعار التعشّش من الطائر للشيب، والوكرين للرأس واللحية، ورشّح به إلى ذكر الطيران الذي استعاره لنفسه من الطائر.

الثاني: التمهيد للطباق، نحو قول الشاعر:

وَخُـفُوقُ قَـلْبِ لو رأيتِ لَـهِيبَهُ يـا جَنَّتِي لَظَنَنْتِ فـيه جَـهَنَّما

حيث جاء بلفظ «جنّتي» لتصح المطابقة بينها وبين «جهنم» ولو قال مكانها: يا «منيتي»، لم يكن في البيت مطابقة، فإنّ «يا جنّتي» رشّحت لفظة «جهنّم» للمطابقة، وكقول صفيّ الدين الحلّي:

إنْ حَلَّ أرْضَ أُناس شَدَّ أَزْرَهُمْ بِمَا أَباحَ لَهُمْ مِـنْ حَـلِّ وِزْرِهِـم

فقوله «شدّ» في البيت رشّحت لفظة «حلّ» للمطابقة، ولو أبقاها على حالها بمعنى الحلول لم يكن في البيت مطابقة البتّة.

وفرّق المصري بين الترشيح والاستعارة والتورية في ثلاث مسائل:

الأُولى: أنّ من التورية مالا يحتاج إلى ترشيح، وهي التورية المحضة.

الثانية: أنّ الترشيح لا يختصّ بالتورية دون بقيّة الأبواب، بل يعمّ الاستعارة والطباق وغيرهما.

الثالث: أنّ لفظة الترشيح في كلام الموَرّي غير لفظة التورية، فإنّ التورية في قول الإمام عليّ عليه السلام: «وكان أبوهُ هذا ينسج الشِمالَ باليمين» في لفظة «الشمال» والترشيح في لفظة «اليمين».

والترشيح ـ أيضاً ـ أن يذكر شيء يلائم المشبّه به إن كان في الكلام تشبيه، أو المستعار منه إن كان فيه استعارة ـ كما مرّ في الاستعارة المرشّحة ـ أو المعنىٰ الحقيقي إن كان فيه مجاز مرسل، كما في قوله صلى الله عليه وآله: «أسْرَعكُنَّ لُحوقاً بي أطولكنَّ يَداً» فإنّ «أطولكنّ» ترشيح لليد وهو مجاز عن النعمة[1].

وقديكون الترشيح للاستخدام، كقول أبي العلاء المعرّي في صفة الدرع:

تلك ماذيّةٌ وما لذباب الـ ... ـصَّيْفِ والسَّيفِ عندها من نصيبِ

فإنّ ذكر «السيف» رشّح «الذباب» لاستخدامه في معنى طرف السيف، ولولاه لانحصر في معنىٰ الحشرة المعروفة.

وعليه فإنّ الترشيح لا يختصّ بفنّ بعينه: ولهذا فإنّ ابن معصوم المدني لم يجعله فنّاً واحداً وإنّما خصَّصه بعدّة فنون وقال: «إنّ الترشيح لا يختصّ بنوع من البديع، فمن زعم أنّه ضرب من التورية فلا معنىٰ لجعله نوعاً برأسه، فقد توهّم»[2].

---

١. الكليات، ص ٣٠٢.

٢. أنوار الربيع، ج٦، ص١٦٣.

براعة الاستهلال أو حسن الابتداء

وهو أن يكون مطلع النصّ الأدبي موافقاً من حيث المعنى واللفظ والوضوح للمقصود.

والبراعة: هي التفوّق. والاستهلال: الافتتاح والابتداء.

قال ابن المقفّع: «ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»[1].

وعلّق الجاحظ على ذلك بقوله «كأنّه يقول: فرّق بين صدر خطبة النكاح وصدر خطبة العيد، وبين خطبة الصلح، وخطبة التواهب حتّى يكون لكلّ فنّ من ذلك صدر يدلّ على عجزه؛ فإنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معناه «المعنى الذي قصدته» ولا يشير إلى مغزاه «المغزى الذي تقصده»، ولا إلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت».

وكانت هذه إشارة إلى الاهتمام بمثل ذلك في الشعر والنثر. ولذلك قال ابن جنّي: «إذا كان المترسّل حاذقاً أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله[2] وعقد الكلاعي فصلاً سمّاه «الإثارة في الصدور إلى الغرض المذكور»[3] وذكر ابن المعتزّ فنّاً

---

١. البيان والتبيين، ج١، ص٥٦.

٢. إحكام صنعة الكلام، ص٦٦.

٣. ن.م، ٦٦ وما بعدها.

سمّاه «حسن الابتداءات»[١]. وقال الحموي عن هذهالتسمية: «وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع، وإن أخلّ الناظم بهذه الشروط لم يـأت بشـيء مـن حسـن الابتداء»[٢]. وقد فرّع المتأخّرون من هذه التسمية «براعـة الاسـتهلال» وهـي: «أن يبتدئ بما يدل على غرضه»[٣].

أي أنّ حسن الابتداء هو أن يتضمّن مطلع الكلام من عناصر الحسن والروعـة مايشدّ إليه انتباه المتلقّي؛ ليكون حافزاً على حسن الإصغاء، فيحيا جمال وجلال الكلام إلى نهايته بقوّة وقع الاندفاعة الأولى.

وأمّا براعة الاستهلال، فهو أن يكون في مقدّمة الكلام ما يناسب الغرض الذي قصد إليه الشاعر أو الكاتب، وذلك باشتمالها على إشارات لطيفة إلى المقصود ليُعدّ ذهن المتلقّي لما سيأتي من الكلام، ويزداد انفعال المتلقّي له عندما يصدف توقّعاته في الكلام الآتي، ويأتيه الأديب بإثارات تنتمي إلى الغرض نفسه.

وذكر الطيبي في حسن براعة الاستهلال شرطين:

أحدهما: أن يتضمّن معنى ما سيق الكلام لأجـله؛ ليكـون الابـتداء دالاًّ عـلى الانتهاء.

ثانيهما: أن يجتنب في المديح مما يُتطيّرُ به[٤].

وقال حازم القرطاجني: ولا يخلو الإبداع في المبادئ من أن يكون راجعاً إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادّة، واستواء نسج، ولطف انتقال، وتشاكـل اقـتران، وإيجاز عبارة، وما يجري مجرى ذلك ممّا يستحسن في الألفاظ، أو إلى ما يرجع إلى المعاني من حسن محاكاة ونفاسة مفهوم وتطبيق مفصّل بالنسبة إلى الغـرض،

---

١. البديع، ص٧٥.

٢. خزانة الأدب، ج١، ص٣٠٧.

٣. الوافي، ٢٨٤.

٤. التبيان، ص٤٥٦و ٤٥٩؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٤.

وما يجري مجرى ذلك ممّا يستحسن في المعاني، أو إلى ما يرجع إلى النظم من إحكام بنية وإبداع صيغة ووضع، وما يتناسب ذلك ممّا يحسن في النظم، أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب من حسن منزع ولطيف منحى ومذهب، وما يجري مجرى ذلك ممّا يستحسن في الأساليب.

وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلّم من جميع جهاته. فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأُسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقّة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد. فإنّ طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر.

وممّا تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع، أو أن يشرب ما يؤثّر فيها انفعالاً ويثير لها حالاً من تعجيب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك ممّا تقدّمت الإشارة إليه[1].

وقال البغدادي: «وأمّا براعة الاستهلال فهي من ضروب الصنعة التي يقدّمها أمراء الكلام ونقّاد الشعر وجهابذة الألفاظ. فينبغي للشاعر إذا أنشأ قصيدة في مدحٍ كان أو ذمٍّ أو فخرٍ أو وصفٍ أو غير ذلك من أفانين الشعر أن يبدأها بما يدلّ على غرضه فيها. شأن الخطيب إذا ارتجل خطبة، والبليغ إذا افتتح رسالة؛ إذ من شأنه أن يكون أبتداء كلامه دالاً على انتهائه وأوّله ملخّصاً بآخره»[2].

فبراعة الاستهلال هي: «ابتداء المتكلّم بمعنى ما يريد تكميله وإن وقع في أثناء القصيدة»[3]. ولذلك فرّق المصري بين أمثلتها وأمثلة حسن الابتداءات ممثّلاً لها بقول محمّد بن الخياط:

---

١. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٣٠٩ وما بعدها.

٢. قانون البلاغة، ص١١٦؛ رسائل البلغاء، ص ٤٥٠.

٣. تحرير التحبير، ص١٦٨، وينظر: كفاية الطالب، ص٥٢.

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الغِنَى ولَمْ أَدْرِ أنّ الجودَ من كفِّهِ يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذَوُو الغِنَى أَفدتُ وأَعْداني فأَنفَدتُ ما عندي

وأضاف ابن أبي الإصبع المصري: أنّ فواتح السُّور الفرقانيّة تحمل من البراعة والتفنّن في الفصاحة مالا تقدر على حصر مغزاها، ذاكراً فضائلها ومعانيها الجمّة في كتابه المنعوت بالخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح، وتبعه النويريّ والحلبيّ في أُسلوبه ونهجه، فقال الحلبي عن براعة الاستهلال: «ويسمّى حسن الابتداءات، وهو من نعوت الألفاظ، وهو أن يكون مطلع الكلام دالاًّ على المقصود في حسن الابتداء»[١].

وكما هو ملاحظ فإنّه متباين مع ما صرّح به السابقون من أنّ هذا الفنّ هو ممّا فرّعه المتأخّرون عن حسن الابتداءات[٢].

ولكن النابلسي سمّاهُ باسم «براعة المطلع». وقد أشار السيوطي إلى أنّ من «الابتداء الحسن» نوعاً يسمّى «براعة الاستهلال» والناظم البارع من إذا وافق بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، وهذا ما وقّعه ابن أبي الإصبع في تفريع حسن الابتداء، فقال: «واعلم، أنّ المتأخّرين فرّعوا على حسن الابتداء براعة الاستهلال ... وهو أن يكون أوّل الكلام دالاًّ على ما يناسب حال المتكلّم متضمّناً لما سبق لأجله من غير تصريح، بل بألطف إشارة يدركها الذوق السليم[٣].

وعدّ القزويني براعة الاستهلال من حسن الابتداء، قال: «وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمّى براعة الاستهلال»[٤]. وتبع القزويني في ذلك شرّاح تلخيصه[٥]، ولم يخرج الآخرون على ما عرّفه المتقدّمون.

---

١. الإيضاح، ص٤٣١.
٢. حسن التوسل، ص ٢٥٠؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٣.
٣. المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص ٢٦٢.
٤. شروح التلخيص، ج٤، ص٥٣٣، انظر: معجم النقد العربي، ج١، ص٢٧٣ و ٢٧٤.
٥. البديع في ضوء أساليب القرآن، ص١٧٤.

قال اللّه تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١].

لمّا كان سبب نزول سورة التوبة مقاطعة الكفّار، ومنابذة المشركين، ونبذ عهودهم بُدأت بما يناسب ذلك من الأمر بقتالهم، والإشارة إلى معاداتهم وإسقاط عهدهم. فأُسقطت البسملة الدالّة على الرحمة، وابتدئ بالبراءة من المشركين مشيراً إلى نبذ عهودهم، وهذا ما يسمّى حسن «الابتداء مع براعة الاستهلال».

ومن ذلك ابتداء سورة الأنعام وهو يشير إشارة واضحة إلى ما تضمّنته السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّـلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَـفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٢].

في هذه الآية إشارة إلى أمور ثلاثة: وصف اللّه بالقدرة، وبالإنعام على عبادة، ثمّ إشراك الكفّار به، وهذه عناصر ثلاثة نجدها واضحة كلّ الوضوح في هذه السورة.

وقوله[٣] تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٤].

فقد استهلّ السورة بالإشارة إلى بدء الخلق والتكوين، وألمح إلى دور المرأة المهمّ، وأوصى بصلة الرحم.

وكذا فقد استهلّ سورة الواقعة بأحوال يوم القيامة، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال. ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ...﴾ وانقسام الناس إلى ثلاثة طوائف: أصحاب السبق، واليمين، والشمال، ثمّ فصّل مآل كلّ فريق، وما أعدّه اللّه تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، وختمت السورة بنفس التصنيف الثلاثي: السابقون إلى الخيرات من أهل

---

١. التوبة: ١.

٢. الأنعام: ١.

٣. تحرير التحبير، ص ١٦٨؛ أنوار الربيع، ج ١، ص ٣٤.

٤. النساء: ١.

النعيم، وأهل السعادة، وأهل الشقاوة، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أوّل السورة من أجمال، والإشارة بذكر مآثر المقرّبين في البدء والختام...

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

استهلّت السورة الكريمة بنداء الرسول نداءً لطيفاً ينمّ عن لطف اللّه عزّوجلّ ورحمته بعبده ورسوله محمّدﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة اللّه ابتغاء مرضاته، وطالبت السورة بقيام الليل ليستعدّ للأمر الجليل. والمهمّة الشاقّة إلّا وهي تبليغ دعوة ربّه للناس، ثمّ وضّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة اللّه: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ فالنقصان والزيادة والنصف والقلّة تفصيلات للإجمال المشار إليه في ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ وبهذا يكون ارتباط الأجزاء بعضها مع الآخر قائماً على بناء خاصّ هو إجمال الموضوع وتفصيله. وختمت السورة الكريمة بتخفيف اللّه عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرّغ الرسول وأصحابه لبعض شؤون الحياة.

وإذا تأمّلت بقية فواتح السور، وذلك كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

والابتداءات بالنداء، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾[٤].

وكذلك ابتداء بعض السور بالحروف المقطّعة، مثل:

---

١. الفاتحة: ٢.

٢. سبأ: ١.

٣. الحج: ١.

٤. الاحزاب: ١.

﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[١].
﴿الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.
﴿الٓر * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.
﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

وغير ذلك من الآيات الدالّة على إعجاز القرآن. كلّ ذلك يوقظ السامعين للإصغاء إليه، وذلك دليل على جودة البيان، وبلوغ معانيها إلى الأذهان، وتغلغلها في أعماق القلوب في أوّل جولة يجول فيه تدبّر العقل.

واستنّ على هذا المنوال الرسول الأكرمﷺ في خطبه، ومن أشهرها خطبة الوداع؛ إذ يقول:

«إنّ الحمد للّه نحمده، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهد اللّه فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه، وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبدُه ورسوله. أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، وأحثّكم على طاعة اللّه، واستفتح بالذي هو الخير» إلى آخر الخطبة.

فقد استهلّها بالصلاة والتوحيد والابتعاد عن الشرك، ثمّ أخذ يستحثّ عباد اللّه على التقوى، ويذكر شريعته في المال والدماء، ثمّ أخذ يفصّل تلك الخطوط الأساسيّة تفصيلاً لا يدع مجالاً للغموض.

ثمّ نهل أمير المؤمنين من هذا المعين حيث يقول في الخطبة القاصعة.

«الحمدُ للّهِ الذي لَبِسَ العِزَّ والكبرياءَ، وأختارَهُما لنفسِهِ دونَ خلقِهِ، وَجعلهُما حِمىً وَحَرماً على غيرِهِ، واصطفاهُما لجلالِهِ، وَجَعلَ اللعنةَ على من نازعَهُ فيهِما من عبادِهِ، ثُمّ اخْتَبَرَ بذلِكَ ملائِكَتَهُ المُقَرَّبينَ، لِيَميّزَ المتواضعينَ مِنْهُم مِنَ المُسْتكبرينَ ...»[٢].

---

١. البقرة: ٢.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

فبدأ الخطبة بـ «التحميد» للّه تعالى الذي اقترن بالعزّ والكبرياء، دون أن يقرنه بصفات اللّه الأخرى، ثمّ أكّد بأنّ العزّ والكبرياء قد خصّ اللّه بهما ذاته، وجعل اللعنة على من ينازعه فيهما، بهذا مهّدت المقدّمة فنياً للدخول في الموضوع الذي يتناول سلوك ابليس القائم على عنصر التكبّر حيث تكفّلت الخطبة بشرحه مفصّلاً، فإبليس ـكما نعرف جميعاً ـ هو أوّل من حاول أن ينسب العزّ والكبرياء لنفسه عندما امتنع عن السجود لآدم. وأوّل من صبّ اللّه عليه اللعنة، فتكون براعة الاستهلال قد تمّت نحو يتجانس مع الموضوع المطروح في النصّ[١].

فمن الابتداءات المختارة قول امرئ القيس:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ　　بِسَقْطِ اللّوى بينَ الدَخُولِ فَحَوْمَلِ[٢]

فإنّه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب، والمنزل في نصف بيت مع عذوبة اللفظ.

وقول النابغة:

كليني لهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبٍ　　وَلَيْلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكواكِبِ[٣]

وصدر أراحَ الليلَ عازِبَ هَمِّهِ تضاعَفَ فيهِ الحزْنُ من كلِّ جانبِ

قال ابن المعتزّ: قول النابغة مقدّم على قول امرئ القيس؛ لأنّه وإن بالغ في المشطور الأوّل لكن قصّر في الثاني حيث أتى لمعانٍ قليلة في ألفاظ كثيرة غريبة.[٤]

وقال القرطاجني: المصراع الأوّل من قول امرئ القيس في غاية الإبداع ونهاية الانطباع، وليس المصراع الثاني كذلك، وإن كان له قسط من الفصاحة؛ لأنّ

---

١. تاريخ الأدب العربي، ص٢٢٣ و ٢٢٤ بتصرّف.

٢. ديوانه، ص٨؛ أنوار الربيع، ج١، ص٣٥ و ٤٤؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص٢٢٤، سقط اللوى، الدخول، حومل: أسماء اماكن في الصحراء.

٣. النابغة الذبياني حياته شعره، ص٤٩؛ الإيضاح، ص٣٧٠؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٤، ناصب: متعب. بطيءالكواكب: كناية عن طول الليل. وحاصل البيت: إظهار الحزن والتحسّر، والشاهد فيه حسن الابتداء.

٤. التبيان للطيّبي، ص٤٥٦.

كثيراً من الشعراء الفحول يجاريه في مثل صيغة المصراع الثاني، ويتمّم مبداَهُ بمثل ما تمّمه به[١].

وقول الأعشى:

كَفى بـالذي تـولّينه لو تـحبّبا شفاء لسقمٍ بعد ما كانَ أَشْيَبا[٢]

وقول القطامي:

إنّا مُحيّوك فأسلمْ أيّها الطَلَلُ[٣]

وقول بشّار:

أبـى طـلل بـالجزعِ أَنْ يـتكلّما ومـاذا عـليه لو أجـابَ مُـتيّما[٤]

وقول حبيب الطائي[٥]

يا بُعد غـاية دمـع العـين إنَ بُـعدوا هـي الصـبابة طـول الدهـرِ والسـهدِ

وقول أبي العلاء:

مُـعَانٌ مِـنْ أحِـبَّتِنا مُـعَانُ تُجيبُ الصَّاهِلاتِ بهِ القِـيَانُ[٦]

وفي تهنئة المولود قول أبي محمّد الخازن:

بُشْرى، فَقَدْ أنْـجَزَ الإقـبالُ مـا وَعَـدا وَكَوْكَبُ المَجْدِ في أُفُقِ العُلا صَعَدا[٧]

---

١. منهاج البلغاء، ص ٣١١.

٢. الديوان، ج ٣، ص ١١٣؛ منهاج البلغاء، ص ٣١٢.

٣. ورد هذا الشطر مفرداً. في الأغاني. ج ٣، ص ١٢٨.

٤. الأغاني، ج ٣، ص ١٤٨.

٥. الديوان، ج ١، ص ٤٩.

٦. سقط الزند، ص ٦٤؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٥٧، ومعان الأولى: موضع، والثانية: منزل، والصاهلات: الخيول، والقِيان: المغنيات.

٧. هو أن يأتي بأعذب الألفاظ وأجزلها وأرقّها وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً وأصحّها مبنىً وأوضحها معنىً وأخلاها من الحشو والركة والتعقيد، وعلّلوا لما بسطوه من ذلك الشروط قائلين: لأنّه أوّل ما يقرع السمع، فان كان ـ كما ذكرنا ـ أقبل السامع على الكلام، فوعى جميعه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان في غاية الحسن. البلاغة والتطبيق، ص ٤٦٢ و ٤٦٣.

ومثله قول أشجع السلمي يهنّئ ببناء قصر:

قصرٌ عليهِ تحيّةٌ وسلامُ ... خلعَتْ عليهِ جمالَها الأيّامُ[١]

وفي الحكمة قول المتنبّي:

الرأيُ قبل شجاعة الشُّجعان ... هُو أوّلٌ وهي المحلُّ الثاني

فإذا هُما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ ... بلغت من العلياءِ كُلَّ مكانِ[٢]

وفي المرثية قول أبي الفرج الساوي في فخر الدولة ابن بويه:

هِيَ الدُّنيا تَقُولُ بِمَلءِ فيها ... حذارِ حذارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

وَلا يَغْرُرْكُمُ حُسْنَ ابْتِسامِي ... فَقَوْلِي مُضْحِكٌ، والفِعْلُ مُبْكِي[٣]

ومن ألطف البراعات براعة مهيار الديلمي فقد بلغه أنّه وشِيَ به إلى ممدوحه، فتنصّل من ذلك بألطف عذر، وأبرزه في معرض النسيب فقال:

أمَا وَهَواها حِلْفَةً وَتَنَصُّلا ... لَقَدْ نَقَلَ الواشِي إليها فأَمْحَلا

سَعَى جُهْدَهُ لَكِنْ تَجاوَزَ حَدَّهُ ... وَكَثَّرَ فارتابَت ولوشاءَ قَلَّلا

وقول أوس بن حجر:

أيتها النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعا ... إنَّ الذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعا[٤]

إنَّ الذي جَمَعَ الشجاعةَ والنجْـ ... ـدَةَ والحَزْمِ والندى جُمِعا

الألمعيُّ الذي يظُنّ بك الظنو ... نَ كأَنْ قد رأى وقد سَمِعا

وقول علقمة بن عقدة:

طحا بك قَلبٌ في الحسانِ طروبُ ... بُعيد الشبابِ عَصْرَ حانَ مسيبُ

---

١. المصدر.

٢. يتيمة الدهر، ج٣، ص ٢٤٠؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص٢٣١؛ أنوار الربيع، ج١، ص٥٧؛ التبيان، ص ٤٥٧.

٣. الصناعتين، ص ٤٥٣؛ المثل السائر، ج٢، ص٢٣٩؛ الطراز، ج٢، ص٢٧٧؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص٢٢٥؛ التبيان للطيّبي، ص٤٥٨؛ الإيضاح، ص٣٢٤.

٤. العرف الطيب، ج٢، ص٤٣٩؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٥٩.

وقول أبي ذؤيب:

أَمِـينَ المَـنُونِ وَرَيْـبِها تَـتَوجَّعُ والدَهْرُ ليسَ بِمُعتِبٍ من يَجزَعُ

واعتمد بعض علماء البلاغة مصطلح «براعة المطلع» بدلاً من حسن الابـتداء، وأراد به ما يرادف مصطلح حسن الاستهلال، وخصّه ببداءات القـصائد ومـطالعها، وعرّفه بأنّه عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في اسـتهلالها، وأن لا تـتجافى بجنون الألفاظ عن مضاجع الرقّة، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقّصاً عند السماع، وطرق السهولة متكفّلة لها بالسلامة من تجشّم الحزن. وعرض على ضوئه شروطاً إضافيّة ينبغي توفّرها في مطالع القصائد إلى جانب الشروط العامّة[١] التي لابـدّ أن تتوفّر في ابتداءات فنون المنثور، ومن هذه الشروط: أن لا يكون مـطلع القـصيدة متعلّقاً بما بعده من الأبيات، وأن يناسب بين قسميه أتمّ المناسبة بحيث لا يكون أحد الشطرين أجنبيّاً عن الآخر لفظاً ومعنىً.

ومن مطالع المتنبّي المشهورة:

أُغالبُ فيكِ الشوقَ والشوقُ أغلبُ

وقوله:

أَتَـظُنُّني مِـن زَلَّـةٍ أَتَـعَتَّبُ قَلْبِي أَرَقُّ عليكَ مِمّا تَحْسَبُ[٢]

وقوله:

فراقٌ، وَمَـنْ فـارقْتُ غَـيْرُ مَـذَمَّمِ وأَمٌّ، وَمَـنْ يـمّمت خَـيْرُ مُـيَمَّمِ[٣]

وقوله:

نـــودعهم والبـين فـينا كـأنّه قنا ابن أبي الهيجا في قلب فيلق

---

١. يتيمة الدهر، ج٣، ص٣٩٦؛ معاهد التنصيص، ج٤، ص٢٤١؛ أنوار الربيع ١: ٦٣، التبيان للطيّبي، ص ٤٥٩.

٢. الإيضاح، ص ٥٩١. و الشاهد فيه حسن الابتداء في الفراق.

٣. المصدر، ص ٥٩٢.

وما ألطف قول أبي تمّام في هذا الباب:

لا أَنْتَ أَنْتَ وَلا الدِيــارُ ديــارُ خَفَّ الهَـوى وَتَـقَضَّتْ الأوطـارُ

وكقوله يهنّئ المعتصم بفتح عمورية وكان المنجّمون قد زعموا أنّها لا تفتح في ذلك الوقت:

السَّــيْفُ: أَصْـدَقُ أَنـباءً مِـن الكُـتُبِ /في حَدِّهِ الحَـدُّ بَـيْنَ الجَـدِّ واللَّـعِبِ

بيضُ الصفائِحِ لا سُودُ الصحائِفِ فـي مُـــتُونهنَّ جَـــلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ[1]

وقد خلب القلوب ابن المعتزّ في تناسب القسمين بقوله:

أَخَـذتْ مـن شبابي الأيّـامُ وَتَولّى الصِـبا عـليهِ السـلامُ

وما أحلى ما ناسب ابن هانئ قسمي مطلعه بالاستعارات الفائقة، حيث قال:

بَسَـمَ الصـباح لأُعـين النـدماء وانشقّ جـيب غـلالة الظـلماء[2]

ويحسن أن يبتدأ في المديح بمثل قول أَبْزُون العُماني:

على مِـنْبَرِ العـلياءِ جَـدُّكَ يَـخطبُ ولِلبَلدةِ العَـذْراءِ سَـيْفُك يَـخْطُبُ[3]

وقول المتنبّي:

عَــدُوّكَ مَــذْمُومٌ بكــلِّ لسـانٍ وإنْ كانَ مِنْ أعدائِكَ القَـمَرانِ[4]

وقول التيفاشي:

ما هَزّ عِـطْفَيْهِ بـين البـيضِ والأَسَـل مِثلُ الخليفة عبد المـؤمن بـنِ عـلى

وفي التشبيب كقول أبي تمّام:

عـلى مِـثلها مـن أربُـعٍ ومـلاعبِ أُذيلت مَصُوناتُ الدموع السواكبِ[5]

---

١. المصدر، ص ٥٩٤.

٢. الشعر والشعراء، ج٢، ص٧٥٥؛ حسن التوسل، ص ٢٥٢؛ التبيان، ص ٤٥٧؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٤.

٣. ديوانه، ص ٣٤٢؛ حسن التوسل، ص ٢٥٢؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٤.

٤. ديوانه، ج١٥، ص٢٠٥؛ حسن التوسل، ص ٢٥٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٤.

٥. ديوانه، ج٢، ص٣٦٢؛ حسن التوسل، ص ٢٥٣؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٤.

وقوله متغزّلاً:

عَسى وَطَنٌ يَـدْنُو بِـهِمْ وَلَـعَلَّما وأَنْ تُعْتِبَ الأَيّـامُ فِـيهِمْ فَـرُبَّما

وفي النسيب، كقول المتنبّي:

أَتـــراهـــا لِكَـــثْرَةِ العُشّـــاقِ تَحْسبُ الَدمْعَ خِلْقَةً في المآقِـي[١]

وفي المراثي، كقول أبي تمّام:

كذا فَلْيَجِلَّ الخَـطْبُ ولْـيَفْدَحَ الأَمْـرُ وليسَ لعينٍ لم يَـفِضْ مـاؤُها عُـذْرُ[٢]

ومن أمّهات شعر أبي تمّام قوله:

الحَـقُّ أَبْـلَجُ والسُّـيُوفُ عـوارِ فحذارِ من أُسْدِ العَرِينَ حَذَارِ

وقوله:

أجَلْ أيّـها الربْـعُ الذي خَـفَّ أهْـلُهُ لَقَدْ بَـلَغَتْ فـيك النـوىٰ مـاتحاوِلُهُ

وقوله:

يارَبعُ لو رَبَـعُوا عـلى ابـن هُـمومِ مُســتَسلِمٌ لجَـوى الفـراقِ سَـقِيمِ

وقول التهامي يرثي ولده:

حُكْـمُ المـنيّةِ فـي البـريّةِ جـارى مـــاهدهِ الدنــيا بــدارِ قــرارِ[٣]

وفي العتاب والشكوى:

إذا لم يســالمك الزمــانُ فـحاربْ وبـــاعِد إذا لم تـــنتفِعْ بـــالأقارِبْ

وينبغي للشاعر أن يتحرّر في ابتداءاته مما يُتَطَيَّرُ منه، ويستحقر مـن الكـلام، خاصّة في المدائح والتهاني.

وأنكروا على أبي نواس قوله في أوّل قصيدة مدح بها البرامكة:

---

١. ديوانه، ج ٤، ص ٧٩؛ حسن التوسل، ص ٢٥٣.

٢. معاهد التنصيص، ج ٤، ص ٢٤٢.

٣. راجع الديوان، ص ٤٧٣ وبعده:

بفضل بن يحيى أشرقت سبل الهدى وآمـن ربّـي خـوف كـلّ بـلاءِ

أَرَبْعَ البِلَى، إنَّ الخُضُوعَ لَبادِ عليكَ وإنّي لَمْ أَخُنْكَ وِدادي[١]

فلمّا انتهى إلى قوله:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فُقِدْتُم بَني بَرْمَكٍ مِنْ رائِحين وَغادِ[٢]

استحكم تطيّرهم، وقيل: إنّهم نكبوا بعد ذلك بأسبوع واحد. وكذلك قوله في مدح الأمين:

يا دارُ ما فَعَلَتْ بِكِ الأَيّامُ لم تُبْقِ فيكِ بَشاشَةً تُسْتامُ

مع أنّها من أشرف شعره وأعلاه منزلة حيث أجاد الابتداء والمطلع إلّا أنّ افتتاح المديح بذكر الديار واندثارها مما يتطيّر منه، ولا سيّما في مشافهة الملوك.وكذلك تطيّر المعتصم لمّا مدحه ابن إبراهيم الموصلي بقوله:

يا دارُ غيَّركِ البِلىَ وَمَحَاكِ ياليْتَ شِعْري ما الذِي أبْلاك[٣]

فتغامز الحاضرون وعجبوا من جواز ذلك على إسحاق مع فطنته وفهمه وعلمه، وكان خراب القصر بعد ذلك بقليل.

وأنشد أبو مقاتل:

لا تَقُل: بُشْرى، ولكن بُشْرَيانِ غُرَّةُ الداعي ويومُ المهرجانِ[٤]

فأوجع ضرباً، وقيل له: هَلّا قلت: إن تقل بشرى فعندي بُشريان

واعترض على ذي الرمّة عندما دخل على عبد الملك بن مروان، فاستنشده شيئاً من شعره، فأنشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

ما بالُ عَيْنِك مِنْها الماءُ يَنْسَكِبُ

وكانت عين عبد الملك تدمع دائماً، فتوهّم أنّه خاطبه، أو عرّض به.

---

١. الإيضاح، ص ٣٢٣.

٢. انظر: البديع في البديع، ص ٤٠٠ و ٤٠١؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٣.

٣. الإيضاح، ص ٥٩٣.

٤. عيار الشعر، ص ١٦٤.

وعلى قول البحتري:

لَكَ الويل من ليلٍ تقاصَر أخِرهُ

وكقول المتنبّي:

كفى بِكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافياً وحسبُ المنايا أَنْ يَكُنّ أمانيا[1]

فليتجنب الشاعر هذا، وإذا مرّ به معنى يُستبشع التلفظ به لَطَفَ في الكناية عنه وأجَلَّ المخاطب عن استقباله بما يكرهه المتكلّم، وعدل باللفظ عن كاف الخطاب إلى ياء المتكلّم إن لم ينكر الشعر أو احتال في ذلك بما يُحترز به ممّا ذمّمناه ويوقف به على أرَب نفسه، ولُطْف فهمه، كقول الشاعر:

لا تحسبنَّ الحُزنَ يبقَى فإنّهُ سهابُ حريقٍ واقِدٌ ثمّ خامِدُ

سآلف فُقدانَ الذي قد فقدتُهُ كإلفِكَ وجدانَ الذِي أنتَ واجِدُ

وإنّما أراد الشاعر: ستألَفُ فقدانَ الذي قد فقدته كإلفِكَ وجدان الذي قد وَجَدْته، أي تتعزّى عن مصيبتك بالسُّلوَ، فانظر إليه كيف لطف في إضافة ذكر المفقود الذي يتطيّر منه إلى نفسه، وما يتفاءل به من الوجدان إلى المخاطب، فجعل الموجود المألوف للمُعَزَّى.

---

١. ديوانه، ج ٤، ص ٢٨١؛ حسن التوسل، ص ٢٥٢.

حسن التخلّص (براعة التخلّص)

وحسنُه أن تخرج من معنى إلى معنى آخر برابطة مناسبة بأحسن أسلوب بحيث لا يشعر السامع بالانتقال، لشدّة الالتئام والانسجام، كأنّهما أفرغا في قالب واحد؛ وذلك ليحرّك من نشاط السامعين، ويعين على إصغائهم، وفي هذا يكمن جمال حسن التخلّص.

و«حسن التخلص» قليل في كلام المتقدّمين من الشعراء، وأكثر انتقالاتهم من قبيل الاقتضاب[1]، وأمّا المتأخّرون، فقد لهجوا به لما فيه من الحسن والدلالة على براعة المتكلّم.

واعتمد ابن المعتزّ مصطلح «حسن الخروج» وأداره توطئة لشواهده وبيّن مقصده منه قائلاً: «ومنها، أي من محسنات الكلام، حسنُ الخروج من معنىً إلى معنىً[2] من هذه الشواهد قول أبي العتاهية:

وأحْـبَبتُ مـن حُـبّها البـاخِليـ ـن حتى وَمِقْتُ ابن سَلْمٍ سَعيدا

إذا سِـيلَ عُـرْفاً كَسا وَجْـهَهُ ثـياباً مـن اَلمـنْعِ صُفْراً وَسُودا

---

١. الاقتضاب: هو الخروج والانتقال من شيء إلى شيء آخر من غير مراعاة ملائمة بينهما فأكثر المتقدّمين يذهبون إلى هذا المذهب في الخروج من المديح، بل يقولون ـ عند فراغهم ـ من نعت الإبل، وذكر القفار، وما هم بسبيله، دع ذا، وعد من ذا، ثمّ يأخذون فيما يريدون.

٢. البديع، ص ٦٠ و ٦١.

يُـغيرُ عـلى المـالِ فِـعْلَ الجـوادِ وَتَـأْبى خـلائِقُهُ أنْ تَـجُودا

ولم يبيّن ابن المعتزّ وجه حسن الخروج في هذا الشاهد وفي سائر شواهده التي تنوّعت في أعصرها وبيئاتها العربيّة بيد أن صحّة استشهاده ذلك واضحة بقول أبي العتاهية فقد انتقل في الشطر الأوّل من البيت الأوّل عن التغزّل إلى الهجاء في الشطر الثاني منه متوسّلاً ببخل صاحبته لبيان بخل سعيد بن سلم وهجوه[١].

ومنهم من يسمّي هذا خروجاً وتوسُّلاً[٢] بينما سمّاه ابن منقذ وابن الزملكاني بـ«التخليص»[٣] وسمّاه التنوخي والطيبيّ «المخلّص»[٤] وسمّاه غيرهم «التخلّص» ويوضح القزويني معنى التخلّص بأنّه «الانتقال ممّا شببّ الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود ... كيف يكون، فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرّك من نشاط السامع، وأعان على إصغائه إلى ما بعده، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس»[٥].

وسمّاه التبريزي والبغدادي والمصري «براعة التخلّص»[٦]، وسمّاه الحلبي والنويري «براعة[٧] التخليص».

وحسن التخلّص في النثر أسهل في النظم؛ لأنّ الناظم يراعي القافية والوزن، فيكون في ذلك صعوبة، بخلاف الناثر؛ فإنّه لا يراعي قافية ولا يحافظ على وزن، بل هو مطلق العنان يضع قدمه حيث شاء.

وحاول بعض علماء البديع تقرير مقاييس لتحديد الصور البليغة من المخالص فذكروا عدّة مقاييس:

---

١. البلاغة والتطبيق، ص ٤٦٥.

٢. العمدة، ج ١، ص ٤١٢.

٣. البديع في نقد الشعر، ص ٢٨٨؛ التبيان، ص ١٨٤.

٤. الأقصى القريب، ص ٨٣؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٦١.

٥. الإيضاح، ص ٥٩٦.

٦. الوافي، ص ٢٨٥؛ قانون البلاغة، ص ١٢٠؛ رسائل البلغاء، ص ٤٥٢؛ تحرير التحبير، ص ٤٣٣.

٧. حسن التوسل، ص ٢٥٤؛ نهاية الأرب، ج ٧، ص ١٣٥.

أولهما: ما أشار إليه صاحب العمدة «وهو أن يتخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح» ويقين أن هذا المقياس يتناقض مع ما أكّده جمهور البلاغيين من أنّ التخلّص لا يتقيّد بغرض دون غيره ولا يقتصر على معنى دون سواه، وإنّما يمتدّ فنّه كوشيجة تجمع ما بين الأغراض المختلفة وتشدّ معنى بمعنىً.

وثانيهما: أن تكون التخلّصات في بيت واحد، نحو قول زهير بن أبي سلمى:

إنَّ البَخيلَ مَلُومٌ حيث كان ولـ ـكنَّ الجَوادَ على عِلّاتهِ هَرِمُ[1]

فالشاعر في هذا البيت قد انتقل من ذمّ البخيل أبداً إلى مدح هرم بن سنان.

وقول الأعشىٰ حينما أراد الانتقال من مديح الأسود بن المنذر ذكر أنّ الناقة خاطبته وشكت له هزالها وتعبها فأجابها:

لا تَشَكَّ إليَّ وانتجعي الأسـ ـودَ أهل النّدىٰ وأهلَ الفعالِ

إنّ هذا المقياس ـ بلا شكّ ـ يرسخ قاعدة التلاؤم الفنّي بين المتخلّص منه والمتخلّص إليه، كما يؤكّد أنّ هذا التلاؤم يكون على خير وجه إذا ما تمّ التخلّص في بيت واحد؛ لأنّ البيت الواحد هو وحده البناء الأساس في القصيدة العربيّة القديمة[2].

ولا يخلو المتخلَّصُ إليه من أن يردّ في مبنى القافية ونهاية الكلام الموزون أو يقع حشواً وتكون التقفية بمعنى آخر، وإذا وقع ما يراد التخلّص إليه في القافية كان أشهر له وأحسن موقعاً في النفس، وإذا قُفّي البيت بما يكون تتميماً لما وقع من ذلك حشواً كان أحسن من أن يقفي بما ليس إليه نسبة، وإذا وقع الشيء المتخلّص إليه في القافية فهو الذي يسمّيه البلاغيون الشقّ على الاسم، كقول البحتري:

ولو أنّني أعطيتُ فيهنّ المنى لَسَقَيْتُهُنّ بكفِّ إبراهيماً

وثالثهما: أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال في ما يصل

---

١. ديوانه، ص١٥٢؛ الصناعتين، ص٤٥٤؛ الطراز، ج٢، ص١٨؛ خزانة الأدب، ج٢، ص ٤٠٠؛ إعجاز القرآن، ص١٠٤؛ تحرير التحبير، ص٤٣٤؛ المصباح، ص ٢٦١.

٢. البلاغة والتطبيق، ص٤٦٦.

بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاءاً محكّماً، فلا يختلّ نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام، فإنّ النفوس والمسامع إذا كانت متدرّجة من الكلام إلى فنّمشابه له، ومنتقلةً من معنى إلى معنى مناسب له، ثمّ انتقل بها من فنّ إلى فنّ مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما وجدت الأنفس في طباعها نفوراً من ذلك ونبت عنه، وكانت بمنزلة المستمرّ على طريق سهل، بينما هو يسير فيه عفواً؛ إذ تعرّض له في طريقة ما ينقله من سهولة المسلك إلى [وعورته] ومن لينه إلى خشونته، وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المديح بعد النسيب دُفعةً من غير توطئة لذلك، فإنّها تستصعبه ولا تستسهله، وتجدُ نبوّةً ما في انتقالها إليه من غير احتيال وتلطّف في ما يجمع بين حاشيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواءٌ والتئامٌ[1].

والمقياس الرابع الذي يجب اعتماده في التخلّص: أن يجهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلّص، فإنّه أوّل الأبيات الخالصة للحمد أو الذمّ وأوّل منقلة من مناقل الفكر في ما تخلّصت إليه، فيجب أن يعتمد في ما يكون محرّكاً للنفس لتستأنف هزّة ونشاطاً لتلقّي ما يرد، فإنّ العناية بهذا البيت نحو من العناية بالبيت الثاني من مطلع القصيد، بل ربّما كانت الحاجة إلى استثارة الهزّة عند الانعطاف آكد منها في استثارة ذلك عند المبدأ، لكون صدر القصيدة وسماعة يذهب بقسط من نشاط النفس ربما لم يكن يسيراً، فكانت الحاجة إلى استثارة النشاط عند أخذه في الضعف آكد من الحاجة إلى استثارته في حال توفّره وجمومه[2].

وأحسن ما تهيّأ للناظم في بيت واحد، قول مسلم بن الوليد يمدح

---

١. منهاج البلغاء، ص٣١٨ و ٣٢٠.

٢. انظر: المصدر، ص ٣٢١.

يحيى البرمكي:

أَجِدّكِ ما تَـدْرينَ أنَّ رُبَّ لَـيْلَةٍ ... كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُـرونِكِ يُـنْشَرُ

أَرَقْتُ لَهَـا حَتّى تَـجَلَّـتْ بِـغُـرَّةٍ ... كَغُرَّةِ يَحْيَى حِينَ يُـذْكَرُ جَعْفَرُ[١]

لما فيه من إدماج المبالغة في مدح يحيى بالبرّ بأبيه، وجمعه بـين خـير الدنـيا والآخرة، ومن تعلّق المدح بالغزل فأحسن ما شاء.

ونحو قول المتنبي في مدح كافور بعد أن استهلّ قصيدته في وصف نوقه:

قـواصـد كـافور تـوارك غـيره ... ومن قصد البحر استقلّ السواقـيا

ومن رقيق التخلّص ودقيقه ما قاله ابن الرومي يمدح رجلاً بالكرم:

ما من مـزيد فـي بـليّة عـاشقٍ ... وندىً وجـودٍ فـي أبـي إسحاق

ومن التخلّصات الجيدة التي جاءت في بيتين قول أبي تمّام:

يقوُلُ في قُـوْمسٍ قَـومِي وَقَـدْ أَخَـذَت ... مِـنّا السُّـرَى وخُـطا المَـهْرِيّةِ القُـودِ

أَمَـطْلَعَ الشَّـمْسِ تَـبْغي أن تَـؤُمَّ بِـنا ... فـقُلْتُ: كـلّا ولكـنْ مَـطْلَعَ الجُـودِ[٢]

وقال أبو تمّام يمدح أبا دلف وهو بطل عربي اشتهر بقتاله:

ودَّعْ فـؤَادَكَ تـوديعَ الفراقِ فـما ... أراه مــن سـفرِ التـوديعِ منصرفا

يُجاذِب الشوق طوراً ثـمّ يـجذبه ... جـهاده للـقوافـي فـي أبـي دلفـا

---

١. الإيضاح، ص ٣٢٥ و بدل «أرقت» «سَهِرْتُ» والصناعتين، ص ٤٥٦ «لهـوت» العقد الفـريد، ج٣، ص٤٠٧؛ الطراز، ج٣، ص ١٨٠؛ نهاية الأرب، ج٧، ص١٣٥؛ ديوان صريع الغواني، ص ١٣٥؛ المصباح، ص٢٦٢؛ معاهد التنصيص، ج ٤، ص٢٥١. أجدك: يصحّ أن يقرأ بفتح الجيم وبكسرها، وهـنا اسـتفهام وقسـم، و الأصـل «بجدك أما تدرين أن رب ليلة...» فحذف حرف الجر فانتصب المقسم به على نزع الخافض، والجـد ـ بـالفتح ـ البخت والحظ ـ وبالكسر ـ والاجتهاد في الأمر، وضد الهزل، والشيء المحقّق. دجاها: ظلمتها. قرونك: ذوائبك. تجلّت: انكشفت وانجلت. بغرّة: بشمس.

٢. ديوانه، ص٢٠١؛ الصناعتين، ص٤٥٩؛ الإيضاح، ص٣٢٥؛ المثل السائر، ج ٢، ص٢٤٥؛ المصباح، ص ٢٦١؛ معاهد التنصيص، ج ٤، ص٢٤٨؛ الطراز، ج٣، ص١٨، قومس: اسم بلد في خراسان، أخـذت: اثـرت، السـرى: السير بالليل، المهريّة المنسوبة إلى مهرة بن حيدان. القود: جمع قوداء وهي الذلول المـنقادة، أو طـويلة الظـهر والعنق، تؤم: تقصد. ومعنى «أخذت منا»: نالت من أجسامنا وأتعبتنا.

وربّما جاء في ثلاثة أبيات، ومثاله ما قاله أبو نواس يمتدح بني العباس:

وإذا جـلستَ إلى المُـدامِ وشُـربْها فـاجْعَلْ حَـدِيثك كُـلّهُ فـي الكـاسِ
وإذا نَـزَعْتَ عـن الغـوايـةِ فـليكن «اللّـــهِ» ذاكَ النَّـــزْعُ لا للـنّاسِ
وإذا أردتَ مـــديحَ قــومٍ لم تُــلَمْ في مدحهم فامدحْ بـني العـبّاس[1]

وقال أبو الطيّب المتنبّي، وقد تخلّص أوّلاً إلى قوم الممدوح ثمّ إليه:

وَمــــقانبٍ بِــمَقانِبٍ غـــادَرتُهَا أقــواتَ وَحْشٍ كُـنَّ مِـنْ أَقـواتِـها
أقْـــبَلْتُها غُــــرَرَ الجـــيادِ كــأنّما أيـدي بـني عـمرانَ فـي جَـبَهاتِها
شُـقِيَتْ مَـنابِتُها التـي سَـقَتِ الوَرَى بِـنَدي أبـي أَيُّـوبَ خَـيْرِ نَـباتِها[2]

وقوله ـ أيضاً ـ:

خَلِيلَيَّ مـالي لا أَرَى غَـيْرَ شـاعِرٍ فَكَمْ مِنْهُمُ الدْعْوَى ومِنّي القَصائِدُ
فَـلاِ تَـعْجَبا إنَّ السُّـيُوفَ كَـثَيرَةٌ وَلكِنَّ سَيْفَ الدَوْلَـةِ الْـيَوْمَ واحِـدُ

ومن ألطف المخالص قول أبي العلاء المعرّي:

ولو أنّ المــطيّ لهــا عـقول وجـدِّك لم نشـدّ لهـا عـقالا
مـواصـلة بـها رحـلي كـأنّي مــن الدنـيا أريـد بـها انـتقالاً
سـألن فـقلت مـقصدنا سـعيد فكـان اسم الأمـير لهـنّ فـالا[3]

وكقول محمّد بن وهب في تخلُّصِهِ من وصف الديار إلى وصف شوقه:

ظـلّان طـالَ عـليهما الأمَـدُ دَثَــرا فــلا عَـلَمٌ ولا نَـضَدُ

---

١. ديوانه، ص ١٠٥؛ الطراز، ج٣، ص ١٨١؛ المصباح، ص٢٦١؛ معاهد التنصيص، ج٣، ص٢٥١؛ خزانة الادب، ج٢، ص٤٠١.

٢. العرف الطيب، ص ١٩١؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٠٥ شبّه بياض غرر خيله بنعم الممدوحين، ويد النعمة توصف بالبياض مجازاً.

٣. معاهد التنصيص، ج٤، ص٢٥٢؛ خزانة الأدب، ج٢، ص٤٠٦ فإنَّ أبا العلاء سبك هذا التخليص في قالب التورية، والإتفاق البديع، وكان اسم الأمير في فالهم سعيداً، والعرب ما برحوا يتفاءلون بالاسم الحسن ويتطيّرون من ضدّه.

لبِســا البِــلى فكــأنّما وَجَـدا بُـعْدَ الأَحــبَّةِ مـثلَ مـا أجِـدُ[١]

وكقول دعبل:

قالتْ وقـد ذَكَّـرْتُها عَـهْدَ الصِّـبا بــاليأسِ تُــقْطَعُ عــادةُ المــعتادِ

إلّا الإمــام فـإنَّ عــادةَ جُـودِهِ مــوصُولةٌ بـــزيادَةِ المــزدادِ[٢]

وأمّا حسن التخلّص في القرآن، فهو أظهر من أن يحتاج إلى طلب وعناية فـهو مملؤ منه؛ لأنّه لا يزال يكرّر الكلام من وعد إلى وعيد، ومن ذكر قصص إلى ذكر أمثال، ومن ذكر أمرٍ إلى نواهٍ، ومن ترغيب إلى ترهيب، إلى غير ذلك.

ومن التخلّصات الفائقة ما في سورة الأعراف من ذكر الأنبياء، والقرون الماضية، والأمم السالفة، ثمّ ذكر موسى عليه السلام، وحكاية دعائه لنفسه، ولأمّته، بقوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ...﴾[٣].

وجوابه تعالى عنه، ثمّ الخروج إلى إبراز صفات نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وذكر مـناقبه، بقوله تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ...﴾[٤]. حالهم وصفتهم كيت وكيت وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[٥]. واخذ في وصف مكارمه، وعدّ فضائله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ...﴾[٦]. فإنّه سبحانه وطئ بهذا الفصل إلى ما يأتي بعدهمن سرد قصّة يوسف عليه السلام فتخلّص به إلى ذكر القصّة تخلّصاً بارعاً، والنكتة التي أشارت إلى وصف هذه القصّة بنهاية الحسن، هو اختتام كلّ قضيّة فيها بخير مهما كانت شدّتها وكلّ ضيق جرى

١. انظر: الكشاف، ج ٤، ص١٩٢؛ التبيان للطيّبي، ص ٤٦٢؛ المثل السائر، ج ٢، ص ٢٥١.

٢. معترك الأقران، ج ١، ص٤٨؛ التبيان، ص ٤٦٤؛ المثل السائر، ج ٢، ص ٢٥٢.

٣. الأعراف: ١٥٦.

٤. الأعراف: ١٥٦.

٥. الأعراف: ١٥٧.

٦. يوسف: ٣.

فيها انتهى إلى سعة، فكانت تسلية لرسول اللّه محمّدﷺ عمّا يلقاه من الأذى وما يتحمّله من البلاء.

فمحنة حسد أخوه يوسفعليه السلام وكيدهم له واستحكام تلك العقدة برميه في الجبّ ونجاته منها.

وكذلك بيعه بثمن بخس وشرائه من قبل الملك ثمّ اصطفائه بمنزلة الولد له.

ومحنة تعلّق امرأة العزيز وعشقها له ودخوله السجن فخرج من هذه العقد منزهاً ثمّ ملكاً ثمّ إسباغ نعم اللّه عليه له تحقيقاً لرؤياه، فناسب الختام البدء وكانت براعة التخلّص من أجمل ما عرف في الكناية.

وعدّ الزمخشري قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾[١]. من التخلّص حيث يرى اتّصال ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ بذكر القيامة من جهة هذا للتخلص منه إلى التوبيخ بحبّ العاجلة، وترك الاهتمام بالآخرة، أي أنّ اللّه لما ساق حديث القيامة وأهوالها، وكان حديثاً متضمّناً لاهتمام منكري البعث بعاجل الأمر دون الآجل منه، بدا اللّه تعالى حديث آخر لنبيّهﷺ يناسبه، وهو عادته من العجلة في حفظ ما يتلى عليه، فأمره اللّه تعالى أن يستمع للتلاوة، ولا يحرّك لسانه، فكان من باب ردع الرسولﷺ خاصّته، وهو يريد ردع أمّته عامة، فوسّط بين الكلامين حديث عجلة الرسولﷺ عند نزول القرآن، ليكون كالتمهيد لهذا الردع الفظيع، والإنكار الهائل.

وذكر السيوطي في معترك الأقران قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[٢].

حيث تخلّص منه إلى وصف المعاد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[٣].

---

١. القيامة: ١٦ ـ ٢٠.

٢. الشعراء: ٨٧.

٣. الشعراء: ٨٨.

وفي سورة الكهف حكى سدّ «ذو القرنين» بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[1]. فتخلّص منه إلى وصف حالهم بعد ذكر الذي هو من أشراط الساعة ثمّ النفخ في الصُّور، وذكر الحَشْر، ووصف حال الكفّار والمؤمنين.

ويقرب من حُسن التخلّص الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع مفصولاً بهذا، كقوله في سورة ص بعد ذكر الأنبياء ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[2].

قال: هذا القرآن نوع من الذكر لمّا انتهى ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنّة وأهلها، ثمّ لمّا فرغ قال: ﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾[3]. فذكر النار وأهلها.

وقال ابن الأثير: هذا في هذا المقام من الفصل هو أحسن من الوصل، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر.

ويقرب ومنه أيضاً حسن المطلب. قال الزنجاني والطيّبي: وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدّمه الوسيلة، كقولك: من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4].

وقال الطيّبي: وما اجتمع فيه حسن التخلّص والمطلب معاً قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ إلى قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ﴾[5].

ومن شواهد هذا الفنّ في الشعر قول أبي تمّام:

ومعترك للشوق أهدى به الهوى   إلى ذي الهوى نجل العيون ربائبا

فالفريدة في لفظة «معترك» وقد اقتبسها ابن الفارض فقال:

---

١. الكهف: ٩٨.

٢. ص: ٤٩.

٣. ص: ٥٥.

٤. الفاتحة: ٥.

٥. الشعراء: ٨٣.

ما بـين مـعترك الأحـداق والمـهج أنــا القــتيل بــلا إثــم ولا حــرج

ومنه أيضاً لأبي تمّام قوله:

وقـدماً كـنت مـعسول الأمـاني ومــأدوم القــوافــي بــالسداد

فلفظة «مأدوم» من الفوائد.

الاختتام

الاختتام لغةً: نقيض الافتتاح،من اختتم الشيء: أتمّهُ وأنهاه.

والاختتام اصطلاحاً: هو أن يختتم البليغ كلامه في أيّ مقصد كان ـ سواء كان شعراً أو نثراً ـ بخاتمة ذي تأثير إيجابي في الذهن.

أي أن يجعل البليغ في آخر كلامه ما يشعر بالتمام، وتكون الكلمات الأخيرة التي ينطقها أخطر وأكثر تشوّقاً وأشدّ تأثيراً من كلّ المقطوعة النثريّة أو القصيدة الشعريّة؛ إذ هو آخر ما يتبقّى منه في الاسماع أو يرتسم في النفس، وربّما حفظ من بين سائر الكلام، فعذوبة الألفاظ وعدم الابتذال وجودة السبك ودقّة التعبير كلّها تجعل السامع أو القارئ لا يتشوّق إلى ما وراء الخاتمة، فالخاتمة في كلّ شيء هي العمدة في محاسنه، والغاية في كماله.

والاختتام تسمية العلوى[1] بينما سمّاه غيره[2] «حسن الختام» أو «الخاتمة».

ومن أمثلة ذلك خواتيم القرآن الكريم «فإنّ اللّه تعالى ختم كلّ سورة من سور القرآن بأحسن ختام وأتمّها بأعجب إتمام، ختاماً يطابق مقصدها ويؤدي معناها من أدعيه، أو وعد، أو موعظة، أو تحميد، وغير ذلك من الخواتيم الرائعة»[3].

---

١. الطراز، ج٣، ص١٨٣ و ١٨٤.

٢. خزانة الادب، ج٤، ص٤٢٧.

٣. تحرير التحبير، ص ٦١٦؛ بديع القرآن، ص ٣٤٣.

فمن ذلك. قوله تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

فان السورة الكريمة بدأت بأهوال يوم القيامة، وختمت بأحسن خاتمة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾[2].

وبهذه الآيات تمّ اختتام سورة عبس التي تحدّثت عن أمور تتعلّق بالعقيدة وأمر الرسالة وعن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الانسان وغيره. أختتمها ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدّة الهول والفزع، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

تحدّثت سورة الزمر عن «عقيدة التوحيد» بالإسهاب، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة؛ لأنّها أصل الايمان، وأساس العقيدة السليمة، وأصل كلّ عمل صالح. وكما تناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء، كشفت ـ كذلك ـ عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء، حيث يذوقون ألوان العذاب. وختمت السورة الكريمة بذلك المشهد الهائل الذي يحضره الأنبياء والصدّيقون والشهداء الأبرار حيث الوجود كلّه يتّجه إلى ربّه بالحمد والثناء

---

١. الزلزلة: ١ ـ ٨.

٢. عبس: ٣٤ ـ ٤٢.

٣. الزمر: ٧٥.

في خشوع واستسلام.

وذكر العلوي في «الطراز» أمثلة أخرى وهي: «ما ختم [اللّه] به سورة البقرة وسورة الفاتحة. فأمّا الفاتحة، فختمها بما يناسب معناها ويطابق لفظها من حسن التـأليف وجودة الجزالة بذكر الصنفين المغضوب عليهم من اليهود والنصارى، وأن لا يجعلنا منهما، ويُتيمَّ لنا هدايتَه الكاملة، إلى حُجَجِه الواضحة، وبراهينه النيّرة.

واختتم سورة البقرة بتعليم الابتهال إليه في مغفرة الخطايا وترك تجمّل الأثقال والإصر والنصرة على الكفّار.

ونحو اختتام سورة آل عمران بالخواتيم الحسـنة مـن الوصـايا بـالصبر عـلى المكاره، والمصابرة على الجهاد لأعداء اللّه، وإشادة معالم الدين وإظهار أحكامه، والرابطة للخيل في الجهاد وإعدادها للغزو، وبالتقوى التي هي قوام الدين وملاكه. فمن أجل ذلك يحصل السبب في الفلاح في كلّ الأُمور.

وفي خاتمة سورة النساء بالتبجيل والتعظيم بالبيان والهداية،

وبما كان من الوعد والوعيد في خاتمة سورة الأنعام بقوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

وبما كان من إظهار الجلال والعظمة في خاتمة سورة المائدة.

فهذه الخواتيم كلّها في كلّ سورة على نهاية الحسن والرشاقة[1].

وهكذا الكلام في كلام رسول اللّهﷺ في كتبه ومواعظه وخـطبه. فـإنّك تـرى خواتيمها مُعْجبه لما تضمّنته.

ففي إحدى خطبهﷺ يقول:

«أيّها الناس أُوصِيكُم بما أوْصاني اللّهُ في كتابهِ مِنَ العَمَلِ بطاعتِهِ، والتـناهي عـن محارمِهِ ...».

---

١. الطراز: ٣: ١٨٤ ـ ١٨٥.

فاختتمها بقوله: «وليسَ ملكٌ إلا وَلهُ حمىً، ألا وإنَّ حمى اللّهِ محارمه، والمـؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسـدِ، إذا اشـتكى تـداعـى إليـه سـائرُ جسـدِهِ والسـلام عليكم»[١].

ومن كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام، وهو المقدّم في فنون البلاغة على بلغاء البدو والحضر، في ختام جواب كتاب كتب به إلى معاوية:

«ذَكَرْتَ أنَّهُ لَيْسَ لي وَلأَصْحابي عِنْدَكَ إلّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبارٍ ... وإني مُرْقِلٌ إليكَ بَـجَحْفَلٍ مِـنَ المُـهاجرينِ والأَنْـصارِ، وقـد صَـحِبَتْهُم ذُريّـةٌ بَـدرِّيّةٌ وَسُيُوفٌ هاشِميّةٌ قَدْ عَرَفْتَ مَواقِعَ نِصالها في أَخيكَ وَخـالِكَ وَجَـدِّكَ، ومـا هـيَ مِـنَ الظالمينَ بِبَعيدٍ»[٢].

ونحو هذا كلامهعليه السلام في كتبه ومواعظه وهذا كقولهعليه السلام فـي ذمّ الدنـيا، وغـدرها بأهلها، وذهابها عن أيديهم، وعدم التمسّك بها:

«ولاتَ حينَ مَناصٍ، هَيْهَاتَ! هَيْهَاتَ قَدْ فاتَ ما فاتَ، وذَهَبَ ما ذَهَبَ».

ثمّ ختمها بآية من القرآن مناسبة لها وهي قوله تعالى:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾[٣].

وفي بعض خطبه استخدم الصورة التشبيهية لتساهم في تعميق الدلالة المستهدفة وتوضيحها:

«إنّما مَثَلي بَيْنَكُم كَمَثَلِ السِّرَاجِ في الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيُء بِهِ مَنْ وَلَجَها. فاسْمَعُوا أيّها الناسُ وَعُوا، وأَحَضِرُوا آذانَ قَلوبِكُم تَفْهَمُوا»[٤].

وقولهعليه السلام في خاتمة خطبة الاستسقاء:

---

١. انظر: خزانة الأدب، ج ٤، ص٤٠٨؛ نهج البلاغة، الكتاب ٢٨.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩١.

٣. أنوار الربيع، ج٦، ص ٣٢٦ والآية في الدخان: ٢٩.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٧ ـ ٧.

«ولا تُؤاخِذْنا بما فَعَلَ السُّفَهاء مِنّا فإنّكَ تُنْزِلُ الغَيْثَ مِن بَعْدِ ما قَنطُوا وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وأَنْتَ الوِليُّ الحَمِيدُ»[١].

ومن أحسن ما ختم في كلامه عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبره:

«السّلامُ عَلَيْكُما سلامَ مَوُدِّعٍ، لا قالٍ ولا سَئِمٍ، فإنْ أنْصَرِفْ فلا عَنْ مَلالةٍ، وإنْ أُقِمْ فَلا عن سُوءِ ظَنٍّ بما وَعَدَ اللّهُ الصَّابِرينَ»[٢].

وأمّا حسن ختام الحريري للمقامات، فإنّه من البراعات التي تنتهي إليها الغايات، وهو قوله:

«ثمّ دنوتُ إليهِ كما يدنو المصافِحُ، وقلت: أوصني أيّها العبدُ الصالح، فقالَ: اجعل الموتَ نَصْبَ عينك، وهذا فراقٌ بيني وبينك فودعتَهُ وعبراتي يتحدّرن من المآقي، وزفراتي تتصعدّنَ إلى التراقي، وكانت هذه خاتمةَ التلاقى».

ومن أحسن المنظوم ما قاله أبو الطيّب المتنبّي:

قَد شَرّفَ اللّهُ أرْضاً أنْتَ ساكِنُها وَشَرَّفَ النَّاسَ إذ سَوَّاكَ إنْسانا[٣]

وكقول أبي نواس يمدح المأمون:

فَبقِيتَ للعِلْمِ الذي تَهْدِي لَهُ وَتَقاعَسَتْ عَنْ يومِكَ الأيّامُ[٤]

تضمّنت بالبقاء مع نهاية المدح والإعظام لحاله.

ومنه قول أبي نواس أيضاً مادحاً:

و إنّي جَدِيرٌ إذْ بَلَغْتُكَ بالمُنَىٰ و أنْتَ بما أمَّلْتُ مِنْكَ جَدِيرُ

---

١. أنوار الربيع، ج٦، ص٣٢٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٢.

٣. ديوان المتنبّي، ج٤، ص٢٣١؛ الطراز، ج٣، ص١٨٧؛ يتيمة الدهر، ج١، ص٢٢١؛ المصباح، ص٢٦٢.

٤. الطراز، ج٣، ص١٨٧؛ تحرير التحبير، ص١٨٦؛ المصباح، ص٢٦٣ ويروي البيت في الديوان، ص٥٧٦:

فسلّمت للأمر الذي ترجى له وتقاعست عن يومك الأيّام

فإنْ تُولِني مِنْكَ الجميلَ فأهْلُهُ ... وإلّا فإنّي عاذِرٌ وَشَكُورُ[١]

وفيه حسن الانتهاء بالشكر والعذر

وقول أبي العلاء من ختام قصيدة:

ولا تزال بِكَ الدنيا مُمَتَّعَةً ... بالآلِ وَالحالِ وَالعلياءِ وَالعُمْرِ[٢]

وقول أبي تمّام معتذراً في آخر قصيدة:

فإنْ يَكُ ذنبٌ عَنَّ أو تَكُ هَفْوَةٌ ... على خَطأ مِنّي فَعُذْرِي على عَمْدِ[٣]

وقول أبي تمّام في ختام قصيدة فتح عموريّة:

إنْ كانَ بَيْنَ صُرُوف الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ ... موصُولةٍ أو ذِمامٍ غيرِ مُنْقَضَبِ

فبَيْنَ أيّامِكَ اللّاتي نُصِرْتَ بِها ... وَبَيْنَ أيّام بَدْرٍ أقْرَبُ النَسبِ

أبقَتْ بني الأصفرِ المِمْراضِ كاسْمِهِم ... صُفْرَ الوُجُوهِ وجَلَّتْ أوْجُهُ العَرَبِ[٤]

وقول ابن هاني المغربى

سَمَوْتَ إلى العليا إلى الذروة التي ... ترى الشمسَ فيها تَحْتَ قَدْرِكَ تَضْرَعُ

إلى غايةٍ ما بعدها لَكَ غايةٍ ... وَهَلْ خَلْفَ أفلاكَ السماواتِ مَطْلَعُ

إلى أينَ تَبْغِي ليسَ خَلْفَكَ مَذْهَبُ ... ولا لجوادٍ في لحاقِكَ مَطْمَعُ[٥]

وقول مهيار الديلمي في ختام قصيدته المشهورة:

ولا زالت الأيامُ تُملكُ أمْرَها ... وَتأْمُرُها فيما تَشاءُ وَتَنْهاها

وَكُنْتَ بعينِ اللّهِ مِنْ كُلِّ نَوْبَةٍ ... تُحاذِرُها نَفْسِي عَلَيْكَ وَتَخْشاها

فإنّي مَتى عَلَّقتُ نَفسِي بِحاجَةٍ ... وَخَفْتُ عليها الفَوْتُ ضَمَنْتُها اللّهَ

---

١. خزانة الأدب، ج ٤، ص٤٤٧؛ المصباح، ص٢٦٣؛ الايضاح، ص ٣٠٦؛ الطراز، ج٣، ص١٨٦.

٢. المصدر.

٣. ديوانه، ص ١١٤؛ المثل السائر، ج ٣، ص ٢١٢؛ المصباح، ص ٢٦٣.

٤. ديوانه، ج ١، ص٧٩؛ أنوار الربيع، ج٦، ص٣٢٧؛ الطراز، ج٣، ص١٨٧ وفيه «مقتضب» بدل «منقضب».
و «المُصْفَرّ» بدل «الممراض» و الإيضاح، ص ٣٢٦؛ المصباح، ص ٢٦٣.

٥. أنوار الربيع، ج٦، ص٣٢٧.

وقول ابن أبي‌الحديد في ختام آخر قصيدة من قصائده العلويات:

سَــــمْعاً أمـيرَ المـؤمنين قَـصائِدُ يَـعْنُو لهـا بُشْـرٌ وَيَـخْضَعُ جَـرْوَلُ

الدُرُّ مِــــنْ أَلفــاظِها لَكِـنَّهُ دُرٌّ لَـهُ ابـنُ أبـي الحـديدِ مُـفَصَّلُ

هي دونَ مَدْحِ اللّـهِ فـيكَ وَفَـوْقَ مـا مـدَحَ الَـورى وَعُـلاكَ مِـنْها أَكْـمَلُ

ومن ذلك ما قاله المتنبّي في بعض قصائده السيفيات:

فـلا حَـطَّتْ لكَ الهَـيْجاءُ سَـرْجاً ولا ذاقَت لَكَ الدُنــيا فِـراقـا[١]

وقال أيضاً:

لا زِلْتَ تَضْرِب مَـنْ عـاداك مـن عُـرُضٍ تُـعاجِلُ النَـصْرَ فـي مُسْـتَأخِرِ الأجَـلِ[٢]

وقال أيضاً في بعض قصائده وقد عرض ذكر الخيل:

فلا هَجَمْتَ بـها إلّا عـلى ظَـفَرٍ وَلا وَطـئْتَ بـها إلّا إلى أمَـلِ[٣]

وأحسن الانتهاءات ما آذن بانتهاء الكلام، كقول أبي العلاء المعرّي:

بَـقيتَ بَـقاءَ الدهـرِ يـالَهْفَ أهْـلِهِ وهــذا دُعـاء للـبَرِيَّةِ شـامِلُ[٤]

فإنّ الدعاء على هذا الوجه يدلّ على أنّ ختم القصيدة عليه شيء حسن؛ فإنّ من دأب الشعراء أن يدعوا للممدوحين عند انتهاء مدحهم، وهذا الشاعر لما قال: وهذا دعاء. علم أنه آخر كلامه. ثمّ إنّه حسن انتهاءه حين جعل دعاءه للممدوح دعـاء كلّ‌بشر، فإنّ وجوده نظام أمورهم، وخلوده قوام جهودهم.

---

١. ديوان المتنبى ٢: ٤٣؛ الايضاح، ٣٢٦.

٢. ديوان المتنبي ٣: ٨٨٠؛ المصباح، ص٢٦٤.

٣. المصدر ٣: ٤٢؛ المصباح، ٢٦٤.

٤. الايضاح، ص ٣٢٦.

السرقات الشعريّة

لقد فطن النقّاد والشعراء إلى السرقات ولحظوا مظاهرها بين امرئ القيس وطرفة بن العبد، وبين الأعشى والنابغة، وبين أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى[1] وأوّل من فتح باب الكلام في السرقات الشعريّة على الصعيد الفنّي: الفرزدق وجرير، فجرير كان يتّهم الآخرين بأنّهم ينتحلون الأشعار في هجائه، أمّا الفرزدق، فكان يهدّد صغار الشعراء إن لم يتركوا له بيتاً بعينه؛ فإنّه سوف يهجوهم، وكان ينتحل الأشعار التي نَسيَ أصحابها وكان يقول: «ضوال الشعر أحبّ إليّ من ضوال الإبل».

إنّ فكرة السرقة بهذا المعنى دخلت في الوعي الشعبي ـ كما يبدو ـ بعد الإسلام ولم تتحدّد بالمفهوم الإسلامي في الجاهليّة، فلعلّ السرقة كانت مرادفة للغزو، وفيها معنى البطولة أكثر من معنى الذنب وما يترتّب عليها من عقوبة، وحين أدرك المسلمون المدى الحقوقي لمفهوم الكلمة انتبهوا لمقدار الجرم الذي يرتكبه الشاعر عند التعرّض لسرقة الغير[2].

وممّن تكلّم في السرقات في القرن الأوّل ابن بشير المدني من المدرسة الحجازيّة حين أنشد عنه الأخطل قصيدته «صرمت حبالك زينب ورعوم» فلمّا انتهى إلى قوله:

---

١. معجم النقد العربي، ج٢، ص ٤٠.

٢. تاريخ النقد العربي، ص٧٦ وما بعدها، (بغداد، ١٩٦٩).

حتّى إذا أَخَذَ الزجاجُ أكُفَّنا نَفَحَتْ فَأَدْرَكَ رِيحها المَزْكُومُ

قال الأخطل: ألست تزعم أنّك تبصر الشعر؟ قلت: بلى: قال: فكيف لم تشقّ بطنك فضلاً عن ثوبك عند هذا البيت؟ قلت: قد فعلت عند البيت الذي سرقت هذا منه. قال: وما هو؟ قلت: بيت الأعشى:

مِنْ خَمْرِ عانة قَدْ أتى لختامِها حَوْلٌ تَفضُّ غَمامَةَ المَزْكُومِ

فقال: «أنت تبصر بالشعر»[1].

والظاهر أنّ هذا الحكم بناه ابن بشير على قول أعرابي اكتشف وجه الشبه: وجعلها الآخر. تستلّ زكامه.

وحمل الزبير بن بكّار من رواة التاريخ والأنساب في القرن الثالث على «كُثَيِّر» وألّف كتاباً في أخباره وسرقاته، فنبّه المرزباني على تحامل الزبير، وقال: إنّ الراوية كان معادياً للشاعر متحاملاً عليه لهجاء كُثَيِّر لولد عبد اللّه بن الزبير وانحراف الزبير عن أهل البيت عليهم السلام.

ونبّه جرير إلى انتحال الأخطل أشعار التغلبيّين الذين كانوا يرفدونه[2]، وتكلّم الأخطل في السرقات ـ أيضاً ـ فقال: «نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة».

وبذلك يكون الرواة في المدرسة العراقيّة بشكل خاصّ قد أفادوا من ملاحظاتهم ومعلوماتهم الخاصّة في البحث عن السرقة، وساعد على ذلك تصريحات الشعراء أنفسهم أو ملاحظات الأعراب وغيرهم، وبهذا دخل باب السرقات في علم النقد الأدبي عند المسلمين[3].

وانتقل البحث في السرقة الأدبيّة من مرحلة إلى مرحلة على طول تطوّر خطّ

---

١. الموشح: (مآخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر، المرزباني (ت ٣٨٤هـ) تحقيق: علي البجاوي (القاهرة ١٩٦٥م)، ص ٢٢١.

٢. المصدر، ص ٢٢٤.

٣. تاريخ النقد الأدبي، ص ٨٠.

النقد الأدبي، ففي القرنين الثاني والثالث كان النقّاد قد توغّلوا في دراسة السرقة الشعريّة الفنيّة، ونقلوا الموضوع من سرقة شعر الغير لفظاً ومعنىً إلى دراسة سرقة المعاني، وأغرقوا أحياناً في ذلك حتى أسرفوا على أنفسهم فيه، واستقلّت هذه الدراسات بكتب خاصّة بها[١].

فالجاحظ له إشارات خاطفة ولكنّها عميقة وموحية إلى أبعاد الموضوع، فيرى أنّ تأثّر الشعراء اللاحقين بآثار السابقين أمر حتمي لا مفرّ منه، وأن توكّأ بعضهم على بعض في اقتناص المعاني وأشباهها هو قدر مشترك فيما بينهم جميعاً. إلّا أنّ التقاء الشعراء على اتّباع المعاني واقتناصها لابدّ من أن يسير في أحد اتّجاهيين:

اتّجاه يغزو الشاعر فيه قصائد غيره، فيسوق المعاني التي تروقه بمبانيها وأشكالها كلّيّاً أو جزئيّاً، ولا يكلّف نفسه عناء كسوتها ألفاظاً غير ألفاظها.

واتّجاه ينحو نحو الاقتباس؛ إذ يغتصبُ الشاعر المعنى الذي يريده، لكنّه يكسوه من الألفاظ ما يّموه به اغتصابه، ومن بهاء الشكل، جدّة البنّاء ما يجعلانه صاحب الفضل الأوّل فيه، ويولّيانه الحقّ في ادّعائه والتباهي بملكيّته. أمّا الاتّجاه الأوّل، فهو السرقة المرفوضة كلّيّاً، وهي التي أدانها قديماً جميع نقاد العرب بلا استثناء، ويكاد يتّفق جميعهم على الإقرار بشرعية اقتباس المعاني، شريطة أن يكسوها الشاعر المغير أثواباً مبتكرة من اللفظ والأسلوب.

ولعلّ النصّ التالي يوضح هذا المفهوم العام للسرقات الشعريّة، كما تبنّاه الجاحظ وساد في التراث الفكري للجمال العربي حيث يقول: «لا يُعلم في الأرض شاعر تقدّم في تشبيه مُصيب، أو في معنى غريب عجيب، أو معنى شريف كريم، أو في بديع مُخترع، إلّا وكلّ من جاء من الشعراء من بعده، أو معه، إن هو لم يَعْدُ على لفظه فيسوق بعضه، أو يدّعيه بأسره، فإنّه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً

---

١. المصدر، ص ٨٧ وما بعدها.

فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه، أو لعلّه يجحد أنّه سمع بذلك المعنى قطّ. وقال: إنّه خطر على بالي، من غير سماع، كما خطر على بال الأوّل»[١].

وعالج البلاغيون والنقّاد موضوع السرقة، فنرى الشاعر ابن طباطبا لا يعيب «الأخذ»، والملاحظ هنا أنّه لا يسمّى تناول المعاني المسبوقة سرقة، بل «أخذاً» ويومئ وهو الشاعر الفنّان إلى مجريين في مذهب التحوير:

أ) في الموضوع.

ب) في اللون الأدبي[٢].

ويوضح لنا مذهب التحوير بقوله: «إذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في كسوة أحسن ممّا كانت عليه لم يُعَبْ، بل يجب أن يعرف له فضله وإحسانه فيه. ويحتاج من يسلك هذه السبيل إلى الحيلة، وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وإلباسها حتى تخفي على نقّادها والبصراء بها.

وينفرد بشهرتها كأنّه غير مسبوق إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي أخذها منه، فإذن وجد معنى لطيفاً في تشبيب أو غزل استعمله في المديح، وإنْ وجده في المديح استعمله في الهجاء. وإن وجده في وصف ناقة أو فرس استعمله في وصف الإنسان، وإن وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة، فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذّر على من أحسن عكسها، واستعمالها في الأبواب التي نحتاج إليها... وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان أخفى وأحسن، ويكون عند ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضّة، فيعيد صياغتهما بأحسن

---

١. الحيوان، ج ١، ص ٦٤٥.

٢. ألوان من التذوق الأدبي، ص ١٥٧.

ممّاكانا عليه، والصبّاغ الذي يصبغ الثوب ما رأى من الأصباغ الحسنة، فإذا ما أبرز الصائغ ما صاغة في غير الهيئة التي عهد عليها، وأظهر الصبّاغ ما صبّغه على غير اللون الذي عهد من قبل، التبس الأمر في المصوّغ والمصبوغ على رأيهما. فكذلك المعاني وأخذها واستعمالها في الأشعار على اختلاف فنون القول فيها».

أنّ التحوير الأدبي ببساطة هو إخفاء معالم الأخذ[1].

وعنى العسكري بهذا النوع وتحدّث عن حسن المأخذ وقيمته، ويريد بحسن المأخذ أن يؤخذ المعنى ويكسى لفظاً جديداً أجود من لفظه الأوّل، ويريد بقبح المأخذ أن يعمد إلى المعنى، ويؤخذ لفظه كلّه أو أكثره، أو يخرج في معرض مستهجن[2].

وقد أوجز أبو هلال العسكري مختلف وجوه الموقف العامّ من مسألة السرقات الشعرية بقوله: «إنّ من أخذ معنى بلفظه كان له سارقاً، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممّن تقدّمه.

وقد قسّم[3] النقّاد السرقات إلى ثلاثة أقسام: «نسخ، ومسخ، وسلخ» فالنسخ: هو أخذ المعنى بلفظه، والمسخ: أخذ المعنى والتقصير في التعبير عنه، أو أخذ المعنى وتشويهه بحيث يجيء أقبح من السابق. أمّا السلخ: فأخذ بعض المعنى أو عرض المعنى عرضاً جديداً أو تحويره.

ولم يقف البحث في السرقات عند هذا الحدّ من التقسيم الثلاثي بل تعدّاه إلى بحوث فرعيّة كثيرة، كالبحث فيما يجوز أن يُدّعى سرقه. وقد تولّى القاضي الجرجاني ومعاصره الآمدي بيان ذلك وتفصيله.

وقال القاضي الجرجاني معتذراً عمّن اعتمد على غيره من أهل زمانه أو الذين

---

١. المصدر.

٢. كتاب الصناعتين، ص ٢١٦.

٣. المصدر.

يأتون بعد: «متى أنصفت علمت أنّ أهل عصرنا ثمّ العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمّة؛ لأنّ من تقدّمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها... ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنّه غريباً مبتدعاً ونظّم بين يدي من يحسبه فرداً مخترعاً ثمّ تصفّح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالاً يغضّ من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بتّ الحكم على شاعر بالسرقة».

ويفصّل القول في السرقات ويحدّد أنواعها بقوله:

«ولستَ تُعدّ من جهابذة الكلام ونقّاد الشعر حتى تُميّز بين أصنافه، وأقسامه، وتحيط علماً برتبه ومنازله، فتفصل بين السرق والغصْب، وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرّق بين المشترك الذي لا يجوز إدّعاءُ السرق فيه، والمبتذل الذي ليس واحدٌ أولى به من الآخر، وبينه وبين المختصّ الذي حازه المبتدئُ فملكه، واجتباه السابق فاقتطعه فصار المعتدي مختلساً سارقاً، والمشارك له محتذياً، تابعاً، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أخذ ونقل، والكلمة التي يصحّ أن يقال فيها: هي لفلان دون فلان»[1].

وأكمل هذه الألوان من السرقات بأخرى هي القلب ويعدّه من لطيف السرق، كقول المتنبّي:

أأحِبُّهُ وأُحِبُّ فيهِ مَلامَةً ... إنَّ المَلاَمَةَ فيهِ مِنْ أَعْدائِهِ

وإنّما نقض قول أبي الشيص:

أَجِدُ المَلاَمَةَ في هَواكِ لذيذَةً ... حُبّاً لِذِكْرِاكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمَ

والنقل هو نقل المعنى من غرض إلى آخر، وذلك أنّ الشاعر الحاذق إذا عقل المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه، وعن وزنه ونظمه، وعن رويّه وقافيته

---

١. السرقات، ص ١٨٣.

كما قال كثيّر:

أُريد لأنسى ذكرها فكأنّما فكأنّه لي ليلى بكلّ سبيل

وقال أبو نواس:

ملك تصوّر في القلوب مثاله فكأنّه لم يخل منه مكانٌ

ولا يشكّ عالم أنّ أحدهما مأخوذ من الآخر وإن كان الأوّل نسيباً، والثاني مديحاً. والمعاني المشتركة التي لا ينفرد بها شاعر دون شاعر، والمعاني المخترعة التي استفاضت على ألسن الشعراء حتى صارت كالمعاني المشتركة. وإذا كانت المعاني المشتركة والمعاني المتداولة لا تقع السرقة فيها فإن الشعراء يتفاضلون في عرضها، قال: «قد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر فتشترك الجماعة في الشيء المتداول، وينفرد أحدهم بلفظه تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى إليها دون غيره، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع والمخترع»، كما قال لبيد:

وجلا السيول عن الطلول كأنّها زبر تجدّ متونها أقلامها

فأدّى المعنى الذي تداولته الشعراء، وهذه هي السرقة الممدوحة عنده، ومتى جاءت هذا المجيء لم تعدّ من المعايب، وكان صاحبها بالتفضيل أحقّ وبالمدح والتزكية أولى، ومواطنها كما تحدّث عنها في وساطته الزيادة والاختصار والقلب والنقل، أما السرقة المذمومة، فهي نوعان: سرقة ظاهرة تكون في اللفظ والمعنى وهي أسوأ الأنواع، وسرقة خفيّة تحتاج إلى فطنة.

وجاء ضياء الدين بن الأثير فلم يكتف بكلام من سبقه ولم يكتف -أيضاً- بالتقسيم الثلاثي للسرقات، بل تعداه إلى تقسيم آخر خماسي، فجعل القسم الرابع أخذ المعنى مع الزيادة عليه، والخامس عكس المعنى إلى ضدّه، ويكون بذلك قد حدّد مفهوم القسم الثالث، وهو السلخ بأنّه أخذ المعنى دون اللفظ.

ودخلت السرقات في كتب البلاغة، وبحثها الخطيب القزويني بعد أن انتهى من

فنون البديع، وقال: «إنّ لهذا العلم ملحقات لا ينبغي إهمالها وهي: السرقات الشعريّة، والابتداء، والتخلّص، والانتهاء»[١].

وتساءَل العلوي قائلاً: «هل تعدّ السرقة الشعريّة من علم البديع أولا»؟. ثمّ قال: «إنها منه والبرهان القاطع على ما ذكرناه هو أنّ علم البديع أمر عارض لتأليف الألفاظ، وصوغها، وتنزيلها على هيئة تعجب الناظر، وتشوّق القلب والخاطر، وهذا موجود في السرقات الشعريّة، فإنّ الشاعرين المفلقين يأخذ كلّ واحد منهما معنى صاحبه ويصوغه على خلاف تلك الصياغة، ويقلّبه في قالب آخر، فإمّا زاد عليه وإمّا نقصَ منه. وكلّ ذلك إنّما هو خوض في تأليف الكلام ونظمه، وإذن الأخلق عدّها منه؛ لما ذكرناه. بل هي أخلق بذلك»[٢].

ومن المسائل التي تدخل في نطاق السرقات الشعريّة ـ كما وضحنا سابقاً ـ هو الأخذ، والذي يتأوّل فيه الشعراء المعاني ممّن تقدّمهم والصب في قوالب من سبقهم، ويندرج فيها الأنواع التالية: هي الاستلحاق والاجتلاب والشركة.

وقرن السابقون الاستلحاق بالاجتلاب، وقيل: إنّما وضعا موضع السرق والانتحال لضرورة القافية، فمنهم من يراهما عيباً، ومنهم من لا يرى ذلك عيباً[٣].

وقال التنّوخي: «هو التضمين الذي لم ينبّه عليه ولم يك مشهوراً لقائله وإن ادّعاه لنفسه فهو انتحال»[٤].

أمّا الشركة، فيرى القرطاجني أنّ مراتب الشعراء ـ فيما يلمون به من المعاني ـ هي الاختراع والاستحقاق والشركة والسرقة. فالاختراع عنده هو الغاية في الاستحسان والاستحقاق تال له، والشركة منها ما يساوي الآخر فيه الأوّل، فهذا

---

١. الإيضاح، ص ٣٠١؛ شروح التلخيص، ج ٤، ص ٤٧٤.
٢. الطراز، ج ٣، ص ١٨٩ و ١٩٠؛ انظر: المعجم النقدي، ج ٢، ص ٤٢.
٣. العمدة، ج ٢، ص ١٠٤٢.
٤. الأقصى القريب، ص ١٠٨.

لا عيب فيه، ومنها ما ينحط فيه الآخر عن الأوّل، فهذا معيب»[١].

و من هنا يتّضح أنّ الاستحقاق ليس ممّا يعاب؛ لأنّه بعد الاختراع في المنزلة، وقد أوضح القرطاجني هذه المسألة بقوله، فإذا تساوى تاليفا الشاعرين في ذلك، فإنّه يسمّى الاشتراك، وإن فضلت فيه عبارة المتقدّم، فذلك الاستحقاق؛ لأنّه استحقّ نسبة المعنى إليه بإجادته نظم العبارة عنه[٢].

ومن أنواع السرقات:

١. **الانتزاع**، وهو أخذ معنى غريب من معنى آخر، كقول مسلم بن الوليد:

تظلّم المالُ والأعداءُ من يَدِهِ ... لا زالَ للمالِ والأعداءِ ظَلّاما

انتزعه من قول أبي نواس:

بُحَّ صوتُ المالِ مِمّا ... منكَ يشكو وَيَصِيحُ

قال الصفدي: «فقول مسلم أفصح، ومعناه أبلغ»[٣].

٢. **النسخ أو الانتحال**، وهو أن يأخذ الشاعر من غيره ألفاظه ومعانيه، فلفظة الانتحال دخلت في كتب البلاغة، وأصبحت تدلّ على النسخ[٤]، نحو قول جرير:

إنَّ الذين غَدَوا بِلُبِّكَ غادَرُوا ... وَشلاً بِعَيْنَيك لا يَزالُ مَعِينا

غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلنَ لي: ... ماذا لَقِيتَ مِنَ الهَوى وَلَقِينا[٥]

فإنّ الرواة مجمعون على أنّ البيتين للمعلوط السعدي انتحلهما جرير[٦].

أو يأخذ السارق اللفظ والمعنى مع تغيير ما، كقول الشاعر:

---

١. منهاج البلغاء، ص ١٩٦.

٢. المصدر، ص ١٩٣.

٣. نصرة الثائر، ص ٢٠٩.

٤. الإيضاح، ص ٣٠٢.

٥. ديوان جرير، ج ١، ص ٣٨٦؛ حلية المحاضرة، ج ٢، ص ٣٢؛ الوساطة، ص ١٩٤؛ العمدة، ج ٢، ص ١٠٤٣.

٦. العمدة، ج ٢، ص ١٠٤٣.

ذَرِ المآثـــر لا تــذهبْ لمــطلبها ... واجلس فإنّكَ أنْتَ الآكِـلُ اللابِسُ[١]

فقد سرقها من قول الحطيئة:

دعِ المكــارمَ لا تَــرْحل لِبُغْيَتها ... واقْعُد فإنَّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي[٢]

ويسمّى هذا النوع وقوع الحافر على الحافر، وهذا مذموم مردود؛ لأنّـه سـرقة محضة.

وقد يكون المعنى الثاني أبلغ من الأوّل؛ لاختصاصه بفضيلة، كحسن السبك، أو الاختصار، أو الإيضاح، أو زيادة معنى، ويسمّى المسخ أو الإغارة المقبولة، وهـذا مقبول ممدوح، كقول بشّار:

مَنْ راقبَ الناسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ... وَفـازَ بـالطيباتِ الفـاتِكُ اللَّـهِجُ

أخذه مسلم الحاسر ـ وكان تلميذه ـ فقال:

مَـنْ راقبَ النـاسَ مـاتَ غَـمّاً ... وَفـــازَ بـــاللَّذّةِ الجَسُـــورُ[٣]

فالمعنى في البيتين واحد، ولكن بيت مسلم أجـود سـبكاً، وأخـصر بـلفظتين، وقد شهد بشّار بتفوّق بيت مسلم على بيته، ولذلك غضب منه، وقال: ذهب واللّـه ببيتي فهو أخفّ منه وأعذب.

وقد يسرق المعنى وحده ويمتاز ببلاغة، ويسمّى السلخ أو «الإلمام» مثال ذلك أنّ أبا تمّام قال:

هو الصُنْعُ أن يُعجلْ فخيرٌ وإن يُرَثْ ... فالتريُّثُ فـي بـعض المـواضِـع أنـفعُ

وقال المتنبّي في هذا المعنى:

ومــن الخـير بُطْوُّ خـيركَ عـنّي ... أسرعُ السحبِ في المسيرِ الجَهامُ

---

١. التبيان للطيّبي، ص٤٤٩ و ٤٥٠.

٢. ديوان الحطيئة، ص ١٠٨؛ التبيان، ص ٤٤٩.

٣. الإيضاح، ص ٣٠٥.

والظاهر أنّ قول أبي الطيّب أبلغ؛ وذلك لاشتماله على التشبيه بالسحاب، وكقول المتنبّي:

لو كانَ ما يُعطيهمُ من قَبْل أن يُـعْطيهم لم يـعرفوا التـأميلا

أخذه ابن نباتة السعدي، فأجاد فيه كلّ الإجادة، فقال:

لم يُـبْقِ جـودُكِ لي شـيئاً أُؤَمِّـلُه تَرَكْتَني أصْحَبُ الدنـيا بـلا أمَـلِ

٣. الموارِدة، وهي أن يتّفق الشاعران دون أن يسمع أحدهما قول الآخر بشرط أن يكونا في عصر واحد، وقد أدخل ابن رشـيق المـواردة فـي بـاب السـرقات، ولم يدخل العلوي هذا النوع في السرقة؛ لأنّ: ذلك إنّما يكون فيمن علم من حال بالسبق لذلك الكلام، ثمّ أخذ غيره له مع علمه بانّه له، كسرقة المتاع يأخذه السارق وهو حقّ لغيره على جهة الحقّيّة»[١]. نحو بيت امرئ القيس:

وقُوفاً بها صَحْبي عَليّ مَطِيّهُمْ يَقُولُونَ: لا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ

فلم يغيّر فيه إلّا لفظ القافية فقط، وهي «وتجمّل». أي: ذكر تجلّد مقام تجمل.

٤. الالتقاط والتلفيق، وهما من أنواع السرقات وقد جمعهما الحاتمي في باب واحد. وعرّف ابن منقذ الالتقاط بقوله: «هو ما يتطارحه العلماء والشعراء والكتّاب بينهم، وهو أن يُطرح بيتٌ ويولّد من كلّ كلمة منه بيت، أو من كلّ كلمتين، أو ثلاثة أو غير ذلك مثلما ذكر في كتاب الصناعتين التلفيق والالتقاط. وهو أن يكون البيت ملفّقاً من أبـيات قـبله»[٢] وبـعضهم يسـمّيه الاجـتذاب والتـركيب[٣]. فـمن أمـثلته قـول يزيد بن الطثريّة:

إذا ما رآني مُقْبِلاً غَـضَّ طَـرْفَهُ كَأَنَّ شُعاعَ الشَّمْسِ دُوني يُقابِلُهْ

فأوّله: «إذا ما رآني مقبلاً» أخذه من قول جميل:

---

١. العمدة، ج٢، ص ١٠٤٠؛ الطراز، ج٣، ص ١٧٠.

٢. البديع في نقد الشعر، ص ٢٨٨.

٣. حلية المحاضرة، ج٢، ص ٩٠.

إذا مَا رَأَونـي طـالِعاً مـن ثَـنيّةٍ   يَقُولُونَ: مَنْ هذا؟ وقد عَرَفُوني

ووسطه: «غضَّ طرفه» أُخذ من قول جرير:

فَـغُضَّ الطَّـرْفَ، إنّكَ مـن نُـمير   فَـــلا كَـعْباً بَـلَغْتَ، وَلا كِـلاباً

وعجزه: «كأنّ شعاع الشمس دوني يقابله» من قول عنترة بن الأخرس الطائي:

إذا أَبْـصَرْتَني أَعْـرَضْتَ عَـنّي   كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِـبَلِي تَـدُورُ[1]

٥. الاصطراف، و هو أن يُعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه، فإن صرفه إليه على جهة المثل، فهو اجتلاب واستلحاق، وإن ادّعاه جُملة فهو انتحال[2].

فأمّا الاجتلاب، فنحو قول النابغة الذبياني:

وَصَهْباء لا تُـخْفي القَـذَى وَهْـوَ دُونـها   تُـصَفِّقُ فـي رَاووقِـها حـينَ تُـقَطِّبُ

تَـــمَزَّزْتُها والدِّيكُ يَـــدْعُو صـباحَهُ   إذا مـــابَنُو نَـــعْشٍ دَنَـوْا فَـتَصَوَّبُوا

فاستلحق الفرزدق البيت الأخير، فقال:

وَإجّـــانةٍ رَيَّـــا السُّـــرورِ كـأنَّها   إذا غُمِسَتْ فـيها الزُّجَـاجَةُ كَـوْكَبُ

تَـمَزَّزْتُها والدِّيكُ يَـدْعُو صَـباحَهُ   إذا مـا بَـنُو نَـعْشٍ دَنَـوا فَـتَصَوَّبُوا

وربّما اجتلب الشاعر البيتين على جهة المثل، فلا يكون بذلك بأس، كما قـال عمرو ذو الطوق:

صَدَدْتِ الكَأْسَ عنّا أُمَّ عمروٍ   وَكانَ الكـأْسُ مَـجْراهُ اليَـمِينا

وَمَـا شَـرُّ الثـلاثةِ أُمَّ عَـمْروٍ   بِـصَاحِبِكِ الذي لا تَـصْبَحِينا

فاستلحقهما عمرو بن كلثوم، فهما في قصيدته، وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً[3].

والانتحال سبق وإن مثّلنا له بقوله جرير في قسم النسخ أو الانتحال

---

١. العمدة، ج٢، ص١٠٥٣.

٢. المصدر، ص١٠٣٩.

٣. المصدر، ص١٠٤١.

٦.الاغارة المذمومة، وهي أن ينظّم الشاعر بيتاً ويخترع معنى مليحاً، فيتناوله من هو أعظم منه ذكراً، وأبعد صيتاً، فيرويه له دون قائله، كما فعل الفرزدق بجميل، وقد سمعه ينشد:

تَرَى الناسَ ما سِرْنا يَسيرُونَ خَلْفَنا ... وَإنْ نَحْنُ أَوْمَأْنا إلى النـاسِ وَقَـفُوا

فقال الفرزدق: متى كان المُلك في بني عذرة؟ إنّما هو في مُضَر، وأنا شاعرها! فغلب الفرزدق على البيت ولم يتركه جميل، ولا أسقطه من شعره[١].

وهذا أقبح أنواع السرقات وهو ادّعاء اللفظ والمعنى من غير أن يفكّر الشاعر أو يتعنّى[٢].

٧.الادّعاء، و هو أن يدّعي غير الشاعر لنفسه شعر غيره: والفرق بين الادّعاء والانتحال أنّ الانتحال أخذ الشاعر من الشاعر، أمّا الادعاء، فهو سرقة غير الشاعر من الشاعر، ولذلك قال البحتري:

رمتني غُواةُ الشعر من بين مُفحَم ... ومُـنْتَحلٍ مـالم يَـقُلهُ ومـدَّعِ

٨. المرافدة، وهي أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له، كما قال جرير لذي الرّمّة.

أنشدني ما قلت لهشام المرئيّ، فأنشده قصيدته:

نَبَتْ عـيناكَ عـن طَـلَلٍ بُـحزْوَى ... مَـحَتْهُ الرِّيـحُ وامـتُنِحَ القِطارا

فقال: ألا أُعينُك؟ قال: بلى بأبي وأُمي! قال: قل له:

يَـعُدُّ النـاسِبُونَ إلى تـميمٍ ... بُـيوتَ المـجدِ أربـعةً كِـبارَا

يَـعُدُّونَ الرَّبـابَ وآلَ سـعدٍ ... وَعَـمْراً ثُـمَّ حَـنْظَلَةَ الخِـيارا

وَتَـهْلِكَ بـينَها المـرَئِيُّ لَـغْواً ... كما أُلْغَيْتَ في الدِّيـةِ الحُـوارا

---

١. المصدر، ص١٠٤٤.

٢. نضرة الإغريق، ص ٢١٧.

فلقيه الفرزدق فاستنشده، فلمّا بلغ هذه قال: جيّدٌ، أعده! فأعاده، فقال: كلّا، واللّه لقد علكهنّ من هو أشدُّ لحيَيْن منك، هذا شعر ابن المراغة[١].

٩. الاختلاس، وهو تحويل المعنى من غرض إلى غرض، وقد يسمّى أيضاً «نقل المعنى» مثل قول أبي نواس:

مَلِكٌ تَصَوّرَ في القُلُوبِ مِثالَهُ ... فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ

اختلسه من قول كُثَيِّر:

أُرِيدُ لأَنْسى ذِكْرَها فكأَنَّما ... تَمثَّلُ لي ليلى بِكُلِّ سَبِيلِ

وقول عبد اللّه بن مُصعب:

كَأَنَّكَ كُنْتَ مُحْتَكِما عَلَيْهِم ... تَخَيَّرُ في الأُبُوَّةِ ما تشاءُ

اختلسه من قول أبي نواس:

خُلِّيَتْ والحُسْنُ تأخُذُهُ ... تنتقي منه وتنخِبُ

فاكتستْ منهُ طَرائفَهُ ... ثمّ زادتْ فضلَ ما تَهَبُ[٢]

والاختلاس في البيت الأوّل.

١٠. الموازنة، هي أنْ تؤخذ بنيّة الكلام فقط ومن ذلك قول كثير:

تَقُولُ مَرِضْنا فما عُدْتَنَا ... وكيفَ يَعُودُ مَرِيضٌ مَرِيضا

فقد وازَنَ بين الشطر الثاني من نظمه والشطر الثاني من نظم بني تغلب:

بَخِلْنا لِبُخْلِكِ قَدْ تَعْلَمِينَ ... وَكيفَ يَعِيبُ بَخِيلٌ بَخِيلا

فإن جعل مكان كلّ لفظة ضدّها فذلك هو «العكس» مثل قول أبي فنن، ويروىٰ لأبي حفص البصري:

---

١. حلية المحاضرة، ج٢، ص٥٠؛ العمدة، ج٢، ص١٠٤٦ و ١٠٤٧.

واللحيان: جانبا الوجه، أراد فكّيه، ويقصد صدور هذه المقطوعة عن شاعر أقوى منه. وابن المراغة: جرير، من ألفاظ سباب الفرزدق لجرير، والمراغة: الأتان التي تتمرّغ في التراب.

٢. المصدر، ص١٠٤٨ و ١٠٤٩.

ذَهَبَ الزَّمانُ بِرَهْطِ حَسّانَ الأُلى كـانَتْ مناقِبُهُم حَـدِيثَ الغـابِرِ
وَبَقِيتُ في خَلْفٍ يَحِلُّ ضيوفُهُم مـنهم بـمنزلةِ اللـئيمِ الغـادِرِ
سُـودِ الوُجـوهِ لَـئِيمةٍ أَحْسـابُهُم فُطْسِ الأُنُوفِ من الطِّرازِ الآخِـرِ[1]

فإنَّ البيت الأخير عكس لبيت حسّان المشهورفي مديح آل جفنة:

في مديح آل جفنة:

بـيضُ الوُجُـوهِ كَـرِيمةٌ أَحْسابُهم شـمُّ الأُنـوفِ مِـنَ الطـرازِ الأوّلِ

١١.الاستعانة، هو أن يستعين الشاعر ببيت غيره لغيره في شعره، بعد أن يُوطئ له توطئة لائقة به هنا بحيث لا يبعد ما بينه وبين أبياته، وخصوصاً أبيات التوطئة له، كقول الحارثي:

وَقَـائلة والدَّمْـعُ سَكْبٌ مـبادرٌ وَقَدْ شرِقَتْ بالماءِ مثنطها المَحاجِرُ
وَقَدْ أَبْصَرتْ حمّان من بعدِ أُنسـها بـنا وهـي منّا مُـوحِشات دَوائِـرُ
كأنْ لمْ يَكُنْ بين الحجونِ إلى الصفا يُـقلّبُهُ بـينَ الجـوانـحِ طـائِرُ
فـقلتُ له والقَـلْبُ مـنّي كـأنّما صُروفُ الليالي والجـدودُ العـواثـر

فقد استعان الحارثي ببيتي حرقة بنت تُبّضع، وهما الثالث والخامس.

وهذا الفنّ قريب من التضمين.

١٢.الإلمام أو السلخ، وهو أن يكون المـأخوذ المـعنىٰ لا اللـفظ، وهـذا عـند الجرجاني هو النظر والملاحظة، وهو يعدّه فـي بـاب السـرقات، ومـثّل له بـقول أبي الشيص:

أجِدُ الملامَةَ في هواكِ لذيذةً حُـبّاً لِـذِكْرِكِ فَـلْيَلُمْنِي اللُّـوَّم

وقول المتنبّي:

أأحِـبّه وأحبّ فـيهِ مـلامَةً إنّ الملامَةَ فيهِ من أعدائـهِ

---

١. المصدر، ص١٠٥١ و ١٠٥٢.

وعلّق القاضي الجرجاني على هذين البيتين بقوله: «ومن لطيف السرق ما جاء به على وجه القلب وقصد به النقصُ»[1].

وأصلُهُ من قول أبي نواس:

إذا غـادَيْتِني بـصَبُوحِ عَـذْلٍ فَـمَمْزُوجاً بِـتَسْمِيَةِ الحـبيبِ[2]

و آخر دعوانـا أن الحـمد للّـه ربّ العـالمين و صـلاته و سـلامه عـلى نـبيّه خاتم الأنبياء المرسلين و على وصيّه أعلم من في الأرض من الأوّلين و الآخرين و على آله الميامين.

---

١. الوساطة، ص ٢٠٦؛ العمدة، ج ٢، ص ٧٣٢.

٢. العمدة، ج ٢، ص ٧٣٢.

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث النبوية صلى الله عليه وآله

فهرس أقوال أميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام

فهرس الأشعار

فهرس المصادر والمراجع

١. ***الإتقان في علوم القرآن***. السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبوالفضل ابراهيم، (القاهرة: ١٩٧٥).

٢. ***أثر البلاغة في تفسير الكشاف***. د. عمر ملا حويش، (بغداد ١٩٧٠م).

٣. ***أثر القرآن في اللغة العربية*** . الباقوري، احمد حسن، (القاهرة: بلا.ت).

٤. ***أثر القرآن في اللغة العربية*** . حجازي، محمد عبد الواحد، (مصر: ١٩٧١م).

٥. ***أثر القرآن في تطور النقد الأدبي إلى القرن الرابع الهجري***. د. محمّد زغلول سلام، (دار المعارف بمصر، ط ٢،د.ت).

٦. ***أثر القرآن في تطوير البلاغة العربية حتى نهاية القرن الخامس الهجري***. الخولي، كامل، (القاهرة: ١٩٦٢م).

٧. ***اجناس التجنيس***. الثعالبي، أبومنصور عبدالملك بن محمد، (بيروت: ١٩٩٧م).

٨. ***اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره*** . سعود بن عبد الله، (الرياض: ١٩٩٧م).

٩. ***أدب الكاتب***. ابن قتيبة، محمّد عبد الله ابن مسلم الدينوري.

١٠. ***ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم***. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، (بيروت: لا.ت).

١١. ***أساس البلاغة***. الزمخشري، جار الله، محمود بن عمر، تحقيق: عبد الرحيم محمود، (بيروت: ١٩٧٩م).

١٢. ***أساليب البيان في القرآن***. الحسيني، السيد جعفر، (طهران: ١٤١٣هـ).

١٣. ***أساليب بلاغية***. د. أحمد مطلوب، (ط الكويت ١٩٨٠).

١٤. ***أسباب الإختلاف المفسرين***. الشايع، محمد بن عبد الرحمن، (الرياض: ١٩٩٥م).

١٥. ***اسباب النزول***. علي بن احمد الواحدي، (مصر: ١٣٤٥هـ).

١٦. ***اسرار البلاغة*** . البهائي: محمد بن الحسين، (القاهرة: ١٩٥٧م).

١٧. ***أسرار البلاغة في علم البيان***. الجرجاني، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ /١٠٧٨م)، (بيروت: ١٩٨٣م).

١٨. ***أسس النقد الأدبي عند العرب***. أحمد أحمد بدوي، (القاهرة: ١٩٧٩م).

١٩. ***أسلوب التعقيب في القرآن الكريم***. الكواز، محمد كريم، (ليبيا: ١٤٢٥هـ).

٢٠. *اسلوب المحاورة في القرآن الكريم*. حفني، عبد الحليم، (القاهرة: ١٩٩٥م).

٢١. *الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الاساليب الأدبية*. أحمد الشايب، (مكتبة النهضة المصرية: القاهرة ١٩٧٦).

٢٢. *أسماء الله الحسنى*. ابن قيم الجوزية، (بيروت: ٢٠٠٠م).

٢٣. *أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها*. محمد بكر اسماعيل، (القاهرة: ٢٠٠٠م).

٢٤. *الأسماء والصفات*. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، (بيروت: ١٤٠٥م).

٢٥. *الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة*. الجرجاني، محمد بن علي (ت ٧٢٩هـ)، (بيروت ٢٠٠٢م).

٢٦. *الإشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز*. عزالدين بن عبد السـلام (ت ٦٦٠هـ)، (طـبعة القسـطنطنية: ١٣١٣هـ).

٢٧. *الأشباء والنظائر في النحو*. السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، (بيروت: ١٩٨٤م).

٢٨. *الأشباه والنظائر*. للخالديين، (القاهرة: ١٩٥٨م).

٢٩. *الأشباه والنظائر في القرآن الكريم*. مقاتل بن سليمان، (القاهرة: ٢٠٠١م).

٣٠. *الإشتراك اللفظي في القرآن الكريم*. مسعود بوبو، (بيروت: ١٩٩٤م).

٣١. *الإشتقاق، ابن دريد*. (القاهرة: ١٦٧٨هـ).

٣٢. *اشتقاق الأسماء*. الاصمعي، (القاهرة: ١٤٠٠هـ).

٣٣. *أشعار الشعراء الستة الجاهليين*. (اختيار) الأعلم الشنتمري، (بيروت: ١٩٨١م).

٣٤. *اصلاح المنطق*. ابن السكيت، يعقوب، (دار المعارف: ١٣٧٥هـ).

٣٥. *إصلاح الوجوه و النظائر*. الفقيه الدامغاني، (بيروت: ١٩٧٠م).

٣٦. *اصول التفسير وقواعده*. العک، خالد بن عبد الرحمن، (بيروت: ١٩٩٤م).

٣٧. *الاضداد*. ابن الانباري محمد بن القاسم، (الكويت: ١٩٦٠).

٣٨. *الأضداد في اللغة*. ابن دهان البغدادي، (بغداد: ١٣٨٣هـ).

٣٩. *الأضداد في كلام العرب*. أبو الطيب عبد الواحد علي اللغوي الحلبي، تحقيق: عزة حسن، (المجمع العلمي، دمشق).

٤٠. *الأطول (الشرح الأطول على تلخيص القزويني)*. عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الاسفراييني، (تركيا: ١٢٨٤هـ).

٤١. *الإعجاز البلاغي*. محمد محمد أبو موسى، (القاهرة: ١٩٨٥م).

٤٢. *الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ*. الخضري، محمد الأمين، (القاهرة: ١٩٩٣م).

٤٣. *الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الارزق*. بنت الشاطيء، عائشة عبد الرحمن، (دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧١م).

٤٤. ***إعجاز القرآن والبلاغة النبوية***. الرافعي، مصطفى صادق، تحقيق: محمد سعيد العريان، (القاهرة: ١٩٤٠م).

٤٥. ***إعجاز القرآن***. الباقلاني، أبوبكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ). تحقيق: أحمد صقر، (القاهرة: ١٩٧٧م).

٤٦. ***الإعجاز في نظم القرآن***. محمود السيد شيخون، (القاهرة: بلا. ت).

٤٧. ***الإعجازوالإيجاز***. الثعالبي، ابومنصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٣٠هـ)، (القاهرة ١٨٩٧م).

٤٨. ***اعراب القرآن***. الزجاج، ابراهيم بن سهل، (بيروت: ١٩٨٢م).

٤٩. ***اعراب القرآن***. النحاس، أحمد بن محمد بن اسماعيل (ت ٣٣٨هـ)، (بيروت: ١٩٩٨م).

٥٠. ***اعراب القرآن وبيانه***. الدرويش محمد، (بيروت: بلا. ت).

٥١. ***الإعراب المحيط في تفسير البحر المحيط***. ابن حيان الأندلسي، (بيروت: ٢٠٠١م).

٥٢. ***الأغاني***. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ /٩٦٧م)، (القاهرة: ١٩٢٣).

٥٣. ***أقصى الأماني في علم البيان والبديع والمعاني***. الأنصاري، أبو يحيى زكريا بن محمد، (مخطوط دار الكتب المصرية رقم: ٦٠٤).

٥٤. ***الاقصى القريب في علم البيان***. محمد بن محمد بن عمرو التنوخي، (القاهرة ١٣٢٧هـ).

٥٥. ***آلاء الرحمن في تفسير القرآن***. محمّد جواد البلاغي، (مطبعة صيدا ١٩٣٣م).

٥٦. ***الألفاظ الكتابية***. عبدالرحمن بن عيسىٰ الهمداني، (بيروت: ١٩٨٦م).

٥٧. ***الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى***. الرماني، (دار الوفاء: بلا. ت).

٥٨. ***امالي ابن الحاجب***. دراسة و تحقيق: فخر سليمان قدراة، (بيروت: ١٩٨٩م).

٥٩. ***الأمالي الشجرية***. ابن الشجري، أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي، (بيروت: بلا. ت).

٦٠. ***امالي المرتضى (غُرَر الفوائد ودُرَر القلائد)***. المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٣٦هـ)، (بيروت: ١٩٦٧م).

٦١. ***الأمالي في المشكلات القرآنية والحِكَم والأحاديث النبوية***. الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن ابن إسحاق (ت ٣٣٩هـ)، شرحه أحمد بن الأمين الشنقيطي، القاهرة مطبعة السعادة (١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م).

٦٢. ***الأمالي***. ابن المبارك اليزيدي، أبو عبد الله محمد، (القاهرة: بلا. ت).

٦٣. ***الأمالي***. القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم، (بيروت: بلا. ت).

٦٤. ***الامتاع و المؤانسة***. التوحيدي، أبوحيان، (بيروت: لا. ت).

٦٥. ***أمثال القرآن***. ابن قيم الجوزية، (بغداد: ١٩٨٠م).

٦٦. ***الأمثال القرآنية***. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، (بيروت: ١٩٨٠م).

٦٧. ***الأمثال الكامنة في القرآن***. الحسين بن الفضل، (الرياض: ١٩٩٢م).

٦٨. ***الأمثال في القرآن***. محمد بن الشريف، (بيروت: ١٩٨١م).

٦٩. ***الامثال النبويه***. محمد الغروي، (بيروت: ١٩٨٠).

٧٠. *املاء ما من به الرحمن*. العكبري، عبد الله بن الحسين، (مصر: ١٣٢١هـ).

٧١. *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥هـ)، (المطبعة العثمانية: ١٣١٤هـ).

٧٢. *أنوار الربيع في أنواع البديع*. إبن معصوم المدني، علي صدر الدين، (ت ١١٢٠هـ)، تحقيق: شاكر هادي شكر، (النجف الأشرف: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م).

٧٣. *الانيس في غرر التجنيس*. الثعالبي، ابومنصور عبدالملك بن محمد، (بيروت: ١٩٩٦م).

٧٤. *الإيضاح في شرح مقامات الحريري*. المطرزي، أبو المظفر ناصر، (طبعة حجرية ـ ايران: ١٢٧٢هـ).

٧٥. *الإيضاح في علوم البلاغة*. القزويني، الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ)، (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، (بيروت: ١٩٨٠م).

٧٦. *البحث الأدبي*. شوقي صنيف، (القاهرة. لا. ت).

٧٧. *البحر المحيط في التفسير*. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ)، (بيروت: ١٩٩٢م).

٧٨. *البحر المديد في تفسير القرآن المجيد*. أحمد بن محمد بن المهدي، (بيروت: ٢٠٠٢م).

٧٩. *بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية*. ابن قيم الجوزية، (السعودية: ١٩٩٣م).

٨٠. *بدائع الفوائد*. ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، (بيروت: بلا. ت).

٨١. *بدع التفاسير*. عبد الله بن الصديق الغماري، (القاهرة: بلا. ت).

٨٢. *بديع التحبير شرح ترجمان الضمير*. محمّد بدر الدين الرافعي، (ط: المطبعة العلمية بمصر ـ ١٣١٣هـ).

٨٣. *بديع التلخيص و تلخيص البديع*. طاهر الجزائري، (دمشق: ١٨٧٨م).

٨٤. *بديع القرآن*. ابن أبي الإصبع المصري عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٧هـ /١٢٣٩م) تحقيق: حفني محمد شرف، (مصر: ١٩٥٧م).

٨٥. *البديع تأصيل وتجديد*. د. منير سلطان (منشأة المعارف بالإسكندرية).

٨٦. *البديع في ضوء أساليب القرآن*. عبدالفتاح لاشين، (القاهرة: ١٩٨٦م).

٨٧. *البديع في نقد الشعر*. ابن منقذ، أسامة (ت ٥٨٤هـ)، (القاهرة: ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م).

٨٨. *البديع*. ابن المعتز، عبد الله (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم الخفاجي، (مصر: ١٩٤٥م).

٨٩. *البديعيات في الأدب العربي*. نشأتها ـ تطورها ـ أثرها. عليّ أبو زيد، ط: عالم لكتب ـ بيروت (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٩٠. *البديهيات في القرآن الكريم*. فهد عبد الرحمن الرومي، (الرياض: ١٤١٧هـ).

٩١. *البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن*. الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم، تحقيق: د. مطلوب، الحديثي، (بغداد: ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).

٩٢. *البرهان في اعراب آيات القرآن*. احمد ميقري بن أحمد، (بيروت: ٢٠٠١م).

٩٣. *البرهان في توجيه متشابه القرآن*. الكرماني، تاج القرّاء، محمود بن حمزة بن نصر (ت ٥٠٥هـ)، تح: عبدالقادر أحمد عطاء، بيروت (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٩٤. *البرهان في علوم القرآن*. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ) (ت بعد ٩١٣٢هـ /١٥٢٦م)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، (بيروت: ١٩٧٢م).

٩٥. *البرهان في غريب القرآن*. الحبشي، حسن بن صالح، (القاهرة: ١٩٩١م).

٩٦. *البرهان في وجوه البيان*. ابن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، (بغداد: ١٩٦٧ م).

٩٧. *البصائر و الذخائر*. أبوحيان التوحيدي، (دمشق. لا. ت).

٩٨. *بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز*. الفيروزآبادي، محمدبن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، (القاهرة: ١٩٦٩م).

٩٩. *بغية الايضاح لتخليص المفتاح*. عبد المتعال الصعيدي، (مطبعة محمد علي صبيح وأولاده).

١٠٠. *بلاغة أرسطو بين العرب واليونان*. د. ابراهيم سلامة، الطبعة الثانية القاهرة (١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م).

١٠١. *البلاغة التطبيقية*. احمد موسى، (مطبعة الموفة: ١٩٦٣م).

١٠٢. *البلاغة تطور و تاريخ*. شوقي ضعيف، (مصر: ١٩٧٦م).

١٠٣. *البلاغة الصافية*. د. حسن إسماعيل عبد الرزاق، (القاهرة: ١٩٩٣).

١٠٤. *البلاغة العربية في ثوبها الجديد*. د. البكري شيخ أمين، (دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢م).

١٠٥. *بلاغة القرآن*. محمد الخضر الحسين، (الدار الحسينية للكتاب: ١٩٩٧م).

١٠٦. *بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار*. لاشين، عبد الفتاح، (دارالفكر العربي: بلا. ت).

١٠٧. *البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابي*. صباح عبيد دراز، (مصر: ١٩٨٦م).

١٠٨. *البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري*. د. عفت الشرقاوي، (بيروت: ١٩٨١م).

١٠٩. *البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري*. محمد أبوموسى، (دار الفكر العربي: بلا. ت).

١١٠. *بلاغة الكلمة في التعبير القرآني*. السامرائي، فاضل صالح، (عمان: ١٩٩٩م).

١١١. *البلاغة الواضحة*. علي الجارم ومصطفى أمين، (دار المعارف مصر: ١٩٦٩م).

١١٢. *البلاغة تطور وتاريخ*. د. شوقي صنيف، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥م).

١١٣. *البلاغة عند السكاكي*. مطلوب، أحمد، الطبعة الأولى (بغداد: ١٩٦٤م).

١١٤. *البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري*. رابح دوب، (القاهرة: ١٩٩٧م).

١١٥. *البلاغة فنونها وأفنانها*. فضل، حسن عباس، (عمان: ١٩٨٥م).

١١٦. *البلاغة والتحليل الأدبي*. د. أحمد أبو حاقة، (بيروت: ١٩٨٨).

١١٧. *البلاغة*. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. تحقيق: د. رمضان عبد التواب، (القاهرة: ١٩٦٥).

١١٨. *بلوغ الأرب في علم الأدب*. جرمانوس فرحات، (بيروت: ١٩٩٠م).

١١٩. *بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو*. د. نجاة الكوفي، (ط: النهضة العربية).

١٢٠. *بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)*. الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبـراهـيم (ت ٣٨٨هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، د. زغلول سلام، (دار المعارف مصر: لا. ت).

١٢١. *البيان الحديث في علوم البلاغة والعروض* . روز غريب، (بيروت: ١٩٦٩م).

١٢٢. *البيان العربي*. د. بدوي طبانه، الطبعة الرابعة ـ القاهرة (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م).

١٢٣. *البيان القرآني*. البيومي، محمد رجب، (دار النصر للطباعة: ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م).

١٢٤. *البيان بالقرآن*. مصطفى كمال المهدي، (ليبيا: ١٩٩٠م).

١٢٥. *البيان في اعجاز القرآن*. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، (عمان: ١٩٩٢م).

١٢٦. *البيان في إعجاز القرآن*. الديب، علي محمد السباعي، (مطبعة محمد علي صبيح: ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م).

١٢٧. *البيان في روائع القرآن*. تمّام حسّان، (القاهرة: ١٩٩٢م).

١٢٨. *البيان في ضوء أساليب القرآن*. عبد الفتاح لاشين، (القاهرة: ١٩٩٢م).

١٢٩. *البيان في مباحث من علوم القرآن*. غزلان، عبد الوهاب عبد المجيد، (مطبعة دار التأليف: ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م).

١٣٠. *البيان والتبيين*. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ /٨١٨هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (مصر: ١٩٦٠).

١٣١. *تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية*. السامرائي، مهدي، (دمشق: ١٩٧٧م).

١٣٢. *تاج العروس من جواهر القاموس (تفصيل وشرح للقاموس المحيط)*. الزبيدي، مـرتضى الحسـيني، (المطبعة الخيرية بمصر: ١٣٠٧هـ).

١٣٣. *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*. طه احمد ابراهيم، الطبعة الثانية ـ بيروت.

١٣٤. *تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها*. أحمد مصطفي المراغي، (القاهرة: ١٩٥٠).

١٣٥. *تأويل مشكل القرآن*. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، (بيروت: بلا. ت).

١٣٦. *التبيان في اعراب القرآن*. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦هـ)، (بيروت: ١٩٨٧م).

١٣٧. *التبيان في تفسير القرآن*. الطوسي، الشيخ جعفر بن محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، (دار إحياء التراث العربي: بلا. ت).

١٣٨. *التبيان في تفسير غريب القرآن*. أحمد بن محمد الهائم، (القاهرة: ١٤١٣هـ).

١٣٩. *التبيان في شرح الديوان = ديوان أبي الطيب المتنبي*. بشرح أبي البقاء العكبري.

١٤٠. *التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن*. ابن الزمكاني، أبو محمد زكي الديـن عـبد العـظيم بـن عبد الواحد بن عبد الكريم، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، (بغداد: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

١٤١. *التبيان في علوم القرآن*. الصابوني، محمد علي، (بيروت: ١٩٧٠م).

١٤٢. *تجريد البناني على مختصر سعد الدين*. مصطفي إبن محمد البناني، (مطبعة السعادة بمصر: ١٣٣٠هـ).
١٤٣. *التحبير في علم التفسير*. السيوطي، (بيروت: ١٩٩٦م).
١٤٤. *التحبير في علم التفسير*. عبد الله شحاته، (القاهرة: ١٩٩٦م).
١٤٥. *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن*. إبن أبي الأصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، (القاهرة: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م).
١٤٦. *تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب*. أبو حيان الاندلسي، (بغداد: ١٩٧٧).
١٤٧. *التراث النقدي*. د. رجاء عيد، (الاسكندرية: ١٩٨٣م).
١٤٨. *تراثنا النقدي*. د. السيد فضل، (الاسكندرية: لا.ت).
١٤٩. *ترتيب القاموس المحيط للفيروز آبادي*. الزاوي، الطاهر أحمد، (دار المعرفة بيروت: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).
١٥٠. *تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد*. أبو مالك، تحقيق: محمد كامل بركات، (مصر: ١٩٦٧).
١٥١. *التسهيل لعلوم التنزيل*. ابن جزي الغرناطي، محمد بن أحمد، (بيروت: ١٩٩٥م).
١٥٢. *تسهيل لعلوم التنزيل*. الكلبي، محمد بن أحمد، (مصر: ١٣٥٥هـ).
١٥٣. *التصوير الفني في القرآن*. سيد قطب، (القاهرة: بلا.ت).
١٥٤. *تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام*. وليد محمد مراد، (بيروت: ١٩٨٤م).
١٥٥. *التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن*. عودة خليل ابو عودة، (الأردن: ١٩٨٥م).
١٥٦. *تطور دراسات اعجاز القرآن*. عمر ملّة حويش، (بغداد: ١٩٧٢م).
١٥٧. *التعابير القرآنية والبيئة العربية*. ابتسام مرهون الصفار، (النجف: ١٩٦٧م).
١٥٨. *التعبير الفني في القرآن الكريم*. د. البكري شيخ أمين، (دار الشروق: بلا.ت).
١٥٩. *التعبير القرآني*. السامرائي، فاضل صالح، (بغداد: ١٩٨٧م).
١٦٠. *التعبير في القرآن الكريم*. محمد سالم محمد، (القاهرة: ١٩٩٥م).
١٦١. *التعريفات*. السيد الشريف، علي بن محمد بن علي الجرجاني، (بيروت: ١٩٨٥م).
١٦٢. *تفسير ابن جزي*. محمد بن أحمد، (بيروت: ١٩٨٣م).
١٦٣. *تفسير ابن عباس المسمى تنوير المقباس*. (طهران: لا.ت).
١٦٤. *تفسير أبي السعود، المسمّىٰ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم*. أبو السعود، بن محمد بن محمد العماري (ت ٩٥١هـ)، (مطبعة محمد علي صبيح).
١٦٥. *تفسير البحر المحيط*. أبو حيان، محمد بن يوسف (٧٥٤هـ)، (بيروت: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).
١٦٦. *تفسير البرهان*. البحراني، السيد هاشم، (النجف: بلا.ت).
١٦٧. *تفسير البشائر وتنوير البصائر*. علي الشربجي، (دمشق: ١٩٩٧م).
١٦٨. *تفسير البلاغي الميسر*. عبد القادر حسين، (القاهرة: ٢٠٠١م).

١٦٩. *التفسير البنائي للقرآن الكريم*. البستاني، محمود، (مشهد: ١٤٢٢هـ).
١٧٠. تفسير *البيضاوي*. عبد الله بن عمر، (بيروت: ١٩٩٦م).
١٧١. تفسير *التحرير والتنوير*. ابن عاشور، محمدالطاهر، (البابي الحلبي: ١٩٦٥م).
١٧٢. تفسير *الخازن*. (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي (ت ٧٤١هـ)، (بيروت: ١٩٩٥م).
١٧٣. *التفسير الشامل للقرآن الكريم*. أمير عبد العزيز، (القاهرة: ٢٠٠٠م).
١٧٤. تفسير *الشهرستاني*. محمد بن عبد الكريم، (طهران: ١٩٩٧م).
١٧٥. *التفسير الصحيح*. حكمت بن بشير بن ياسين، (المدينة: ١٩٩٩م).
١٧٦. تفسير *الصراط المستقيم*. البروجردي، حسين، (قم: ١٩٩٥م).
١٧٧. تفسير *الضحاك*. ابن مزاحم البلخي الهلالي، (القاهرة: ١٩٩٩م).
١٧٨. تفسير *الطبري*. (جامع البيان) محمد بن جرير، (بيروت: ١٩٩٢م).
١٧٩. تفسير *الفخر الرازي*. (مفاتيح الغيب) الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٤هـ)، (بيروت: ١٩٩٣م).
١٨٠. *التفسير الفريد للقرآن المجيد*. محمد عبد المنعم الجمال، (دار الكتاب الجديد).
١٨١. تفسير *القاسمي المسمى: محاسن التأويل*. القاسمي، محمد جمال الدين، (بيروت: ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).
١٨٢. تفسير *القرآن الحكيم*. محمد رشيد رضا، (بيروت: ١٩٩٣م).
١٨٣. تفسير *القرآن العزيز*. عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (بيروت: ١٩٩١م).
١٨٤. تفسير *القرآن العزيز*. محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، (القاهرة: ٢٠٠٢م).
١٨٥. تفسير *القرآن العظيم*. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ)، (دار المعرفة بيروت: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).
١٨٦. تفسير *القرآن الكريم*. محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي، (بيروت: ١٩٩٨م).
١٨٧. تفسير *القرآن الكريم البحر العلوم*. نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، (بغداد: ١٩٨٥م).
١٨٨. تفسير *القرآن الكريم واعرابه وبيانه*. محمد علي الدرّة، (دمشق: ١٩٨٢م).
١٨٩. تفسير *القرآن كشف الحقائق عن نكت الآيات*. محمد كريم العلوي الموسوي، (طهران: بلا. ت).
١٩٠. تفسير *المراغي*. المراغي، أحمد مصطفى، (دار احياء التراث العربي بيروت: ١٩٨٥م).
١٩١. تفسير *المشكل من غريب القرآن العظيم*. مكي بن أبي طالب، (الأردن: ١٩٨٥م).
١٩٢. تفسير *المنار*. محمد رشيد رضا، (طبع مصر دار المنار: ١٣٧٣هـ)، اعيد طبعه في دار المعرفة بيروت.
١٩٣. تفسير *الميزان*. الطباطبائي، السيد محمد حسين، (بيروت: ١٣٩٤هـ).
١٩٤. تفسير *النسائي*. أحمد بن شعيب بن علي، (بيروت: ١٩٩٠م).

١٩٥. *تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)*. النسفي، أبو البكات عبد الله بن أحمد (ت ٧١٠هـ)، (مصر: بلا. ت).

١٩٦. *تفسير النهر الماد من البحر*. أبو حيان، محمد بن يوسف، بهامش البحر المحيط.

١٩٧. *التفسير الواضح*. محمد محمود حجازي، (القاهرة: ١٩٩٢م).

١٩٨. *التفسير الوسيط*. وهبة الزحيلي، (بيروت: ٢٠٠٠م).

١٩٩. *تفسير آيات الأحكام*. الحصري، أحمد محمد، (بيروت: ١٩٩١م).

٢٠٠. *تفسير روح البيان*. حقي، إسماعيل، (طبع مصر عثمانية: ١٣٣٠هـ).

٢٠١. *تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان*. النيسابوري، الحسن بن محمد، (انقره: ١٩٩٧م).

٢٠٢. *تفسير غريب الحديث*. ابن حجر العسقلاني، (مصر: بلا. ت).

٢٠٣. *تفسير غريب القرآن*. الدينوري، ابن قتيبة، (مصر: ١٩٥٨).

٢٠٤. *تفسير غريب القرآن العظيم*. الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر، (انقره: ١٩٩٧).

٢٠٥. *تفسير غريب القرآن الكريم*. الطريحي، فخر الدين، (قم: بلا. ت).

٢٠٦. *تفسير مبهمات القرآن*. البلنسي، محمد بن علي، (بيروت: ١٩٩١م).

٢٠٧. *تفسير مقتنيات الدرر*. علي الحائري الطهراني، (طهران: ١٣٣٧هـ. ش).

٢٠٨. *التفكير البلاغي عند العرب: «أسسه وتطوره الى القرن السادس»*. حمادي صمود، (تونس: ١٩٨١م).

٢٠٩. *تلخيص البيان في مجازات القرآن*. الرضي، أبو الحسن محمد بن حسين، (طهران: ١٤٠٧هـ).

٢١٠. *التلخيص في علوم البلاغة للقزويني*. شرح عبد الرحمن البرقوقي، (بيروت: ١٩٠٤م).

٢١١. *التمثيل والمحاضرة*. الثعالبي، أبو منصور، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، (القاهرة: ١٩٦١م).

٢١٢. *تهذيب اللغة*. الأزهري، ابو منصور، (القاهرة: ١٩٦٤ـ١٩٦٧).

٢١٣. *توشيح التوشيح*. الصفدي، صلاح الدين، (بيروت: ١٩٦٦م).

٢١٤. *توضيح المطول*. السيد يوسف الحسيني التبريزي، (قم: بلا. ت).

٢١٥. *ثلاث رسائل في اعجاز القرآن*. الرماني (ت ٣٨٦هـ) و الخطابي (ت ٣٨٨هـ) و عبد القادر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، (القاهرة: ١٩٧٦م).

٢١٦. *ثلاث كتب في الأضداد*. الأصمعي، (بيروت: بلا. ت).

٢١٧. *جامع البيان عن تأويل آيات القرآن*. الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، المطبعة الميمنية، القاهرة (د.ت)، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٤م.

٢١٨. *جامع الجوامع*. الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، ايران ١٣٢١هـ.

٢١٩. *الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير*. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٥٤٨هـ / م)، (دار الفكر بيروت: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

٢٢٠. ***الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور***. ابن الأثير، ضياء الدين الجزري (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، تحقيق: مصطفى جواد، جميل سعيد، (بغداد: ١٩٥٦).
٢٢١. ***الجامع لأحكام القرآن***. (تفسير القرطبي). القرطبي، محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد بن العليم البردوني، (القاهرة: ١٣٥٣هـ).
٢٢٢. جرس ***الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب***. د. ماهر مهدي هلال، (بغداد ١٩٥٠م).
٢٢٣. ***الجمان في تشبيهات القرآن***. ابن ناقيا، ابو القاسم عبد الله ابن محمد البغدادي.
٢٢٤. ***جمهرة أشعار العرب***. القرشي، أبو زيد، (بيروت: ١٩٧٨م).
٢٢٥. ***جمهرة الأمثال***. العسكري، أبو هلال، (القاهرة: ١٩٦٤م).
٢٢٦. ***جمهرة اللغة***. ابن دريد، (بيروت: ١٩٢٥م).
٢٢٧. ***جواهر الألفاظ***. قدامة بن جعفر (ت ٣٠٣هـ /٩١٥م)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: ١٣٩٩هـ).
٢٢٨. ***جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع***. الهاشمي، أحمد (ت ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)، (مطبعة الإعتماد بمصر: بلا. ت).
٢٢٩. ***جوهرالكنز***. ابن الاثيرالحلبي، نجم الدين أحمد بن اسماعيل (ت ٧٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، (الاسكندرية: لا. ت).
٢٣٠. ***حاشية الدسوقي على مختصر السعد على تلخيص المفتاح***. الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة (ت ١٢٣٠هـ)، بهامش شروح التلخيص، (القاهرة: ١٣١٧هـ).
٢٣١. ***حاشية السيالكوتي على المطول***. السيالكوتي، عبد الحكيم، (الشركة الصحافية العثمانية استانبول: ١٣١١هـ).
٢٣٢. ***حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي*** (ت ١٠٦٩هـ)، (دار بيروت صادر: بلا. ت).
٢٣٣. ***حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي***. شيخ زاده، محيي الدين (ت ٦٨٥هـ)، (المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا: بلا. ت).
٢٣٤. ***حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين***. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بلا. ت).
٢٣٥. ***حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي***. الخطيب الكازروني، أبي الفضل القرشي الصديقي، (بيروت، مؤسسة شعبان: بلا. ت).
٢٣٦. ***حاشية المطول***. الكلبي، حسن، (قم: بلا. ت).
٢٣٧. ***حدائق السحر في دقائق الشعر***. رشيد الدين الوطواط، ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي ـ القاهرة، (١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م).

٢٣٨. *الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية*. د. كمال عز الدين، (بيروت ١٩٨٤م).

٢٣٩. *حسن البيان في تفسير مفردات القرآن*. الخاني، محيي الدين، (دمشق: ١٣٤٢).

٢٤٠. *حسن التوسل الى صناعة الترسل*. الحلبي، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥هـ /١٣٢٤م)، تحقيق: د. اكرم عثمان يوسف، (بغداد: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

٢٤١. *حقائق التأويل في متشابه التنزيل*. الرضي، السيد الشريف، (طهران: ١٤٠٦هـ).

٢٤٢. *الحلية السيرا في مدح خير الورىٰ*. ابن جابر الاندلسي، (بيروت: ١٩٨٥م).

٢٤٣. *حلية البديع في مدح النّبيّ الشفيع*. قاسم البكرجي (ت ١١٦٩هـ)، مط: العزيزية. حلب ١٢٩٣هـ.

٢٤٤. *حلية المحاضرة في صناعة الشعر والأدب والأخبار*. الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن المظفر (ت ٣٨٨هـ /٩٩٨م)، تحقيق: د. جعفر الكتاني، (بغداد: ١٩٧٩م).

٢٤٥. *الحماسة البصرية*. البصري، (بيروت: بلا. ت).

٢٤٦. *الحماسة*. البحتري، أبو عبادة، (بيروت: ١٩٦٧م).

٢٤٧. *الحماسة الشجرية*. ابن الشجري، (دمشق: ١٩٧٠م).

٢٤٨. *الحيوان*. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨١٨م)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: ١٣٢٦هـ ـ ١٩٣٨م).

٢٤٩. *خزانة الأدب وغاية الأرب*. ابن حجة الحموي، أبوبكر محمد بن علي (ت ٨٣٧هـ /١٤٣٣م)، (مصر، بولاق بالقاهرة: ١٨٧٤م).

٢٥٠. *خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب*. البغدادي، عبد القادر (ت ١٠٩٣هـ /١٧١٣م)، (القاهرة: ١٩٧٧م).

٢٥١. *الخصائص*. ابن جني، ابو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، (القاهرة: ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م).

٢٥٢. *دراسات أصولية في القرآن الكريم*. الحفناوي، محمد ابراهيم، (القاهرة: ١٩٩٩م).

٢٥٣. *دراسات بلاغية و نقدية*. احمد مطلوب، (بغداد: ١٩٨٠م).

٢٥٤. *دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر*. عبد الهادي العدل، (دار الفكر: بلا. ت).

٢٥٥. *دراسات في الإعجاز البياني*. محمد بركات حمدي، (عمان: ٢٠٠٠م).

٢٥٦. *دراسات في علم النفس الأدبي*. حامد عبد القادر، (١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٩م).

٢٥٧. *دراسات لأسلوب القرآن الكريم*. محمد عبد الخالق عظيمة، (القاهرة: ١٩٧٢م).

٢٥٨. *دراسة أدبية لنصوص من القرآن*. محمّد المبارك، دار الفكر، (بيروت ١٩٧٣م).

٢٥٩. *درة التنزيل وغرة التأويل*. الخطيب الإسكافي، محمد بن عبدالله (ت ٤٢٠هـ)، (مطبعة السعادة: ١٩٠٨م) ط ١.

٢٦٠. *درة الغواص في أهوام الخواص*. الحريري، القاسم بن علي (ت بعد ٥١٦هـ /بعد ١١٣٦م)، (بغداد: ١٨١٧م).

٢٦١. *الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة*. الاصبهاني، حمزة بن الحسن الاصبهاني (ت ٣٥١هـ)، تح: عبد المجيد قطامش، القاهرة ١٩٧١م.

٢٦٢. *دروس في البلاغة العربية وتطورها*. د. جميل سعيد، (مطبعة المعارف: بغداد).

٢٦٣. *دروس في البلاغة العربية*. نحو رؤية جديدة، الأزهر الزنّاد، (تونس: ١٩٩٢م).

٢٦٤. *دروس في البلاغة وتطورها*. د. جميل سعيد، بغداد (١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م).

٢٦٥. *دعبل بن عليّ الخزاعي شاعر آل البيت*. د. عبد الكريم الأشتر، (دمشق ١٩٦٧م).

٢٦٦. *دفاع عن البلاغة*. الزيات، احمد حسن، (القاهرة: بلا. ت).

٢٦٧. *دقائق العربية*. الأمير أمين آل ناصر الدين، (بيروت: ١٩٨٦م).

٢٦٨. *دلائل الإعجاز*. الجرجاني، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ /١٠٧٨م)، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، (أعيد طبعه في قم: ١٤٠٤هـ)، و (تحقيق: الدكتور الداية)، (دمشق: ١٩٧٨م).

٢٦٩. *دلائل الألفاظ*. ابراهيم انيس، (مكتبة الانجلو الثالثة، ١٩٨٦م).

٢٧٠. *دلالات التراكيب*. محمد أبو موسى، (القاهرة: ١٩٧٩م).

٢٧١. *دلالة الألفاظ العربية وتطورها*. مراد كامل، (مطبعة نهضة مصر: ١٩٦٣).

٢٧٢. *ديوان ابن الرومي*. تحقيق: حسين نصار، (القاهرة: بلا. ت).

٢٧٣. *ديوان ابن سناء الملك*. هبة الله (ت ٦٠٧هـ /١٢١١م)، (دار المعارف العثمانية: ١٩٥٨م).

٢٧٤. *ديوان ابن مقبل*. تحقيق: د. عزة حسن، دمشق (١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م).

٢٧٥. *ديوان أبي الأسود الدؤلي*. تحقيق: محمّد محمّد حسن آل ياسين، (بغداد: ١٩٦٥).

٢٧٦. *ديوان أبي العتاهية*. تحقيق: شكري فيصل، (دمشق: ١٩٧٨م).

٢٧٧. *ديوان أبي تمّام*. شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمّد عبده عزام، ط: دار المعارف، ١٩٦٤م.

٢٧٨. *ديوان أبي نواس*. (بيروت: ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م).

٢٧٩. *ديوان الارجاني*. (ناصح الدين)، (دار الجيل بيروت: ١٩٩٨م).

٢٨٠. *ديوان اسامة بن منقذ*. (بيروت: ١٩٩٦م).

٢٨١. *ديوان اسحق الموصلي*. (بغداد: ١٩٩٧م).

٢٨٢. *ديوان أعشى همدان*. (الرياض: ١٤٠٣هـ).

٢٨٣. *ديوان الأدب*. الفارابي، إبراهيم، تحقيق: أحمد مختار عمر، (القاهرة: ١٩٧٥م).

٢٨٤. *ديوان الأعشى الكبير*. ميمون بن قيس، (دار الكتاب اللبناني: ١٩٨٥م).

٢٨٥. *ديوان الأفوه الأودي*. تحقيق: عبد العزيز الميمني، (بيروت: بلا. ت).

٢٨٦. *ديوان الباخرزي*. (علي بن الحسن)، (ليبيا: ١٩٧٣م).

٢٨٧. *ديوان البحتري*. تحقيق: حسن كامل الصيرفي، (القاهرة: ١٩٦٣م).

٢٨٨. ***ديوان بديع الزمان الهمداني***. (بيروت: ١٩٨٧م).

٢٨٩. ***ديوان البستي***. البستي، علي أبو الفتح (ت ٤٠٠هـ/١٠١٠م)، (بيروت: ١٩١٦م).

٢٩٠. ***ديوان بشار بن برد***. (بيروت: ١ف٨١م).

٢٩١. ***ديوان الحارث بن حلزة اليشكري***. (بغداد: ١٩٦٩م).

٢٩٢. ***ديوان حسان بن ثابت***. (بيروت: ١٩٩٢م).

٢٩٣. ***ديوان الحلي***. صفي الدين (ت ٧٥٠هـ/١٣٥٠م)، (دمشق، ١٢٩٧م).

٢٩٤. ***ديوان الخوارج***: شعرهم ـ خطبهم ـ رسائلهم، (بيروت: ١٩٨٣م).

٢٩٥. ***ديوان الخنساء***. تحقيق و شرح: كرم بستاني، (بيروت: مكتبة صادر ١٩٥١م).

٢٩٦. ***ديوان دعبل علي الخزاعي***. (بيروت: ١٩٩٤م).

٢٩٧. ***ديوان الراعي النميري***. (بيروت: ١٩٨١م).

٢٩٨. ***ديوان الرصافي***. القاهرة، وطبعة وزارة الثقافة والاعلام ببغداد.

٢٩٩. ***ديوان السري الرفاء***. (القاهرة: ١٩٣٥م).

٣٠٠. ***ديوان الشاب الظريف***. (بيروت: ١٩٩٥م).

٣٠١. ***ديوان الشريف الرضي***. (بيروت: ١٣٨٠هـ).

٣٠٢. ***ديوان الشريف المرتضى***. (بيروت: ١٩٩٧م).

٣٠٣. ***ديوان العباس بن الأحنف***. (بيروت: ١٩٧٨م).

٣٠٤. ***ديوان عبيدبن الابرص***. (بيروت: ١٩٩٧).

٣٠٥. ***ديوان عمرو بن كلثوم***. (بيروت: ١٩٩١م).

٣٠٦. ***ديوان الفرزدق***. (بيروت: ١٩٨٠م).

٣٠٧. ***ديوان القاضي الفاضل***. (عبدالرحيم بن علي البيساني)، (القاهرة: ١٩٢١م).

٣٠٨. ***ديوان المتنبي***. شرح أبي البقاء العكبري، (دار المعرفة بيروت: ١٩٧٥م).

٣٠٩. ***ديوان المعاني***. أبو هلال العسكري، (بغداد: ١٩٣٢م).

٣١٠. ***ديوان مهيار الديلمي***. (القاهرة: ١٩٢٥م).

٣١١. ***ديوان النابغة الذبياني***. (بيروت: ١٩٨٢م).

٣١٢. ***ديوان الهذليين***. (المدينة المنورة: ١٩٦٥م).

٣١٣. ***ديوان الوأواء الدمشقي***. تح: سامي الدهان، (دمشق ١٩٥٠م).

٣١٤. ***ديوان امرئ القيس***. شرح حسن السندوبي، (القاهرة: بلا.ت).

٣١٥. ***ديوان أمية بن أبي الصلت***. (بيروت: ١٩٣٤م)، (دمشق: ١٩٧٧م).

٣١٦. ***ديوان امير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب وسيد البلغاء والمتكلمين***. (المكتبة الشعبية).

٣١٧. *ديوان أوس بن حجر*. (بيروت: ١٩٧٩م).

٣١٨. *ديوان بشر بن أبي خازم*. (بيروت: ١٤١٦هـ).

٣١٩. *ديوان جرير*. (بيروت: ١٩٦٠).

٣٢٠. *ديوان دُريد بن الصِّمة*. تحقيق: محمد خير البقاعي، (دمشق: ١٤٠١هـ).

٣٢١. *ديوان ذي الرمة «غيلان بن عقبة»*. شرح: أبي نصر الباهلي، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، (بيروت: ١٩٨٢م).

٣٢٢. *ديوان رؤبة بن العجاج «مجموع أشعار العرب»*. (بيروت: ١٩٨٠م).

٣٢٣. *ديوان زهير بن أبي سلمى*. (بيروت: ١٩٧٠م).

٣٢٤. *ديوان زيد الخيل الطائي*. (النجف الأشرف: ١٩٦٨م).

٣٢٥. *ديوان سبط ابن التعاويذي*. (بيروت: ١٩٠٣م).

٣٢٦. *ديوان عامر بن الطفيل*. (بيروت: ١٩٦٣م).

٣٢٧. *ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات*. تحقيق: محمد يوسف نجم، (بيروت: ١٩٨٦م).

٣٢٨. *ديوان عمر بن أبي ربيعة*. شرح: فايز محمد، (بيروت: ١٩٩٢).

٣٢٩. *ديوان كُثَيِّر عَزَّة*. تحقيق: أحسان عباس، (بيروت: ١٩٧١م).

٣٣٠. *ديوان كعب بن زهير*. (القاهرة: ١٩٥٠م).

٣٣١. *ديوان مجنون ليلى*. تح: عبد الستار فراج، (القاهرة: د. ت.).

٣٣٢. *ربيع الأبرار ونصوص الأخيار*. الزمخشري، محمد بن عمر.

٣٣٣. *رسائل البلغاء*. محمد كرد علي، الطبعة الرابعة، القاهرة (١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م).

٣٣٤. *الرسالة الموضحة*. الحاتمي، محمد بن الحسن بن المظفر، (بيروت: ١٩٦٥م).

٣٣٥. *رصف المباني في شرح حروف المعاني*. المالقي، أحمد بن عبد النور (ت ٧٠٢هـ)، تح: أحمد محمّد الخرّاط، دمشق (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٣٦. *رغبة الآمل من كتاب الكامل*. المرصفي، سعيد بن علي، (اعيد طبعه بطهران: ١٩٧٠م).

٣٣٧. *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. الآلوسي، شهاب الدين محمود (ت ١٢٧٠هـ)، (مصر المطبعة المنيرية: بلا. ت).

٣٣٨. *زهر الآداب وثمر الألباب*. الحصري، أبو اسحق ابراهيم بن علي القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، تحقيق: د. زكي مبارك، (القاهرة: ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م).

٣٣٩. *زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع*. الشيخ أحمد الحملاوي، مطبعة البابي الحلبي، ط ٦ (١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م).

٣٤٠. *سحر البلاغة*. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٥٢٩هـ)، طبع بدمشق.

٣٤١. *سر الفصاحة*. الخفاجي، الأمير أبو عبد الله بن محمد بن سنان (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٣م)،تصحيح عبد المتعال الصعيدي، (طبع بمصر: ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م).

٣٤٢. *سرّ صناعة الإعراب*. ابن جني، (دمشق: ١٩٨٥م).

٣٤٣. *سقط الزند*. ابوالعلاء المعري، (دار صادر: بيروت، لا. ت).

٣٤٤. *سلافة العصر*. في محاسن الشعراء بكل مصر، علي بن معصوم، (الدوحة: ١٩٦٢م).

٣٤٥. *سمط اللآلي*، ابوعبيد البكري، (القاهرة: ١٩٣٦م).

٣٤٦. *سنن ابن ماجه*. محمّد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)، تح: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).

٣٤٧. *سنن أبي داوود*. سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ)، إعداد: عزت عبد الدعاس، ط: حمص (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م).

٣٤٨. *سنن الترمذي*. محمّد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ)، تح: أحمد محمّد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٤٩. *شرح ابيات سيبويه*. السيرافي، (دمشق: ١٩٧٩م).

٣٥٠. *شرح أشعار الهذليين*. صنعه، السكري، (القاهرة: ١٣٨٤هـ).

٣٥١. *شرح الأصول الخمسة*. القاضي عبد الجبار أسدآبادي (ت ٤١٥هـ)، تحقيق: د. عبدالكريم عثمان، (القاهرة: ١٩٧٠).

٣٥٢. *شرح بديعية صفي الدين الحلي*. صفي الدين الحلّي، (بيروت: ١٩٩٨م).

٣٥٣. *شرح التلخيص*. البابرتي، أكمل الدين محمّد بن محمّد بن محمود (ت ٧٨٦هـ)، تح: د. محمّد مصطفى رمضان صوفيه، طرابلس ١٩٨٣م.

٣٥٤. *شرح الرضي على الكافية*. رضي الدين الأسترابادي، تحقيق: محمد نور الحسن، (بيروت: ١٩٧٥م).

٣٥٥. *شرح ديوان الحماسة*. التبريزي، (القاهرة: ١٣٥٧هـ).

٣٥٦. *شرح ديوان الحماسة*. المرزوقي، احمد بن محمد بن الحسن، تحقيق: احمد امين وعبد السلام هارون، (القاهرة: ١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م).

٣٥٧. *شرح ديوان الفرزدق*. عبد الله الصاوي، (القاهرة ١٩٣٦م).

٣٥٨. *شرح شافية ابن الحاجب*. الاسترابادي، رضي الدين محمّد بن الحسن (ت ٦٨٦هـ)، تح: محمّد نور الحسن ومحمّد الزفزاف ومحمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٩م).

٣٥٩. *شرح كافية ابن الحاجب*. الاسترابادي، رضي الدين محمّد بن الحسن (ت ٦٨٦هـ).

٣٦٠. *شرح الكافيه البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع*. صفي الدين الحلي، (دمشق: ١٩٨٣م).

٣٦١. *شرح مقامات الحريري*. الشريشي.

٣٦٢. *شرح نهج البلاغة*. ابن أبي الحديد، عبد الحميد المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ)، (دار احياء الكتب العربية: ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م).

٣٦٣. *شرح نهج البلاغة*. البحراني، ابن ميثم (ت ٦٧٩ هـ)، (دار العالم الإسلامي بيروت: ١٩٨١م).

٣٦٤. *شرح نهج البلاغة*. الشيخ محمدعبده، (دار المعرفة: بلا. ت).

٣٦٥. *شروح التلخيص للقزويني*. وفيه: عروس الافراح لبهاء الدين السبكي، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، والإيضاح للقزويني، وحاشية الدسوقي، والمختصر علي شرح التلخيص للتفتازاني.

٣٦٦. *شعر الكميت بن زيد الأسدي*. تح: د. داود سلوم، (بغداد ١٩٧٠م).

٣٦٧. *الشعر والشعراء (أو طبقات الشعراء)*. ابن قتيبة، أبو محمّد بن عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)، تح: مفيد قميحه مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٦٨. *الصاحبي في فقه اللغة*. ابن فارس، أحمد (ت ٣٩٥هـ)، (القاهرة: ١٩٧٧م).

٣٦٩. *صبح الاعشى في صناعة الإنشا*. القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي، (دار الكتب المصرية القاهرة: بلا. ت).

٣٧٠. *الصبغ البديعي في اللغة العربية*. احمد ابرهيم موسىٰ، (القاهرة: ١٩٦٩م).

٣٧١. *الصحاح*. (تاج اللغة وصحاح العربية). الجوهري، اسماعيل، (بيروت: ١٤٠٢هـ).

٣٧٢. *صحيح مسلم*. مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ)، تح: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي.

٣٧٣. *صفوة البيان لمعاني القرآن*. حسنين محمد مخلوف، (القاهرة: ١٩٥٦م).

٣٧٤. *الصناعتين: الكتابة والشعر*. (انظر: *كتاب الصناعتين*).

٣٧٥. *صور من تطور البيان العربي الى أوائل القرن الثامن الهجري*. د. كامل امام الخولي.

٣٧٦. *الصورة الأدبية*. د. مصطفى ناصف، (القاهرة ١٩٥٨م).

٣٧٧. *الصورة الفنية في المثل القرآني*. د. محمّد حسين علي الصغير، دار الهادي، (بيروت ١٩٩٢م).

٣٧٨. *الضمائر في اللغة العربية*. سلومة، جبر، (دار المعارف: ١٩٨٠).

٣٧٩. *طبقات فحول الشعراء*. الجمحي، محمد ابن سلام، تحقيق: محمود محمد شاكر، (ط ٢ القاهرة: ١٩٧٤م).

٣٨٠. *الطراز «المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»*. العلوي اليمني، يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم (ت ٧٤٥هـ)، (بيروت: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

٣٨١. *عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده*. مطلوب، أحمد، (بيروت: ١٩٧٣).

٣٨٢. *عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية*. بدوي، أحمد، (مكتبة مصر القاهرة).

٣٨٣. *عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح*. السبكي، بهاءالدين أحمد بن علي (ت ٧٧٣هـ)، (المطبعة الاميرية بالقاهرة: ١٣١٧هـ).

٣٨٤. *العقد البديع في فن البديع*. بولس عواد، (بيروت: ١٨٨١م).

٣٨٥. *العقد الفريد*. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، (القاهرة: ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥).

٣٨٦. *علم البيان*. البكري، أمين، (دار العلم للملايين بيروت: ١٩٨٢م).

٣٨٧. *علم البيان*. عتيق، عبد العزيز، (بيروت: ١٩٧٤م).

٣٨٨. *علم البديع*. كراتشكوفسكي، ترجمة محمد الحجيري، (بيروت: ١٩٨٣م).

٣٨٩. *علم البديع*. عبدالرزاق أبوزيد، (بيروت:).

٣٩٠. *علم البديع*. عبدالعزيز عتيق، (بيروت: ١٩٨٥م).

٣٩١. *علم البديع*. نشأته و تطوره، جليل رشيد فالح، (جامعة بغداد: ١٩٧٢م).

٣٩٢. *علم المعاني*. عتيق، عبد العزيز، (بيروت: ١٩٧١).

٣٩٣. *علوم البلاغة*. المراغي، أحمد مصطفي، (بيروت: بلا. ت).

٣٩٤. *عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ*. السمين الحلبي، تحقيق: محمد التونجي، (بيروت: ١٩٩٣).

٣٩٥. *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*. ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، ط. ن.

٣٩٦. *عيار الشعر*. ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق: د. طه الحاجري، و د. محمد غلول سلام، (القاهرة: ١٩٥٦م).

٣٩٧. *العين*. الفراهيدي، عبد الرحمن بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي د. إبراهيم السامرائي، (أوفست قم).

٣٩٨. *عيون الأخبار*. إبن قتيبة، (دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٥م).

٣٩٩. *غرائب القرآن ورغائب الفرقان*. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد القمي (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، (القاهرة: ١٩٦٢م).

٤٠٠. *غريب الحديث*. إبن سلام الهروي، أبي عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ)، بيروت: منشورات دار الكتاب العربي، مصور عما طبع في حيدر آباد الدكن (١٣٩٩هـ).

٤٠١. *غريب القرآن وتفسيره*. ابن اليزيدي، أبو عبد الرحمن عبد الله، (بيروت: ١٩٨٥م).

٤٠٢. *الفائق في غريب اللغة*. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت ٥٢٨هـ)، القاهرة ١٣٦٥هـ.

٤٠٣. *الفاصلة القرآنية*. عبد الفتاح لاشين، (القاهرة: بلا. ت).

٤٠٤. *فلسفة البلاغة*. د. رجاء عيد، (الايكندرية: ١٩٧٧م).

٤٠٥. *فلسفة البلاغة*. ضومط، جبر، (المطبعة العثمانية، بعبدا ـ لبنان: ١٨٩٨م).

٤٠٦. *فلسفة اللغة العربية وتطورها*. ضومط، جبر، (مصر: ١٩٢٩م).

٤٠٧. *فن الأدب*. الحكيم، توفيق، (القاهرة: ١٩٥٢م).

٤٠٨. *فن البديع*. عبدالقادر حسين، (القاهرة: ١٩٨٣م).

٤٠٩. *فن البلاغة* . د. عبد القادر حسين، عالم الكتب ١٩٨٤م.

٤١٠. *فن التشبيه*. علي الجندي، الطبعة الثانية ـ القاهرة (١٣٦٨هـ ـ ١٩٦٦م).

٤١١. *فن الجناس*. علي الجندي، (القاهرة ١٩٥٤م).

٤١٢. *فن الشعر*. إحسان رشيد عباس، (بيروت: ١٩٥٥م).

٤١٣. *فن الشعر*. أرسطو طاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (دار الثقافة بيروت: ١٩٧٣م).

٤١٤. *فن بلاغة القرآن*. أحمد بدوي، (مكتبة النهضة مصر).

٤١٥. *الفن ومذاهبه في النثر العربي*. ضيف، شوقي، (بيروت: ١٩٥٦م).

٤١٦. *فنون الأفنان في عيون علوم القرآن*. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، (بيروت: ١٩٨٧م).

٤١٧. فنون بلاغية. الدكتور أحمد مطلوب، بيروت (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

٤١٨. *الفوائد (المشوق الي علوم القرآن وعلم البيان)* . ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٧٥١هـ)، (القاهرة: ١٣٢٧هـ).

٤١٩. *الفوائد في مشكل القرآن*. عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق: د. سيد رضوان الندوي، (الكويت: ١٣٨٧هـ).

٤٢٠. *في البلاغة العربية* . د. رجاء عيد، مكتبة الطليعة، اسيوط د.ت.

٤٢١. *في الدراسات القرآنية واللغوية* . شبلي، عبد الفتاح إسماعيل، (القاهرة: ١٩٥٧م).

٤٢٢. *في ظلال القرآن*. سيد قطب، (دار الشروق بيروت: ١٩٧٣م).

٤٢٣. *فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح*. الشيخ عبد الرحمن الشربيني، مطبعة والدة عبّاس الأول.

٤٢٤. *قاموس الفاظ واعلام القرآن*. محمد اسماعيل ابراهيم، (بيروت: ١٩٦١م).

٤٢٥. *القاموس المحيط*. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، (بيروت: ١٤٠٦هـ).

٤٢٦. *قاموس المصطلحات اللغوية والادبية* . اميل يعقوب، (بيروت: ١٩٨٧م).

٤٢٧. *قانون البلاغة* . إبن حيدر البغدادي، أبي طاهر محمد بن حيدر (ت ٥١٧هـ)، تحقيق: محسن غياض عجيل، بيروت مؤسسة الرسالة (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

٤٢٨. *قراءة ثانية لشعرنا القديم*. د. مصطفى ناصف، (بيروت: ١٩٨١م).

٤٢٩. *القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية* . عبد العال سالم مكرم، (مصر: ١٩٨٨).

٤٣٠. *القرآن والصور البيانية* . عبد القادر حسن، (بيروت: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٤٣١. *القزويني وشروح التلخيص* . د. أحمد مطلوب، بغداد (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م).

٤٣٢. *قضايا الشعر المعاصر*. نازك الملائكة، (بيروت ١٩٧٤م).

٤٣٣. *قضية الأدب بين اللفظ والمعنى أو بين الأشكال والدلالات قديماً وحديثاً* . عنبر، أحمد محمد، (القاهرة: ١٩٥٤م).

٤٣٤. *القطار السريع لعلم البديع*. حفني ناصف، (مطبعة الواعظ، مصر، لا. ت).
٤٣٥. *قواعد النقد الأدبي*. آبر كرمبي، لاسل، نقله الى العربية محمد عوض محمد، (مصر: ١٩٤٤م).
٤٣٦. *الكافي في علوم البلاغة العربية*. د. عيسى علي العاكوب، استاذ علي سعد الشتيوي، (الجامعة المفتوحة، ليبيا: ١٩٩٣).
٤٣٧. *كتاب البديع*. عبدالله بن المعتز، (بيروت: ١٩٨٢م).
٤٣٨. *الكامل في اللغة والأدب*. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ)، تحقيق: كي مبارك، (القاهرة: ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م).
٤٣٩. *كتاب الألفاظ*. ابن السكيت، (بيروت: ١٩٩٨م).
٤٤٠. *كتاب التمهيد*. الباقلاني، تحقيق: يوسف مكارثي، (بيروت ١٩٥٧م).
٤٤١. *كتاب الصناعتين*. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م).
٤٤٢. *كتاب سيبوية*. سيبوية، أبو بشر عمرو (ت ١٨٠هـ)، (مصر: ١٣١٦هـ)، (بيروت: بلا. ت. اعيد طبعه بقم).
٤٤٣. *كشاف اصطلاحات الفنون*. محمد علي الفاروقي (ت ١١٥٨هـ)، تحقيق: لطفي عبد البديع، (مصر: ١٩٧٧).
٤٤٤. *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٢٨هـ)، (بيروت ١٩٩٧م).
٤٤٥. *كشف اللثام عن وجه التورية والإستخدام*. ابن حجّة الحموي، (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م)، (بيروت: ١٨٣٢م).
٤٤٦. *كفاية الطالب في نقدكلام الشاعر والكاتب*. ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: د. نوري القيس، و د. حاتم الضامن وهلال ناجي، (الموصل: ١٩٨٢م).
٤٤٧. *الكلمة ـ دراسة لغوية ومعجمية*. خليل، حلمي، (الهيئة للكتاب بالإسكندرية: ١٩٨٠).
٤٤٨. *الكناية والتعريض*. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، (ت ٤٣٠هـ)، (طبع مصر: بلا. ت).
٤٤٩. *الكنايات*. أبوالعباس الجرجاني (١٩٠٩م).
٤٥٠. *كنز العرفان في فقه القرآن*. السيوري، جمال الدين المقداد بن عبد الله (ت٨٢٦هـ)، (طهران ١٣٨٤هـ).
٤٥١. *الكواكب الدرية في الفنون الأدبية*. الجسر، حسين (ت ١٨٤٥م)، (مخطوط: بلا. ت).
٤٥٢. *لآليء الترصيع في علم البديع*. يوحنا الحداد، (بيروت: ١٩٠٥م).
٤٥٣. *لباب التأويل في معاني التنزيل*. الخازن، علاء الدين علي بن محمد، (القاهرة: بلا. ت).
٤٥٤. *لزوم مالا يلزم*. ابوالعلاء المعري، (بيروت: لا. ت).
٤٥٥. *لسان العرب*. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م).
٤٥٦. *اللطائف والظرائف*. الثعالبي، (بيروت: ١٩٩٢م).
٤٥٧. *اللغة الشاعرة*. عباس محمود العقاد، القاهرة.

٤٥٨. *لغة الشعر*. د. رجاء عيد، (الاسكندرية: ١٩٨٥م).

٤٥٩. *لغة القرآن*. عبد الجليل عبد الرحيم، (عمان: ١٩٨١م).

٤٦٠. *اللغة والنحويين القديم والحديث*. عباس حسن.

٤٦١. *اللمعة في صناعة الشعر*. ابن الانباري.

٤٦٢. *مباحث في علوم القرآن*. الصالح، صبحي، (دار العلم للملايين بيروت: ١٩٧٤م).

٤٦٣. *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ /١٢٣٩م)، نشره محمد محي الدين عبد الحميد، (البابي الحلبي مصر: ١٣٥٩هـ).

٤٦٤. *مجاز القرآن*. ابن المثنى، أبو عبيد معمر (ت ٢١٠هـ)، تحقيق: د. فؤاد سزجين، (مطبعة السعادة: ١٣٧٤هـ).

٤٦٥. *المجازات النبوية*. الشريف الرضي، تحقيق: طه محمد الزيتي، (أعيد طبعه بقم: بلا. ت).

٤٦٦. *مجالس ثعلب*. (احمد بن يحيىٰ)، (مصر: ١٩٨٧م).

٤٦٧. *مجالس العلماء*. الزجاجي، أبو القاسم، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الكويت: ١٩٦٣).

٤٦٨. *مجمع الأمثال*. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: ١٩٥٥م).

٤٦٩. *مجمع البحرين*. الطريحي، الشيخ فخر الدين (ت ١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيد احمد الحسيني، (طهران: ١٣٦٥هـ).

٤٧٠. *مجمع البيان في تفسير القرآن*. الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، (بيروت: ١٣٧٩هـ).

٤٧١. *المجمل في اللغة*. ابن فارس، (بيروت، دار الكتب العلمية).

٤٧٢. *المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث*. أبو موسى الإصفهاني..

٤٧٣. *المحاسن والأضداد*. الجاحظ، (بيروت: ١٩٦٩م).

٤٧٤. *المحاسن والمساوئ*. البيهقي، إبراهيم، (بيروت: ١٩٧٠م).

٤٧٥. *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*. الاصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب، (بيروت: ١٩٦١م).

٤٧٦. *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، (بيروت: ١٤١٣هـ).

٤٧٧. *المحكم والمحيط الأعظم في اللغة*. ابن سيدة علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨هـ)، (القاهرة: ١٩٥٨م).

٤٧٨. *مختار الصحاح*. الرازي، محمد بن أبي بكر، (بيروت: ١٩٨١م).

٤٧٩. *مختصر المطول مع شروح التلخيص*. التفتازاني، سعد الدين.

٤٨٠. *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*. النسفي، (بيروت: بلا. ت).

٤٨١. *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*. السيوطي، جلال الدين، (ط ٣ دار احياء الكتب العربية).

٤٨٢. *مسائل الرازي من غرائب آي التنزيل*. الرازي، محمد بن ابي بكر بن عبد القاهر (ت ٦٦٦هـ)، (طهران: ١٤٠٤هـ).

٤٨٣. *مسائل بلاغية هامة*. فاضلي، محمد، (مشهد: ١٣٦٥هـ،ش).
٤٨٤. *المستطرف في كل فن مستظرف*. الأبشيهي، محمدبن احمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، (بولاق: ١٨٦٨م).
٤٨٥. *مسند الامام أحمد*. أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، المكتب الاسلامي، بيروت (١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م).
٤٨٦. *مشكل القرآن*. ابن قتيبة، (مصر: ١٩٥٣م).
٤٨٧. *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي*. الفيومي، احمد بن محمد بن علي المعزي (ت ٧٧٠هـ)، (اعيد طبعه بقم: ١٤٠٥).
٤٨٨. *المصباح في علم المعاني و البيان و البديع*. بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم، تحقيق: حسين عبد الجليل يوسف، (مكتبة الاداب القاهرة)، و (تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي)، (بيروت: ٢٠٠١م).
٤٨٩. *مصطلحات بلاغية*. الدكتور احمد مطلوب، بغداد، (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م).
٤٩٠. *المصون في الأدب*. أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الكويت ١٩٦٠م).
٤٩١. *المطول و عليه حاشية الجلبي*. التفتازاني، سعد الدين (ت ٧٩٣هـ)، (طبع ايران: ١٣١٠هـ).
٤٩٢. *المعارف*. ابن قتيبة، أبو محمّد بن عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، تح: ثروت عكاشة، دار الكتب المصرية، القاهرة (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م).
٤٩٣. *معاني الحروف*. الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت ٣٨٤هـ)، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدّة (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).
٤٩٤. *معاني القرآن*. الفراء، أبوزكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)، (القاهرة: ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م).
٤٩٥. *المعاني في ضوء اساليب القرآن*. د.عبد الفتاح لاشين، (دار المعارف).
٤٩٦. *معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص*. العباس عبد الرحيم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: ١٣٧٦هـ ـ١٩٤٧م).
٤٩٧. *مع البلاغة العربية في تاريخها*. محمد علي سلطاني، (دمشق: ١٩٧٩م).
٤٩٨. *معترك الاقران في اعجاز القرآن*. السيوطي، جلال الدين، تحقيق: علي محمد البجاوي، (القاهرة: ١٩٦٩م - ١٩٧٣م).
٤٩٩. *المعجزة الكبرى (القرآن)*. محمد أبو زهرة، (القاهرة: ١٩٧٠م).
٥٠٠. معجم *الأدباء*. ياقوت الحموي، (القاهرة: ١٩٢٣م).
٥٠١. معجم *البلاغة العربية*. بدوي طبانة، (بيروت: ١٩٩٤م).
٥٠٢. معجم *الشعراء*. المرزباني، ابو عبيد الله محمد بن عمران، (دار احياء الكتب العربية: ١٩٦٠م).
٥٠٣. معجم *الشواهد العربية*. عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: ١٩٧٢م).
٥٠٤. معجم *المصطلحات البلاغية وتطورها*. د. أحمد مطلوب، (بيروت ١٩٩٦م).

٥٠٥. *المعجم المفصّل في تفسير غريب القرآن الكريم*. د. محمد التونجي، (بيروت ٢٠٠٣م).

٥٠٦. *المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية*. اميل بديع يعقوب، (بيروت: ١٩٩٦م).

٥٠٧. *المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية*. أميل يعقوب، (بيروت: ١٩٩٢م).

٥٠٨. *المعجم المفصل في علوم البلاغة*. إنعام فوّال عكاري، (بيروت: ١٩٩٦م).

٥٠٩. *المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي الشريف*. لجماعة من المستشرقين، (ليدن: ١٩٦٧م).

٥١٠. معجم غريب *القرآن*. عبدالباقي، محمد فؤاد، (مطبعة عيسي الحلبي، الطبعة ٢).

٥١١. معجم *مقاييس اللغة*. ابن فارس، ابو الحسن احمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اعيد طبعه بطهران ١٤٠٤هـ.

٥١٢. *المعيار في اوزان الأشعار*. ابو بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني الاندلسي، تحقيق: الداية، (بيروت: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م).

٥١٣. مغني *اللبيب عن كتب الاعاريب*. ابن هشام الانصاري، جمال الدين بن هشام (ت ٧٦١هـ).

٥١٤. *المغني في ابواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر)*. القاضي عبد الجبار الاسدآبادي، تحقيق: امين الخولي، القاهرة (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م).

٥١٥. مفتاح *السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم*. طاشكبري زاده، أحمد بن مصطفى (١١٨٥هـ)، بيروت (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٥١٦. مفتاح *العلوم*. السكاكي، ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ)، (مصر: ١٩٣٧م).

٥١٧. *المفردات في غريب القرآن*. الراغب الاصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (بيروت دار المعرفة: بلا. ت).

٥١٨. مفهوم *الاعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري*. د. احمد جمال العمري، (دار المعارف).

٥١٩. مفهوم *الشعر عند العرب*. د. عبد القادر القط، (دار المعارف: ١٩٨٢م).

٥٢٠. مفهوم *الشعر*. د. جابر عصفور، (القاهرة: ١٩٧٨م).

٥٢١. مقامات *بديع الزمان الهمداني*. (بيروت: ١٩٩٣م).

٥٢٢. مقامات *الحريري*. (بيروت: لا. ت).

٥٢٣. مقاييس *اللغة*. احمد بن فارس، (بيروت: ١٩٩١م).

٥٢٤. *المقتضب*، *المبرد*. (بيروت: لا. ت).

٥٢٥. مكاتيب *الرسول*. الاحمدي، علي بن حسين علي، (طبع بقم: بلا. ت).

٥٢٦. من بلاغة *القرآن (مجموعة مقالات)*. محمد الخضر حسين، جمعه علي الرضا، (دمشق: ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م).

٥٢٧. من بلاغة *القرآن*. بدوي، احمد، (مطبعة نهضة مصر ط ٢: ١٩٥٢م).

٥٢٨. من بلاغة *النظم العربي*. د. عبد العزيز عبدالمعطي عرفة، (بيروت عالم الكتب).

٥٢٩. *من روائع الإعجاز في القرآن الكريم*. د. محمد جمال الدين الفندي، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية: ١٣٨٩هـ.

٥٣٠. *من روائع القرآن*. البوطي، محمد سعيد رمضان، (مكتبة الفارابي دمشق طبعة ثانية لكتاب حسن الحديث).

٥٣١. *مناهج النقد الأدبي*. ديفيد ديتشس، ترجمة محمد يوسف نجم، (بيروت: ١٩٦٧م).

٥٣٢. *مناهج بلاغية*. د. أحمد مطلوب، بيروت (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

٥٣٣. *مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب*. أمين الخولي، (القاهرة ١٩٦١م).

٥٣٤. *مناهل العرفان في علوم القرآن*. الزرقاني، محمد عبد العظيم، (دار احياء الكتب العربية، بيروت).

٥٣٥. *المنتخب من كتابات الأدباء وارشاد البلغاء*. الجرجاني، القاضي أبو العبّاس أحمد بن محمّد الثنفي (ت ٤٨٢هـ)، بيروت (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٥٣٦. *المنتصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره*. الحسن بن علي بن وكيع (ت ٣٩٣هـ)، تح: د. محمّد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

٥٣٧. *المنزع البديع في تجنيس اساليب البديع*. أبو محمد القاسم السجلماسي، (المغرب: ١٩٨٠م).

٥٣٨. *منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة*. الخوئي، الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي، (طهران: ١٣٨٦هـ).

٥٣٩. *منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة*. الراوندي، ابو الحسين سعيد بن هبة الله، (ت ٥٧٣هـ)، (قم: ١٤٠٦هـ).

٥٤٠. *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*. القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمّد (ت ٦٨٤هـ)، تح: محمّد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الاسلامي، بيروت (١٤٨٦هـ ـ ١٩٨٩م).

٥٤١. *المنهاج الواضح للبلاغة*. حامد عوني، (الجامعة الازهرية، القاهرة).

٥٤٢. *الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري*. الآمدي، ابو القاسم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: السيد احمد صفر، (بيروت: ١٩٦١م).

٥٤٣. *مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح*. ابن يعقوب المغربي، (شروح التلخيص)، (القاهرة ١٩٣٧م).

٥٤٤. *الموجز الكافي في علوم البلاغة*. د. نايف معروف، (بيروت: لا. ت).

٥٤٥. *موسوعة الامثال*. اميل بديع يعقوب، (بيروت: ١٩٩٥م).

٥٤٦. *الموشح*. المرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، (القاهرة ١٩٦٥م).

٥٤٧. *موطأ الإمام مالك بن أنس* (ت ١٧٩هـ). رواية يحيى بن يحيى الليثي، دار النفائس (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).

٥٤٨. *الميزان الجديد*. الدكتور محمد مندور، القاهرة ـ الطبعة الثانية.

٥٤٩. *النثر الفني في القرن الرابع*. مبارك، زكي، (مطبعة السعادة بمصر: ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م) ط ٢.

٥٥٠. *نزهة الأعين النواظر*. ابن الجوزي، (بيروت: ١٤٠٤هـ).

٥٥١. *نزهة الألباء في طبقات الادباء*. الأنباري، (بغداد: ١٩٧٠م).

٥٥٢. *نزهة الجلساء في أشعار النساء*. السيوطي، (حمص: ١٩٩٥م).

٥٥٣. نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز. السجستاني، أبو بكر محمد العزيري (ت ٣٣٠هـ)، (القاهرة: ١٩٦٤م).

٥٥٤. النشر في القراءات العشر. ابن الجزري، شمس الدين محمد (ت ٨٣٣هـ)، (القاهرة: ١٩٤٠م).

٥٥٥. نظرات تحليلية في علم البديع. فرج كمال أحمد سليم.

٥٥٦. نظرية المعنى في النقد الأدبي. د. مصطفى ناصف، (بيروت. لا.ت).

٥٥٧. نظم الدر و العقيان. محمد بن عبدالله التنسي، (بيروت: ١٩٨٠م).

٥٥٨. نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب. التلمساني، احمد بن محمد المعزي، تحقيق: د. احسان عباس، (بيروت: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م).

٥٥٩. النقائض بين جرير والفرزدق لأبي عبيدة. تصحيح: محمّد إسماعيل الصاوي، (القاهرة ١٩٣٦م).

٥٦٠. نقد الشعر. قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، (القاهرة: ١٩٦٣).

٥٦١. النقد اللغوي عند العرب حتّى نهاية القرن السابع الهجري. د. نعمة رحيم العزاوي، (بغداد ١٩٧٨م).

٥٦٢. نقد النثر. قدامة بن جعفر، تح: طه حسين وعبد الحميد العبادي، (القاهرة ١٩٣٣م).

٥٦٣. نكت الانتصار لنقل القرآن. الباقلاني، تحقيق: الدكتور محمد زغلول سلام، (الاسكندرية ١٩٧١م).

٥٦٤. نكت الهميان في نكت العميان. الصفدي، صلاح الدين (ت ٧٦٤هـ)، تح: أحمد زكي، (مصر ١٩١١م).

٥٦٥. النكت في اعجاز القرآن. الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، (دار المعارف).

٥٦٦. نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب دار الكتب المصرية، القاهرة.

٥٦٧. نهاية الايجاز في دراية الاعجاز. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، (القاهرة: ١٣١٧هـ).

٥٦٨. النهاية في غريب الحديث والاثر. أبو السعادات المبارك محمد بن محمد (ابن الاثير الجزري)، تحقيق: الزاوي الطناحي، القاهرة (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

٥٦٩. النواد في اللغة. أبو زيد الأنصاري، (بيروت: ١٤٠١هـ).

٥٧٠. الوساطة بين المتنبي و خصومه. الجرجاني: القاضي علي بن عبد العزيز (ت ٣٩٢هـ /٩٨١م)، تحقيق: فخر الدين قبادة و عمر يحيى، (ط ٢ دمشق: ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥).

٥٧١. الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية. حسين المرصفي، (القاهرة ١٩٩١م).

٥٧٢. وضح البرهان في مشكلات القرآن. بيان الحق النيسابوري.

٥٧٣. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. الثعالبي، ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ /١٠٣٧م)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (مطبعة السعادة: ١٩٥٦م).

الفهرس التفصيلي

البديع لغةً واصطلاحاً

چکیده

اثر حاضر، قسمت سوم از «أساليب البلاغه قرآن کریم» است که دربـاره «علـم بدیع» بحث می‌کند و شامل این مباحث است: مراحل تـاریخیِ پیـدایش علـم بدیع، تحولات بلاغی و محدوده کاربرد آن از گذشته تا حال. سپس فنون بدیع را با استناد به آیات قرآن کریم و سخنان رسـول خـدا(ص) و امیرمؤمنـان(ع)، شرح و توضیح داده است.

مؤسسهٔ بوستان کتاب

مؤسسه بوستان کتاب

(مرکز چاپ و نشر دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیهٔ قم)

پرافتخارترین ناشر برگزیدهٔ کشور

نشانی دفتر مرکزی: ایران، قم، اول خیابان شهدا، نبش کوچهٔ ۱۷، ص پ: ۹۱۷

تلفن: ۹۸۲۵۱۷۷۴۲۱۵۵+ ، فاکس: ۹۸۲۵۱۷۷۴۲۱۵۴+ ، پخش: ۹۸۲۵۱۷۷۴۳۴۲۶+

اساليب البديع فى القرآن

سيد جعفر حسينى



۱۳۸۷

Abstract

This work is the third part of *Figures of Speech in the Quran*. It is aimed to study the science of figures of speech and covers issues as below:
Historical development of the science of figures of speech, and rhetorical developments and the area of its usage from past till now. Then figures of speech are explained with reference to the Quran, the words of the Prophet of God (May God bless him and his descendants), and the words of Commander of the Faithful (Salaam unto him).

The Publisher

Būstān-e Ketāb Publishers

Frequently selected as the top publishing company in Irān, Būstān-e Ketāb Publishers is the publishing and printing house of the Islāmic Propagation Office of Howzeh-ye Elmīyeh-ye Ghom, Islāmic Republic of Irān.
P.O. Box: 37185-917
Telephone: +98 251 774 2155
Fax: +98 251 774 2154
E-mail: info@bustaneketab.com
Web-site: www.bustaneketab.com

Figures of Speech in the Quran

Al-Sayyid Jafar al-Sayyid al-Husayni

Būstān-e Ketāb Publishers
1387/2008